

لِجَيِّدٍ وَعَدْلٍ كَامِلٍ

الْإِمَامُ

عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

عَبْدُ الْفَتَاحِ عَبْدِ الْقُصُودِ



مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الرِّفْقَانِ بِبَيْرُوتِ



www.haydarya.com

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء السابع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة الوقفان
بيروت

هدية الشهيد السيد
السيد من الدين بصر العلوم
لمكتبة الروضة العيدرية

٣٩٢٣٢



الفصل الأول

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بدر العلوم
مكتبة الروضة الشيعية

الى المدى الذى تستطيعه خطا التغافل المتثاقلة ، مشى الدواء
الذى استطب به ابن أبى بكر من محنة مصر على درب الوقت ، جنباً
الى جنب ، مع غد كسبح تبنته الكوفة !..

محنة مطوطة ، ودواء كأنه داء . وليل بلا صباح ..

ولم تكن الحاضرة الاسلامية ، حينذاك ، تشكو من عجز أو من
قلة . فجمعها غفير ، وخيرها كثير .. ولكنها بدت كالمضيّع في بيداء
قد مسه جنون الظما ، فحار ابن يتجه الى الماء . اذا لاحت لعينه مظاهر
الحياة في بقعة بين اثناء الرمل ، خايله بها شبح الهلاك وقد ظنها صورة
موهتها يد السراب . واذا طالعه وهمه بخضرة نضرة ، ظنها واحة
فيحاء فيها ما ينقع صداه . فهو بين الحقيقة التى تريبه ، والسراب
الذى يستهويه ، لا يننى يحرك الخطا على تردد ، يقدم ليحجم ، ويقبل
لينكص ، ثم لا يجاوز آخر الأمر ، مهما جد في السعى وأسرفت عليه
قدماه بالطواف ، غير دائرة التيه !..

تلك آونة سيطر الضياع فيها على دولة الامام بما رحبت وبمن
ضمت من جماهير كثيفة من سكانها في كل مكان .. في الكوفة والبصرة .
في اليمن والحجاز . في مصر وفارس . في الشغور والاطراف . لا فرق
في جموعهم بين عامة وسادة ، رعية وحكام ، همل وأشراف ..

أمة أخذتها غفوة فنام فيها الشعور وهمد التفكير .. لا مبالاة
ولا اكتراث . تعيش واقعها الثقيل صاغرة كأنه قضاء نازل وقدر
محتوم . وترنو الى الأحداث بعين مطبقة الجفون مسترخية الاهداب .
وتجرفها الدنيا في تيارها الهادر الى غد تعلم حق العلم أنه ظلم أو أنه
ظلام فلا تحاول ان تنهيا للقاء الكريه المنتظر وفي يمينها سلاح
أو ذبالة مصباح !..

وياما كثر على سنتها الكلام !.. وياما توات الوعود والعهود !
ولكنها ظلت دائماً حريصة على الإخلاد للواقع ، والالتصاق به ، كأنه

الحياة ولا حياة سواه .. تماما كالحالم يغزو أقطار الأرض ، ويشل عروشها ، ويطا بقدميه المعربدين صوالجها وتيجانها وهو ملتحف بدفء الفراش !.. تماما كالثمل يستعلى على الناس ، ويستذلهم في رؤاه المخمورة ، وهو يتمرغ عند مواطنهم في الوحل والتراب !..

أيام طويلة تمضي والموقف هو الموقف ، والوضع هو الوضع بلا تغيير .. الوعود تثرى ، ولكنها دائما حبيسة قول معسول . الأقدام تتحرك ولكنها دائما لا تسير . السلاح يجتمع ولكنه دائما في الأغماد .. ومالك بن كعب من ورأئهم يستحث التنفيذ فلا يظفر إلا بالموعد الذي لا يحين - بكلمة « غدا » ، وغدا كما هو معلوم ، موعد يتجدد ، ويتأجل الى الأبد الأبد ، مع كل نهار !..

ولم يملك الإمام إلا الصبر ، أو هو لم يملك سوى القنوط . وما حيلته في هذا البلاء الداهم الذي يحييه في مجتمع لا يجمعه رأى ، ولا تفضيه حمية ، ولا يحمسه دين ؟.. ما قصاره والقوم يتشبهون بالدعة لأنها تهبهم الحياة ، ويؤثرون العيش وإن تلمسوه في كنف الخزي والدل والهوان ..؟

وبذلك انقضى الموعد المضروب على سيرهم لمصر مع مالك بن كعب لنجدة عاملها ، والانتصاف لاهلها وأرضها من عدوان الشام . فمصر عندئذ تحفها المكاره ، وسيرهم اليها يسلبهم الدعة ، والقتال عليها - كأي قتال - هو في حسابان ضمائرهم الفاقية وجه مكروه . ولو أنك استبطنت دخائلهم اليوم ، لرايتهم يكرهونه ، ويقعدون عنه ، وإن دوهموا في الكوفة بجيش صغير !..

شهر من الزمان فات على الوعد والأعداد عاشه ابن أبي بكر في جحيم الانتظار .. لا اثر لنجدة . لا ظل لندوب . لا كلمة تقبل عليه من صوب الكوفة تبشره بجيش الانقاذ . إنما الأنباء تأتيه سراعا بتقدم عمرو على أرض النيل بأعداد من الجند لعل القلق في خياله ضاعفهم بضعة أضعاف . وبجموع من الشائرين عليه ، يلحقون بهم ، أو يزودونهم بالمون والسلاح ، ويبسطون أمامهم ما جهلوا من فجاج ودروب في تيه الصحراء وعلى التربة الخضراء .. ومع ذلك فقد نشر الفتى ما بجمعبته ، ونشط ومن معه لساعة الفصل ، وإن جهد وسعه ليستأخر بها حتى حين عسى الأيام أن تطلع عليه بأمله قبل أن تحين !.

كالبخيل الذى يمسك كفه ، وينفق بقدر مقدور لا يجاوز الكفاف ، أطلق الفتى جيشه للقاء المغيرين . لم يلقيهم بكل حشده ، وان كان ذلك « الكل » لا يكاد يعنى شيئا في منطق الحروب ، ولا يكاد ايضا يعنى امام قوة عدوه التى بارحت الشام لتعز عدة ونفرا بالدين استلحقت وأزروها من النافرين والمتقضين ووعالب خريتا التى ابرزت مخالبا وخرجت من أوجرتها مسفرة بعد طول انجحار .. سرح محمد بن أبى بكر الى جيش عمرو مقدمته ، في ألفين ، عليهم كنانة بن بشر ، كأنما يرجو بهم أن يناوش القوم ويؤخر تقدمهم ما وسعه التأخير حتى يقدم عليه المدد الموعود . ولقد أصاب حين فعل ، لانه لاءم بين الأمل ، والقدرة الممكنة ، وظرف اللقاء . ولقد أصاب ايضا ، لان غريمه سلك حياله مسلك مخدوع فلم يرمه بكل قوته وهى عندئذ طرفان حرى بأن يفرق قوة الدفاع ، وينهى المعركة في سوية يفتح امامه بعدها الطريق الى القسطنطينية .. لكن ابن العاص ، فيما بدا - عن هيبة أو عن تريث - أثر أن يدنو على حذر ، كأنما ليتحسس الأرض تحته أو يسبر غور خصمه ، أو ينتقص رويدا رويدا من مقاومته ، فراح يرميه بكتائب الشام : كتيبة كتيبة ، أملا في نصر رخيص لا يكلفه سوى القليل ..

موجة بعد موجة توالت الهجمات الشامية على جيش الدفاع الصغير فاذا هى تتكسر على صخرته ، ثم ترتد لتنحسر ويهدأ الصراع فترة ليثيب من جديد . ما تقدمت كتيبة منها الى الجيش المصرى ، تحاول أن تقتحم عليه موقعه ، الا ثبت لها ابن بشر برجاله ثم ضربها فأعادها مقهورة إلى ما وراء الشقة الحرام . وما تراجع كتيبة بعد فشل ، تلعق الدم ، وتضمد الجروح ، وتلتقط الأنفاس ، الا تقدمت أخرى الى الميدان تحاول بدورها كسر حدة الغريم العنيد . لكن كنانة ابن بشر لم يكن لينكسر ، ولم يكن لينكسر وينقلب على عقبيه ، وأمامه شهادة أو نصر كلاهما تشتت به نفسه ، زيادا عن الحق ودفعاً لقوى الباطل أن تنتصر وتسود .

واخذت مراحل ذلك الصراع تتعاقب حلقات متشابهة في سلسلة طويلة بلا مدى معلوم . فلا الهجوم ينتصر ، ولا الدفاع ينكسر ، ولا أى الفريقين يجول بخاطرهم أن يطفىء سمر القتال ، أو يجنح لراحة في هدنة مطلقة أو محدودة يكف عنه ، أبداً أو الى حين ، عوادي الهلاك .

إنما مضى الموت ، على ظبا الأسنة ، يتخطف من شاء من هنا ومن هناك .
وراحت الخسائر في الأرواح والسلاح ، تنتقص من الجيشين ما شاء
لها الأضرار .

وكانى بعمره قد ايقن أن خطته تلك غير مبلغته غايته من النصر
الرخيص الذى ارتجاه .. لعله توجس أن يكون وراء هذا الثبات
العنيد خدعة ينكشف عنها طول أمد القتال . ربما لمح بارقة خطر ،
أو خشى أن يطلع الغد عليه بمدد يؤازر عدوه فيهدم رجاءه ، ويتكسر
لواءه ، ويسلمه وجيشه العادى إلى مصير مهين ..

كيفما كان تقدير الرجل آنذاك فإنه مل لعبته ، أو خطته ، وركبه من
ملله تطلع الى حسم الأمر بما لا يدع مجالا لنشوء احتمال آخر ، غير
النصر ، يلون النتيجة . وما كان له الا أن يسارع بذلك بعد أن تكرر
ارتداد كتائبه ، وتكسرت أمواجه تباعا على صخرة المقاومة العنيدة .
وماله اذن لا يدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، والأمور قد جرت أخيرا
بما اشتهى فاكتمل له ، من خارجة مصر ، جند كثيف ، كأنه الجراد ،
لو انه انتشر على أديم الموقعة وخلق بينه وبين عدوه لاجتثه وما ترك
منه عودا أخضر ؟ ..

وعلى الأثر بعث الى معاوية بن حديج الكندى ، يستمده ويستنجد
به من الموقف المتميع الذى وضع فيه نفسه واجناده .. فان هو
الا قليل حتى جاءه الرجل ، في أعداد من أنصاره مثل الدهم ، يزحمون
الميدان ، ويسدون على القوة المصرية المدافعة منافذ الخلاص من
كل ناحية ..

حتى الحركة لم تعد ميسورة لفرقة الدفاع . وحتى الارتداد
لتقويم الخطوط وتنظيم تكتل متماسك يكر على العدو من بعض اطرافه
لم يكن في الطاقة .. فقد رمت الخارجة بكل ثقلها في وجه كنانة ومن
حوله . وضغطت عليه ضغطا شديدا التصق فيه الناس بالناس .
وحطت تغشيه من أقطار ساحة المعركة ، تماما كما يحط الجراد
على شجرة خضراء يغطى الجذع والورق والفروع ثم لا يطير عنها
الا وهى خشبة يابسة جرداء ! ..

ولم يجزع ابن بشر . ولم الجزع وهذا احد أمليه يأتيه ؟ ..
الشهادة الآن على كذب منه . الجنة تخايله وتناديه ، وليس بينه

وبينها الا ان يثبت حيث كان ، يستقبل الموت وهو راض قرير ..

ونشط للجحافل الكثيفة ومن معه من بقية المدافعين يحاول ان ينقب سورهم الادمى ويهدم جدره ما وسع سيفه ان يضرب ، ووسع فرسه ان تثبت على قوائمها ، وتتحرك به في تلك الرحلة القصيرة الميته .. انه يكر ويرمى بنفسه على عدوه فاذا الكرة ترجعه ولا تدفعه الى الامام كأنما يصطدم بمطاط ..! وانه ليثغر في صفوفهم فاذا الثغرة التى يفتحها تلتئم على الفور كأنما هو يحفر في ماء ..! حتى اذا رأى فرسه عجزت عن الحركة ، لفرط تراحم عدوه عليه ، وثب عن ظهرها الى الارض ، وارتمى على الحشود المطوقة يعمل فيها سيفاً يتحرك كشیطان ..!

واخذ يتلو وهو يضرب في ذلك السور الادمى المنيع :

« وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا .. » .

وملكت سورة القتال اصحابه فنزلوا جميعا نزوله ، يخالطون عدوهم ، وينازعونهم مواقع الاقدام . وتفشيت الموقف غاشية من الاضطراب والغموض لا يكاد احد يعرف في ظلامها مدافعا من مهاجم ، ولا وليا من خصم ، ولا بشائر نصر من بوادر هزيمة .. فالصراع لم يعد معركة حربية تحكمها قواعد التنظيم وتناسق التحركات بقدر ما غدا لقاءات عشواء او شبه عشواء ، تشتبك فيها اليد باليد ، ويصطدم الجسد بالجسد ، ويصطرع القوم في نطاقها على الشبر من الارض ليتيح للرجل منهم موضعا لقدم واحدة تحمله ، وعلى كوة في جدار الاجسام الملتصقة المرصوفة ، تفسح له في نشقة هواء ..!

غير ان الايمان والشجاعة والاصرار لم تكن وحدها العوامل التى ترجح كفة كنانة ، وتشيل كفة ابن العاص .. فلقد فرغت الجعبة ، وجف الزيت ، وأخذت الذبالة تترنح وهى تخفق خفقاتها الاخيرة .. لم تعد في المقاومة بقية جهد ولا ذماء طاقة . حانت الخاتمة . حم القضاء . جاءت الشهادة تجتبي الاخيار ..

واستشهد ابن بشر وهو على تل من الجماجم ..! فلو استطعت عندئذ معاينة سيفه ، لوجدت على شفرته قطرة دم من كل قتيل . ولو استطاعت جثثهم ان تنطق ، لعابته على حدة الطعن وعبقرية

القتال !.. واستشهد مع القائد الباسل جمع جم من رجاله خلا
بموتهم الميدان وفتح الطريق امام العادين ..

وعندما وسع ابن العاص ان يسترد بعض نفسه المبهور ، وينقشع
عنه كابوس غمة الدفاع الرهيب ، ثم يتحرك ليفضى ببقية من معه
إلى مؤخرة جيش مصر ، لم تكن ثمة حياله مقدمة ولا مؤخرة ، لأن
القتال التهم من ثبت ، والهزيمة طارت بمن امتد به أجله ، وطوحته
بعيدا ، بعيدا ، عن الميدان .

عن ابن بكر ، بعد أن مات كنانة وتقطعت الوسائل بقيادة
الدفاع ، انفضت بقية جنوده ، وتفرقوا فرادى وقد أعزل الموقف
بهم ، وأيسوا من جدوى الثبات والمقاومة دع توقع الغلبة
والانتصار . بل لعلمهم وجدوا الثبات عندئذ عصيا عليهم ، لا يداني
نطاق القدرة وان دخل في نطاق الرؤى والأحلام !.. بل لعلمهم
— والألوف المعادية تضغطهم — رأوا انهم على حافة منزلق لا يملكون
عندها غير التردى من عل في هاوية بعيدة المهوى ، غائرة القاع !..

تلك كانت الحال ، وذاك كان السلوك الذى سلكه جيش ابن أبى
بكر والستائر تنسدل على « المنشأة » كمعركة مصر .. وإذا كان
القدر قد شاء فان مشيئته لم تكن غير صدى لهمة الكوفة وأهلها
القاعدين !.. وإذا كانت بقايا الدفاع عن مصر قد أكرهت على التفرق
والانسحاب من الميدان . فان كنانة بن بشر كان خير أسوة لهم لو
انتفعوا بالقدوة ، فعقدوا العزم وتمسكوا بالثبات . وإذا كانت ظنونهم
قد خالت التشبث بمواقع الاقدام يعد مصرع كنانة ومحنة قواته
محالا من المحال ، فان الشهادة — في حالة ابن بشر ، وفي كل حالة —
ليست ضربا من المحال !.

طبيعة البشر ، بلا شك ، أضافت سطورا - عبارة - كلمة واحدة - إلى سفر الأسباب التي أدت إلى هزيمة جيش محمد بن أبى بكر ، ذلك اليوم من صفر ، في « المنشأة » على مسافة غير بعيدة من القسطنطينية . فنفره قليل وعدوه وفرة كاثرت بهزيمة ضعاف . . وضغط الواقعة عليه فاق قوة الاحتمال . والرجاء في نجدة عاجلة نشد أزره لاح أعصى من المحال . . . واليأس المضيع ، الذى يشق عليه الصبر ، حين تبدى له ثغرة في سور الموت المحيط به من كل جانب ، لا يحركه عندئذ عقله ، وانما تقوده غريزة حب البقاء . .

على هذا النحو أصبحت بقية القوة الدفاعية بعد تلك الأمواج الهادرة المتلاحقة من الهجوم ، وبعد طوفان خارجة خربتنا وانصار الشغب وسيطرتهم على ساحة القتال . . ولا لوم هنا على رجال ابن أبى بكر حين ينفضون أيديهم من قتال لا غناء فيه ولا جدوى لهم من ورائه - طال أو قصر - غير الهلاك ، ما دمنا نقيسهم بمقياس الطبيعة البشرية ، التى تدور في فلك « الممكن » لا في فلك « الأمل » الذى ينبغى أن يكون ! . . ولا لوم أيضا على محمد لو أخضعته هذه الطبيعة لسلطانها ، وجرفته بعيدا عن ساحة الموت إذ يتلفت فإذا المكان حوله خال ، قد هجره أصحابه ، فلا ناصر ، ولا رفيق . . .

شريدا مضى الفتى عن موقع القتال ، يضرب في الأرض على مهل أو على ذهول ، إلى غير غاية . . وهل من مقصد لتائه مضيع ؟ . . وهل من هاد لوحيد حيران ؟ . . بل لا يفرق بين مشرق ومغرب ، نهار وليل ، أخضر وجذب ، معمر وخراب . . وعينه انطمس ، وجمرة فكره تحولت إلى رماد . يتخبط في ظلمة . . يهيم في ضياع . . يفكر بتقديمه ؟ . .

أهل الكوفة أيضا كانوا يفكرون بالقدم الضالة التى لا تعرف الى ابن تيسير ، فاما كابن أبى بكر وان اختلف بينه وبينهم المعيار ، اذ تكرهه طبيعة محتته وتتحكم فيه ، بينما يصرون هم ، في سلوكهم الزائغ ،

عن اختيار!.. فما حركهم حدث . ولا حمسهم خطر ، ولا القوا
السمع لدعوة داع تحثهم على العمل ، وتبصرتهم بعواقب الجمود
الذى آتروه .. وحتى حين حفزتهم النخوة اخيرا ، وشاءت لهم أن
يلبسوا رداء المروءة ، كان كل قصاراهم بضع مئين غاية ما يقال عنهم
إنهم « لافتة » جيش ، أو « شعار » يعلن عن الرغبة في النجدة - مجرد
رغبة ! - وليسوا بقوة حربية فعالة ، تستطيع أن تؤثر في مصير معركة
النيل ..

كانوا نوعا من التظاهر بالانصياع لأمر الامام ، والولاء الذى
لا يستبطن الطاعة الجدية وإن خلع ثوب العصيان!.. أم لا جدواهم
ولما ينتظم لهم عقد إلا بعد مرور شهر وبضعة أيام على دعوة الاستصراخ
والاستنجد!.. ما جدواهم وانهم لالفان يعلمون حق العلم أن
اجتيازهم مراحل السفر البعيدة الى مصر سيضعهم في مواجهة عدد
يقارب ثلاثين الفا كلهم مطيع مصابر عنيذ!.. فان يكونوا تخيلوا
القدرة على المواجهة ، أو غرهم في أنفسهم شيء ، أفكانوا يحسبون
الأحداث رهن مشيئتهم ، تجمد حيث هى فلا تتحرك الا اذا تحركوا
وشدوا معهم الشمس لتسطع على ساعة اللقاء التى يريدون!..

بل هو وهم ما خالوا ، وعبث ما فعلوا ، وهباء وقبض الريح
ما توقعوا أن يكون!.. فالمقدمات هى التى تنجب الخواتيم . والعاقبة
مرئية معلومة ، لكل إدراك ناقب نابه أو ساذج غرير . والفاجعة
مقدورة محتومة ، من قبل أن تتحرك اليها قدم ، أو تطيف بموقعها
عين .. وكفاهم دلالة عليها ، أن الإمام إذ خرج يشيعهم . قد أقتحم
جمعهم المتدائب القليل بعين غائمة ، وهتف في هدوء حزين :

« سيروا .. والله ما أنتم!.. ما أخالكم تدركون القوم حتى
ينقضى أمرهم!.. » .

فانطلقوا ..

لكنها انطلاقة الكرة من المطاط لا تلبث أن تعود ادراجها حيث
كانت حين يستقبلها جدار!.. فإن هى إلا خمس ليال يسيرونها بين
اثناء الرمل على دروب الصحراء ، حتى كان القدر قد أبرم قراره ،
وجاء بنبئه رسولان من الشام ومن مصر يحملانه إلى الكوفة ..

من الشام قدم عبد الرحمن بن مسيب الفزارى ، وعلى وجهه
ذهول المبغوت ، فدخل على الامام يخبره الخبر .. كان الرجل عينا
في الارض الاموية لعل ، يشيم الأخبار ، ويستقرى حركات القوم
وسكناتهم ليقضى إلى صاحبه بما تكن أو تعلن ، ليكون من أمرهم على
بينة .. فلما دهمه أمر المنشأة ، تسلل ليل يحث مطيته إلى
أمير المؤمنين ..

قال يرسم مشاهده :

« .. ما خرجت من الشام حتى قدمت البشرى اليها من قبل
عمرو بن العاص ، يتبع بعضها بعضا بفتح مصر .. » .
ثم ؟ ..

« .. وقتل محمد بن أبى بكر .. » .
ثم ؟ ..

« .. واذن معاوية على منبر دمشق بقتله ؟ .. »

سلسلة طويلة من الهم والوصب والعذاب طوت مراحلها بضع
عبارات مجردة جافة لا تكاد تفصح عما لعل الفتى عاناه ، أو تومىء
الى صدى الدوى الذى تفجر في نفس السامع وهو يصفى بأذن مرهفة ،
ووجه جامد متوتر الأسارير .. ولكنها لا ريب كانت طعنة مصمية
تمزق القلب وتحطم الكيان .
واكمل الفزارى حديثه :

« .. ووالله ، يا أمير المؤمنين ، ما رايت قط سرورا مثل سرور
رأيت به بالشام حين قتل محمد .. » .

فلم يزد الامام على أن خفض رأسه ، كأنما ليخفى عن صاحبه
دمعة أسى همت أن تنحدر على وجنتيه ، وهو يقول :

« .. لقد فقدنا حبيبا ، وفقدوا بغيضا ! .. أما أن حزننا على
قتله لعل قدر سرورهم به ، لا ، بل يزيد أضعافا .. » .

والكلام ، أبلغ الكلام ، لا يستطيع في مثل هذا المقام أن يصور
العاطفة ، أو يكون أداة قادرة على التعبير . هو عندئذ أشبه بمرآة

نقية الصفحة ،. ينعكس على صقالها الشكل عن الأصل ، دقيقا واضحا بكل تفاصيله ولكنه لا يزيد بعد عن مجرد صورة بلا حياة !.. وهل يسع عبارة ما أن تنقل تفجع الامام على محمد ، وتلم بألمه أو تبلغ مداه ، وما كان منه كولده بل كان ولده حقا بكل المشاعر والأحاسيس والمقومات المادية والنفسية التي تربط الابن بأبيه ؟.. وإذا كانت بنوة الولد ، فعلا للفراش ، وبالنطف ، ومن الأصلاب ، فإنهما أيضا تكون بالصلة الروحية والتربية والرعاية .. وإذا كان محمد ولدا - بالدم - لأبى بكر ، فإنه كان أيضا للإمام ولدا - بالحضانة - منذ يتم وهو طفل ، وآمت أمه أسماء بنت عميس ثم دخلت تحت على زوجا بعد ترملها بقليل .. فالتفتي من طفولته أوى الى ظله .. شب عن الطوق في حجره .. روى من عطفه وحبه .. عاش واحدا من أبنائه لا يعرف أبا غيره ، حتى لقد كان الامام نفسه يقول عنه :

« محمد ابنى من صلب أبى بكر .. » .

.. ومن مصر قدم الحجاج بن شزية الانصارى ، وعلى وجهه وجمة الناعى .. كان أحد رجال محمد ، صحبه بها ، وعاش معه ، وشهد مشاهدته ثم غاص واياه في قاع المحنة .. فلما وقعت الواقعة ، وهاض الدقاع ، وتلبس الأفق بالسواد ، ثم تفرق عن عامل مصر أصحابه وراح مشردا يهيم في الأرض حتى عاجله مصرعه ، أفلت الحجاج بحياته ، وأقبل ، والفاجعة ما زالت تملأ قلبه وعينييه ، ليروى لأمير المؤمنين الخاتمة المرة ..

وما كان مصرعا كالمصارع ، ولا فاجعة كالفاجعات .. وكيف يكون ، وقد اقتلع فيها الانسان قلبه الأدمى ، وتجرد من بشريته ، وأبرز الظفر والناب ليغزو وحشا كأقسى ما تستطيعه وحشية الحيوان ..؟

نيس غير الدهول ما نعله ران على الامام في تلك اللحظة وهو يصفى إلى القصة المحزنة . وليس غير التفجع على نكسة النفس البشرية ، واتحداها الى قعر الشر .. لكنه عرف كيف يحكم تقززه ، ويعالج شعوره بالغثيان ، وهو يصبر النفس ويوطنها على تقبل المكروه ..

وهتف متجلدا وقلبه يذوب :

« رحم الله محمدا .. » .

وعندما وسعه من بعد ان يخلو الى افكاره ، ويسترجع في باله
صور الأحداث التي أدت الى المصراع المفجع ، همست شفتاه :

« رحم الله محمداً .. كان غلاماً حدثاً .. لقد كنت أردت ان
اولى المرقال هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله ، لو وليها ، لما خلى
لابن العاص واعوانه العرصه ، ولا انهزم الفرصة .. ولا قتل
الا وسيفه في يده .. » .

غير انه ما لبث ان نفذ الانسياق في التحسر على ما لا سبيل له
إلى اسرجاعه لأن « ليت » لا تصلح الأمور ولا تمنع المحذور المقدور ..
ثم استدرك وقد أخذه حنانه ينتصف للصريع :

« بلا ذم لمحمد ؟ .. فلقد اجهد نفسه ، وقضى ما عليه .. » .

ولم يبرحه بعدها جزعه على الفتى حتى لقد كان هذا الجزع
- وإن جهد لإخفائه تصبراً ومجالدة - يظهر في وجهه وحركاته ..
وكم تحدث القوم بالأمر ، وكم حدثوه فيه رغبة منهم في كفه عنه
والتهوين عليه ، فيقولون :

« لقد جزعت على محمد بن أبي بكر ، يا امير المؤمنين .. » .

فلا ينكر ، ولا يعتذر ، بل يقول :

« وما يمنعني ؟ .. إنه كان لى ربيباً ، وكان لبني أخا ، وكنت له
والداً أعده ولداً .. » .

ونعاه إلى الناس ، وهو يعلن عليهم اغتصاب مصر ، فيحسن
الثناء عليه ولا يعفيهم من جريرة الكارثة . بدا فقال :

« .. الا وان مصر قد افتتحها الفجرة ، اولياء الجور والظلم ،
الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الاسلام عوجاً .. الا وان محمد
ابن أبي بكر قد استشهد رحمه الله وعند الله نحتسبه .. اما والله لقد
كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ،
ويحب سميت المؤمن ... » .

ثم عرج عليهم :

« .. وانتم القوم لا يدرك بكم الثار ، ولا تنقض لكم الاوتار ! .. »

دعوتكم إلى غياث اخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فخرجتم على جرجرة الجمل الأسر ، وتشاقلتم إلى الأرض تشاقل من لا نية له في الجهاد . ولا رأى له في الاكتساب للأجر . ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون !.. » .

ولقد بلغ من حزنه أن كاد يعتزل الناس لا يخالطهم ولا يضمهم وإياه جمع ما وسعه أن ينأى عنهم ويعزف بنفسه عن اللقاء ، ضيقا بهم ، وزهادة فيهم ، بل قد بلغ منه أن برم بالحياة وود لو عاجله أجله فيرحمه ليغيب عن دنياهم إذ الموت خير من صحبتهم هذه التي تشقيه وتثقل عليه ..

بعث عندئذ إلى ابن عباس يكشفه شعوره :

« .. استشهد محمد بن أبي بكر .. وقد كنت كتبت إلى الناس ، وتقدمت اليهم في بدء الأمر ، وأمرتهم باغائته قبل الواقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، عودا وبدءا ، فمنهم الآتى كارها ، ومنهم المتعلل كاذبا ، ومنهم القاعد خاذلا .. أسأل الله أن يجعل لى منهم فرجا ، وأن يريحنى منهم عاجلا .. فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوى في الشهادة ، وتوطئنى نفسى على ذلك لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا .. » .

لكن لا غناء في حسرة ، ولا جدوى في جزع ، ولا دافع لبلاء حل فدهم ، ونزل فقصم .. فمصر ذهبت إلى غير عود ، واجتزت من دولته كما تبت الساق التي لا قدرة بغيرها لصاحبها على الاستباق !.. اقتطعت مصر وانها - بقوله - أعظم من الشام ، وخير أهلا ، بقاؤها في يديه وأيدي شيعته عز لهم ، وكبت لعدوهم .. واحتجب ابنائها عن طاعته وتثبيت أمره وإنهم لدعامة قوته ، وأحسن أجناده .. وأسدل الستار بها على محنة محمد بن أبي بكر فإذا هى محنة مصر ، ومحنة الأمة الإسلامية ، ومحنة القيم الإنسانية .. وإذا هى فصل من فصول الرواية ، يستشرف الخاتمة ويؤذن ببداية النهاية !..

وهذه هي الفاجعة ..

بلا رفيق مضى محمد على وجهه ، يهيم في الفضاء الرحب الممتد
حياله الى مدى الرؤية مطموس الخطوط مبهم المعالم تذوب حدوده
في محيط الأفق الأشهب المطبق عليه .. بلا رفيق من صاحب يؤنس
وحشة ، ولا من قلب يستشعر ثقة ، ولا من ذهن يتطلع لغاية ..

كان جزءا من الفراغ الذى سرح فيه . ومن الصمت الذى علق
بالجو كقطرات بخار . ومن الركود الرهيب الذى سيطر على المكان ..
وما عسى يبقى من امرىء سلب الهدف والوعى والرجاء ..؟

خيال حياة ! .. هيئة ذات ابعاد وأعماق ، بسطح ، ومظهر ،
وحجم ، وباطن أجوف ملؤه خواء ! .. هيكل بشر : بالشكل ، بالسمت ،
بالقوام ، بالاهاب ، بالشباب ! .. كأنه ظل . كأنه عود غاب ! ..

وعلى مدارج الرمل انسابت قدماء تطويان مسافات ليس يدرى
أهى مفضية به الى شرق أم غرب ، أمام أم وراء ، مكمين هلكة أم مورد
نجاة .. وفوق طين الحقول ترنحتا بخطا ذاهل ، مشلول الوعى معطل
الارادة .. فلو انه عندئذ أدرك لعرف أنهما تكادان تلتويان تحت ثقله
وتتقصان ! .. ولو أنهما أيضا أدركتا لثبتتا به — من اعياء — لا تبرحان ! ..
لكنه مضى بهما يقطع مراحل الوقت والمكان بحركة آلية قسرتة عليها
قوة دافعة مجهولة لعلها غريزة حب البقاء ! ..

غير أن الجهد الذى أضناه ، بعد طول السرى والسير ، عطل
الآلة ! .. فالتعب استنزف القدرة . والرمل برى القدم . والطين
اثقل الخطا ، ولفح الهواء الساخن في قيظ الصيف المصرى لف جوارح
البدن كلها بالخمول ..

وزحف على لهثاته إلى موئل ظليل ! ..

عند منأى بعيد عن الطريق المطروق ، على حافة الخلاء ، تبين

طللاً يتداعى ، ما زالت به بقية من « روح » تمسك بعض جذره البالية
— كالثوب الخلق — أن تنهار .. الى هذا الحطام رنت مواجهه ،
واضطربت تحته رجلاه وهما نخطان في الأرض إذ يجرحهما معه كما
تجر غرارتى رمل ينوء بثقلهما العزم وينقسم الظهر وتنهر الأنفاس ..
ونحت أثر من سقف لا يكاد يسر عن العين طلعة السماء ، أوى بالمكان
إلى ظل أرقط نقطت صفحته الداكنة بقع بيضاء من نور تسللت من
ثقوب السطح الأخرم .. وعندما وسعه أن يفرش الظل ، ويلتحف
بعض الشعاع المنحدر ، عزف بسمعه عن أنين عظامه وراح في سبات .

في هذه الخربة التى انتهى اليها شروده ، انطوى محمد بن أبى بكر
على محنته ، ونامت عيناه ، لا يجاوره في ملاذه الموحش — مع الفراغ —
إلا قدر يقظان ! .. فما خابته في الوحدة رؤى نعاس ، ولا أحلام تطلع ،
ولا ذكريات غابر .. وانى له ووعيه المحطم المنهوك قد فقد القدرة على
الحركة ليخرج من نطاق عالم الخمود الذى عاش — بل دفن ! — تلك
الآونة فيه ؟ .. وإذا كانت الراحة عندئذ قد قربت رويدا رويدا إلى
أوصاله ، واخذ بدنه المتهالك يمتص منها على مهل كما يمتص الجذر
الظامى قطرات الماء من بين الصخر ، فانها الراحة التى يغلب المرء
عليها وتسير في جسده بالخدر سير طليعة تفسح الطريق فيه للهمود
الآخر ! ..

فكم بقى محمد من ساعات بموئله المهجور ؟ .. وكم لان تحته
الحصا والتراب ؟ .. وكم نعمت بمرقدها الخشن عظامه ، ورقأت بعض
دمع الأنين ؟ ..

فترة من عمره لعلها برهة ، ولعلها سويعات ، ولعلها فوق هذا
أو دونه وإن كانت لا تحسب بمقياس الزمن لأنها لم تكن في مجال
الشعور ! .. لكنها ترجمت لبقاء موقوف ، وارتبطت بموئل — قصر
أو طال مكنه فيه — ليس بالخافي البعيد عن « الجار » اليقظ ، ذى العين
الساهرة أبدا التى لا تغفل ، واليد الطولى التى لا نحد ذرعها أميال ! ..
وكيف لا وهذا قدره معه ، قد استدرجه الى مستقره ثم تركه يأمن
ما شاء وانه ليتربص به لحظة الأجل المحتوم ! ..

ولم تتلكأ عليه النهاية .. فالطريدة أثخنها الإعياء . وكلاب الصيد
ذات أعين يواظظ ، وآذان لا قطة ، وانوف مرهفة ، ترى بها الدر

والهباء في فحمة الليل ، وتسمع ديبب النملة في هدير العاصفة ،
وتشم الريح على مدى المراحل ..

ما كان بعسير على العدوان أن يطلق نغمته وراء الفتى ، تتابع خبره ،
وترصد اتجاهه ، ونشم حركاته .. وللعرب عامة قدرة على اقتفاء
الأثر ، ليس يعيها أن تقر ما خطته مواقع قدميه أينما سار ، على
الرمل وفي الطين ، لتعلم أين أفضى به الفرار ..

لكأن بعض ريح الجنوب قد أسفت غبارها فطمست المواقع ..
أو كأن جيرة الطلل كانت من مدر ليس يحفظ الأثر .. فالمكان أخرس .
وحجارة الخربة المتناثرة فوقه صماء . والأرض حولها بلا وشم
ولا علامة ، كصحيفة في يد أمي لا يعرف كيف يمسك بقلم ! .. والكلاب
المسعورة التي تراحمت على الأديم الأجرد ، تلف وتدور في ضياع
وحيرة ، كأن كل واحد منها كان يحاول أن يلحق بذيله ! ..

لكن كبير الكلاب لم ترده هذه الصورة من الخواء عن السعى
الدائب لإشباع نغمته .. بإصرار عنيد راح معاوية بن حديج ، زعيم
خارجة مصر ، وصاحب فتنها ، يتابع أثر الطريد . على مدى
المسافات تابعه ، ومد البصر ، وشطحة الظنون ! .. وأينما وسعه أن
يحرك قدميه ، أو يوجه رجاله ، أو يتخيل مكانا يؤمه شريد مذعور ،
راح يستقرئ السمات ، ويفتش الحصى والصخر ، وينشر الأرض
ويطويها وهو يكاد ينفذها نفذا كأنها بساط ! .. وعندما خذله جهده ،
وقصر خياله عن تلمس الملاذ المجهول ، أخذ يستشفه في إخلاد كل من
لقى من عابري الطريق ..

ما ترك معاوية عندئذ أحدا عرض له في طوافه إلا سأل ، ثم
استفسره ، ثم ألح عليه بالسؤال والاستفسار وهو يجمع الكلمة إلى
الكلمة ، ويزن الرد بالرد ، ويصفى القول بمصفاة الشواهد والاحتمالات
لعل خيطا من ضوء ، ولو كبصيص جمرة ، يقوده إلى ما يريد ..

ولم يمل التجوال ، ولا أسامته الخيبة . بل قد كان عناده يتجدد
كلما باء من بحثه بفشل يبعد محمدا إلى حين عن برائته وأنيابه ، كأنما
الفشل المتوالى كان وقودا لنغمته يؤرث نارها الحاقدة ويريدها التهابا
وفورة . وهل لباله أن يهدأ ، ولعينه أن تطبق جفنيها على طمانينة

وغريمه ما برح حر الحركة مطلق السراح ان اختفى اليوم فانه في غد خليك بئن يظهر في صفوف جديدة من اعوانه تتناثر في جوانب الاقليم وتكون مراكز مقاومة تتصدى للجيش الغازى ، وتترصد له بمراصد الهلاك ؟ ..

وان اخيرا لبذرة الحقد ان ثمر ، فاذا ابن حديج يبلغ من الخلاء ناحية على صفحتها اثار أقدام ما زالت ندية لم يطمسها الزمن ولا سفت عليها الريح .. عندئذ عاوده امله ، والحت عليه احقاده ، فاقتفى الاثر على بحر من عرقه ونبضات أنفاسه المشتعلة حتى افضى به السير الى جماعة من علوج الروم تخذل الى الراحة بأعلى الطريق . فما أسرع ما التقط الخيط ! وما أسرع ما كان بينهم ، يرميهم بعين صقر ، ويتفحصهم بنظراته ! .. فلما تبين ان ابن أبى بكر ليس فيهم ، راح يحاورهم ، ويتقصى الأمر .

وسألهم بعد طول استقصاء :

« أرايتموه ؟ .. » .

قالوا :

« لا » .

قال :

« هل مر بكم احد تنكرونه ؟ .. » .

قالوا :

« لا » .

وأوشك ان يرد طرفه عنهم ، وهو حسير ، ويعود أدراجه ، لولا أن الكلمة التى تحسر المد ، وتنحرف بالتيار ، وتغير المصير قفزت فجأة على شفتى علق منهم ، ينفثها عفوا وهو لا يكاد يدرك لماذا يقولها ، وما اثرها في عقبى الأمور ..

قال العلق ، بلا مبالاة :

« انى دخلت هناك ، فاذا رجل جالس .. » .

وأشار إلى الخربة ..

عندئذ انتفض قلب ابن حديج ، وبرقت عيناه ، ثم طارت به قدماه إلى الطلل البالى وما انتهى العليج من عبارته .. وان هى إلا نظرة مخالسة ، رمى بها من بين أحجار الخربة ، حتى هتف بأصحابه بهمة طروب :

« هو ! .. هو وزب الكعبة ! .. » .

فانطلقت كلاب الصيد تركض إلى الماوى المهجور .. إلى الطريدة المهيضة التى برتها الشقة ، وحطمها الإعياء .

وانصبوا ، فاذا هم كالجرف يدفعه السيل فيملاً الفجاج حوله ويفطى وجه الأرض بما يحمل من حطام .. من كل جانب تراحموا على النائم الذى خدره تعب ، فما أنسحوا له في ثغرة يلتقط منها أنفاسه ..

ولم يكونوا بحاجة إلى الحذر منه ، ولا إلى الأطباق عليه هذا الإطباق الذى يكاد يعصره ، وهو لا يملك يدا للمقاومة ، ولا قدما للحركة ، ولا نهمة ترد عنه عادية خطر ، أو تبلغ به نطاق طمأنينة .. لكن الليث هو الليث . والكلاب حرية بأن تخشاه وهو متوثب في غابه ، أو هامد في اهابه ! ..

ليس بالكلمة وحدها يمكن أن ترسم قصة الأسير .. ليس بالجري ، أيضا ، وراء قدرة التخيل . فالواقع ، في كثير من الأحيان . أبغ إفصاحا عن نفسه وأدق من عبارة تنقله إلى ذهن السامع وكل قصاراها أن تكون ظلا لأصل ، وصدى لهدير ! ..

فوق طاقة البشر ذلك الهول الذي عاشه ابن ابى بكر منذ وقعوا عليه في الخبرة المهجورة . وفوق قمة الشر ذلك العنف الذي عاناه .. من مهاده الخشن اقلعوه فما كانوا ، اذ فعلوا ، ارفق به منك على نبتة انتزعتها ، في لحظة عبث ، من تربتها وليس يعنيك ، أو بضرك ، أخرج سليلة أم يتمزق منها الجذر وينقصف العود .. وفي سربهم الصاحب قادوه على الطريق لا يهمهم أن يسوقوه امامهم راجلا يعالج تحريك قدميه أو يجروه زاحفا على الشوك والحصا والتراب ..

بشراسة الفهد ، وخسة النعلب ، وقسوة الزبانية تعاوروه .. كانوا عصابة من الحقد والمقت والضعفينة . خلقا في هيئة بشر وما هم ببشر . أجسادا معتمة ، كالات بلا قلوب ! ..

ولم يحفل بهم . ولا ألقى بالا الى ما يجترحون .. ولم احتفاله وفي دخيلته جانب مشرق ما زال يمدده بشعاع هاد هو ايمانه بانهم لا يملكون له إلا قدرا قدره الله ؟ .. وكيف يكثرث ووعيه الناضب الذي استنزفه الاعياء لم يعد يتأثر بشيء يصيبه ، وبدنه المنهوك قد ارتوى من التعب ومن الآلام الى ما فوق حق التشبع ؟ ..

وكانت مراحل السير عديدة ، طويلة عليهم ذونه . مضنية لهم لا له . فطول المسافة ، وتعاقب الوقت ، كلاهما ينبع من الاحساس بالزمان والمكان ، ولهما أبعاد لا يحددها إلا وعى المرء ، لا عدد الأميال أو كر الساعات ! ..

على الأرض الصلبة ، التي شققها قيظ الصيف ، سار الفتى في موكب العذاب .. الى الفسطاط سار . الشمس فوقه لهب . الهواء

نار . الانفاس تحترق . الفضاء بخار وغبار . . وعندما شارف نهاية المطاف ، كان قطعة من الضنى والتهافت ، ومن الجفاف والنضوب ، كجمرة اكلت نفسها حتى بردت ، وغدت كومة هشة من رماد . او كفصن اجتز من شجرتة ، وترك في ملافح الحر ومهاب الريح فتبخر ماؤه ، ويبس ، وتحول الى هشيم . .

ووقفت الحاضرة المصرية ، على قدم ، تستقبل الأسير . . تتطلع إلى الأفق على تحرق ، وتصفى إلى الصدى والنامة ، فتسمع خطاه في كل صوت يند ، وترى طلعتة في كل غيرة تثور . . ثم تتعجل لقاءه ، فتستبق الوقت إلى مواعده على جناح الحدس والتوقع لا على ظهور الرواحل وخطوات الاقدام . فالخبر عنه كان طليعة مركبه المرتقب ، بلغها وانه لبعيد محجوب عن الأعين وراء المراحل ، مستور دونها بالأميال ، لأن للخبر دائما قدرة أى قدرة على التنقل واجتياز المسافات - سباحة في الزمن - بسرعة البرق في الأفق وهدة الرعد في الاثير . .

غير ان هذا التعجل الذى كابدته الفسطاط ، ذلك اليوم الصائف الملهب من صفر ، كان ينبعث من عاطفتين متعارضتين ، كلناهما على نقيض . . في جانب كانت اللهفة ، وفي الآخر كانت الشماتة . . فالذين يكونون للفتى المنكوب نفحة ود او اثر ولاء تقطعت نفوسهم عليه حشرات وماتوا موة بعد موة بعدد اللحظات التى عاشوها وهم في انتظار ظهوره وفي خشية من الردى ان يسبق إليه نظراتهم المبعثرة في الأفق ترقبا للموكب الحزين . . والذين يتنفسون الحقد والضعينة راحوا يسوطون الوقت مستحثينه ان يطلع عليهم بالأسير المقهور ليعملوا عيونهم بمحنته ، ويثلجوا صدورهم بمصيره . . وفيما بين أولئك وهؤلاء استوت مدينة الفسطاط نفسا بشرية بشرية بشرية والشر في طبيعة الإنسان انزعا إلى الشفافية والسمو ، ونزعا إلى الظلام والهبوط . . !

اذ ذاك قست قلوب وذابت قلوب . تسعرت أعين وغامت أعين . تلمظت شفاه شماتة وتقمة واختلجت شغاه تفجعا ومرحمة . . على ان مظهر الشركان اغلب واظهر . بل كانت السيادة له في الحشد المنتظر وقد وضع كل مشفق راحم وكل راث حزين على وجوههم اقنعة من

الجمود والتنكر لمشاعرهم اتقاء غضبة الوحش المتحفز في دخيلة الآخرين ..!

لكن فتى من الراحمين آده هذا التظاهر ، فلم يملك نفسه ان يتململ من قلق ، ويضطرب من خشية ، ويتذأب على قدميه يمنة ويسرة لا تستقران تحته كأنما يقف على جمر احمر !.. وكان كالثمل او كالمحموم . في مقلتيه لهب الحميا أو الحمى ، ونظراته تزيع في الفضاء ، والأرض تدور به وتميد ..

ذاك عبد الرحمن !.. وهى بدنا ونفسا حتى لأوشك أن يتهاوى كحطام . خذله أخيرا رياؤه وخانه تصبره . فما كانت له - قبل - مسكة من صبر تعينه على ما هو فيه وان حرص طويلا على ان يبدى الجلد والثبات .. وما عاد - بعد - يتشبث بأمل موهوم ينسجه خياله ، هو أو هى من خيط عنكبوت ، وارق من شعرة حملت صخرة !. وهل غيره في القوم ، خيرهم وشرهم على السواء ، من كان لا يستشف من خلل الساعات القلائل المقبلة ، ذلك المصير القاتم المحتوم ، الذى ينتظر - لا محالة - أخاه الأسير ؟..

فلعله عندئذ قد أدمى شفته وهو يعض عليها ، ليكظم غيظه ، ويداجى حسرته ، ويخفى بعض ما يعانى أن تشى به ملامحه المهزوزة .. إنه لينقم الآن على صحبه ، وعلى نفسه ، وعلى هذه الدنيا التى استهواه منها العرض والزخرف ، وراودنه عن دينه ، فمال إلى صفها عن صف أخيه ، ينصرها ولا ينصره ، ويخطبها ويتنكر له ، ويسير في ركابها ويدع محمدا في موكب العذاب .. فلو أنه أصفى لاحق لما نابع معاوية وحزبه ، ولكان الآن يستدبر جحيم الهوى ويستقبل جنة الضمير .. ولو أنه اطلع على الغد ، لسمع على لسان أموى خالص ، بأى عصابة ظالمة لحق ، وأى عاهل جائر ظاهر ونصر .. لكن زينة الدنيا أعمته ، ورنين ذهبها أصم أذنيه ، وكثافة طبيعته طمست قلبه فلم يستطع - وهو بين ظهرانى الحزب الباغى - أن يفطن لفيهم ، أفيبراً منهم كما برا معاوية بن يزيد من اثمهم بعد سنين وسنين ..

وهذه هى براءة الخليفة الشاب ..

من فوق منبر دمشق ، راح يكشف للملأ سواة أهله .. كان

عندئذ فتى في ضحوة العمر التى يطيب فيها الانس إلى الدنيا ، متعة
وسطوة . وكانت امرة الدولة قد افضت اليه بعد أبيه . لكن ضميره
أبى عليه أن يتعم بالملك فيلبس ثوبا ليس له ، ويسير سيرة أبيه وجده
الذين ابتزا الحكم من كان له - دونهما - الحق فيه . . فإذا هو
يفاجىء أمته وذويه ، معلنا على الاشهاد :

« أيها الناس . . »

الا إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقربته
من رسول الله وسابقته في الاسلام . وهو على بن أبى طالب . . ولقد
ركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيته ، فصار في قبره ، رهين أعماله . .
ثم تقلد أبى يزيد الأمر من بعده ، فكان « خير ! » . . أهل له . .
ركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر به الأجل . ثم صار في قبره ، رهين
ذنبه ، وأسير أئمه . . وان من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه . . »
واستطرد الفتى الذى استنارت بصيرته ، وعجزت الدنيا أن
تخدعه وتأخذ منه :

« أيها الناس . . »

ما أنا بالمتقلد أمركم ، ولا بالمحتمل تبعاتكم ، فاختراروا لأنفسكم . .
والله لئن كانت الدنيا خيرا ، فلقد نلنا منها حظا . ولئن كانت شرا ،
فكفى ذرية ابن أبى سفيان ما أصابوا . . » .

لكن عبد الرحمن بن أبى بكر لم يكن في صفاء معاوية بن يزيد ،
ولو كانت له نفس زاجرة . . وان يكن شيء قد حرك الآن قلبه فهو
موقفه بين جماعة غرقت في حماة الكراهية ، واخذت تتلمظ كالوحش
لتنهش لحم أخيه . . فما كان أغبط له من هذا الموقف الذى غرسه
فيه القدر كما تغرس الزرعة في أرض محل ، فلا بتربتها ماء ولا بسماؤها
غيمة . . وما كان أقسى عليه من لحظة لن تلبث أن تقبل فيرى ابن أبيه
لقى مضيقا على الثرى ، أمام بصره ، وليس بمقدوره إلا أن يحضر ،
مع الحشد الشامت ، مصرعه بعين جامدة ، ولسان أخرس ، ويد
شلاء ! . . .

ولم يعد يطيق الانتظار . . بل انتفض يبارح الجمع ، وينطلق

كزوبعة مجنونة!.. ليس عن بقضة روح ، ولا استنارة بصيرة كان
سعيه . ليس في نصرة الحق ومحقق الباطل كان انطلاقه .. لكنه انعطاف
الأخوة ، ونداء الدم ما وجه قدميه الى ابن العاص يستنجد به
ويستعينه ان ينقذ الأسير المقهور من براثن جلاده .. فللقربى ، حينا ،
قوة غامرة على تنقية النفس البشرية من الشر قدرتها ، أحيانا ،
على تجريدها من الخير!..

وخاطب قائده الظافر بصوت محموم :

« ابعث الى معاوية بن حديج فانه!.. » .

فأظهر له عمرو جانبه اللين ، اعله ان يهدأ بعض هدوء ..

لكن روعه لم يسكن .. وصاح :

« لا والله ، لا يقتل أخى صبرا... » .

واستبدت به ثورة عاطفته .

حينئذ ارسل ابن العاص رسولا الى معاوية بن حديج ، يقول له :

« اتنى بمحمد .. » .

غير ان الجلاد كان أنأى سمعا عن الاصفاء لهذا الأمر الذي انبعث ،
لا ريب ، عن مروءة عارضة ان لم يكن عن مراعاة ، قبل ان ينبعث عن
اقتناع بضراعة الضارع أو ايمان بحق الأسير .. فما ان سمع الرجل
قول الرسول حتى عقد جبينه ، وضيق عينيه ، وبرز نابيه ، ثم أفاض
من حقله على ملامحه كأنما كانت لذلك الأمر سن حديدة وخزت قلبه
فأسالت من الكراهية بعض ما فيه!..

وبكل مرارة الشماتة ، وبكل حرارة البغضاء ، اجاب بلهجة كضربة
السيف :

« لا والله!.. اقتلتم كنانة بن بشر ، ابن عمى ، واخلى عن محمد!..
هيهات هيهات!.. » .

ثم تلا ، وهو يسخر :

« اكفاركم خير من أولئكم ، ام لكم براءة في الزبر!.. »

وانثنى يتفرغ لاسيره ..

ما الذى بقى من محمد ؟ ..

سوى قوة ايمانه ام تكن فيه عزمة تقيمه بينهم مشدود القوام كالرمح ، شامخ الراس كالجبل ، متدفق اليقظة كشعاع النور .. طوال الطريق إلى الفسطاط ، في لفح القيظ وعلى جمر الرمل ، لم تلق لهم قناته .. لم يخفض أنفه .. لم يغض من طرفه الى مواطنه ، لم يذل لجلاديه بكلمة ولا ايماءة . انما ظل على ترفعه وكبريائه ، متساميا على الضعف والتعب والالام ..

ونداكت المدينة ، من بعد ، عليه بكل صخبها وشغبها ، وما استبطنت او اظهرت من امتهان وشماتة . فما اكرث . ولا استقبل هديرها الوحشى باهتمام .. إن يكنلقى أذنه مليا إلى الضجيج ، ورمى عينه ، فلا من رهبة فعل ، بل من تطلع تلقائي صادر عن طبيعة المهمة الوظيفية لكلا حاستي السمع والبصر فيه ! .. فالجموع الحاشدة حياله لم تزد ، في خلده ، عن مجرد صورة مسطحة بغير عمق ولا بروز . وهرج الاصوات المنبعث عن الحركة او الصياح ، لم يكن غير صدى طرقات على طبل أجوف ..

حتى حين وقعت عيناه على ابن العاص بين الحشد المتربص ، لم يحس في قلبه حسرة ، ولا بحلقه غصة . فما قصارى الرجل ؟ .. وما قصارى حشوده وجنوده ؟ .. وما قصارى البشر كلهم أن يفعلوا به إلا ما قدر له ؟ .. إن نفسه لمطمئنة إلى قضاء الله ..

ولم يكن ، بعد رحلته الشاقة ، يكاد يشعر بجوع . فبطنه قد التصق بظهره ولم يعد بجوفه فراغ لطعام ! .. وشهوة الاكل تفتت مع طول الطوى كما تخدم النار اذا غاب عنها الوقود ! .. لكن الجسد الذى أضواه الاعياء ، واعتصره الحر ، كان يهفو - كالغصن الذابل - الى ما يربط جفافه ، ويبل صداه ..

وتلفت ولسانه قد التصق بحلقه ، يسأل من حوله بصوت خشن
متعثر ، كأنما كلماته تضطرب في شقوق حلقه الجاف :

« اسقوني .. »

وحسب نداءه قد تاه في صخب ضجيجهم حينما لم يستجب له
مجيب .. فعاد يقول :

« .. قطرة ماء .. »

فكم في القوم عطفهم الرحمة ، ورقت نفوسهم لرغبة الفتى الذى
أحرقه الظمأ ، وأوشك الصدى أن يستنزف ما بقى فيه من حياة ؟ ..
ان تكن كثرة ، أو قلة ، في الحشد الزاخر تحركت قلوبهم في جنوبهم
حنانا ، فان واحدا منهم لم يجسر على التلبية وان أرهف السمع
للاصغاء ..

وعلى الأثر وثبت ضراوة الوحش من صدر ابن حديج وثبة
زلزلت كيانه ، وسمرت ناظريه ، وبعثته يفع كالأفعوان :

« قطرة ماء ؟ .. لا سقانى الله ان سقيتك قطرة ابدا ! .. »

فمن اية شرعة استقى هذا الحكم الهمجى المتنكر لكافة القيم
الانسانية ومبادئ الاخلاق ؟ .. امن شرعة الحرب ، والحرب لا تستبيح
دما إلا في ظلال الأسنة ، واوان التراشق بالهلاك ، ثم تحققه ، حين
تسكن رحي القتال ، على الأعزل والمغلوب والأسير ؟ .. أم من شرعة
القصاص ، وانها لعين بعين ، وسن بسن ، وقتيل بقتيل ؟ .. أم من
شرعة الوحش في غابه وهى عندئذ تنازع على البقاء يمارسه احتفاظا
بحياته لا رغبة رعناء في تبديد حياة كل ما عداه ؟ ..

لكنه اسلوب معاوية بن حديج في القضاء ! ..

وتلبث الرجل المدل ببأسه على من لا يملك دفع الضر عن نفسه
بالبنان دع السنان ! .. فلما ان لقف بعض لهثات حقه التى شاطت
على نارها شفتاه ، حاول ان يبرر مسلكه ، فأردف ، وهو مزهو ،
مصعرا خده يقول في شماعة :

« .. انكم منعمتم عثمان ان يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما ،

فسقاه الله من الرحيق المختوم والله لاقتلك يا ابن ابي بكر
وانت ظمان ، ويسقيك الله من الحميم والفسلين ، . . »

فلم يهز وعيده شيئاً من شجاعة محمد ، ولا شاب ايمانه بشائبة
شك ، بل زاده ثباتاً دفع الكلمات تتدفق كالحمم من فيه :

« يا ابن اليهودية النساجة ! . . ليس ذلك اليوم اليك ، ولا الى
عثمان . انما ذلك الى الله يسقى اوليائه ، ويظمى اعداءه وهم انت
وقرناؤك ومن تولاك وتوليته . . والله لو كان سيفى في يدى ما بلغت
منى ما بلغت . . »

فحمى غضب الجلاد ، وصاح :

« او تدرى ما اصنع بك ؟ . . »

فتساءل الاسير دون اكتراث :

« وما تصنع ؟ . . »

فكأثما اثاره هدوء غريمه ، فقال واسنانه تصرف من غيظ :

« ادخلك جوف هذا الخمار الميت ثم احرقه عليك بالنار ! . . » .

واشار الى جيقة ملقاة ، اعداها لغرضه الخبيث .

فما زاد وعيده الفتى الا سكينه رسمت بسمة رقيقة على شففيه
ونورت محياه . .

وقال محمد وثقته في ربه تتدفق من فيه :

« ان فعلتم ذاك بى فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله . . »

ثم اجتاح بنظراته الثابتة المطمئنة جمعهم الحاشد ومن ضم من
رعوس واذناب ، ومضى بلهجة المؤمن يكمل الحديث :

« . . . وايم الله انى لارجو ان يجعل الله هذه النار التى تخوفنى
بها برداً وسلاماً كما جعلها الله على ابراهيم خليله . وان يجعلها عليك ،
وعلى اوليائك ، كما جعلها على نمرود وأوليائه . . . وانى لارجو ان
يحرقك الله وامامك مساوية ، وهذا . . » - ورمى بمين الى
ابن العاص - « . . بنار تطفى ، كلما خبت زادها الله عليكم سعيراً . . »

وكادت هذه العبارات النابعة من ذوب قلب عارف بحقه ، مؤمن بقضاء الله ، تتجسد كيانا مخلقا له شواظ ودخان وحسيس ، يحيط بمعاوية ابن حديج ويملك عليه الفضاء حتى لأحس لسعا للنار يحرق أنفاسه ، ويهراً جلده ، ويشوى عظامه !.. فإذا هو يرتج من رهبة ، ويتداعى من خوف ، ثم لا يجد لنفسه سبيلا إلا أن يبرر فعلته ، ويقدم بين يديها العذر الذى يسندها لعله يشفع له فيخفف عنه أو ينجيهِ !..

قال وصوته بشى باضطرابه :

« انى .. لا اقتلك ظلما .. انما .. اقتلك بعثمان ... »

فلم يمهله محمد حنى بادره :

« وما أنت وعثمان ؟ .. »

وتريث هنيهة ، فلما لم يسعف معاوية لسانه ، استطرده يقول :

« ... رجل عمل بالجور ، وبذل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » — « فأولئك هم الظالمون » — « فأولئك هم الفاسقون » ... فنقمنا عليه اشياء عملها ، فأردنا أن يخلع من الخلافة علنا ، فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس ... »

ولا مجادلة هنا لما أحدث عثمان أو قارف ، أيوفي به فعله على ما يحل دمه ويستبيحه ، أم هو الحدث الذى تختلف فيه الآراء وتتفرق المذاهب بين طرفي العقوبة من تقرير يتسع للعفو الى تحريم يوجب القصاص ؟.. ولكنه ، على أى حال قد أحدث ، وركبه الناس في حدثه بعنف غالوا فيه حتى اغتالوه . ونهز بنو أمية الفرصة ، سعيا وراء السلطان ، فألزموا عليا دمه ، تارة بحجة أنه مالا ، وأخرى بحجة أنه أمر ، وإنهم لعلى بينة من أمره ، يعلمون أنه على كلا الحالين برىء .. فإذا لم تكن الحقيقة أسفرت عن وجهها لهم وهم في مستهل افتراءهم عليه ، فانه بادر فطالعهما بما يفند ادعاءهم ، ويدحض تهمتهم ، بالحجة البالغة التى يعلمون صدقها ثم لا يمتري فيها إلا ممار مغلف القلب والجنان ...

في ذلك المقام قال الامام :

« .. او لم ينه بنى امية علمها بى عن قرفى ؟ .. او ما وزع الجهال
سابقتي عن تهمتي ، ولما وعظهم الله ابلغ من لسانى ؟ .. »

بلى لقد علموا . راوا الحق وتعاموا عنه . وحسب عليا نافيا
لتهمتهم ان فضله معلوم لهم ، يرتفع به عن كل دنية ، وسابقته تطهره
وتنأى به عن كل معصية . ولقد بين الله لهم في كتابه فقال عنه وعن
زوجته وبنيه :

« انما يريد الله ان يذهب عنكم الرجس اهل البيت ويظهركم
تطهيرا .. »

وقال الرسول الكريم له :

« انت منى بمنزلة هارون من موسى .. »

فاذا لم يكن في منزلته العالية في الدين التى لم يبلغها غيره من
المسلمين ما يكف السنتهم عن رميه بهذه التهمة الفاحشة ، واذا لم
يكن في شهادة الله وشهادة رسوله ما يعصمه عن مقارفة ما طعنوا
به عليه ، فأى النازل اذن واى الشهادات تركيه ؟ ..

كيفما تعنت القوم واستطابوا البغى ، فقد بدا ابن حديج كان
قد جبهته عبارة الأسير ، واشعرته الهوان وذهنه عندئذ يسبح في
عالم رحب من ذكريات الدعوة الاسلامية ليس من بينها الا ما يسمو
بشأن على وينزل بشأن مناوئيه .. لكأن قدره انكفات ، وكأن كفته
شالت ، وكان محمدا ، وهو متهم ، قد غدا قاضيا يحاكم قاضيه ! ..

إن سطعة الحق التى انبعثت عندئذ من عبارة ابن أبى بكر ، تومض
كالبرق من ثنايا الضمام ، قد خالجت بصيرة معاوية بما جعلها تطرف
كعين النائم حين يفتحها بعد ظلمة الوسن فيفجأها النور . وبادرت
قلبه الاصم بهدرة الرعد التى تصاحبها فهزته وزلزلته بين جنبيه ..
لكنها ومضة موقوتة ، ورجفة الى اجل معلوم ليس عمره في حساب
الزمن الا مقدار ما تمكك لمعة البرق في جانب الافق المعتم او تعيش
الرعشة على هذب محموم ! .. فالعيون العمياء قد تحس الضياء
ولكنها لا تراه ثم لا تتأثر به ولا توليه حقه من التقدير . والقلوب

الغلف تعلم بالرحمة ولكنها لا تمارس الرحمة . ومعاوية بن حديج ،
كأبما رجل غيره في الجمع الزاخر المحتشد على ضفينة وموجدة ، قد
كمه قلبا ، وعمى بصيرة ، واختنق في دخيلته صوت الضمير ..
ما من امرئ في الجمع ، تلك اللحظة ، إلا كان يعرف الحق
ثم يباعد ما بينه وبين نفسه لكي لا يجمعهما طريق . ما من امرئ
إلا أثر المكابرة والالتواء لأنه كالخفاش لا يستطيع أن يعيش في النور
.. حتى عبد الرحمن الذي عطفته رحمه حيناً على محمد ، وقف في
القوم كالمسحور ، لا يعرف كيف يحرك بنانا لحماية أخيه ، وقد
استغرقه حرصه على دنياه ، أو جمدته ، في القليل - صعقه ذهول !
وحتى ابن العاص ، الذي نبدى منذ أيام قبيل الواقعة ، مترفقا بالفتى
يضمن بحياته ، ومنذ ساعات حريصا على تجنبه بطش معاوية ،
لاح كان قد أخذته سورة حقه ، فاستمر الفاجعة ، وراح يتابع
آخر حلقة فيها بلذة المستمتع المشغوف ! ..
وكذلك بدا المشهد الأخير ...

بعناء المكابر ، وعتو الطاغية ، مشى ابن حديج على مدرجة ضفينته
إلى ابن أبي بكر .. خطواته بطيئة ككابوس . عينه باردة كعين ثعبان .
هيئته كئيبه كالموت ... وقبل أن ترتد عنه نظرة ، وتتبدد في الهواء
زفرة ، سقط أسيره الأعزل على الثرى في كف من دم ! ..

قضى الحقد من ابن ابى بكر وطره ..

قتله معاوية بن حديج . ذبحه كما تدبح سائمة ، وانه حينذاك لوحيد بلا صاحب ، أعزل بلا سلاح ، معدم لا يملك فدية تشتري نفسه ان نسيل دما مسفوحا على نرى الفسطاظ ..

جهرة كان مصرعه . على ملا ذبحه الطاغية غير متأثم ، وما من القوم من رفع بنانا يزجر ، أو حرك لسانا ينكر .. انما استقبلوا الحدث البشع على هدوء وسكينة ان لم يكن على رضى واقرار .. وكم منهم من طرب قلبه !.. وكم منهم من سالت الشماتة على شذقيه !.. بل لعل جمعا كبيرا منهم قد اختلط هتاف نشوته بقصفة السيف وهو يهوى فيفصل الرأس عن عنقه ..

ولم يدر احد اين توارت شيم المروءة والنجدة وغوث الملهوف التي لا زالت دائما طبيعة الإنسان العربى وكانت بضعة من سجاياه . لا شيء منها بدا أو ظهر . لا هيئة ولا اثر . لكنما انسى القوم نحلتهم وانسلخوا انسلخا من خلائقهم الكريمة في نزوة عاصفة من نزوات الهمجية التي لا تجرد المرء من جنسه فحسب وانما تجرده ايضا من انسانيته ..

وأردف معاوية بن حديج ضغن القتلة بضغن المثلة . فما سقط صريعه ينتفض بدنه ببعض رجفة الحياة فيه ، حتى اشار الى زبائنه فاحتملوا الجسد والرأس جميعا والدم يلطخ ايديهم فوضعوهما في الدابة النافقة ، يخلطونهما بأحشائها ، ثم يفلقون عليهما بطنها المبتور .

واشعلوا الخطب . وعلقوا محمدا مغلفا بجثة الحمار يشوونه واياها في اللهب المتأجج ، وهم يقلبونه على السنة النار وجمرها المتقد كما تقلب الذبيحة على السفود استعدادا لوليمة !..

ما كان أفظعها مثلة !.. وما كان أعتاها قسوة تلك الأنفس التي وقفت تشهد هذا الحفل الذي يكرمون به الشيطان !..

فلمن الغلبة ؟.. لمن عقبى الأمر اليوم ؟.. لمن الخاتمة التي انطوى بها سجل الفتى وراحت بعدها حياته سيرة على شفة راوية وبين أسطر كتاب ؟.. لا لله ، ولا للحق ، ولا للمبادئ الرفيعة والمثل العليا وقيم الفضيلة التي شرعها الدين .. بل الوحشية القابعة في جوف الإنسان هي التي نهشت الجسد الممزق وراحت تلتهم لحمه وعظمه .. بل بفضاؤهم الصديانة هي التي ارتوت من دمه ..

عندئذ جف من قلوبهم نبع إنسانية البشر ، وتمزقت شريعة الله ثم احترقت وتناثرت رمادا ، كبدن الأسير ، تحت الأقدام . وانتصرت الجاهلية العمياء وعزت كعهدا قبل الإسلام ..

مع الريح ذهب هدى القرآن . امحت تعاليمه . انطمست معالم تلك الأمثال التي ضربها محمد رسول الله للناس تساميا بغرائزهم الفجة ، ونكريما وتحقيقا لإنسانيتهم ، وتنزيها لهم عن الانحدار في حمأة الحيوانية .. ولو أن بتلك الطغمة المتجبرة الضالة من له قلب يعى وذهن يذكر ، لكره القتلة والمثلة جميعا ثم أباهما على أصحابه المقترفين وردهم عنهما ردا جميلا أو غير جميل ، وله في الرسول الكريم الأسوة ، وفي القرآن المنهاج ..

لو استرجع القوم أمسهم الداني ، وعادوا إلى الوراء صفحة من تاريخ الهدى النبوي ، لراوا رسول الله على أرض أحد يتلمس ، بعد المعركة ، عمة حمزة في القتلى . فاذا عثر به ، ووجده مبقور البطن قد اقتلعت كبده من صدره وألقيت ممزقة على الثرى ، أخذه من الحزن ما يطير بالجنان فقال وهو محنق ينجيه وبعده الانتقام :

« لن أصاب بمثلك أبدا .. ما وقفت موقفا قط هو أغبط إلى من هذا .. ولئن أظفرن الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم .. » .

لكنه لا يلبث أن يهدأ ويصبر ، امتثالا لأمر ربه :

« وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم »

ثم ينهى المسلمين عن المثلة :

« اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .. »

ولو استرجع القوم ايضا اسمهم الدانى ، وعادوا صفحة أخرى إلى الوراء في تاريخهم ، لذكروا أن أصحاب محمد الذين خلفوه في أمته ، قد ساروا على سنته ، احتذاء بهديه ، ورعاية لكرامة الانسانية وإن في شخص عدو مشاق لدود يتنسب بكفره ، ويدودهم بالسلاح أن ينشروا دعوة الله .. وها هم أولاء لا ريب قد أدركوا أبا بكر الصديق أبا القتيل ، وسمعوه يقول لأسامة وجيشه وهو يتقدمهم الى الشام :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا .. »

ولقد كان أخرى امرىء فيهم بأن يلتزم هذه الجادة عمرو بن العاص صاحب أمرهم وقائدهم اذ اجتاز نجربة خالف فيها الخلق الاسلامى وغدا بها محور لوم الخليفة الأول وتثريبه ..

كان اذ ذاك على رأس القوات العربية المغيرة لفتح فلسطين والاسلام عندئذ في مطلع فجره ، فلما اظفره الله النصر ، واستخفته الفرحة ، شاء أن يدل بالظفر الذى حازه عسى أن يرتفع درجة في عيني الخليفة ، فبعث اليه بالمدينة بشرى نصره ، رأس بنان بطريق الروم ، أعدى اعداء المسلمين ، واشد قومه عليهم في ساحة القتال ..

ولم ترض القعدة أبا بكر ، بل روعته واستخطته على عمرو . وكانما شاء بعض من حضر الموقف أن يهون الامر عليه ، ويبرر مسلك القائد الظافر فقال له :

« لكنهم يصنعون ذلك بنا ، يا خليفة رسول الله .. »

فلم يزد هذا العذر الا ثورة .. وزجر محدثه في انكار :

« أتستنون بفارس والروم ! .. »

ثملقى بأمره :

« .. الا لا يحمل الى رأس . انما يكفى الكتاب والخبر .. »
هذا هو رأى الاسلام ، وجادة سلوكه مع المسلم وغير المسلم على

السواء اذ هم جميعا ، في حساب خالقهم ، وبمعيار قيم الاخلاق ،
بشر كرمهم الله ، وفضلهم على كافة خلقه ..

غير ان الطغمة الجائرة المتجبرة جنحت الى جاهليتها الاولى تحيى
شرعتها البالية . وتقتدى القدوة التي لا يطيب لها ان تقتدى بسواها ،
متنكرة لقيم الانسانية ، ومخالفة قواعد الدين .. وهل كان ادنى
الى نفوسها المدخولة ، واقرب الى قلوبها الغلف الصماء التي لم يمس
منها الاسلام غير قشرتها ، من تلك القدوة الاموية التي رسمتها هند
ابنة عتبة ، ام عاهلهم معاوية ، وانحدرت مع دمها في عروقهم بطنا
في عقب بطن ، وجيلا في اثر جيل ؟ ..

وما لها لا تكون قدوتهم وها هم اولاء يبارونها في الضراوة ؟ ..
لكأنهم آثروا احياء سنتها ، إمعانا في الحقد واتباعا لنهمه ، فاستحضروها
في اخيلتهم وهي تدور كالضبع على ارض معركة احد تعبت بالقتلى ،
فتلعق الدماء وتنهش الأشلاء ! .. لكأنما طاب لهم ان يروها بعين
التصور - وقد اغرت بحمزة من قتله - ان تاخذ جثته وتبقر بطنه
وتقتلع كبده ثم تلوكها في فيها كلبوة لتأكل منها ما لعلها تسيغ ! ..
لكأنما استهواهم ان راحت ، وصواحبيها القرشيات ، يجدعن انوف
شهداء المسلمين ويقطعن آذانهم ، ليتخذنها لهن حلبة : عقودا وقلائد
تزين الاجياد والصدور الملساء ! .. لكأنما شاءوا لاتفسهم ان يغدوا
حلقة في سلسلة المثلة التي تصل بين بنت عتبة وبين حفيدها يزيد
ابن معاوية إذ اندفع زبانيته يتلعبون بجثة الحسين سبط الرسول ،
وقد اصببت بسبعين طعنة ، فيدوسها عشرة من فرسانهم بخيلهم
مرارا مرارا ، ذهابا وجيئة ، حتى دقوا عظمها وهرسوا لحمها وسووها
بالارض ، فلما اعياهم التركاض احتزوا راسها وحملوه لسيدهم
ينكت في ثغره بفضيب معه ، تشفيا وشماتة ، محطما ثناياه ..

تلك طائفة من الناس كان التعذيب - فيما يلوح - لديها ملهاة ،
وكانت المثلة تسلية ! ..

لو كان بهذه الفئة فضلة من طباع السباع - دون البشر - لعافت
ما فعلت بابن ابي بكر بعد مصرعه ، ولانفض سامرها الخبيث ذلك
اليوم بشهود راسه وهو يسقط على شفرة سيف ابن حديج ما دام
حقدًا حملها على قتله .. فالوحش قد يصرع فريسته دفعا لاذاها

عن نفسه ، وقد يلتهم لحمها سدا لجوعته وحفظا لحباته ، ولكنه يدعها ولا يتلاعب بعد هذا بجيبتها ما دام قد قضى منها وطره ..

أفكانوا اذن قوما - كما تضمنت سيرتهم - شغفوا بالشر وكلفوا به يجترحونه لذاته ، ويقترفونه للذاته ؟ .. بارئهم أعلم بهم ، وبما اكنت قلوبهم وركب في طبائعهم .. ولكنهم دائما دائما مضوا على هذا السنن لا يخرجون عنه . فاذا اعوزهم من عدوهم ما يبيع - في شرعتهم - تعذيبه وقتله والتمثيل بجثته ، لجأوا الى ركوبه بهجر القول ومقدع السباب إدلالا عليه بسطوتهم وإذلالا له . وحين خلا لهم الميدان من بعد ، واستطاعوا أن يخفتوا صوت الحق ويرزأوا اهله مجردينهم من كل سلاح حتى سلاح الكلمة ، غلوا في الفجور الى غايته ، وراحوا يفظعون في تحطيم اقدار خصمهم وتشويه سيرتهم على الأشهاد وهم آمنون منهم أن يدفعوا الافتراء عن انفسهم ، ويكيلوا الكيل لهم بمثله .. حالهم كحال المبارز الذي ينازل خصمه بعد أن يشد وثاقه ! ..

عواهل امية وعمالهم أسرفوا في هذه النزعة ما شاءوا وشاءت الضفينة ، ينالون بأذاهم عليا ومن تبعه ، اهله وصحبه ، موتى واحياء .. ولقد اخذ معاوية يسبه ويفرئ به رجاله يلعنونه على المنابر .. ولقد قيل انه لم يقلع من هذا الفحش بعد موت الامام ، بل امعن فيه .. فما أن افضى اليه الأمر ، عام الجماعة ، حتى كتب - وعهد الصلح بينه وبين الحسن بن علي لما يجف مداده - يأمر عماله :

« برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته .. »

ثم تعقبه وخلقائه ، في نسله وفي شيعته ، يطاردونهم وينكلون بهم في الذات وفي المال ، لا يجيزون لأحدهم شهادة ولا يؤدون له عطاءه .. وكم اهلكوا من حرث وأحرقوا من دور ! .. وكم عذبوا ستملا للأعين وقطعا للأيدي والأرجل ! وكم قتلوا وصلبوا على جذوع النخل وحملوا رءوسا على الحراب ! .. لقد كانوا يأخذون الناس بالظنة ، وبالقربى ، وبالصلات الفكرية ويجتاحونهم بالحملات الارهابية حتى أن الرجل منهم ليقال عنه : زنديق أو كافر ! سلم له وأبقى عليه من أن يقال من شيعة الامام ! ..

ومع ذلك فلم يعدم الزمن أن يطلع لهم من يثبت لبغيتهم وهو مجرد من كل سلاح الا كلمة حق تنبعث من ايمانه وتلصق بشفتيه فاذا هو لا يكتمها بل يلفظها في وجوههم وان كان فيها حينه !.. من هذه الشاكلة التي التزمت الهدى واستمسكت بقداسة الراى : قيس بن مھر الصيداوى ، رسول الحسين الى ابن عمه مسلم بن عقيل بالكوفة .. دخل البلدة ومعه رسالة تعلن لمسلم مقدم ابن عمه بعد اذ دعاه اهلها وباعوا له ، فاذا هو بقع في يدى عبيد الله بن زياد عامل بنى أمية عليها بعد ان خانت الكوفة عهدا ، وتكثت كلمتها ، وصبأت ثانية الى طعة يزيد ...

وجيء بقيس اسيرا فلاينه عبيد الله مليا ، كأنما سيفسح له في عفوه ، حتى إذا حسب انه اطمأن ، قال يغريه بلعن الحسين وابيه على الأشهاد :

« اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب .. »

فأظهر الرجل الانصياع . واعتلى الدار يشرف من فوقها على اهل الكوفة ، فلما اجتمع ملؤهم ، خطبهم يقول :

« أيها الناس .. هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وابن فاطمة بنت رسول الله ، قادم عليكم .. وانا رسوله اليكم .. فأجيئوه .. » ثم تمهل قليلا وصاح :

« اللهم العن عبيد الله بن زياد واباه .. اللهم العن .. »

ولم يكفه عن ترديد لعناته الا أن أمر ابن زياد رجاله فآلقوا به من فوق القصر ..

وحتى النساء اقتحمن هذا المجال المحفوف بالمكاره ، غير هائبات غشما ولا خائفات لسطوة وانهن انى احلك الظروف واشدها عليهن وجبروت القوم عندئذ على ارفع ذراه .. وهل نمة احلك من يوم مقتل سيد الشهداء وآل بيته وصحبه ؟..

كان ذلك وقد حملت الرؤوس بعد المذبحة الى يزيد ، واحاط به ذووه وأشراف اهل الشام ، فدعا بمن سلم حيا من اهل الحسين ، صبية ونساء فأدخلوا عليه ..

وكانما عطفت الرحم يحيى بن الحكم ، اخا مروان عليهم وقد غاب
عنهم سيد بيتهم بأجله ، وخلفوا وراءهم رجالهم جيشا على ارض
الوقعة تصهرها الشمس وتسفى عليها الريح ، فقال وهو يرثى لحالهم ،
ويذكر قرابتهم :

« اهام بجانب الطف أدنى قرابة
من ابن زياد العبد ذى النسب الدغل

سمية امسى نسلها عدد الحصى
وليس لال المصطفى اليوم من نسل »

فعاجله يزيد بضرب في صدره ، ليكفه عن رفته :

« اسكت !.. »

وجلس الصبية والنساء ينتظرن ما يكون من العاهل . فاذا رجل
من رجاله قد اخذت عينه فاطمة ابنة الحسين ، اذ رآها وضيئة ريانة ،
يقبل على يزيد يحدثه :

« يا امير المؤمنين .. هب لى هذه .. »

وارتاعت الصغيرة . وملكها خوف غامر دفعها ان تلتصق بزینب ،
وتستتر بها عن هذا الشامى الاحمق ، تلتمس عندها الحماية ..
وعلى الأثر انبرت زينب للرجل تزجره ، وتضعه حيث يجب ان
يكون :

« كذبت والله ولؤمت !.. ما ذلك لك ولا له !.. »

واشارت الى يزيد ..

فأغضبت العاهل الأموى جراتها التى لعله رآها تنتقص من
سلطانه ، وتخفض مقداره في أعين بطانته ، وصاح بها مدلا بجبروته :

« بل كذبت انت !.. والله ان ذلك لى ، ولو شئت ان افعله

لفعلت .. »

كانما آل الرسول قد غدوا ملك يمينه ، يبيع منهم من شاء ،

ويهب من شاء لمن شاء !..

لكن ادعاءه لم يرهبها ، واجابت :

« كلا والله !.. ما جعل الله ذلك لك الا ان تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .. »

فاستطار غيظا ، وألحت عليه المكابرة فعصف يقول :

« آياى تستقبلين بهذا ؟.. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك .. »

قالت وراسها رافع وأنفها اشم ، ترد عليه الرد الذى لا رد غيره يقومؤه ويخزيه :

« بدين الله .. دين جدى وأبى وأخى ، اهتديت أنت وأبوك وجدك .. » .

فلما أبى إلا اللجاج وقال :

« كذبت يا عدوة الله .. » .

اجابته في هدوء :

« أنت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسططانك !.. » .

وكان قولها فصل الخطاب ..

.. لا مرأى اذن في جنوح اولئك القوم الى الغشم ، ما انفسح لهم ميدانه ، وتوافرت لديهم وسائله . يقارفونه بالفعل والقول : مثلة وقتلة وتعذيبا ، أو لعنا وشتما وافتراء على الخصم وهم آمنون منه ان يرد فعلهم وقولهم عليهم ، لانهم يملكون دونه سطوة البطش وصولا الارهاب ..

وكذلك فعلوا ، يومهم هذا ، بابن أبى بكر ..

عذبوه ، ثم قتلوه ، ثم أحرقوه وهو لا يملك دُفعا عن نفسه الا بالكلمة .. لهوا به ما شاءوا ، ليطعموا الحقد ويرووا الشماتة .. صباوا إلى شرعة جاهليتهم العمياء فثاروا ومثلوا . وهم بين الثأر وبين المثلة يجدون المتعة التى اياها يحرمهم القصاص العادل ، او الصفح الكريم ..

وتصاعد حولهم في الجو دخان لحمه المحترق وان انوفهم لتكاد تنتهيه . وان لعابهم ليوشك معه ان يسيل كحال الجائع المتضور يلتذ بريح الشواء قبل التهامه !.. ام لا فكم منهم من تقزز وقرف والنار تتلهب وتشوى امامه جثة آدمية يفوح منها ما يعلا خياشيمه ؟.. كم منهم من غنت نفسه فجهد ليعبد عن الوليمة الكريهة ؟.. كم منهم ، في اقل القليل ، من حاول ، ولو باللسان ، ان يدعوهم الى سلوك مسلك غراب ابنى نوح ليواروا سواة القتل وهو - ما بلغت العداوة - اخ لهم في الانسانية ؟..

وبلغ هذا البلاء عائشة فأذهلها النبا ، وجمد الدمع في مآقيها ان تذرفه ، وحبس الحزن في صدرها ان تنفثه حتى آدها الكظم فتسختب دما وهي تلجأ الى الله بمسجدها ، تبثه شكواها في وجوم ، سليبة اللب مثقلة القلب معقودة اللسان .. وعندما وسعها من بعد ان تثوب ، حرمت على نفسها الشواء لا تذوقه ما عاشت .. وكيف تسيغه وهو لحم كلحم ، ورائحة كرائحة ، يستحضران امامها جثة أخيها وهي تشوى على النار ؟..

وظلت السيدة حياتها مكروبة ، تجتر أساها على محمد ، ولا تتوقف عن هذا الاجترار كأنما لتعيش مع الاخ الحبيب في حزنها عليه !.. ولم يكن في طوقها ان تأخذ له من جلاديه فقد وكلتهم الى الله . ولكنها اخذت نفسها بما في قصاراها فاستراحت الى الدعوة عليهم ، كلما عثرت هتفت في لهفة وألم من قرار فؤادها المحطم المصدوع :

« تعس ابن أبى سفيان !. تعس ابن العاص !. تعس ابن حديج !. » .

وصدق رسول الله .

فلقد أوشك من قبل ان يلهم نبأ هذه المحنة الذي ختمت حياة محمد بن أبى بكر وانه عندئذ حمل مستور في بطن أمه لم يكشف الغيب عنه .. ومن غير رسول الله أولى بأن يفتح له ربه ، حين تشاء قدرته سبحانه ، ابواب غيبه ، ليطلع من خصاصها على بعض ما فيه ؟.

ذاك ما تجلى له في رؤيا أسماء ، ذات ليلة في مستهل الدعوة ، وقد خرج ابو بكر في غزاة .. فقد رأت السيدة زوجها الغائب ، في المنام ،

مخضوب الرأس واللحية بالحناء ، وعليه ثياب بيض . فأقبلت تقص رؤياها على عائشة ، وتلتمس من لدنها التأويل .
وربعت عائشة لما سمعت ، وجزعت على أبيها . . ولكنها صارحت السيدة :

« ان صدقت رؤياك فقد قتل ابو بكر . . ان خضابه الدم ، وان ثيابه اكفانه » . .

وند دمع اسماء ، وعلا صوتها تبكى زوجها ، حتى سمعها رسول الله . .

فسال :

« ما أبكاها ؟ . . »

قيل له :

« ما أبكاها أحد ، ولكنها ذكرت رؤيا لابی بكر » .

وقصوا عليه الحلم وتأويله :

عندئذ قال :

« ليس كما عبرت عائشة . ولكن يرجع ابو بكر صالحا ، فيلقى اسماء ، فتحمل منه بطلا ، فتسميه محمدا يجعله الله غيظا على الكافرين والمنافقين » .

وسلم الصديق . وأنجب غلاما كان من صفته ما ذكره الرسول ، وعبر عنه على من بعد بقوله : « يفيض شكل الفاجر » . . وكان من قدره أنه هو الذى خضبت رأسه ولحيته بالحناء ! .

الفصل الثاني

تطير معاوية وهو يصفى لبعضه خاصته حين حملوا اليه راي الفلك في بعثته التي شاء اشخاصها الى العراق . فالطالع نحس . والنجوم تحذره ان يوفدها في هذا الموعد . والخطر الذي يستشفه من مخالفة مشورة منجميه لا تجمل معه مجازفة .

وعلى الأثر كتب الى ابن الحضرمي يأمره :

« لا تبرح .. حتى يأتيك امرى . » .

وكذلك توقفت الى حين بعثة الارهاب والتخذييل التي اعددها لاغتصاب البصرة . الى غير هذه الساعة من يومه أرجأ سيرها واجله .. الى ساعة يمن تقبل فيقرن بها السير .. وماله لا يفعل حتى تأذن الأنجم .. ويقطع القمر في رحلة فلكه شوطا ينقله من برج نحسه إلى برج سعد يحسن برجاله الانطلاق في ابانه نحو غرضه بين يدي البركة واليمن الى الظفر ؟ ..

ان العاهل ليتطير . وانه ليسترشد بأجرام السماء والكواكب استرشاد مستقرىء للغيب لا مهتد بها في بر او بحر ، كأنما في استطاعتها الكشف له عن تفع يقتنصه او شر يجتنبه .. ولو انه علم لادرك ان ايمانه هذا بما يظنها تومىء اليه وتنبئه به هو أدنى الى الوثوق بقدرتها على تشكيل مصائر الخلق وتلوينها فهو ادعى الى الحمل على محمل الشرك بالله ..

فلعله لا يعلم . او لعله يعلم ولم ينتفع بما يعلم .. ومنذ قريب اجتاز الامام نفس تجربته فابى على الكواكب قدرتها ، ونها اصحابه عن الاصفاء لما يظنون انها تشير به ، لان استنباء الأنجم عقبى الأحداث ومصائر الناس ضرب من الكهانة ، من صدق به فقد كذب بالقرآن ..

على أن معاوية ، فيما بدا ، أثر الرضوخ للخرافة ، او لهذا الانحراف عن جادة الإيمان الخالص بربه ، فأنس إلى مشورة منجميه .

وبقى من بعد أياما عدة يرقب صاحب بعثته حتى لقد حسب الرجل انه عدل عن رأيه . ثم مكث يصابر الوقت ، ويهدىء - ما وسعه - من فورة رغبته الجامحة في العصف بالمصر من داخله ، بلوغا الى تمزيق وحدة اهله وانتفاضهم على عدوه .

وراح يشغل الوقت عندئذ بتدبر خطئه ويحاول تجسيدها - بدءا ونتيجة - في خياله ، ويسطر العوامل التى دفعتها الى رسمها ، والأسباب التى علقت بها امله ..

ولم يملك عندئذ الا الاقرار بالفضل لعباس بن الضحاك العبدى صنيعته بالبصرة . فهو موحى فكرة هذه البعثة اليه ، وغارس بذرتها في روعه . وهو عين له بالبلدة وعون ، خرج من اجل نصرته على اجماع قومه . وهو ، بعد هذا وقبله ، واضع الخطة ، ومبين دواعيها ، والمشير عليه بما يجمل اتباعه ..

فلقد كتب له ذلك الصنيعة ، غب غزو أرض النيل ، ودخولها في حوزة الشام ، يقول :

« ... بلغنا وقعتك بأهل مصر ، الذين بغوا على امامهم ، وقتلوا خليفتهم .. فقرت بذلك العيون .. وبردت افئدة اقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولكم موالين ، وبك راضين .. ان ابن عباس غائب عن المصر . فان رأيت أن تبعث انينا أميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين ، للطلب بدم عثمان ، فعلت . فإنى لا اخال الناس إلا مجمعين عليك ... »

واعجبت الخطة معاوية ، فأجاب :

« ... قبلت مشورتك ، رحمتك الله وسددك .. فائيت ، هداك الله ، على رأيك الرشيد . فكأنك بالرجل الذى سألت قد اتاك . وكانك بالجيش قد اطل عليك .. »

وكانت الخطة يسيرة على التنفيذ ، خليقة بالنجاح .

فالفراغ الذى تركه رحيل عبد الله بن عباس ، عامل البصرة ، عنها إلى الكوفة ، ليواسى ابن عمه في فجيئته بمحمد بن أبى بكر ، وليهون عليه بعض ما لقى من محنة مصر

والمرارة التي ما زالت بقية منها ، لا يغفل قدرها ، عالقة بحلق
كثرة من البصريين منذ وقعة الجمل ، التي كبرت قواتهم ، وخضدت
شوكتهم ، وجرحت كبرياءهم ، وقهرتهم على الخضوع للإمام
كارهين

ودعوة التار المكتومة في صدور عديدة للدماء والدموع التي فجرتها
تلك الوقعة في كل اسرة . وبجستها من كل عين

وشراذم العثمانية اللائذة بالمصر ، والعائذة باظهار الطاعة لعل
رياء ومداجاة حتى تلوح في الأفق فرصة للعود لعثمان من العهد الذي
الصقوا به - ظالمين أو مخدوعين - جريرة قتله

والتناحر القبلى - تيتها بالبأس ، ومفاخرة بالاصل - بين العشائر
المقيمة بالبصرة والضاربة على تخومها وفي ربوعها . كالآزد ومضر
وربيعة ، وما كان دائما يشيره هذا الاحساس الفج في نفوس رجالها من
تنافس جموح قد يبلغ بهم ذروة التباغض ، ومن تنافر في المجتمع
البصرى يكاد يشق وحدته ويضعه على حافة هاوية الانقسام

كل هذه عوامل لم تكن بخافية وان توارت - بعد الجمل - خلف
حجاب غير كثيف من الهدوء قرابة عامين ، لا اقرارا بالهدوء ولا ايمانا
بجدواه وانما لانصراف الاذهان حينذاك الى ما كان يدور بالدولة من
احداث عامة خطيرة ، متابطة لها ، وانشغالا بها عما عداها من ظروف
خاصة ومن دواع محلية محصورة في نطاق الاقليم .

ولقد كان معاوية ، بطبيعة الحال ، خليقا بأن يعلم الكثير عن ذلك
التمزق الذي ينخر في جسد البصرة ، وان يدرك أنه « جند » له
لا يلبث ، حين تأزف الأزقة ، أن يدعم قواته او يكون طليعتها الى فتح
البصرة وانتزاعها من يد الامام . ولعل يومه هذا لم يكن اول ما خيلته
فيه الفكرة . غير ان الهيبة التي القاها على نفوس اهل البصرة
بانتصاره الساحق في « الجمل » على احزاب معارضية ، والاستقرار
الذي ساد فيها طوال ولاية ابن عباس واجتمع به شعث طوائفها
المتناحرة تحت راية الولاء للإمام ، والاحداث التي تعاقبت سراعا
وشغلت عاهل الشام بنفسه وباقليمه عن كل ما عداه ، كلها لم تدع
لمعاوية من قبل سبيلا الى الاقدام على تنفيذ ما عساه خيله واجتياز

تجربة قد لا تؤمن مغبتها وخلق بها ، لو اخفقت ، أن تدفنه تحت
انقاض حلمه العريض !.

لكنه اليوم ، إذ جاءت مشورة العبدى ، غيره أمس ، بعد أن حالفه
قدره وفتح عليه أرض النيل . فانتصار جيش ابن العاص قد اعز
شأنه ، ونفخ في روح أنصاره بكل مكن ، وألقى هيبته في قلوب
المسلمين برضه وأرض عدوه على السواء ، وأتاح له تأمين حدود
دولته من ناحية فلسطين ، وضمن له ، إلى جوار هذا كله ، موارد
مصر من المال والرجال التى لا تعدلها موارد غيرها من الولايات . .
فإذا هو الآن نازعته نفسه إلى فتح البصرة فإنه نزوع من أمن العاقبة
واطمان للنتيجة وقد غدا صاحب النجم الصاعد واليد العليا في
الصراع المرير الناشب بينه وبين غريمه على السلطان .

ولم يخالف معاوية عن طبعه وهو يبنى « الخطة البصرية » على
تلك العوامل المواتية الى هياتها له الظروف وراها كفيلة بتحقيق
غرضه . فما كان ليتنكر لطبيعته الحذرة التى تؤثر الريث وتكاد تقدم
الاحجام على الامر على الافدام عليه ما وسعه ان يرجىء ويتمهل
ما دامت في الأفق بارقة رجاء في مطلع غد أنسب لغرضه وأجدى عليه .
وما كان ليركن الى احتمالات تحدثه برجحان كفته ان هى دفعته
لركوب مخاطرة قد نباغته فيها احتمالات غيرها معاكسة لم تطف
بتقديره . وما كان ليجازف باقتحام خطر - وان كان اوهى من بيت
عنكبوت - ليصل من خلاله إلى مغنم دان براوده ويلمع له ، ضنا
بما في يده أن يضع او خانه طالعه وأخفق في انقضاضه على ذلك
المغنم الذى في يد سواه .

وها هى البصرة الآن . . انها كالثمرة اليانعة ، قد انضجت لها
الظروف فثقل بها غصنها ودنت للقاطف ، مغرية تخلب اللب ، شهية
تثير الرغبة ، عاطلة من الشوك ، مستباحة بلا سياج . . ولكنه يكبح
نفسه ، ويملك طموحه ان يمد اليها يده جهرة امام العيون . . وهل
كان ليفعل وقد علمته تجربة الامس القاسية بصفين أن خيره كل خيره
هو في السير الى آرابه في دروب خفية تحتية ، وأن دواعى الحال
تقتضيه تجنب العلانية والمواجهة والاخذ بأسلوب الالتفاف والالتواء ؟

بل قد تعلم درس صفين ووعاه ، وخلص منه بحقيقة واضحة

لا يشوبها ظل من ريبة تومىء بكل أصابعها الى قصور جهده وعجز قدرته عن الثبات للامام في ميدان قتال . . وليس هو بمن يهدر التجربة . . ولا بمن تستخفه مخايل الظفر الميسور الذى يهيب به الآن - بلسان عوامل التمزق الضاربة في البصرة - ان يبعث الى البلدة بجيش ما ان يقارب مشارفها حتى نهبه الولاء . . ولئن كانت مصر ، منذ قليل ، قد دانت له بقوة الفتح ، فان الظروف غير الظروف ، ومصر غير البصرة ، والشقة من الكوفة الى كل منهما غير الشقة ، لأنها الى الاولى ابعد مدى واعسر مراحل ، والى الثانية ادنى وايسر . ولن يكون مصر البصرة كمصر مصر لانها بموضعها من العراق تكاد تقع على قيد الشبر من على ان لم تكن في قبضة يمينه . وفي نطاق المحال لا ريب ان يفلح جيش أموى ، مهما كانت خفة حركته وسرعة انتفاضه ، ان ينتزعها ويطيح بها هدية لصاحب الشام ! .

لا قبل اذن لمعاوية ، في ظل ذلك الوضع ، بحرب سافرة في البصرة ما بلغت قوة العوامل المرجحة لانتصاره . فالمرحلة إليها من دمشق طويلة . وجيشه الفايز سينتشر على مسافات ترق بها كثافته وتتبعثر قواته . واللقاء عندئذ وسط أرض غريبة عنه ، يعوزه فيها تأمين خطوطه . وعنصر المباغتة لا سبيل إلى تحقيقه والاعتماد عليه . والمقارنة بعد هذا بين كفاءة القيادة في كلا الجيشتين المتناجزين ترجح بلا جدال كفة الامام .

فكانى بالرجل ، وقد استحضر كل هذا في باله ، يعدل عن الحرب المكشوفة الى الحرب المستترة ، وعن الغزو الى التسلل ، وعن اقتحام البصرة عنوة بجيش فاتح الى دخولها خلسة بفريق من اصحابه لهم القدرة على اثارة الخواطر واشاعة القلق ، وضرب أهلها بعضهم ببعض توسيعا لهوة الانقسام بينهم وتوهينا لوحدهتهم . فاذا هو استطاع أن يبلغ من هذا وطره ، فقد وقعت الفتنة التى يعز بها حزبه ، وتشتد قوة أنصاره ، وتعلو بها هيئته بقدر ما تهبط هيبة غريمه .

وكذلك ابرم معاوية أمره ، وعدل خطته . فلأن يعصف بالبصرة من داخلها لهو أسلم عقبى من غزوها بجيش مغير . ولأن يقلب الحكم بها على الولى الشرعى لهو ايسر واضمن نتيجة . ولن تكون هى عندئذ

اعصى عليه من مصر التي ما دانت له - في حقيقة الحال - إلا بانتشار
دعوته ، واشتداد ساعد جيشه « السرى » فيها ، أو « طابوره
الخامس » بالتعبير الحديث !.

خطة يسيرة ، وجهد أيسر ثم تسقط الثمرة الناضجة تحت
قدميه ..

ودبر الرجل كيدته ، فأعد بعثة ابن الحضرمي لتسلل الى البصرة ،
لا في بزة قتال بل في صياصة دعاء يتباكون على الحق ويحشون على
اتباعه . وكان الحق الذي يراه رحبا فسيحا يتسع لكل خدعة من
أخاديعه ودعوى ظالمة لا تقرها حقائق الواقع ولا شرائع الأخلاق . فهو
اثارة الأحقاد . وهو صدع الوحدة . وهو التنادى بالشار . وهو
الاتهام الظالم والافتراء ، كلها مغلفة بالانتصاف لعثمان .

ومع ذلك فقد تردد معاوية مليا قبل أن ينفذ البعثة وأن كاد
يوقن أنها تحالف الظفر وتسير في ركابه . فلعلها طيرته قد جعلته
عندئذ لا يحسم .. ولعلها أيضا رويته التي تشده دائما إلى التريث .
ولعله ، فوق هذه وتلك ، ذلك الاحساس الثقيل بالفراغ الذي كان
يملأ عليه حياته بعد غياب مشيره ومبدع الراى الأثير عنده بعيدا عنه
حينئذ على شاطئ النيل .

ونشط من لحظته الى كتاب ديجّه الى رفيق كيدته وشريك خدعه
وصاحب شوره عمرو بن العاص :

« ... رأيت رايا هممت بامضائه ولم يخذلنى عنه الا استطلاع
رايك ، فان توافقتى أحمد الله »

انى نظرت في أمر البصرة فوجدت معظم أهلها لنا وليا ، ولعلى
« وشيعته عدوا وقد أوقع بهم الواقعة التي علمت فأحقاد تلك الدماء
في صدورهم لا تبرح »

وقد علمت أن قتلنا ابن أبى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد اطفأت
نيران على في الآفاق ، ورفعت رعوس أتباعنا أينما كانوا .. وقد بلغ
من كان بالبصرة على رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس أحد أكثر
عددا ولا أضر خلافا على من أولئك .. » .

ومضى في كتابه يوجز امره الذي ألقاه لابن الحضرمي ، صاحب
البعثة الموفدة لاحداث الفتنة بالبصرة :

« ... ينزل في مضر ، ويتودد الازد ، ويحذر ربيعة ، ويبتغي
دم ابن عفان . ويذكرهم وقعة على بهم التي اهلكت صالحى اخوانهم
وآبائهم وابنائهم . فقد رجوت عند ذلك ان يفسد على على وشيعته
ذلك الفرج من الارض ... » .

وختم يتعجل رده :

« .. هذا رأى فما رايك ؟ .. لا تحبس رسولى الا قدر مضى
الساعة التى ينتظر فيها جواب كتابى .. والسلام » .

٢

المحور الذى كان لا بد ان تدور عليه أية فتنة ينشعبها القوم ضد
على هو دعوة الثار لعثمان . فهى باعثة وقعة الجمل . وهى سبب
ضباع مصر . وهى الباب الواسع المفتوح على مصراعيه الى قلوب
العامة لالهاب مشاعرهم ، وتحريك احقادهم النائمة ، واثارة كوامن
اعتزازهم بالمروءة والنجدة والانتصاف للمظلوم . وهى دون هذا
وفوقه دعوة اكتست ثوبا براقا يبهز الاعين ويستهوئ النفس ثم
لا يكاد يفتقر - في خواطر الجماهير التى تغرها القشور والمظاهر -
من مسحة حق بعد ان ارتفعت بها من قبل أصوات عائشة والزبير
وطلحة وفريق غيرهم من القوم من بين الصفوة الذين لهم في الأمة
مكانة وذكر ، وفي القلوب هيبة واكبار ، وفي الاسلام قدم وسابقة ..
ولقد كان من الطبيعى ان يقر عمرو بن العاص صاحبه على رايه
الذى ساقه ويحثه على اتفاده . فمعاوية اليوم ذو نجم بازغ ، وصاحب
دنيا مقبلة يفسح فيها لكل طامع تستدله شهوة النفس فلا يانف ان
يشترى منها اربه ولو بدينه ، أو بالمثل العالية ، أو بمكارم الاخلاق .
وعمر بن العاص نهم بالتفوؤ واسباب الجاه لا يكاد يشبع ولا تكف امانيه
الكبار من مخايلته منها بمزيد . واذا كان هاهل الشام قد اطعمه

مصر بملكها الثرى العريض ، فتلك طعمة لا تملأ حوفه ، ورايه المؤيد
التبيع خليق بن بوطد ثقة سيده فيه ، وبدعم رضائه عنه ، وليس
بالمستبعد أن يفى عليه طعمة جديدة ! .

ولا غرابة ، مع ذلك ، إن هو انس للرأى واقره لأن التآمر بعض
شيمته ، والكبد لعل سلكه ومولاه في خيط ، وادعاء الانتصاف لعثمان
بالانتقام والثار مبدا التزامه ، منذ بدء تحالفهما عقب الجمل ، وسيلة
خادعة وناجعة ، لانتزاع السلطان .

وكتب في جوابه :

« .. فهمت رأيك الذى رايتہ .. وان الذى ألقاه في روعك هو
الثار لابن عفان والطالب بدمه .. ولم يك منك ، ولا منا - منذ نهضنا
في هذه الحروب - ولا رى الناس رأيا اضر على عدوك ولا أسر لوليك
من هذا الأمر الذى ألهمته .. فامض رأيك ! .. » .

وآن لجأش معاوية عندئذ أن يثبت ، ولباله أن يهدأ وقد اشاع كتاب
عمرو في قلبه الثقة بنفسه ، وهون عليه وطأة احساسه بالفراغ لغياب
مشيره .. فكأنما اطمأن الى صواب تدبيره . وكأنما طالعت النجوم
أخيرا ببرج سعده وأذنت له أن ينفذ بعته . فاذا هو يخف من فوره
فيدعو اليه عبد الله بن عامر بن الحضرمي الذى لقنه الخطة وأعده
لانتزاع البصرة من يد على ويأمره بالسير :

« سر على بركة الله .. » .

ولم ينس وهو يكرر عليه ثنية خطته تلك التى تقوم على ايقاع
الفرقة واثارة الأحقاد ودعوة الثار أن يقرن ما ذكره بعنصر آخر درج
دائما على أن يكون من أسلحته في النزاع ، هو عنصر الاغواء يزخرف
المال الذى لا يستطيع أن يقاومه من النفوس الا القليل :

« .. ومن لمن سمع وأطاع دنيا لا تفنى ، وأثرة لا يفقدها حتى
يفقدنا أو نفقده .. » .

ثم لم يدع وعده هذا الذى يبتعث النهم ويسيل له لعب الأطماع
مجرد كلمة في فم ابن الحضرمي لو شاء بلعها أو شاء لفظها ووضعها
في الاسماع . وانما سجله عهدا على نفسه في كتاب مختوم يقطعه لكل

الذين يستهويهم نشبه وبتحرفون اليه ، ويثمن به الفتنة في قائمة الأسعار !..

قال في كتابه مع مبعوثه الى اولئك الذين ايقن انهم لا بد - من أجل الدنيا - مناصروه ، وخارجون وراء دعوته على النظام العام والولاء للامام :

« .. وان لكم ان اعطيكم في السنة عطاءين !.. ولا احتمل فضلا من فيئكم عنكم ابدا .. فسارعوا الى ما تدعون اليه .. » ..

وما كانوا بالقليل . ولا كان ينتظر منهم ان يتخرجوا او يتوانوا عن اتباع دعوته او دعواه وانهم ليطوون جوانحهم - منذ الجمل - على غل لعل مقيم وان تحاملوا طويلا على انفسهم راغمين فأبدوا من نعومة الطاعة مثل الزهو في جلد الثعبان !..

ومع طول الشقة من دمشق الى البصرة ، فقد اسنطاع ابن الحضرمي ان يمضي الطريق كله اليها آمنا موفور السلامة . واستطاع ان يتسلل الى مصر وليس من أحد - فيمن مر على كذب من ولاياتهم او اجتاز اراضيها - من عمال الامام من بدا انه تصدى له او حاول الوقوف في وجهه .. وهذه ظاهرة غالبية ومعجبة تكاد توميء الى ان هم كل عامل لم يكن الا منصرفا الى ضبط الأمن بداخل ولايته ما تعرضت لشغب محلي . فاما اذا مرت به ، أو بحدوده ، جماعة مريبة بل خارجة على الامام فذاك ما لا يكاد يعنيه ما دامت تدهض على حدوده ولا تعرض لأرضه بشيء ..

والأمثلة على هذا النوع من التهاون لا تغيب عن متقصيها . وهي توشك ان تنطق بضعف طائفة من العمال عن النهوض بتبعة واجبهم حيال الدولة جمعاء وافتقارهم الى القدرة على الارتفاع الى مستوى المسؤولية المسندة اليهم . وتوشك كذلك ان تدلنا على عجزهم عن المبادرة الذاتية لمواجهة أمثال هذه المواقف وإيثارهم الانتظار حتى يأتيهم الأمر عنها من حاضرة الدولة . ثم يوشك ثالثة ان يبديهم ذوى ادراك يقصر عن تفهم حقيقة السياسة العملية التي شرعها الامام واخذ نفسه واصحابه بانتهاجها حيال اعدائه أو مخالفيه لا يقاتحهم بحرب الا اذا هم بداوا العدوان . فاذا فهم بعض اولئك العمال من

هذا المبدأ الا يسدوا في ارضهم كل منفذ خلالها قد يجتازه مبتغى
فتنه او غار عاد الى ولاية اخرى في طاعة الامام فذاك فيه من التنكر
للولاء ومن التفريط في الامانة اكثر مما فيه من تهاون وان حسنت
النيات .

ولم يغب سوء عقبي مثل هذا السلوك عن على فحذر منه ، ولحا
عليه احد عماله فكتب اليه :

« . . قد صرت جسرا لمن اراد الفارة من أعدائك على اوليائك ،
غير شديد المنكب ، ولا مهيب الجانب ، ولا ساد ثغرة ، ولا كاسر لعدو
شوكة ، ولا مفن عن اهل النصره ، ولا مجز عن اميره . . . » .

بلغ ابن الحضرمي اذن البصرة ، متسللا او على عين اولى الامر فيها
فلم يلق من ينهض له ، او يحول بينه وبين دخولها لا بسيف ولا بكلمة .
ومضى وجهته ، كما امره عاهله ، فنزل في بنى تميم الذين يؤمن له
تأييدهم ، ويؤمن منهم مخالفتهم عليه . وكان اصحابه ، فيما بدا ،
قد سعوا بين يديه في جنابات المصر يحدثون عنه ويبشون دعوته ، فاذا
جموع العثمانية تنساب اليه من كل ناحية ، الاذنان والرءوس على
السواء . واذا هو حين يلتفون به ويستشعر بينهم المنعة وعزة الجوار ،
لا يجد بنفسه حاجة الى التزام اسلوب الدعاة الذي يبدأ عادة بالهوادة
ولين الكلام تدرجا ويبدأ الى لب الدعوة وغرضها الخطير . انما يحمله
ما شاع حوله من تأييد الى القفز دفعة واحدة الى مطالبتهم ، بغير
مواربة ، بالتشرع للعنف والثار والانتقام :

« ايها الناس . . ان امامكم ، امام الهدى عثمان بن عفان ، قتله
على بن ابي طالب ظلما . . فطلبتم بدمه ، وقاتلتم من قتله ، واصيب
منكم الملائكة الاخيار . . وقد جاءكم الله ياخوان لكم ، لهم بأس يتقى ،
وعدد لا يحصى . . فمالئوهم وساعدوهم ، وتذكروا ثأركم لتشفوا
صدوركم من عدوكم . . » .

وكان حريا بدعوته ان تلقى في الصدور اصدااء مختلفة . بعضها
يرحب ، وبعضها ينكر ، وبعضها يقف بين هذه وتلك — على تردد
او بينة — لا يقطع الى اى الفريقين ينحاز . . فالبصرة كما علمنا ، من
قبل الجمل ، جمعت في اهلها الطوائف الثلاث : العثمانية ، واصحاب

على ، ومن رأوا الحيدة عن كليهما ، لا إيثارا للسلامة بل إيمانا بجدوى حيدتهم على الخير العام وتجنب الأمة شر الانقسام . وهى اليوم كأمس وان عز نفر حزب وقل نفر آخر . ولكن الذى لا يستطيع اغفاله أن أناسا انضووا في الماضى تحت لواء المناهضة للإمام أبوا الآن أن يعيدوا الكرة ويرجعوا كبديهم . بل استمسكوا بولائهم للدولة ، انتفاعا بعبرة الأحداث ..

وقام منهم من صاح في وجه الداعية :

« قبح الله ما جئنا به !.. جئنا بمثل ما جاء به صاحبك طلحة والزبير .. أتينا وقد بايعنا عليا ، فكلمتنا واحدة .. فدعوانا الى الفرقة حتى ضربنا بعضنا بعض عدوانا وظلما .. فما سلمنا من عظيم وبال .. » .

فقطع عليه رجل من الحزب الآخر حديثه :

« اسكت فليست بأهل أن تتكلم في أمر العامة .. » .

لكنه تابع قوله :

« .. نحن الآن مجمعون على بيعة هذا العبد الصالح الذى اقال العشرة ، وعفا عن الميئ ، واخذ بيعة غائبنا وشاهدنا .. » .

ثم التفت الى ابن الحضرمي يقول له كالساخر :

« .. افتأمرنا الآن أن نختلع اسياقنا من أغمارها ثم يضرب بعضنا بعضا ليكون معاوية أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدل بهذا الأمر عن علي ؟ .. لا والله !.. ليوم من أيام على مع رسول الله خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية !.. » .

واشتبكت الآراء . واستمر الحديث حتى غدا سبابا وملاحاة . وأوشك العنف أن يصرف القوم عن ابن الحضرمي ويفرق دعوته في لجنة التهاثر .. عندئذ تصدى لهم ، عبد الرحمن بن عمير ، أحد بنى تميم ، وهو يلوذ في حديثه بهوادة الدعاة وترفقهم ، لعله يزخرف القول والموعظة الحسنة يهيبه لدعوة الداعية في نفوسهم ما لم يهيئه خشن الحديث .

قال في هدوء :

« عباد الله ، انا لم ندعكم الى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد ان تقتتلوا .. انما ندعوكم ان تجمعوا كلمتكم ، وتؤازروا اخوانكم الذين هم على رأيكم .. وتصلحوا ذات بينكم .. فمهلا مهلا رحمكم الله ، واستمعوا لهذا الكتاب »

فألقوا السمع .

ونض امامهم كتاب معاوية ، ونثر عليهم ما فيه :

« .. ان سفك الدماء بغير حلها هلاك موبق وخسران مبین .. وقد رايتم آثار ابن عفان وسيرته . ومعدلته حتى توثب عليه المتوثبون ، وتظاهر الظالمون ، فقتلوه مسلما محرما ظمآن صائما لم يسفك فيهم دما وانما ندعوكم ، ايها المسلمون ، الى الطلب بدمه ، وقتال من قتله فاذا اجتمعت الكلمة ، اقر الظالمون الذين قتلوا امامهم بغير حق فأخذوا بجرائرهم »

دعوة ذكية . لانها مرسلة ، لا تحصر الاتهام في امرىء بعينه ، فليفهمها اذن من شاء وليؤولها كيف شاء ! .. وهى بعد دعوة عادلة ، في رأى كل مجتمع بشرى ، وفي رأى الدين ، لانها تحت على القود والقصاص ، انتصافا من القاتل للمقتول ..

ومع هذا فقد قرنها معاوية بالتلويح لمن سمعها وتابعه عليها بدنياه ، وانه ليعلم ان الدنيا احيانا اقرب الى استهواء الانفس واقدر من الدين ! .. وها هو الآن - على البعد - قد ضمن من الكثرة المجتمعة حول مبعوثه الانضمام اليه ، ان لم يكن من اجل الشرع ، فاستجابة لما وعدهم في كتابه من مضاعفة العطاء ! ..

وعقب ابن الحضرمي :

« اجيبونى الى الحق ، وانصرونى »

فنهض على الاثر ابن ضحاك العبدى ، صاحب خطة هذا البعث ، المشير به على معاوية ، يبادر بتلبية الدعوة :

« والذي له اسعى ، واياه اخشى ، لننصرتك بأسيافنا وأيدينا .. »

فما اكمل عبارته حتى تبعته كثرة من القوم ، لمعظمهم هوى - بلا شك - في نشب صاحب الشام وسخائه المعروض :

« سمعنا واطعنا .. »

وطفا على هزيم هتافهم ، طفو الزبد على الماء ، صوت خافت ،
كأنما يعلن على استحياء عن رأى حزب الحياء بلسان الأحنف بن قيس :
« اما انا فلا !.. لا ناقة لى ولا جمل في هذا الامر »

وعندما حسب انصار معاوية ان كلمة حزبهم قد طغت على ماعداها
واستقر لهم الامر ، باغتهم المثنى بن مخزومة العبدى بصوته الجهير :
« لا والذي لا اله الا هو !.. »

ثم رمق ابن الحضرمي بعين ملتبهة النظرة . وقال - توعدا
وتهدبدا - وهو بضغطة على حروف كلماته ، إبانة عن العزم والاصرار :
« .. لئن لم ترجع الى مكانك الذى اقبلت منه لنجاهدك !..
اندع ابن عم رسول الله وسيد المسلمين وندخل في طاعة حزب من
الاحزاب طاغ ؟.. والله لا يكون ذلك حتى تفلق السيوف السهام !.. »

٣

مع ما أسفر عنه الاتجاه العام من انتصار دعاة الانتقام ، فقد رأى
ابن الحضرمي ان الحذر اولى به ما دامت ثمة طائفة بالبصرة ، كابن مخزومة ،
لم ترهبها كثرة ناصره ، ولم يخدعها التلويح بجاه المال عما استمسكت
به واخذت نفسها بالتزامه وفاء وطاعة ، وان غدت وقودا للنار ..

ولم يكن الرجل قد سعى بعد الى الازد يعرض نفسه وامره ،
متوددا كراى عاهله ، او متحسسا نبضهم كما ينبغي على مشعل فتنة
ان يفعل قبل ان يقدح الزناد !.. تلك خطوة تالية في منهج عمله ان له
ان يقطعها بعد ان فرغ من لقائه الميمون الشهود . فماله لا يبحث الخطى
الى حى اولئك الذين عليه ان يتالفهم ليجمعهم حوله فيأمن بانضمامهم
اليه . ما قد لا يأمن اذا تركهم في صفوف اعدائه ، او على الاقل
منحازين عنه ، لا يعادونه ولا ينصرونه !..

وكذلك مضى . واقبل على سيدهم يحدثه ، ويحرك في نفسه
لواعج المواجد القديمة ، وحصاد « الجمل » الذى كان له فيهم بكل
قلب ضغن ، وبكل بيت ضحية :

« يا صبرة .. انت رأس قومك ، وعظيم من عظماء العرب ،
واحد الطلبة بدم عثمان . راينا رايك ، ورايك راينا ، وبلاء القوم
عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورايت .. فانصرنى وكن
من دونى . »

فتفكر صبرة مليا يتدبر ..

انها لدعوة الى الثأر سافرة . والى الفتنة . والى الانسلاخ من
الطاعة . لها بلا ريب صدى في قلب كل موتور .. ولقد وتره على
ووتر قومه . ونال منهم يوم الواقعة اذ هم سور حول عائشة حتى
شاعت فيهم المقتلة كما لم تشع في غيرهم من الناس .. ومع ذلك
فذاك بالأمس ، والامس ذهب . الدم جف والجراح التامت . والعفو
الكريم — مع القدرة — عن ارتدادهم عن بيعة على ، ونكثهم عهده ،
قد مسح هونا على قلوبهم وماقيهم .. فهل يا ترى يعود كرة أخرى
بقومه الى خلاف جديد ومحنة جديدة ؟ ..

لكانى به قد تذاب هنيهة بين النكوث وبين الثبات . بين
الاستجابة لدعوة الثأر والاستقامة على واجب الولاء . بين المشاركة
في انقسام الامة وبين الابقاء على وحدتها التى كادت اخيرا تلتئم بعد
دم وقعقة سلاح .. لكأنه كان نهبا بين واجبه وعاطفته . عقله
وقلبه ، أمته وقبيله ..

تلك اللحظات القلائل التى عاشها الرجل عندئذ كانت — فيما
يلوح — دهرا طويلا من الصراع النفسى في دخيلته ، عانى ابانه ما لم
يعان من قبل مثله في كل ما قطع من سنى الحياة . فكذلك تختبر
الانفس . وكذلك تجرب الضمائر . والهنهات التى يواجه المرء فيها
مفرق الطرق ليحسم الى أين وجهته هى اشق محنة يجتازها واقدرها
على تشكيل مصيره وتغيير اتجاه التيار ..

وبدا من صبرة كأنما حزم أمره فطالع ضيفه بوجه باسر لا تكاد
بشرته تنم عما وراءه ، ثم عرض عليه ما تمليه شيمة الاريحية العربية
التى تابى أن ترد طالب حاجة ، لاثدا بالكنف ، عائذا بالجوار ..

قال في هدوء :

« ان أنت اتيتنى فنزلت في دارى نصرتك ومنعتك .. »

فكان بهذا العرض ، من دعوة ضيفه ، لا الى الرفض ولا الى القبول ..

لكن هذا الرد منه راق ابن الحضرمي لانه نضح بالرد المأمول ، وأفسح له الأمل في نجاح بعثته . فلم ير خيرا من أن يقول ، كاشفا عن رضاه واعتذاره في آن :

« .. لولا ان أمير المؤمنين معاوية امرنى ان انزل في قومه من مضر »

فعقب صبرة على الاثر :

« فاتبع ما امرك به .. »

وخرج وافد عاهل الشام من لدنه مطمئن البال وقد حسب انه كفى بهذا الحديث أمر الأزدي فاحتواهم بجسمته وضمهم لجمهور انصاره . ولو درى الرجل لسارع الى اقتناص دعوة الجوار التي عرضها صبرة عليه في لحظة أريحية ، ولما غادر الأزدي ليلحق بمضر وانه ليعلم ان هذه الأخيرة موالية لمولاه لا يغيرها عليه نزول وافده في غيرها من القبائل . ولكنه أثر التزام أمر أميره واحتذاء خطته بالشبر والفتى ، بغير ترخص ولا تبديل ، فخلى جوار الأزدي لمن شاء - غيره - أن يلتصق فيه الحماية . وقضى بهذا على نفسه وأمره بالوبال ..

والواقع ان طبيعة التقاليد العربية ، في تلك الآونة ، كان لها أكبر اثر في توجيه الأحداث ، وفي تحويلها أحيانا عديدة عن المجرى الذى ينظر انه كان لابد لها أن تسير فيه .. وما أكثر ما لهذه التقاليد من أصول وفروع ! .. وما أرحب جنبات الميدان الذى تمارس صولتها فيه ! .. فهي مرة منافرة ومباراة على التفوق بين خصمين رهانا برهان . وهي مرة ثانية نخوة وتعظيم ينشآن عادة من تملق الفرائز والعواطف الخرقاء فيسدر المرء - حتف عقله - في سلوك لا يلائم مقتضيات الواقع ولا تمليه طبيعة الأوضاع . وهي مرة ثالثة التزام اختياري بحماية اللاجئين المستجير ، ولو كان عدوا موغلا في العداء ،

ومنعه كما يمنع الطفل والنساء .. وفي كل صورها والوانها نراها
تفرض نفسها في المجتمع العربى على الأحداث كقوة محركة ، دافعة
او معوقة ، تؤثر ابلغ الأثر في سير التاريخ ..

تقاليد قد تبدو لأول وهلة مجرد ظاهرات اجتماعية لا تزيد على
ما عداها وأشباهاها من مألوف العادات ، ولا يكاد يظن لها أن تنشط
الا بيئتها الطبيعية - في اطار سلوك الأفراد - فاذا هى لا تلبث أن
تطفئ كالسيل وتستشرى كالنار ، فتقتحم السدود وتخترق الأسوار ،
ثم نذهب في تغيير المصابر وتشكيل الغابات الى أبعد النتائج واقصى
الآماد ..

ودع الامثلة فهى كثيرة تترى بها الصحف ، وتتواتر الروايات .
فما خلت بعد أخيلة العرب من بقية اثر لقصة المنافرة القديمة بين
هاشم وأمية التى انشبت بين البيتين تنافسا عنيفا ، قوامه الإدلال
بالقدرة ، ما زان يتحدر في عقبيهما حتى تمثل اليوم ، في على ومعاوية ،
خلاف دمويا ترمى مجاله على طول ارض الإسلام . وما غابت ايضا عن
الأذهان تلك النخوة الجامحة التى ابتعثها غلو عائشة في الشناء على
العشائر العربية بالبصرة غلوا نحلهم من الفخر وعلو القدر ما فتنهم
عن انفسهم فنقضوا بيعتهم ، ثم فتنهم بالجمل فزادوا عنه زيادهم
عن اقدس المقدسات . وما يمكن الآن أن تغفل هذه الأريحية التى
استقبل بها صبرة بن شيمان ضيفه وافد معاوية ، وعرض بها عليه
حمايته ومنعه لو أنه نزل في رحابه وشاء لنفسه أن ينتفع بما تفرضه
اصول الجوار ..

المنافرة يشبها هنا معاوية من جديد ، محاولا أن يحتاز البصرة
بيمينه وسيلة من وسائل شتى اعدّها للسيطرة على الدولة بملكها
الواسع العريض . والنخوة يثيرها ابن الحضرمي من خلال التلويح
بما كان للأزد ، وغيرهم من اهل الإقليم ، من « أمجاد » أبان الجمل ،
لا اعترافا بفضلهم بل تذكيرا بصراهم بوقف في نفوسهم ولعها الجاهلى
للثأر . ومنعة الجار التى تسربت من بين أصابع مبعوث الشام ، تجد
من ينقض عليها كالصقر ، يحوزها ، ويدفع بها الى حلبة الصراع ،
لتلعب دورها التقليدى في تغيير سير الأحداث ،

كان زياد بن عبيد عند ذاك أميرا للبصرة بالاستخلاف . استخلفه ابن عباس عليها عند مخرجه للكوفة لتعزية الإمام في ابن أبي بكر . وكان ، مذ اقتحم ابن الحضرمي عليه أرضه ، يعيش كالمضيع . يوشك الا يعرف موضعا لقدمه في زحام الحوادث التي تتابعت سراعا ككسف الغيم في يوم عاصف وفد ندافتها الرياح الهوج ..

في خلال أيام ، وربما ساعات ، بدا للرجل كأنما نشابت وانتكشت الخيوط . الأمور تضطرب . الصدور تموج . الهدوء يلتحف بالتذمر .. ليكاد يوقن الآن أن الأرض غير الأرض ، وأن الناس غير الناس . فالبصرة تغيرت عليه . رفاق امسه ذابوا في هرج النعمة . الولي تنكر والعدو تنمر . وهو بين أولئك وهؤلاء في حيرة . إن استطاع أن يفكر فلا يستطيع أن يدبر . وإن وسعه أن يعزم فلا يسعه أن يحسم . فما هو إلا خليفة لابن عباس على مصر ، ليس في نطاق مهمته غير أن يرقب ويتابع ، ثم يبعث بالخبر ويطلب الرأي من الأمير ..

وهاله ان تتهاوى هيبة الدولة من حوله كقصر من الرمال .. فقد علا شأن ابن الحضرمي واستفحل . واكبته العشائر . ترامت اليه الجموع . كثر تبعه وعز ناصره . أما شيعة على الذين كانت لهم من قبل الكلمة فقد غدوا على تخاذل . وأما من عسى كان يرتجى منهم العون سواهم من قادة الرأي في الإقليم ، فقد وقفوا موقفا غريبا ليس أشبه بهم وليس أنسب له . أنأى عنهم ، وأبعد عن ظنه ! ..

وأحس أن ظله يتقلص . ما تحت يده من رقعة عمله أصبح الآن محصورا في دار الإمارة ، لا يمتد إلى ما يجاوز الجدران ! .. وهو بعد لا بدرى إلى متى يبقى له هذا الظل وما من رجل في أصحاب على يتقدم إليه بشيء من رأى أو من قوة يشد أزره ويسند ظهره ..

ولم يكن زياد بالذى يتطير . ولا بالكلف بالانحياز للريبة . ولكن سلوك ذوى ثقته لم يكشف له إلا عن الجوانب السوداء في الأمور . وكفاه ان دعا إليه بعض ساداتهم يعرض الموقف عليهم ، مستطلعا للرأى ، وطالبا العون على كبح الفتنة المقبلة ، فلم يحظ منهم إلا بما يزيد قلقه ..

أوما لهم إلى دعوة ابن الحضرمي ، وانفجارها المدوي بين الناس :
« .. إنكم انصار أمير المؤمنين وتقتنه . وقد جاءكم هذا الرجل بما
قد بلغكم .. فأجيروني حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين ورايه .. »
وأما أحدهم فإنه موه ، فطالعه برد ظاهره استشارة قومه ، وباطنه
تراخ وتخاذل .. إذ قال :

« هذا امر فيه نظر .. أرجع إلى من ورائي ، وانظر واستشير .. »
وأما الآخر فقد أطلقها عبارة في كلماتها معنى الإقدام ، وفي جرسها
فتور التردد :

« .. نحن فاعلون ، ولن نخذلك .. ولن نسلمك .. »

ولم يسترح زياد لما سمع . بل لعله ارتاح إذ عرف به خافية
أنفسهم فأيس منهم وقد ايقن أنهم لا بد قاعدون عنه أو خاذلوه ..
فمعرفة الشر المنتظر خير من توقع خير موهوم . واليأس راحة على
أية حال !..

عندئذ نفى عنهم يده . فلا حيلة له فيهم . ولا طاقة بحملهم -
حتف رغباتهم - على ما يشاء .

وقلب عينيه في اقوام اقليمه لعله يقع بينهم على نصير ، فإذا
البصر يعود حسيرا إليه كأنما قد جال في فضاء رحب به ظلام فوقه
ظلام !.. أو كأنما ارتاد غرفة مغلقة بغير كوى دارت بها النظرات حائرة
تتخبط من جدار لجدار !.. فمضر عليه . وته م ترامت إلى عدوه .
والأزد لا أمل فيهم وموقعة الجمل ما زالت تفصل بينهم وبين
على بن أبي طالب بسور ضخمة من جماجم صرعاهم التي لا تنى تتنادى
بالانتقام !..

وتذاكر الأمير الموقف وهو مثقل القلب والفكر ، مع رفيقه
أبي الأسود الدؤلي ، لينفض بعض ما يضيق به صدره ، وإن علم أن
الامر قد أعضل وغدا عصيا على المذاكرة والنقاش :

« أما ترى ؟.. صفى اهل البصرة إلى معاوية . وما في الأزد لي
مطمع .. »

فالتمعت على الاثر عينا الدؤلى .

الازد !..

إن اللفظة لتحمل في حروفها قبسا من نور خليقا بأن يلقى شعاعا
يضىء للأمير بعض الطريق !.. املا في غد !.. متفذا إلى الخلاص !..

كمثل خطفة البرق سطعت في خاطر ابى الاسود فكرة عابرة ..
لعلها لمحة إلهام .. أو لعلها نتاج فطنة لم تكن - فيما بدا - لصاحبه ،
وتفرد بها دونه عقل الدؤلى الذى هيأه طبيعته الذهنية للاستنباط
الموفق السريع .. فلقد كانت للرجل - لا ريب - قدرة على استخلاص
النتائج من المقدمات ، والنظريات من العموميات نعرفها له فيما
استخرجه من كلام العرب من قواعد النحو التى تحكم اللغة وتسير بها
على سننها السليم . وهذه القدرة هى التى يسرت له أن يغوص في
الموقف الضنك الذى يقفه زياد ، ليأتى له بما قد يصلح شأنه ، ويحل
عقدته . تماما كالغواص الذى لا تلفته ثورة البحر ولا ما يغطى صفحته
من الزبد أو العشب عن انتجاع أبعد المواقع في قاعه وهو عليم بموضع
اصدافه التى تحتوى درها الثمين ..

هنا يتبدى لنا ابو الاسود الدؤلى رجل سياسة متفتح الافق طويل
الباع لا يعسر عليه أن يستقبل الأزمة العارضة بالعلاج الذى يكف
عاديته ، ويروضها ترويض فارس بارع لفرس جموح . وكيف يعسر
عليه أن يفعل ، وقد عايشها في بيئتها ، بكل ظروفها ودواعيها ، منشا
وغاية ؟ .. إنه إذن ليس باللفظن الذى يستنبط ويستخرج إن لم يسمعفه
ذهنه باستخلاص « قاعدة » تستطيع أن تتحكم في الموقف وتسير به
على النسق المرغوب !..

وتريث هنية وقد زوى ما بين عينيه ..

الازد !..

ثم قال للأمير :

« .. إن أصبحت فيهم منموك . »

فهذه هي القاعدة !.. ان يطوع الاوضاع الاجتماعية لخدمة
قضيته . ان يستخلص من التقاليد العربية مفتاح الحل . ان يطبق
نظرية « الجوار » !..

وقلبت عبارته الاوضاع !..

فقد هب زياد على الأثر ، يبعث لصبرة :

« يا بن شيمان .. انت سيد قومك ، واحد عظماء هذا المصر ،
فإن يكن فيه احد هو اعظم اهله فأنت ذاك .. افلا تجيرنى ، وتمنعنى
وتمنع بيت مال المسلمين فإنما انا امين عليه ؟.. »

ولم تتنكر الأريحية العربية لطبيعتها فلم يتأخر الجواب ..

رد صبرة :

« إن تحملت حتى تنزل في دارى منعك »

وعادت الطمئينة الى قلب زياد .

خرج من دار الإمارة بليل ، مستخفيا بالظلام . كأنما ليكنتم عن العدو حركته . أو ليتقى نظرات الأعين الشامتة . أو لينأى بمال المسلمين أن تفتصبه فئة قد هان عليها سلطانه . . فما كان يملك بعد أن يرد عن نفسه ، وما في يمينه ، عادية من قد يعرضون له بسوء وانه عندئذ لمستباح الحرمه لم يبلغ مامنه . .

وخلأ منه القصر كما عطل هو من سمة السلطة بخروجه وان يكن استبدل بهما كليهما دار طمأنينة هي أروح لباله وامنع له . . فالبصرة الآن مرتع ثرى هين لابن الحضرمى وأصحابه ، ينشرون بها دعوتهم المتمردة ما شاءوا . ويملكون منها ما شاءوا . وبغشونها بسطوتهم وقد غلبوا على أرجائها ونواحيها ، إلا ذلك الحى الأزدي الذى أصبح منها مثل جزيرة من الولاء في بحر صاخب من العدااء والخصومة . .

حتى معالم الإمرة المظهرية قد اغتصبوها منه . فلهم انتهت إمامة الصلاة . وهم الذين بجيئون المال . وفي أيديهم سياسة الأمور . والإقليم يعنو لهم ويخضع ثم يصفى وراءهم لمعاوبة صفيا كأنه قرية من قرى الشام تقع في نطاق سيفه وماله . . !

ومع ذلك فنحوة الأزدي كانت له . . بكل روحها ساندته . . بأيدىها وغيرها . ببأسها وشوكتها . ياندفاعها المقامر الذى جل عن تصوره وارتفع الى ما فوق طموحه . . فإن هى إلا ليلة قضاها في جوارهم حتى طلع عليه صبرة مع أول شروق يقول :

« . . ليس حسنا ان تقيم فينا مخفيا اكثر من يومك هذا . . » .

فرفع زياد إليه نظرة لعل فيها من اثر البغته اكثر مما احتوته من ملامح التساؤل . . لكن الجواب المنتظر لم ترسمه عبارة ، وإنما جديته أعمال . .

فيما لا يكاد يستغرق وقتا ملحوظا كان سيد الأزد قد عوضه ما سلبته الفتنة من مظاهر السلطان .. أعد له مسجدا للصلاة ، ومنبرا للخطبة ، وسريرا للحكم ، وشرطا للأمن والحراسة . فهو إذن قد أرندت له مقومات الإمارة : هيئة وكلمة وعدة ، لولا ان انحسر ظله عن بعض رقعة الأرض التي كان يفشاها بنفوذ ..

ومارس زياد مهمته على الفور ، قام « شعبه » الأزد في صلاة الجمعة بمسجد الحدان الذي جعلوه مركز دعوته وحكمه . وصعد المنبر بخطب الجموع :

« يا معشر الأزد .. إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي .. ولو كنت في بني تميم وابن الحضرمي فيكم لم أطمع فيه أبدا وأنتم دوني . فلا يطمع ابن الحضرمي في وأنتم دوني .. »

وتمهل قليلا ، ثم عرج مترفقا على ماضيهم :

« .. يا معشر الأزد .. ليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار . وقد رأينا وقفتم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل .. »

ثم ختم كلامه :

« .. إنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تعذرون على الجبن .. وقد أصبحت فيكم مضمونا وأمانة مؤداة ! .. »

فالتهبت قلوبهم نخوة . وهب شيمان أبو صبرة يهيب بقومه :

« .. ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ! .. قد كنتم أمس على على فكونوا اليوم له .. فأنتم حي مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء .. »

وعقب ابنه بعده :

« .. لسنا نخاف من على ما نخاف من معاوية .. وهذا

زياد جاركم والجار مضمون ، فهبوا لنا انفسكم ، وامنعوا جاركم
او فأبلغوه مأمنه . . . »

وكذلك انشطرت البصرة شطرين بين الأزد ومن عداهم كأنما
غدت امارتين كل امارة منهما في طاعة امير وسلطانه تماما كانقسام
الدولة نفوذا وولاء بين على ومعاوية . ولئن قيل ان مبدا من المبادئ
— جادا كان او موهوما — هو الذى شطر وحدة الأمة الإسلامية ،
فليس عن ذلك المبدأ نفسه ، ولا عن سواه ، انقسمت البصرة وافترق
أهلها فرقتين ، وإنما الذى أدى بها إلى وضعها ذاك ما ركب في
طبائع العرب من حرص بالغ على رعاية تقاليدهم والوفاء لها اعظم
الوفاء وإن خاضوا إلى وفائهم هذا بحارا من الدم ، واجتازوا دروبا
طويلة من الاشلاء والجماجم .

لا مرأى في ان انضمام الأزد إلى زياد لم يكن منهم ولاء لعلی ،
ولا رعاية لمبدأ ، ولا نصرة لرأى ارتأوه إذ قامت الحجة على رجحانه
فظاهروه على ما عداه . فلو كان لمبدأ في نفوسهم مكانة تعطفهم حينذاك
على الرجل لما رحب صاحبهم بابن الحضرمي عندما اقبل ولا اوشك
ان يفسح له في رحابه . ولو أنهم حقا كانوا يكونون بضعة من ولاء
لأمير المؤمنين لثاروا بوافد معاوية ، ولوقفوا دونه ودون بلدتهم ان
يدخلها من البدء أو يجمع أهلها حول دعوته . ولو شاموا رأيا خليقا
بالاتباع والمناصرة في حديث زياد لشمناه معهم ، فليس بالحديث
ما يطالعنا بفكرة جديدة أو حجة مقنعة ، وكل عباراته استشارة للنخوة
وتدريج بالجوار . .

إنما التفاخر هو الذى حركهم ودفعهم للالتفاف بالامير الذى
انقض عنه الناس . فالعار كله ان يستنجد بهم فلا تسعفه نجدتهم ،
وان ينزل في جوارهم فلا يجد عندهم حق الجوار ؛ والعار كله ،
وقد أجاروه ، أن يعز جار تميم ويهون جارهم على أهل الإقليم .
والعار كله ان يصبح ابن الحضرمي ذا صولة ويبقى زياد ، وهو بين
ظهرانيهم ، عاطلا من مظاهر القوة ومقومات السلطان . .

هى إذن مناصرة بينهم وبين تميم ومباراة على اى الفريقين اثبت
في المصمار واقدر على الانتصار .. اما مظاهره الحق على الباطل ،
واما حمايه وحده الدولة ان تمزقها فتنة ، واما الطاعة لعل صاحب
السلطة الشرعية في البلاد ، فكلها ليست اصلا لوقوفهم موقفهم هذا ،
بل هى ذيل وتبع للغيرة على سمعتهم ان يقال اخلت الازد بواجب
الجوار ..!

على هذا النحو سارت الأزمة وابلغت الكوفة بأمرها في كتاب ،
بعث به زياد إلى اميره ابن عباس :

« .. ان عبد الله بن عامر بن الحضرمي اقبل من قبل معاوية
حتى نزل في بنى تميم ، ونعى ابن عفان ، ودعا إلى حرب ، فبايعه
جل أهل البصرة . فلما رأيت ذلك استجرت بالازد ، بصبرة بن شيمة
وقومه لنفسى ، ولبيت مال المسلمين .. والقصر خال منا ومنهم
.. فارفع الامر إلى امير المؤمنين ليرى فيه رايه ، وأعجل إلى
بالذى ترى ان يكون منه فيه .. »

وليس هذا الكتاب — فيما اخال — بأول نبا وصل الكوفة عن
دخول ابن الحضرمي البصرة ، ولا عن دعوته المعادية بها ، ولا عن
اعتزاز شأنه فيها بامتناعه بمن بها من بنى تميم .. فلقد جرى الذكر
بأن تميم الكوفة خشيت ان يستفحل الامر فتقع الحرب بين الازد
وبين عشيرتهم في البصرة ، فأسرع منها من يشير على الإمام وهو
يرجو السلامة لقومه من خلال ابتغاء السلام ..!

قال له :

« يا امير المؤمنين .. ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادعه إلى
طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلط عليهم أزدعمان البعداء البغضاء ..
فإن واحدا من قومك خير لك من عشرة من غيرهم .. »

وساءت عبارته هذه رفيقا من ازد الكوفة ، فثار :

« إن البعيد البغيض من عصى الله ، وخالف امير المؤمنين ، وهم

قومك !.. وأن الحبيب القريب من أطاع الله ، ونصر أمير المؤمنين ،
وهم قومي !.. »

تفاخر آخر !.. ادلال بالمكانم والميزات يهم أن ينفث سمه ،
ويوقع النفور والتباغض بين حليفى الكوفة وقوعهما بين عشيرتهما
في أرض زياد !.. لكن الإمام كان أسرع إلى حسم الداء ، فصاح بهما
ينهرهما ومن وراءهما لدنه من الأزد وتميم ، وبؤدبهم جميعا بأدب
القرآن :

« .. تناهوا أيها الناس !.. وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغى
والتهاذى ، ولتجتمع كلمتكم واذكروا إذ كنتم قليلا مشركين ،
متباغضين متفرقين ، فألف بينكم الإسلام فكثرتكم .. فلا تفرقوا
بعد إذ اجتمعتم . ولا تباغضوا بعد إذ تحاببتكم فأما تلك الحمية
من خطرات الشيطان فانتهاوا عنها — لا أبا لكم ! — تفلحوا
وتنجحوا .. »

وقد اخذ الإمام بالمشورة فاستنفر تميم الكوفة أن يفرقوا عن
ابن الحضرمى عشيرتهم بالبصرة التى آوته ونصرته واعزت شأنه في
الاقليم .. ومضى يكرر دعوته فيهم . ويحثهم أن ينهضوا لها حماية
لقومهم أن تقع بينهم وبين جيرانهم الأزد حرب قد لا تحمد مغبتها
عليهم ..

لكنهم ، فيما بدا ، لم يصغوا له ، وإن ظل أياما عدة يهيب بهم ،
ويشتظر منهم أن يلبوا ندائه .. فما نهض منهم أحد . ولا قام عنهم
بالأمر غيرهم من أصحابه . بل بقوا ، والكوفة وراءهم بجميع شعبيها ،
كدابهم أجمعين في هذه الفترة في مختتم عهده ، سادرين فيما استعراوا
من تهاون وتخاذل وثبوت همة ، يستقبلون ما يطرا من الحوادث —
خطيرها كصغيرها — بغير احتفال !..

وضاق أخيرا بموقفهم :

« .. اليس من العجب أن ينصرنى الأزد وتخلدنى مضر !.. »

واعجب من ذلك تقاعد نميم الكوفة بى ، وخلاف تميم البصرة على ! ..
وان استنجد بطائفة منها تشخصر إلى اخوانها فتدعوهم إلى الرشاد
فإن أجابوا وإلا فالمنايذة والحرب فكأنى اخاطب صما بكما لا يفقهون
حوارا .. جينا عن الناس ، وحبا للحياة ! .. »

وصمت هنيهة . إن العزم الذى كان يملأ القلوب بالأسى ، ويدفعها
إلى اقتحام المكاره والغمرات ، اباء للضميم ، وأنفة من الاستسلام
- ولو للأهل الأذنين - جدا في نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، قد فتر
اليوم . خبت ناره . بردت جذوته التى كان الإيمان يمدّها من قبسه
بما يشعل النفوس غيرة وتحولت إلى رماد ! ..

وأتبع يقول :

« » لقد كنا مع رسول الله فقتل آباءنا وأبناءنا وأخونا
واعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما .. فلما رأى الله صدقنا ،
أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل بنا النصر ، حتى استقر الإسلام
ولعمري لو كنا نأتى ما أتيتم ، ما قام الدين عمود ، ولا اخضر للإيمان
عود »

ثم رماهم بنظرة أسف وزرارية ، وهو ينهى حديثه :

« .. وايم الله لتحتلبنها دما ، ولتتبعنها ندما ! .. »

فلعل كلماته تلك فعلت بعض فعلها في نفوس طائفة منهم ،
فتهاست مليا ، ولغطت ، ثم أقبل بعضها على بعض يتلاومون .. كيفما
كان أمرهم فإن أحدهم قد حركه اللوم ، وأثار غيرته ، فأنبرى من بينهم
يعتذر :

« لا نساء يا أمير المؤمنين . ولا يكن ما تكره .. »

« ألم يبلغك ، يا أعين ، أن قومك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمي
بالبصرة ، يدعون الى فراقى وشقاقى ، ويساعدون الضلال القاسطين
على ! .. »

« فابعثنى إليهم !.. انا لك زعيم بطاعتهم ، وتفريق جماعتهم ،
ونفى ابن الحضرمي من البصرة او قتله .. »
« فاخرج الساعة . »

غير أن الحوادث بمستقر الفتنة لم تكن لتقف حيث هي لا تتقدم
حتى يقدم أعين بن ضبيعة من الكوفة ليهدي قومه .. فللحوادث
أحيانا أقدام تمشي ، وأحيانا تعدو ، وأحيانا أخرى لها أجنحة ترفرف
لتطير !.. والشرار يلد الشرار فينتشر وتندلع النار !..

في لحظة من لحظات زهوهم بما أدركوا من غلبة وبلغوا من نصر ،
شاءت تميم وقيس أن تجمع لحزبها الظافر بالبصرة مظهر السلطة
إلى جوار قوة الحول وبسطة النفوذ .. فالكثرة لها . ورقة أرض
الأقليم نحت ظلها إلا ناحية . والمال يأتيها من جوانب الولاية وأرجائها
جباية . وهي من العدة والعدد على النحو الذي يمكن أن تستقيم
لها به كافة الأمور .. فإذا هي شاءت أن يتوفر لها أيضا « شكل »
الحكم فإنها إذن لا تطمع بهذه المشيئة إلى محال لأنها لا تتجاوز حدود
ما هيأه لها الواقع الملموس ..

وكذلك أرادوا الاستيلاء « رسميا » على السلطة — بعد استيلائهم
فعلا عليها — تحقيقا للغرض الأصيل من وفادة مبعوث الشام .
وهل شيء أيسر عليهم وأدنى منه وليس أمامهم غير خطأ قصيرة
يقطعونها وينزل بعدها صاحبهم بقصر الإمارة المهجور ؟ ..

ورحب ابن الحضرمي لا ريب بالفكرة على الفور ، وقد راقه أنهم
ترجموا عن ضميره ، وأخذوا أنفسهم بتنفيذ ما رسمه إلى آخر
مداه .. فإن هي إلا ساعة من زمان ويبلغ وطره .. يقتعد الأريكة
الخالية في القصر ، فيصبح عاملا على البصرة ، يضمها إلى ملك الشام
تحت سلطان صاحبه ابن أبي سفيان ..

واتعدوا ..

لكنهم ما تهيأوا للمسير حتى علمت الأزد فثاوت حمية .. وبرزت
لهم في فرسان كفرسانهم ، وعدة كعدتهم ، وعلى عزيمة وتصميم

الا يدخل القوم القصر إلا بقتال !.. فلهوان كله ان يجلس ابن الحضرمي مجلس زياد . وان تنفرد تميم وقيس بتنصيب الوالي . وان يتحدث الناس ان الأزد لم تحفظ على جارها ما هو له ، وما لم يدعه - طائعا - لسواه . وليس ابن الحضرمي ، على أية حال ، لهم برضا يخلون بينه وبين الأمرة عليهم وسياسة الأمور في الاقليم .. فاما إذا كان لابد اليوم من أمير ، فليكن إذن رجلا يرضاه أولئك ويرضاه هؤلاء .. وتأنم الموقف ..

ذاع في الجو عرف الحرب وقد أبى كل فريق إلا ما رآه .. فإذا الصدور تغلى . وإذا القلوب تشتعل . وإذا السيوف تتعري وتبعث بريقها يخطف العيون .. لا معدى إذن عن لقاء دام بين الحزبين ، يحسم الخلاف ، ويضع الفخر منهما حيثما ينبغي ان يكون .

وهال الأحنف بن قيس ذلك الخطر المحلق على الرءوس ، فمشى إليهما جميعا يحاول ان يهديء الشائرة ، ويحد من الغلواء .. إن الرجل لعلى حيدة من كليهما ، قد كف يده منذ البدء عن الدخول في الأمر ، فهو لا إلى ابن الحضرمي ولا إلى زياد . لكنه يخشى ، إن هو تركهم وما هم فيه ، ان تنسع الهوة ، ويلجوا في عنادهم حتى الدم .. والحمية دائما عشواء عمياء !..

واستطاع بعد طول جهد ان يكبح الجماح ..

وانصرف الجمعان .

ومع ذلك فقد شق على جماعة ابن الحضرمي ما كان . فرأت أن ترمى القوم بسهم قاتل مما في جعبتها من مكر ، لعلها أن تخضد شوكتهم ، وتكسر حدتهم ، وتقضى على هذه المعارضة التي لا تظنهم - وإن جنحوا الآن للهدوء - مقلعين عنها ما بقى الجانبان في تنافس على نصره مستنصر أو حيازة نفوذ ..

وهذاها خبثها إلى خدعة هي السبيل المفتوح إلى تحقيق ما تريد .. فماذا عليها لو ادعت الحيدة من الخلاف الناشب بين العاهلين بالكوفة ودمشق ، ودعت خصمها ان يسلك وإياها سلوكا سلبيا

ازاءهما ، وازاء كل ما لعله قد يؤازر احدهما او الآخر ، من اشخاص واعمال .. ٤ . إنها إذن للسياسة الرشيدة الخليقة من كليهما بالاتباع ، والكفيلة بتجميد الموقف ثم حقن الدماء حتى تستبين الأمور .

وارسلت تميم الى الازد :

« اخرجوا صاحبكم ، ونحن نخرج صاحبنا ، فأي الاميرين غلب : على او معاوية ، دخلنا في طاعته ، ولا نهلك عامتنا .. »

لكن الحيلة لم تجز على الازد ، وكان جوابها على هذه الدعوة الخبيثة ، بلسان صبرة بن شيمان :

« لا ! .. إنما كان هذا يرجى عندنا قبل أن نجيره .. ولعمري ما قتل زياد وإخراجه إلا سواء »

لفترة هدأت البصرة . قرت النفوس بها بعض قرار ، واطل ربوعها سلام ظاهر طفا على سطح الاضطراب ..!

الأرد أراحها أن نجحت ، في حساباتها ، وقادة الأحنف بن قيس فوقف خصمها عند القصر لا يجتاز تلك « الشقة الحرام ! » التي تمنعه طبيعة الوضع السياسى القائم بالاقليم أن يجتازها ، أو يعيث بحرمتها ، ما دام مجموع السكان لم يتفق على التغيير .. فالحاكم الشرعى هو زياد . والقصر ما زال قاعدة حكمه وإن أخلاه . وامثال قيس وتميم ومن وراءهم نصيحة الأحنف بالكف عن اقتحامه فيه نسليم برأى الأزدي ، واعتراف - رمزي على الأقل - بقدرتها على حماية الجار ..

وانصار ابن الحضرمي قبلوا الانسحاب - انصياعا للتعقل واخذا بسنة الدهاء - راضين ككارهين ، وكارهين كراضين .. فأما الكره فلأنه حال بينهم وبين مظهر السلطة المنشود ، ولو إلى حين . وأما الرضا فلأنه أسلوب عمل صاحبهم وجادة سلوكه في حدود الخطة التي رسمتها الشام .. فما قطع وافد معاوية كل هذه المراحل الطويلة إلى الجنوب البعيد ليدخل البصرة عنوة ، أو ليغتصب أمارتها بحرب حامية على بحر هائج من الدماء هو القادم إليها في حفنة قليلة من الأعوان . بل قد جاء ليتسلل إلى نفوس أهلها ، وليختلس أرضها وسلطانها اختلاسا بانقلاب سلمى هادئ أو بثورة باردة بيضاء ..!

غير أن الأحداث ابت إلا أن تعجل القوم عن هدوئهم وتسرع إليهم بلحظة الحسم التي كان لابد أن تكون . فليس من طبيعة الأمور أن يسود السلام اقليما انشق أهله ، وتنازع مصيره فريقان منهم يتصارعان على النفوذ . وليس أيضا بمقبول أن تجمد الدولة فلا تتحرك وهي ترى جزءا منها يوشك أن يقع في برائن فتنة تفصله

عنها وتقتطعه نهبا مباحا لمتنرد خارج على النظام . وليس كذلك
مما يساغ ان يصبر إلى الابد على هذا الوضع المتميع فريق لمست
الظفر انامله ثم لا يمد إليه يده قيد اصبع ليحتويه في قبضته !..
تلك كانت العوامل والأحاسيس المحركة للظروف والموجهة
للأحداث ووافد أمير المؤمنين يمضى شوطه من الكوفة ليدعو اهله
وعشيرته بالبصرة ان يرشدوا فيلزموا الطاعة ويصموا الاذن عن
وسوسة الشيطان !..

بدا أعين بن ضبيعة مهمته خير بدء ، وكما ينبغي ان يبدأ مثلها
سفير . فلم يتجه لقومه وإن كانوا عساهم قد علموا بحضوره ، وإنما
جعل همه ، من اول خطوة خطاها ، زيارة زياد ، إعلاما له من جانب
بوفادته ، وإشعارا لجمهور السكان ، من جانب آخر ، إنه الأمير الذي
يجب ان تحط عنده الرحال ولا محط لقادم عند سواه ..

وتذاكر الرجلان الأزمة . وأدلى كلاهما فيها بما يراه . ثم زودهما ،
بعد قليل ، بريد الكوفة برأى أمير المؤمنين :

« .. إني قد بعثت بن ضبيعة ليفرق قومه عن ابن الحضرمي .
فارتب ما يكون منه . فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به .. فهو مانح .
وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان .. فجاهدهم ..
وإلا فطاولهم .. فكان كتائب المسلمين قد أطلت عليك .. » .

وقال أعين لزياد وقد سمع ما في الكتاب :

« إني لأرجو أن يكفى هذا الأمر إن شاء الله .. » .

ثم خرج يشتد لتحقيق ما ندب له .

إن الكيل قد امتلأ وفاض . وسيرة الحسنى التى سارها الإمام
في هذه الأرض - عفوا ورحمة - لم تلق ، فيما يلوح ، عند قومها
ما هى أهله من العرفان والوفاء . فالصبر إذن عليهم نقيصة ،
والتسامح ضعف ، وليس لهم عند حاكم يعرف تبعته ، ويستشعر
حق أمته عليه إلا الحزم الذى يقطع ويردع ، وآخر الدواء الكى فيما
يقال !..

بهذه النظرة انطلق أعين ليجتمع ببعض قومه يبصرهم الأمر ،
ويحثهم أن يجتنبوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة :
« .. على ماذا تقتلون انفسكم ، وتهريقون دماءكم على الباطل مع
السفهاء الأشرار ؟ .. » .

ثم حذرهم :

« .. إني والله ما جئت حتى عبيت إليكم الجنود . فإن تنيبروا إلى
الحق بقبل منكم ، ويكف عنكم . وإن أبيتم فهو والله استئصالكم
وبواركم .. » .

فقبلوا منه . ومضوا وإياه إلى إخوانهم الذين التفوا حول دعوة
ابن الحضرمي ، يحاولون معه نصحتهم لعلهم يرشدون ..

لكن العصيان الذي خامرهم وترسبت في نفوسهم رواسبه حملهم
على استقباله أسوا استقبال .. ما أن حل حيث كانوا حتى أسرعوا
إليه بالسخط كأنما قد جاء يدعوهم لغير الوفاء والشرف والسلام ! ..
بل قد خرجوا إليه مصطفين في العدة والسلاح ! .. بل قد حشدوا
حشودهم له كأنه هو جيش وحده لا يجل بهم لقاءه إلا وهم على أهبة
القتال ! .. بل قد قدموا ابن الحضرمي أمامهم يحفون به . ويلتفون
حوله كأنه علم الكتيبة ، إمعانا في التحدي ، وإغراقا في المجاهرة الرعناء
بالمخالفة والعداء ! ..

وعجب الرجل لهذا السلوك منهم وإنه لابن عشيرتهم ، الناصح
لهم ، الأمين عليهم ، القادم عبر تلك الشقة الطويلة المضنية ليكف عنهم
البلاء .. وراح من إشفاق يناشدهم الله :

« يا قوم .. لا تنكثوا بيعتكم ، ولا تخالفوا إمامكم .. » .

ثم مضى يشرح ويبين ، أنا يذكر ، وأنا يحذر . فمنهم من يصفى ،
ومنهم من يعزف عنه ، ومنهم من يقطع عليه الحديث في تبرم وإنكار
أو في لدد سافر وعداء صريح ..

ومع ذلك فقد سار شوطه ، وشحذ كل منطقه وهو يحاور ويجادل ،
يبصر وينور ، يمني وينذر . وماله لا يفعل وقد بدا له من ملامح

الوجوه ومن رشاش اللفظ المتناثر من هنا ومن هناك أن ثمة ما يومىء إلى تصدع طائفة غير قليلة من الحاضرين عن ابن الحضرى تصدعا يكاد يخرجها من صفوفه ، ويعود بها - وقد انجابت عن عيونها غشاوة الفى - إلى طاعة الإمام ؟ ..

ولقد كان من الطبيعى أن نهول هذه الظاهرة الخطرة حاملى دعوة ابن الحضرى الباذرين معه بذور الشقاق . فما مآل حديث أعين إلا أن يرفع الاكنة عن قلوب كثيرة فترى النور . وما غاية النور إلا أن يبين ويهدى ، فتهدأ الخواطر وتثوب الالباب . وما نتيجة استنارة العقول إلا تصدع جمعهم ، وانفضاض جمهرة اعوانهم عنهم التى تابعتهم من قبل بروح القطيع وتهافتت عليهم تهافت الفراش - مسلوب الإرادة - على النار ! ..

جزعت إذن هذه الفئة المشاقة الغالية في العداء للإمام وهى تلمح الأثر الذى يتزكه حوار ابن ضبيعة في الناس ، وختيت إن هى أملت له في الحديث أن ينقلب الأمر ، فتنطقىء نارها ، وتذهب قوتها ، ويتهاوى ذلك الصرح الشامخ للفتنة الذى أقامته بالخداع والدسيسة ليصبح غبارا تذروه الريح .. وعندئذ قشطت للعمل وأخذت نفسها بالتصدى لأعين ، وللذين مالوا إليه ، لعلها أن تدرا عاديته عن دعوتها ، وتخرج من المحنة التى أغرقها فيها بخير ما تستطيع ..

ولم يكن لها أن تقابله حجة بحجة وبرهانا ببرهان لأن الحوار في مثل هذا المقام له لا عليه . فهو ينضح عن قضية الوفاء بالعهد ، والولاء للدولة . وهو قادم لسلام يجنب الناس انقساماً يشدهم لا محالة إلى دم .. وهو يأخذ على يد القوم أن يصبأوا إلى الوقوع ثانية فيما علمتهم التجربة وبال الوقوع فيه . وهو بعد هذا في فريق من أهله إن لم تعطفهم إليه صلة الرحم فقد عطفهم حرصه عليهم أن تقصفهم المصارع وتتخطفهم الختوف ..

ليس بالمنطق يظهر صانعو الفتنة على أعين ، وإنما بدرء منطقهم أن يبلغ المسامع ويرسخ في الأفهام .. يعزل صاحب المنطق عن الناس وإن وقف فيهم لا تغيب هيئته عنهم ، وظل حديثه يجول بين الأذان .. بإقامة سور ضخم من الضجيج والضوضاء بينه وبين الإصغاء ! ..

وفعلوا .

ضجوا على أعين ، وشغبوا على حديثه بأصوات نكراء كالعواء .

والشغب دائما سلاح كل متهور عاجز ، وسلاح كل فتنه تفتقر من الحق أو من القوة إلى ما تقدر به على التماس المسالك إلى العقول، لأنه السلاح الذى يستطيع صوته الهادر ان يطفى على ما عداه من اصوات ويملاً بهديره الأسماع . .

ولم ييأس الرجل ، بل ظل يعيد ما يقول ، ويكرر ما يعيد ، عسى أن تنفذ من ثغرة هنا أو ثغرة هناك في سور هذا الضجيج كلمة أو كلمات . . مرارا عديدة ثبت لهذه الضوضاء القاصفة ، وحاول أن يخترق سدها المنيع ، حتى مضت به عامة يومه ينصح واصحاب الفتنة يهدرون . يبصر وبضجون . يحذر ولا يكفون ، ومن ورائهم بقية الناس في معزل عن قوله ، لا يكادون يلقفون كلمة من عبارة ، ولا حرفا من كلمة ، أو يعرفون لهم منفذا إلى الاستماع . . حتى إذا آده عنت أصحاب الصخب ، وأعياء ان بحملهم على الإصغاء والهدوء . ثم آيس أن يرشدوا ويستقيموا ، صرح محاولا ان يذكرهم وبقية الجمع محنة امسهم القريب التى جرها عليهم مسلكهم الاحمق حين آثروا الخلاف والعصيان . .

« . . يا قوم ، لا تجعلوا على انفسكم سبيلا . . قد رأيتم وجريتم كيف صنع الله بكم ، عند نكنكم بيعتكم ، وخلافكم . . . » .

فإذا بمثيرى الفتنة ، وقد أضلهم هواهم ، وأعماهم عنادهم ، يشورون به أعنف ثورة تجزئه عن حرصه على سلامتهم شر جزاء . . فقد أفحشوا له في القول ، فلفطوا عليه بأقذع السباب . ثم نالوا منه باللفظ والإشارة . ثم أوشكوا أن يذيقوه حينه . .

ورأى الرجل ألا مناص — لحظته هذه — عن الانصراف عنهم ، فغادر مكانه وهو اسيف حزين وإن يكن قد استشعر الرضا وراحة الضمير . . فكفاه ان فئة منهم وعت قوله في مستهل الاجتماع ولعلها تكون نواة الهداية وبشائر الجنوح للسلام في الإقليم . وكفاه ان بلغ

رسالته للكافة ، ولم يكذبهم الرأى والمشورة ، مبينا لهم مغبة التمرد والانتقام ..

وهل هو إلا نذير ؟ ..

لكن اصحاب الشغب غالوا - إلى العمى - في سخطهم وحقدهم عليه ، حتى لقد نسوا أنه منهم . وأنه قد اتاهم برسالة سلام ووثام لا برسالة حرب وضغينة . وأنه آمن بينهم - أو ينبغي عليهم ان يكون - على ماله ونفسه إذ هو رسول ..

نسى القوم هذه العوامل ، ونسوا معها كل شيمة كريمة ، فابوا إلا التنكر لكافة ما تقضى به الشرائع ، وتوجيه قيم الأخلاق ، وتبرمه فروض التقاليد .. فإذا بجماعة منهم تتسلل إليه ، في جوف الليل ، وهو نائم برحله ، وحيدا بلا رفيق ، اعزل بلا سلاح ، وتنقض عليه بأسياها تتعاوره لتقتله غيلة ..

واوشك اعين ان يفر منهم بجراحه وقد ايقظته الطعنات . ولكنهم لم يدعوه . إنما تبعوه في الطريق الخالى على خيط دمه وانين أوجاعه ، حتى مزقوا جسده وقضوا عليه ..

ونجح القدر حيث اخفق الشغب فسكن المنطق الذى هالهم انتشار جرسه الوقور في الأذان ، وراعهم ان يسيطر على الأذهان .. والتهب الموقف في البصرة من جديد نتيجة لهذه الفعلة النكراء .. وعاد شبح الحرب ، كرة اخرى ، يطرق الباب ..

فلقد غضب مسجد الحدان لمصرع وافد الإمام .. غضب زياد ، وغضبت الأزد معه بطبيعة الحال . ربما كان غضبها انتصارا للوآقد ، وربما غير إنسانية للدم المراق .. لكنه لا ريب غضب قد انبعث من تشيعها لزياد ، ومن وفائها لتقاليدها العربية الكلفة عادة بإكرام الضيف ، ورعاية النازح الغريب ، وتأمين الرسل وأصحاب الوفادات إذ هم امنة ، في اعتبار كافة الشرائع ، أيما كانوا ، وكيفما كانت الرسائل ..

روعته النذر ..

في الجو رائحة عاصفة .. الهدوء يتحطم . الأفق الصافي ينجاب صفاءه ويتلون بالدكنة كأنما يلتف بدثار الليل . الغمام يتدافع ويتصارع ، ثم يتزاحم ويتلاحم ، ثم يلتئم كسفة واحدة شهباء تغشى السماء . البرق يخطف ويندلع كالخريق . الرعد يقصف فتترنح الأرض بهديره وترتعد رعدة محموم .. ومن وراء هذا كله سيول وصواعق تهم أن تنهمر وتنتثر ، لتنشر الغرق والنار والدمار ..

وتفكر مبعوث الشام .

وكان آونة كالحالم ، وآونة كالمبغوت .. فالصورة الآن أبعد عن ظنه واقرب إلى ما تسوقه صرعة كابوس ! .. وذهنه فيها تائه ، نرامت امامه الأبعاد نائية ، وعمقت الأغوار سحيقة ، فكاد من حيرة يدور حول نفسه كدوامة ! .. والخطر هذه المرة لا يخاليل الميون والعقول من بعيد ، ولا هو متربص متاهب ينتظر ويرقب ، بل يوشك أن يطير بجناح ! ..

وقلب الرجل أمره ما أسعفه عند ذاك جنانه ..

افيكون اجدى عليه ، على نفسه ومجده ، واقوم لسياسة صاحبه القابع هناك بدمشق يخطط ويدبر ، أن يخوضها الآن حربا سافرة على اعدائه ؟ .. أم الخير في الطاولة - إرجاء للحظة الفصل ، إن وسعه إليها سبيل ؟ ..

كادت الغيلة الحمقاء أن تعجله عن أمره ، وتفسد تدبيره ، وتدفعه دفعا ، كأنما يحمله تيار جارف ، إلى مغادرة قلعة التريث المتحصن بها ، لتخرج به إلى الصراع في العراء المكشوف ! .. حتى أمسه كان آمنا في حصنه ، يعمل على مهل ، من وراء جدر الإعداد الخفى ،

واسوار التآمر والدس ، ناسجا شراكه المتينة الدقيقة ليقتنص النصر .
ليختلسه .. ليمتصه قطرة قطرة والخواطر مسترخية او غافلة عنه ..
اما وقد غدر اصحابه بأعين ، وقتلوه غيلة ، فتلك الغدره هي الوخزة
المؤلة التي نبهت عدوه من الغفوة وحفزته .. فها هو زياد يتنمر بعد
ضعف ووهن ، او بعد تماوت وقبوع إلى المسألة او الاستسلام ..
ها هي الأزد تشتعل حمية أن يجللها سكوتها على الغدر بصاحب
جارها الهوان والعار .. هاهم شيعة وأعوان آخر للإمام في الإقليم ،
كانوا إلى الأمس في تردد ، يقهرهم الموقف - إذ انكشف عن بصيرتهم
الغطاء - على نفى ذلك الجمود الذي صفدهم به ، طويلا ، التخاذل ،
وكبلهم الثبوت ..

وحقا قد نهض زياد في السلاح ، بالأزد جميعا ، وبمن فاءوا إلى
الهدى والطاعة من شيعة الإمام ، وبمن عساهم كذلك أثارتهم الغيرة
الفاجرة بين اهل الإقليم .. ولم يكن له إلا أن ينهض نهوضه ، في لحظة
تلك على الفور وقد جاءته حماقة تميم بفرصة العمر دون أن يجهد
فتيلا لتحريك الأحداث .. ولم يكن له إلا أن يفيد ما استطاع من هذه
البادرة التي - عن سوء تبصر وانطماس وعى - أهدتها زلة عدوه
إليه ..

ونوشك أن نجد الآن من يقول إن هذا النزوع المفاجيء إلى العنف
الذي باغتهم به زياد ، كان مجازفة غير مأمونة المغبة . خليفة بأن تصبح
نتيجتها عليه ولا تصبح له لو استقبلها ابن الحضرمي وحزبه بعزم
ثابت ، أو برد جرى .. ولكنه قول من يحكم بعد أن تجمعت لديه
شوارد الشواهد والأدلة من هنا وهناك ، وعرف مواطن الضعف
والقوة في كلا الفريقين المتنافرين كأنما يقرأها في كتاب أو يزنها بكفتي
ميزان ! .. وهو أيضا الرأي الحري بأن يبعد ، في تلك اللحظة ، عن ذهن
ابن الحضرمي وأذهان أعوانه هم الذين كانوا - إلى امس ، بل إلى ثوان
معدودات قبل انتفاضة زياد ! - يدلون بالصولة والجبروت
ولا يعلمون لهم بالبصرة كفتا يباريهم ، زيادا كان أو غير زياد ! .. فإن
يكن ، مع ذلك ، ما أقدم العامل عليه يعتبر في المجازفات ، فهي إذن

المجازفة التي لا سلوك غيرها أولى بالموقف ، ولا اليق منها بصاحبها ،
أو افعل منها وابلغ اثرا في مثل هذا المقام ..

مجازفة فيها من اليمن قدر ما فيها من الأمن ، دلت عقباها على
أنها المبادرة الحكيمة لا المخاطرة الرعناء !.. فقد اخذت العدو انصاف
على غرة ، وفاجأت أفراده وجماعاته بغير ما قر في روعهم وخلد في
اذهانهم حتى لأوحت إليهم أن بروز غريمهم لهم في السلاح هذا
البروز لابد وراءه طاقة حرب مكثرة ، قد اعدّها خفية ، وعرض
يها ما كان من افتقاره قبلها إلى القدرة على اللقاء !.. وهى - هكذا
- كانت كفيلة بأن تهز ثقتهم القديمة بأنفسهم ، وتخرج بهم من
نطاق الاعتزاز بشوكتهم ، والاطمئنان إلى ما لديهم من قوة وبأس ،
وما ظنوه من تفوق واستعلاء .. وهى ، إلى جوار هذا وذاك ، بيان
للناس ، يعلن للثهم أن سكوت العامل - إلى ما قبيل لحظة النهوض -
على أصحاب الفتنة ، النافخين في حريق الخلاف ، لم يكن عن عجز
أو رهبة ، بل كان صدى لميله الكريم إلى معالجة العصاة والخارجين
على النظام بالصبر والترفق ، تجنباً للحرب ، وتشبهاً بالسلام ..

ومع هذا ، فليس يجمّل أن يزعم زاعم أن زيادا ، حين برز
بأصحابه يومئذ في عدة الحرب ، كان قد بيته نيته على القتال ، فذاك
ما لا تشف عنه شواهد الظروف ولا قرائن الأحوال .. إنما الأرجح
الأدنى إلى منطق الأمور ، أن يذكر للرجل انه - بتعبير اليوم ! -
قد « ناور » فأجاد المناورة ، أو موه فأحسن التمويه !.. فلا مرأى في
أنه استطاع أن يظهر كمن كان على أهبة كاملة ، وعن طواعية واختيار ،
لخوض معركة لا بد له من خوضها ليحسم موقفا شق عليه أخيرا
احتماله ، وليستعيد أزمة الأمور في يديه .. فأما ما يبطن ويوارى
عن العيون والأفهام فالرغبة كل الرغبة في أرجاء الالتحام - إن لم نقل
تجنبه - امتثالا واعيا منه لمقتضيات الأوضاع وأحكام الظروف
المهيمنة ، حتى ساعته تلك ، على الاقليم ..

كذلك لا نحسب الرجل قد استخفه أن عز جانبه بعد ضعف ،
وزاد انتصاره بعد قلة ، فظن الظروف والأوضاع قد تحولت له ،
فدانت لأمره ، وحشدت في صفوفه كافة عوامل النصر وإن كنا

لا ننكر أنها ، حقا ، أبعدت عنه ، إلى مسافة غير قصيرة ، معظم احتمالات الهزيمة .. كلا . فما هو الغافل عن الأغوار والأبعاد فتغره المظاهر ، ولا بالأحمق فيخدع نفسه ويركن إلى الأمانى والأحلام . وعندما نتعقب خبره ، ونتأثر خطاه على أرض الصراع إبان الأزمة ، لا نكاد نجد بسلوكه ، من قبل ومن بعد ، أثرا من نزق الحمق ولا من خلل الغفلة .. فما هو يرضى من الأزد قرارها القاضي بكف الحرب ، ولما نشب ، ولا يضيق به .. وما هو يجنح إلى الاستعانة كرة أخرى بمن عساه يعرض عليه ابن ضبيعة ويفرق بالدعوة أصحاب الفتنة ، فيحقق بالرفق ما قد يحقق القتال .. وما هو في تصرفه ، على نحويه ، يلتزم سياسة المطاولة التي نصحه بها الإمام ، ويؤثرها ، عادة ، كل حريص متبصر يأخذ نفسه بتجنب المخاطرة حتى تستقيم الأمور له ، وتتجمع في يديه مقومات الغلبة جميعها على وجه اليقين والقطع لا على وجه الاحتمال والترجيح ..

وإذن فلم يسؤ زيادا من الأزد أن تخطت عن القتال ، وفضت حشدها مستجيبة لطلب عدوه حين بعثت إليها تميم من يقول :
« والله ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه فما تريدون إلى حربنا ، وإلى جارنا ! .. »

ما كان قط ليسوءه من انصاره موقفهم ذاك الذي مال بهم عن العنف إلى اللين ، وعن الحرب إلى الهدنة ، لانه في حقيقته ليس الموقف الذي لابد له أن ينصاع لقبوله ، بل لانه الموقف الذي كان يصبو إليه فعلا ويرجوه .. فكفاه أن بلغ بالمناورة في هذا المقام ما أغناه عن السلاح .. كفاه أن عز شأنه ، وبدت هيئته ، وظهرت للملا قوته وقد تصدعت عن غريمه كثرة من رجائه ، بعضهم من شيعة على فاءوا إلى الطاعة بعد عصيان ، وبعضهم من عشيرة أعين ومن سواها هالتهم الغيلة ، واسخطهم ما كشفت عنه من خسة القوم ، واجترأهم الآثم الفاجر على شريعة التقاليد .. كفاه أن اتحصر عن البصرة مد الموجة الإرهابية العاتية التي حركتها عصاية ابن الحضرمي ، وأوشكت أن تجرف في تيارها الناس أجمعين لولا هذه المبادرة المسلحة التي

فاجأت أعداءه ، وحطمت ما كان قد استقر في الأذهان من خرافة تفوقهم ، ثم كبحت فتنهم الهدامة أن تعم الاقليم ..

ولم يخف عن أمير المؤمنين انه رد نفسه عن لقاء القوم ، بعد أن اوشك أن يناجزهم ، لأسباب رأى الا يعلنها بكتابه كأنما قد خشي أن تذيع ، وصارح الإمام بحرصه - دون القتال - على انتهاج سياسة سلمية ، مآلها في رأيه ، محق الفرقة ، وجمع الشمل ، ووقاية البصرة المصارع . فهو آمل أن يبلغ بالرفق ما قد يبلغ بالعنف ، راغب أن يحسم بالكلمة ما قد يحسم بالسيف ..

كتب في رسالته وهو يشير إلى الغيلة :

« .. فأردت أن أناهض ابن الحضرمي عند ذلك .. فحدث امر امرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين .. »
فلعله يومئذ إلى مناورته التي جرت في إخلاد خصمه مجرى اليقين ..

ومضى يعرض رأيه :

« .. وقد رأيت ، إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قدامة ، فإنه نافذ البصرة ، مطاع في العشيرة ، شديد على عدو أمير المؤمنين .. فإن يقدم ، فإنه يفرق بينهم بإذن الله .. »
وأحسن الاختيار بدلالة الماضي والحاضر ، وبشهادة ما انتهت إليه وفادة جارية ، وآلت إليه بعدها الأمور ..

فلقد كان الوافد الجديد كما قال ، من الألى عرفوا بالعزم والصبر وقوة الشكيمة ، الذين يشتعلون حمية ، ويلتهبون غيرة ، ويكادون من ولائهم للإمام ، وتشيعهم له ، يحملون بين جنوبهم قلوبا من نار ، لا تكف لها فورة ، ولا يهدأ ضرام . إنما تغلى وتنوذب برغبة عاصفة مشبوبة السعير تهم أن تطلع على العدو بكل نقمة مدمرة ، وعذاب مهين .. ولا أدل على الإفصاح عما في نفسه ، مما قاله يوم مخرجه من الكوفة إلى البصرة لكعب بن قعين ..

يومها استأذنه كعب أن يستلحقه في مهمته الخطرة :
« إن شئت كنت معك ، وإن شئت ملت إلى قومي ..
فإذا هو على الفور يقول :

« بل معي !.. فوالله لوددت أن الطير والبهايم تنصرني عليهم ،
فضلا عن الإنس !.. »

ومضى على الطريق كاعصار غاضب ، بين خمسين انتقامهم بطانة له
من تميم الموتورة التي هاجها من أهلها بالبصرة أن شجبت الطاعة ،
ووالت العصيان ، ولم ترع ذمة العشيرة ، ولا صلة الرحم في دم
أعين المراق ..

وكان في قلبه حريق تتوئب للاندلاع !..



بدأ جارية بن قدامة ، أول دخوله البصرة ، بمنزل زياد إذ هو
الأمير . ثم ثنى بمنازل الأزد وقد شاقه أن يحييهم ، ويذكر لهم بالخير
ثباتهم في الحق ، ووقوفهم في وجه الباطل .. فلما استقر به المجلس ،
وتشعب الحديث ، وطابت نفسه بما هم عليه ، تلا عليهم رسالة
أمير المؤمنين إلى أهل الأقليم ..

وكانت الرسالة كما تكون الرسائل أمثالها في مثل هذا المقام ،
تذيرا وبشيرا ، ووعيدا ووعدا في آن .. نذيرا لمن خالف وعصى ،
وبشيرا لمن تابع واستقام ، تحمل الويل كما تحمل الأمان . وتشدد
الذاكرات إلى أمس الذاهب الذي تناثرت فيه على أرض البلدة المشاقة
جوارح وأشلاء استدل أصحابها التمرد وأسلمهم طعمة شهية للبوار .
ثم تهب الرضا للطائع ، والأمان للتائب ، وتتوعد بعد هذا أولئك الذين
قد يستخفهم النزع والضلال إلى الصبوء القادر كرة أخرى لخيانة
العهد - ردة حمقاء - للماضي المخدول !

« فها أنا ذا قربت بجيادى ، ورحلت ركابى ! .. وأيم الله لو الجأتمونى إلى المسير إليكم ، لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعة لاعق ! »

وارتاحت الأزد للكتاب ارتياح من تفيأ الظل بعد وقدة الظهيرة المستعرة ، وطرق الواحة بعد تخطيط في مفازة مقفرة .. فستان بين يومهم الغابر ويومهم الحاضر .. بين جمحة الهوى الأرعن وتبوت اليقين الرصين .. بين الظلمة والنور ! ..

وتكلم عنهم صبرة بن شيمان :

« سمعنا وأطعنا . نحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم »

ولم يكن الوافد الجديد من الكوفة بحاجة لسماع مثل هذا الكلام . فأمرهم الآن معلوم . وانحيازهم للإمام عن عدوه لا شبهة فيه . وخلصهم من الفتنة القائمة يعرفه الولي والغريم .. ولكنه حين جاءهم إنما عساه قد شاء أن يستوثق أن وقوفهم إلى جوار عامل الإقليم لم يعد - كبذئه - عن مجرد حمية وتعصب للجوار ، بل هو أيضا عن ولاء وإيمان ..

واردف صبرة يقول ، تعقيا على مهمة الرسول :

« .. إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك . وإن احببت أن ننصرك نصرناك »

وتوالت في عقبه أحاديث المتحدثين ، ينهجون نهجه ، ويلتزمون رأيه ، ويرددون ما عبر عنه ، وقد أنسوا بالطاعة ، وصبت قلوبهم إلى قمع الفتنة من أى جحر تسلت ، وبأى أناس استعزت ومضت تضرب بسيف ، أو تجأر بعبارة ، أو تشير ببنان ! ..

وإنه لإجماع ! ..

وعندما نهض جارية ليغادر مجلسهم إلى ما قدم له وقد امتلأ ثقة ، همت كثرة منهم ، ولاء أو حمية ، أن ينهضوا معه ، ويلتحقوا به مؤازرين في سيره إلى قومه المخالفين ..

لكنه كفهم عن المسير ، وأبى عليهم أن يصحبوه في رحلته ، وهو يستشعر الأمل ، بل القدرة ، على أن ينجز - دونهم ما يريد ..

ومضى الرجل يحث خطاه إلى نعيم ..

إنهم عشيرته . هو أولى بهم وهم أولى به . وقد جاءهم من لدن أمير المؤمنين بالعتاب المندر ، وبالإنابة المسحة ، إذ خاطبه حين رأى إيفاده إليهم ليفضهم عن الفتنة :

« يا ابن قدامة .. تمنع الأزد عاملى ، وبيت مالى ، وتشاقتنى مضر وتنابدنى ! .. وبنا ابتداها الله بالكرامة ، وعرفها الهدى .. » .

لكم يأمل أن يصفوا له ، ويرشدوا بنصحه ، تجنبيا لما يدرك أنهم لا ريب ملاقوه لو ظلوا سادرين سدورهم هذا في ضلالتهم العمياء مع الذين حادوا الله ورسوله .. ولكنه الآن يكاد يستشعر الطمأنينة ، ويعجل لهم ، في باله ، بالإنابة قبل الزيف ، وبالقبول قبل الخلاف . وإذا كانوا قد شاقوا أعين ، وشقوا عليه بالأمس ، فإنه لمستيقن أن منزلته هو في نفوسهم ، وشأنه عندهم ، وكلمته فيهم ، كلها - فيما يقدر ويعتقد - أبعد عن الهوان وفوق العصيان ! ..

وابتسم عن اعتداد وثقة ، وهو يذكر عبارة زياد له حين ودعه لهذا اللقاء ، يوصيه :

« يا جارية .. احذر على نفسك ، واتق أن تلقى مالقى صاحبك القادم قبلك .. » .

أفيأتري هم مناوئوه ؟ ..

بل كلا ، فما جال هذا له في خاطر وإن كان قد عقد العزم قبل مقدمه أن ينهج إلى حملهم على الطاعة كل منهج ولو مشى إليهم على موعظة حسنة ، أو عدة مأمولة ، أو وعيد مرهب ، أو دم مسفوح ..

وكذلك مضى جارية شوطه ، إلى موقع قومه ، يحدوه رجالؤه .. على لسانه عظة ، وبقلبه طمأنينة ، وفي خياله سلام ..

غير أن زيادا لم يشأ أن يترك أمر صاحبه بين يدي أمله واعتداده .

فالأمل أحيانا خادع ، والاعتداد خوان !.. إنما رأى أن يتحوط فيعد له ما يحمي ظهره ، ويحوطه ومهمته الخطرة بما يجنبه مصير سلفه ، ويكفل النجاح .. فما هو أن خرج جارية من لدن الأزد ، حتى خف إليهم العامل ، يكاشفهم . ويتسحن صدورهم بالتحفز ..

وكان من قوله لهم :

« .. إني والله ما اخترتكم إلا على تجربة .. فما رضيتم أن أجرتهموني حتى نصبتهم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شرطا وأعوانا ، ومناديا وجمعة .. فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم لا أجبيه اليوم . فإن لم أجبه اليوم أجبه غدا إن شاء الله .. » .

فشد قلوبهم إليه هذا العرفان بما قدموا له ، وزادهم حمية ..

ومضى يقول :

« .. يا معشر الأزد .. إن حربكم اليوم معاوية يسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس عليا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة .. ليصدع امر قومه ، وأنتم الهامة العظمى ، والجمرة الحامية .. فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم .. » .

فأسرع أبو صبرة إليه برايه في خارجه الإقليم :

« .. لو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء .. ولكنها جماعة دماؤها حرام ، وجروحها قصاص . ونحن معك نحب ما أحببت .. » .

وثنى ابنه في عزم صلب ، واصرار عنيذ :

« .. يا زياد ، والله ما أدركت أملك فينا ، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك . ونحن رادوك إليها غدا !.. » .

وأدرك زياد غايته ..

لكن ظن جارية في عشيرته خاب .. ما إن طلع عليهم وطلعوا عليه حتى تبين أنه كان مغرقا في الخيال كل الإغراق حين حسبهم - لا بد -

منتصحين بنصحه ، ممثلين رايه الذى لا راي غيره يهبهم الشرف
والامن والكرامة .

وكذلك تهاوى امام عينى رسول الإمام - فى لحظة - صرح تلك
الطمأنينة الذى بناه رجاؤه المسرف عليه فى التفاؤل ، كأنما نقضه
زلزال !.. واستشعر ، والمرارة ملء قلبه ، انه عاش أيامه السوالم ،
منذ مخرجه من الكوفة ، فى تيه سراب .. إن عيونهم لتتقد بالغل ،
وإن ملامحهم لترعد بالحقد ، وإن جلودهم لتكاد تشف عن عروق
لا تمتلىء بالدماء بل بالعداء ..

ومع هذا فلم تضطرب فيه جارحة ، ولا اهتزت ثقته بنفسه
ولا إيمانه بصواب ما جاء فيه وإن تصدع أمله فيما خاله من إدراكهم
المنصف .. ولئن كانت هذه البادرة منهم - وهى بعد عبسة على
الوجوه الكالحة - قد وشت له بما يضررون من شر ، ففى وقاضيه
الدواء المر الذى تستطب به نفوسهم المريضة ، وتعتدل رقابهم التى
لواها العنت ومالت بها الخيلاء !..

وكاد يحس عندئذ أنه أعين بن ضبيعة وليس جارية بن قدامة !..
فالموقف كالموقف . الصورة هى الصورة ، والصوت هو الصوت ..
قد اصطفوا له كسد أصم ، تتكسر عبارات دعوته الهادية على صخوره
ثم ترتد إليه حطام أصداء !.. ولغطوا عليه بمثل هدير يفرق نصحه
ونجواه فى لجة الضياع .. وعندما استمسك بأناته ، وعاد مرارا مرارا
حثهم على نبذ الفتنة والفتىء إلى الطاعة ، خرج إليه من بينهم أوباش
يقذعون له فى السباب ما شاء الصلف وشاءت الضغينة . ثم راحت
ثمعابين الغدر تزحف إليه . ثم همت به لتنال منه ببطشة الكف ما لم
تنل حدة اللسان !..

وهاله هذا الجحود من أناس يضمن بهم على التلف فلا يكفيهم أن
يقارعوه رايًا برأي وحجة بحجة لو أنهم عرفوا سبيلا إلى الحجج والآراء ،
إنما تأبى عليهم نفوسهم السوداء إلا أن ينتاشوه كالكلاب المسعورة !..
ونفر به عندئذ حلمه كما ينفر جواد روعته حية !.. وتجمدت بين جنبيه
الرحمة التى جاءهم بها إذ استقبلوها وعلى أيديهم أكفانه !..

هنا فار قلبه واندلع سعيه يرسل السنة النار !.. وماله لا يفور
وإنه الآن لفي شرك طفعة حديثها غدر ، وعلى أرض ترايبها عداوة ؟..
والهمته بديته الصافية ، التي لم يطمسها الهول ، ما كان لابد
أن تلهمه في هذا المقام .. فليس للرفق مكان . لم يبق للصبر منزع .
لم يعد للجدل مجال .. إنما الألزم ، فضلا عن الأسلم ، أن تنسحب
الكلمة من الميدان وتخلي موضعها للعنف ولل سيف . فحديث الدم
وحده ، الآن ، هو الحديث المسموع !..

وعلى الأثر بعث جارية إلى زياد وانصاره الأزدي يستصرخهم أن
يسيروا إليه ..

فكانهم كانوا جميعهم تحت ثوبه !..

سوية أو بعضها تقضت ثم انصب حشدهم يجرى على الأرض
حواله يحمل الموت على الأسنة المشرعات !.. موجة بعد موجة أقبلوا ،
وصفا صفا تراصوا حيال أولئك الخارجة الفادرة الصابئة ، التي
أسكرتها سطوتها ، وغرتها كثرتها ، فأثرت الفرقة على الألفة ، والنكت
على الوفاء ، والحرب على السلام ..

وتواقف ابن الحضرمي وأعوانه ، فرسانا وراجلين ، في وجه
انتفاضة الأزدي الجديدة .. لا مناص الآن من خروجه عن نطاق خطته
إلى لقاء سافريات والذين معه يرون إلا موجب بعد لإرجائه . فالمداورة
أصبحت لا تفيد ، وسياسة التسلل والدس وما انطوت عليه من
حركات تحتية أو خلفية قد فرغ ما في جعبتها كله واعتصرت إلى آخر
فطرة . والوقت عليه لا له ، كلما انفسخ رقت بقدر فسحته هيبة حزبه ،
ورث نفوذه ، واستطار واستفحل شأن مناهضيه في الأقليم .. وإذا
كان الأمر قد حمله على الإصغاء لدعوة الهدنة التي دعاهم إليها الأحنف
ابن قيس ، فذهلة المباغته هي التي حادت به عن القتال . فاما وقد
جمعوا له اليوم ، وتشرعوا لحربه ، فإنها إذن الجراة التي يابها
ولا تسندها - في رايه - قوة تفوق قوته ، أو بأس يعلمه فيخشاه .
والوضع هكذا يحتم عليه مبادرتها بما يقمعهما قبل أن تطل على البصرة
كتائب الكوفة التي وعدهم بها الإمام .

ونوشك ان نقول ان سير القتال افصح كل الإفصاح ان وافد معاوية كان انأى عن الحكمة ، وادنى إلى البطش - بل إلى الاغترار - حين مشى أولى خطواته إلى ذلك اللقاء .. فلم يبذل رجاله البلاء الذي توقعه وتوقعناه . ولم يصبروا لعدوهم في الميدان صبر المستعز بالكثرة ، المدل بالطول ، الذي طالما رأيناهم قد لبسوا ثيابه ، واستعاروا إهابه ، وهم يشيعون الإرهاب ويركبون الناس في البصرة بالطغيان .

كلا ، فلم تطل الحرب . ولا بدت لنا من خلالها مواقف تصورهم مناجزين أكفاء .. بل أسرع بهم الأقدام يهطمون كقطيع شارد إلى أيما وجهة لاح أنها تجنهم عن ضربات خصمهم القضوب وتقيم المهالك .. وكأني بالكثرة الغالبة فيهم ، وقد حمى النزال ، وآنت من عدوها الصبر والإصرار على النصر ، تؤثر النجاة فتركن إلى الفرار . وكأني بالبقية الباقية منهم ، وقد انجاب عن عيوبهم وهم الاقتدار ، تلوذ بدار ابن سبيل التي كان مبعوث الشام ، منذ مقدمه عليهم ، يتخذها مقرا ودار إمارة ..

وكيفما تعددت أسباب هذا الانهيار المفاجيء الذي اصاب مشرى الفتنة وتنوعت دواعيه ، فإن ابن الحضرمي لم يجد أمنا بملاذه . إنما غدا حبيس هذه الدار التي طالما شهدت جيروته ، وخصمه حولها يحاصرونه ، ويفلقون دونه كل منافذ الخلاص حتى لقد بات منهم في قبضة ضخمة تشتد عليه وتعتصره لتستنزف ما به من حياة .. ولم يكن وحده في شرك الصياد ، بل كان في سبعين من الالى غرته نصرتهم ، وخدعتهم دعوته ، يتخبطون معا في الحبال المحبوكة ، إن مدوا البصر ففى تيه من الدهول والضياح ، وإن ردوه فإلى حصرة واسترجاع ! ..

وسرعان ما عاجلتهم النهاية .. فإذا هي كأقصى ما تكون النهايات ، واقطع ما تسفر عنه العداوات في معترك قتال ..

في لحظة من لحظات الغضب العاصف ، فار تنور ذلك القلب النارى

المتأجج في جوف ابن قدامة ، وثارت نائثرته ، فاندفع لهيبه جحيما كأنما
عن بركان تفجر وراح يرسل حممه طوفانا يجرف ويجتاح ..

وبدا نذير هذا الانفجار المدمر على طرف لسان جارية بكلمة هتف
بها لمن حوله من الثوار :

« على بالنار ! .. » ،

فكانما صعقتهم الصبحة ! ..

طويلا ، كطول الدهر فيما حسبت الأخلاذ ، تلبتوا في صمت أخرس ،
كتم الصوت ، وشل الجوارح ، وجمد الأنفاس . فالدهشة التي طغت
عليهم عندئذ واغرقت منهم الأوصال والحواس في غمرة الخور لم
ينبعث عن عجب وإنما عن صدمة عصبية جاءتهم بها دعوته المذهلة التي
باغتتهم بأغرب ما يجول في وهم ، ويطوف بخيال ، لأنه محال المحال ! ..

لكن صوته الغضوب عاد ثانية يكرر نداءه هادر الجرس ، حاد
النبرة ، بارز المقاطع كأنما ليحفر في روع القوم انها الدعوة التي لا دعوة
غيرها تناسب الوضع وتوافق الواقع .. حتى إذا ثاب بهم هديره إلى
بعض الوعي ، واستطاعوا ان يشقوا الشفاه المزمومة ، ويحركوا اللسنة
بالكلام ، صارحوه :

« لا ! .. لسنا من الحريق في شيء .. » .

فلم يرده جوابهم عن التردد . ولم يردهم ترديده عن إباء
ما يريد ..

وحين أعياهم إقناعه : واستيقنوا منه الإصرار الذي لا يهزه جدل
ولا يشنيه حوار ، عادوا يخاطبونه باللهجة الكفيلة بأن تحرك القلوب
إن كان لا يسمعها أن تحرك العقول ..

قالوا له يناشدونه الرحمة والرحم ووشائج العشيرة :

« يا جارية .. هم قومك ، وأنت اعلم .. » .

غير انه اصم أذنيه . أو لعله لم يسمع وهو هكذا في هدير ثورته .
فما كفه قولهم عن عزمه . ولا عطفته القربى على تلکم الفئة المستخفية

خلف الجدران من بنى أصله . إنما زادت غلواء حنقه عليها ، وتضرمت
سعيها ما لبث أن تجسد خطبا يشتعل ويضرب نطقا محكما من الحريق
حول دار ابن سبيل . .

ولا نرانا هنا نعتذر لجارية - وما ينبغي - عن فعلته هذه وإن
كانت اليق بحنقه واشبه بطبعه النارى الحاد . ولكننا كذلك لا نظننا
فنكر أنها لم تكن لتبدر عن مجرد رغبة خالصة في التنكيل ، أو عفو
الخاطر دون مقدمات وأسباب . .

ففيما تنم عنه خاتمة ذلك الصراع ، يكاد ابن الحضرمي يتمثل لنا
في صورة المتشبث بالمقاومة ، المتعلق بالثبات لأعدائه إلى آخر نفس
وآخر قطرة دماء . . بدا الرجل ، حينئذ ، المصابر الذى يخلق بالكلفين
بالمجد المتصددين للعظام أمثاله أن يكونوه ، والمجالد الذى إن ذل نفره
لم تذلل نفسه وإن أعوزه العتاد لا يعوزه الاعتداد . . فما نعلم أنه
- إذ خذلته جموع أنصاره في ساحة القتال - قد وضع سلاحه
أو رفع راية أمان . بل قد أسرع إلى الدار والحفنة التى تابعته يتخذ
منها قلعة ، ومن جدرها دريئة ، ويثبت بها ثبات المتأبى على التخاذل ،
الترفع عن التسليم ، محاولا أن يقابل هجمات عدوه على ملاذه بكل
ما يسعه صبر المستيثس الذى لا سلاح له غيره في مثل هذا المقام .

بهذا تطالعنا شواهد الحال . ثم تنطق بأن أمد هذه المقاومة اليائسة
لم يكن بالقصير . ثم تظهر ابن الحضرمي قد لج في عناده ورفض أن
ينزل على حكم الواقع فيخلى معقله ، ويلقى سلاحه ، ويضع نفسه
ومن معه وديعة في أيدي المنتصرين وإن أيقن اليقين كله أن مقاومته
هباء وفناء! . . ولا نشك هنا في أنه دعى إلى التسليم وإن كنا لا نقطع
أكان جارية ، أم زياد ، أم سواهما من أصحاب الراى في الجيش الظافر
هو الذى دعاه . ولكنه دعى على أية حال . وأبى الاستجابة للدعوة .
وتسامع الناس في البصرة بالدعوة وبالإباء كليهما فأقبلوا - على اختلاف
ميولهم وعواطفهم : متشيعين أو معادين ، مشفقين أو شامتين
- ليشهدوا ما يكون : أهو استبسال فاستئصال ، أم انهيار فأسار! . .
تكاد سيرة هذه المقاومة تنضح بما أسلفنا من صلاحية ابن الحضرمي
وأصحابه المعتصمين وتأبيهم على الاستسلام . فلقد أقبلت الجموع

لترى النهاية عسى أن نفرح بنجاة ولى أو ببلية غريم .. وأقبلت فيها
أمة ولهى ، قد ملكها الجزع على ولدها الرابض وراء الأسوار .. ولعلها
لم تكن إلا واحدة من أمهات وآباء قد استنطارهم خوفهم على الأبناء
الذين أطبق عليهم الحصار .

وكانت حبشية ، داكنة اللون . ولكن وجهها الأسمر حال من هلع
حتى غدا أشهب بلون شعرها الذى غزاه المشيب . وكانت تنصب
- من عجل - في مشيتها كالسيل . وتضطرب ، من رعدة ، كشراع في
بحر ثائر . وتمرق ، من لهفة ، في الزحام كالسيف وهى تهطع الى
الدار . فلما أن أفضت الى الباب ، راحت تقرعه بكلتا كفيها وهى
تصرخ منادية ولدها الذى أجنثه الجدران ويوشك أن يجنه بعدها
الهلاك ..

وظهر لها ، على صرخاتها ، ابنها بعد قليل ، يطل عليها من بعض
شرف معقله . فلوحت تدعوه .. وراحت تناشده نفسه وقلبها ،
أن يخرج الى الحياة ..

لكن الولد أبى أن يسلك غير مسلك أصحابه ، فلم يلب النداء ..
فألهمتها غريزتها أن تتوسل اليه بما قد يكرهه على طاعتها ،
فكشفت رأسها ، وأبدت قناعها ، وعادت تناديه :

« يا بنى ، انزل الى .. »

فأبى ثانية ، أنفة أن يخون عهد الثبات ..

بندئذ صرخت المرأة :

« والله لتنزلن ، أو لاتعربين ! .. »

واهوت بيدها الى ثيابها تهم أن تخلعها ، لتكشف سواتها للناس ،
وتجلل ذلك العنيد بعار أقسى عليه من عار التسليم ..

هذه الصورة النابضة ، إذ ترسم ما كان من صلابة أولئك
المتعصمين بالدار ، الثابتين للحصار ، ترسم لنا أيضا صلابة
ابن الحضرمي وأصراره العنيد على المقاومة مابقى فيه دماء .. فهى

صدى لعزمته ، وظل لثباته . وما ينزع جندي مثل هذا النزوع
إلا أمثالاً لخطه قائده ، وترسماً لخطاه ..

وكذلك جاءت النهاية كأقسى ما تكون النهايات . فتفحمت دار
ابن سبيل بمن ضمت . وذهب الرجل الوافد من الشام ليشعل
في البصرة نار الفتنة وقوداً للنار . وتبددت خطته الخداعة مع دخان
الحريق ..

وعندما انطفأت الشعلة ونشر الموت ظلاله الثقيلة على المكان ،
سارت الأزدي بزياد فأنزلته قصر الإمارة ومعه بيت المال . فلا منازع
له اليوم ، ولا كلمة في الإقليم لسواه ..

وقال له قائلهم :

« هل بقي علينا من جوارك شيء ؟ .. »

« لا .. »

« فبرئنا منه .. »

فلقد وفوا بالعهد ، وقضوا حق الجوار ..

الفصل الثالث

ما عن الحسد وحده حورب الإمام بالسيف وبالكلمة !..

عن الجهل الجامع في الظلمة رغت به قلوب مطموسة لا تعرف الحق ، ثم تأبى - وإن تبلغ وأضاء - أن تراء ، سدورا في المكابرة والعناد ، ولجاجة في العمى والغواية ..

عن انحيار ظالم عن الله ، وافنتان صلف عن دينه .

عن قصور ذليل عن تفهم المثل والمبادئ القوسمة . وافتقار عاجز الى التطبع بالخلائق الكريمة ..

عن انتقام أرعن لماض ملوث مقهور ..

عن كل هذه الدنيا ، وغيرها ، التي فجرت حوله العداوات حورب الإمام رجلا وخليفة ، قوة وفكرة .. ولكل هذه العداوات ، وما حالها ، ثبت مناضلا عن الحق والفضيلة انتصارا لكرامة الإنسان . فما عرف قط من سلوكه أنه سمى في مرحلة من مراحل كفاحه الطويل لتعزيز قدره أو لتحقيق مأرب خاص . ولا رنا يوما في عمره من الدنيا العريضة الطويلة الى غاية لنفسه من مغنم مال أو مغنم صولة ..

.. .. فما المال ؟ ..

فيه قال كلمته التي ظلت دائما شعاره :

« المال مادة الشهوات . »

وإليه وجه نظرة العازف الزاهد الذي يراه تبعة ثقيلة على جامعه ، ومبئا يعيبه لأنه يشقيه ولا يكاد يغنيه :

« يا ابن آدم .. ما كسبت نوق قوتك فانت فيه خلون لغيرك .. »

ومن حصيلة بصيرة ملهمة وروح شفاف أوصى ولده الحسن ومن عسى - غيره - يصفى لنصحه ويعتبر :

« لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسمد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عوناً له على معصيته . وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك .. »

.. .. وما السطوة ؟ ..

متاع يزول ، وعرض يحول فهي صفقة مغبون إلا أن تكون أداة لإعلاء الدين وتوكيد إنسانية الإنسان . أما جاهها فهباء ، وأما مجدها فطلاء .. دخل عليه ابن عباس إبان إمرته وهو جالس يخصف نعلًا بالية ، فرفع بصره عما في يده ، وسأله :

« ما قيمة هذه النعل ؟ .. »

قال ابن عباس :

« لا قيمة لها يا أمير المؤمنين .. »

فإذا هو يقول في هدوء :

« والله لهي أحب إلي من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقاً ، أو أدفع باطلاً .. »

.. .. وما الدنيا ؟ ..

سئل عنها فقال :

« ما أصف من دار أولها عناء ، وآخرها فناء .. في حلالها

حساب ، وفي حرامها عقاب ! .. »

ثم وصفها وهو يرجو أن يزوي عنها الناس :

« دار منى لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء . حلوة خضراء ، قد

عجلت للطالب ، والتبست بقلب الناظر .. فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف .. »

وعمل دائما بما قال . فإن هي إلا محنة واخبار . أو دار مجاز للدار قرار . ليس لها عليه سلطان ، ولا له فيها هوى ، لأنه ازهد من أن يتعلق منها بنشب ، أو يهفو إلى طلب . ولأن قصاره فيها لقمة تقيم أوده هو أوثق بأنها حتما بالفته إذ هو أوثق بما عند الله منه بما في يده أو يد أي إنسان ما بلغ الشأو في بسطة الفنى والشرء أو بسطة النفوذ والسلطان .

قيل له :

« لو سد على رجل باب بيته وترك فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ .. »

فجرى جوابه على منطق السجية النقية والفطرة السليمة ، لا على منطق الشهوة الجشعة والرغبة المنهومة :

« من حيث كان يأتيه أجله ! .. »

أفقد أصاب ؟ ..

كيف لا ! ..

وإنما الرزق منذ الأزل ، وإلى الأبد ، أمر مقدور ، وقدر محتوم مسطور .. فمن رأى في هذه النظرة إيمانا أوثق الإيمان بالله فقد عاين الصواب . ومن رأى فيها استكانة واستسلاما يحسان صاحبها بين أسوار واقعه القائم ولا يسميان به إلى الخروج منه بتغييره لواقع « أفضل »^١ ، فقد مشى على الخطأ وتردى فيه .. فالفضل ليس بالمال . والمال ليس الحياة . والسعي يتسع لنشدان قيم كثيرة أخرى فاضلة ، سوى المال ، أجدى على الفرد وأصلح لشانه كإنسان لا يعيش بدنا خالصة في هذه الدنيا بين أبناء جنسه وإنما يعيش أيضا بالروح .. والأصل في المال أن يكون دولة بين الناس ليحقق غرضه في إنعاش المجتمع وتنميته وليس الأصل أن يحتجز في أيدي فئة يستأثرون به ويستعلون على من عداهم بجبروته . فما ينبغي له أن

يكون أثره ، كما لا ينبغي لهم أن يكونوا خزنة ، لأنه « وظيفة » هم العاملون فيها ، يعطلها بلا ريب حجبها واكتنازه .. وكفى المرء منه ما يسد حاجته ، كسرا اجشع نفسه ، ودفعاً لحسده غيره ، وضماناً لقيام مجتمع بشري متطهر على أسس خلقية كريمة ، ينحصر فيه طغيان المادة ، وتضعف سطوة الأنانية ، ويخف جموح السخط الذي يضطرب دائماً بالعلاقات الاجتماعية بين الناس اضطراب الفرائز الحيوانية بالضواري في الغاب خضوعاً منها لشريعة الظفر والنااب ..! أجل قد أصاب .. وما كان في هذا المجال إلا مترسماً خطوات رسول الله الذي لو شاء أن تجتمع له كنوز الأرض لاجتمعت له ، أو يتسیر الى ذهبها لأقبل عليه ، فإذا هو يعف عنها ، ويزهّد فيها لأن كل هذه الحياة وما تضم ليست سؤله . وإذا هو حين يأتيه جبريل ، عارضاً عليه خزائن الدنيا بردها ويأبأها رد غنى مستغن ، وإيأء كاره عزوف :

« لا حاجة لى فيها .. بل جوعنان وشبعة !.. »

من معين النبوة نهل الإمام . وبخلق محمد تخلق . وبالهدي الإلهي اهتدى في علاقته بالناس أجمعين ، أولياء وأعداء .. لم يكن قط يشره أن يخسره أحدهم بعض حقه ، أو يعدو عاد على خاصة ماله ، لأن الحق الشخصي ، في اعتباره ، ليس سوى عرض زائل لا يرى ضيراً في الرخصة فيه .. ولكنه كان ، إلى جوار هذه الأريحية المسمحة ، يحنق الحنق كله ، ويثور أعنف الثورة ثم يشتد في حساب من يجور على حق الأمة أو يحاول الانتقاص منه إلا في الله ..

وها هو الآن ، وقد تضافرت عليه عوامل الظلام والضلالة ، لا يجنح فتيلاً إلى مهادنتها أو الصبر عليها ، فلا يترخص في التصدي لها بكل ما في قلبه من إيمان ، وفي جنانه من ثبات ، وفي يمينه من سلاح لأنها قد طغت على حق الأمة ، واجترأت على شرعة الله .. ففي الترخّص بهذا المقام صد عن سبيل ربه ، وزيع عن جادة دينه ، وخذلان لما ألقى في روعه وقر في يقينه .. وهل قد ولى أمور الناس ، تحت ضغط منهم ، وعلى كره منه ، إلا ليحمي الإسلام من نكسة كانت خليفة عندئذ أن تذهب بريجه ؟..

قال مرة يحدث عما دفعه لقبول الإمرة بعد ما كان من تأبيه ،
حرصا على إصلاح ما أفسد الولاة في عهد عثمان ، وعودا بالدين
الى نهجه الصحيح :

« .. . أمسكت يدي ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت
عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد .. فخشيت إن لم انصر
الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هداما تكون المصيبة به على اعظم
من فوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما
يزول السراب .. »

لا حيلة له إذن فيما طرأ من تقلبات إلا أن يصدع بما يحتمه عليه
إيمانه ، وما يرتقبه منه دينه . ولو أنه كان غفلا من النفوذ ، أو قد
قشر عنه سلطانه وذهبت شوكته كحاكم مسئول لما هادن ولا لان .
بل لاستبدل الكف بالسيف ، واللسان بالسنان حتى يقضى على قوى
الشر والضواية ، التي راحت تناوىء الله في عباده ودينه ، ليظهر
الأرض منها أو يلتقمه التراب .. فكيف وما زال بوفاضه ذخر من
نأس يسنده ، ورفقة من صحب تؤيده وإن بدات الدنيا تشغل بنشبهها
وزخرفها كثرة ضخمة من رجاله وتلهيهم عنه ؟ ..

يقول في صدد نهوضه لأعداء الله :

« .. . وإني والله لو لقيتهم واحدا ، وهم طلاع الأرض كلها ،
ما باليت ، ولا استوحشت .. »

إن تلك العداوات لم تكن لترده عن عزمه وإن جمت ، ولا لتعجزه
عن تعقبها وإن توالى ، ولا لتؤثسه من صبره وإن اشتد أيدها وصلبت
شوكتها ما دام يستطيع أن ينهض لها — ولو بالبقية الباقية من اعوانه
على يقينه ، ولو بنفسه : بلسانه أو يمينه .. ولقد كان فيما ظهر
من انحراقها وهو بعد في مستهل عهده ، ما يكفي للمعاجلة بالصراع ،
فكيف وقد أطلعت قرينها ونشرت له زبانييها وبدات الإغارة
والانقضاض ؟ .. إنما اتحادها اليوم على حربه ، وتفاقم خطرهما على
الضمير العام ، وامتداد طغيانها على الثرى الإسلامى حقيق بأن يزيد
صلابته ، ويلهب حميته وإن تمثلت كوحش اسطورى أشبه شيء

بأخطبوط تعددت شعبه واطرافه واوشك ألا يسلم من عدوانها مكان
أو إنسان ، بعد نزايدها فرقا وطوائف ، وتغايرها مذاهب وآراء ،
وامتداد حركاتها المدمرة وتغلغلها - كسروح الزيت في الثوب - في كلا
الاديمين السياسى والاجتماعى للدولة ..

أفيهدا ؟ .. أم يصانع ؟ .. أم بصارع ؟ ..

في كلمات قلائد أجمل نظرتة ، ورسم الدافع الذى يحدد اتجاهه :
« ولكننى آسى أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ،
فيأخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، والصالحين حربا ، والفاسقين
حزبا »

نذر في الأفق نبيء عن طوفان جاهلية ، وعاصفة استذلال ،
وزلزال ردة عن كل كريم وقويم في حياة الإنسان ترسمه القيم الخلقية
الرفيعة ، ويقوم عليه خبر البشر ، ويحتمه الدين ..

محنة ماحقة ما لها غير الجهاد ..

٢

طولا من الشمال للجنوب ، وعرضا من الشرق للغرب ، وعمقا
في السهول والقفار وفي الجبال والأغوار ، كانت تلك العداوات تنتفش
وتنكمش ، وتنسبط وتنقبض كأنبساط الصدر وانقباضه في الشهيق
والزفير ! .. كانت تتربص لتشب ، وتشب لتنقض ، وتنقض لتدمر ، ثم
تفتر حدنها بعض فتور أو تسكن ، تلتقط النفس ، وتنظم الصف ،
لتتربص ثانية وتعاود دورة حيائها من جديد ..

صور عدة عدوانية تلاحقت في سنى عهده القصير . إذا أجملت
دلالتها فنبعها الذى لا ينضب ذات الإنسان بما ركب فيها من عقل
ونفس وجسد . وبما انضمت عليه من فكرة خادعة أو مخدوعة ،
وهوى مضلل أو ضال ، ومادة معتمدة صماء . وبما في طاقة ثالوثها

البشرى ان يفر من اباطيل ومطامع وشهوات .. وإذا أوجزت غاياتها فإنها القضاء عليه ، إذ هو أمير المؤمنين أو هو واحد من جمهور الناس ، وضرب نفوذه : سلطة زمنية حاكمة كان هذا النفوذ تسندها قوة الإمرة ، أو سلطة روحية هادية تنبعث من قوة العقيدة .

فإذا قيل هنا إن الذات البشرية هي الذات البشرية في كل زمان ومكان ، وإن الإنسان على مدى الأعصر هو الإنسان ولا غرابة إذن أن تتحالف على نزع النفس لأنها كانت خليفة أيضا أن تتحالف على سواه لقلنا إنها لكذلك . ولكن الغرابة ، مع ذلك في هذا الموضع ، ليست في نصح النفوس بما فيها وإصدارها في سلوكها الخبيث عما هي مجبولة عليه ، بل في انحرافها المسرف نحو الشر ، وإغراقها المسف في الدنيايا في وقت ظن خلاله أنها أقدر على التحكم في غرائزها الجلقة وأدنى الى الترفع عن المغويات .. فمحمد عندئذ لم يكن قد طال العهد بغيابه ، والدين لم تخلق جدته ، وتعاليمه التي جاءت لتدعم الخير وتوهن الشر عن طريق تنقية السلائق وتهذيب الطباع لم تكد صحفها تطوى وترفع عنها الأقلام !..

والحركات المضادة التي شنّها عليه أعداؤه توشك أن تعلم لنا بعلامح وسمات قد تباين بعضها عن بعضها الآخر حتى لتبدو للباحث تلك العداوات التي تنسبها كالتفرقة أو المنقسمة على نفسها لاختلاف الأسباب التي أنجبتها ، والبواعث التي حركتها ودفعتها الى المجاهرة بالعداء . ولكنها ، وإن تفردت كل واحدة منها باتجاه أحادى وبسلوك خاص أفرزته طبيعتها ، قد اجتمعت كلها على غرض عام موحد هو محق الرجل الذى تعاديه ، تماما كالفيالق التي تحارب على عدة جبهات ، لكل فيلق قيادته ، وأسلوبه القتالى ، وهدفه المحدود ثم لا تكون غايتها الكبرى غير نصر مشترك يحقق الغرض العام .

على هذا النحو نرى الإمام موزع الجهد والتفكير بين العناصر المعادية التي تشرعت لحربه ، وبخاصة في هذه الآونة الأخيرة من عهده إذ تبدلت حصائل الماضى القريب والبعيد وقد تراكت ووجدت التربة الخصبة لاستنبات الخلافات .. ولا مجال هنا لتتبع هذه الحصائل إلى جذورها فرادى أو بطول الاستقصاء .. ولكن طبيعة العصر يمكن

ان تمدنا بخيط يسلكها كلها وتنتظم فيه كحبات العقد تتوالى وتتجاور
كيانا متسقا وإن اختلفت فيها الحجوم والالوان ثم تباينت مصادر
النشأة او تباينت مناجم التعدين !.. ولعل اقدر ما قد يعيننا على
استكناه هذه الطبيعة ، وهتك سرها ، هو ان نرد اصلها قليلا إلى
الوراء ، ثم نستشف كيف كان السلوك العام للمجتمع العربى الاول
تجاه الإسلام في مستهل فجره .. عندئذ تقع العين الناقدة على دين
جديد يطلع بكل ما هو غير مألوف على مجتمع متمزق ، يحيا حياة
كالبدائية ، وتسوده روح القبيلة المنبعثة من السلطة « الأبوية »
تمثلها السيطرة « الفردية » للشيخ ، ويضطرب فيما تثيره هذه الروح
من حمية وتعصب ، فمن تنافر وتناحر ، ثم من تخلخل وتفكك في
المجتمع الكلى بمقدار تعدد القبائل والعشائر ، او الوحدات الاجتماعية
التي تعيش فيه ..

فما هو المنحى الخلق بمثل هذا المجتمع ان يحوه ، وما هو المنتظر
من مثله ان يسلك إزاء ذلك الدين ؟ ..

مفتاح سلوكه ، او دافع اتجاهه ، بغير جدال ، ومن اقرب مورد ،
هو « النفع » الذى يستطيع ذلك الدين ان يحققه لكل وحدة من
وحدات المجتمع كمجموعة ، ثم لكل طبقة او فئة في النسيج الاجتماعى
للوحدة على انفراد .. وتقدير قيمة هذا النفع في هذا المقام رهن
- بطبيعة الحال - بعوامل شتى تتصل بمكونات أمزجة الافراد
والجماعات ، وأوضاعهم النفسية ، واساليب تفكيرهم ، ودوافعهم السلوكية
التي تحددها جميعا البيئة المكانية والزمانية ، والطباع والتقاليد ،
وتراثات توارىخهم القبلية المنحدرة في عروقهم عبر الأجيال . ولكنه ،
آخر الأمر ، أشبه شئ بحساب الأرباح والخسائر الذى لا يعول فيه
على دلالة المفردات الرقمية واتجاهاتها إلى الصعود والهبوط ، الغنى
أو الفقر ، بل على الحصيلة النهائية لهذا الجانب او ذاك .

ولا يمكن ان يطمئن هنا بأن تناول الدين من هذه الناحية لا يتفق
وما له من طبيعة روحانية لا توزن عناصرها ، ولا آثارها ، بميزان
الذهب او تعابير بمقياس المال فلا وجه إذن لإخضاعه لتفكير مادى يربط
بينه وبين المنافع المادية ، ويعتبره سلعة في سوق المتاجرة بالبيع والشراء

يروجها الكسب ، وتكسدها الخسارة .. لا يمكن هذا ولا يسوغ
اعتباره إلا ان تكون النفوس كافة - وعلى غير حقيقتها « الأرضية » -
ذات جبلة « سماوية » خالصة صيغت من الصفاء والنور فتتجذب
تلقائيا إلى الدعوات الإلهية دون التأثير قليلا ولا كثيرا بالمرغبات
والمرهبات . فأما والبشر هم البشر ، ونفوسهم فيها جانب مظلم
وجانب مضيء ، فنظرتهم إلى الدين خليفة بالألا تتجرد مما بنظرتهم إلى
أى معروض يقاس إقبالهم عليه بمقدار الرغبة فيه ، والحاجة إليه ،
والمنفعة المنتظرة منه !..

وإذا كان علينا الا ننكر ان مواكب الإنسانية على طريق التاريخ
لم تخل - حتى في اظلم العصور واشدها جاهلية - من نفوس لاهوتية
نقية وبشر ربانيين بنوا في ذات الله ، وقصدوا بابه شغفا وحبا وليس
خشية عقاب أو ابتغاء ثواب ، فإن لنا أيضا ان نقرر ان جموع هؤلاء
في كل عصر - ولا نقول في كل جيل - لا تجاوز الآحاد المحدودة والافراد
المحدودة ، وهم بهذا خروج على الإجماع ، وشذوذ عن القاعدة كحبة
الؤلؤ في صحراء شاسعة من الحصباء !..

المنفعة على اختلاف صورها ، وبتعدد قيمها في حدود تباين
التقدير ، هي التي ربطت العرب بالإسلام ، من بدء نزوله ، ومن بعد
اشتداد أيدى وانتشاره ، ثم صنفتهم طوائف ومجموعات نمت لها على
الزمن خصائص مميزة ذات اثر فعال في تحديد سلوك كل مجموعة ،
ففي توجيه السلوك العام .. ولا حاجة هنا لذكر أولئك الذين صفوا
نفوسا وضمائر ، وهياتهم خلائقهم السوية لاستقبال دين الله بالقبول
عن إيمان مرده حاسة روحية مرهقة أو تقدير عقلى سليم . فهؤلاء
هم الرواد وبناء الدعوة الذين امتلأوا بها ، واخذوا أنفسهم بقرسها في
القلوب والأذهان .. أما من تعرض لهم بالحديث في هذا الموضع ،
إيانة عن صنوفهم ، وكشفا عن مناحى سلوكهم - حينئذ ومن بعد -
كيف كانت ، وكيف حولت حركة التاريخ خلال عهد الإمام ، فإنهم من
عداهم من اتباع الدين .

ولقد يضاف على المنظر ما يدينه إلى الواقع الإنسانى في كل آن ،
ان نقرر هنا ان السلوك العربى تجاه الإسلام لم يخالف الطبيعة البشرية

في شيء وإنما طابفها ونضح عندئذ باتجاهها « التقليدى » المألوف حبال كل ما جد - قبله - من عقائد وأديان . فعبادة الله دائما على الوان ، بقدر تفاوت استنارة البصائر ، واختلاف القدرة على الإحاطة بذاته ، أو تفاوت حدود الإحساس بالعقيدة ودرجات التقدير لما بها من شرائع ونواميس . . وفيما رسمه الإمام لهذه الألوان من الاتجاهات ما قد يصنف صور الإيمان . .

قال :

« . . إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار . . »

ويكاد الأمر لا يتطرق بنا بعيدا عن النهج الحق لو رأينا أن الكثرة الغالبة ممن دخلوا الإسلام ، بدء ظهوره ، ومضوا عليه ، كانوا مشايعين لبضعة من قادة الرأي فيهم ، متأثرين لخطاهم ، استجابة لداعى الإبقاء على وحدة القبيلة وهيبتها ، أو نزولا على مشيئة السلطة الأبوية فيها المتمثلة في الشيخ . فكما وقفت العشائر العربية ، برعامة شيوخها ، تناوئه عند إعلان مولده ، وتنكر عليه حفه في الذبوع بين رجالها ، وقفت أيضا تساند الدعوة ، بعد قليل ، برعامة أولئك الشيوخ ، حين آن لهم أن يلحظوا ارتفاع نجمه وعجزهم عن حصر موجه المتدافع كالطوفان . .

وليس هذا - بطبيعة الحال - بالقول الفصل ، ولا القاعدة التي لا تقبل الاستثناء ، بل هو الرأي الذى نجده يؤخذ على الترجيح والتغليب فإذا هو يظفر من الحقيقة بأوفر قدر ومن الصواب بأكبر نصيب فما يغيب عن البال أن الإسلام قد أخذ - في البدء - يشيع في الناس فرادى ووحدانا ، ينصل المرء إليه من طاعة قومه ، ويخرج بإيمانه به على إجماع رأى القبيلة . وما يغيب أيضا أن الإيمان « الجمعى » به لم يكد يقع إلا من السنة التاسعة للهجرة حين توالى الوفود العربية على المدينة برعامة رءوس العشائر أو ممثليهم يبايعون الرسول لأنفسهم وأقوامهم على الإسلام بعد أن رأوا قرىشا ، وهى أمام العرب حينذاك ، تدين له ، ويخضع سادتها لسلطانها صاغرين . .

ومع ذلك ، فليس يطمئن على القادة ، او على طائفة منهم ، أن دخلوا الدين خوفا وطمعا ، إذ خايلتهم فيه منفعة منتظرة او مؤكدة ، تحفظ عليهم هيبتهم ، او تعيد لهم عزا دارسا وترفع شأننا موضوعا يغدون بفضلهم وهم رموس من بعد ذيول وصدور من بعد أعجاز ، ما دام المظنون بتنافسهم على ارتياده أن يتقدموا في الدولة الجديدة على من عداهم من المتخلفين عنه من الأشباه المناظرين او الغرماء المنافسين . وما دام تعضيدهم إياه ، وسيرهم في ركابه - كيفما كانت الدوافع - قد حسر المد الكفرى ، وأضعف موجاته ، ثم حول الجزر العقيدى إلى تيار دافق كأنه شلال ..

وكما كان الإيمان على الوان ، فكذلك كانت الدوافع إليه عديدة بقدر تعدد الرغبات والمشيرات ..

فحمزة ، وهو على الكفر ، دفعه غضبه لابن أخيه إذ آذاه اناس من قريش أن يذهب إليهم ، فيشتتهم ، ويشج كبيرهم أبا جهل بن هشام ، قصاصا وثأرا ، ثم يتحداهم ويعلن إسلامه ..

وعمر أخذته الرقة على اخته فاطمة بعد أن ضربها لإسلامها واسال دمها ، فاسترجع وأتاب ، وتابعها على دينها الذى طالما وقف منه ومن أتباعه أشد مواقف العنف والعداء ..

والأنصار في العقبة الأولى حفزتهم منافستهم يهود المدينة أن يسرعوا إلى محمد بالبيعة ، ويسلموا على يديه ، وبعضهم لبعض يقول :

« هذا والله النبى الذى تحدثكم به اليهود ، فلا يسبقونا إليه ! .. »

وأبو سقيان بن حرب يعقدها صفقة تجارية لبسلم !.. فلا يقر بأن محمدا رسول من عند الله ، عن اقتناع وطيب نفس ، بل خشية سيف يهم أن يومض وهو يهوى على عنقه ، ولقاء فخر يميزه به الرسول ..

وتتواتر الأمثلة لتعرض صور الرغبات فإذا هى تجل عن الحصر لأنها تكاد تتعدد عدد الأفراد !.. فإنما الناس أهواء . وإنما الدنيا أمل .

وإنما الدين سلعة « نفسية » تخضع ، كالسلع المادية ، لقواعد البيع والشراء!.. وفي حديث رسول الله لعدي بن حاتم وقد وفد من الشام للمدينة عملا بمشورة أخيه ليرى رأيه في الالتحاق بالإسلام ما يلقي ضوئا على جانبي الخوف والطمع في النفس البشرية إذ هما معين الرغبات ..

يقول الرسول لعدي ، باسطا له أوجه « المنفعة » المنتظرة من الدين :

« .. لعله يمنحك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فيوشك أن يفيض المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. أو لعله يمنحك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف .. أو لعلك إنما تمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان لغيرهم ، فيوشك أن تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت .. »

هكذا كانت حالة العرب العقيدية ، وكان انفعالهم بالدين في فجر دعوته . ولئن بدت لنا الصورة منتقصة لا تنقل لنا الهيئة الكاملة لوضع المسلمين العام في عهد الإمام بعد جيل وبعض جيل من ظهور الإسلام ، فإنها لا ريب شريحة من هذا الوضع الكلي ، أو - بالتعبير المألوف - « قطاع » منه ، تجتمع فيه كافة خصائص الأصل وصفاته فلا يختلف أحدهما عن الآخر في الكيف ، وإن اختلفا في الكم . ولا في النوع وإن اختلفا في المساحة أو المقدار .. فإذا كان العرب - وهم على عهد الرسول قلة في مجتمع كالبدائي محدود المطالب ، وبحكم طبيعة بيئتهم أقل الشعوب المعاصرة إغراقا في ترف المدينة - لم يستطيعوا الارتفاع فوق طبيعتهم البشرية وتجريد نظرتهم إلى الدين من رغائب الطموح المادى ، فأولى بغيرهم من الأجناس المترفة ، التى التحقت بالإسلام ، أن تستفيض بهم الأمانى ، وتنبسط رقعة الطموح ، وتكثر المطالب والرغبات .. وإذا كانوا أيضا قد تسقطوا في الدين بابا للمنفعة اجتازوه فأحرى بهؤلاء إذن ، وإنهم لتمرسون بالدنيا ، خبيرون بالآراب ، أن يتسقطوا فيه لمنافعهم عدة أبواب!..

في حدود الإطار النفسى الذى ضم صورة المسلمين عامة في تلك الأيام ، يتبدى لنا أن جمهرة كبرى منهم قد اعتنقت الإسلام عن اتباع لا عن اقتناع ، شأنهم في هذا السلوك شأن غيرهم من انصار كل مبدء ، وأشياء كل عقيدة يتكاثرون وينتشرون وهم في حقيقة الأمر كثرة تنقاد لقلّة تقود .. فإيمانهم به مشايعة لما هو أقوى أو لمن هو أقدر ، يشرها ما ركب في غرائز البشر من تطلع دائم إلى بلوغ الأمثل الأقوم ، ونزوع مضطرد إلى الوصول للأفصح الأجدى - أو هو التعبير الصادق والتفسير الذاتى لظاهرة اجتماعية حتمية الحدوث في كافة المجتمعات الإنسانية هي ظاهرة التقليد .. ودوافعهم إلى اعتناقه تتغاير وتعدد تتغاير مذاهب الأمزجة وتعدد مناهج التفكير ثم لا يحول التغاير والتعدد دون التفاهم حوله كيانا موحدا - وإن تباينت عناصره - هو المجتمع الإسلامى الجديد ، لأن اجتماعهم عندئذ ليس اجتماع تنافر وتضاد بل هو أشبه أن يكون اجتماع « تماهد » وتضافر إن لم يكن هو التناسق والتكامل ، كوحدة الجسد تقوم على تآلف عناصر متعارضة الطبائع متضاربة الخواص ، وكنية المجتمعات تتحقق بترابط أنسجة شتى فيها التماثل وفيها الاختلاف ..

أشأت من الناس سلكها الإسلام في خيط دولته لا نقول بتناقضها عن تعدد الألوان أو تباين الأجناس ، وإنما نقول به عن تفرق الدوافع ، وتغاير الانفعالات ، واختلاف الاتجاهات . ولقد نرى أنها تضافرت على نشر الدين ، وبناء الدولة ، وبسط النفوذ الإسلامى على وجه الأرض إلى أبعد الأماد وأقصى الأبعاد ، ولكتنا لا نستطيع أيضا أن نفعل اقتدارها - ككافة البنيات الحية - على النمو ، ولا أن نشكر خضوعها - كغيرها من الأحياء - لقانون التطور الذى يحقق الانتقاء الطبىمى للصفات كما يحققه للأنواع ، فليس إذن بمستغرب أن تبرز ، مع الزمن ،

لكل طائفة منها خصائصها المميزة التي تعينها ، أو نحملها ، على التفرد بانتهاج لون خاص من السلوك .

هكذا غدت الحال والإمام عندئذ يخطو خطواته الأولى على جادة الخلافة ، ويحاول ما وسعه الجهد أن يجعل الحكم والرعية كليهما يعملان في نطاق دين الله ، ويسيران على ما شرعه الإسلام . . وليس معنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن الثلاثة الذين سبقوه في سياسة الأمور قد تهاونوا في التزام ما يلتزمه ولم يراعوا ما يراعاه . ولكن طفرة التغيير الواسعة التي طقتها الدعوة في فترات إمرتهم القصيرة ، وماقت بها كل وثبات الأديان وقفزات الثورات ، كانت قد طوت إلى أبعد الحدود أحياز المكان وأجناس الإنسان . . فعلى المستوى الأرضي غزت بقاعا وتنوع بها الفصول والأجواء في آن ، وتتفاير طبيعة نراها وتربتها بين جذب ويانع ، وحزن وسهل ، وجبال ووديان . . وعلى المستوى البشري شملت شعوبا وأما بينها تمايز في الأصول والمناشيء ، وتفرق في اللغات واللهجات ، وتباين في الأبشار والألوان ثم ما بلى ذلك من تفاير الحضارات والثقافات . . فإذا تلاقحت عندئذ نظرات كل هذه الجموع إلى الدين الجديد يبدور* العناصر الحضارية مجتمعة إلى رواسب التراثات البيئية ومقومات الفكر القومي ، فإن هذا هو التلاقح المتوقع المقبول ، والتأثر الطبيعي الحتمي الذي تفره طبيعة الأوضاع ولا ياباه منطق العقول . .

على هذا المدخل تراكمت ، بمرور الأعوام ، كافة التيارات الفكرية والسياسية لكل هذا المحيط الكبير من اخلاط الأجناس واللوان الشعوب والأجناس . ومن خلاله راحت - ما تهيات فرصة وما اشتد تيار - تسرب قطرة قطرة إلى أساس النظام العام . .

وقد بدت هذه التيارات إلى نهاية الشطر الأكبر من العهد العمري باهتة لا تكاد تأخذ العين أو تثير الاهتمام ، ولكنها كانت بلا ريب حية في النفوس تعتمل أو تختمر ، وإن بردت حرارتها ، وجمدت حركتها كدوات الدم البارد في موسم البيات الشتوى الذي تكاد تنفصل إياه عن دنيا الأحياء! . . حتى إذا أوشك ذلك العهد أن يطوى صحائفه ، كانت قد أخذت تنتفض بالحياة ، وتتحرك حركة محدودة ، أنا تدور

حول محورها ، وانا نسير في فلكها او تضطرب اضطرابة تكاد تخرج بها عن مداره المعلوم . فلما أن انتصف عهد عثمان نشطت النشاط الذي ينبىء عنها ، وينبئ إليها ، وإن لاحت عند ذاك للخليفة ولكثيرين من ذوى الراى أو السلطان غير ذات خطر ملحوظ . فكانها كانت أدنى إلى طبيعة البراكين ، تحسب في رأى العين خامدة وهى لاتنى تعمل في جوف الأرض والسطح ثابت هادىء لا يريب حتى يثين لها أن تقع على موطن ضعف في القشرة الأرضية فتقتحمه منفذا للانفجار !..

ولم يكن عجبا ألا تستطيع سرعة هذه التيارات المتفضة أن تبارى سرعة انتشار الدين أو سير معها ، على الأقل ، جنبا إلى جنب ما دامت عوامل تفجرها تجيش منذ البدء في النفوس .. فإنما الطبيعي أن تقصر بها خطاها ، والعجب ألا تتأخر عن مواعدها المقدور وألا تتخلف بعض تخلف عن مسيرة الدعوة ثم نلهث في أعقابها وهى تحاول طي الزمن والعقبات لتفرض نفسها على الوجود الإسلامى وتقوم فيه بدورها الخطير .. ومن شاء هنا أن يتقصى لهذا التخلف من الأسباب والدواعى ما شاء فلن يعضل الأمر به ، ولن يكون بحاجة لتسقطها على مشقة ، لأنها في الحقيقة تعلو الندرة إلى الكثرة ، وتعرى على القموض والخفاء فلا تغيب عن إحصاء ولا يعيب بها استقصاء ..

فما هى الدواعى والأسباب ؟ ..

لأن يطيف بها الدهن فيلنقط شواردها واشتاتها من هنا ومن هناك فهو التزيد الذى لا موجب له ولا حاجة فيه ما دام الإقصار يغنى عن الإطالة ، وذكر المحصلة الكلية يجزى عن الإفاضة في إيراد المفردات والأعداد .. فإنما يكفى أن يقال ، في هذا المقام ، إن علة العلل ، ومحور الأسباب والدواعى التى أدت إلى تأخير ظهور تلك التيارات يمثلها لنا أصلا ن جامعان ، هما نظرة الدين وصلابة اليقين وما أفاده كلاهما على طلائع أبطال الدعوة الإسلامية من قوة روحية لم تعدلها ، وما كانت لتثبت لها ، أية قوة مناهضة في تاريخ الإنسان . فانطلاقة الدين ، كعقيدة ، إلى النفوس على عهد رسول الله ، وهو عندئذ في رواء نضرته وأوج عنفوانه ، كانت كاندقاعة السهم عن قوسه إلى الرمية ، إذا ضرب اصمى وأصاب ، وإذا أصاب نفذ وغار ، وإذا غار لم يسهل نزعته ..

وصلاية اليقين في نفوس الطليعة المؤمنة كانت الردء لهم ، والدرع
الواقية التي تهب الطمأنينة وتورث الثبات والإقدام عند الدفاع
والهجوم . وفي رسوخ قدم الرسول في التبشير بدين الله ، وصبر
أصحابه الأول معه ، ونضالهم وإياه ذلك النضال الأسطوري العنيد
الذي لم يكن لوعده ، ولم يخف بوعيد ، ولم ينل من شأو حدته تعذيب
ولا تشريد ، ما يغنى عن كل بيان ولا حاجة بعده لبرهان . .

فأما النظرة فإنها تكسب الموصوف بها - فيما تكسب - سحر
المنظر وبهاء الرونق . وهى على إطلاق مفهومها وطبيعتها - سواء
أكانت في الأمور أم الأشياء ، في المعنويات أم الماديات - ظاهرة قادرة
على الاستهواء وتحريك الفضول لأنها دائما تقترن بانفعال الدهشة
نتيجة لاسنحدها خلاف المأمول وبروزها فجأة من وراء المجهول . .
فما بها من جدة خليق بأن يعلق بها الأنظار والمشاعر طويلا أو قليلا
من عجب أو من إعجاب . ولقد يسفر هذا التعلق البغتي ، بعد تأمل
وتفكير ، عن انكار ونفور ، ولكنه قد يسفر أيضا عن رضا وقبول . .

وقد استطاع الإسلام ، وهو النظر في الأفكار والاتجاهات ،
الحديث بين الأديان والمعتقدات ، أن يظفر - ككل جديد ، دع جانبا
أنه رسالة سماوية واجبة الاتباع - بطائفة من الأعوان المبهورين
بجدته أو المتطلعين من خلاله الى الانسلاخ من القديم لتغيير الأوضاع
. . وإذ هو عندئذ في زهرة عمره أخضر العود في قلوب انصاره الأول
من الدعاة المؤمنين بدعوته ، أو الأشياع المأخوذين بنضرتة ، فإنه
أولى بالأخلق له جدة ، أو يبهت لون ، فيفتر أثره في نفوسهم ،
أو يتهاوى تمسكهم به ولما يظل بعد عليه الأمد طويلا يغير النظرة
أو يقسى القلوب . . وإذ محمد ما زال في الناس يأتيهم من السماء
يوما يوما ، وساعة ساعة ، بالجديد من التنزيل ، ثم يفسر ويقرر ،
ويرشد ويبصر ، فإنه لا سبيل حينئذ إلى نزوع أيما إنسان في المجتمع
الإسلامي الجديد الى التأويل في الدين بما قد ينحرف بتعاليمه ،
ولا لتطرق أفكار وآراء اليه من خارجه - وعبر ما عداه من الأديان
والمعتقدات ، أو الفلسفات ونظرات العقول والأفهام - تطرفا يخلط

به ما يشوب صفوه ، أو يلتوى به عن نهجه ، بالانتقاص منه أو الإضافة إليه ..

وأما اليقين فإن صلابته التى لم تكن لتلين قد جعلت من القلة المؤمنين بالدين ، المناضلين دون الأعداء والعقبات على بقائه وانتصاره ، قوة تعز في القوى ثم تهون أمامها الكثرات .. فالإيمان هو خالق العزائم والإرادات ، وباعث الثبات والإصرار ، وموقظ القدرات الكامنة ومحركها لتندفع قدما اندفاع الأعصار . وهو بهذا سلاح باتر قاطع في مجالات الصراع والكفاح بل هو أول سلاح واقطع سلاح .

ولا غرابة هنا ، وقد اجتمع للإسلام عنصرا القوة : النضرة والإيمان ، أن يظهر على أعدائه ومناوئيه ، ويقتحم ما يعترضه من عراقيل وعقبات . فما رده عن انطلاقه أن ناواه - وهو ينشق أولى نسمات حياته - طاغوت قريش والقبائل العربية الأخريات التى أخذها عنت الكفر ، وازدهتها حمية الجاهلية ، واستطار بها - صلفا وكبرا - ولاؤها الأعمى للماضى ، وثباتها الجامد على القديم .. ولا حسر موجة انتشاره ، في إشراقة عمره ، أن تصدت له مدنيات ذلك العصر بما لها من تفوق علمي ومادى ، وبروز في جوانب الحرب والسياسة ، وبما تمثل من دول عظمى وأمم عريقة كفارس والروم ، ومصر والشام ، وغيرها من بلاد وشعوب طوت حينذاك رقعة عالم تلك الأيام ، وضربت في الحضارة وشأوا القدرة إلى أبعد الحدود وأعلى الآفاق .. ولا غرابة ولا شبه غرابة في ظهور الإسلام ، تلك الآونة ، على جميع من اعترضوا طريقه ، وتحطيمه كل ما واجه من السدود والقيود . ولكن الغريب ، أو ما هو أشبه بالغريب ، أن عنصرى قوته اللذين تفاعلا معا ، وولدا طاقته الذاتية الهائلة ، كانت تجثم فيهما ، ومن نفس طبيعتهما لا من خارجها ، جرائم هدم وتحلل ما لبثت - حين آن لها من بعد أن تختمر - أن أشاعت الضعف في انطلاقته ، وراحت تتعثر بخطاه ..

في جانب « النضرة » أخذ النفور - الذى يشور أحيانا على الجديد بعد انحسار المفاجأة عن نفوس فريق من البهوريين - يطفو على السطح

إذ امتد الزمن بعض امتداد ، وبعد عهد هذه القلوب بالدين « الجديد » فخلقت فيها جدته وبهت رواؤه . ولا عبرة هنا بطول المدة محسوبا بالشهور والأيام أو القرون والأعوام . بل العبرة بمدى الشعور بهذا الطول . فقد يرث الجديد وهو في زهرة عمره لأن الإحساس به - إعجابا به أو عجبا منه - قد زال . وقد يرث لما قد يطرا عليه من عوامل ناخرة وأكلة تنال منه وتغير فيه . كالشوب يرث بآفة قارضة ، أو بالقدر كتراب وغبار ، أو بلسع النار ..

وفي جانب « الإيمان » نشأت فاشية من تعصب في نفوس طائفة من الذين تخطفوا الدين تخطفا كعقيدة استجابت لها مشاعرهم المتعطشة عند ذاك للتدين ليملاؤا بها في دخائلهم فراغا روحيا كان لابد أن يملأوه .. فالإنسان « عابد » بالسليقة . منهوم بالاعتقاد . مشوق عادة إلى ربوبية إله لأن فيها التفسير الوحيد للأسرار الكونية المحيطة التي لا يستطيع ذهنه أن يرقى إليها على جناح تعليل ، ولأنها ملاذه من سطوة الغوامض والمجاهيل .. فإذا هم جنحوا إلى اعتناق الإسلام فذاك أنسياق طبيعي مع العاطفة الدينية وإن كان هذا الانسياق العاطفي لا يجيء دائما مطابقا للاقتناع الموضوعي الذي قد تبلغه العقول بعد روية كيفما كان استواء تفكيرها أو التواءه ، ومدى قدرتها على الإحاطة بالموضوع .. وإذا هم دفعتهم العاطفة وحدها إلى أخذ الدين فإنه الأخذ المتعجد الذي يغدون به أوعية صماء قساراها الامتلاء ، لأنهم احتووه ولم يفهموه ، شربوه ولم يشربوه ! .. فكأنهم النهم الممعود الذي لا ينفعه شيء إقباله السرف على المآكل مقادير وألوانا إلا أن يتخم جوفه ، ويزبد داءه ما دامت معدته لا تقوى على الهضم فلا تتمثل عناصر الغذاء ! .. وكأنه لديهم ليس سوى طقوس وأشكال ، وسور وآيات ، أشبه بهم أن يأخذوه على ظاهر هيئته وفي حدود حروفه بغير اقتدار على القوص فيه تعرقا على أبعاده وأعماقه ، وتفهما لغاياته وأهدافه . وأن يترسموه شعائر ومعالم دون إدراكه كحكم وتعاليم ، لأنهم يرونه نصوصا تستظهر ، وحركات تؤدي وليس أسلوب حياة ..

من هاتين الثغرتين نفدت عوامل الانتقاض والانتكاس إلى المجتمع

الإسلامي الوليد - كمجتمع إنساني فاضل - ثم راحت تتسرب في كيانه رويدا رويدا تسرب العلة في الجسد المعلول لتجول فيه بالضعف والتحلل دولة وأمة ، مادة وعقيدة ، وما كان قد قطع بعد من أشواط حياته غير جيل وبعض جيل .. ولا نشك هنا في أن مرجع هذه النكسة الخطيرة ، أو أحبط به ، ومسحت رقعته الممدودة ، ثم أريد وصفه بما يحدد معالنه ، ويخطط حدوده ، لكنت العبارة التي تطابقه هي قصور أسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ..

فهل عن العجز كان هذا القصور ؟ .. أم العمد وسوء النية ؟ .. أم التهاون ؟ .. أم الضيق بالتزام القيود ؟ .. أم شطحات التأويل ينجبها الجهل أو يسوقها الادعاء المفرور ؟ ..

كل أولاء ، وأكثر ، بغير مراة ! ..

لكنها جميعا ، وان تستر بعضها بمنطوق النص ، كانت مجافاة خالصة لفلسفة الدين ، وخروجاً على مضمونه ، أخلت بالتوازن المفترض بين الظاهر والباطن . الحرف والمعنى . الشكل والروح ..

{

الاتجاهات السلوكية في أي مجتمع من المجتمعات ليست حركات عفوية عشواء تصدر عنه بغير بواعث محددة . ولا هي أيضا حركات إرادية معبرة يراد لها أن تكون فتكون . ولكنها مجموعة من الظواهر الاجتماعية التي قد تؤثر في تكوينها الصدفة كما قد يؤثر الإعداد ثم لا تكون آخر الأمر ، بعد نضجها واكتمال بنيتها ، إلا مستقلة الكيان بغير حد ، مطلقة اليد بغير عائق ، يحكمها في انطلاقها قانون طبيعي ثابت لا يتغير ولا يختل ميزانه ، فإذا هي به « التعبير » الجسد العملى عن الميول والنزعات ، والنتيجة المنطقية الحتمية للدوافع والتطلعات ، ممثلة في « الفعل » ناشئا عن مدى التكيف مع الظروف المحيطة بذلك المجتمع ومقدار الانفعال بالنظم السائدة فيه ..

وفي أبان تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام ، فعلت هذه الاتجاهات فعلها في المجتمع ، فحددت ملامحه ، وحركت خطاه ، وتفردت له بأسلوب حياة يخالف بلا ريب أسلوبه الأول عند نشأة الدعوة ، نتيجة لما طرأ من تغيرات عديدة على الأوضاع والنفوس باعدت ما بين الأصل والواقع ، والقديم والحديث .. ولا سبيل هنا الى الادعاء بأن هذا من طبيعة الأشياء إذا أخذت حتمية التطور في الاعتبار ، لأن التطور - بمفهومه السليم - نمو . والنمو زيادة وارتقاء وليس نقصانا أو رجوعا الى الوراء ..

وبدلنا الاستقرار على أن خط الاتجاه السلوكي عامة ، في ذلك الحين ، كان يتدلى ، جاذبا معه حركة التطور الى الانخفاض .. وهو بهذا لم يساير بأية حال من الأحوال سنة التطور السليم .. ولا كان صدى صادقا لروح التقدم التي احتواها الإسلام في طوايا تعاليمه . إنما كان ، في حقيقة الأمر ، نكوصا على العقب ، وردة عن النهج ، وخروجا على القواعد التي أرساها الدين ..

فالانحراف عن مضمون الدين آنذاك ، وإن جاء عن جهل به ، أو قصور عن ادراكه ، أو تخبط في التأويل ، أو انسياقا مع الأهواء ، أو كيفما كانت الدوافع والأسباب وتعددت التعللات والتبريرات ، هو الذي وضع بذرة التحلل في النفس المسلمة ، وفي المجتمع الإسلامي على السواء ، ثم تعهد لها لتثمر كل عوامل الضعف والتخلخل التي راحت تنخر فيها وفيه .. ولقد يحسم الجدل في هذا المقام أن نأى هنية عن التخصيص الى التعميم فلا نلصق التهمة بفرد بذاته ، ولا بطائفة من الطوائف ، ولا بجنس من الأجناس دون سواه ، لأن الانحراف فيما نرى - كان ظاهرة « مشتركة » . أو قد كان - مع الترفق في التعبير ! - أشبه بخطأ مشاع بين كافة الطبقات ومختلف الأشباع ..

هذه هي القضية ! ..

أما أن يقال إن اتساع نطاق الدولة الجديدة قد خلخل قدرتها الذاتية على التماسك كما تمط الثوب بين يديك مطا شديدا لا يكون ماله بعده غير تفكك نسيجه ، وانقراط قوامه ، وظهور تمزق به هنا

أو خرق هناك .. وأما أن يقال إن تعدد الأجناس ، وتنوع الثقافات ، وتضارب الطبائع وغيرها من وجوه التناقض والاختلاف ، قد يسفر اجتماعها عن كيان سياسى موحد هو الدولة ثم لا يسفر قط عن قوام عضوى واحد هو الشعب لأنه عندئذ اجتماع اختلاط وتجاور وليس اجتماع تكامل وانسجام .. . أما أن يقال هذا أو يقال ذلك فهو القول - لا ريب - الذى لا يسوغ أن يؤخذ به على إطلاق ظاهره وباطنه ، مبناه ومعناه ، كأنه قانون طبيعى ثابت . ولا ينبغي أيضا أن يعول عليه التعويل كله في تفسير ظاهرة الضعف والتحلل التى راحت تدب في مجتمع تلك الأيام . ذلك لأنه القول الذى يلقي به عادة في مثل هذه الظروف تعليلا وتديلا فلا يخلو هو نفسه من افتقار الى تعليل وحاجة لتدليل ، إذ لا يلبث أن يصطدم في مجرى منطق الأمور ، وفي نطاق وافع الحياة على السواء ، بشواهد لا تسنده ، وأمثلة لا تؤيده أن لم تنسخه وتنقضه أو تجرده - في أقل القليل - من القدرة على الاطراد بغير استثناء في كافة الظروف والأحوال ..

فاتساع نطاق أية دولة ، ونراعى حدودها ، أدنى الى أن يحسب لها ثقلا في ميزان القوة لا أن يحسب عليها سببا للوهن لأنه يمددها من الموارد الطبيعية والبشرية - الخليقة بأن تتوفر على امتداد المساحة ونتيجة لتنوع المناخ والتربة - بما يحقق لها من اسباب المنعة والتفوق ما لا يتحقق مثله لدولة صغيرة نصيبها من الأرض والبشر قليل .. والتعدد العنصرى أيضا على أديم هذا النطاق الفسيح لا يحتم وقوع تنافر بين الأجناس يؤدي لا محالة الى الخروج على الدولة الأم وتفتيت وحدتها الإقليمية وكيانها السياسى الى دويلات عنصرية .. فكم هى الأمم ذات الأثر في الحياة الإنسانية على هذا الكوكب ، التى أوشك بنوها أن يكونوا أنقياء الدم إذا ما أردنا بالنقاوة وحدانية العنصر ؟ .. وهل من دولة ، قديما وحديثا ، في الشرق وفي الغرب ، قد حركت موكب الحضارة على طريق التاريخ ، ولم يكن قوامها يتألف من أجناس عدة تلاقحت - حيويا أو فكريا - وتوحدت ، على الأقل ، في تعاهد سياسى اقليمى إن لم تكن قد انصهرت في عنصر جنسى جديد ؟ .. وما هى الفواصل الحادة بين الأجناس البشرية التى

تستطيع أن تحبس ، إلى أبد الدهر ، جنسا وراء اسوارها الشواحق
فلا يتصل او يمتزج بسواه ...

ليوشك هذا ان يردنا والزمن إلى الوراء حقبا سحيقة ، غائرة
في القدم إلى الأعماق حتى مستهل النشأة الإنسانية على الأرض
وجماعات البشر آنذاك شراذم مقطعة يعيشون معيشة بدائية ، لا يمكن
ان توصف - إلا تجاوزا ورمزا - بأنها حياة ، او يوصفوا بانهم
مجتمعات ... فتلك كانت بداية « التجمع » الإنسانى او نواة الالتئام
والاجتماع . وحركة الإنسان في آونتها هذه لا يكاد يحس لها بأثر
في التاريخ العام للجنس البشرى لأنها عدئد لم تكن لتدور إلا في حيز
محدود مغلق من العزلة هو الأسرة او هو القبيلة مع سخاء التقدير ...
فأما وقد سارت البشرية في طريقها أشواطا شبت بها عن الطوق ،
وخلفت بعدها طفولتها الغريرة الى مرحلة النضج عبر اعصر طويلة ،
فإن إحساس الإنسان بذاته ، وإدراكه لدوره في الحياة ، ووعيه
بالانتماء لأصل معلوم تناثرت آحاده وجماعاته هنا وهناك على مدى
الآزمنة والمسافات ، قد غدت كلها - إلى جوار غريزته الاجتماعية -
قوى فعالة تسيطر على سلوكه ، نفسيا وعضويا ، وتدفعه دفعا الى
الالتقاء بينى جنسه أينما شرقت به وغربت قدماه .

وكذلك تنشأ المجتمعات . بل كذلك يعود الإنسان ، بعد طول
تجواله الضال ، الى بيئته الحيوية الأصلية ، وتعود الشراذم البشرية
المقطعة لتتصل وتلتئم كما نشوب الغنمات الشاردة الى مربض
القطيع ...!

ولا حاجة قط لنأييد هذه النتيجة استهداء بعلم الاجتماع ،
ولا عن طريق استقراء التاريخ ، لأنها النتيجة الميسرة الظاهرة لأية
نظرة عابرة بغير استهداء ولا استقراء . فالقرع لا ينفر من أصله .
والشكل ينعطف على شكله . ولا عبرة أيضا بطول فترات الشرود
والانفصال ، ولا باختلاف الألوان وتفاوتها كما بين غنمة سوداء وأخرى
بيضاء ... فمنطق الأمور ، وشواهد الحال يوما وراء يوم تؤكد ، بغير
جدال ، ازدياد توثق الصلات بين جماعات البشر على تباعد المواقع
البيئية ، وتباين السمات البدنية ، وتمايز الخصائص الفكرية وكل

ما يعلم مجتمعا عن مجتمع وإنسانا عن إنسان . وهذه المواقع والسمات والخصائص واشباهها مهما تعددت وجلت ليست سوى مظاهر خارجية لا تضرب في النفس الأدمية إلى عمق غريزة الاجتماع ، ولا في القدم إلى عراقة النوع . فهي إذن فوارق عارضة ، كالرغوة الطافية على سطح الماء تغير مظهره ولا تغير جوهره ، الماء بها وبغيرها ماء ! . ولا مآل لهذه الفوارق ، طال بها العهد أم قصر ، إلا إلى الزوال والدوبان فناء في الأصل الثابت وتوحدا فيه ، وهو « الإنسان » على عموم معناه كنوع من المخلوقات ميزه الله بصفات خاصة ينفرد بها دون سائر الأنواع .

هذه هي نظرة الإسلام التي تنطق بها سطور القرآن ، وتقوم عليها أوامره ونواهيه . وهي دعامة فيه بغيرها يختل بناؤه ، وتهدر أهدافه ، ويفقد معانيه ومراميها ، لأنها تمثل في حقيقتها أحد طرفي المحور الذي يدور عليه موضوعه ، وتنهض أحكامه ، وهما : الله والإنسان .

فالدين الإسلامي ليس عقيدة بحتة لا تتناول إلا ما يرهف حاسة التدين ، ويهذبها ، ويوطد الرابطة بين الرب والمربوب بما رسم من شعائر ، وفرض من فروض . . لكنه عقيدة وتشريع وإن غلبت صفته الدينية الأذهان على حقيقة ما فيه فكادت - توهما وظنا - تجتزئ منه بشرط التأله دون شطره الآخر الذي يعرض لشئون هذه الحياة . .

والقرآن ليس قصصا يروى ، وكلاما يزجى ، وبيانا يستعذب فيردد ويستعاد . ولكنه قطعاً قانون بالشكل والمضمون . وبالمعنى الكامل الصريح لكلمة قانون ، أريد به إنارة الطريق أمام المجتمع الذي سن له إلى حياة اجتماعية يسودها العدل ، ويتحقق لها الخير ، وينتشر في ربوعها السلام . فمن الطبيعي إذن ، وصولاً لفرضه ، وابتغاء لغايته ، أن يجيء بما ينظم العلاقات في ذلك المجتمع بين أفرادهِ وجماعاته من ناحية ، ثم بينهم وبين السلطة العليا التي يمثلها من ناحية أخرى ، مقيماً تنظيمه على أساس من الدواعي والأسباب ، ومعقبا بأحكام الثواب والعقاب . . ومن اللازم ألا يغفل ، أو يتغافل عن هذا الجانب الاجتماعي فيه ، تمحلا بأنه دين « الروحانيات »

والغيبيات هي مجاله الأصيل . فلا جدوى قط من قانون تقتصر نصوصه على تحديد الصلة بين الحاكم والمحكومين دون أن يضع صلة رعاياه بعضهم ببعض موضع تقدير لانه عندئذ يجرى على التخصيص . والأصل في القوانين أن تكون على العموم لا على الخصوص ..

في هذا الضوء لا يعسر على من يستخلص الأسس العامة ، أن يرى في الإسلام حقيقة كبرى قد أبرزها كرأس قواعده ، هي «الوحدانية» الخالصة التي تنتفى معها كل صور التعدد واللوان التجزئة وما قد توميء اليه هذه أو تلك بالتصريح أو التلميح . فالوحدانية التي يقول بها نابتة لا تتغير ، كلية لا تتجزأ ، جلية لا تتناولها شبهة ، لأن التغير والتجزئة والاشتباه آفات خليفة لو وقعت بأن تذهب بالعقول مذاهب شتى في فهم ذلك القانون القرآني ، وتفاير بين أساليب السلوك تجاه كل حكم من أحكامه ، ثم تفاوت بعد هذا بين العقوبات والمثوبات بغير ما يقتضيه الإنصاف . وما لمثل هذا شرعت القوانين ، ولا بمثله تساس الأمور والمجتمعات .

ولا يراد بهذا القول أن يعاد ما هو ثابت مستقر من «توحيد» الله في الإسلام فذلك طالما جرت به الأحاديث ، ووعته الأفهام ، حتى غدا بديهية في غنى عن التأييد . لكن الذي ينبغي بيانه أن التوحيد ، بشمول معناه ، وعلى تعدد مجالاته . هو أساس الإسلام ، وأصل قواعده ، والمبدأ العام الذي يتقدم به ، ويعرض نفسه على العالمين عقيدة وشرعية ، دينا وقانونا ، سياسة ونهجا للإيمان والسلوك . فهذا التوحيد هو الوسيلة لتحديد علاقة الله بالبشر ، وعلاقة الناس بالناس ، دون ما ترخص هناك أو تأويل ، ودون ما نحيز هنا أو تجاوز . وهو الضمان الكامل لاستقرار الأمور في المجتمع : حاكما «علويا» ومحكومين «أرضيين» بغير زيادة ولا نقصان ..

فالإسلام كعقيدة لا يبيع مطلقا أى ترخص في شرائط الإيمان أخذا ببعضها وتركها للآخر وإن لاح أن فيها ما يجلب أو يهون ، وإن اختلف حولها المكان أو تغير الزمان ، لأن الإيمان «وحدة» متسقة لا تقبل التجزئة ، كما لا تقبل الإفراط أو التفريط ..

والإسلام كشريعة له وحدته القانونية التي تربط أحكامه ، وتلائم بينها ، وتعرف عادة في لغة العرف أو العصر يروح القانون . فلا سبيل قط إلى الاحتكام إلى نص فيه بعيدا عن « جو » بقية النصوص . ولا إلى المغايرة قليلا أو كثيرا في التطبيق بسبب تفاوت اقدار المحتكمين أو المختصمين ، وتغاير عناصرهم ، واختلاف النظرة في التقدير بين هذا وذاك ممن يتصدون للتطبيق ، لأن في هذا ما فيه من إهدار الوحدة ومجاناة الروح ..

وكما لا يجزىء الإسلام الله فإنه لا يجزىء أيضا الإنسان . إنما يقضى بوحدة الربوبية الإلهية ووحدة العبودية البشرية في آن . ويحرص الحرص كله على أن يرسخ هذا المبدأ في القلوب والأخلاق بكلا طرفيه : الله والبشر ، بما يبثه في تعاليمه ، وتردده آيات كتابه بجلى الحرف ومستتر الإيماء سواء بسواء ..

فتوحيدا لله ، ينزه الإسلام الذات العلوية عن مخالطة الأحياء زمانية ومكانية ، وعن المشاركة في الملك بالاجتزاء أو المشورة ، وفي القدرة بالقول أو الفعل ، وعن المقارنة بالنظائر والأشباه ولو مقارنة تمثيل . فتنزيهه الله خالص كامل ، وقاطع مانع ، يجلى عن الوصف ويعلو فوق تطاول العقول ..

ولقد صور الإمام هذا التنزيه ببيان رأى ، أمام كماله سبحانه ، أن ينهى فيه عن وصف ذاته ، لقصور الأفهام عن الإحاطة بحقيقته ، وعجز الكلام عن رسم صفاته :

قال :

« .. كمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة .. فمن وصف الله فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزأه . ومن جزأه فقد جهله . ومن جهله فقد أشار إليه . ومن أشار إليه فقد حده . ومن حده فقد عدده .. » .

وقال مما جرى على نفس المثال :

« .. وحده لا شريك له . الأول لا شيء قبله . والآخر لا غاية له .. لا تقع الأوهام له على صفة . ولا تقعد القلوب منه على كيفية . ولا تناله التجزئة والتبعيض .. » .

وتوحيداً للبشرية أعلن الإسلام أنه دين الفطرة التى فطر الله عليها الناس قبل أن تفسدها الانحرافات المتسربة إلى النفوس والعقول من خلال المعتقدات والأفكار ، أو العادات والتقاليد ، أو فوارق العنصريات . أو حدود الزمان والمكان .. فهو يرد الإنسان إلى سجيته النقية الأولى ، كبداء نشأته ، مطهراً من أدرانها ، خالصاً من شوائبها ، كأنما يلدّه من جديد . وهو بهذا يسوى بينه وبين كل من عداه من بنى نوعه لأن الفطرة هى العامل الوحيد المشترك فيهم جميعاً فأساس المقارنة بينهم على هذا الوضع ثابت لأنه مساواة مطلقة لا وجه فيها للمفاضلة أو الترجيح .. وهو يقيم رسالته على هذه القاعدة ، فلا يوجهها لطائفة من الناس ارتفعت - في حساب المعايير الدنيوية الموضوعية - بجاه ومال ، أو بعلم وثقافة ، أو بقدرة وقوة ، أو بجنس وعنصر .. لكنه يوجه هذه الرسالة إلى البشر كافة ، ثم يحتويهم في رحابها سواسية ، لأنهم وحدة مكتملة لا تقبل التجزئة ولا التفريق .. وليس أدل على هذه الحقيقة من تأييده في الدعوة إلى الإيمان عن التخصيص إلى التعميم فلا يخاطب إلا « الناس » أو « الإنسان » أو « بنى آدم » أو « عباد الله » دون أن يختص أى جنس أو عنصر بالخطاب ..

ويشير الإمام إلى وحدة البشر فيقول :

« .. إنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبيث السرائر .. » .

ويحذر من عصبية الأحساب والأنساب والعناصر ، بل يهدر طاعة ذوى السلطان الذين يتخلقون بهذه العصبية ، لأنها - في حقيقة الأمر - تجافي منطق الطبيعة الذى يجمعهم وغيرهم من مدلوليهم المرجوحين ، في نسب واحد ، أصله واحد لا اختلاف فيه .

قال وهو يفرد العلو لله :

« .. لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما

حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه
فيهما من عباده .. ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين
تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم .. فإنهم قواعد أساس
العصبية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. » .

ونسبهم هو الإنسانية فكيف يترفع إنسان على إنسان !

وانكر المفاوطة في تطبيق شريعة الله عند الاحتكام ، فقال فيمن
يفاوتون ، منحرفين بهذه المفاوطة إلى آرائهم عن رأى الدين :

« .. إلههم واحد . ونبيهم واحد . وكتابهم واحد .. أفامرهم
الله بالاختلاف فاطاعوه ؟ .. أم نهاهم عنه فعصوه ؟ .. أم انزل دينا
ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟ .. أم كانوا شركاء له فلم أن يقولوا
وعليه أن يرضى ؟ .. أم انزل دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه
وأدائه ؟ .. » .

هكذا هو المجتمع الذى عناه الإسلام ، وبناءه على قواعد راسخة
لا تهتز ، واضحة لا تستبهم على العقول ، لأنها تجرى على جادة المسرات
البدئية التى لا تحتاج في إثباتها إلى عناء الجدل ، وتقوم على حقائق
الواقع الملموس ومنطق الأمور الطبيعى لا على النظرات المنبثقة من
التصور والافتراضات المستمدة من تطلعات الخيال .. !

وحدة ..

وحدة سلطة عليا ، لا تنجزا فلا تنقسم على نفسها . ولا تتغير
فتختلف عليها البدائل أو تضطرب الآراء .

ووحدة أمة واحدة الأصل ، متفردة النوع ، بغیر تباین بين جماعاتها
وأفرادها في النشأة والفطرة والصفات النوعية ، هى البشرية . او هى
الإنسان على اختلاف الزمان والمكان ..

ووحدة شريعة مكتملة ، تؤكد وحدة السلطة ووحدة الأمة ،
وتتناول العقيدة والمعاملات ، بغیر مجاز إلى تبديل في اصولها ،
او ترخص في قواعدها العامة ، لأن تعديل الشرائع موكول إلى الهيئة
التي اصدرتها ، ومرتهن بحاجة المجتمع إلى هذا التعديل نتيجة

لافتقار المشرع إلى الإحاطة الكاملة بما قد يطرأ من بعد على ذلك المجتمع من ظروف ويجد من احوال ، وحاشى أن ينسب مثل هذا الافتقار إلى الله !..

ومساواة ..

مساواة بالنشأة ، لأن المجتمع البشرى كله من آدم ، فهو إذن متوحد في النوع ، مختزل في الإنسان على عموم صفته ، بغير تجنيس ولا تفرع ..

ومساواة بالكنه ، وهو الفطرة الأولى التى يشترك فيها أبناء ذلك النوع كافة ، قبل أن تغير منها أو تفسد فيها عوامل الفرقة «الوضعية» التى تستند إلى تفاوت البيئات والألوان ، أو تغاير الأهواء والثقافات ..

ومساواة في التقدير أمام شريعة واحدة ، لا تماليء إنسانا على إنسان ، لأنها عادلة شاملة ، لا تتغير من مكان لمكان ، ولا من زمان لزمان ..

٥

عوامل الضعف كلها التى انتابت المجتمع الإسلامى في ذلك الحين ، ومن بعد ، نبعث - فيما تنبئ الشواهد وتثبت الخواتيم - من قصور أسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ، أو ، بلغة اليوم ، من المفارقة بين النظرية وبين التطبيق .. فهذه المفارقة آفة مدمرة ، كغيرها من جرائم الأوبئة والعلل الفتاكة ، قد تهدأ حيناً ، وقد تنشط حيناً ، ولكنها في الحالين لا تنقضى ولا تنقطع لما لها من طاقة ذاتية تجددتها على الدوام وتعينها على البقاء والانتشار في كافة الظروف وتحت كل الأجواء بقدر استطاعتها التكيف بؤوضاع المجتمع الذى تنشأ فيه !.

ذلك ما لا سبيل إلى نقضه ولا الطعن عليه وإن تعقبنا المجتمعات البشرية بأنواعها على مختلف مراحل التاريخ ، صعوداً وهى في ذروة القوة والازدهار وهبوطاً في حضيض التبدل والانهدام .. فما نشأ

مجتمع قط في هذه الدنيا إلا على مبدأ عام - إلهي أو وضعي - يرمى إلى تحقيق لون من الخير يشيع في ربوعه ، كيفما تباينت النظرات من خارجه إلى هذا الخير أو تفاوتت الآراء في تقديره .. وما قام مبدأ في مجتمع إلا على أساس من التوفيق بين مصالح القوى المتعارضة ونقائص الأفكار السائدة فيه - طبقية كانت أم فردية هذه المصالح والأفكار - ضمانا لخلق توازن نسبي بين أهله ، يذيب الفوارق أو يكسر حداثها ، ويجمع شتات الآراء والجهود في وحدة تسعى لتبلغ الخير المقدور .. وما من خلل أصاب هذا التوازن وخلخل اتساقه في مجتمع من المجتمعات إلا كان ناجما من افتقار بنيه إلى الإحساس بالانتماء إليه افتقارا يهز إيمانهم به وثقتهم فيه ، بسبب اضطراب المعايير ، والمفاوطة في التقدير على خلاف ما يقضى به المبدأ العام ..

وظاهرة المقارقة بين النظرية وبين التطبيق برزت في المجتمع الإسلامي الجديد وهو يوشك أن ينسلخ من الخلافة « الراشدة » بأسلوب حكمها الخاضع لناموس علوي لا يأخذ بالملك القائم على مزايا وضعية كالعنصر والنسب وبسطة النفوذ . ولا مدعاة هنا لسوق الحديث إلى المفاضلة بين النظامين لاتساع الهوة - قطعا ودون حاجة للتدليل - بين الفاضل وبين المفضول ، سواء بالنتائج والعواقب أو بالأسس والأصول ، وكفى أن يقال إنها الهوة التي تضع إنكار الذات في جانب والانانية في آخر ، وتقدم القهر على حرية الاختيار ، والاجتزاء على الشمول .. ولا مجال أيضا للزعم بأن هذه الظاهرة قد طفت فجأة على سطح المجتمع الإسلامي ، أو اقتحمته على حين غرة حينئذ ، لأن في هذا ما يخالف طبيعة الأمور . إنما الحق أن نقرر أنها ولدت مع المجتمع منذ نشأته ، وعاشت وتربت فيه . فلكل شيء آفة من جنسه ، كما يقال . والإسلام آنذاك ، وعلى عموم معناه ، « مبدأ » جديد . والمبادئ ، في كل موقع وعهد ، خليفة يان تقابل دائما ، منذ نشوئها وطروئها على المجتمعات بما يضادها . ويصطلح عادة على تسميته « رد فعل » ، تماما كما تنشط كرات الدم في الجسد وتولد طاقة ذاتية لمقاومة أي طارئ دخيل ! ..

وهذا ما كان .

فلقد ظهرت قوى المقاومة للدين الجديد منذ نشأته ، وأخذت أيضا عوامل التحلل والتخلخل تسرى في المجتمع في نفس الآونة ، وإن مشيت حيناً على استخفاء وحيناً على سفور . ولقد لاح ، فيما سبق به الحديث ، كأنما كان أولى بهذه العوامل ، أن تفعل فعلها التخريبي منذ بدأت ، ما دامت قد عاصرت مولد الدين ، ومشيت وإياه إلى المجتمع خطوة خطوة على الطريق . . لاح هذا ، وكان أولى به الحدوث قبل مواعده يبضع سنين ، أولا أن ظروفنا غلبة قد عوقتها ، وقهرت ضراوتها على أن ترجىء نشاطها إلى حين ! . .

فلا شبهة قط في أن انطلاق الدين بتلك السرعة البرقية من قلب مهدد في الجزيرة العربية ، وعجز الجحافل الضخمة المعادية - سياسية كانت ، أم عسكرية ، أم عقيدية - عن الثبات أمامه ، ثم تعاقب تساقطها ممزقة صرعى تحت قدميه ، قد شل عوامل التحلل أن تتحرك ، وجمد خطاها المتسللة إلى المجتمع الجديد . . ولا شبهة أيضا في أن صلبل السيوف ، وضجيج الخيل ، ودوى الأبواق التي انعقدت بها ألوية النصر لكتائب الطلائع الداعية في كل مكان قد شغلت الدنيا كلها بثورة الطوفان العارم الذي فجره الدين . . فالتناس ، هنا وهناك ، في الجزيرة العربية وما وراءها ، مؤيدين ومعارضين ، قد أذهلهم عن أنفسهم ، وعن المطامع الشخصية والقومية جميعا ، ذلك الزحف الأسطوري الخاطف الذي حققته الدعوة الإسلامية في مجالى غزوها للأرض وللنفس فيما لا يكاد يحسب شيئا يذكر في عمر شعب ، أو دولة ، أو مبدأ ، بل في عمر فرد من الأفراد ، ثم يوشك ألا يدع مهلة لالتقاط النفس المبهور ، أو فرصة لإمعان النظر فيما جد من الأوضاع والأمور ومقابلته بالتمرد أو التغيير . .

فعلى الأديم « العربى » نحتت حركة الفتوح أمة العرب ، التي ولد في حجرها الإسلام ، نوعا من الشعور بالتفوق على الحضارات العظيمة المعاصرة إن يكن قد حملها على الاعتزاز بالدين الجديد كطاقة معنوية تدفع إلى الاستهانة بالأخطار ، أو كمشعل يضئ لها الطريق إلى النصر ويفرش ساحات الكفاح بالنور ، فإنه قد بسط لها أيضا في الثقة بالنفس ، والاعتداد بالجنس ، اعتدادا وثقة صورا لها

— أو كشف — في دخالها قدرات وملكات ذاتية ، شاهقة خارقة ، ظلت خبيثة عنها على مدى الأعصر الطوال حتى عرفت الآن أين السبيل للظهور . . وإذا كانت للنصر سورة كسورة الخمر التي تعرى بالمهاجرة ، وتحفر على الإدمان انتجاعا للنشوة في كل كأس وبأى مكان . فان تعاقب الليل والنهار على انتصار وراء انتصار ، قد أبدل العرب رهواً بثقة ، وخيلاء بإعنداد ، فزادوا عصبية على عصبية ، وحمية فوق حمية . وغدوا — ولما يطل بهم عهد الازدهار — أفخر بأصلهم والصق ، فخرا يكاد يعمى عما عداه من أصول فيورث الاستعلاء . ولصوقاً بهم أن يحتازهم الى ركن قصى من « القومية الإسلامية » الجديدة ، إن صح هذا التعبير ، ويبنى حولهم غلافاً من العزلة ، كصدفة القوقعة ، بفصل بينهم وبين سواهم من الأقوام الآخر الذين احتواهم الدين وإياهم على سواء في أمة موحدة محت شريعته السماوية طبقية الجنس وأذابت القوميات . . فإذا لم يكن في تعاقب النصر المؤزر السريع ما يشعذ إحساسهم بالتفوق . ويلهب في نفوسهم غلواء افتتاتها القديم بالعنصر ، فأى شيء غيره إذن — في اعتبار النظرة العربية المباهية — قادر أن يشعرهم أنهم وحدهم هم الجوهر الأنقى ، والأصل الأعرق ، وأن غيرهم من الشعوب والأقوام . الملتحقة بفضلهم بالإسلام ، تبع لصقاء ، وطارئون دخلاء . .

وعلى الأديم « الأعجمي » قرنت صيحة الدين الجديد . في البلاد التي مشت عليها الفتوح ، صدمة المفاجأة برغبة التغيير . . ملقد هالت الناس فيها تلك الطاقة المذهلة التي فجرها الإسلام في أمة مستضعفة ، لم تكن قبله شيئاً مذكوراً ، فإذا هي به نزلزل الدنيا ، وتقلب موازين القوى ، وتغير المعايير والأوضاع ، فتصبح قبائلها المبعثرة دولة تدل شوامخ الدول ، وتلتهم أعظم الحضارات ، وتنسخ العقائد والأعراف ، ثم تطوى في قبضتها عالم يومها ذلك من طرفيه في بضع سنين . . وكان الانفعال الذي خلفته الصدمة المباغتة في البلاد المفتوحة ، أن دينا كهذا قد استطاع — وهو بعد وليد طرى العود بين عمالقة الشرائع والمعتقدات ، وبانتصار لا يحفل بهم في حساب كثرة أو قدرة — أن يفعل مثل هذه الخوارق ، ويأتى من

النتائج بما لا تنم عنه المقدمات ، ولا يوحى التسلسل المنطقي للأمور ، محققا ما يخالف كل متوقع ومنظور ، لهو لا بد دين جدير بأوفى اكبار وابلغ تقدير .. فإذا ارتبط هذا الانفعال - وهو في ذروة نشاطه ، والعقوى لما تفق بعد من صدمة الدهشة - بما طبع عليه البشر عامة من تطلع نهم الى الجديد ، وبما راود عندئذ نفوس أبناء الأمم والشعوب التي طالما استعبدتها دول ذلك الحين قبل الإسلام من نزوع الى التبرم بأسلوب حياتها المهين ، والتمرد على الظروف والأوضاع التي حبستها في هذا الأسلوب ، فأى مسلك إذن كانت تلكم الشعوب والأمم تسلكه حيال طغيان الامبراطوريات واستبداد الحكام الا ان ترى الأمل ثم تتلمس المهرب في هذا الدين الذي بشر بالعدالة والمساواة بين الأجناس ولكل الناس ، ولا مكان فيه لتسلط إنسان على إنسان . إدلالا بقوته ار إشباعا لهواه ، لأن السلطة كلها في يد الله دون سواه ؟ .. واى موقف عسى ان يقفه بنو هذه الأمم التي اظلمت للإسلام لو آنسوا من العرب ، وهم الهداة والأعلام ، تقحما على هذه السلطة ، وميلا إلى التجبر والاستعلاء - كحكامهم الغابرين - على خلاف الشعار الذي رفعوه ؟ ..

هذه هي الملامح النفسية التي أخذت تبرز في اقوام عالم تلك الأيام والإسلام يلمس بعصاه السحرية البشر فيفجر فيهم الطاقات والقدرات ، أو يبجس الآمال والتطلعات كما فجر موسى من الصخر عيونا عدة من الماء بعصاه ! ..

تباعد وتعال في جانب ، وتوجس وتحد في آخر على رقعة الدول الإسلامية الفسيحة ، في بكرة نشأتها ، كانت هي السمات التي اعلمت نفوس جماعة المسلمين آنذاك ، ووجهت سلوكهم ، وراحت تحاول ان تشق وحدتهم فريقين متقابلين ، على تحفز وتناقض ولو لم يكونا على خلاف ، وما انتقضت بعد على التقائهما تحت العلم فترة الزمن التي تكفيهما للاصهار . فكأنه التقاء مادة بمادة تتجاوران ولا تتفاعلان ، وقد تلتصقان ولكنهما لا يمتزجان ! ..

ويجاوز حدود الإنصاف وسلامة التقدير ، بغير جدال ، ان يزعم زاعم ان العرب - كجنس - كانوا جميعا على استعلاء . او ان خيلاء

العنصر سادت منهم رجال الطبقة الحاكمة فرادى وجماعات . فذاك ما لا تؤيده حقيقة السلوك العام لأولئك وهؤلاء في تلك الفترة كقوة داعية الى الدين أو كسلطة تسوس الأمور . . ولكن ظاهرة الاستعلاء برزت ، بلا مرأى ، في صفوف الحكام ، منبثقة من نراهم النفسى وطبيعة العصبية العربية التقليدية تؤجج نارها مفاخر النصر وسطوة النفوذ . فإذا هي تسم غير قليلين من أصحاب السلطان وتوجه اليهم الاهتمام العام . وإذا هي عندئذ الظاهرة التى يفشو امرها بين الناس ، ويجرى ذكرها على الألسنة بكل مكان في كل مقال ، كثر أو قل الموسومون وتعددت أو ندرت الأمثال . . وليس هذا بمستغرب . ولا هو مما يخالف منطق الأشياء . لأن الكبير - كل كبير - وصاحب الجاه ، وذا السلطة المرموقين في المجتمعات يتعلق بهم عادة اهتمام من وراءهم وحولهم من الجماهير ، وتنبص العيون والاخلاد بصور تصرفاتهم ، والوان سلوكهم - ما جل منها وما هان - في مناحى حياتهم العامة والخاصة على السواء ، تلاحقها بالنظرة الفاحصة والراى الناقد حتى لتوشك أن تعد عليهم الخطوات وتحصى الأنفاس ثم لا نذكر لهم ، آخر الأمر ، مما يقولون أو يفعلون ، إلا الأخطاء والمساوىء ملفوفة في المبالغة والمغالاة وإن كن هنات ، كشأن الشعوب دائما في محاسبة الحكام . .

ويجاوز أيضا حدود الإنصاف وسلامة التقدير أن يقال عن الشعوب الأعجمية الملتحقة بالإسلام ، إنها ظلت أبدا خافضة الجناح ، بريئة من داء الاستعلاء . فذاك أيضا يجافي حقيقة الحال . . إنما المعلوم المشهور أن بذرة الإحساس بمراقبة حضارتها والازدهاء بأصول مدنياتها القديمة ، بائدة أو مقيمة ، لم تقتلع من المشاعر ، فظلت معتزة بما سلف وكان ، تجتره بين حين وحين وإن أضافت إليه فخرا جديدا بهذا الدين . . فما كانت لتنسى قط اعتزازها بصولة الاكاسرة ، وتراث الروم ، وشموخ الأهرام . . ولا هي أغفلت تلمس العزاء في أمجادها الفواير كلما ساءها من العرب أمر ودفعها الى المقارنة بين ماضيها كرعايا وماضيهم كحكام . وفيما تدلنا عليه نفثات الفكر المستعرب وآثار كتابه وشعرائه ، التى راحت رويدا رويدا تطفو على سطح الثقافة الإسلامية ، ما يكشف لنا عن نواة

الحركات « التسعوبية » الخطيرة التي كان لها ، من بعد ، أثر بالغ في نوهين سلطة الدولة ، وحسر مد الإسلام ..

ولا ينبغي هنا أن تحمل كلمات الضعف واحتلل والوهن وأمثالها من أسماء الصفات والنعوت ، التي نراها أسندت لهذا العهد والتصقت به ، على مطلق معناها ، لأن « الإطلاق » في حقيقة دلالة تجريد ، والتجريد شمول بلا معالم ، وشيوع بلا حدود ، وما هكذا تكون الأمور في واقع الوجود . فإنما المعنى نسبي . والصفة مرنة وليست بقالب جامد تصاغ فيه كافة الموصوفات في حجم واحد وهيئة واحدة بلا سمة من تباين ولا مظهر من خلاف بين موصوف وموصوف . فلقد يعمل رجل فعلا فيقال كريم . ولقد يفعل غيره نفس فعله فيوصف بوصفه ثم لا تكون دلالة الصفة في هذا هي دلالتها في ذاك . بل لقد يجرى ثالث على ذات الفعل بنقيض الوصف ، لأن مرونة الصفة تتيح تشكيلها بحسب الموصوف ، كما يتشكل السائل بشكل الإناء !..

فإذا قبل بدء تحدر الدولة الإسلامية ، في هذه الآونة ، الى منزلق الضعف ، فإنه التحدر الذي لا يؤخذ بالحرف وظاهر الوصف لأن الدولة الإسلامية آنذاك ، وبعده بعدة اجيال ، كانت الدولة التي لا ترقى إلى شأوها دولة معاصرة ، والقوة التي تكاد تتفرد في عالم ذلك الزمان بامتلاك ناصية شعوبه وأحداثه ، تسوس فيها الأمور وترسم المصائر والمقادير .. ومع ذلك فهو ترد بلا جدال إذا قورنت الدولة بالاليق بها والأوفق بمقوماتها وما كان ينتظر منها أن تكون لو انها سارت ، وسار بنوها - بذرع خطاهم واستقامتها ، كأول أمرهم - ممثلين مضمعون للإسلام .. فأما وقد جانبوا النهج وانحرفوا عنه ، فإنهم إذن قد اغفلوا معين القوة الذي لا ينقد وفرطوا فيه ، واصبح محتوما عليهم بهذا الإغفال الانزلاق يوما الى هاوية الضعف قصر الأمد وقرب من ذلك اليوم او بعد و طال !..

سرح الظل على الضوء !..

الشروق ينحسر . الأصيل ينتشر . الشبهة تصبغ الأفق وتغير عليه نديرا بمقدم الغروب . الصفاء يذوب في كدر العتمة .. ومن خلال ذلك بدت صورة المجتمع الإسلامى حينذاك ، بخلاف أمسها ، مهزوزة المعالم على غير جلاء . كأنما رثت . كأنما اختلطت فيها الألوان . كأنما راحت نعوام في ضباب !..

ولم تكن أصابع الزمن هى التى أنهكت الديباجة ، أو عبثت باللون ، أو كسفت النور . فالعمر غض والمدى قصير .. ولكنها أصابع الإنسان . هواه وغروره . الترخص الذى استباحه لنفسه ، بغير حق ، فى الركون للتهاون أو النزوع للتغيير هو الذى شوه الصورة .. فقد اطلق على الملامح ريشة نزواته تجرى عليها كما يشاء .. أحيانا عدل فبدل . وأحيانا ظلل فطمس . وأحيانا لون فهول حتى لقد غام الضوء وبهت الظل وخيف الا يبقى على حاله الأول شئ من الصورة الأصلية سوى الإطار !..

صنوف من السلوك الناجم عن جموح النفس البشرية أخذت تشيع فى المجتمع ، ثم تتسرب ، قطرة قطرة ، الى أعماق أعماقه لتنخر فى الأسس التى قام صرحه الباذخ عليها كمجتمع ركين سليم .. ما فطن آنذاك كثيرون فيه الى انحراف تلك الصنوف السلوكية عن مجرى الدين . ولا شام ، الا الأقلون ، خطرهما المحتوم . ففى مجال التأويل والجدل دائما فسحة لاصطياد الاسناد أو تقديم التبرير ..

وعسير بلا ريب ، كما سلف القول ، ان يرد الانحراف الى هذه الطائفة أو تلك ، أو هذا الفرد أو ذاك من الناس إذا نحن أردنا ان نحصر التهمة لنحسم الامر ونحدد على من تقع تبعة الانزلاق . ولكنه حين وحق ان يوسم بها قادة الراى عامة فى الأمة الإسلامية على غير

تخصيص وعلى اختلاف المواقع والدرجات ، من كان منهم صاحب كلمة ترشد وتوجه أو كان منهم ذا سلطة تردع وتأخذ المخالفين بالجزاء .. فأولئك بعينهم قد أعانوا ، بلا شك ، من وراءهم على الخروج عن الجادة ، وأملوا لهم في مقارفة الانحراف سواء أ جاء إملأؤهم عن قلة تبصر ، أم قصور فهم ، أم غرور أهوج إن لم يجرى بسوء نية عن خبث طوية أو جنوح مقصود إلى التنكب عن الطريق السوى لإشباع شهوة النفس ونهمها ، بلوغا لهدف مائل أو طموحا إلى مأرب بعيد .. لكنه ، على مختلف وجوهه ، تجاوز عن استقامة السلوك وسلامة التصرف واستواء القصد التي يدعو إليها مضمون الدين .. وحين يصدر القول من صاحب سلطة فكرية أو زمنية ، فإنه إذن إحياء أو أمر ، وحين يصدر الفعل منه فإنه اغواء أو منل ، وكلاهما يحمل الناس على الانصياع أو يغريهم بالانبعاث .. ولا عجب . فالقادة ودوة ، آراؤهم وأعمالهم أعلام منشورة يرنو إليها اهتمام الخواطر ، ومعالم على الطريق يحتديها انطلاق الرغبات . ودائما القدوة هي التي تصنع السلوك العام في المجتمعات ..

من هذه الثغرة أتى مجتمع الإسلام . وتسربت إليه عوامل الوهن من بين يديه لا من خلفه ، ومن قمة بنائه لا من القاع ، إذ نفذت فيه من خلال نفوس « ساديه » ورجاله الكبار قبل أن تنفذ من خلال نفوس العامة وعرض الجمهور حتى اتسع الخرق ، مع الزمن ، لشتى الأخطار .. ولا حاجة هنا لتوكيد هذه النظرة بما يركبها .. فهي - في ضوء الواقع - تسير طبيعة المحاكاة والتقليد التي تسيطر على السلوك الجمعي في المجتمعات ، وتقود حركاتها الحيوية إلى التغير المستمر - كسنة التطور - صاعدة بها إلى الارتقاء والنمو ، أو هابطة إلى الضعف والانحيار .. وهي أيضا الحقيقة التي تنطق بها شواهد الحال ، وتتوالى أدلتها وأمثالها في حياة الإنسان في كل مكان وزمان ، دليلا من بعد دليل ، ومثالا وراء مثال .. وما المجتمع الإسلامي ، بعد هذا ، إلا بيئة إنسانية ، تخضع لحكم هذا الناموس الطبيعي الحتمي ، ويحق به عليها ما يحق على غيرها من بيئات ..

ولقد يميل امرؤ إلى الإفاضة في الاستقصاء لبتعقب خط الإسلام وخط السلوك العام ، في تلك الآونة ، محاولا أن يطابق بينهما لعله

يتبين من أية نقطة كان بدء الخطأ . ومدى فداحته ، ومتى وقع ، وإلى من يعزى ، وكيف تكرر ، وما هي تبعة أولئك أو هؤلاء من الذين قارفوه أو شاركوا فيه .. لكنها عندئذ الإفاضة التي يتشعب عليها المفاصل ، ويؤثر بها الجدال ثم يغنى عنها الإجمال !.. وكفى هنا أن يقال إن الخطأ قد وقع ، فمهّد للانحراف . وإن الانحراف قد باعد بين الخطء المرسوم والخطء المطروق ، أو بين النظرية وبين التطبيق .. تماما كما يؤدي الميل - ولو بمثل قيد شعرة - أو اقل - إلى انساع زاوية الانفراج !..

وخيف عندئذ إلا يظل على حاله الأول من الصورة الأصلية سوى الإطار !.. وغلت الغيرة في الضمائر النقية على الدين أن يغدو مظهرا بغير جوهر ، وعابى الأمة أن ينتهبها الانحراف . فإن يصبح الإسلام نصا يتلى وشعيرة تقام فلن يكون قصاراه إذن إلا أن يتردد على السفه الفاظا جوفاء ويتمثل في المراسم حركات آلية دون أن يخالط السلوك ويكون - كرسالته - أسلوب حياة !.. وأن يخرج الأمة الإسلامية عن الجادة التي شرعها الله فقد عادت إذن إلى مسلك من سلف وباد من الأمم والعباد فحققت عليها سنة الله في الغابرين !..

في فترة نمائه تلك ، لم يخل المجتمع الإسلامي من أناس على بصيرة ، فطنوا لمعالم الانحراف ، ودعوا ما وسعهم - درءا لخطرهم - إلى المبادرة بالتقويم . وإذا كان من التجنى الادعاء بأن هذه الدعوات كانت بلا أصداء أو تبددت في الهواء ، فإن من الحق أيضا أن يقال إن الفطنة والدعوة كليهما لم تحققا ما أريد من ورائهما على النحو الذي ابتغياه ، لا لمجرد قصور في التلقى والاستقبال ، وعجز في الاستجابة والانفعال ، بل لأن طبيعة المرحلة ، من ناحية - وبيان النظرات إلى صورة السلوك ، من ناحية أخرى ، قد عاونتا كذلك على إرجاء الحسم المطلوب ..

أما طبيعة المرحلة فقد كانت زحاما شديدا من الأحداث ، كسور هائل بجدران صماء ، لا ثغرة به تتيح للناس آنذاك أن يتفقدوا ، ننظرهم ووعيمهم ، إلى غير ما بداخله وما هم فيه .. فالدعوة منهومة بالانتشار ولا وقت للتريث لكيلا تخبو النار !.. والقتال ، ضد قوى

طاغية التفوق . يتوالى في كل مكان توالى الشهيق والزفير حتى ليوشك ان يتغل الدقائق والساعات فضلا عن الأيام والتسهور !.. والفتوح نسر على وجه العالم لتضم تحت العلم بقاعا الى بقاع وامصارا الى امصار !.. ومن وراء ذلك وفي إبانة تنشأ وتترى مشكلات - في شتى مجالات الحرب والسياسة والإدارة والمال وامثالها مما يتصل بحياة الدولة الجديدة وحياة الشعوب المختلفة التي احتواها نطاق الإسلام - تتطلب معالجتها . لحظة بعد لحظة ، بأسرع الحلول ..

وأما تباين النظرات إلى اتجاهات السلوك فقد كان لا بد من ظهوره ، في تلك الآونة ، نتيجة لتعدد أساليب التفكير وتغاير درجات التقدير للأمور . ولا غرابة هنا في حدوث التباين لأنه اخلق باختلاف الطبائع وأولى بتنوع مقومات الإدراك ومبلغها من الإحاطة او القصور . ولا غرابة أيضا فيه لان الأمور - في حيز الراى - ليست « رقائى » مسطوحة بل هى « حجوم » مجسمة ذات أعماق وابعاد ، تختلف فيها الآراء بحسب موقع النظرة اليها على غور عمق ، أو طول بعد ، أو ميل سطح من السطوح !.. فإذا قر هذا في حسابنا ، الى جوار التفاوت الطبيعى بين القدرات الذهنية وملكات التفكير ، فمن الإنصاف أن نستند كثرة من أسباب الانحراف إلى خطأ الاجتهاد أو اضطراب التقدير قبل أن تسند إلى فساد الطوية وخبت الضمير ..

وليس هذا بتمهيد للعذر بين يدي كل من عسى أن أسهم آنذاك - بقول أو فعل - في بناء الانحراف بصيب كبير أو قليل . بل هو التبرير الذى نراه يضع طائفة من المسلمين ، خاصة وعامة ، في تلك الفترة ، حيثما تضعهم سابقتهم ونواياهم - ويجب أن يكونوا - من الفضل وإن تعثرت ببعضهم الألسن أو زلت بآخرين الأقدام . فما عن الهوى الزلل ، ولا عن بجائف لسوء . لكنه تحرر النظرة ، وانطلاق الفكر ، عن رغبة مخلصه ، إلى ما وراء آفاق المألوف بلوغا إلى ما ظن انه انفع واقوم في حيز واقع جديد تطورت فيه الأوضاع وتغيرت الظروف .. أم لا ، فكيف يمكن في غير هذا الشعاع ان تفسر نظرة ابن الخطاب عندما اشار على أبى بكر أن يقسم للناس على خلاف ما قسم لهم رسول الله من قبل ، فيفاوت بينهم بحسب منازلهم من

الإسلام ، من هجرة ، وصحبة وجهاد . وسابقة ، ويصنفهم عليها درجات وكان الرسول قد جعلهم في القسم سواء ؟ .. آية علة - غير إيثار سلامة المجتمع الإسلامي الناشئ . في مستهل الخلافة الأولى ، وسوى الخشية ان ينفرط عقد الدولة ولما تستتب بعد - كانت خليفة بأن تدفع رجلا في شدة عمر ، وقوة بأسه ، واشتغال غيرته الدينية ، إلى الجنوح لين كالخور يوم شاء ان يكف أبا بكر عن قتال مانع الزكاة ؟ .. كلتا النظرتين ، من ناحية ، قد انبثقتا من رأى طليق لذهن متحرر يحاول التكيف مع التغير ملائمة بين الممكن والأمثل . وبين الواقع والمأمول . ولكنهما ، ولا ريب من ناحية أخرى ، تؤخذان على الخليفة الثاني ، ونحسبان - موضوعيا - في قائمة السقطات التي لا يكاد يهونها تبرير شاف لولا ما هو معلوم عنه من غيرة على نشر الدين ، ودأب على تثبيت الدولة ، مع سلامة القصد ونقاوة الضمير ، لأن أولاهما ليست مجرد تغيير نمط التقسيم الذي ارتآه الرسول بقدر ما هي إخلال بمبدأ عام هو المساواة ، ولأن الثانية تخرج بهدفها من نطاق الاجتهاد المقبول إلى حيز الترخص في حماية ركن من أركان الإسلام أن يعيث به فيتهار ، وهو ركن الزكاة ! ..

والتحمل بالدوافع التي حملت الناس ، من عامة وخاصة في الأمة الإسلامية - تحت ضغط الظروف أو بسبب تغير الأوضاع - على « التخفف » في التزام السلوك المشروع ، أو الإغضاء عن هذا التخفف ، قد يضع بعض وقر التبعة عن كاهل طائفة ، وقد يزيد ثقلها على آخرين .. ولكنه ، بطبيعة الحال ، لا يعفى أولئك ولا هؤلاء - من أيسر وجه ، وبأهون تعبير - من خطئ التقدير ! ..

فلقد أدت حصيلة الأيام من تصرفات القوم ، حاكمين ومحكومين ، إلى اتساع زاوية الانفراج بين الطريق المرسوم والطريق المطروق ، وباعدت ما بين خطوط النظرية وخطوات التطبيق .. وإذا كان قد كتب على المجتمع الإسلامي حينذاك أن يسير ، نتيجة لهذا السلوك ، على غير السنن المفروض إلى غير الغاية المبتغاة ، فإن تبعة الانحراف ، ولا جدال ، ما كانت لتسند إلى فرد أو فئة من الناس دون البقية ، بل هي قسمة بين الدولة والشعب ، الرعاة والرعية ، لأن أولئك لم

يرعوا بقوة السلطان وهؤلاء لم يقاوموا بقوة الإيمان وإن كان السهم الأوفر من اللوم يقع في جعبة دوى النفوذ ..

ولا محيص عن الإقرار بأن فريقا غير قليل من اصحاب السلطة أو الرأى قد عملوا جاهدين على تدارك الأمور في إبانها ضربا بالسطوة أو ردعا بالدعوة ، وجروا في هذا السبيل اشواطا واسعة كان أولى بها أن نرسى غد الأمة على بر السلامة لولا أن الأنفس في اغلبها ، كانت ضحلة قريبة انقاع ، وريح الأحداث والاهواء الدنيوية كانت أعنى على الاحتمال والمقاومة فتعترت السفينة واضطرب الشراع !.. فكم من صور سلوكية مشرقة أعزت المبادئ وارتفعت بها فوق طوفان المادة ومد النزوات !.. وكم من جهود توالى ، على مدى عهد الخلافة الراشدة ، لحمل الناس على التزام مضمون الدين ، قد أتبعثت عن إحساس مرهف بالتبعة ورغبة صادقة في بناء مجتمع سليم !..

فما ينسى لأبى بكر الصديق أن إيمانه العميق بالمساواة قد أبى عليه المفاوطة في التقسيم . وإن شكيمة الصلبة قد دفعته إلى نبذ دعوة المهادنة أو سياسة التهدئة ليقف كالطود الراسخ في وجه فتنة المرتدة ومانع الزكاة يقصفها قصفا بقوة يقينه قبل قوة السلاح .. وهو في كلا مسلكيه رجل الدولة الأريب الواعى الذى لا يقبل أن يداجى الاهواء أو يصانع الخطوب على حساب المبادئ ، وإنما يقارع كل ما يتصدى له ، لأنه يؤمن اكمل ايمان أن هذه المبادئ وحدها هي الدعائم القوية التى لا تبنى على غيرها عظمة الشعوب ..

وما ينكر أيضا فضل صاحبه ابن الخطاب الذى علا بإنسانيته فوق ما بشره عادة في القلوب من نزوع إلى الانحياز تبين الألوان واختلاف الأدبان ، ضاربا أروع الأمثال في التجرد وكبح النفس عن الشطط العاطفى الذى نراه دائما يستبد بالنفوس ويسوقها إلى ممالأة بنى العقيدة والجنس على كل من عداهم من الأدميين .. فهو يؤمن إيمانا لا يتزعزع بوحدة البشر ، وكرامة الإنسان ، مهما كان ، وكيفما ذهب بها - علوا وخفضا - مذاهب الآراء التى تتمحل باللون أو تتعلل بالدين .. وهو يصدر في سلوكه ، بهذا المجال ، عن انصاف مطلق - دع السماحة الكريمة - تتسع رحابه لكافة الناس على تباير الملل

وتعدد الأجناس .. وهو لهذا لا ينوانى عن المبادرة الحازمة إلى قمع
نزعة التمييز العنصرى حين لاح من أحد أولاد عمرو بن العاص مسلك
شف عن هذه النزعة إذ دفعته خيلاء جاهه و سطوة ابيه إلى الاستعلاء
— إدلالا بأصله العربى — على مواطن من المصريين .. ثم لا يتردد كذلك
مع ما يعلم من كراهية اليهود للإسلام وذويه ، عن رعاية هؤلاء الأعداء
الموغلين في اللدد والمسرفين في البفضاء ، فيضع الجزية عن فقرائهم ،
وعن ضربائهم من الذميين ، ويفرض لهم ما يقيتهم ويصلح أمرهم من
بيت المال أسوة بمسلمين ..

وما يغفل هنا ذلك الكفاح العنيد الذى اخذ ابو ذر الغفارى نفسه
به لتحرير الإنسان من عبودية المال .. فلم تمنع الرجل زهادته أن
يدرك ما لشهوة المال من قدرة على الإغواء يستطير بها سلطانه فلا يكاد
ينهض له مناهض إذا ما اطلق له العنان — تماما كالنار ، تدمر وتلتهم
إن لم تجد من يخضعها ويحصر لهبها في نطاق محدد .. فالمال وسيلة
للنفع العام . وأصحابه أمنة عليه لإحسان إنفاقه ونوظيفه لا لتكديسه
وتضعيفه .. فلا عجب أن ينشط هذا الداعية لنشر رأيه أينما وسعه
أن تسعى به قدماه ، وأن يناضل دونه وإن تصدى لحربه أصحاب
الثروات وذوى النفوذ في آن . ولا أن يمضى وما رأى متمردا على سلطة
الدولة وجشع الغنى والتواء الأوضاع ، غير مبال بما يصيبه في هذا
السبيل من قسوة وتشريد .. إنما ينطلق صابرا صلب العزم ، بلا تلوم
ولا تهيب ، يحت بلسانه في دولة الذهب وفي طاغوت كنزته لكيلا تبرز
في المجتمع طبقة فاحشة الثراء تستعلي على سواها من بنييه ، وتستطيع
بجبروت المال أن تنفذ ، من خلال الفقر والحاجة ، إلى استذلال الناس
بطرح الدم والضمائر سلعة رخيصة في سوق الدرهم والدينار! ..

كثرة بالغة من هذه الجهود راحت ترى نضالا عن الحق ، وتثبيتا
لأصول المبادئ الرفيعة .. وهى تعلن أن الحرص لم يفتر قط للعمل
بمضمون الدين عن إحساس قوى بالتبعية أمام الله وأمام الناس . ورغبة
صادقة في السير على النهج الأمثل ابتغاء إقامة المجتمع الإنسانى السليم ،
وأمل متفتح في التقويم ..

وكم من صور لتلك الجهود والوان صاحب الزمن ، وانتشرت

على بقاء المكان!.. وكم من نظائر لأولئك الرجال وامثال . برزوا فرادى
وزمرا من بين الخاصة ومن صفوف الجمهور!.. وكم من كفاح مجالد
صابر استعذب العناء واستروح الرجاء!..

ومع ذلك فلم يكف الانحراف . لم تقف حركته . ولم تخف حدته .
بل اشتد واستطار . وأنصب حجارة وصخورا من المطامع والأهواء ،
يقلعها ويدفعها إقبال الدنيا المتحدر كالشلال ويلقى بها في وادى الحياة
ليظمر نحتها بقوة القلوب ..

وعلى الأيام ، تعالى الركام والحطام!..

٧

ما حمل امرؤ في المسامين ، عند ذاك . عبثا هو أبغض إلى نفسه ،
واثقل عليها من الإمرة على الإمام .. كان طعمها كالحنظل . وكان وقرها
كالجبل . وكان وقعها كالأسنة ، حتى لكانه ، حين أفضت إليه ، قد
اكتسى مثل طيلسان من حديد مسنن ، مبطن بجمر النار!..

ولم يكن عبؤه ثقيلا لانتشار تبعته — على أديم الدولة الفسيحة
التي يحكمها بين مشرقى الشمس ومغربيها — انتشار الظلال السارحة
أبدا في كل آن ومكان على معالم الضياء ، كلما انبثق فجر ، أو سطع
نهار ، أو تهادى في ربوعها الخضر والجرد أصيل .. ولا بغيا لتواتر
الشدائد والأزمات ، وتدافع الصعاب والمشكلات ، في كل لحظة وبقعة ،
تواتر النفس البهور وتدافعه عن جسد واهن أرهقه الإعياء .. فليست
التبعة تقاس ، طولاً وعرضاً باتساع مواقع العمل وامتداد أطرافه .
ولا هي أيضا تعابير ، ثقلا ووزنا ، بكثرة صورته وتنوع أصنافه .. لكنها
نزيد وتثقل ، وتخف وتقل ، بمقدار رقة الحس ورهافة الشعور — تماما
كالوخزة ، ليست هي التي تحدد الألم . وكالمزج ، ليس هو الذي يغير
مذاق الفم . بل كلاهما عارضان حقيق بأحدهما ، كما بالآخر ، أن
يفقد صفته ، ويفنى ، كيانا ، ودلالة ، في العدم إن لم يجد المجرى الصالح

الذى ينطلق فيه إلى مراكز الحس لتعكس اثره على الجوارح !..
ولقد نشط أمير المؤمنين إلى النهوض بتبعته ، على غضاضة وضيق ،
ليحق الحق ويمحق الباطل ، غير حافل بما يلقي من العنف والمشقة .
كان يجتاز اللهب . ويمشى على الشوك . ويلوك العلقم . ومع ذلك فلم
يلفته عن العمل شيء . ما تكص . ولا تمهل أو قصر خطاه . فالخطر
يقبل . الغد يفيم ، والظلام يزحف على النور . والوقت أضيق على
النكوص والتمهل . وهل عمله اليوم سوى امتداد لكفاحه الدائب قبله
منذ طلعة صباه لإعزاز الإسلام ، وهو بعد غلام حتى نيفت به الأعوام
على خريف عمره ، لولا أنه الآن قد ترامت حدوده ، وتناثرت ميادينه ،
بين دان وشتيت ، إلى أقصى الاماد ، بعيدا بعيدا في اقطار الأرض ،
وعميqa عميقا في أغوار النفوس ؟..

وهب يعمل . بكل ما يملك هب يعمل بقلبه . بعقله . بيده . بالسليقة
المستنيرة الملهمة ، والرأى المقنع الفصل ، والسلاح القاطع الساحق ..
يدعو ليهدى ويعلم . وينزع ليهذب ويؤدب . ويقسو ليردع ويقوم ..
وبين اللين والعنف ، الدعوة المضيئة والقتال المدمر ، سن القلم وشفرة
الحسام ، عالم من الجهاد مترامى الحدود والأبعاد هو فيه الرقيق
الحميم ، والأب الراعى ، والعلم المرشد ، والحاكم المنصف ، والقُدوة
الطيبة الحسنة ، التى تحتذى دائما ويؤتسى بسيرها وسيرتها ، كلما
اشتبكت على اقوامه المسالك ، واشتبهت المناهج ، ودعتهم الحال
للاقتداء بمثال ..

ومن الإفاضة فيما لا تجمل الإفاضة فيه إذ يغنى الإيجاز ، أن
يسترسل الحديث عن الإمام كأخى قتال ببز بسيفه الأقران في ساحة
الوغى ، حنكة وشجاعة ، إن كان له في مجالات الصراع الدموى قرين !..
فما كان شيء أحب إلى نفسه من مخاطبة القلوب والافهام . من السعى
للسلام بالسلام . من اللقاء بالكلمة . من الحرب البيضاء !.. ولا كان
شيء أبغض إليها - وإن كان أخف عليه ، وأهون مؤونة - من التجيش
والإعداد . ومن قيادة الجنود . ومن الإقدام قبل الإحجام . ومن
الصبر عند اللقاء . ومن الكر وسيلة للدفاع . ومن مطاردة الموت أينما
بدت له أطيافه أو تكتلت صفوفه ، تحديا له ، واستهانة به ، وازدراء

لجبروته الرهيب الذى يخلق الفلّوب مقتحما عليه عقر غابه لينزاع
الظفر من انيابه !..

كان يؤثر السلم ولا يعدل عنه ما وسعه أن يصل إليه من سبيل ..
فالحرب لم تكن له شاغلا كما لم تكن ملهاة وإن ألفها دائما حقيقا وفيها
لا بغدر به ، ولا يخرج عليه .. ومع ذلك فقد كان ينبو بها كل نبو
لأنها ، في قرارة يفينه ، أهون جهاد . وكان يبرم بنصرها العالق أبدا
بذؤابة سيفه لأنه ، فيما يحس ويشيم ، أرخص انتصار !.. إنها
الباب الذى ينبى أن بوصل بالف رتاج ورتاج .. وهى الكى الذى
لا يستطب به كدواء إلا إذا استعصى الداء على كل علاج .. وهى الأداة
التي قد تقهر على الانصياع بغير اقتناع ، وعلى الإذعان بلا إيمان !..
أما السلم فدني من الهدوء والطمأنينة ، يقر فيها القلب ، وتأمين
الجوارح ، ولا تطفى على صوت العقل قعقة سلاح .. فكانها صومعة
واهب ، هو التأمل !.. أو كأنها حلبة سبق ، المنافرة فيها بالفكر ،
والمصاولة بالرأى ، والغلبة بالبرهان !..

حتى في ساحة الحرب كانت « الكلمة » تسبق الحسام . ثم تلازمه .
تم تقطع القتال ، أحيانا ، لتنفرد دونه في الميدان .. كانت الدعوة ،
بالحجة البالغة والموعظة الحسنة ، أول سلاح ، وأهم سلاح .. كانت دائما
حاضرة مشهورة ، مصقولة مسلوقة ، تجول في الواقع وتصول بغير
فتور ولا قرار . لا تعرف غمدا تنوب إليه ، ولا هدنة تهدأ فيها وإن
طالما ، في غمرة الوغى ، وضعت الأسنة ، وعرفت السيوف الأغمد !..

ويوشك الاستطراد أن يطول حتى ليصبح مثل ضرب من المحال ،
أو تعقب المرء دعوة الإمام ، محاولا حصرها في نطاق محدود من
مقتضيات الحكم في عهده ، ودواعى سياسة الأمور إذ هو أمير ..
فلبست كذاك .. بل هى أوسع رقعة وأفسح مجالا ، اتساع الحياة
البشرية ، أمة بعد أمة ، على أدب هذه الدنيا ، وانفساح الزمان ، عصرا
وراء عصر ، على مدى الدهر .. فإن هى إلا رسالة حياة ، تسابير
التطور ، وتهذب التغير ، وتتجدد على الأيام مع مشرق كل نهار ،
وسكون كل ليل ، وظهور كل بادرة تعلن عن تجدد الحياة !..

رسالة كاملة شاملة . لليوم وللغد . للحاضر والمستقبل . تنشد

عن حكمة تدفق من ذهن مخصب رواه نبع النبوة ، ويخفق بها قلب
نقى جللاه فضل الرسول .. فوق متنها كان يدرع دائما مجاهل
النفس وخباياها . ذرع عليم خبير ، ليكشف عن مكامن المرض
وخطره ، ومواطن النقص وأثره ، باليد البارة الصانع ، وبالقدرة
المحيطة التى لا نخطئ التقدير . وعلى جناحها كان يحلق أبدا في آفاق
من نور الله ، نهىء له أن يقلع الشبهة ليغرس اليقين ، ويمحو الجهالة
لينشر المعرفة ، ويبنى الكمال حيثما كانت فجوة . ويضع الشفاء حيثما
كان داء !.. وهل من عجب ؟.. فمحمد مدينة العلم ، التى أهداها الله
للإنسانية ، وعلى بابها الذى يقضى إلى ما تضم من كنوز وذخائر ، بها
تستضىء العقول ، فتصفو الأنفس . وتنقى السرائر !..

هدى من هدى ، ونور من نور كانت الدعوة التى أخذ نفسه يثبتها
بين قومه ، لا يسكت عنها في شدة حرب ، ولا في هدأة سلام .. كانت
تتردد مع انفاسه .. كان يحييها ، ولها كان يعيش .. وفي خلال أعوام
عهده القلائل ، لم يكن شئ يعوقه عن تبليغها حيثما استطاع ، بالكلمة
المكتوبة ، أو الكلمة المسموعة . في كتبه إلى عماله ورجال دولته . في
خطبه إلى الجماهير والجموع . في أحاديثه اليومية مع أهل بيته ،
وخاصة رفاقه ، وعامة الناس .. وحين نتقصى منها ما خطه قلمه
أو لفظه لسانه ، نراها تلم بكل جوانب الحياة ، وتعرض لكافة نزعات
الإنسان .. فهي تقابل الخلجة ، وتتداعى للخفقة ، وتتحرك للفكرة ،
وتسرع للحاجة . ثم تبادر بعد هذا التفهم الواعى إلى علاج مواضع
الخلل والقصور ..

وعسير بلا ريب أن نحيط في مقام كهذا المقام بما تضمنته هذه
الدعوة الهادية لأنها عندئذ الإحاطة التى تضيق دونها الصحائف ،
وتعيب الأقلام . ولكننا نصفى لجرسها فإذا هى أصداء لرسالة السماء .
ونذرع رقعتها فإذا هى خطة عمل ، وسياسة أداء .. وحين نطوف
بما تحوى ، نقع فيها على كل ما يصلح الأمر والشئ - الشطر المعنوى
والشطر المادى من حياة البشر ، من قواعد وأسس هى أولى بأن تكون
الدعامة الركينة للمجتمع الإنسانى الفاضل ، الذى تربطه وحدة بلا آفة
لانفصال ، وتسوده مساواة بلا تمايز ، وتقوده عدالة بلا ترخص ،
وتظله أخوة بلا من . فلا أثائية فرد ، ولا طغيان سلطة ، ولا استكبار

طبقة . بل جسد واحد يملك وتناق نفسه ، متوحد المساعر ، متوافق الحركات ، تعمل أعضاؤه جميعا في تكاتف وتعاون ، وفي تعاطف واتساق ..

ولا يقال في هذا المجال إن الإمام كان مبدعا لما نشر وأذاع على العيون والأسماع . بل هو نقل من الذكر ، وعارض لما أورده التنزيل .. فما كان ليبتكر ، أو يأتي من لدنه بجديد يضيف إلى ما شرع الله ، أو يغير فيه .. وليس قصاراه - ولا قصارى غيره من العقول البشرية، مهما بلغ شأوها من الإدراك والعلم ، وبلغت قدرتها من الاستشفاف والاستبصار بأمور الدنيا ، وفي تقلبات النفس - أن يعدل ، بزيادة أو تكميل ، في ذلك القانون الإلهي . الذي يحيط بكافة جوانب الحياة . وينظم السلوك الإنساني على خير ما يكون التنظيم .. إنما كان له ، في حقيقة الحال ، جهد الدارس الباحث ، الذي يغوص بوعيه المقتدر إلى الأعماق ليستخلص الدر من الأصداق .. فهو يرجع إلى كتاب الله ، ويتابع سنة الرسول ، ويتعمق كليهما ، بذهن ناقد وبصيرة مسنيرة ، منقبا عن المبادئ التي تناول ، من قريب أو بعيد ، كل ألوان النشاط البشري ، في مختلف مواقع العمل وميادينه . حتى إذا نفذ منها إلى هذه الغاية ، تفحص حكمتها بنظرة الاقتناع العقلي لا بنظرة العاطفة التي قد تميل للتسليم .. وقاس أثرها بمقياس الواقع الذي يعيشه ، والشواهد التي أسفرت عنها من قبل تجربة النوع الإنساني منذ سعى على هذه الأرض لغرض ، والتأم آحاده في دول وشعوب .. ومن خلال المبدأ وحكمته ، والتجربة ونتيجتها ، كان يصل إلى معايير سليمة للعمل ، يصنفها كصنوفه ، ويعرضها واضحة ليتبعها من شاء أن يسير على صراط سوى ، وجادة مستقيمة ، مطابقا سلوكه على ما يرضى ربه ، ويظهر قلبه ، ويصلح شأنه ، ويرفع أمته ، ويعز كرامة الإنسان ، روحا وبدنا ، كما ينبغي أن يكون الإعزاز ..

وتيسيرا على الناس ، وتطويعا لهم ، لم يغب عنه قط - وهو يعرض ما يعرض - أن يستخرج من حياتهم العامة ، ومن عملهم اليومي ، كل ما يجدر بهم إخضاعه لهذه المعايير . فكل مبدأ لحكمة . وكل حكمة لغاية . وكل غاية بسلوك . وكل سلوك بمعيار .. فلا سبيل إذن لأن

يقوتهم شيء فتكون لهم عليه حجة . ولا ان يشتبه امر فتتفرق بهم طرق التطبيق . .

بهذا النهج السليم الميسر ، حدد ورسم ، وبين وبلغ ، مترجما نصوص الدين إلى مضمون ، ومضمونه إلى أسلوب حياة . . فإذا هو عندئذ قد أحاط بطبيعة البشر : غريزة وأملا وحاجة . وبطاقة الإنسان : خفقة وخلجة وحركة . . وإذا بدعوته التي وسعت الإنسانية ، قد التقى في رحابها لكل عقدة حل ، ولكل خطأ تصويب ، ولكل ضيق فرجة ، ولكل علة علاج . .

٨

إلى القمة التي لا يستطيع أن يرقى إلى شأوها ذهن متحرر ، خلقت الدعوة الإسلامية بقيمة الإنسان . . فقد تنادت بوحدة البشرية . ثم كرمت أبنائها . ثم صورت حياتهم في هذه الدنيا سادة يملكونها ولا تملكهم ، ويصرفون كل ما فيها على ما يحفظ لهم هذه الكرامة أبدا لو ترسموا النهج الذي شقته ولم ينحرفوا عنه . .

ولقد يسر الإمام هذه الدعوة للناس خطة وهدفا ، أسلوبا وغاية ، بالفعل والقول ، بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال . فأيمانه الكامل بتلك الوحدة ، هو الذي كان ، في كل آن ، يرهف حسه ، ويشحذ قلمه ، ويحرك لسانه لتنطلق عباراته على جلاء ، تدعو بالدعوة ، وتروج لها ، وتؤكد دائما أن الوحدة - المفترضة والمنشودة - لا شبهة فيها ، ولا عائق دونها ، ليس فحسب عن استجابة عقيدية لما شرعه الإسلام ، بل عن إدراك لكنه الطبيعة ، وخضوع لمنطق العقل واستقامة التفكير . .

فإنما جالت عين فيما سطر ، وأصغى سمع لما قال ، وأمعن ذهن بالاستقراء والتفهم فيما وراء الحرف والجرس ، بدت له وحدة الإنسانية وهي على شمول ولزوم ، بلا مكان لتمييز فرد ، أو تعالى طبقة ، أو اعتزاء عنصر ، وبغير ترخص أو التواء أو استثناء . .

فالبشر كافة في رحابها سواء وإن تباينوا بالأجناس ، وتفاوتوا بالأحساب ، واختلف آحادهم بالأقدار في نظرة المنصب ، أو المعرنة ، أو المال ، لأنهم كما يقول :

« .. إما أخ في الدين ، وإما نظير في الخلق .. » .

وتلك هي الوحدة الوثيقة التي لا يتطرق إليها انفصام ..

فلو زعم زاعم أن هذا الرأي الذي يسوقه الإمام يجرد الدين من حقه في ترجيح الميزان عند المفاضلة بين إنسان وإنسان ، فإنه إذن زعم متعسف ، يلتوى بالموضوع ليتخطف نتيجة لا تسفر عنها حقيقة الحال .. فالإسلام لا يهدر المساواة ، وما كان ليهدرها وهو القائم عليها لأنه قائم على الفطرة التي يشترك فيها كافة أبناء آدم ولا يمكن أن تختلف فيهم من واحد لآخر وإن اختلف - دونها - كل ما عداها من خصائص وصفات .. والإسلام إذ يفاضل بين الناس لا يفاضل بالأبشار والألوان ، ولا بالأحساب والأنساب ، بل يفاضل بينهم بمعيار ثابت هو العقيدة التي شرعها لهم كافة على سواء ، فيغاير في الجزاء بين مؤمن وكافر ، طائع وعاص ، حسبما يكون قربهم وبعدهم من الله .. بل شرائع الجزاء نفسها التي وضعها ، من عقاب وثواب ، لحساب البشر ، لا تترتب على شخص الفاعل بل على موضوع الفعل ، فتزن لهم جميعهم بقسطاس واحد ، لا يبخس أحدهم ليطفف للآخر ، لأن عدالة الجزاء لا يتأتى أن تتحقق إلا بهذه المساواة ..

صدقت إذن نظرة الإمام ، وأصاب الحق كل الحق بغير تحيف منها على الإسلام ، وبدون ثغرة فيها لظعن طاعن أو لريبة مرتاب .. وفيهم الطعن ؟ .. وكيف المراء والارتياح لمن لعله يحاول تلمس سبب للدعاء والتقول ، والمساواة أصلاً لم تترتب على الإسلام ، ولم تكن نتيجة له ؟ . بل قد كانت - قبل تنزل نصوصه ، وبدء دعوة الرسول - حقيقة واقعة نشأت في الدنيا بنشأة الإنسان ، ثم جاءت هذه الرسالة السماوية كاشفة عنها ، مذكرة بها ، داعية إلى التزامها وامثال جاداتها بعد أن غم أمرها على البشر ، وقست عليها قلوبهم ، ومزقتها الأهواء ..

ومن الترسل الذي لا يحتمله المجال أن يتطرق الحديث إلى كنه

هذه المساواة ، مخططا حدودها . محددا معالمها ، معددا ما تحتويه من عناصر ومقومات . . فعمومها وشمولها يكفيان الاسترسال ، ويجزيان عن التحليل ، ويفنيان عن التخريج والتأويل ، إذ يكشفان عن حقيقتها جلية بغير حاجة إلى عناء الوصف والتحديد ، وجهد الإحصاء والتعديد ، لأنها - وقد صاحبت البشرية منذ بدئها ، مقترنة بالفطرة - تنسع لكافة أبناء النوع الإنساني ، وتطبع حياتهم بطابعها ، فلا تدع حقا من الحقوق يترتب على هذه الحياة « المشتركة » ويحفظ عليهم إنسانيتهم ، إلا سوت بينهم فيه . .

وحق الحياة من المسلمات الأولية التي لا يمكن أن يختلف عليها ، ولا نقع في نطاق المجادلة والنقاش ، لأنه يمثل الحياة نفسها ، بمعناها الإنساني ، وينطوي على العناصر والمقومات الأساسية لهذه الحياة . . فالحياة هبة الله وهي بهذا حق مقدس للإنسان ، لا يملك انتزاعه غير معطيه ، فلا ينبغي إذن لإنسان آخر أن يحرمه إياه ، أو ينتقص منه ، إلا أن يأذن الله . . ولا يخلق بكل ما يدخل في تكوين هذا الحق ويؤمنه إلا أن يكون مقدسا مثله ، وجديرا بالحماية أن ينال منه جور جائر بالإهدار أو الإنكار . .

ولقد يختلف بعض اختلاف على مكونات حق الحياة تبعا لتطور العصر ، أو تنوع البيئات ، أو تفاوت التقدير ، فلا يكاد هذا كله يغير شيئا في الأساسيات والأصول وإن غير ، قليلا أو كثيرا ، في الجزئيات والتفاصيل . وحسبنا هنا أن نذكر - على وجه الإشهاد لا على وجه الإحاطة - أن الإسلام لم يكتف بإقرار هذا الحق ، تعبيرا عن رايه بسيادة كل فرد على حياته سيادة المالك الذي لا ينازع ، بل ذهب في توطيده وتثبيته ، وفي تحرير الإرادة الإنسانية لتمارسه كما تشاء ، إلى أبعد الحدود . فلقد أباح - وهو الدين الذي نسخ كل الأديان - أن يتدين الإنسان بما يرضى ويختار من عقائد وإن خالفته ، لأن لكل امرئ أن يحدد بنفسه ، وبوحي ضميره وتفكيره دون سواه ، نوع الصلة التي تربطه بالله ، بلا إكراه أو وصاية عليه ممن عداه من الناس ، كيفما كان وضعهم في المجتمع وكان شأنهم من القوة وبسطة النفوذ . . هذه هي نظرة الإسلام إلى حق الحياة . .

نظرة منصفة سمحة ، توافق منطق الطبيعة ، وتمضى في التحرر إلى شأوه الذى يقصر عن بلوغه تطلع العقول وطموح الأفكار .. فهى ترسى المساواة بين الناس في انتفاعهم بحق الحياة على أساس الفطرة الواحدة التى لا تختلف من إنسان لإنسان . وهى تطلق لهم حريتهم في ممارسة هذا الحق إلى المدى الذى قد ينبون عنده اعتناق الدين القيم الذى أعزهم بتقرير هذه المساواة .. فإذا لم يكن في هذه النظرة ما يؤكد « عمومية » هذا الحق ، ثم يضمن « حرية » تطبيقه ، فأى شيء غيرها إذن أقدر على التوكيد والضمان ؟ ..

بل الحياة حق بشرى عام ، مقرر بحكم الطبيعة ، مكفول بحكم الإسلام . لا سبيل إلى المفاوطة فيه بين أصحابه بالانحياز أو بالتمييز . ولا إلى تعطيله - كلا أو جزءا - بانتزاعه أو بإهدار جانب من ضماناته أو مقوماته .. فأما ودين الله قد أقر بهذا الحق ، وحرر العمل به وإن على حساب العقيدة ، فالأخلق الأدنى إلى مطابقة نهجه والتزام منحاه ، أن يقر بما ينبى على حق الحياة من حقوق ، وأن يتسع لما دون حرية العقيدة من حريات ، لأن ما يقضى بالكل لا ينكر الفروع ، وما يحرر الصلة بالله لا يقيد الصلة بالناس ! .. وليس بخاف رأى الإسلام في تأييد الحريات العامة والحقوق الأساسية التى تهىء للبشر - في المعنويات والماديات - حياة أبية كريمة ، لهم عليها الولاية . يعيشونها كمشيئتهم ، بالفكر الحر ، والإرادة الطليقة ، في ظلال من الأمان من الخوف ، والحماية من الحاجة ، والوقاية من الاستغلال ..

حق هو الحياة ، وحياة هى الحرية ، وضمان من الله يحيطهما بالسياج المنيع الذى يرد عنهما عادية العبث والطفيان والإرهاب ، ذلك ما شرعه الإسلام ، ودعا إليه ، بالنصر والمعنى ، وبالعبرة والروح ..

ومع هذا فلا نرانا بحاجة إلى أن نعيد كل من له عين تبصر ، وأذن تسمع ، وذهن يتدبر أن يستخفه من هذه النظرة الإسلامية إلى حقوق الإنسان طلائعها السمحة ، فيجمع به وهمه أو همته إلى تجريدها من العقول والضوابط ، ومن الحدود والقيود .. فذاك ما لا تقره بديهية ، وما يأباه منطق الحياة ، لأنه إذن الفوضى التى تراق فيها الحقوق وتستباح الحرمات .. ولأنه الانطلاق ليس الجموح .

والتحرر ليس التحلل .. ولأن كل حق بواجب . وكل حرية بالتزام ..
 وحملة واسعة من الدعوة الهادية شنها الإمام ، بالقُدوة الرائدة ،
 وبالكلمة الناطقة ، وباللفظ المخطوط ، ترويجا لهذا المبدأ العام ،
 وتبصرة للناس بحقوقهم فيه ، وحقه عليهم . وبالجِدوى التى يفيئها على
 جوانب حياتهم الإنسانية ما اتصل منها بحاجة الفرد ككائن حى ،
 وبكرامته كإنسان .. ولم يكن من قبيل التزيد والإسراف اهتمامه
 البالغ بتوجيهها إلى ذوى النفوذ من أصحاب الرأى ورجال دولته ،
 في مجالات الفكر والحرب والسياسة وشئون الدنيا والدين . ولا حرصه
 أن يعوا دقائقها ، ويلزموا حدودها ، في حياتهم الخاصة مع انفسهم
 وذويهم ، قبل أن يلزموا بها ، في الحياة العامة ، من تحتهم من الناس ..
 فهذا هو السلوك الأمثل الذى لا ينبغي للقادة أن يسلكوا سواه ، لأنه
 السلوك الذى يعبر عن إيمانهم حق الإيمان ، ويسنوي كل من وراءهم
 أن يقتفوه .. وهو الإيمان الذى لا يطاوله إيمان ، لأنه يرتقى بصاحبه
 على انقراض الأثرة والهوى إلى ذروة التجرد ، ويدفع به إلى الأخذ من
 نفسه ليزيل لغيره وإنه للقادر عندئذ ، بسلطانه على كل من عداه من
 أبناء مجتمعه ، أن يضع نفعه الذاتى حيثما كان يطيب له أن يفعل
 لو أنه شاء .. فلا عجب إذن أن يحث الإمام الناس عامة - نصرة
 للمساواة - على أن يفوها حقها فلا يستذلهم هواهم أن يكيلوا في
 تطبيقها على انفسهم بمكيال وعلى الآخرين بمكيال !! ..

هنا يقول على التعميم :

« أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله .. » .

ثم يخص بدعوته كل ذى نفوذ :

« الزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، واقعا ذلك من قرابتك
 وخاصتك حيثما وقع .. » .

ثم يقرن بين هذا الانتصاف - للناس جميعا ومنهم جميعا على
 سواء - وبين الانتصاف لله .. وهل من مرء ..؟ فكلاهما حق .
 وكلاهما من نبع واحد هو الإسلام ، وإذا لم يتفق ، بالمساواة ، سلوك
 البشر بعضهم إزاء بعض ، ونظراتهم أحادا إلى أحاد ، لم يستقم

أمر الدين . وأحر إذن بسلوكهم تجاه الله أن يتعدد ويختلف ، وبنظراتهم إليه أن تتفرق وتزيغ . . وهل من وراء هذا وذاك غير اعتداء على حق الإنسان هو ظلم ، وغير اجتراء على حق الله هو عصبان ؟ . .
يقول :

« أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك هوى فيه من رعبتك ، فإنك إلا تفعل تظلم . . » .

نهج أحق بقيادة العمل أن يتبعوه إذ هم القدوة للناس ، والطلائع التي يسرون خلفها في كل موقع إلى نوع الحياة الذي يلائم طبيعة البشر ، ويتفق ونظرة الدين . وما لم يكن سلوكك أولئك على هذا الصراط السوى فسلوك كل من وراءهم تبع له على انحراف يفسد به المجتمع لاختلال الصفوف ، وانفراط النظام . .

على القادة ركز الإمام التوجيه ليكونوا : مبشرين برسالة الحياة الحقة كما سنتها الطبيعة ، أمانة على كنهها كما بينه الإسلام ، بعد أن أوشك مفهوم الحياة الميسر ، ومضمون الإسلام البين ، أن يفرقا في سيول هوج ، وتيارات رعاء من الهوى والجهل ، بجسها التأويل المغرض من خلال التلاعب بالعبارات والنصوص . .

ولقد بدا الإمام - : ريب - خبيرا بنفسية المجتمعات وهو يركز هذا التركيز . فالجماعات مطبوعة دائما على التطلع الى كل ما هو « أعلى » . كلفة دائما بالتلقى عنه ، ثم تأثر خطواته السلوكية ، تشبها به ، واتباعا لنهمها الطبيعي بالمساواة . وليس شيء أقوى على التأثير في سلوكها من نزوعها الغريزي للتقليد . .

وكان القادة ، بطبيعة الحال . من العمال وذوى الراى وأصحاب السلطة الزمنية في الدولة ، هم مرتقى التطلع الذى تتعالى إليه نظرات الجمهور ، ويحاول سلوكها أن يتسامى إلى سلوكه ، فراح الإمام يرسم لهم أسلوب عمل ، كفيلا إذا امثلوه أن يصلحوا به . ويصلح عملهم ، ثم يتداعى له - بفريزة التقليد والانقياد الجمعى - سلوك الجمهور تداعى الفراش للتور . .

إنه الأسلوب الذى ينظر إليه من خلال الفطرة الموحدة ، فإذا هو ناضج بها ، موافق لسنة الطبيعة .. ومن خلال الدين ، فإذا هو آخذ عنه ، معبر عن مضمونه .. ومن خلال العلاقات الاجتماعية ، فإذا هو قاموس أخلاق . وهو بشعبه هذه الثلاث : الطبيعية والدينية والاجتماعية نابع من المساواة ، مقيم لأركانها ، مصدق لكل ما يفصح عن حقيقة كنهها كنزاة وحيدة لالتقاء البشر كافة - على تباين الأوضاع والطبقات ، واختلاف الأجناس والعقائد - في وحدة وثيقة بلا انفصام .

ويعبر الإمام في سر عن المساواة المنشودة ، فيحدد الأثرة آفة لها تعرقل نموها ، وتذهب بريحها ، وتقضى على الأمل في قيام المجتمع البشرى التكامل ، لأن الأنانية أو حب الذات تجمد إحساس المرء بكل من عداه ، فلا يرى إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يقيس الأمور إلا بمقياس منفعتة الخاصة وإن أهدر بهذا منافع سواه ..

يقول الإمام في كتاب لبعض عماله :

« إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة .. » .

والناس كلهم ، بطبيعة الحال ، سواء في حقوق الحياة ..

نم لا يفوته ما تنطوى عليه النفس البشرية من نزوع إلى التفوق ، كثيرا ما يشطح بصاحب أى منصب عام إلى التسلط ، تباها بقدره ، وإظهارا لقدرته ..

إلى من قد تحدته نفسه بالاندفاع إلى هذا المنزلق ، يكتب الإمام في وصاياه ، محذرا الاغترار بالنفوذ :

« لا تقولن إنى مؤمر آمر فاطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب ، ومنهكة

للدين .. »

فليست السلطة تسلطا وطفيانا ، ولكنها وظيفة لصون الحقوق ،

ولا طاعة لها إلا في هذا النطاق ..

بل كاد يوحى في كتاباته أن المتسلط على الناس قرين المشرك بالله ،

لأن سلوك أمثال هذا كسلوك أمثال داك ، ينم عما قر في روعهم من شعورهم الغلاب بانطلاق مشيئتهم انطلاقاً لا تكفهم عنه قوة ، فلا يردهم شيء عن السدور في تجبرهم بالقول وبالفعل على من دونهم مكانة ، بلا تعقيب معقب أو محاسبة حسيب . . أو قد انساهم الشيطان أن لله وحده التفرد بانطلاق المشيئة ، بغير معقب على كلماته ، ولا ناقض لأحكامه . . أم عساهم استمروا أن يشاركوا الله سلطانه على مصاير عبادته استهانة بهم وجحوداً له . . ؟

مخافة الانخراط في سلك هذا النوع الذي يضلّه اغتراره ، ويعميه استكباره ، يبعث الإمام ، محذراً . إلى بعض عماله :

« إياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته ! . . » .

ثم يجاهر بدهشته أن يتعالى الإنسان صلفاً وتيهاً بنفسه وليس فيه ما يدع للاستعلاء ، أو يبرر الخيلاء :

« عجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة ، ويكون غدا جيفة ! . . » .

لكنه إذ يعجب ويحذر ، يبصر وينور ، لأن ما لا يغيب عن نظريته الثاقبة وبصيرته المستنيرة قد يغيب عن إدراك سواه . فإذا هو لا يكتفى بأن يدع الناس وهذا السلوك الذي دلهم على انحرافه ، وبين لهم عتوه وغلوه إذ يستخفهم إلى التسلط ، بغير حق ، على بشر مثلهم هم لهم اتداد نظراء . بل إنه ليقرن وصف زلتهم الضالة بما لا يملأ لها في التمكن ، وما يكف شرتها عن الاستشراء لو ألقوا السمع والقواد لقوله منصفين . . وهل تجبرهم غير ضلال ؟ . . وهل زهوهم إلا علة تفنرس النفس ، تواتها كلفهم المنهوم بالاعتداد ، وإقبالهم المسف على الاستكثار من الثقة بالذات إلى حد التخمة التي تورث الغرور ؟ . . وهل يغذى الاغترار وينمى ضراوته شيء كثناء مسرف خداع هو في حقيقته الوسيلة الوحيدة لكل عاجز وخائف ومنافق إلى حماية نفسه من أي طاغية متجبر أو استجلاب رضاه . . ؟

لكم تفيض الحياة اليومية بصور لهذا الثناء المضل الضال ، تمر تحت الأعين فلا تكاد تقف عند إحداها نظرة عجب — دع الاستهجان ! — إنما ، لفرط تعددها ، ونوالى مرورها ، قد اعتادها الناس ، وغدت

في حياتهم شيئاً مألوفاً لا يستحق أن يثير الفضول !! . فكأنما التمويه قطعة من طبيعة الإنسان !! . وكأنما النفاق بضعة من عمله !! . وكأنما الإطراء المنحرف يشيع في الجو فلا يملك أحد من البشر إلا أن يتنفسه - رضى أو كره - ويتمثله ، ليعيش عليه ، تيهًا وعجبًا ، أو تحاميا وخشية !! .

لكن الإمام ينزه إنسانية البشر إن يمتنها هذا الضعف الخلقى ، فيرسم لنا صورة حية بتقابل على ديباجتها انرياء والتعفف تقابل الظلال والأضواء . . فيها انرياء يستدل صاحبه حتى ليهوى إلى ما تحت الأقدام متمسحا بها ، كأنما قصارى طموحه أن يلحق التراب، فإذا هو عندئذ ليس بإنسان ، بل الهوان في هيئة إنسان !! . وفيها التعفف يرفع صاحبه محلقا به إلى ما فوق شهوة النفس ، فإذا هو الأبى القوى على الإغراء والإغواء ، الذى يكرم نفسه أن تستمرىء الصلف أو تلوذ بالهوان فيكرم فيها نوع الإنسان . .

صورة من سلوك البشر في كل مجتمع وكل زمان ، ينتزعها الإمام من واقع حياتهم اليومية ليضعها - بغلواتها وتدليها - في المسامع والأبصار مثلا نابضا لضعف النفس : بالغرور كيف يكون ، وبالتدلل كيف يكون . . ثم يعتصر دلالتها ، ويستخرج حكمتها فإذا هى الدرس الذى يهذب النفوس ، ويروض الطبايع . والدعوة العملية التى تؤكد للناس أن الحياة ليست بحياة إن لم يعيشوها جميعهم ، حاكما ومحكوما ، كبيرا وصغيرا ، وهم سواء ، كرماء وأباة . . فما الثناء برياء ، ولا الطاعة بتدلل ، ولا الولاء استخذاء . . وما القوة بتجبر ، ولا التواضع بضعف ، ولا السلطة خيلاء .

وهذه هى الصورة الناطقة بكل ما فيها . . بما يعرض للعين من أخلاط الألوان وعممة الظلام وإشراق الأضواء . وبما تلقف الأذن من جرس النبرات ووقع الهمسات وخفق الإيماء :

رجل سولت له نفسه أن ينفذ إلى الرضا والحظوة ، أو إلى الأمان والسلامة من اقصر طريق شقه البشر ، ومن أوسع باب فتحوه والفراولوجه ، طوال تاريخهم على وجه الدنيا ، إلى هذا المأرب أو ذاك ، فلا يتردد أن يخف - وهو واهم - أو عالم - إلى الإقبال على أمير المؤمنين،

متمسحا به كالهرة كمألوف عادة المحكومين مع الحكام ، مشيدا بقدره ،
معددا مناقبه وشيمه ، متغنيا بمكارمه وسجاياه .. إنه ليمدح
فيطنب ، ويشنى فيغدق ، ويطرى فيفيض .. حتى إذا بلغ شأو حديثه ،
وأفرغ ما في جعبته من بضاعة بيانه المنمق الأخاذ ، ثم حسب أنه
استحق الجزاء الذى تطيب به نفسه ، فجأته من الإمام نبرة قاطعة
حاددة ، جمعت اللوم إلى الإنكار ، والرئاء مع الازدراء ..

كان الجزاء الذى تلقاه :

« أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك ! .. » .

وعندئذ تبعثرت قرابين الملق ، وتناثرت آلهة الاغترار ، خطاما
تحت الاقدام ! ..

حكمة وقدوة ..

حكمة تؤكد إيماننا بمبدأ ، وقدوة تجسد هذا الإيمان ، تتلازمان .

فليس بالدعوة وحدها يعيش مبدأ . وليس بالمبدأ وحده تصلح
حياة .. وإنما لا بد من سلوك جاد يعبر عن القول بالعمل ، ويجسد
المنطوق في تطبيق . وما من أحد هو أولى من الدعاة الرعاة بهذا
السلوك القوال الفعال الذى يغرى من وراءهم بالتزامه لانه يروج
للمبدأ ، ويثبت أركانه ، ويجعل منه سياسة عامة للدولة وأسلوب
حياة يعيشه أبنائها وليس مجرد إيمان أخرس تكنه الأفئدة ، او لفظ
أجوف تهدر به الشفاه ! ..

ولا يغفل الإمام عن ترديد خلاصة هذه التجربة على من بيدهم
مقاود الأمور من رجاله في الولايات والأقاليم وفي مراكز السلطة أينما
كان لدولته سلطان ، لأنهم أحق الناس في مجتمعاتهم بإلزام أنفسهم
امتثال السياسة المقررة التى شرعها الدين أسسا ومبادئ أو فصلتها
الدولة فروعا وأجزاء . وكم أوضح لهم . وكم أمر ان يتجنبوا الانزلاق
على النفوذ إلى التجبر ، وعلى الثناء إلى الاغترار ، وعلى كليهما معا
إلى طغيان الفردية التى لا تعيش إلا على دم الحريات ! ..

وها هو ذا لا يقتصر فيما يوصى به عماله على تزهيدهم في ثقل

الإطراء . بل يحاول أن يحاجز بينهم وبينه بأن يسد عليه سبيل التسلل إلى نفوسهم من خلال طائفة من المشيرين هم أخلق بأن يفتنوا في إرجائه من ألف باب وباب ..!

تلك طائفة الخاصة من البطانة والأعوان ، الذين يعيشون عادة على زهو الحاكم كما تعيش الديدان على جيفة ، ويبنون حوله بأرائهم وأجسادهم سورا منيعا من التمويه ، فيه يسمع بأسماعهم ، ويرى بأعينهم ، ويفكر بعقولهم ، وتطيب نفسه المخدوعة بحياة هي الوهم ، بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس ..

من أولئك يحمي الإمام كل عامل من عماله فيدعوه الا ينقاد لهواه عند اختيار مشيريه ..

يقول :

« استعملهم اختبأ ، ولا تولهم محابة .. » .

ولا يكتفى بتزويد الولاة في الثناء المسوق من قبل هؤلاء ، بل يحثهم أيضا على تهجينه لرعاياهم من عامة اهل الإقليم ، ومكافحته في سلوكهم كما تكافح الموبقات ! .. فيكتب في إحدى رسائله لبعض عماله يأمره أن يرد من قبله من الناس عن إطرائه لكيلا يفتربه الغرور :

« .. ورضهم على ألا يطروك . فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو ، وتدنى إلى الغرة .. » .

بل يأخذه بالإصغاء للصرحاء ، الذين لا يموهون ولا ينافقون ، وبتقديمهم في مشورته ومجلسه على من عداهم ، وإن ضاقت عادة بالنقد صدور الحكام :

« .. وليكن أثرهم عندك أقولهم بحر الحق ! .. » .

ولا مراء ! ..

فالثناء في اغلب الأحيان - إن لم يكن على الدوام ! - وسيلة لإخفاء رذيلة أو لتضخيم فضيلة ، تنتهجها النفوس الهشة جنوحا من الرائل إلى مدهانة المردول أو استجلابا لرضا الفاضل على المفضول . فهو

إذن مركب هوى ، وليس بأسلوب صدق لإبداء ولاء أو تعبير عن تقدير .
أم لا ، وإنه لمن ضعيف نقوى . من صاحب حاجة لمالك أمره . من حاكم
لمحكوم ؟ . . . أم يستطيع ، وهو المرفوع ممن هو أدنى إلى من هو أعلى
منه ، أن ينطق بالحق الخالص ، مترجما عن حقيقة الأوضاع ، أو مفصحا
عن مشاعر مزجيته ؟ . . . أم أخلق به واليق أن يجيء كتلة من النفاق
والزيف والتدليس ؟ . . .

أخرى به ، في مثل هذا الموقع ، أن يحق الباطل ، ويبطل الحق ،
لأنه لن يكون عندئذ إلا أداة نفع لصاحبه أو مطيته إلى نجاة . . . فإذا
دعا الإمام رجال دولته العاملين من لدنه على الناس إلى العدول عن
الإصغاء للإطراء إلى الإصغاء للمصارحة فهي الدعوة الكفيلة بأن تكف
عادية الخيلاء وتحسر مد الطغيان ، لأنها تصد الرياء فتقلم أظفار
الاغترار . . . وهي الدعوة العاملة على تكريم العقل وإقامة الشورى
وتوطيد حرية الرأي لأنها تفسح للنقد فتهدر استبداد الفردية ، وتحفظ
للشعب المحكوم حقه في مناقشة الحكام . . . وهي ، بعد هذا أو قبله ،
الدعوة التى تتصدى للانحراف بنوعيه : المتهاوى المتخاذل ، والمتشامخ
الطاغى ، إذ تحارب الاستكبار والإرهاب كما تحارب الجبن والنفاق ،
فترسم للدولة سياسة عمل ، وللأمة خطة اخلاق . . .

بغير مغالاة ، نكاد وصايا أمير المؤمنين وأوامره الى عماله في الأقاليم . تمتل لنا تلك الخطة المتكاملة التي يحدد بها هدى الإسلام ما ينبغي أن تكون عليه سيرة المتبوع بين الأتباع ، واليا من قبل السلطة الشرعية الحاكمة ، أو امرؤا هياه وضعه الاجتماعى لقيادة الناس في محيطه نجابا مع العرف والتقاليد . فهى الخطة الشاملة العامة التى يسعها أن نستوعب في نطاقها كل راع مسئول من ذى رأى أو سلطان بين أهله وذويه أو بين غيرهم ممن عسى أن يتداعوا اليه ، بحكم الصلات الاجتماعية أو بحكم الولاء السياسى .. وهى الخطة المحكمة التى تبين بجلاء ما يجدر بكل انسان أن يمثلته في حدود ما أتيح له من نفوذ جل أو هان ثم لا تترك تفرقة للترخص والاستثناء ولا للجموح والغلو .. وهى بهذا خطة السلوك « الخلقى » المقبول الذى تستقيم به العلاقات الإنسانية في مجتمع العشيرة كما في مجتمع الأسرة ، وفي حيز الدولة كما في حيز الإقليم على السواء دون سبيل للمفاوطة في معاملة الناس بالإيثار أو بالإجحاف .. بل هى أيضا السلوك « الطبيعى » العادى الذى لا بديل لآى جماعة بشرية عنه في سياسة الأمور وقيادة الأفراد والجماهير ، لأنه يوافق طبيعة البشر اجمعين حكما ومحكومين على اختلاف الزمان والمكان ، وتنضج به الأخوة الأدمية التى تربطهم قبل أن تنضج به صولة الحكم وسطوة السلطان ، ويتداعى للفطرة الأصيلة فيهم بغير عناء أو اعتساف ..

نهج طبيعى عادى ، ومسلك خلقى سوى دعت اليه وصايا أمير المؤمنين ، وأجمل رسمه بأوجز وصف وأدناه في حديث له ..

فقد قال :

« واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين .. واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية .. واحذر كل عمل اذا سئل عنه صاحبه انكره واعتذر منه »

وبهذه الكلمات خط المبدأ ثم حدد الأسلوب .

فأما المبدأ فهو أن تكبح النفس أن تستخفها الأثرة لإشباع نزواتها أو تفرها القدرة لتحقيق منافعها الخاصة ، انزلاقا على الهوى أو جنوحا مع الخيلاء ..

وأما الأسلوب فهو أن يوجه عمل الفرد إلى الصالح العام ، وإن اضر هذا التوجيه بالمآرب الذاتية ، أو كان الفرد صاحب السلطة العليا التى تقود ..

ومن هذا وذاك ينبثق السلوك الأمثل الذى ينبغى أن يكون .
والذى يستجيب للرغبة العامة فيصلح الجماعة وترضيه .
والذى يعز صاحبه ويسمو به أن يحس الهوان في دخيلته أو يحسه له الناس .
فما يجنبه مثل هذا الشعور بالهوان أن يمتنع عن سخطهم ببأسه وجبروته . ولا باستهائته بشأنهم . ولا بالتغافل عما يكون . وإنما يجنبه إياه أن يتحامى الوقوع فيما لعلم ينكرونه عليه ويصبح به في مجال تثريبهم في العلن أو الخفاء ، وبالتصریح أو الإيماء .. فليس أكرم للمرء من أن يكون وحده الرقيب على فعله وقوله . وليس أليق به كإنسان من أن يصدر في تصرفه عن شعور عميق بإنسانية مشتركة تجمع بينه وبين من حوله وإن تفاوتوا في الأقدار . وليس أجدى عليه وعلى مجتمعه من انطلاقهم جميعا من وحدة الشعور إلى وحدة الفكر ، ومن وحدة الفكر إلى وحدة التعبير ، ومن وحدة التعبير إلى وحدة الغاية التى تلتقى عندها كافة الرغبات .

بغير هذا لا يمكن لكيان أى مجتمع من المجتمعات أن يتماسك لآته عندئذ يفتقر إلى اتفاق كلمة أبنائه فإذا هم شيع وفلول تختلف وتتنازع، قد تضاربت ميولهم ، وتبعثرت جهودهم ، وتنافرت أعمالهم ، واضطربت بهم خطاهم في سيرها على أيما طريق قد يؤدي إلى نفع عام .. فما بإرادة فرد وحده استطاع أن تساق الشعوب ما بلغ ذلك الفرد من سطوة النفوذ . ولا بمشيئة طبقة فيها من دون الطبقات يساغ أن تبرم الأمور ما بلغت تلكم الطبقة من بسطة الجاه .. إنما التنسيق بين كافة الإرادات والمشیئات ، والتوفيق بين مختلف الميول والاتجاهات هو الذى يدعم وحدة الأمة ، ويوطد كيانها ، ويصلح شأنها

بداية وغاية . فلا صلاح لامة بصلاح بضعة فيها دون بضعة ، ولا بإيثار طائفة على طائفة ، لأن « الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض » - كما يقول الإمام .

تلك سياسة ثابتة كالجبل ، عادلة كالميزان ، خليفة بأن يرعاها كل محكوم كما يرعاها كل حاكم سواء بسواء لأنها تحقق التوازن في المجتمعات ، وتمنع بناءها أن يميل ..

فما هو إذن مقياس تطبيقها بلا انحراف ؟ ..

وما هو ضمان « الموازنة » فيما بين الأفراد ، وفيما بين الطبقات ، وفيما بين أولئك وهؤلاء ؟ ..

بديهية لا تختلف عليها الآراء أن يكون ذلك المقياس شاملا يتسع لكل قياس ، حاضرا ميسورا لكل الناس .

وإنه لكذلك !

فإن تضع نفسك موضع سواك ، قبل أن تصدر عن فعل أو قول ، فترضى لها ما ترضى له ، وتكره له ما تكره لها ، لهو المقياس الذي لا يبعد عن أحد لأنه يقع في متناول الجميع . وهو لا ريب المقياس الدقيق الذي يكفل استقامة التطبيق ، ولا مجال معه للمفاوطة في التقدير مهما تغيرت الأحوال واختلف الأشخاص .

إنك أدنى إلى أن تعيش بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس بغير هذا المقياس لأنك عندئذ لا تكابد ما يكابد سواك . ولكنك به تعيش في إهابهم ! .. ترى بعين كل منهم . تسمع بأذنه . وتشعر شعوره . تفكر تفكيره حتى لتصبح أنت في قرارتك كأنك هو ، ويصبح هو في نظرتك كأنه أنت ! . ولا شيء أوضح من هذا نهجا لاستقامة تقدير كل امرئ للأمور ، ولا أقوم سبيلا لسلامة تصرفه وسلوكه . ثم لا شيء بعد أصدق منه تعبيرا عن الإحساس الجمعي ، ولا أقوى ضمانا لتحقيق الإرادة العامة .

ولا يساغ هنا أن يقال بإقبال الناس كافة على هذا المقياس ، أو بعملهم به على أطراد وعن إجماع ، في كل الأحوال .. فلقد يحدث

— ولا عجب — أن يغفل عنه فريق ، كما قد يحدث أيضا أن يعيث به فريق .. فليس دائما كل أسلوب ميسور بمقبول .. وليس دائما كل طريق معبد بمطروق . وليست الحياة الدنيوية بقلب يصب فيه البشر فإذا هم نمط واحد ، على اتساق وتمائل بلا تناقض وتضاد . ذلك لأن الإجماع خيال . والاطراد إطلاق ، والإطلاق — بطبيعة الحال ، ومع اختلاف الطبائع البشرية ، وتشعب النزوات ، وتفاوت الوعي بين الأفراد — ضرب من المحال . والأولى إذن في هذا الضوء أن يقال إنه المقياس الذى إن فاتته أن يقيس اتجاه الإجماع فلن يفوته أن يقيس الاتجاه الغالب الذى يعبر في أى تجمع إنسانى عن رأى الكثرة من اهله ، ويصلح ، على هذا الأساس ، أن يكون نقطة بداية لانطلاق الجهود إلى هدف عام « نسبي » ، إن لم تتحقق عنده إرادة الكافة فأحرى به أن يحقق إرادة جمهور الناس .

وإذن فإرادة هذا الجمهور أجدر بتقديمها على ما عداها من إرادات غيره من أبناء الأمة ، ما دام يمثل فيها — بمجموعه العددي — ما يوشك أن يقارب الإجماع ، ويفتقر — بوضعه الاجتماعى — إلى النصيب الأوفى من الخير العام .

هذه هى النظرة الواجبة إلى وظيفة الحكم كيف تكون ، وإلى تبعة الدولة عند وضع الخطط ورسم الأهداف . وهى النظرة التى تعلن دائما عن نفسها في طوايا وصايا الإمام وأوامره ، ويقرر بها ضرورة امتثال الإرادة الشعبية الغالبة وتوجيه العمل القومى ، سياسة ونتيجة ، إلى نفع العامة — إن لم يكن عدلا فيأثارا — لو عسر توجيه هذا العمل لنفعهم ونفع بقية من عداهم من الرعية على استواء . فإذا أوثروا ها هنا فإنه الإيثار الذى يعدل الحق ويكافئ الإنصاف ، تعويضا لهم عن الحرمان والتخلف ، ولو بدت فيه مسحة عطف أو إثارة انحياز .. وإذا اختصوا دون غيرهم بمصلحة فإنه الاختصاص الذى يرقى بهم درجة في سلم المساواة ولا ينزل بسواهم من الطبقات .. وإذا استكثر لهم من الخير العام فذاك ما تبرره كثرتهم ، إذ هم قاعدة المجتمع الكبرى ، وأساس بنائه ، وعصب كفافه في كافة المجالات ، وما من فئة — بهذا المعيار — هى أحق منهم باجتناء القسط الأوفر

من ثمرات العمل جزاء وفقا لما يحملون من أعباء ، وثمنا عادلا لما يبذلون من جهود ..

عن دورهم في حياة امتهم يقول أمير المؤمنين :

« .. إنما عماد الدين ، وجماع المسلمين . والعدة للأعداء : العامة من الأمة .. » .

وعن دور الدولة في رعايتهم ، وكفالة حقوقهم . يذهب إلى المدى الذى لا يبالى عنده سخط من عداهم . لأنه عندئذ السخط المنتظر المغفور ، الذى لا يلائم ضرورات الواقع ، ويكاد لا يخل بعدالة الميزان .. يقول :

« .. سخط العامة بجحف برضا الخاصة . وإن سخط الخاصة يقتفر برضا العامة .. » .

فهنا احتفال ، وهناك استهانة .. سخط المتكفف في كفة ، وسخط المكتفى في كفة ، ولا مندوحة - عند المفاضلة - عن درء أولهما بالآخر لأنه شتان بين ضاو محروم يصلحه النزر ، ومترف منهوم تفسده التخمة ! ..

ولم يكن رايه هذا بقول الذى يسوق المبارات عشواء فيجانب بها حدود الاكتراث استهانة او غفلة . بل هو حديث المحيط بالحقائق، المتمرس بالتجربة ، الخير بالنفوس الذى يبنى كلامه على شواهد عملية ، وأدلة يقينية من صميم حياة الناس يوشك ألا ينفذ إليها البطلان ..

بخلاصة ما خبر واستيقن ؛ يتحدث فيقول :

« ليس احد من الرعية اقل على الوالى معونة في الرخاء ، واقل معونة له في البلاء ، واكره للإنصاف ، واسأل بالالحاف ، واقل شكرا عند الإعطاء ، وابطأ عذرا عند المنع ، واضعف صبورا عند ملهمات الدهر من اهل الخاصة ! .. » .

ولا مرء ! ..

فتلك - عادة - خلائق المترفين السراة ..

ولا يغفل الإمام ، بعد هذا ، شأن الفرد ، لانه نواة جماعات الامة
ولا يصلح الدوح إن لم تصلح البذور !.. ومن هنا فإنه يرى لكافة
المواطنين حقوقا على الدولة ، ليس لها أن تتحلل منها ، أو تبخل بها
وان تفاوتت قدرا أو نوعا بحسب طبيعة الاوضاع الاجتماعية التى
ينتسب إليها الافراد . ثم يرى ، ضمنا لهذا الصلاح ، ان تعابر الحقوق
بالحاجات ، فيقول :

« .. لكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه .. » .

وقد ذهب امير المؤمنين في تقرير هذا الحق ابعد المذاهب ، حتى
لقد جعل الوفاء به اول ما ينبغى على الحاكم وإن جاء هذا الوفاء على
حساب المال العام ، أو اجتزا منه بنصيب . فلا خير قط في سياسة
قصارها ان تكس المال في الخزائن لتسند به هيبة الحكم أو تعز
السلطان إن لم تسخره وسيلة للرعاية الاجتماعية لمن يفتقرون لهذه
الرعاية ، لانها عندئذ السياسة الخليفة بأن تفقد الطبقات الدنيا
والحرومة في المجتمع شعورها بالانتماء للدولة ، وتنزل بولائهم لها إلى
اسفل درك إن لم تدفعهم دفعا إلى التنكر للنظام العام ، وتزخر نفوسهم
بالثورة عليه .. ولا بديل في أمة تنوعت شعوبها ، وتعددت وحداتها
السياسية ، عن عناية كل عامل على أية وحدة بأن يوفر للمعدمين
والمحتاجين فيها ما يمسك عليهم مستوى كريما ، أو مقبولا ، من
المعيشة ، من دخلها قبل أن يوجهه إلى حاضرة الدولة .. فأهل
الأرض ، لا ريب ، أولى قبل غيرهم بما تغله . ونجاح الوالى لا يقاس
باقتداره على جمع المال . وليس بمجهول انه قد أثر عن رسول الله
قوله إنما بعث للهداية ولم يبعث للجباية ..

في هذا المقام يقول الإمام :

« .. يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها . وإنما يعوز أهلها
لإشراف أنفس الولاة على جمع المال .. » .

وبرسم سياسة للجباية لا تهدر كرامة الإنسان ، ولا تعضل به ،
وإن أعضلت بالدولة ، وحرمتها بعض ما يستحق لها على الرعاية من
الأموال .

يأمر أهل الخراج :

« .. لا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ، ولا صيف ، ولا دابة
يعتملون عليها .. » .

فأما ذوو الحاجة من أبناء الإقليم ، فقد آثرهم بمال إقليمهم إلا أن
تفضل فضلة تنفع أبناء سواه ..

يكتب إلى عامله على مكة قثم بن عباس في هذا الإيثار ، فيقول :
« انظر ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوى
العيال والمجاعة تصيب به مواضع الفاقة والخلات .. وما فضل عن
ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا .. » .

بل يحتم على الدولة أن تتولى ما نعبر عنه في لغة اليوم بالرعاية
الطبية ، وإعانة التعطل ، لكل مريض ، وكل متعطل أعوزته الوسيلة
إلى عمل يصلح أمره أو أعجزه عنه سبب من الأسباب .. فيبعث
إلى ولايته :

« الله الله في الطبقة السفلى من الدين لا حيلة لهم ، والمساكين
والمحتاجين وأهل البؤس والزمى .. أجعل لهم قسما من بيت المال ،
وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد .. فإن للأقصى منهم مثل
الذى للأدنى .. » .

كافلا بهذا الرعاية للجميع ، في كل ركن من أركان الدولة ، بغير
تمييز ولا استثناء ..

فإذا بلغ بأوامره إلى الحكام هذا المبلغ ، بادر فدعا كل قادر من
أبناء الأمة إلى التزام نفس السياسة تجاه ذوى الحاجات ، من ماله
الخاص ، جودا بما يطيق مهما قل ، لأنه يعينهم على الحياة :

« .. لا تستح من إعطاء القليل ، فإن الحرمان أقل منه ! .. » .

وكما سبقت وصايا الإمام — فيما نطقت به عن تعاليم الإسلام —
كافة الشرائع والقوانين الوضعية إلى إلزام الدولة رعاية الفرد بتقرير
حقه عليها في العمل والعلاج والمعونات المالية وكل ما يضمن له مستوى
معيشيا يليق به كإنسان ، فقد سبقتها أيضا إلى حماية الفرد من

استغلال سواه الاستغلال الذي تشق به عليه الحياة . وكفى أن نذكر هنا - كمثال - أنها حرمت الاحتكار ، وفرضت رقابة على أسعار السلع لكيلا تكون وسيلة بعض الجشعين من التجار الى الإثراء الفاحش عن طريق التحكم في الأسواق ..

فلقد كان من أوامر الإمام الى رجاله :

« .. فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله منع منه .. وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع .. »

تلك وغيرها من وصايا الإمام وآرائه . خطوط في السياسة العلوية ، ومعالم على طريقها ، وضعها صاحبها لتكون مشاعل هداية ونور للولاة والعمال في سياسة الناس والأمور ، ومفازة أمن وسلامة لابناء شعبه الى الحياة الكريمة .. فإن فيها من العناصر الواضحة ، ومن المفارز المستترة ما يبدى لنا خطة وثيقة الكيان ، راسخة البنيان . تؤكد كيف يمكن للسلوك البشري أن يوافق شريعة الدين بلا اعتساف ، ويلائم طبيعة البشر دون إرهاب ، ليرقى بالامة كلها ، حاكمين ومحكومين ، الى حيثما تهفو الأنفس النقية الطموح والقلوب السليمة الذكية ، وتترامى فطنة العقول الواعية ، إلى حياة من الصفاء والسلام ، كل فرد فيها قدوة ، وكل جماعة فيها إخوة ، بلا تطاول بالأحساب والأنساب ، أو امتياز بالألوان والأبشار ، أو اغترار بالمناصب والأقدار .. بل أسرة واحدة . يعمل الفرد في ظلها للجماعة لأنه يعيش بها ، وتعمل الجماعة للفرد كأنما يعيش فيه .

غير أنها خطة - كغيرها من السياسات والمبادئ - خليفة بأن تتجمد في الألفاظ ، ويجف ماء الحياة فيها قبل أن يجف بها المداد على الصحائف ، ما لم تجد رعاة ودعاة ينحطونها القدرة على الحركة ، فيعيشونها عملا مثمرا وممارسة حية ، ولا يكتفون برفعها شعارات ..

فهل هكذا كان سلوك المسلمين عامة ، في تلك الايام ، وخطة الإمام هي لب الإسلام ، والامة كلها ، بلسان محمد ، رعاة ؟ ..

لقد قال أمير المؤمنين وهو يحدد لقادة الرأي والعمل والسياسة حينذاك دورهم في هذا المجال :

« من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . . . »

لكنهم عامة - أولئك القادة في مختلف أنحاء الدولة - لم يستجيبوا لهذه الدعوة الهادية ، سواء منهم من كان معه أو كان عليه . . الكثرة التي صمتت عن الاصغاء تنكرت للأداء . والقلة التي لعلها أصغت للدعوة اكتفى أغلبها برفعها شعارات . ومن ورائهم جميعا جمهور الشعب ، يسكرون ، كما يسار بقطيع ، إلى دروب الهوى والنفع الذاتي التي شقيقتها لهم دنيا خداعة ، تخيلهم بمطامع وشهوات ، ليستديروا طريق الحياة الحقبة التي يلتئم فيها شمل البشرية ، ويعز الإنسان كإنسان !

الفصل الرابع

عندما سمع الإمام بفرار مصقلة ، زاحم الأسى في وجهه سمات الغضب ، أسفا على غلبة الوحل في طبيعة البشر !.. فما زال ضعفهم يشدهم الى الأرض وإن بدوا كأنما يحلقون في السماء . وما زال الادعاء لعبتهم الأثيرة . وما زالت النفوس غثة وإن تسربت بكبرياء ..

إن خلائق كثرتهم لاهون من أن توزن بمثقال . وإن شرفهم لأرخص من أن يثمن بدرهم . وإن كرامتهم لأغشاء وطلاء .. هيئة ضخمة تهول ، وملمس ناعم يبهر ، ثم لا شيء بعد هذا غير خواء وفراغ ، كأنما القيم الخلقية التي يعلنونها ويظهرون ولاءهم لها مجرد كلمات رنانة ، قصارى همهم منها أن تمتلئ بها الأفواه وتنتفخ الأشداق !..

ومصقلة مثال !..

واعترب الإمام عن أسفه :

« قبح الله مصقلة !.. فعل فعل السادة ، وفر فرار العبيد !.. »

فقد فر الرجل ، وقبلته الشام ، ليلقى لدى معاوية ما يلقاه كل آبق عليل الضمير ، آده أن يستمسك بما أخذ به نفسه من مبادئ ، وتعاهد عليه من ذمام .. باع دينه لدنياه . خلع الوفاء وارتنى الخيانة ، ومضى شوطه في الطريق الذي سبقه اليه كل ناكث خوان ، لينعم هنالك في وجار العاهل الأموى بجاء ما هو بجاء إلا أن يكون الاعتداء على حق الله ، والهوان على مكارم الأخلاق هو الجاء !..

ولم تكن حال مصقلة هذه إلا حلقة في سلسلة طويلة من سلوك طائفة جمة من الأمة ، ذلك العهد ، قد آثروا الفرار بأنفسهم من

مشقة الثبات على الحق ، والصبر على مرارة الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الدين ، الى حياة من الدعة والرغد يشترونها بانتقاضهم على الإمام . فهو عندئذ نمط شائع من الناس الذين بهرهم اقبال الدنيا ، فأكبوا عليها ، ينهبون عرضها ونشبها ولو من حرام . وهو أيضا نمط من الخاصة تقدموا الصفوف قادة وعمالا في دولة على ، ليعبروا على ما اظهروا من ولائهم له ، وكفاحهم لنصرته ، الى ما يشتهون من مغنم ، فلما أن استطال امر هذا الكفاح ، تعجلوا اجتناء التمرة المشتهاة التي راوا صاحبهم يحاجز بينها وبينهم ان يقطعوها بغير حقها ، فاتخذوا سبيلهم الى اجتنائها صاحب الشام ..

وتفصح قصة مصقلة بن هبيرة الشيباني ، كما لم تفصح اغرب القصص ، عن اضطراب المعايير الخلقية الاضطراب الذي تجتمع فيه نقائص الشرف والخسة ، الإباء والهوان ، الخطأ وانصواب ، ثم تقوم - في رأى صاحبها - بميزان المعادلة والحساب كأنها كلها شرف وإياء وصواب !..

فالرجل يمر به ، وهو عامل لعل على اردشير خرة ، من كور فارس ، أسارى نصارى بنى ناجية ، فيبدو كمن يصدر عن خلال كريمة أصيلة فيه .. عن الشفقة والرحمة حين يراهم وتأخذ الرقة على ما هم فيه من بلاء . وعن المروءة والنجدة حين يستغيثونه ان يكف عنهم الأسر ..

ويبادر على الأثر فيشترىهم بخمسمائة ألف درهم ، دينا عليه إلى أجل ، ويمتقهم من ذل الاسترقاق ، فإذا هو يبلغ بصنيعه هذا قمة الشرف الذي لا يكاد يرقى لشاؤه ثناء .. ثم يمطل بدينه ، فلا يؤذى القدية التي افتدى بها أسراه الى بيت المال وهو المؤمن عليه ، ولا يرد منه إلا بعضه بعد ان يلحف عليه بالسؤال ، بل يتحلل من تبعته - افتثاتا وجورا - بأن يخلع طاعة امير المؤمنين ويفر الى ابن أبي سفيان . فاذا هو بفعلته هذه يتهاوى الى درك الخسة الذي ليس تحته قاع !..

مناقص ومثالب تروع وتهول . جمعت خيانة الامانة ، الى خاف

الوعد ، الى نقض البيعة ، الى المظاهرة الجائرة انتصارا للعدو على
الولى ، وللمتمرد العاصى على صاحب السلطان الشرعى في البلاد ..

ولقد كانت لمصقلة عندئذ مندوحة ، عن سلوكه الزرى الذى
اخذ بدينه ، واهدر كرامته ، لو انه كان حقا صادق النية - منذ
البدء - في طاعة الإمام ، مؤمنا إيمانا سليما بأهدافه .. وهل كان
على ليعجله بالاداء ويرهقه عسرا وإنه الخلق - لا ريب - بأن يمهله
ويتريث به وهو يقابل الزلة البيلة بالدافع الكريم ؟ ..

وكان هذا حقا هو اتجاه الإمام في معاملة مصقلة ، إذ عقب يقول :

« .. لو اقام لأخذنا ميسوره ، وانتظرنا بماله وفوره .. »

لكن مصقلة شاء لنفسه أن يقرن الصلف بالخيانة ، كأنما ترفعا
عن المسائلة والاعتذار . فأعاد بذلك إلى الحياة صورة جبلة بن الايهم ،
حين شكاه أحد الأعراب الى ابن الخطاب في لظمة لطمها اياه ، فدفعته
كبرياؤه الحمقاء - انفة من القصاص - الى الارتداد عن الإسلام ! ..

صلف كصلف ، ومثال كمثال ، ثم يبقى بعد هذا ان سيرة مصقلة
تنم ، قبل زلته تلك ، عن دخوله في طاعة على ، خداعا وغشا ، ابتغاء
المصلحة وذبوع الصيت . فلقد سبق له ان اساء الى المال العام
بوضعه حيثما رأى انه يرفع ذكره ، وينفع قومه ، وإن اعضل فعله
بمن لهم حق في هذا المال .. وما هو كتاب من الإمام إليه ، إبان
عمله ، يتهمه ويكاد يهتك الستر عن خيانة قديمة ، خبيثة فيه :

« بلغنى عنك امر إن كنت فعلته فقد اسخطت إلهك ، وعصيت
إمامك .. انك تقسم فيء المسلمين ، الذى خازته رماحهم وخيولهم
وأريقته عليه دماؤهم ، فيمن اعتماك من أعراب قومك .. فوالذى
خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقا لتجدن لك على هوانا ،
ولتخفن عندى ميزانا ! .. فلا تستهن بحق ربك . ولا تصلح دينك
بمحق دينك ، فتكون من الأخسرين عملا .. »

وختم كتابه يذكر بحق الأمة في الفء بالسوية ، بلا مغاورة على
المنازل والأحساب :

« .. إلا وان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا
الفيء سواء ، يردون عندي عليه ، ويصدرون عنه .. » .

ومع ذلك فقد استمرا المرعى !..

فما هو ان طلع عليه بولايته أولئك النصارى الأسارى ، حتى
تحركت يده ، مرة أخرى ، ليختان المال العام ..

والقى بعينه على موكب الرق فإذا هو جسوم ضاوية محطومة
من فرط مشقة الرحلة الطويلة من ساحل البحر في الجنوب . ووجوه
مغبرة . رهقها الإعياء وذل الانكسار .. تملقى بسمعه إليهم فإذا
كلامهم زفرات ، وإذا أنفاسهم نواح ..

وتعالى اليه الصياح :

« يا أبا الفضل !.. يا حامل الثقل ، ومأوى الضعيف ، وفكاك
العصاة !.. امنن علينا .. »

فكأنما لمسوا بعباراتهم وتر فخره ..

هب على الفور يقول :

« والله لاتصدقن عليهم !.. » .

وارسل الى معقل بن قيس ، صاحب الجيش الذى تعقب عصاة
بنى ناجية من الكوفة الى البحرين عبر الوهاد والقفار والجبال ،
قراية عامين ، حتى اوقع بهم ، وقتل زعيمهم الخريت ، واظفره الله
منهم بعدو عنيد ..

أرسل اليه :

« بعنى نصارى ناجية .. »

واتفقا على خمسمائة ألف درهم نسيئة ، يبعث بها الى
أمير المؤمنين بالكوفة بعد قليل ، ثم اعتق الأرقاء ..

لكنه لم ينجز وعده .

مطل بالدين . بل قد اكل معظمه فرزا فيه بيت المال كما رزاه

من قبل . فإذا خيانة الأمانة خيانتان . وإذا مسلكا الأمر واليوم يتطابقان . وإذا هو بهما الخلاص السلاب الذي ينهب ليهب . ويهب فيسخو . ويسخو ليستطير بالشرف والفخار فلا يبلغ من شأو طموحه الى نباهة الذكر الا كرما هو التكرم ، ورفعة هي الصلف ، وشرفا هو الادعاء !..

ولم يعاجله الإمام بالبطش والحساب ، بل أثر الرفق والهوادة عسى ان يرجع عن غبه ، ويوفي ما عليه .. ولكن مصقلة ابطا في الاداء فأطال الإبطاء ، حتى بدا للناس كأنه لا ينتوى الوفاء ..

عندئذ بادره أمير المؤمنين بكتاب مع رسول من لدنه يدعوه :

« أما بعد .. »

فإن من أعظم الخيانات خيانة الأمة . وأعظم الفش على اهل المصر غش الإمام . وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فأبعث بها الى حين يأتبك رسولى . وإلا فأقبل

والسلام . »

ولم يكن لمصقلة معدى عن الذهاب إلى الكوفة ، بعد إذ لزمه الرسول لا يبرح عنه انصياعا لأمر الإمام :

« إن تبعث بهذا المال ، وإلا فأشخص معى إلى أمير المؤمنين .. »

فانطلق صاغرا . ومكث أياماً بالكوفة ، يحاول ان يتدبر الأمر بحيلة العاجز الذى آده الاداء . ثم وسعه أخيرا ، حين سأل الإمام ، أن يدفع مائتى ألف ، مكث بعدها يعالج القلق والحيرة ..

وكانما أغراه تريت على به كل هذا التريت بالطمع في الالتواء ببقية الدين ، حتى لقد قال ذات ليلة لذهل بن الحارث :

« إن أمير المؤمنين يسألنى هذا المال ، والله ما اقدر عليه .. »

قال صاحبه :

« لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمعه .. »

فأنف :

« ما كنت لأحملة قومي ، ولا أطلب فيه إلى احد .. » .

وإردف يقول كاشفا عن أمنيته :

« والله لو أن ابن هند مطالبى به ، أو ابن عفان ، لتركه لى .
ألم تر إلى عثمان كيف أعطى الأشعث مائة ألف درهم من خراج أذربيجان
في كل سنة !.. » .

لكن جواب ذهل رده عن خياله :

« إن أمير المؤمنين لا يرى ذلك الرأى . وما هو بتارك لك شيئا .. »

أفكان حقا في حاجة لمن يخرج من هذا الحلم الذى عاش فيه
لحظات ، وود لو طال عليه أمده ؟ .. إنه إذن لم يعرف الإمام ، ولا كان
جديرا بالمنصب الذى شغله عاملا له أولى به أن يتخلق بخلق ، ويسير
سيرته ، تنائيا عن هوى النفس ، وخضوعا لشرعة الحق ، وامتنالا
لما ينبغى أن ينتهجه كل من تصدى لقيادة الرأى والسياسة بين الناس .
ولم يطلع عليه بعد ليلته تلك في الكوفة صباح !..

طوى الإمام سيرة اسرى بنى ناجية في كلمات ..
 قيل له :

« اردد الدين سبوا ولم تستوف اثمانهم في اثرق .. » .
 فابى ان يحرمهم حرية غنموها وإن من خطأ ، وان بتحيف على
 المال العام :

وقال :
 « ليس ذلك في القضاء بحق .. » .

فألحوا عليه :
 « وفيؤنا ؟ .. » .

« صار على غريم من الغرماء ، فاطلبوه ! .. » ..
 واطبق السجل على جدل طال في حرية الإنسان ، مسلما أو غير
 مسلم ، كيف يتحمل المجتمع ضربيتها ، لأنها ، في اعتبار النظرة
 الإسلامية ، لها الصدارة بين كافة الحقوق ..

وعرض الإمام في أحاديثه بالخريت ، صاحب محنة بنى ناجية :
 قال عندما اتاه نبا مصرعه :

« هوت أمه ! .. ما كان انقص عقله واجراه ! .. » .

فما جنى هذا المتمرد الفاوى شيئا من وراء جراته الحمقاء ،
 أو حمقه الجريء ، إلا أن حمل قومه على عصيان هم أغنى عنه ، وأوغل
 بهم في مجاهله ومتأهاته على غير بينة ، حتى دل عليهم السيوف تذيقهم
 مرارة الدلة وغصص الختوف .. وهل كان قصارى ثمره إلا أن أودى
 بهم ، وأهلك نفسه ، وضع من عمر الأمة الإسلامية قرابة عامين في

صراع دموى ما كان أحرى الناس عندئذ بأن ينفقوهما في تثبيت أركان
القيء سواء ، يردون عندى عليه ، ويصدرون عنه . . . » .

لكن الخريت بن راشد الناجى سلك المسلك الذى لا يستغرب من
مثله ، لأنه الألبق بكل من هو على شاكلته من الالى آمنوا على حرف ،
الذين يتأرجح بهم دائما فلقهم النفسى ، وافتقارهم إلى اليقين الركين ،
من النقيض للنقيض ، شاطحين مرة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ،
ثم عادلين أخرى عن أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، بغير ما قد يوجب
ميلا ولا عدولا سوى التعصب الأعمى وما يجره من اضطراب التفكير
وخلل التقدير .

ولا عجب ان يأخذ الخريت في تمرده بمذهب الخوارج الذين سبقوه
إلى الانتقاض على الإمام بسبب التحكيم . فله ان يرى رايه . وان
يدعو له . وان يحاول نسويده ، بالمجادلة أو بالثورة ، على غيره من
الآراء ما دام قد اعتنقه عن اقتناع . لكن العجب كل العجب أنه كان
إلى ما قبيل تمرده بقليل ، مخالفا لهذا الرأى ، زاربا عليه ، حتى لقد
نحا في خلافه إلى تأليب الإمام على كل من أعلنوه التآليب الذى ينكر
الترفق بهم ، وبرى استئصالهم ولما يخرجوا بعد على النظام العام . . .

فقد قال للإمام عندئذ يثيره على الخارجة :

« يا أمير المؤمنين . إن في أصحابك رجالا قد خشيت أن يفارقوك ،
فما ترى فيهم ؟ . . . » .

فشرح له الإمام ما يرى أتباعه حيالهم وأمثالهم من مخالفيه :

« إني لا آخذ على التهمة ، ولا أعاقب على الظن ، ولا أقاتل من
خالفنى وناصبنى وأظهر العداوة لى . . ثم لست مقاتله حتى أدعوه ،
وأعذر إليه . فإن تاب ورجع قبلنا منه . وإن أبى إلا الاعتزام على حربنا
استعنا بالله عليه ، وناجزناه . . . » .

ويبدو أن الرجل لم يرض من أميره بهذه السياسة ، فراح يلحف
ويشتد ، حتى لقد ردعه الإمام :

« كف عني ما شاء الله . . . » .

لكنه عاود مرة أخرى الإلحاح عليه في معاقبة الزعماء :

« إنى خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي .. قد سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتها لم تفارقهما حتى تقتلهما ، أو توثقهما فلا يزالان بمحبسك أبدا .. » .

عندئذ شاء أمير المؤمنين أن يسير غوره ، ليعلم مدى التزامه سياسته ، التي ترتب العقوبة على الجرم لا على الشبهة ..

فقال يسأله :

« إنى مستشيرك فيهما ، فماذا تأمرني به ؟ .. » .

قال الخريت :

« آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما ! .. » .

فسفه الإمام قوله ، ورد عليه :

« .. لقد كان ينبغي لك أن تعلم أنى لا أقتل من لم يقاتلنى ، ولم يظهر لى عداوة .. وكان ينبغي لك - لو أننى أردت قتلهم - أن تقول لى : اتق الله ! بم تستحل قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم يباذوك ، ولم يخرجوا من طاعتك ! .. » .

فليس الخلاف في الراى مما يستوجب القصاص .

ومع ذلك ، فما لبث الخريت أن فعل ما أراد قتل غيره ، لا على فعله ، بل على مجرد القول به ! ..

عصى . ودفع قومه إلى العصيان . وخرج بهم عن الطاعة والولاء بحرب شعواء شنها على الإمام تنشر الدماء على رقعة فسيحة من البلاد امتدت إلى أقصى الجنوب على الخليج الهندى بمنطقة البحرين .. ولم يساعد بفعله هذا على تحطيم حكم على بقدر ما أعان على تفتيت وحدة الأمة ، بتأليب المسيحيين ، وإحياء عنصرية الجنس في نفوس الفارسيين والاكراذ بتلك الانحاء ، ثم على تلم الإسلام وإحداث خرق واسع في جداره بتحريضه الناس على منع الصدقات ، وإفساح المجال أمام كثيرين للارتداد عن الدين ..

وتبدأ هذه المحنة الخطيرة حين وسوس للرجل شيطانه أن يذهب عقب انتهاء التحكيم في ثلاثين من أصحابه إلى الإمام ، ذهاب زار مفاضب ، ليعلن في اجترأ أنه برم به ، خارج عليه ، آخذ حياله برأى الخارجية الذين طالما دعاه من قليل أن يعنف بهم ، ويقتل زعماءهم قبل أن يفسدوا عليه الناس !..

فأنى له هذا التحول ؟.. وكيف يقر ما نقم وكان يأمر بالبطش فيه ؟.. وهل هى نزوة نفسية أفرزها قلقه وتقلقل قدمه أن تثبت على موضع ، وضيق أفقه أن يتبين اليقين ؟.. أم كان يكن ميله الخارجى ويكبته حتى تبجس وتفجر ولم يجد وسيلة يعد لكتمانها ؟.. أم قد أراد من قبل أن يتفرد بزعامه المبدأ حين أثار الإمام على سواه من زعمائه فلما فوت عليه غرضه أثر الآن النهوض بدوره في العصيان ؟..

فلعله أقبل لهذا السبب أو لذاك . أو لعله لكل هذه الأسباب ، أو بغير أسباب ، إن وضعنا تذبذب أمثاله من الخارجية بين نقائص الدواعى والأسباب في الحساب !..

وبادر في اعتداد أرعن وخيلاء حمقاء يشور بالإمام :

« .. لا والله لا أطيع أمرك ، ولا أصلى خلفك .. وإنى غدا لمفارق لك !.. » .

فاستطارت الدهشة بأمر المؤمنين ، وحذره :

« ثكلتك أمك !.. إذا تنقض عهدك ، وتعصى ربك ، ولا تضر إلا نفسك .. » .

ثم تريت به قليلا ، وسأله سر انقلابه :

« .. أخبرنى . لم تفعل ذلك ؟.. » .

أجاب :

« لأنك حكمت في الكتاب . وضعفت عن الحق إذ جد الجد . وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم . فأنا عليك زار ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .. » .

نفس دواعى فرقة الخوارج ، ونفس حججهم ، كأنما تتردد على
لسان زعيم القوم : الرأسى ذى الثغفات !..

ومع ذلك فقد ترفق به الإمام في الرد وهو يرجو أن لو أفسح له
في التفكير ومراجعة النفس أن يرشد ، ويثوب عن هواه ..

قال :

« ويحك !.. فهل إلى أدارسك ، وأناظرك في السنن ، وأفاتحك
أمورا من الحق أنا أعلم بها منك ، فلعلك تعرف ما أنت له منكر ،
وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل .. » .

فبدا الخريت كأنما قد استراح للنصيحة ، وقال :

« فإنى غاد عليك غدا .. » .

« أغد ، ولا يستهوينك الشيطان ، ولا يتقحمن بك رأى السوء
ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون .. فوالله أن استرشدتنى
واستنصحتنى وقبلت منى لأهدينك سبيل الرشاد .. »

وافترقا على عدة ولقاء ..

لكنها العدة التى أسلف لها الخلف ، واللقاء الذى سبقه في نفسه
التنكر له والمراوغة فيه .. فما أن عاد الخريت الى قومه حتى كشف
لهم عما أضمر وعزم أمره عليه :

« يا هؤلاء !.. انى قد رايت أن افارق هذا الرجل . وقد فارقت
الآن على أن أرجع اليه من غد ولست أرى الا المفارقة . »

فراجعه في عزمه كثيرون :

« لا تفعل حتى تأتبه . فإن اتاك بأمر تعرفه قبلت منه . وإن
كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه »

فاظهر القبول .

غير أن الغد المرتجى لم تطلع شمسهُ !..

فقد أثر الرجل أن يلتوى بوعدهِ ، ويمضى لعزمهِ ، ويملا الدنيا

دما وشغبا وضغينة .. وإذا كان من الأولى علموا بما سلف من قبوله ذلك اللقاء بضعة صدقته فحسبته قد بات ليلته تلك على نية الوفاء ، فإن بضعة غيرها رابها أمره ، وقر في روعها أنه لا بد ناكث عهده ، وخارج بما أضمر من خلاف وشر على الأمة غدا إن لم يحاول أن يشق وحدتها قبل أن يسفر الصباح ..

من هؤلاء المستريين فيه عبد الله بن قعين ، الذي بادر فسعى ، مع ارتفاع النهار من غد ، إلى الإمام يطالعه بما دار ليلة أمس بين الخريت وأصحابه ، ويكشف عن شكه فيه ..

فكان جواب ما طرحه أن قال على :

« .. ان قبل الحق ورجع عرفنا له ذلك ، وقبلنا منه .. » .

أهاب ابن قعين به ، توقيا وحيطة :

« فلم ، يا أمير المؤمنين ، لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟ .. » .

فرد الإمام :

« .. لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس ، ملأنا السجون منهم . ولا أراى يسعنى الوثوب بالناس ، والحبس لهم ، وعقوبتهم ، حتى يظهروا لى الخلاف .. » .

وعلت الضحوة . وطال الانتظار وصاحب الوعد لا يظهر له خيال ! .. فمال الإمام على عبد الله بن قعين ، يسر إليه :

« إذهب إلى منزل الرجل فاعلم ما فعل ، فإنه قل يوم لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة .. » .

فمضى .. فإذا داره خاوية . وإذا ديار أصحابه ليس بها ديار ! .. أنفذ العاصى إذن ما أراد .

وعند ما عاد عبد الله من وفادته ، لم يمهل الإمام أن ينقل إليه ما عرف . بل بادره لحظة أقبل :

« أفطنوا فأقاموا ، أم جبنوا فظعنوا ؟ .. » .

« بل ظعنوا ! .. » .

فقال وقد ملأ الأسف عينيه :

« أبعدهم الله كما بعدت ثمود ! .. » .

ثم ألقى بنظرة ثاقبة إلى الأفق البعيد ، كأنما ليخترق بها حجابيه ،
وينفذ عليها إلى ما يكنه الزمان المقبل ..
وأضاف :

« .. أما والله لو قد اشرعت لهم الأسنة ، وصبت على هامهم
السيوف ، لقد ندموا ! .. إن الشيطان قد استهواهم واضلهم .
وهو غدا متبرئ منهم ، ومخل عنهم .. » .
كذلك شام . ولسوف يتمخض الزمان عما شام ! ..

٣

قال قائل من أصحاب على ، حين ظهر لهم ما كان خافيا من نية
عصبة الخريت :

« يا أمير المؤمنين .. إنه إن لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم
إيانا لم يعظم فقدهم علينا . فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا
معنا ، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا .. ولكننا نخاف أن
يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقومون عليهم من أهل طاعتك .
فأئذن لي في اتباعهم حتى أردهم .. » .

فاستجاب الإمام :

« فأخرج في آثارهم .. » .

ثم سأله :

« وهل تدري أين توجه القوم ؟ .. » .

قال زياد بن خصفه :

« لا والله . ولكنى اخرج فاسأل واتبع الأثر .. » .
فوجهه :

« اخرج حتى تنزل دير أبى موسى ، ثم لا تبرحه حتى يأتبك امرى ،
فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة ، فإن عمالى
ستكتب إلى بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفين فذلك اخفى لهم ،
وساكتب إلى من حولى من عمالى فيهم .. » .

وسارع فأرسل لكل وال من ولاته على الأقاليم والكور حول
الكوفة ، وما جاورها ، كتابا يقول فيه عن أولئكم الأبهة الجانحين إلى
العصيان :

« .. إن رجالا لنا عندهم تبعة خرجوا هرابا نظنهم خرجوا نحو
بلاد البصرة . فاسأل عنهم أهل بلادك . واجعل عليهم العيون في
كل ناحية من أرضك .. ثم اكتب إلى بما ينتهى إليك عنهم .. » .
وامتثل زياد بن خصفة أمر الإمام ، وما لزم به نفسه .. فدعا
اصحابه ان ينتدبوا معه . فلما أن اجتمع له منهم مائة وثلاثون ، اكتفى
بهم ، وأخذ وإياهم على الطريق ، عبر الجسر ، إلى دير أبى موسى .
ثم انتظر .

أما الخريت فقد تسربل ورفاقه بالليل ، يسلجون من الكوفة خلصة
إلى موقع يأمنون فيه على انفسهم ، ويسمعهم منه ان يبدأوا دعوة
الانتقاض على الدولة ، ويشعلوها نارا مدمرة ، تأكل الأمن والوحدة ،
وتشيع الانقسام والخراب ..

ولم يكد أمرهم ، فيما بدا لهم ، يستتب حتى عملوا بسيرة
الخارجة ، ينشرون الإرهاب بين أيديهم ، ليفتنوا بالرعب من لا يفتنه
شعار جماعتهم المعلوم .. يظهرون آونة ، ويستخفون آونات . وهم ،
بين هذا وذاك ، لا يعدمون ناصرا يلحق بهم ، ويمضى وإياهم في رحلة
الشؤم ، من كل ناظم وجاهل وعدو للدين ..
في « نقر » التقوا برجلين : مسلم ويهودى فقطعوا عليهما
الطريق ..

سألوا الأول :

« أمسلم أنت أم كافر ؟ .. » .

« مسلم .. » .

« فما تقول في علي ؟ .. » .

« سيد البشر .. » .

فشاروا به :

« كفرت يا عدو الله ! .. » .

ومزقوه بالسيوف .

وسألوا الآخر :

« ما دينك ؟ .. » .

« يهودى » .

فتركوه ، وبعضهم لبعض يقول :

« خلوه .. فلا سبيل لكم عليه .. » .

ولعله ليس بآخر دم سفكوه ، ولا طريق قطعوه ..

وفي المدائن نزلوا يزيحون . فأقاموا بها يوما وليلة على أمان .
جموا . وعلقت خيلهم . وتذاكروا الوجهة التي يممون ..

لكن العيون التي بثها الولاة والعمال كانت لهم بالمرصاد ، فما لبث
أمرهم أن انكشف ، وبعث بنبتهم إلى الإمام ، عامله قرظة بن كعب ،
في كتاب يقول فيه :

« .. فإنني أخبر أمير المؤمنين ، أن خيلا مرت من قبل الكوفة ،
متوجهة إلى نقر . وأن .. » .

فبادر الإمام يرسل لزياد :

« .. وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية من قرى السواد ، فاتبع .

آثارهم ، وسل عنهم .. فإذا انت لحقت بهم فأرددهم إلى . فإن أبوا
فناجزهم ، واستعن بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحق ، وسفكوا
الدم الحرام ، واخافوا السبيل .. » .

ولث وراءهم زياد ، يشم ريحهم ، ويتأثر خطاهم ، من موقعه
بدير أبي موسى ، إلى نفر ، فإلى المدائن حيث وجدهم مجنبن الخيل ،
آنسين للدعة والطمأنينة ، ورجاله عندئذ قد تقطعت أنفاسهم من
السفر الطويل ، وكادوا يذوبون من لغوب !.. فما هو أن دنا منهم
حتى وثبت العصاة جميعا على الأفراس ، وثابت إلى السلاح ..

ولم ير زياد ، في هذا المقام الذي لا رجحان له فيه ، إلا أن يرفق
ويداور ما وسعه أن يفعل ، حماية لنفسه ولمن معه . فسار إلى القوم
على مهل ، كمن لا يخاف منهم غدرا ، ولا يوجس شرا . لعله أن ينال
بالرفق والهوادة ما لا ينال بالعنف والشدة ..

غير أن الخريت عاجل الشقة بينهما أن تضيق ، فصاح به
وبأصحابه :

« يا عميان القلوب والأبصار !.. امع الله وكتابه انتم ، ام مع القوم
الظالمين ؟ .. » .

فرد زياد في هدوء .

« مع الله وكتابه وسنة رسوله ، ومع من الله ورسوله وكتابه أثر
عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تفتنى لأثر الله
عليها .. » .

ثم زار وهو يختم جوابه :

« .. أيها العمى الأبصار ، الصم الأسماع !.. » .

وكأنما أخذت زارته الرجل ، فجنح إلى اللين في الخطاب ..

قال يسأل :

« فأخبرونا ما تريدون ؟ .. » .

عندئذ رأى زياد أن يفارق الحدة ، ويركن إلى الرقة ، لأنها خليفة
بأن تفسح له في الوقت ، وتسعف بالحيلة ..
قال :

« قد ترى ما بنا من النصب واللغوب . والذي جئنا له لا يصلح
فيه الكلام علانية على رءوس أصحابك . ولكن ننزلون وننزل .. » .
مرفع الخريت حاجبه يستفسر ..
واكمل زياد :

« .. ثم نخلو جميعا ، فنذاكر أمرا وننظر فيه .. فإن رأيت
فيما جئنا له حظا لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمرا
أرجو فيه العافية لنا ولك . لم أرده عليك .. » .
ونجحت الحيلة ..

أو هي في الحق كانت فرجة الخلاص لكلا الفريقين من صراع ليس
يأمن أحدهما عقباه على نفسه بهذا المنزل الذي لم يتهيا فيه للقاء ..
فإن هما إلا عدلان .. خيل كخيل ، وسلاح كسلاح ، وجمع كجمع
لا يكاد ينقص فرد أو نحوه من عدد فريق لترجح كفة الآخر ..

وكيفما كانت الدوافع الخفية التي حملت الخريت بن راشد على
الجنوح للسلم في تلك اللحظة ، وإرجاء المناجزة إلى حين ، فإنه لم
يضق بنظرة غريمه ، ولم بنقضها . بل أخذ بها نقطة بدء للمفاوضة
وتبادل الآراء ..

وقال لزياد يوافقه :

« أنزل .. » .

وعاد هو إلى عصيته .

ونزل زياد بصحبه على الماء ، فهم أولى بأن يرتووا من عطش ويجموا
من إرهاق ، ثم يمهّلوا الأذهان قليلا لتتبين معالم الموقف واحتمالاته ،
وما عسى أن يجمعوا الرأي عليه .

ولم تخدع هودة الخريت ، ولا سماحتها البادية ، زيادا عن الحذر الخليق بمحارب متمرس في مثل هذا المقام . فما كاد يرى أصحابه قد علقوا على خيولهم مخاليتها ، وأنسوا للدعة يتفرقون هنا وهناك في غير مبالاة ، أو يتحلقون حلقات عشرة عشرة ، وسبعة سبعة ، وعددا عددا يتلهون بالحديث ، حتى أقبل عليهم في عجلة ، ينكر عليهم ما يفعلون ، ويزجرهم :

« سبحان الله !.. انتم أصحاب حرب !.. » .

فانتبهوا له من غفلتهم يصفون ..

ومضى يتابع لومه :

« .. والله لو أن هؤلاء جاءوكم الساعة وانتم على هذه الحالة ما أرادوا من غرتكم افضل من أعمالكم التي أنتم عليها !.. عجلوا !.. قوموا إلى خيولكم !.. » .

فاندفعوا على الأثر وما أشار ، يعدون أنفسهم فيحسنون الإعداد لكل مباغته قد تخطر بالبال ..

وقال لهم وقد غدوا على أهبة وانتباه :

« يا هؤلاء .. إنا قد لقينا العدو . وإن القوم لفي عدتكم .. لقد حذرتهم ، وما أظن أحد الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر .. وإنى أرى أمرهم وأمرهم سيصير إلى القتال . فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجز الفريقين .. » .

ثملقى إليهم بخطته :

« لياخذ كل منكم بعنان فرسه . فإذا دنوت منهم وكلمت صاحبهم ، فإن تابعتني على ما أريد .. وإلا فإذا دعوتكم فاستعدوا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معا غير متفرقين .. » .

وما نحسب الخريت كان ينتظر هذه النتيجة حين أباح زيادا وأصحابه النزول فأباحهم به الجمام بعد التعب ، والرى بعد العطش ، والشبع بعد الجوع ، والأهبة للقتال بعد اضطراب النظام .. إنما

كان ، فيما يلوح ، يظهر الهوادة ليأمنوا له ، والمسألة ليغفلوا عنه ثم يتحين منهم غرة فإذا هم صرعى تحت الأقدام !.. لكن ابن خصفة كان اعتى من المخاتلة والخداع ، فقوت عليه غرضه . حتى لقد راح المارقون العصاة يتلاومون لأنهم ضيعوا من أيديهم نصرا ما كان أسهل عليهم ان يجتازوه ..

قال بعضهم لبعض :

« جاءكم القوم وهم كالتون معيون ، وأنتم جامون مريحون .. فتركتموهم حتى نزلوا ، فأكلوا وشربوا وأراحوا دوابهم . هذا والله سوء الراى !.. » .

فرصة ولت ، ما لها ان تعود ..

ونادى زياد الخريت :

« اعتزل ننظر في أمرنا .. » .

فخرج في خمسة نفر من صحبه ، وخرج زياد في مثلهم ..

والتقى الوفدان ..

استهل زياد بن حصيفة الحديث :

« ما الذى نفمت على أمير المؤمنين وعلينا . حى فارقتنا ؟ .. »

اجاب الخريت :

« لم ارض صاحبكم إماما ، ولم ارض سيرتكم سيرة .. فرايت
أن اعزل ، وأكون مع من يدعو إلى السورى .. »

فهو إذن لا ينقم للمأرب خاص . ولا لخطا ذاتى فى مسلك للإمام
أو لأصحابه يزرى عليهم به . ويمكن بمداواته أن يعود إلى حظيرة
الولاء .. إنما قد خرج عليهم لمبدأ يناقض السياسة العامة ، ولا سبيل
إلى تحقيقه إلا باجتثاث خلافة على من الأساس ..

السورى ! ..

رأى لا يحتمل الجدل . ولا تفنى فيه المناقشة بين الرجلين وإن
طالت دهرًا ، لأنه لا التفاء بين نقيض ونقيض .. وهو الرأى الذى
تستر به معاوية من قبل ليدرا عن نفسه تهمة التمرد . ونادى به
عمرو وأبو موسى ابان مفاوضات التحكيم ، واتخذ كل ناظم على
الإمام ، حاسد له ، موتور منه ذريعة للطعن فيه ، ونالبا للعامة عليه ،
عندما أعوزتهم الوسائل ، وأعبتهم معها حيل السياسة ، وضربات
الحرب ، للفضاء على حكمه الذى قام برغبة الشعب فى كل الامصار ..

وأصغى زياد للمتمرد الجديد :

« فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضا ،

كنت مع الناس .. »

أفلم يكن امس مع الناس ، وقد نذر سيفه ونفسه للدفاع عن
الإمام ، ووقف للمناضلة عن بيعته فى وجه كل عاص ومقروح ؟ ..

وسأله زيد في استنكار :

« .. وهل يجتمع الناس على رجل بدانى عليا ، علما بالله وبكتابه

وسنة رسوله ، مع قرابته وسابفته في الإسلام ! .. »

فما عدل عن موقفه ، ولا أبدى ما لعله سمع عن عدول ، أصر في
مكابرة وعناد . ضاف بهما مجال التفاهم ، وانقطع الرجاء في الالتقاء
على حل جامع ، أو على آخر يقع من الجانبين في منتصف الطريق ! ..
ونسب القتال .

علت ناره . وتلهب سعيره . حتى لقد اختلط الفريقان اختلاطا
تسديدا اصطكت خلاله الهام بالهام ، والتصقت الأجسام بالأجسام .
وتقطعت الرماح ، وانحنت الأسباف . وعقرت عامة خيل الجيوشين .
وفشت في المقاتلة الجراح .. فلولا أن حاجز بينهم ستار الليل ،
واجن بعضهم عن بعضهم سواده ، لتهدم الصبح ، إلا الأقبين ،
صرعى وأشلأ ..

غير أن النهار لم يسفر عن أرض الواقعة ، بثرى المدائن . وبها
الخراب .. فقد التف العاص وعصبته بالظلمة . وأولجوا مرة أخرى
يسرون ، على مضض الإعياء ، بعيدا بعيدا إلى جنة جديدة يلحقون بها
الجراح ..

وكانت جنتهم الأهواز . فما يجد الخريت خيرا منها مسرحا لدعوته
وإن أهلها لتسهل فتنهم ، لكثرة فارسية بها كفار وبها من لم يقر
في قلوبهم للإسلام قرار ، وفي جيرتها كذلك أعراب ندين منهم طائفة
بمبدئه ، ولا يشق عليه ، مع جلالة بقيتهم وغلظة قلوبهم ، أن يلوهم
كما يشاء ..

وانتأى الرجل بصحبه جانبا من الأهواز مستخفين . فلما
استعزوا بمائتين من أقرانهم بالكوفة جاءوهم مددا ، راح يدور بدعوته
بين أهل تلك النواحي ، يستميلهم بما يعطفهم . فما لبث إلا قليلا
حتى لحقت به كثرة العلوج والأكراد . وفئة ضخمة من اللصوص
وقاطعي الطريق . وأخرى من الأعراب الذين يدعون بدعواه . واجتمع

له بهذا الأسلوب خلق كثير من الأولى راوا في حركته سبيلا إلى ضرب الدين ، وكسر الخراج ، وتحطيم الحكم القائم ، والتحلل من قيود القانون ..

وبلغ الإمام - من كتاب لزياد - ما وقع ، فدعا إليه معقل بن قيس ، وندب معه ألفين من الكوفة :

« تجهز يا معقل .. » .

ثم كتب إلى عامله على البصرة ، عبد الله بن عباس :

« .. فأبعث رجلا من قبلك ، صلبا شجاعا ، معروفا بالصلاح ، في ألفى رجل من أهل البصرة ، فليتبّع معقل بن قيس .. فإذا خرج من البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقي معقلا . فإذا لقيه فمعقل أمير الفريقين .. ومر زياد بن خصفة فليقبل علينا ، فنعم المرء زياد ، ونعم القبيل قبيله ! .. » .

ولم يفت الإمام أن أمير جيشه متوجه إلى بلاد خليفة بالأحسن استقباله ، ولا تخف إلى عونه لكثرة ما بها من غير أهل الإسلام ، فأراد أن يكف من غربه ، ويهدئ من فورة حماسه حتى لا يدفعه تشككه فيهم إلى الغلو في معاملتهم بما قد يميل به إلى التحيف ..

فأوصاه :

« يا معقل بن قيس ! .. لا تبغ على أهل القبلة . ولا تظلم أهل الدمة . ولا تتكبر .. » .

فأذعن وأمن :

« الله المستعان .. » .

« خير مستعان .. » .

وخرج القائد بجيشه يقطع القفار والعمار حتى نزل به الأهواز ، فعسكر حيناً ينتظر بعث البصرة .. فلما أن أبطأ عليه ، نهض بمن معه من مقاتلته يأخذ سبيله إلى المعركة المنتظرة حيثما توجهه الأرصاد ..

وقال يطمئن رجاله :

« .. ليس بنا بحمد الله قلة ، ولا وحشة إلى الناس .. » .

وانطلقوا ..

فما مضى بهم يوم أو بعضه في سيرهم ذاك ، حتى أقبل عليهم من جانب البصرة رسول بكتاب من عاملها ابن عباس ، يقول فيه :

« .. لا تبرحن من المكان الذي ينتهى إليك رسولى وانت فيه ، حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك . فقد وجهت إليك خالد ابن معدان .. » .

وأقبل خالد بفرقة بعد قليل . فالتأم الجيشان في عسكر واحد ، يقصد إلى عصابة الخريت يتعقبها . فإذا هى قد انفلتت من الأرض السهلة ، تحاول الرقى في المرتفعات بجبال رامهرمز ، نحو قلعة حصينة رأت أنها خير ما يحتفظ عليها شوكتها ، ويعزها عن المطاردين ..

غير أن خبر الهرب لم يخف طويلا عن جيش التأديب .. فما أسرع ما دله عليهم أهل الإقليم . وما أسرع ما أدركهم جنود معقل وهم بعد عند سفح الجبل لا تزال خطاهم تتقلع وهى تتدافع بهم إلى الارتقاء .. حتى إذا تراءى الجمعان ، ولم يعد معدى عن اللقاء ، بادر معقل فنظم قواته . ثم مشى بينهم يحرضهم على الجهاد والصبر عند اللقاء وهو لا ينسى في تذكيرهم واجب الجندي في الميدان ، أن يدعوهم إلى التمسك بتقاليد القتال الشريف ..

قال يحذرهم :

« عباد الله .. لا تبدأوا القوم حتى يبدأوكم .. » .

فتلك سنة سننها أمير المؤمنين ، ولزمها في كل حرب وإن كانت السنة عند ذاك الغدر في الحروب ..

ثم أردف يقول :

« .. غضوا الأبصار ، وأقلوا الكلام .. وأبشروا في قتالهم بالأجر

العظيم وإنما نقائلون مارقة مرقت ، وعلوجا منعوا الخراج ، ولصوصا
وأكرادا .. » .

وكانت عينه قد رمت بنظراتها إلى من حياله ، فإذا هو بهم وقد منطلق
الخریت بمن معه من العرب في الميمنة ، وصف الأكراد وعلوج العجم
في الميسرة ، وبدا منه ما يشئ بالتشرع للانقضاض ..

عندئذ وتب معقل إلى قلب جيشه ، وسط الصف ، وصاح برجاله :
« ما تنتظرون ! .. » .

ومر بهم يفقد النظام ، وهو يلقي بمره :

« .. إذا حملت فسدوا .. » .

قالتفت عليه الابصار ترى ما يفعل وما يشير .. اما هو ، فقد
حرك رأسه يمنة ، ثم حركها يسرة ، كأنما يومئ لجناحيه أن يكونا
على أهبة .. ثم أنصب على الأثر بحمل على الأعداء فإذا جيشه كله
وراءه يحمل حملته . ويضرب ضربة واحدة ، كأنما عن يد واحدة ،
بسيف واحد ، حتى لقد أوشك مناجزوه أن يذهلوا عن انفسهم ،
وتشلهم سرعة المفاجأة أن ينهضوا بما يكافئ الهجوم ..

فإن هي إلا ساعة أو نحوها حتى شاعت المقتلة ، سابحة على
الذعر ، في جيوش الفاوين .. فقتل من بنى ناجية والأعراب سبعون .
ومن الأكراد وعلوج العجم ثلاثمائة تمزقت بهم الصفوف وتهافت
المقاومة ، ولم يبق بعدهم للخریت ومن نجا من عصابته غير الفرار ..

مروا . وامنوا . حسبما استطاعت أن تحملهم الأقدام . وحيثما
يسع القلوب أن تثوب .. ولم يكن لهم أن يقرؤا بجيرة ترتد منها
الأخبار أو تبلغها العيون ، فآثروا اللياذ بأبعد منأى ما كان أحراهم
بأن يجاوزوه لولا أن حال دونهم اليم ، فضربوا خيامهم على الماء ..

عسكروا في البحرين ، بأبعد بقعة تطولها يد الطراد ، بعد أن
تقطعت أنفاسهم على أرض فارس ، من الشمال للجنوب ..

وكتب معقل إلى الإمام :

« .. لقينا المارقين وقد استظهروا علينا بالمشركين ، فقتلنا منهم
ناسا كثيرا . ولم نعد فيهم سيرتك . فلم تقتل منهم مدبرا ولا أسيرا ،
ولم نذفف على جريح . وقد نصرك الله والمسلمين .. » .

وفرىء الخبر في الكوفة على الناس ، ليثيروا ..

فاجمعوا الراى :

« يا أمير المؤمنين .. نرى ان نكتب إلى معقل ، يتبع آثارهم ،
ولا يزل في طلبهم حتى يقتلهم او ينفيهم من ارض الإسلام .. » .

فأنفذ ما راوا على الأثر . فما كان ليमطل قط بشورى الأمة ،
ولا ليستبد دونها برأيه ..

وبعث إلى معقل ، يأمره :

« .. أحسنتم البلاء ، وفضيتم ما عليكم . فاسأل عن أخى بنى
ناجية ، فإن بلغك انه استقر في بلد من البلدان فسر إليه حتى تقتله ،
أو تنفيه .. » .

مرة أخرى عادت المطاردة تشتد بين الفريقين ، تباريا على طى الأرض ، وقطع الرمن ، إلى غاية تسود فيها إحدى الطائفتين ، فإما قرار وإما تغيير ..

قراءة عامين كاملين ، بعد صفين ، وغب التحكيم ، طارد النظام التمرد ، على رقعة الأرض الممتدة من حاضرة الدولة عند شط الفرات إلى سيف البحر عند الخليج ، يعاقبان تعاقب الليل والنهار ، ويتتابعان كفرمى رهان .. وكلما أوشك الفلج أن يقع في سهم الدولة ، سارع العصيان فنقض غبرة الهزيمة ، واستوى على سوقه .. ثم لقف انقاسه ، ونظم صفوفه ، وراح يبعث الصراع من جديد ..

إصرار مريد ، وعناد صارم ، وعزم متشبث من جانب الفئة الخارجة ، لو أنها انفقت في رفع راية الدين ، وإعلاء كلمة المسلمين ، لذهبت ، على مدى العصر ، مثلا في التمسك بالمبدأ لا يطاوله شبيه ولا يعلوه قرين .. ولكنها انفقت في نزوة انجبتها جهالة حمقة ضالة ، وعصبية آئمة عمياء كطلع خبيث !..

فللصلف والهوى والخيانة كانت دعوة الخريت . ولوجه الشيطان لا لوجه الله .. وها هو الآن يسفر عن خبيثة ضميره ، فإذا هو ينقض بفعله كل ما ادعاه وتنادى به بين الناس من دفاعه عن الحق ، وغضبه للكتاب ، لينصر الكافر والأبق والضليل على كلمة الحق وشريعة الكتاب ..

ليس امره إذن امر من يعمل لمبدأ ، ويجهد لفرسه في الصدور ، وتطبيقه في الحياة ، بمنطق اللسان ومقطع السنان .. وكيف يكون ، وإنه ليحالف - ليبلغ وطره من امرة الإمام - زمرة فاسقة تعيش في رحاب الشيطان !..

وكان امرا ذا خديعة ومكر . تستوى عنده الوسائل ، شريفها وخسيسها ، ما دامت تحقق له غرضه .. وما له اليوم من مقصد إلا نفسه التي غدت لعبة في ابدى مطاردية لن تلبث اصابعهم ان تتقبض عليها وتعتصرها بعد ان تحلقوه ، وأوشكوا ان يطبقوا عليه ..
فاستعان خبثه ..

مضى إلى الخوارج ممن حوله ، يرفع شعارهم ، ويؤكد لهم سلامة ما يعتنقون ..
لا حكم إلا لله ! ..
وقال لهم :

« إني أرى رأيكم .. إن عليا ما كان ينبغي له أن يحكم الرجال في دين الله .. »
وذهب للعثمانية ، الذين تقموا على الإمام حين وهموا أن عليه دم عثمان ..

تباكى لدعواهم ، وقال :

« أنا على رأيكم .. لقد قتل عثمان مظلوما معقولا .. »

وانثنى لمن منعوا الصدقات يزين لهم فعلهم إذ ثلموا ذلك الثلم في الإسلام ، ويحثهم ان يظلوا عليه :

« شدوا أيديكم على صدقاتكم ، تم صلوا بها أرحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم .. »

وعندما علم بارتداد كثيرين عن الإسلام إلى النصرانية التي فارقوها من قبل ، لم يحاول أن ينهاهم ، ولا أن يردهم عما وقعوا فيه .. بل اتخذ من ارتدادهم وسيلة لربطهم به ، وانتصارهم له ..
أسرع يدعوهم إلى الثبات على ردتهم :

« اتدرون ما حكم على فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟ .. لا والله لا يسمع له قولا ، ولا يرى له عذرا ، ولا يقبل

منه نوبة . ولا بدعوه إليها . . وإن حكمه فيه أن يضرب عنقه ساعة
بسممكن منه . . ولن ينجيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ،
وفتالهم . . . »

وكذلك فعل بعروج العجم . وناقمة الأكراد . ومن إليهم من انصار
العنصرية ، وأعداء الدين ، وإنهم لأدنى من سواهم إلى الانضمام لكل
حركة نبغى هدم الإسلام . .

دعوة ظالمة . وأسلوب أظلم : نهج الرجل الذي ليس ثوب
الإصلاح ، ليبدو للناس وهو السائر على الضلال . المدافع عن الحق ،
الغاضب بكتاب الله . .

لكن الرياء شفاف . والخبث كسبح . وخداع الناس كلهم محار ،
قصير عمره وإن طال . .
. . وأطلت النهاية ! . .

فلم نكد معقل يبلغ البحرين . حتى بادر - قبل أن ينهر سيفاً
في وجه ذلك الخائن وعصبته - إلى إذاعة بيان من الإمام ، على أهل
الإقليم بقول لهم فيه :

« من عبد الله على امر المؤمنين

إلى من قرىء عليه كتابي هذا من المسلمين والمؤمنين . والمارقين
والنصارى والمرندين .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد . فإني أدعوكم إلى كتاب الله . وسنة نبيه . . .

فمن رجع منكم إلى رحله ، وكف بده ، واعتزل هذا المارق المهالك
المحارب . . فله الأمان على ماله ودمه .

ومن تابعه على حرنا ، والخروج من طاعتنا . . استعنا بالله
عليه . . . »

واتبع معقل إذاعة البيان على الناس ، براية أمان نصبها لهم على

أعين الخريت والذين لاذوا بشرذمته .. حتى إذا تطلعت إليها الخواطر،
وتعنت بها الأنظار ، انطلق بنادى على الملائ الحاشد ، وبعاد نداءه
مرات ومرات :

« من أتى هذه الرأنة فهو آمن - إلا الخريت وأصحابه الذين
نابذوا أول مرة .. » .

وفعل النداء فعله على الأثر . فكانما كسفة من سحب ثقيل بددنها
الريح . أو كأنما جدار وانهار كأنب جموع الخريت !..

الزحام حول المارق برق . الصعوف تتخلخل . الحشود تنجاب ..
ليبدو الخائر عاريا مكسوفاً بموقعه إلا من جنة واهية من عصابه
كنسيج عنكبوت . أو كدبجة رثة غزتها الخروق !..

دقائق ولحظات من عمر قلقه طالت عليه كالأيام وهو يشهد الناس
يتفرقون عنه . ينقطعون من شرذمته فرادى فرادى . وجماعات جماعات
لينفضوا عنه . ويهرعون ، خيلاً ورجلاً ، إلى موقع الراية البيضاء كأنما
بطيرون بجناح .. فإن هى إلا سويعة حتى غدا الخريت وما بجانبه
من جيشه الكثيف إلا شوية قومه الذين لا يملكون تنائباً عنه بعد أن
صدهم عن التناثى النداء !..

وتلفت فيمن بقوا إلى جواره كالمضييع . قد نقل قلبه . وغامت
عينه ، واهتز لسانه يحاول أن يثبت في نفوسهم ما افتقرت نفسه إليه
من ثبات :

« .. إمنعوا اليوم خريعتكم !.. قاتلوا عن نساتكم وأولادكم !.. » .

فتلاغظ عليه أصحابه ، حيرة وندما . وصاح به منهم عاذل ناظم
يلوم :

« هذا والله ما جرته علينا يدك .. ولسانك .. » .

لحما استطاع إلا أن يقول بلهجة اليائس المحسور :

« سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ !.. قَاتِلُوا !.. فَوَاللَّهِ لَنْ ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ
لِيَقْتُلْنَكُمْ وَلِيَسْبِيْنَكُمْ .. » .

وكان لا بد لامره ان يصير إلى ما خشى ان يكون ..

فسرعان ما نهض له معقل برجاله ..

بدا فحرضهم ، والإيمان دليله ، والثقة ملء قلبه ، والسلاح في
الأكف على اهبة التبارى إلى الرقاب !..

« أيها الناس .. أما تدرّون ما سيق إليكم في هذا الموقف من
الأجر العظيم ؟ .. إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن
الإسلام ، وتكثروا البيعة ظلما وعدوانا .. وإني شهيد لمن قتل منكم
بالجنة . ولمن عاش بأن الله يقر عينه بالفتح والغنيمة .. » .

وسرح ميمنته ، دون بقية الجيش ، تقاتل أعداءه ..

ثم ردها وسرح إليهم مبسرتة ..

حتى إذا رأى قتال جناحيه قد نال من القوم ، مع ما بدا منهم من
صبر وعناد ، وأيقن أنه قد أوهنهم ، وثب على فرسه يحمل بكل جمعه ..

فإن هي إلا ساعة واحدة ثم اتهارت مقاومة الباغيين .. هلك صاحبهم
بضربة سيف من النعمان بن صهبان .. وتناثر كثيرون حوله على الثرى
قتلى وجرحى ، تناثر الورق الذابل من اعواده في عنقوان الخريف ..
وتفرقت بقيتهم يمنية ويسرة بعيدا عن الحلبة كقطيع شرده الذعر ، يفرون
من مناجل الموت إلى حبال الأسر ..

وعندما تظهرت الأرض من هذه الفتنة ، وسبق سبى المعركة إلى
الكوفة ، حلا لمصقلة بن هبيرة أن يشرف بمنه على الأسرى . فما بلغ
هذا به إلا أن أضاف لصورة التنكر لمبادئ الدين وقيم الأخلاق التي
رسمها الخريت !!.. أضاف خيانة الأمانة إلى خيانة العهد . والغرار
من الوفاء إلى الغدر . والخوف من الحق إلى حربه . والانتقاص
خشية وطمعا إلى الانتقاص عنوة بالسلاح ..

وأبدل الستار بعد عامين على محنة مما امتحن به عهد على ،
فإذا هي محنة خلقية قبل أن تكون محنة سياسية . وشرح غائر في
جدار الإسلام قبل أن يكون شرخا في إمرة الإمام !..

تم بحمد الله الجزء السابع
ويليه الجزء الثامن والآخر

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء الثامن

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة الفرقان
بيروت

الفصل الأول

لم ير إلا أن يغير إهابه . . .

فما مضى إلى اليوم من كفاحه ، استقبال الأمر بكل طاقته . بكل صبره . بكل
دهائه . بكل قوة مادية لديه ، وكل قدرة ذهنية فيه . . .

حشد الجند صفا صفا ، كأنهم قطعة من الليل الأسعم . . .

جمع السلاح مشرعا حوله كشيفاً ، كشيفاً كأنه غاب . . .

بنى الأحقاد والمواجد قلاعاً حصينة . . .

نصب المال كحائض وحبائل . . .

سير الخديعة طليعة . . .

ومع ذلك فقد قصر همه وعجزت همته عن الثبات الغريه في ميدان .

فما طلى بمن يتوء بالحيل . أو يبالى السلاح والرجال ، أو يزحزحه كل ذلك
الإعداد والتشريع عن الحق الذي نهض فيه ، لأن إيمانه أعصى على الكتاب
الكتبية ، وشجاعته فوق طاقة الحشود . . .

لقد خبره . فإذا الأسلحة تدبو عنه . وإذا للوت يفر منه . وإذا للعارف التي
يمخوضها لا تسكاد تزيد عنده عن لعبة لاعب يتلهى بها في ساعة فراغ . . .

كذلك علمه . . .

في البصرة إبان الجمل . في لقاءهما الضروس بصفين . في حلة الخارجة
بالتحروان . . . هنالك علمه . وقيل ذلك علمه . وإن علمه لما لا ينسى ، يضيق به
صدره ، ويتعشرج نفسه ، ويكبو لونه ، ثم يتقطع قلبه لذكره حسرة على أيام
لا تزال غضة كاد فيها يلس حمله بسلطان الإسلام لولا أن أحاله غريمه إلى
كابوس . . . وعلل أيام قبضها توارت خلف الأعوام وترد فيها ابن أبي طالب
في صفوة أهله ، وطرحهم على الثرى الذي بدتهم ، فزالس سبة لعقبان

والفسور حتى احتوهم القليب .. وهل له أن ينسى محنة عثمان ، وفتنه طلحة والزبير ، ومهزلة التحكيم ، وكلها كانت خليفة بأن تدلى إليه بالإمرة بغير جهد أو مجهود قليل لولا اضطبار ذلك الغريم ، وثباته حيث كان لا يريم ؟ .. أم له أن ينسى « بدرآ الكبرى » وفيها جندل على وحيدده نصف المشركين ومنهم حنظلة ابن أبي سفيان أخوه ، والوليد بن عقبة خاله ، وعقبة جده ، أو عديبة عمه ، وآخرون غيرهم من أمائل ذويه ؟ ..

ما نسي معاوية . وما كان يسمعه النسيان لو أنه أراد .. حتى بعد أن حالته دنياه ، وخلصت الإمرة إليه ، وذهب خصمه إلى ربه ، كان يؤوب كثيرا — حتف رغبته — إلى سيرة على يستثير بها جلساءه أن يحدثوه عن هيئته عسى أن يحرك على بعض خلاصاء على الندم والمواجد ، أو يذكر هو — حمزا لأوليائه — بعض مناقبه وفيها شجاعته التي ذلت لها شجاعة الشجعان ، وهالت مرده الوغى وأبطال القتال والنزال ..

يوما ما ، وابن أبي سفيان في عنقوان سلطانه ، انتبه من غفوة أخذته أو من شرود ، فإذا ابن الزبير عند قدميه ، فأجفل واعتدل يلقى إلى الضيف باله ..

وابتسم عبد الله بن الزبير لحركته ، وقال يداعبه :

« يا أمير المؤمنين .. لو شئت أن أفتك بك لفعلت .. » .

فأسرع يرد الدعابة :

« لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر . . . » .

قال عبد الله وفي صوته اعتزاز وزهو :

« وما الذي تنسكركه من شجاعتي وقد وقفت في الصف إزاء على بن أبي

طالب . . . » .

عندئذ ضحك معاوية ، ولم يملك إلا أن يجيب وهو يسخر :

« لا جرم ! .. إنه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيت عنه فارغة ، يطلب من يقتله بها ! .. » .

ويوما آخر ، رأى أن يعاين قيس بن سعد في سيرة الإمام ، وهو من كان من الولاء له حيث كان ، فقال له كأنما يستعجيش غضبه :

« رحم الله أبا حسن ! .. لقد كان هشا بشا ذا فكاكة . . » .

فما جله قيس ، منكرًا عليه تعريضه :

« نعم ، وقد كان رسول الله يمزح ويتدم لأصحابه ! .. وإني أراك تسرحسوا في ارتقاء وتعييب ذلك . أما والله لقد كان مع تلك الفكاكة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى .. تلك هية التقوى ، وليس كما يهابك طعام أهل الشام ! .. » .

أفكان إذن لينسى ؟ ..

بل لا ! .. ماله إلى لقائه سبيل . جيشه لن يغنى عنه . وسلاحه . وكيدته واثماره . . حق قدماء ، لو أراد الثبات ، لن تطاوعاه ! .. والقتال المكشوف في حرب تقابل فيها الصفوف الصفوف ، ضرب من التهلكة ، ونقط من الناجزة وبيل عليه . .

فليس إلا أن يغير إهابه ! ..

وتبين العاهل الأموي نهجا جديدا من الحرب أجدى عليه ، وأذن إلى تحقيق غايته ، حين عرف ، بعد مهزلة التحكيم ، أن الإمام تحمل مقبلا عليه .

عندئذ هاله الأمر ، فخرج في البدء من دمشق معسكرا ، وبعث إلى كور الشام يستصرخ ويستغيث . .

كتب إلى عماله :

« .. إنا كنا كتبنا كتابا بيننا وبين طي ، شرطنا فيه شروطا ، وحكنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه . . وإن حكى ابنتي ،

وإن حكمه خالعه . . . وقد أقبل إليكم ظالماً . . . فتجهزوا للحرب بأحسن الجهار ... »

وجمع رجاله يشاورهم . وهو يذكر آخر الأنبياء :

« . . . قد خرج من الكوفة . وعهد العاهد به أنه فارق النخيلة . . »

قال حبيب بن مسلمة ، يشير عليه بالسير إلى صفين :

« أرى أن نخرج حتى نزل منزلنا الذي كنا فيه ، فإنه منزل مبارك ، وقد منعنا الله به ، وأعطانا من عدونا فيه النصف . . »

ورأى له ابن العاص أن يعضى بجيشه إلى ما وراء ذلك مما في حوزة الإمام من تخوم :

« . . تسير بالجنود حتى توغلها في سلطانهم من أرض الجزيرة ، فإن ذلك أقوى لجندك ، وأذل لأهل حربك . . »

وتردد معاوية في القبول :

« والله إني لأعرف أن الذي تقول كما تقول . ولكن الناس لا يطيعون ذلك ... »

وهون عليه عمرو ما يخشى :

« إنها أرض رقيقة ... »

لكنه أبى :

« إن جهد الناس أن يبلغوا منزلهم الذي كانوا به ... »

ولم يجمعوا كلمتهم . فتريث معاوية لا يقطع برأى بضعة أيام ، قلبوا خلالها الأمر ، يتدارسون النازل والوجهات ، ويعايدون الاحتمالات ، حتى لقد ذهب بهم أحاديثهم كل مذهب إلا موقعا لعسكرهم يصلح به اللقاء . فلما أوشكوا أن يعيوا حيلة ، جاءهم نبأ لم يكن في حساب ! ...

قدمت عيونهم عليه بمخرج الحارثة ...

هنا تنفس الطمأنينة ا ...

وزف البشرى لرجاله :

« ... إن عليا اختلف عليه أصحابه ، ففارقه منهم فرقة أنكرت أمر
الحكومة ... وقد رجع عنكم إليهم ... »
فكبروا فرحاً بهذا الخلاص .

وبقوا بمحشودهم حيث نزلت ، يتنسمون أخبار الكوفة من حينما جاءت
ريح ، وقد ذهب عنهم الروح ، وامتلاّت قلوبهم سكونة ... وما لهم يخافون
أو يناههم قلق وإنهم ليأملون في فتنة الخوارج أن تصيب عدوهم بما قد يفعل يده ،
ويقل غربه ، ويشغله عن الزحف إليهم بمستقرهم ولو إلى حين ؟ ...

ثم زادوا سكونة على سكونة بوقعة النهروان . ثم طربوا وهللوا بتفرق كلمة
الكوفة . ثم علوا سرورا بعودها عن الير ...

عندئذ استأسد الكلب ، واستنسر الغراب ا ...

أسرع معاوية فأعد قرابة أربعة آلاف مقاتل ، دفع برايتهم إلى الضحاك
ابن قيس الفهري ، وألقى إليه بأمره :

« سرحتي تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت . فمن وجدته من
الأعراب في طاعة على فأغر عليه . وإن وجدت له مساحة فأغر عليها ... »

ثم عقب يمين له :

« وإذا أصبحت في بلدة فأمس بأخرى . ولا تقيمن لحيل بلغك أنها قد
سرحت إليك لتلقاها وتقاتلها ... »

اضرب واهرب ا ..

كانت هي الخطوة الجديدة ...

سرح الضعفاك بن قيس آلافة ... هبط بهم من الشام على طريق مكة ،
لا يرى في سيره أخا سفر إلا ناله بعدوان ، تنفيذا لأمر صاحب مصيره ...

لم يسلم منه عرب البادية — من ضارب وظاعن — ينزلون على مواطن
الكلاء بسائعتهم ، أو يشدون نحوها الرجال ... ولم يسلم منه آمو البيت الحرام
من حبيج نشطوا لإقامة شعائر الله ... ولم يسلم منه كمي مسلح أو أعزل عاطل ،
جماعة أو فرد . شيخ أو شاب . صاحب منزل أو عابر سبيل ...

كان يقدم الهلكة بين يديه . ويبذر الدمار تحت قدميه ... الدم وحده لم
يكن إربته لأنه لا يكاد يشفى نهمه ... بل الخراب أيضا ، قتلا للأتفس ، ونهب
للمال ، وعصفا بالمتاع والثقل كمصف بالأموال والرجال ... وكلما جنى وحصد ،
زاد في الجنى والحصاد . وكلما طوى من الأرض مرحلة ، طوى معها صحيفة أمن
وصحائف آجال ١ ...

ولم يره شيء في تقدمه ولا ريبة لإنسان فيه ... فما هذه التي يشنها على العزل
الأمنة بحرب ، كما ألف الناس قبل حملته الضارية ، وعهدهم بالحروب
أن تعلن ، وبالصقوف أن تتراس ، وبالرايات أن تتحقق ، نذرا وشواهد بيده
القتال ... إنما كان يعضى لوجهه على استخفاء . أو يكن على تربص ، أو بهجم
بغتة كأنه قاطع طريق ...

حرب ولا إعلان . وحمل ولا إعدار . وقتل ولا قتال . بل اعتداء غادر
جبان يمزق فينهض حين الغرة ، ويذل فيقر قبل اللقاء ١ ...

تلك سرعة شرعها الرجل ، بأمر صاحبه العاهل ، ليس لها قبل هذا نظير ...
إن هي وضعت في ضوء الدين فهي عدوان ظالم . أو هي قبيحت بقياس الأخلاق
فهي غدر خسيس . أو هي وزنت بعرف العهد فهي خروج شاذ ... وهل غاب
عنه ما اصطلاح قومه عليه آنذاك وأقروا من آداب القتال ؟ ...

ما غاب هذا عن الضحاك . ولا عن ابن هند . ولا عن الطغمة الألى
شاركوها الإعداد ... فكلا الرجلين عاصر الصديق ، كما عاصر ابن الخطاب .
وكلا الرجلين قد عرف ، بغير شبهة من شك ولا سبيل لئسيان ، ما ألزم به
الخليفتان جيوش الإسلام من قواعد وأصول ، كلما سمعت إلى فتح وخفت لجهاد
في أرض الشرك ، يضيف جديدا إلى رقعة الدولة إعلاء لكلمة الله ...

إن العهد لقريب . وإن المواقف لغضة ، لا تزال ماثلة في الأذهان كأنما تراها
العيون وتسمعها الآذان . .

فها هو أبو بكر يخرج إلى ظاهر المدينة ، يشيع أسامة وجيشه ، ويوصيهم
وهم يهيمون بالزحف على أرض الروم :

« لا تخزنوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا . ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا
صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة .. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا
شجرة مثمرة ... » .

لأنها حرب ، ككل حرب ، تمثل في كلا الفريقين نضالا على المبادئ بين
إنسان وإنسان ، فلا ينبغي لها أن تجور على قواعد الأخلاق العامة أو يضع
في ضوضائها صوت الضمير . .

وها هو عمر بن الخطاب لا يفي بوصى جنوده وقواده ألا يعتدوا ، حين الجهاد
في ساحة الوغى . وأن يراعوا شرف الجندية ، ويحفظوا القيم الإنسانية عند كل
لقاء ، لأن القتال مزيج من الشجاعة والصبر والمروءة مهما اختلفت الأسباب
أو تباين الأعداء :

« .. ولا تجبنوا عند اللقاء .. ولا تمثلوا عند القدرة . ولا تسرفوا عند
الظهور . . ولا تقتلوا هرما ولا وليدا ولا امرأة ... » .

فتنزيه السلاح عن العدوان الآثم لا ينزل بالقوة . والسماحة حين القدرة تمكن
في النصر ، لأنها هي ذاتها طاقة فيه تذود عن الإسفاف ، وتحميه الاعتدال . .
بل قد علموا كذلك كيف كان غريهم ابن أبي طالب ، وهو يحاربهم ، يأخذ
نفسه وجيشه أشد الأخذ بآداب القتال وإن غلوا هم في الحسنة والتعذر والمبادأة

بالعدوان .. وكفى أن قد عدوه يأمر جنده في سفين ، قبل الالتعام ، فيقول :

« .. لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم .. ولا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا معورا ، ولا تجهزوا على جريح .. ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات .. ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . وكان الرجل يتناول المرأة في الجاهلية بالقهر أو الهراوة فيمير بها وعقبه من بعده ! .. »

ثم رأوا أيضا رأى العين ، حينذاك كيف تغف عن قتل ابن العاص أثناء مبارزته ، عندما انكشفت له سوائته ، تأييا على نفسه أن يدنس سيفه بدم غريم قد أخزاه الله ، فبدا منه مثل هذا الهوان ! ..

نعم قد كان هكذا الإمام . يدفع الغضب بالحلم ، والبطش باللين . ويسارع ماوسعه أن يفعل — كرما ومروءة — إلى الهوادة بعدوه ، والتصبر عليه ، احتسابا لله ، وعرفانا بفضلته . . شعاره في هذا كما لعلهم يرقون :

« إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه ! .. »

لكن الضعالك بن قيس ، كسيده معاوية ، لا يقر هذه الفضائل ، ويؤثر أن ينسج عنها إلى أسلوب جديد في تقاليد القتال والحرب ، لأنه هو نفسه ، طراز جديد من المحاربين الشجعان . .

فلا هو ارتقى بسلوكه في الحرب إلى حكم الإسلام ، ولا هو وقف به على عرف الجاهلية . .

إنما مضى ، منذ مخرجه ، يقتل من يشاء ، ويسلب من يشاء ، لا يرضى الله ولا الخلق ولا التقاليد . .

في أول مراحل انطلاقه ، قتل من التقى بهم على مواقع الماء من الرعيان والأعراب ، على حافة الصحراء . ونهب ما لهم .. ثم مضى عن الجرم الذي قارفه فيهم إلى جرم غيره ليصبح نهم نفسه بسفك الدماء . . فلما أن بلغ الثلبية حتى أسرع يقطع الطريق على الحاج ، يغير على جموعهم ووحداتهم ، ماوسعه أن

يتربص ويغير ، فأشاع فيهم القتلة ، وأثخن الجراحة ، وتحمل ما لديهم من متاع .
وقد ظل الرجل على رأيه المرسوم ، ينال بالعنف والإرهاب كل من ساقهم
قدرهم إليه ، وهو يتأرجح في السير ، يأخذ وقتا على شاطئ الفرات ، ثم يندفع
نائيا عن شريحته ، ثم يجحجح بشرفمته يسرة أو يعيل عنة ، ولا يثبت بمكان خشية
أن تعرض له قوة مسلحة قد تنال منه ..

وبلغ بحملته الإرهابية مداها في الإفظاع بالناس إفظاعا لم يصب به وحسب
أوامر الدين ونواهيته ، بل أهدر أيضا الشيم العربية التي تؤمن بالروعة ، وتدين
بالشهامة ، وترى أن تعفف القوى عن أذى غريمه الضعيف هو ذروة القوة لأن
الصفح مع القدرة ليس كالكف عن عجز وقصور .. فعلى أي محمل إذن يحمل
سلوكه وما قتل أو سلب إلا أناسا من المسلمين ، من عرض الناس ، ليس لهم
دور معروف في شئون السياسة يمكن به أن يسلكهم في زمرة عدوه وعدو
عاهل الشام ؟ ..

غير أنه الضعفاك ... وهو طراز جديد من الشجعان الذين يفرهم أي نصر
رخيص ، ويرفع شأنهم أن يدلوا بقوتهم على الضعاف ... فكذلك كل خسيس .
وكذلك ازدهاء ذات يوم أن يمتزجا فعل بحملته ، حتى وقف بعد انتهاء عهد
الإمام ، على منبر الكوفة يفخر بنصره الهزيل ...

صعد عندئذ المنبر ، مباهيا بذلك النصر العجيب الذي أحرزته حملته الغادرة ،
وهو يتهدد الناس بالويل لأن فيهم قوما سمع أنهم يتالون من سيرة ابن عفان ..
خطب فقال :

« ... بلغنى أن رجلا منكم ضللا ، يشتمون أئمة الهدى ، ويعيون أسلافنا
الصالحين . أما والذى ليس له ند ولا شريك ، لأن لم تنتهوا لأضعن فيكم سيف
زياد ... أما وإنى لصاحبكم الذى أغرت على بلادكم ، فكنت أول من غزاها في
الإسلام ... لقد فحرت المخدرات في خدورهن ، وإن كانت المرأة ليكي ابنها
فلا ترهبه ولا تسكنه إلا بذكر اسمي ... أنا الضعفاك ... »

ومع ذلك فقد هرب بآلافه عند أول لقاء ...

هذه نفسه . وذلك قصاره ..

... ومضى الرجل وغارته ، حتى انتهى خبره إلى الإمام ، فجمع الناس ، يدعوهم إلى درء شروره :

« يا أهل الكوفة .. اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عيسى ، وإلى جيوشكم قد أصيب منهم طرف .. اخرجوا فقاتلوا عدوكم ، وامنعوا حريعتكم إن كنتم فاعلين .. »

كان الضحالك عند ذاك قد فارق الثعلبية ، وتوجه إلى القطقطانة وفيها مسلحة لعل عليها عمرو .. فاجأها ، وقتل عمرا ونهر معه ..

وتلكأت كدأبها الكوفة ، فلم تلق بسمعها إلى الدعوة كأنها لا يضيرها الخطر في شيء . أو كأنها الكفاح قد بلغ من هوانه عليهم ألا يكافئ دعة يؤثرونها ، ودما لإخوانهم تلغ فيه الكلاب ! ..

وتصبر الإمام والقوم غافون ، لا يكادون يسمعون من أنفسهم إلا بالوعد بعد الوعد ، وبالتسوية بعد التسوية .. حتى إذا آده التصبر ، عنف بهم في اللقال وأقذع في الخطاب :

« أيها الناس ، المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم ! .. ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ! .. أي دار بعد داركم تمنعون ، ومع أي إمام بعدى تقاتلون ! .. أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم .. فما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ .. ما طبكم ، والقوم رجال أمثالكم ! .. »

فكأنما كان يضرب في حديد بارد ! ..

وعندما أيقن منهم الفشل ، قال في حسرة :

« ... لوددت أن لي بكل ثمانية منكم رجلا منهم ! .. ويحكم ! .. اخرجوا معي ثم فروا عني ما بدالكُم ! .. فوالله ما أكره لقاء ربي على نيق وبصيرتي ، وفي ذلك روح لي عظيم ، وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم ! .. »
وتركهم وهو غاضب ناغم ..

ظل بهم ينفخ في رمادهم الحامد حتى استطاع أن يثر بقبس فيه يمينه على إشعال النار . . . فما كان ليأس . ولا أن ينفخ يديه من أمرهم أطول إعضالهم به ، وعنتهم معه ، لأنه لو فعل لكان لهم شريكا . واضيع حق الأمة التي بوائه إمرتها . ولفتح الباب على مصراعيه للفتنة تقتحم منه على اقلوب النقية البقية الباقية من الدين . .

ولم يكن الطريق إلى الفتنة إلا قصيرا ، فالحق طريقه أطول وأشق ، يكاد يتعثر به سالكه إلا أن يتزود بالإيمان والصبر والقدرة على تحمل الكاره . والباطل طريقه ممد قصير ، لا يشق على الناس ، وتوشك النفس الإنسانية أن تنطلق عليه من هذا الجانب بغير جهد كأنها الراكب ، وكأنه الطية التي تسير . . وكانت الشام منبع الفتنة ، أو هي القبلية التي يولى شطرها وجهه كل مفتون . فالحياة فيها عروض شهوات . والعمل فيها سعى للذات . والبادئ للمحتلة دعوة لطفيان النفس وقمع الروح . . فهي مهوى الأمانى ، وملقى المطامع ، ومناط آمال طالبي الجاه وعبيد المال . .

ولقد طالما استشف الإمام حالها ، وألمم خطرها الذي بهم أن يعم الناس . فإن هو إلا كماء بقية ، إذا زاد فاض ، وإذا فاض ساح ، وإذا ساح كان سيلا يهدر ويشور فلا يعوقه عائق ، ولا يجبسه سد ، وهو ينصب من ممينه انصباب الشلال ليفشر الدمار أينما سار . .

أما السد الذي ما زال يقف حتى اللحظة في وجه السيل أن يعطى فإنه أرض « كوفان » . . أو الكوفة وما حولها من بقاع بقيت إلى اليوم في حوزة حكم تعنو جبهته ، قليلا أو كثيرا ، لله . . فهي في يد الإمام . وهو يحكمها — جاهدا — أن تشتري متاع الدنيا بعز الآخرة ، وزخرف الحياة بعدالة الدين . وهو يستعين قلة من صحبه فيها أن يؤازروه على سحق الفتنة ، وضرب الطغيان . .

وكم حذر ؟ .. وكم حرك فيها الضمائر لتقاوم الخطر المائل ، وتحمي سدها
المانع أن ينهار ..

ففي مرة قال لأهلها ينذرهم ، وكأنا قد ألهمت بصيرته المصير الخوف :
« ... ألا إن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بنى أمية فإنها فتنة عمياء
مظلمة ، عمت خطتها ، وخصت بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ
البلاء من عمى عنها .. وأيم الله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء بعدى .. .
لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم أو غير ضائر بهم . ولا يزال
بلاؤهم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه ، والصاحب
من مستصعبه ... » .

ومرة أخرى قال ، يومئذ إلى معاوية ودوره في الفتنة المنتظرة ، التي توشك
أن تغطي أرضهم بطوفان :

« ... ولكأنى أنظر إلى ضليل ، قد نطق بالشام ، وخص براياته في
ضواحي كوفان .. »

ومرات ومرات قال ..

كلهم أصغى له . وكلهم صدقه . لكن قلة قليلة هي التي قرنت الإصغاء
بالتيقظ ، والتصديق بالمبادرة إلى درء الخطر ، والعمل ما وسعها على قمعه أو وقفه
حيث كان ..

ومن القلة التي أردفت الاستماع بالاعتناع ، والإقبال على الإصغاء بالإقبال على
المقاومة والكفاح : جبر بن عدى ، حين تقاعد غيره عن امتهال أمر الإمام
بتعقب الضعاك .. فلقد وهب صاحب الوفى نفسه لله ، وتقدم لقيادة حملة
التأديب ..

وعقد الإمام له على أربعة آلاف . فخرج بهم يشم ريح الغارة الإرهابية ،
ويتأثر خطاها المتذائبة على طريق مكة ، ووسط الصحراء . وكانت الأخبار
قد تنارت بأن الغير قد ضرب في سيره جنوبا حتى بلغ أرض الحيرة ، فإذا ماشع
من أمره لم يكن غيرتهاويل . فما أوغل بقواته المدوانية هذا الإيغال . ولادانى

الحيرة أو ألم بما حولها من قريب ولا من بعيد إلى مئذنت من الأميال وهو
العلم عندئذ بأن سيره ذلك كان خليقاً بأن يقضى به إلى ما يجاور الكوفة
وما قاربها من بلاد هي أعرض بالاربع على طغمته ، وأولى بأن تذيبه الدمار . .
إنما كفاه أن يحول ببعض طريق مكة ، ويطوف بما تأخم دمشق حاضرة عاهله
شمالاً أو شرقاً في جيرة أرض الشام ، ليظل دائماً في نطاق الأمان . . .

ولقد بلغ الخبر عن هذا الإيغال الموهوم حجر بن عدى ، فراح يستطلع وهو
يعرض بقواته شمالاً من الكوفة لعله أن يقع للغارة على أثر . وبلغ أيضاً الإمام
فسخر وقال :

« على أهل الحيرة ؟ .. هو أقل وأذل من أن يلم بها ، أو يدنو منها . . . »
وصدق رأيه الاستطلاع . .

فما أن خلف ابن عدى الغريين عند الكوفة بمسكره ، حتى أخذ على طريق
مكة إلى السماوة من أرض كلب ، وصحب منها امرأ القيس بن عدى الكلبي دليلاً
له على تلك المحجة الصعراوية وعلى ما بها من مواطن الماء . . فإذا هو يعلم أن
الغريين قد بارحوها إلى واقصة ، ثم شراف ، ثم القطفطانة . . فأغذ في آثارهم
يطوى المراحل ، ويصل الليل بالنهار .

لم يغيب عن الضحك أمر هذه المطاردة فشجذ وعصيته أقدامهم للفرار التماساً
للنجاة حتى لأوشكوا أن يفلتوا من يد الصياد . . لكن حجراً وأصحابه استبقوا
للهرب ، وهبوا كالريح في أثر الهارب المدل بياسه على العزل ، المياهي ببطشه
عندما يغيب القرين . . .

ولحقت به حملة التأديب غربى تدمر وهو يشد مثزره ، ويشمر ذيله ، نهبوا
للانطلاق نحو مهرب جديد . . لكن أعداءه عاجلوه . .
ووقعت الواقعة التي لم يسعفه على اجتنابها الفرار . .

كانت الشمس عندئذ تطفئ إلى المغيب . قرصها يذوب في الأفق ، ونورها
يفسر الشفق ، وخطوط الضياء التي يرسلها شعاعها الوانى تكاد تمتزج إلا قليلاً
بعملة الغروب إيذاناً بمقدم الليل . .

والتعم القريقان . .

في سويعة قصيرة سقط نحو عشرين من المصبة الباغية قتلى ، يدفعون من دمهم المهرق بعض دينهم لصرعاهم الأبرياء لو كان دمهم يصح للوفاء . .

وتلفت الضحاك من خوف ، والسلاح يطبق عليه . وأصحاب حجر يشدون على رجاله من كل ناحية . . هو الآن لا يعنيه أن يذود عن نفسه هجمة القوم . ولا يحاول أن يتوسم بينهم هدفاً لسيفه . بل تجول عينه فيمن يحيطون به بحثاً عن فرجة للخلاص . .

فلو كسفت الشمس ! لو اختفت من أفقه تذوب فيه كما تذوب ذرة ملح في ماء محيط ! لو استطاع أن يسرع بها إلى الغيب مثلما استطاع يوشع أن يعيدها من الغروب . .

لكأنى به حينذاك قد ملك الدنيا وهو يرى عتمة الليل تلقي ظلالها على الميدان ، ثم تغشيه بالسواد . . فهذه لحظته . . فرصة عمره . . هنيئة انتصاره على الموت ، واجتنابه تجمّع عمالة الهزيمة . .

وحالفه الظلام يحجبه عن عيون السلاح ، فتسلل من خلف ستاره إلى النجاة . ومع ذلك فقد شهدناه يفاخر ، من بعد ، ببلائه ، وببأسه الشديد ، وسيفه الحديد ، وهو يتهدد أهل الكوفة ، بعد أن عنا الحكم لابن أبي سفيان . .

عندها وقف امرؤ من الحاضرين ، شهد ما حدث بتدبر ، وقال للناس في وجهه ، يعرض به ساخراً ، ويضفي عليه الهجاء بأسلوب ثناء :

« نعم صدق الأمير وأحسن القول . . فما أعرفنا والله بما ذكرت . لقد لقيناك بغربي تدمر فوجدناك المحرب الصبور الشجاع . . »

الفصل الثاني

ما لم يسر به رواة الأخبار سارت به وساوس الشائعات . وما لم تدركه حقائق
الواقع أدركه خيال التوهم . . . فقد تراجى إلى أسمع أهل الحجاز عن غارة
الضحاك ما أوطأها أرضا لم يمر عليها من عصابتها العادية مقاتل ، وعن انتصار
بطلها ما لم يلهه سيفه . . .

قيل عن الرجل :

غزا الحيرة . .

عصف بمن فيها واحتمل ما فيها من مال . .

عاد سالما إلى الشام في موكب نصر طى أوراق الورد . .
وقيل وقيل . .

وأنسحت القالة الزائفة ، بصدور فتية بنى أمية وأحلافهم بمكة ، مرتعا
خصبا لدولة أموية تهم شمسا أن تبرز طى العالمين ، فولوا وجوههم شطر سيدهم
الماهل المنتظر ، يحشون الخطا سريرة واسعة إلى دمشق ، لكيلا يفوتهم من
ملكه نصيب . . .

هم أربعون . كلهم تتوئب به أطماعه وترامقه دنيا بالمجد والجاه . مشى في
صدارتهم ابن أبي سرح ، ولصقوا بذيله ، وهو يستبق القبلة . . . وكانوا إلى
أمن قارين بالبلدة الحرام ، يلوذون منها بأمن ، يبيدوا عن مواقع الخلاف
ومظانه الذي نشب بين الإمام وبين معاوية ، كأنما قد تعاقدوا طى عزلة ، لا إلى
صاحب الإمرة ولا إلى متمرد الشام . . فلما انتهت صفين دون أن تحسم الأمر ،
وانفض سامر التحكيم كلمية هازلة . ووقعت مصر في قبضة عمرو بالسلم والمطل
والخديعة ، ثم بلغ الضحاك بن قيس أخيرا ما أبلغته الشائعات من الظفر في العراق ،
خايلهم المجد ، فصعقا في صدورهم الأمل النائم . وانطلقوا إلى دنياهم الجديدة ،
خفا خفة الرياح . . .

يومها صادفهم عقيل . كان قد خرج وهو معتمر ، مبهما مكة ، فإذا هم يضربون على طريقها نحو الشمال . رآهم قد ازددهتهم فرحة سرت لها في أبدانهم سورة النشوة . بخطاهم اعتزاز . في عيونهم ثقة . فوق شفاههم بقية مما لا كوه من نصر الضحاك .. وعندما قاربهم ، لم يحاولوا أن يداروا عنه ما اكتسته وجوههم من شناعة ..

وحدس وجههم ، فسألهم بألوف حديثه الساخر :

« إلى أين يا أبناء الشائين ؟ ... أبعادية تلعقون ؟ ... »

فلم يكتموه . بل تباروا — في صلف وخيلاء — يبادرونه بما يكده ..
فثار :

« عداوة والله منكم قديعة ! ... تريدون إطفاء نور الله ، وتبديل أمره ! ... »

وبعث بخبرهم ، وما سمعه من انتصار بطلهم ، في كتاب إلى أخيه ، قال فيه :
« ... فأف لحياة في دهر جراً عليك الضحاك ! ... وما الضحاك ! ... لقد توهمت حيث بلغت ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك ... فاكتب إلى يا ابن أمي برأيك فإن كنت الموت تريد ، تحملت إليك ببني أخيك وولد أهلك فمعشنا معك ما عشت ، ومتنا معك إذا مت ... »

فصحح له الإمام في رده ما بلغه من أمر الضحاك ... وضع صدق الخبر مكان زيف الشائعة . ونفى بالواقع التوهم ... وكفنه وأهله أن يلحقوا به ...

ثم قال :

« ... وإن رأيي جهاد الهلين حق ألقى الله ، لا يزيدني كثرة الناس معي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، لأنني محق ، والله مع الحق »

ومع ما بدا من تشدق معاوية وأتباعه ، بالشام وما دونها جنوباً ، بما أصابه الضحاك من فرار البسوه ثوب النصر ، ومن خزي لوتوءه بالفخر ، فقد كانوا

يدركون أن الانقضاض للباغت بالغارات الإرهابية مجازفة خطيرة ، قد تضطرب بها عليهم العواقب ، وينسكني* للميزان ...

فلا جدال في أنهم يعلمون من طبيعة طي ما لا يطعمهم في سكوتة طي أيما حركة غادرة يوجهونها إلى أي صقع يقع في حدوده ، لأنه ليس بالذي يسكت طي اعتداء ، أو ينام طي ضيم ولو تخاذل رجاله عنه وشاقوه ، ولو انفرد وحده في الميدان لرد العدوان ... فلن يدعهم وما شاءوا . ولن يكف عن ملاحقتهم ، وتعقب حملاتهم المباغطة بمن قد يصبر معه من صحابه ، أينما خطر للمادين أن يخافتوا بسرها ويستخفوا بسيرها عن عيون السلاح ...

ذلك قد استيقنوه ... وذلك هو الذي كان يجنح بهم إلى التريث ولزوم الحرص كلما هموا بغارة جديدة . وإذا كان هذا العام التاسع والثلاثون من البعثة النبوية ، قد شهد منهم العديد من الغارات ، فإنها غارات تلاحقت طي فترات ، ولم تنطلق مجتمعة ، في وقت واحد ، لتفرق هنا وهناك في أطراف طي ، فذات النتيجة المرجوة التي تشق من أجلها ، عادة ، حروب العصابات

ولا يخفى أن هذا النوع من الهجمات المفاجئة ، له أثره النفسي فيمن يصيبهم شره ، وفيمن يبلغهم أمره وهم بنجوة منه ، سواء بسواء ، لأنه خليف بأن يهز ثقتهم في النظام الذي يستظلون به ، ويشيع فيهم القلق والإحساس بالافتقار للأمان والطمأنينة ... لكنه لا يخفى أيضا أن ما قد يحيق بالغارة المباغطة من هزيمة ، في صورة ضربة قاصمة رادعة أو صورة إكراه مذل طي الفرار ، هو تخليق بلا ريب أن يهبط بنفس العادي درجة أو درجات عن مستوى الاعتداد ، وأن يرتفع بنفس عدوه ، في المستوى ذاته ، درجة أو درجات . فإذا استطاع معاوية الحذر ، وهو بهم أن يدفع بهذه الغارات ، وفارق ما بين الواحدة منها وتاليها بفترة زمنية ، فإنه الحذر الذي لا مناص منه ، مع غريم له طبيعة الإمام ... بل قد كاد عاهل الشام أن ينفذ يده من هذه السياسة الإرهابية ، إذ استعاش رجاله ، يوما ، لتهوض بها فلم يسموا له ، أو أنصتوا ولم يلبوه ، أو تريثوا بدعوته وأمهله ...

قال عندئذ :

« أما من رجل أبعت به ، بحريدة خيل ، حق يغير على شاطئ الفرات ،
فإن الله يرعب بها أهل المراق ؟ ... »

وعاقت دعوته بالهواء ثلاثة شهور ...

حق إذا كانت غارة الضحاك التي تباعدت بخطاها عن الكوفة ما استطاعت ،
واكتفى منها معاوية بطريق مكة تغير فيه على الحاج ، وتلم يعض نواحيه ، على
حافة ما في نطاق السلطان الأموي ، آن لحلة الفرات أن ترى النور ...

جاءه انعمان بن بشير ، ينذر نفسه للمهجة العسيرة :

« ابمشي ! ... فإن لي في قتالهم نية وهوى ... »

فتطلقت أسارير العاهل ، وقال :

« فانتدب على اسم الله ... »

فانتدب الرجل . وانتدب معه ألفي رجل من للقاتلة أعدوا فأحسنوا
الإعداد ...

ونصحهم معاوية وهم يهجون بالانطلاق ألا يدنوا من المدن ، وأن يتجنبوا
الجماعات ، وأن ينقضوا على المسالح ثم لا يشغلهم شاغل عن التسجيل بالرجوع ...
وخرجوا يغذون السير

فإلى أية وجهه سار ؟ ...

بدا كأنه شاء أن يساحل بعصيته حق يبلغ ماء الفرات ، كأمنية سيده ، فضى
من دمشق ، شرقا إلى الجنوب يجتاز الصحراء وقطع في زحفه على رمالها
مائتين أو نحوها من الأميال ، ليصف ببلدة عين التمر ، على مبعدة غير طويلة
من النهر .

وأحسن النعمان الاختيار ...

فلقد كانت البلدة من المناطق التي يحسب لها حساب ، لأنها تقع قرب مجموعة
من المدن . فصفه بها إذن أولى بأن ينشر الدعر ويوقع الاضطراب فيما جاورها

من البلدان ... وكانت أيضا في حماية ألف مقاتل من رجال طلي . فاقترعها حين
تسير به الأخبار ، مؤد لا محالة إلى استهانة الناس بجيش العراق ، ثم إلى تهاوى
شوكة الإمام ...

لكنه ، إلى جانب هذا ، كان ما كرا حذرا كشمس ، فلم يقترب من عين
التمر إلا بعد أن علم أن كعب بن مالك الأرحبي ، عاملها من قبل على ، قد أذن
لرجاله الألف فيها — إلا مائة — أن يعودوا إلى الكوفة ...

وما تفعل مائة أمام ألفين إذا نشب قتال ؟ ...

توشك الحرب ألا تقع لأن هذه الحامية الصغيرة حرية بأن تلقى السلاح .
أو يوشك أن تستأصلهم الغارة للباغثة إن هم حاولوا الثبات . وفي هذه الحالة
أو تلك لن يكون سيره إليها إلا نزهة . وهجومه عليها إلا تسلية . ونصيبه منها
إلا النصيب من ذبيحة ذلول ، رقدت طائفة ، ومدت عنقها لسكين الجزار ...

وانتبه الناس في عين التمر ، فإذا مشارفها قد أخذت عليهم بألفين من
المقاتلة ، عتاة بغاة ، قد أشهروا السلاح ، ينصبون كالسيل على البلدة الآمنة ...

وعجب مالك وهو يرى يبصره إلى الويل الزاحف ، يتصدره النعمان
ابن بشير .

وتحركت شفتاه وما نطق ، كأنما يسر إلى نفسه بحديث ...

النعمان !

أفهل كذا يحزبه على صنيعه الكريم هذا الزنيم ؟ ...

أفيؤدى إليه دينه : جمودا لقاء الجليل ، وغدرا لقاء الصفيح ، وإساءة لقاء
الإحسان ؟ ...

وامتلا بالحرز قلبه ، وغص حلقه بمرارة الأسف والندم على اليد البيضاء
التي سلفت منه للقائد المغير ..

لكنه أسرع يجمع مائته ، ويهيئ لهم موضع اللقاء ...

فلقد عزم . ولا بد من قتال ...

ثم كتب عجالة قصيرة في كتاب ، دفعه لرسول من لدنه للكوفة ،
يبلغ الامام :

« . أما بعد ... »

فإن النعمان بن بشير قد رل بي في جمع كثيف . فر رأيك ، سددك الله ... »

قصة النعمان بن بشير الأنصاري مع مالك بن كعب الأرحبي ، هي أمثلة منشورة الصحائف ، عالية الجرس ، ثابتة الألوان ، تعبر بالكلمة وبالواقعة عن ذلة النفاق ، وخسة الكنود ، ولؤم الغدر ... ثم تلقى ، بلفظها الظاهر ومنزاهها المكنون ، بقائد غارة عين التمر إلى وحدة من الضعة ، يغوص فيها ضميره إلى أذنيه . . .

فلقد خاف فذل . وذل فنافق . . . حق إذا أيسح الأمان — منة وكرما — وفتح له الطريق للنجاة ، استعان الكنود والجعود ، وكر بخدره الباغي على ذلك الذي وهبه الحياة ، جزاء على عفوه الكريم . . .

وتلك شيمة عرفت هنالك بين أمثاله من أساطين الشام . . .

ومحنة خلقية فشت فاشيتها ، تلك الأيام ، في كثيرين .

لكنها عند ذاك كانت — في عيون أهل هذه للناقص — ميزة رفيعة . . . شمارا رفعه للفخار . . . دلالة على الفطنة والاعتدال . . . ملوكا ينسب صاحبه إلى الدهاء وحسن الحيلة ، ويعلو بقدمه درجات في التمرس بسياسة الأمور . . .

عن المزة الحقة التي ادعتها لنفسها هذه الفئة المعترة بغير عزة ، التباهة بغير فضل ، قال الإمام في كلام له جرى عن الوفاء :

« ... إن ائوفا توأم الصدق . ولا أعلم جنة أوقى منه ... وما يغدر من علم كيف للرجع ... »

ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أهله الغدر كيسا ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة ... »

فالوفاء — في اعتباره إذن — قرين الإيعان . والغدر سلعة خاسرة في سوق الآخرة ، لأنه لا إيعان لغادر . . .

وبهذا أيضا نطق قبله رسول الله :

« .. لكل قادر لواء يعرف به يوم القيامة . »

غير أن النعمان بن بشير الأنصاري — على فضل قومه الأنصار ، وسابقتهم المؤيدة لرسول الله تمكيننا للدين — لم يكن ، فيما يلوح من قصته ، ممن يرعون هذه السنة .. وكيف يرعى ، وقد سوات له نفسه التسكر للوفاء فتسكر ، والجنوح إلى القدر فقدر ؟ .. ثم اختار ضحية لشكره وغدره — من دون الناس أجمعين — مالك بن كعب الأرحبي الذي من عليه ، من قبل ، بالنجاة والحياة ؟ ..

هكذا حدث وكان .

وهذه بداية الأمر كله ..

... عندما خطر لمعاوية أن يعز جانبه ، ويرجع ميزانه ، رأى أن يكرر مكره يبدونها في نظر المستريين فيه ، والذين يعتزلونه ، كمن يحرص أبلغ الحرس على السلم فيطلبه من أى سبيل ، ويؤثر اجتماع كلمة المسلمين وتوثق عروتهم على كل ما عداها من مآرب وغايات أوقعت بينهم فتنة داهية يصطلي بنارها اليوم في ساحة الحرب ، فريقا العراق والشام .. فما أن عزم عزمه ، ورسم خطته ، حتى تلفت حوله يعجم الأعواد ليفتقى منها أبها أصلح أن يكون مخاب القط الذي يخرج له الشواء من النار ..

وكان النعمان بن بشير إذ ذاك من القلة النادرة من الأنصار التي نزلت أرضه ، ولم تتابع عليا توقيا للدخول في الفتنة ، واعتصاما بالحيدة حتى تلبين الأمور .. وكان أبو هريرة أيضا على هذا النهج ، قد قبح ساكننا يتابع سير الأحداث .. فوقع عليهما الاختيار ..

دعاهما معاوية إليه ذات يوم ، يرجوهما أن يكونا رسولى سلام من لدنه للإمام .

قال :

« إني عليا فأشهد الله ، وسلام بالله أن يدفع إلينا قتلة عثمان — فإنه قد آوأم ومنعهم — ثم لا حرب بيننا وبينه .. فإن أبى فكونا شهداء الله عليه . »

جازت عليهما الحيلة . .

فانطلقا لمن أوفدا إليه يبلغانه :

« يا أبا حسن . إن الله قد جعل لك في الإسلام فضلا وشرفا . أنت ابن عم رسول الله . وقد بعثنا إليك ابن عمك معاوية يسألك أمرا تسكن به هذه الحرب ويصلح الله تعالى ذات البين ... »

ثم بينا مناسط الرسالة :

« أن تدفع إليه قتلة عثمان ، فيقتلهم به . ويجمع الله أمرك وأمره . . . وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة ... »
هذا إذن عن السلام . . .

وعجب للرجلين كيف لم يفتننا الخدعة ابن أبي سفيان وما كانا ليجهلا قصة المقتل والقدر وقد طال فيها الحديث ، وسلف من الإمام عنها ما يغني عن كل بيان ..

لكنها غفلة غافل ومكرة لثيم . ولو رجع الصحابيان ، أو غيرها ، إلى مدار عن مقتل عثمان من كتب وخطب وأحاديث ، قيل هذه الوفاة ، أو بعدها على السواء ، لما بقى لمستريب في موقف على شبهة تحمل على التردد عن مظاهرتة والانتصار له ضد أولئك الذين افتروا عليه هذه الأباطيل . .

لقد قطع على علي معاوية ، بالحجة الدامغة التي يملنها واقع الحوادث ، سبيل اللجاج في هذه القضية . . حين اتهمه في دم ابن عفان ، كتب إليه ، وجرت بما كتب الأخيار :

« أينما كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله . . . أمن بذل له نصرته فاستقمده واستكفه ، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى آتى قدره عليه ؟ »
وقد عرف الناس كيف آزر الإمام الخليفة على مغاضبيه ، يسعى بينه وبينهم بالصلح ، أو يرد تقمتمهم عنه ، ثم يدفع بأبنائه في وجه المتربصين له وهو محصور وإن طالما كفه عثمان عن الصلح والدفاع . . وعرفوا أيضا أن معاوية ، حين استمده الخليفة مددا يذود عنه ثورة مناهضيه إبان الحصار ، لم يزد على أن يمت

اليه بجيش من الشام أمره أن يظل بظاهر المدينة يرقب الأمور بها من بعيد دون أن يدخلها أو يهز سلاحا في وجه الثوار . . .

يومذاك قال هذا المتباكي على دم عثمان ، لقائد مدده يزيد بن قيس القسري :
« إذا أتيت ذا حشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإنني الشاهد وأنت الغائب . . . » .

فلما قتل المحصور ، استقدم عاهل الشام مدده ، ثم ادعى لنفسه ولاية الدم المراق ، وأكثر فيها الحجاج واللجاج . .

وصدق فيه بفعله هذا ما دمنه به الإمام :
« .. فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتله ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له . . . »

ولا غرابة لأن نجاة المقتول لم تكن لتفتح لمعاوية سبيل الإدعاء ، ولا الائتثار على تطلعا إلى السلطان . .

وما هو أيضا من دم عثمان ؟ .. وبأي حق يقيد واپس القصاص إلا لصاحب السلطة الشرعية لا لأمريء سواء ! .. لو أنه أراد العدالة لاستقاد ولي الأمر عندئذ خصم إليه العادين على دم القتل . . اسكنه ، هوى وعنتا ، لم يطرقي السبيل القويم وأصم سمعه عن دعوة الإمام :

« ادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله . . » .

أمثال هذه الأحاديث والوقائع لم تكن غائبة عن أبي هريرة أو النعمان وقد طالما جرت بها الأخبار ، من قبل ومن بعد ، إلى كل مكان . . لكنهما تغافلا أمرها ، أو قد خدعا عنها — بأرفق الظن فيهما وأحسنه — بدهاء معاوية واحتياله . .

ليست الوحدة مارام عاهل الشام ، بل الفرقة ، واپس دم عثمان بل ابتزاز السلطان . . وإذا كان على لم يعوزه إذذاك أن يذكرها ما أخفته الغفلة ، وأن يهتك لها سريرة صاحبها فإذا حرصه على اجتماع كلمة الفريقين ادعاء ورياء ، وإذا

رغبته في الفناء إلى الطاعة محال وخيال ، فقد شاء أن يميل بحديثه مع الرسولين ،
بعد البراهين والأدلة إلى العتاب الرقيق الذي يزيل الوحشة ، ويهدي القلوب .
قال وهو يختم حديث الجدل والتدليل :

« دعا الكلام في هذا . . »

ثم التفت إلى النعمان يسأله وكأنما يومئ بسؤاله إلى المسكنة العلية لقومه
الأنصار :

« حدثني عنك يا نعمان .. أنت أهدى قومك سبيلا ؟ .. »

« لا . »

« فكل قومك قد اتبعني ، إلا شذاذا منهم : ثلاثة أو أربعة . . أفكون

أنت من الشذاذ ؟ .. »

فأسرع الرجل ينفي النعمة عن نفسه . ويعلم الولاء :

— أصلحك الله ! .. إنما جئت لأكون معك وألزمك . . وقد كان معاوية

سألني أن أؤدى هذا الكلام . . وطمعت أن يجرى الله تعالى بينكما صلحا . .

فإذا كان غير ذلك رأيك ، فأنا ملازمك ، وكأن معك . . »

وانتهى عند هذا الحديث .

أما أبو هريرة فعاد بالرد للشام .

وأما النعمان فأثر الإقامة مع الإمام طي ولاء . .

لكنه إشار نفاق .

فإن هو إلا شهر واحد قضاء بالكوفة ، ثم انتفض — كأنما وخزه الشيطان ! —

يتسلل خفية عن العيون والأسماع ، ليؤوب إلى حيث كان . .

لهوى لم يفصح عنه كان قلبه مع الشام وهو يلوذ بالفرار .

كانت قدماه طي الطريق للشمال . وكانت حواسه كلها على انتباه . وكانت

عيناه خشية للطاردة — في قناء ! .. لكن حذره ذاك لم يغنه شيئا عن انكشاف

سره ، لما كاد يبلغ عين الثمر حتى علم مالك بن كعب خبره ، وحال بينه

وبين مبتغاه . .

وجيء به إليه فاستفسره :

« ما صر بك بيننا ؟ . . »

قال يمونه لعله يفلت :

« إنما أنا رسول ، بلغت رسالة صاحبي ، ثم انصرفت . . »

رسول . . . فيم إذن كان مكثه بالكوفة ، دون رفيقه ، كل تلك الأيام ؟ . .

ولم يحز قوله على مالك ، بل زاده ريبة فيه . فأمر بحبسه حتى تأتيه فيه بيعة .

« كما أنت . . . حتى أكتب ألى فيك . . »

هنا خشى الأسير أن يبلغ أمير المؤمنين أمره فيجزيه عقبة نكته عهد الولاء ،

فبعث سرا من فوره إلى ابن عمه قرظة ، صاحب خراج عين التمر ، يستغيثه أن يشفع له فلجاء . .

وأبى كعب في البدء شفاعته الشفيع :

« اتق الله يا قرظة ، ولا تتكلم في هذا . . فلو أنه كان من عباد الأنصار

ونسألكم ، لم يهرب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين . . »

لكنه ما زال به حتى خلاه . .

وضرب النعمان في الأرض ثلاثة أيام ضالا ، يهيم على وجهه في تيه من الدعر

والتمب والرمال ، حتى انتهى به السير إلى ماء دله على حاضرة الشام . . فقرر فيها

قراره ، على اعتزال للخلاف للشبوب بين عاهلها وبين الإمام ، لا يشارك

بشيء فيه . .

ثم وخزه مرة أخرى الشيطان . . . فإذا هو يقتفض ثأنية ، بعد إذ دعا

معاوية أصحابه للإغارة على الفرات بثلاثة شهور ، ويبيع ما هل نفسه وسيفه :

« ابشئ . . . فإن لي في قتالهم نية وهوى . . »

واختار عين التمر هدفا لغارته . . .

ولم لا ؟ . .

ألم يهيه عاملها النجاة والحياة فحق إذن عليه — في شرعة الجعود والقدور —

أن يجزيه عن حسن صنيعه شر الجزاء . . .

لم يصبر مالك بن كعب الأرحبي على رسوله إلى الامام أن يعود من الكوفة بعد أوكلته . فلقد كان أدنى إلى طبيعة الناس فيها ، وسلوكهم حيال ما سنف من أزمات ، أن يعضغوا دعوته . ولو كونها طويلا في قم المظل ماشاءوا ، فعودا عن النجدة ، وفرارا من النفر والجهاد ..
وقد فعلوا ..

حين خرج إليهم الإمام برقة عين النمر ، يحدتهم خبر النعمان ، سخوا بالسمع ثم يخلوا بالعمل قدموا لهم وأخروا المهمة . سارعوا بالوعد وأبطأوا الإعداد .

أهاب بهم أمير المؤمنين :

« اخرجوا ، هداكم الله ، إلى مالك بن كعب أخيك ، فإن النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ، ليس بالكثير .. فانهضوا إلى إخوانكم ، لعل الله أن يقطع بكم من الكافرين طرفا . »

قبلت الأذان الكلام دون أن يترك في أصحابها أثرا ، كأنه قطرة ماء وقعت على رمل أحرقته وقدة الهجير ..

وكرر الإمام دعوته ..

واستقدم ، من بعد ، إليه وجوههم وكبراءهم يستنهضهم أن يسروا ويحشوا من وراءهم من أقوامهم على السير ...
فما كان .

لم يبلغ بهم بداية طرف ما أراد . وبلغوا به نهاية طرف ما نقم . ونعخصت بينهم دعوة الاستغاثة القادمة عليهم من مالك ، ودعوة الحث التي طاردهم بها على — بعد طول إلحاح — ثلثمائة فارس أو مادونهم تجمعوا للرحيل إلى عين النمر ..
وثقل على أمير المؤمنين أمرهم وأعياء حتى أحس كأنما السقم يلهه ، تقسا وجارحة ،
(٣ - الإمام ج ٨)

ويهبط بقلبه إلى قدميه . . فما ملك إلا أن يشور بهم — كعادته — ويعنف في خطابه لهم باليوم المقتدع ، والدم الصريح :

« .. ألا إني منيت بن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت . لا أبا لكم . . ما تنتظرون بنصركم ربكم ! . . دعوتكم إلى نصر إخوانكم فخر جرتم حرجة الجمل الأسر . . ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت . . »

ونزل .

وغضب عدى بن حاتم لغضب على وضاق كصيقه بتقاعد أهل الكوفة ، وثبوط همهم عن نصرة الحق ، فصاح بالناس :

« هذا والله الخذلان ! .. على هذا بايعنا أمير المؤمنين . . »

وانطلق على الأثر يلحق به في داره ، يسترضيه :

« يا أمير المؤمنين . إن معي من طيء ألف رجل لا يمصونني فإن شئت أن أسير بهم سرت . . »

فhez الإمام رأسه يأبى قبول رأيه :

« لا . . ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس . . لكن

أخرج إلى النخيلة فمسكر بهم . . »

غير أن مالك بن كعب في عين النمر كان أكيس من أن ينتظر عودة رسوله ، أو أن يعلم ختام هذا المشهد الحزين . . فالغير يطرق عليه الباب ، ولن يدع له فرصة يزيد خلالها رجلا واحدا إلى مائته التي قدر عليها أن تقف في وجه ألفيه لو أنها خالفت حدسه فصحقت وصحمت على اندفاع . .

وأسرع فدعا إليه صاحباه : عبد الله بن حوزة الأزدي ، يقول له :

« إن أقرب من ههنا إلينا من هبة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قرظة

ابن كعب ومخنف بن سليم . فاركض إليهما ، فأعلمهما حالنا ، وقل لهما فلينصرانا بما استطاعا . . »

وركض عبد الله ، يشق طريقه إلى وجهته تحت ظلة من النبل كان رجال عين النمر قد بدأوا يراشقون بها جيش المغير .
ثم انثنى مالك إلى مائته .

كلا ان يسكت ، وان يلقي سلاحه . . مارهبه الكثرة . وما يخشى من قلة .
فليست القدرة على القتال دائماً بضخامة الأعداد . وليس النصر دائماً لكثافة الحشود . وإذا كان للإيمان دور حاسم في نتائج المعارك فما يعوزه وأصحابه الإيمان . . . واسوف يلقي كل هذه الجموع العادية بفثنه القليلة ، فيدهرها ، أو يردّها ، أو يلقي الله . .

ونظم المائة لما أعد ، بثقة المؤمن ، وحنكة الحبير . . ثم دار على أفرادها يبين خطته ، ويحثهم على الاستبسال :

« قاتلوهم في القرية . . واجعلوا الجدر في ظهوركم . . ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . واعلموا أن الله تعالى ينصر العشرة على المائة ، والمائة على الألف والقليل على الكثير . . »

وجمع في كلماته هذه ما لا تتسع بعده لمزيد من الوصايا والتوجيهات أوامر قائد لأجناده في مثل تلك الظروف . .

فالحرب بين فئتين كهاتين ، تحتم على أقلهما نفرا أن تأخذ بالحذر ، وتجتنب الدفعة ، وتناهى بنفسها عن المجازفة بما استطاعت ، ثم تضرب حيناً تتحقق أن الضربة تنهزها من غريعتها مقتلاً يوقع به أفدح الوبال ، ولا يصيبها إلا بأيسر خسارة . وهي داخل المدينة أسلم ، عادة ، للدفاعيين من الحرب في ميدان مكشوف ، لأنها أدعى إلى تبثر قوة المغيرين ، وتفرق جموعهم هنا وهناك فلا يكادون يجدون سبيلاً إلى لقاء حاميتها المناضلة بمحشد كثيف . . وهي هكذا تشق على الكثرة المهاجمة ، بقدر ما تسهل على قلة المدافعين إذ هم أعلم بالدروب والمسالك في بلدتهم ، وأقدر على التعصن بأمنعها ، وعلى نصب الشراك والكائن فيما يصلح من طرقاتها وأزقتها لهذا النوع من وسائل الدفاع وأساليب الإيقاع

بالدخيل . وهي أنسب لسهولة حركة القوة المدافعة في الكر والفر ، وفي مباغنة المعير حيثما لا ينتظر ظهور مقاومة ، ولا يتوقع نزول ضربات . . . وهي أقرب إلى أن ترهب العدو الدازل منها بين جمهور من السكان هم أعدى له ، وأخلق أن يناوشوه ، أو يقطعوا عليه الطريق ، أو ينتقصوا أطرافه . . . وهي بعد هذا كله تنيع توفر الأمن والطمانينة لحاميتها الصغيرة إذ يلوذ رجالها بالجدران توقيا لأي حصار أو حركة التفاف . . .

أحسن مالك خطة الدفاع . وأحسن فتنة التنفيذ . واستطاع بهذا أن يصبر لأعدائه ، وينهك قواهم وهو يرميهم من مواقعه المكنونة ، وعلى البعد ، بسهم أقواسه ، فإن أقدموا وتعموا في مراميها . وإن أحجموا لم يغتهم الإحجام .

وطال تناوش الفريقين على هذا التحور . وامتد القتال بينهما — تراميا وتراشقا — بضع ساعات . وأقبل عليهم الأصيل ولما ينل الغير وطره ، ولا كلت القلة عن الثبات . . . »

عندئذ آثر النعمان المهجوم وإن نالت من رجاله السهام . . . فالشمس توشك أن تطفئ . والأفق فوقه يهم أن يتناثر الشفق بأطرافه نذيرا بمقدم الغروب . والمساء بلا ريب حليف قوى لحامية البلدة ، يجنحها عنه إلى جوارجنة الجدران ، فتقع غارته بين شقى الرحى : الليل والسلاح . . .

وعاجل بالانقضاء . فلا بد لإنهاء الواقعة من التحام . . .

غير أنه لم يروع ، بجمعه الكثيف ، تلك الحفنة من المقاتلة الأجلاد الذين نذروا أرواحهم للموت ، وتعاقدوا على اتخاذ ميدان الواقعة طريقا قصيرا معبدا للقاء الله . . . فما حياتهم ، بعد فليج عدوهم عليهم ، إلا موت . وما موتهم في الدفاع إلا حياة . . .

ثبت مالك . وثبت حوله أصحابه وقد كسروا جفان السيوف ، يصدون السيل ولا يكلون . لا تترحزح لأحدهم قدم . لا يهدأ سلاح . لا تنو عين ولا خاطرة إلى الوراء . فكأنهم قلعة حصينة . أو كأنهم شاطئ صخري تتكسر عليه الأمواج . . .

لكن النعمان بن بشير وعصيته قد رنوا إلى الوراء . . . ثم روعوا . . .
ثم أھطعوا إلى الجری یتبقون للهروب ، كمثل قطع مذعور أفرعه الذئب
إذ غاب راعيه حاميه . . . فھاهو مدد یقبل علی البلدة ، فی السلاح والخیل ،
ماھم قبل بعلاقاته . . . إنه لیشر ف . . . یدنو من الساحة . . . بحيث یحس الخطأ لیلحق
الدم . . . ھاهو یکاد یتحم یتطبق علیهم . . . یجتاحهم لیلحق برفاقه . . . فلو أنھلوا
لأعجلهم إلى المصارع ، وجاءهم بأجلھم علی یدیه . . . ولو ظفر بهم لكانوا كأعواد
عشب خضر ، وكان لهم منجل حصاد . . .

فإلى الفرار !

وراحوا ینكصون یرتقمون عن البلدة . . . من ورأھم مالك بن كعب
وحاميته یشدون علیهم . ومن أمامهم عبد الرحمن بن مخنف ومدده یستمرضونهم
بالسیوف ، حتى طاروا بعيدا ، وأمعنوا فی الفلاة ، وقد تركوا بضعة منهم علی ثری
البلدة ضریبة رخیصة للنجاة !

أیفخر النعمان بن بشیر بعد هذا بیلائه فی اقتحام عین النمر ، كما فخر قبله
صاحبه الضحاک بادعائه اقتحام الحيرة وظل یباهی كلما راقه التوهم واستنمرا
السدور فی الخیال ؟ أم یكتم الرجل فی نفسه فشله ، ویدارى عن الذکر
والتذکر بلواه ؟ ..

بل هو أدنى — كلما تذكر — إلى استشعار الحزی واجترار العار . . .
فما لیث إلا قلیلا بعد ذلك الفرار ، حتى علم أن للدد الذی روعه ، وحطم أمله
فی القدر بمالك ، وفی الإغارة علی القرات ، لم یكن إلا نفرا قلیلا لا یزید علی
خسین ، هم كل من استطاع مخنف ابن سلیم أن یبعث بهم إلى عین النمر ،
مع عبد الله . . .

لكن جيش النعمان قد أفسد علیه تدیرہ . . . غرر به . . . هول له أمر الدد
فرأى العدو أضعاف الأضعاف . . .

وكتب مالك بن كعب الأرحى إلى الكوفة ، ولما تكن بعد قد سیرت إليه

النجدة التي استمدها لتصره . فكان كتابه داك خاتمة قصة النفاق والكنود
والغدر التي مثلها الزمان . .

وعندما بلغ الكتاب الإمام ، وقف في أهل الكوفة فقراء عليهم ولهج
بذكر حامية عين النمر ، وما أبلته في سبيل الله . . ثم رمى الجموع الحاشدة أمامه
بنظرة ازدراء ، وقال :

« هذا بمحمد الله ، ودم أكثركم ! . . »

فنسكسوا الرءوس . ورموا بعيونهم إلى الأرض من استخذاء ! .

أمن معاوية في غاراته المدوابة على أطراف الإمام ما شاء له أن يعين وهو يراها خير سياسة يمكن اتباعها ليرضى بها الموتورين من أتباعه ، المنهزمين بالاشتفاء من غريمه ، في فترة الزمن التي ركز فيها الصراع الحربي الجاد بين العراق والشام بعد انطفاء نار صفين .

واقد ثبت الماهل الأموي نحو عامين على نظراته وإن طالما حثه بعض خاصته على المبادرة إلى المناجزة الشاملة المكشوفة وإنهم يحسبونها الوسيلة المثلى ، والطريق الذي لا طريق غيره للقضاء السكامل على سلطان على بعد ما ظهر لهم من اختلاف أنصاره عليه وثبوطهم عنه . واستقام على ما أخذ به نفسه من هذه السياسة المرنة ، المترددة عن الحسم ، المراوحة بين الإقدام والإحجام ، المتبذية ، أمام الناس ، ككرب وماهى بحرب ، والمؤثرة ، في جوهرها ، وفي حقيقة الأمر ، لسلام ما هو بسلام . . .

ولا غرابة هنا في تثبيت معاوية بنظراته ومخالفته بها نظره أخلص خلصاته من آل بيته وأعوانه ، إيماناً منه بأنها وحدها أداته الطيبة إلى الأمن على نفسه وإقليمه . وإلى التربص بالزمن حتى يسأحه تيسر له الوصول إلى غرضه من أقرب سبيل . وإذا كان قادة الرأي في الشام قد استنقروا إلى الحرب الفاصلة وألحوا عليه حتى أرهقوه . وإذا كان هو قد رآهم ألا يعجلوه على رغبتهم حتى نبوا به ، فإن هذا الإرهاق وهذا التبرؤ لم يدفعاه إلى الرجوع عن رأيه بقدر ما دفعاه إلى الإصرار عليه ، وإلى رياضة نفسه على مراودتهم ومطاولتهم ما وسعته إلى ذلك حيلة .

لكنهم أنقلوا عليه بالمعاودة والمراجعة بين كل حين وحين . . . وكان أثقلهم ، فيما يلوح ، الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، لأنه كان أنباهم بهذه السياسة لفرط حقه على الإمام ، وتمجله الشهادة فيه . . . فلم يكن يرى الأناة في حربه .

ولا يستلصح العارات على أطراف بلاده ولا يرتضى إلا المعاجلة بتفسير الجيوش الكثيفة إلى قلب دولته ليكون ذلك أبلغ في هلاكه واجتثاث أصل سلطانه . .
فدون هذا الاجتثاث والهلاك لم يكن ليهدأ لابن عقبة بال . .

وكأنما اشتهر الرجل بين رفاق معاوية بهذا التطرف ، فكان المحور الذي تدور حوله سياسة العنف السافر ، والملم الذي يلتف به دعاة الحرب المعجلة ، يؤمونه ليذاكروه ما يحد من أمور وأحداث يرونها خليقة بتغيير أسلوب الهوادة والانتظار . ولم يكن الوليد — بغله وبغضائه — في حاجة إلى أمثال هذه المذاكرات لتزيد من علوه ، وتصب تهمته على الإمام في أذن عاهله على هيئة غير حريصة على الملك الأموي النامي في الشام . بل كان دائماً أسرع بما يسمع ويرى إلى معاوية ، ليهبجه إلى القتال .

في لقاء له مع نفر من رفاقه الغلاة ، على رأسهم ابن مسعدة الفزارى ، قيل له :

« إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك ، فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم ، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره . . »

فاستقبل الوليد إجماعهم على بعثه بكثير من الرضا ، وقليل من التمتع ، وقال :
« لقد قالته في ذلك وراجعته وعانته حتى لقد برم بي ، واستثقل طلعتي . . »
لكنه ما لبث أن أردف في إصرار :

« وأيم الله ما أدع أن أبلغه ما مشيتم إلى فيه ١ . . »

وانطلق فأبلغ على خيلاء ١ . فقد طالما دعا معاوية إلى ما يدعون فردده بأباه أشبه بالازدراء . .

ودعاهم الماهل إليه :

« ما هذا الخبر الذي جاءني به عنكم الوليد ٢ . . »

قالوا يحرضونه :

«خبر في الناس سائر . . فشمروا للحرب ، وناهض الأعداء . . اغتم الغرة . .
إنك لا تدري متى تقدر على مثل حالهم التي هم عليها الآن ، فواقه لولا تفرق
الناس عن صاحبك لقد نهض إليك . . .»

عندئذ اصطنع معاوية الرقيق في الخطاب ساترا عنهم ضيقه بهذا الإعجال الذي
يجيشونه اليوم فيه ، وطارده به قبلهم غيرهم من الغلاة . . فقال في هدوء يبرر
أخذه باجتناح الحرب المكشوفة مع علي وإن مزقت شيعته الأهواء :

« . . هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم . . لم يبلغ عندي بهم أن
أطمع في استئصالهم واجتياحهم ، وأن أسير إليهم مخاطرا يجندي لا أدري على
تكون الدائرة أم لي»

ثم استطرد يحذرهم المدفة وما يرومون ، ويبين لهم جدوى سياسة المراوغة
بين القتال والسلام .

قال :

« . . إياكم واستبظائي . . إني آخذ بهم في وجهه هو أرفق بكم ، وأبلغ
في هلكتهم . . قد شغنت عليهم الغارات من كل جانب ، غفلي مرة بالجزيرة ،
ومرة بالحجاز . . وقد فتح الله مصر ، فأعز بفتحها ولينا ، وأذل عدونا . .
وأشراف أهل العراق يأتوننا في كل أيام . وهذا يزيدكم الله به وينقصهم ،
ويقويكم ويضعفهم . . فاصبروا ، ولا تمجلوا فإني لو رأيت فرصتي لاهتبتها . .»

على هذا اعتزم ، وثبت عامين ، تجنبنا للحرب الشاملة التي يستحثه عليها
أعداؤه . . لأنها حرب صريحة ، معلومة الزمان والمكان ، لا مناص فيها من لقاء
مكشوف مع من لا قبل له بلقائه وهو الإمام . . ولا عبرة ، إذا وقعت ، بقشقت
أهواء أهل العراق ، واختلافهم على علي ، لأنه عندئذ الاختلاف الذي قد يذيه
القتال ثم لا يغنى عن المخاطرة بجند الشام . . أما حربه الخفية التي يطلقها على
غير توقع من عدوه ، ويرفع فيها شعار : « اضرب واهرب » ، فله فيها
ولقومه جنة وأمان ولو إلى حين . .

ولقد مضى الرجل وما رأى بأسا وبه هذا حتى فوق من غاراته في أطراف

على نحو عشر في العام التاسع والثلاثين ، يوجهها لتقتل وتسلب ، وتسير فيما تنزل من مناطق سيرة قاطعي الطريق عسى أن يشيع بها في نفوس الناس قلقا ينتهي بهم إلى الإحساس بالضياع والافتقار للطمأنينة ، فيسلمهم الثقة في دولة تعجز عن حماية مواطنيها وتحقيق أمنهم على النفس والمال ليندفعوا من بعد في طريق العصيان . .

بهذا الرجاء سير فرقه العدوانية ، ما من منها بأدنى الأرض وما ضرب في أقصى الأبعاد ، لتبث الإرهاب وتنتشر الخراب . . ولسنا نراه حين فعل قد وطد نفسه — مع أسلوبه القتالي المتذائب — على الفلج في كل الغارات . بل لعله حدس قبل بدئها ، كما أيقن من نتائجها ، أن جهد عسكريه لن يجيئه منها — إن جاءه — بنصر مذكور ، ولن يبلغ به إلى اقتطاع سلخه من هنا أو سلخه من هناك من أرض الإمام . . فما أصاب شيئا إلا أن دمر وخرب ، ثم قتل أناسا ، ونهب آخرين كانوا ، في حساب النفوذ ، غير دوى حول في تغيير الأوضاع السياسية القائمة ارتفاعا بسلطانه أو هبوطا بصولة غريعه . وما أدرك من غاراته كلها إلا فرار عصاباته بالحزى ، وجلها إلا الهزيمة . . وإذا كان قد استطاع بهذه الفرق العدوانية المنقضة أن يطمأ ما جاوز حدود إقليمه ، فقد استطاع أيضا أولئك الذين سيرهم الإمام لردع المغيرين أن ينفذوا من حدوده ، ويقتحموا عليه ولايته ، ويوغلوا في قلبها إلى بعلبك ، مصمدين منها لأقصى الشمال ليهبطوا ، بعد رحلة طويلة وتوغل عميق ، من الرقة عند شاطئ الفرات إلى الكوفة . .

بل قد أوشكت إحدى غاراته أن تبوء ، مع الهزيمة ، بالاستئصال ، لولا أن أنقذها الانعطاف للرحم من الوبال . .

تلك غارة الفزارى على تيماء . .

شاء صاحب الشام عندئذ أن يعهد لأحد زبائنه للسير بغارة مجلبة إلى بلاد لا يخطر انتهاك حرمتها بشطحة خيال أو تصور احتمال ، لعله حين يسلب أهلها أمنهم المفروض ، وييذر فيهم الحزن والخوف أن يشيع في العالمين اقتداره على إنزال الضربات حينما أراد وإن أبت قواعد العرف ، أو شطت بهدفه المراحل وبعدت

المسافات . شاء هذا معاوية ، فبعث عندئذ إلى عبد الله بن مسعدة الفزارى ، وعقد له على نحو ألفين من مقاتلته مجهزين . .

وأمره : أن انزل نيام . وسر منها إلى المدينة ومكة وما يليهما من بلاد الحجاز . وخذ الصدقات عنوة من الناس ، فمن امتنع عن اعطائك فالدماء فى الأداء . . .

وكذلك أبرم العاهل قضاءه فى أوائل الأمنه من قاطنى الأرض الطيبة ، اللائذين بهبط الوحى ، والبلدة الحرام ، والبيت العتيق ، ومهجر الرسول . فما ترده سياسته العدوانية عن اقتحام المقدسات .

والنحدر الفزارى بغارته جنوبا عبر الصحراء حتى بلغ نيام على مبعده نحو خمسمائة ميل من مكة ومثل نصفها من المدينة وإنه ليصف بمن لقي من أهل البادية غير متأنهم ، فيأخذ ما لهم غصبا ، ودمهم إرهابا ، لا يكفه عنهم شيء إلا أن يذلوا له أو يتابعوه . . واستطاع بهذا الأسلوب الغاشم أن يلوى إليه كثيرا من الأعراب ، بعضهم لحق بشردمته كالخراف الذعورة تتلمس الأمان فى ظل كلب القطيع وبمضهم يلحق بذيله ابتغاء الأسلاب ، كأنهم الضباع المنهومة تتبع الوحش الضارى ابتغاء ما يفضل منه من بقايا الفريسة . . .

ولا عرو بمد هذا أن يعنى الفزارى نفسه بمواصلة ما بعث فيه اثارا بأمر عاهله ، وازدهاء بالجموع الكبيرة التى قهرت على السير فى ركابه . وأن يسبق المطايا بخياله إلى اجتياح الحجاز . وما يعوقه الآن والطريق مفتوح ، وهذه المدن التى غدت مطمح إرهابه لا يكاد يحجبها عنه جند مجيش أو تدانها يد الكوفة إذا هى إرادت مقاومته وإنها منه بعتأى سحق ؟ . .

وأوشك أن يطير إلى هدفه . فما هو أن أعد عدته بمبارحة نيام ، حتى فوجئ به فزارى مثله على رأس فرقة من رجال الإمام طوت إليه البادية والليالى ، لتوقظه من حلمه . .

وتلفت ينظر . .

مائة منقذ لهرب ، أو ثغرة إلى نجاة . . وليس بد من دم . . .

وتداني الجمعان . عبد الله بن مسعدة الفزارى على رأس العصابة الأموية ،
والمسيب بن نجبة الفزارى يقود نجدة العراق . . لا معدى الآن عن التحام .
لا فرصة لأحد الرجلين للإدلال بأصله على غريعه . لا رجر المفخرة بالآل ، كما هي
عادة العرماء عند اللقاء . . فكلاهما من نفس الدرجة . والباهة هاهنا
للسلاح .

وعلى الأثر نشبت الحرب

تصاول بجنديهما الفزاريان . . التقى السلاح بالسلاح . . هاجت الأسنة
المشرعات . . تسمر الصراع حمما وصواعق . . حميت وقدة الوغى ساعات . .
حتى إذا أوشك النهار أن يبلغ الزوال ، وتهادت الشمس للغروب وشفقها يمسك
على مرآة الأفق ما تناثر فوق ساحة المعركة من دماء ، بادر المسيب بن نجبة بحمل
رجاله على عبد الله بن مسعدة وشرذمته ، ليفرغ منهم قبل غبشة المساء .

غير أن للرحم حقا . وعزيز دم القربى وإن جار . . وإن حم لذب القتال . .
وإن ثارت السيوف ، وراحت حين غضبها تقذف الهام أو تقذف الأجسام . . فما
أن أطلق المسيب سيفه إلى غريعه ابن مسعدة ليصميه ، حتى سارع فكبحه أن
يصيب مقتله ، كما يفعل الفارس بفارس حرون . .

ثم لمسه بطن الحسام ثلاث لمسات . . وهتف بهمس بصوت خفيض :

« النجاء ! . . النجاء يا عبد الله ! . . »

وعندئذ اهتبل ابن عمه الفرصة التي مدت له في الحياة ، وأسرع يتحول بمن
معه عن الميدان . . بادروا يطلقون للجياد الأعنة . . وينشرون أجنحة الأقدام
فلم يمس إلا ما يكاد يشبه تردد النفس بين الشهيق والزفير حتى كان جمعهم قد
خرج عن نطاق الأسنة ، وتفرق إلى ما يجنه من الهلاك المحتوم . . بعضهم تشرد
في الصحراء ، وبعضهم تبع قائده إلى حصن قريب

وتفرق عن الغارة من كان قد سار في ركابها من البدو ، وآزرها خشية
وطمعا ، التماسا لأمن أو ابتغاء منفعة . وأغار أعراب البواحي على فلول الفرار
يسلبونهم ما نهبوه في غارتهم من متاع ، وما أصابوه من صدقات . . واعتصم

القائد الهارب ومن معه بالحصن ثلاثة أيام ، لا يكاد يبالي الحصار المضروب عليه لأن للرحم حقا ، ودم القربى عزيز وإن جار . . .

فكأنى بالفزارى الظافر قد لقي عنتا من صحبه إذ تلبث كل هذا التلبث بالفزارى المقهور . . . حتى متى يرى أن يطول الحصار ؟ . . . وفيم تصبره بالمعتصمين وما يعوقه شيء عن افتتاح الحصن سوى الاصطبار ؟ . . . وإلام يطاولهم وليسوا علىكون لأنفسهم غير الفناء أو الاستسلام . . .

ولعله — وقد خشى إن هو ظل وما هو عليه ، أن يبوء بعظنة ، أو يشور جنده به ، أو يحجى مدد من الشام ، أو يطمع فيه الأعراب — قد اصطنع الحيلة التي تغنيه عن قتل الآل ، وتكف عنه الارتياح . . .

أحاط القلعة بحطب ، من كل مكان ، ثم أشعل النار . . .

فلما أن تعالى اللهب ، وتكاثف الدخان ، واسودت السماء فوق الحصن كأنها توميء إلى وشك تفجهم للمعتصمين ، اندلع الصرخ من القلعة المحترقة ، تضرعا وإبتهاالا إلى المسيب أن يرحم وقود الحريق . . .

أشرفوا عليه بأبصار زائفة ووجوه مغبرة يستغيثون :

« يا مسيب . قومك ، قومك ! . . . »

فما لبث غير قليل ، حتى قال لأصحابه في عجلة كمن دهمته داهية :

« . . . قد جاءتنى عيون فأخبروني أن جندا قد أقبل إليكم من الشام . . . »

ثم نادى جنوده كأنها يتوقع هجوم وشيكا رأى — حيلة وحذرا — أن يمدحهم له :

« . . . انضموا في مكان واحد ! . . . »

وأمر فأطفت النار ، ليخلى بين أعدائه وبين الفرار . . .

هنا عجب صاحب له ، وقد تنبه إلى تسلل عدوهم تحت ستر الظلام :

« سر بنا في طلبهم ! . . . »

« لا . . . »

وعندما أخذت فرقة النجدة على طريق العودة إلى العراق ، لم يكن على وجوه رجالها من مخايل انفرحة بظهورهم على غارة تيماء إلا كمثل ما تركت النار من حطب القلعة . . . وقد بدد قائدهم بلاهم في الريح ، وأراق نصرهم لتمتصه الرمال . .

وقال له منهم قائل :

« داهنت في أمرهم . . »

وقال له آخر :

« غششت أمير المؤمنين . . »

لكنه شغل عنهم يرجع تلك الأصداء التي ترددت عن قلبه المضطرب ، وملاأت أذنيه بطنين داو ، يكاد يمزق على وقع خطاه : دم القربى عزيز وإن جار . .

الفصل الثالث

ما وراء هذا كله ؟ . .

ما يريدون من أمير المؤمنين ؟ .

أهم يملكون له أمره ؟ . . أم نبوا به ؟ . . أم يرون السكوت على أعدائهم — خلافا لرأيه — أقرب مدخل إلى غايتهم ، وأولى سلوك عليهم اتباعه لفض النزاع ، وترويض معاوية ورجاله فيسلس قياده ، ويكف غريبه ، ويكبح عنهم غاراته التي مضت على وجهها ، شهوراً طويلة ، تعيث فساداً في أراضيهم وتركبهم بالضم ، نائمة الرعب والإرهاب بين أهلها أينما شاء أن يشير لعصباته الوحشية بينان ؟ . .

تیه من العجب والتساؤل تضل فيه المقول ، وتعمى الأذهان ولا تقع في دروبه الجرد على جواب مقبول .

فلولا أن يقال قائم النظرة ، مسرف في سوء ظنه بهم ، اسلكهم ومن بالشام في خيط واحد لحديق عليه . ولأوردتهم أجمين نفس المورد . ولأولاهم النعمة كما أتبع له أن يضرب بكلمة أو سلاح . . فما يراهم كافة : عراقا وشاما ، هنا في جيرة الرافدين ، وهناك على ضفاف بردى ، إلا في حلف وثيق مع البغى عليه ، يصدرون في شروطه بينهم عن مباينة له ، واختلاف عليه ، وتوافق على القراغ منه . .

لكنهم ما هنا في الكوفة ، أشد عليه من أولئك الذين يحرّكهم الماهل الأموى كالدمى ليشتروا الشيع في وجهه ، ويزلزلوا الأرض تحته ، وينسكنوا في يمينه خيوط الأمور والناس . فعيشه بينهم قلق . وثقتهم فيهم رية . . وصبره ملل . وفكره توجس . وجهدهم انتظار . .

هم في ثياب أولياء وصحاب . يرفعون شعاره . يعضون تحت رايته . يلتصقون إلى زمرة نصيره . يضيفون في كثافة صفوفه . ثم يطالعون بالولاء مع كل صباح

وإنهم لا يفلون حرباً عليه — إن لم يزيدوا — عن أهل الشام الذين يناصبونه
العداء على علانية وإسفار ... ودمهم رياء . ولاؤهم زيف . طاعتهم قولة لسان تجمده
دلائلها ما إن تلامس الشفاء ... وقلوبهم ، بعد هذا ، هباء وهواء إذا جد الجد
لم ترع عهداً قطعوه ، أو أقبل الزمن عليهم بخاطر ذابت كما تذوب ذرة الملح
في الماء . . .

بررة أولياء حين العهد ، وجعدة عصاة ساعة الوفاء . . في كل يوم لهم غد
يتملقون به ، وفي كل حال لهم عذر يزوقونه ، وفي كل دعوة لهم علة يقدمونها :
حبيبا حاضرة تحاول أن تبرر ثبوتهم عنده ، أو نكوصهم على الأعقاب كلما
حنهم على الجهاد .

فما غاية هذه المشاقة ؟

ما قصارى تعللهم الذي أواموا به وأحكموه ولا يزالون يلتزمونه حياله رياء ،
أو عيشا به . أو تخاذلا عنه . وانتسكسا عليه ، كأما التسلل قد غدا — فيما
يخالون — هو سواء الصراط . . .

لنوشك الآن — وهو يكابد محنته بهم وبلواه فيهم ، كما يكابد المصعر
الظمآن قيظ الصعراء — أن نطوى معه الزمن والمسافة إلى الوراء . . أن
نقء ذهنا وبدنا إلى مدينة الرسول . . أن نعيش وإياه عهد الكفاح الأول
للمرير والرسالة بمد غرسة طرية العود . . نوشك أن نراء يعود القهقري
على جناح أحاديثه — ليجد كسفة من رجاله في إهاب أولئك المنافقين وضعاف
الإيمان الذين اتوا أشد التواء معمد وهو يدعوهم حينذاك إلى الله . يظهر
له غير ما يبطنون ، ويكتمون ما يرومون . ويقولون ما لا يفعلون ، وإن بدوا
للأسماع والعيون كمن يسرون في موكب الإسلام . .

سيرة هي السيرة ، وصورة كأنها الصورة لولا أن الشمس لم تجمد على حافة
الأفق ، والظل لم يسكن ، وحركة الحياة راحت تمضي إلى غايتها المقدورة تقطع
المراحل على مدى الأعوام والفراسخ لتستدير قديما وتستقبل جديدا من
الأمور والأحداث .

ومع ذلك فليس بتقديم ذلك القديم الذي غاب ، ولا بجديد هذا الجديد الذي لاح ، لأن مظاهر الرثاء ومظاهر الحدائة جميعا قد امتزجت ، وذاب بعضها في بعضها الآخر دون معالم تميز هذا المظهر من ذلك . فكأنما « كوفة » الحاضر هي « مدينة » ذلك الغابر . كأنما أمس لم تغرب شمسها واليوم لم يبرز فجره . كأنما العين التي عاينت الماضي أخذتها عليه غفوة فلما انتبهت وقفت مرة أخرى على نفس ما كان في مجال الشهود والعيان . . .

أفهم تغير ؟ . .

بل لا خلاف في الحالين ، لا تباين بينهما إلا أن يكون في اسم أو سحنة أو موقع من الأرض لم تكن لأنها من قبل هيئة في العين أو البال . ثم نشط الخيال فإذا الذي درس قد تجسد وانبعث حيا لينطبق به ما كان على ما آن . . . فما مضى نشر وعاد . وما وقع بالأمس يقع اليوم . العمل كالعمل . والمظهر كالظهر ، والصورة القديمة التي انطوى عليها سجل مدينة الرسول قد انشق عنها هذه الآونة سجل كوفة الإمام ودبت في أوصالها الحياة . . .

عود على بدء !

زمرة النفاق والرياء طفت من القاع على سطح الزمن من بعد رسوب . . . أولئك الذين كانوا يدبون حوله على الأرض بالعراق لا يكادون يفترقون فتيلًا عن دبوا قبلهم بمقدار جيل على ترى الحجاز . . . لكانهم لهم أشباح . . . بل كأنهم خيال لأصل أو أصل لخيال . . . بل إنهم وهم سواء . ولو أنه تخفف قليلا من ثقل الزمن وحيز المكان لسمع محمدا ، من وراء حجب الماضي ، وهو يردد ما نزل في أمثالهم على عهده بما وصفهم به الله ثم يكاد ما يردده في أولئك أن ينطبق على هؤلاء :

« . . . إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة ليعبدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . . . »

كنافي المدينة غدت هذه الفئة من أهل الكوفة التي تعين عليها اليوم . .

قول ولا عمل . تظاهر وادعاء . وعد ولا وفاء . ولو قد انبثت فيهم ، هذه اللحظة ، رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، لما أنكرهم ، ولا وجدتم تربة غريبة لاستنبات الفتنة والأذى والخلاف للإمام كاستنباتها للرسول . .

قليلًا في بدء عهدهم كانوا ، ولا جدال . كان على العين آنذاك من عامين أو ثلاثة أعوام ، أن تغلب النظرة النافذة في الجموع لتقع بينها على نماذج منهم ، وعلى الفكر أن يقابل ويقارن ليفرق - بغير قليل من العناء والجهد - ندرة خبيثة توشك أن تغيب في غمار جمهرة نقية لم يلطخ قلوبها دنس النفاق . . لكنهم ما لبثوا أن تسكثروا ، على الأيام ، أضمافا عديدة تهول ، كما يتكاثر العفن على الدمن الدوارس بأرض وبيئة ، ليغدوا وهم كثرة غالبية ، أصحاب الطهر بينها أشبه شيء بغرة بيضاء في رأس غراب . .

ولكم توقع من قبل هذه النتيجة الوبيبة ، وخاف على الجمهرة النقية من القلة العفنة . . كم خشي على السواد الأعظم من الناس أن يفتنه انحراف البضعة الجائحة لهواها ، ويجرفه نفاقها معها إلى ظهوى ولفس البشرية نزوات لها سطوات وجمعات ، وللنفاق عدوى ذريعة لا يسلم منها من القلوب إلا ما عصم الله . من البدء أشفق على رجاله من هذه المغبة الوخيمة ، فراح يحذرهم الخطر عسى أن يحفظوا قلوبهم سليمة في جنة حصينة ، عصية على شررة النفاق . . لكنهم لم يصغوا له . لم يعموا قوله . لم يأبهوا قليلا ولا كثيرا بما كان يسديه من ذوب علمه وقد طالما ساق إليهم في أحاديثه الحكمة بعد الحكمة والنذير تلو النذير . .

كان من وصاياه :

« . . . عباد الله ، أحذركم أهل النفاق ، فإنهم الضالون للضالون ، والزالون للزالون . يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا . يعيشون الخفاء ، ويدبون الضراء . قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء . . قد أعدوا لكل حق باطلا . ولكل قائم مائلا . . ولكل باب مفتاحا ، ولكل ليل مصباحا . . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون . . أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . »

غير أنهم سدروا في عمامهم . أبى عليهم العرور أن يسيروا على نهج مصعبه
منهم ادعاهم العلم أن يتلمسوا علما في غير ما يعلمون كأنما قد أوتوا وحدهم خزائن
للعرفه . . . ولو أنهم أنصفوا أنفسهم ، وانتصفوا للحق من هواها ، لما كان لثل
الأشعث بن قيس في حياتهم شأن . ولا للخريت ولا للخوارج . ولا لابن هدد
الذى تسربت إليهم دعاواه وزيوغه نزاحم الهدى في قلوبهم ، وتطفئ عليه ،
وتغرق آخرتهم في زخارف دنياه حتى تبدوا كأنما أشربوا حب العاجلة وجرى
في عروقهم مع مياه الحياة .

أقمن جهالة جرفهم هذا انتيار . . . أم عن غفلة ، أم اغترار . . . أم هو
العنت والإصرار . . .

عن كل هؤلاء . . .

فلقد قدم الامام صورا عدة رسمتهم لنا من كل زاوية ، وفي كافة الأوضاع .
فإذا هي لا تخالف الواقع المتلون الذى عاشوه . . .

فهذه صورة :

« مالى أراكم أشباحا بلا أرواح ، وأرواحا بلا أشباح ، ونساء كابلأ صلاح ،
وتجارا بلا أرباح ، وأبقاظا نوما ، وشهودا غيبا ، وناظرة عمياء ، وسامعة صماء ،
وناطقة بكاء . . »

وهذه صورة :

« . . . يعيشون جهالا ، ويموتون ضللا . . . ليس فيهم سلعة أبور من
الكتاب إذا تلى حق تلاوته . . . ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا
حرف عن مواضعه . . . ولا عندهم أنكر من المروف ولا أعرف من المنكر . . . »

وتوالت الصور في كلامه مثلا وراء أمثال ، وشبها تلو أشباه . . .

هو الآن منهم في محنة تعضله ، وبلاء يعيبه . . . وهم منه في تفرج ولوم ،
اليوم بعد اليوم ، فلا قوتهم التفرج ولا طوعهم اللوم . . . فكم بصر وبين ،
وأفصح وأوضح فإذا هم لا يرعون . وإذا العناد هو دينهم ، والعجاج سبيلهم ،
والمشاقة هي الجادة التى استقاموا عليها لو كانت استقامة على ضلال .

ما من ساعة في عهده إلا طالعتهم بهداه ، وكاشفتهم من خيء علمه بما يصلح حالهم ، ويؤيد صحته منطق الحوادث لعلمهم أن يرجعوا عن غيهم ويشوبوا إلى الصراط لو بقيت فيهم حاسة تميز الباطل من الحق ووعى يفرق الظلمة من النور .. وما أكثر ما ضاق منهم بالصلف والادعاء وتحجر القلوب وجعود الأفهام .. ما أكثر ما غضب فمذل ، وسخط ولام ، حتى لقد فاض فيهم حديثه بما لم تسر قبله بمثله أقوال أو تخط أقلام ! ..

مرة قال :

« .. . ولقد أحسنت جواركم ، وأحطت بجهدى من ورائكم ، واعتقتكم من ربق القل وحلق الضيم ، شكرامنى للبر القليل ، وإطراقا عما أدركه البصر وشهده اليدن من المنكر الكثير .. . »

فهو يغفر جعود الكثرة ، ويغضى عما يصيبه من أذاها أو تقارف من السوء إكراما لحسنى القليلين . أو يصبر على شر غامر قناعة بخير يسير امثالا — بلا تشبيه — للكلام الإلهى الذى قد يجزى السيئة بمثلها ولكنه يجزى الحسنة بعشرة أمثال ليوسع في العفو ، ويخفف عن المسيئين .. .

ومرة قال :

« .. . أحمد الله على ابتلائى بكم ، أيتها الفرقة التى إذا أمرت لم تطع ، وإذا دعوت لم تنجب .. . إن أهملتكم خضتم ، وإن حوربتم خرتم .. . أما دين يجمعكم ! .. إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضونه ، ولا مسخط فتجتمعون عليه .. قد دارستكم الكتاب ، وفاتحتكم الحاجاج ، وعرفتكم ما أنكرتم لو كان الأعمى يلحظ ، أو النائم يستيقظ ! .. »

يناقش ولا يعلى أو يأمر . ويقرع ليدكر ، ويشير ليؤثر . ولئن لاح فى ثنايا هذه الأسطر كمن ضاق حتى دنا من اليأس ، فقد أورد فيها من الأسف ما يبيده كمن لم يهجر الرجاء ، لأن أسفك على ما ييدر من خطأ غيرك تعبير عن أملك فى رجوعه عنه ! .. ولئن كان ها هنا قد خاطب العقل خطاب من استنفد الحجج والأدلة ، فإنه قد خاطب العاطفة بأسلوب من يحرك الحمية والغيرة .. .

ومرة قال :

« .. ما عزت دعوة من دعاكم ا . . . ولا اسراح قلب من قاساكم ا .
أى دار بعد داركم تمنعون ، ومع أى إمام بعدى تقاتلون ا . . . المغرور والله من
غررتموه . . . »

فكأنما آدم يأسه ا

كأنما هم أن يرفع القلم ، ويطوى الصحيفة ، ويفسل يديه ا .
واكتملت أماننا ، من أحاديثه الصورة القديعة لزمره المدينة أولئك ، من
ضعاف القلوب والمنافقين ، في مستهل عهدها بالإسلام . . .
وكيف لا وهام أولاء قد تقمصوا جلود تلسم الطائفة حق إيشبيه الأمر بين
القثنين على المرء لولا فارق الزمن والمسافة ا . . . إنهم كأولئك سواء بسواء . . .
يتلونون ألوانا . يقتنون افتنانا . يمشون الخفاء . يدبون الضراء . . .
أمامه تراهم بوجه ، ووراءه تراهم بآخر . . . قولهم زيف . وعدلم حيف .
ووعدم خلف . وولاؤهم رياء . . . قلوبهم فى كلامهم جميع . وأهواؤهم فى فعالهم
شقى . . لا يكادون يرحون مجلسه حتى ينفرط عقدهم ، ويفتكت عهدهم ، وتنفض
كثرتهم — عتاً ومشاقة — عن رأيه الذى تابعت عليه منذ قليل ، كأنما يحرصون
أن ينطبق عليهم قول الله :

« ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم
ماذا قال آتقا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم .. »

بل ليعنون أحيانا فى اللجاج والحجاج هرباً من الحق الذى عشت قلوبهم
عن ضيائه ، وليأذا بالباطل الذى استمرأوا العيش فى سراديبه كدأب الخفافيش
فى فرارها من النور :

« يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .. »
ثم يرثونه عن الجهاد ، ويعطلون به ، كلما دعاهم بدعوته فيقدمون عه
— تحاذلوا أو خوفاً — ويحملون معهم من وراءهم على التباطؤ ابتغاء السلامة ،
وحرصاً على الدعة والعروض حتى ليحق فيهم ما أورد التنزيل :

« ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلم إلى الأرض ، أَرْضَيْتُمْ
بالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفَرُوا
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ . . . » .

وكم من نماذج لهذا السلوك الذي التزموه مضت في العسيان حق فاريت
المعصية ، واستدبرت الامثال حق أو شكت أن تباعد الإيمان . . .

ألوان من السلوك شقي ، اتفقت جوهرها واختلفت مظهرها ، لو أن أصلا ردت إليه فكان منبعا نبعث منه ، لسكاد مصدرها ألا يكون سوى تطلعهم الشره إلى ما لم يبصره لهم الله من حظوظ ذاتية ، يعجلون قلوبهم وأنفسهم إلى طلبها طمعا وشهوة ، ابتغاء مغنم في مادة ، أو شهرة في جاه ، كأنما أبوا أن يرتضوا قسمة ربهم وتقديره فسعوا لاقتناص ما هفوا إليه ، بغير حقه ، وفي غير أوانه ...

ذاك سبيلهم وإنه لسبيل الجهال الضلال ، والغواية التي تلح دائما على أبناء البشرية فتلتوي بهم عن الجادة المستقيمة ، إلا من عصم الله ، ووقاه الفتنة ...

سبيل حبيب مرئى ، في حساب النفس ، يستقبله ويهطم إليه زينج الأهواء . خبيث وبئس - في حساب الروح - يستدبره ويترفع عنه كرم الأخلاق ...

فأى الحداة حدا لهم ، وقاد قافلهم ، وانطلق بهم في مهامه الخلاف والشقاق والتناحر ، يضطرب بخطاهم ، ويتذاب بها بين خوفهم على اليوم ، وقلقهم من الغد ، حتى أوغل بهم في أعماق التيه ؟ ...

لا عن الخطأ البرئ الذي ينشأ - مع طهارة النيات - عن اجتهاد الرأي عند وزن الأمور بميزان التقدير ... ولا عن الجهل نتيجة لانطباس الحقائق والافتقار إلى الهداية والتبصير ... فما خلت سيرة الإمام فيهم ، تلكم الآونة الحرجة في حياة الإسلام ، من حجة دامغة تقدر فتحسن ، ومن عظة بالغة ترشد وتبين لو خلصت طرايا ، وصحت عزائم ، ووعت عقول ...

فإذا لم يكن الحسد هو مشير الأطماع ، والانحراف هو المظية القلول إلى بلوغها فلا مطايا إذن ولا مشير ... ولا عجب من بعد لو تبدى لنا الأيام ، في وحشاياه ، حربا على كليهما شعواء ، لأنهما منقصة للخلق الفاضل - الذي يستقيم به السلوك فتصلح العلاقات الإنسانية بين الأفراد وتمز المجتمعات - قبل أن يكون منقصة للدين ، أى دين ، وللإسلام - بخاصة - وقد بعث نبيه العظيم ليتم مكارم الأخلاق ...

في هذا المجال يقول الإمام :

« ... إن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس ، فلا تكون له فتنة . »

تلك فتنة الحسد الذي تثور في النفس ضواريه المنهومة وتدفع بصاحبها إلى التحلل من القيم والمبادئ * إذا ما استقل حظه من الدنيا وهو يرى غفيرة تزيد في حظ سواء من الناس في الولد أو الرزق أو العمر وغيرها من فضول الحياة ..

ثم أوضح فقال :

« ... وإن المال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام ... فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه . واعملوا في غير رياء ولا سمعة ، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له »
ولم يكن في قوله بالسابق . ولكنه كان المترجم الأمين لما ورد عن هذه الفتنة في الآثار .

فلقد نهى الله خلقه عن الحسد ، وأعاذهم من خطره وشره :

« قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد . »

وحذرهم سبحانه ما يجرم إليه من ضياع :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب . »

وأثر في كتب الأولين أنه عز وجل قال :

« الحاسد عدو نعمتي ، متسخط لفعلي ، غير راض بقسمي .. »

وروى عن رسول الله :

« ألا لا تعادوا نعم الله . »

قيل :

« يا رسول الله ، ومن يعادى نعم الله ؟ .. »

قال :

« الذين يحسدون الناس . »

وليست هذه دعوة للتواكل ، نعت الطموح ، وتقتل الهمة ، وتحبس المرء في واقع ضيق فلا يحاول — بالزمامها — أن يخرج من هذا الواقع إلى ما هو أرحب وأجدى عليه . بل هي دعوة إلى الطهر والتعفف ، تعصم النفس البشرية من الحسد الذى يطلق الشهوة جامحة بلا عنان ، تمر يد كما تشاء ...

فالطموح — كدلالة لفظه — نزوع إلى الأعلى الأرفع . فهو سمو وتخليق . وهو ، لهذا ، ادعى أن يبلغ به المرء شأواً غرض نبيل ، بحقه ، وفي أوانه ، من طريق نظيف ، بلا انحراف ولا اعتساف ، ودون ترخص منحاز في اختيار الأساليب والوسائل ، لأنه ينشر جناحيه على أرض « عامة » قل أن يرتادها حب الذات ...

والحسد شهوة نهمة . فهو تدل ونزول . وهو ادعى ، لهذا ، أن يشد صاحبه إلى قاع القاع ، لأنه شعور مسعور ، بكنون العطش والجوع ، يتخبط المرء مسه فلا يحس إلا بذاته ، ولا يعمل إلا لها ، حتى لا تكاد عينه تقع على شيء إلا جرعه أو التهمة ، ليرضى شراسته ، غير كاف عن غث أو رقيق ، قليل أو كثير ، له أو لغيره ، وبلا تخرج عن ركوب أخس الأساليب واصطناع أدنى الوسائل بلوغاً إلى مشتهاه ما دام قصاره ملء ذلك الفراغ الرهيب الذى يمشى في جوفه وفكره ولا يعرف الارتواء أو الامتلاء ...

داء عيان ولا كالأدواء ... يعرق صدر صاحبه ، ويفترس إنسانيته ، ثم لا يكون نقمة عليه وحده بل يرزأ — بآثاره — من حوله ومن في وثاقه من الناس ، لأنه يضربه هو بالبلاء ، وهو يضربهم بالابتلاء ! ... وقد جاء عن عبي الحاسد وسوء مآله في حديث مرفوع :

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »

وأجل الإمام ضراوة المحنة التي يوقع الحاسد فيها نفسه في صورة بيانية ،
تجمع إلى وضوح العالم لدع السخرية ، فقال :

« لله در الحسد ، ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله ... »

ولا شفاء من بعد لهذا الداء إلا من داخل المرء ، لأن ذاته التي أفرزت العلة
هي التي تفرز الدواء ... وهل ينشأ الحسد في نفس إنسان إلا من تطلعه
النهم إلى حظ لم يقسمه له الله ؟ ... وهل يمارس دوره في الحياة إلا بتعجل تحقيق
ارغبات الخاصة تعجلاً يدفع إلى التزو الآثم على حظوظ الناس ؟ .. فإذا لم يكن
كبح النفس عن هذه الشهوة الشرهة ، ورياضتها على التعفف عما في يد غيرها
هو العلاج ، فبأي وسيلة أخرى ينحسر الداء ؟ ...

الصبر وحده هو الوفاء ، وهو الدواء ... وهو أشبه شيء بسلوك المؤمن ،
وأخلق بالاتباع فقد ورد عنه على لسان رسول الله :

« الصبر نصف الإيمان . »

واستفسروه الإيمان ما يكون ، فقال :

« الصبر والسماحة . »

وسئل الإمام :

« أي شيء أقرب إلى الكفر ؟ »

فأجاب :

« ذو فاقة لا صبر له . . »

ولا مرء . .

فالحاجة تدفع ونحفز وتثير .. وقد تطيح بالصواب ، وهي إذن محنة واختبار .
والحن محك الإيمان .

وكأنما شاء أن يبين للناس الصبر كيف يكون ثقة في الله ، وإسلاماً له ،
فقسمه ثلاثة أقسام :

« إما صبر على المصيبة ، أو طي الطاعة ، أو عن المعصية . . »

وفي هذا تحصين للنفس — لا معدى عنه — من عادة اليأس والجزع ، وغواية الانتقاص والتمرد ، وإغراء القسوق والكفران . . وهو رياضة لها تهوؤها — عند الغضب — لاستقبال ما تسكره بالأناة التي تعين النظر ، وتأخذ بالثبوت ، فتحسن التقدير وتجيد التدبير . . وهو إلى غير هذه وتلك من مزاياه ، قمع للشهوة ، وكبح للهوى ، ووقاية من الضلال ، وضمان لالتزام استواء السلوك . .

غير أنه المركب الحشن الذي لا يكاد يقدر عليه غير أولى الفهم الذين أشربوا الدين ، ولم يتخطفوه عبارات . . والدواء المر الذي يعافه — جهلاً أو ظمناً — كل من هفت نفسه ، كمثله هؤلاء ، إلى عرض دنياه ، وغلبه على الحق هواه .

فلو أنهم عقلوا ، لأكرهوا نفوسهم على حسوة منه ، تحقق البرء ، وتذهب بالداء . . ولاختاروا سلامة الروح . . ولا أثروا طريق الإباء والترفع والعفة — وإن شق وطال — لأنه السبيل إلى الانتصار على النفس ، وتحطيم النقائص وسيادة المثل الرفيعة ومكارم الأخلاق ، خروجاً بالسلوك البشري من سجن الأنانية والنفع الخاص إلى رحابة إنكار الذات ، والنفع العام . وبلوغاً إلى بناء مجتمع إنساني فاضل يظله الصفاء ، ويسوده السلام . . وهل هو خاف أن الحسد مشير للينضاء ، مؤجج للعداوات ، مؤد إلى التناحر لأنه ينبع من الحقد ، ويعمل للإنانية ، ويدفع إلى السطو على ما في يد المحسود وابتزازه ثم إلى تأمين ثمره هذا الابتزاز بكل موبقة يعرفها الجشع ، أو يتسكرها ، من رياء ونفاق ، واقتراء وكذب ، ووقيمة ودس ، وقهر وإرهاب . .

على هذه الصورة كانت الحال ، تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية تحت عجم الأحدث والكتب التي أعلنها الإمام . في الشام كما في العراق . . في الأعداء كما في الرفاق . في القلب كما في الأطراف بغير كثير من التباين والاختلاف . . تمحسد على الحظوظ . وتهافت على الدنيا ، وتسابق على الاقتناص أو الابتزاز ، جرياً وراء النفوذ ، أو الظهر ، أو الثراء . وكأها كفيل بأن

يشعن النفوس بالبغض ، ويدفع القوم فيما بينهم للتناحر ، لأنه قد تملك العقول والمشاعر ، وتحكم في الأفكار والأفعال .

ولا مدعاة هنا لوجوب القول بخرق هذا التعميم أو شذذه بالاستثناء أو الاستدراك لأن هذا يدهى معلوم . فالاستثناء قرين كل قاعدة ، والاستدراك رفيق كل اطراد ، لأن الظاهرة من الظواهر الاجتماعية : سقيمة أو سليمة . لا تسيطر على عموم وإطلاق . بل هي تسم المجتمع وتطبعه بطابعها ثم لا تكون فاشية في كافة طبقاته وأفراده على سواء . . . فهي تسود هنا بقدر ، وهناك بقدر ، على تفاوت ، متراوحة الانتشار فيه — من جانب الجانب ، وجماعة للجماعة — بين كثافة ورقة ، شيوع وندرة ، مد وجزر ، بروز واختفاء . .

تلك طبيعة الأمور في كل أوان . وهي ها هنا على نفس النسق والنظام . . فإذا مضت النظرة تتخلل الوضع عندئذ فإن المجتمع الإسلامي لم يكن بعد متسق الصفحة ، ساكن الوجه ، كسهل منبسط أو اكبركة آسنة ، تقشابه في كليهما للعالم أو تسكاد حق المستوى فيبدو كأنه بلا فوارق ملحوظة تؤثر في رتبته ، وتميز مكانا به على مكان . . إنما كان أشبه شيء بأرض تباينت سطوحها ، وتباينت مستوياتها بين لين وحزونة ، هبوط وارتفاع فإذا هي أنواع . فيها الهضاب والوهاد . وفيها الجبال والوديان . وفيها الكثبان والقيعان . فلقد كان مجتمع تلك الأيام يتألف من كتل عدة من الجماعات البشرية ، عليها ریاسات شق مؤتلفة ومختلفة ، كانت — على ما بها كلها من تقارب نسبي في مظهرها الاجمالي الذي طبعها به الدين والتوحد السياسي — يبرز بعضها على السطح الشعبي العام ، بفعل الأصل والتراث والظروف الاجتماعية ونزعات النفس ومذاهب الآراء ، كما تبرز الصخور والجنادل على سطح النهر ، فتؤثر في تدفقه ، وتضطرب بسيره ، وتحول مجراه . .

كتل عدة ذات ریاسات مختلفة الطبائع ، متباينة التكوين ، متغايرة الاتجاهات كانت هي التي تلعب الدور الأول — على تفاوت وسائلها — في تطوير الأحداث . فهي وحدها التي تملك القدرة على الإعداد والتوجيه ، وعلى الحشد والتجمع . وهي وحدها التي تستطيع أن تتحكم في العمل القومي ، وتفرض

أسلوبه . وهى بهذا وذلك كانت يدها أعنة الموقف ، تحرك الرأى ، وتسوق الأحداث ، منطلقة بالشمب فى حيثما ارتضت له أن يسير إلى حيثما اشتهدت أن يكون المصير . . . ولا غرو . . . فما يمكن أن يقال ، إلا بحذر شديد ، إن التقليد العربى الذى يجمل مشاورة الرئيس للقبيلة وسيلة لحسم الأمور ، كان دائماً — عند اختلاف الآراء — يفرض سلطانه ليعقق الحكمة منه ، فيرجع رأى الكثرة — أو الجمع كله — إذا كان الرئيس فى الجانب المرجوح . ذاك ما تكاد طبيعة الحياة القبلية تأباه ، لأن أبناءها الذين نشؤوا على توقيير الكبير والولاء له ، يؤثرون — فى الأغلب — لرأيه أن يطاع ، عن اقتناع أو عن اتباع . . . وما يمكن أيضاً أن يقال ، إلا بحذر أشد ، إنه كان ثمة إذ ذاك « شعب » بمفهوم هذه الكلمة الحديث ، له رأى يعلن ، وإرادة تريد . بل تلكم السكتل ، برياساتها ، كان لها الأمر فى الأمة ، تمزم وتبرم ، وتعلن فتسمع ، وتسوق ونقود وجمهور الناس من ورائها إما تابع أو قابع ، ينقادون أو يشاهدون ، فيجرفهم التيار ، أو يصيبهم رشاشه . . .

ولقد كانت كثرة هذه السكتل المسيطرة قبلية ، بطبيعة الحال ، تجمع بين أفراد الواحدة منها صلة الدم أو رباط الاستلحاق . وكانت بقيتها ، بصفة عامة ، بضعا منها مقطعة ، قد انفصلت عن أصولها ، نتيجة للتطور ، فرادى وشراذم ، واستقلت باعتناق رأى خرج بها عن حظيرة إجماع الآل من هذه القبيلة وتلك ، فإذا هى كتلة جديدة ، سياسية كالعثمانية ، أو مذهبية كالحوارج ، تضم أشتاتا من القبائل ، وتعمل لهدف خاص فى نطاق مبدأ جديد ، لافى نطاق ولائها القبلى القديم . . .

فى هذا الإطار ، وينفس المجهر الذى عمدنا به أقوال على فى معاصريه ، تنجلي أمام الأعين تلك القوى المسيطرة على حركة تاريخ الدولة الإسلامية فى ذلك الحين والمالكة لزمام موكب التطور ، فإذا هى فى حقيقة الأمر قلة من الناس مكنت لهم أوضاع المجتمع فى النفوذ ، ووضعهم الظروف فى مقدمة الصفوف . . . قلة استبدت بالأمر دون الشعب ، وباسم الشعب ، وعلى كره من إرادة السلطة الشرعية ، ومباينة لاتجاهها وسياساتها ، ثم على خلاف الناموس الإلهى الذى نزل الله للعالمين دستور هداية وخطة سلوك . . . فإذا حسب حسب أن

أمير المؤمنين — حين أنحنى بلاءه على أعوانه ، وجرم فعالمهم ، فيما سلف من أحاديثه — إنما كان يصيهم « كانه » دون أن يدع منهم جماعة لم يلبسها التهمة ولم يلزمها الإثم ، فذاك حساب خاطئ ، وتأويل ضال ، لا جدال . لأنه يخالف طبائع الناس ويجاوز حدود المنطق . . فأنت تتكلم فتعمم وأنت تريد التخصيص . وتجمع وأنت تريد التحديد ثم لا يحمل قولك على ظاهر وجهه الذي ترميه الألفاظ . وهو أسلوب في اللغة معروف ، يعبر بالكل عن الجزء ، كأن تقول : أشارت يده وتعنى يديه . وجاءت الأمة طائفة والمراد عدد من أبنائها ، كثير أو قليل ، على سبيل التصوير والتخيل . .

قلة إذن ، بالقياس إلى المجموع ، كانت هذه السكتل التي دمع الإمام سيرتها الناضجة باللوم والزراية إذ هي جنادل المرقلة وصخور التمويق التي تترض التقدم الشعبي العام ، وتعمل عمدا بتياره الدافق إلى الركود أو إلى الانحراف . . فهي عوامل تخلف في طريق الانطلاق . وصنائع ردة في طريق الأخلاق . وشراك خداع وتغرير ، وأوكار تمرد وانتفاض في نظر الدعوة الصحيحة وفي حساب الولاء المشروع . يتساوى منها في هذا من سكن الشام أو أقام بالعراق لأنهم آثروا لأنفسهم أن يعيشوا بها ، ويعملوا لنفعها ، بوحيا وهواها ، حائلين بين جمهور الشعب وبين وقائع الحال وحقائق الأمور بما التزموه من سياسة الرياء . . فهؤلاء هنا — ممثلين في فرقة الخوارج ، وفي جمهرة الحزب العلوي — يعوّهون أولاهما تظهر التقى والغيرة على حكم الله ، وأخراهما تظهر الطاعة والولاء للإمام ، دون أن تقرنا المظهر بالعمل المخلص الجاد وأولئك هناك — ممثلين في الحزب الأموي — يعوّهون . يظهرون غضبهم للدم الحرام ، ويدعون الانتصاف للقتيل المظلوم إقرارا لشريعة الله ، فإذا دعوتهم ادعاء مضلل ، وغضبهم حيلة محتال . .

أولاء وأولئك فئتان زائفتان ، لم ترم كلماتها ما تبدتا عليه أو دعتا إليه ، وإنما ابتغتا به السمعة وحسن الأحدوثة بين ظهرائي الأمة سبيلا إلى ما تشتهيان وتتطلع إليه الأطماع . . فلا في قول تصدران عن رعاية للزواج الحلقية والهدبية التي تروع الأهواء ، وتهذب الاشتهااء . ولا في عمل تصدران عن رغبة نقية في مرضاة الله . بل القول والفعل جميعا رثاء الناس حتى ليعجب المرء كيف

يرتضون لأنفسهم مثل هذا السلوك ثم يسوغونه للشعب ، ويجيزونه عليه بما لهم من نفوذ ، وإنهم كافة لأول أجيال الإسلام ، وأقرب أبنائه عهدا برسول الله ، منهم كثيرون عاصروه ، وكثيرون عرفوه ، وكثيرون خالطوه وسمعوا منه ، أو سمعوا عنه ، ما كان ادعى لأن يصحهم من الرياء . .

فلقد قال :

« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . . »

قالوا :

« وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ . . »

قال :

« الرياء . . يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الدين كنتم ترءون في الدنيا فاطلبوا جزاءكم منهم . . »

بارسلعة لصاحبه ، وساء سيرة عند الناس ، وكبر مقتا عند الله مسلكت المرائين . . فالعمل ذو الرياء ما هو يعمل على الحقيقة — لا في حساب النية ، ولا بعقضى النتيجة — لأنهم لم يضمروا ما أعلنوه ، ولم يصلوا به إلى ما ادعوا ابتغاءه والسمى إليه فلا مشوبة إذن عليه . . وهو خداع يتغفل الناس ، ويغرر بهم مستغلا ثقتهم ، منزلقا بخطاهم على التضليل إلى الضلال . . وهو تظاهر بنشدان حق أو بتغيير باطل يخفى المراءون قصدهم وراءه عينا بالحقيقة وبالعقول كأعما سرهم ، أبدا ، مصون مكنون ، وكأعما ليس عليهم حسيب رقيب . . أفلسوا الله ؟ . . أم حسبوا أنهم يسترون عنه ما يضمرون ؟ . . أم غرتهم الأمانى فاستهانوا بعلمه هو الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ويعلم خافية الأنفس وما تكن الصدور ؟ . .

قيل :

« إذا رآى العبد ، قال الله سبحانه وتعالى لللائكة : انظروا إلى عبدى

يستعزى بي . . »

فلا إلى غير الله يلبغى اتجاه النيات . ولا لغير ابتغاء مرضاته تقال الأقوال
وتؤدى الأعمال . ولا بغير وجهه يتعلق الأمل ويعقد الرجاء . .
في مثل هذا يقول الإمام :

« لا يرجون أحدكم إلا ربه . . . »

وإذا كان الرياء كريهاً منهاهياً عنه في الدنيويات ، فإنه في العبادات أدعى لأن
يكون أشد عند الله مقبلاً ، وأزرى عند الناس بصاحب العبادة ، مهما أحسن وقدم
من خير ، حتى إنه ليذهب في الآخرة بإحسانه ، ويتهمة في العاجلة في دينه . .

فعلى ما اشتهر لابن الزبير من ورع ، طالما رأى الناس منه ألواناً ومعالم
تفوق تقوى التقاة ، ونسك العباد . لم يعفه ما ظهر من عبادته من خوضهم فيه
بما يشين سيرته ، ويلوث صفحته ، حتى لقد اتهموه بأنه إنما أراد بتقواه صولجان
السلطان لم يرد وجه الله . .

فقد ذكر أنه ذهب — وهو إذ ذاك يناهض بنى أمية وينازعهم الحكم —
إلى امرأة عبد الله بن عمر لتكلم زوجها في أن يبايعه . . فلما أن فعلت ، وأفاضت
في ذكر صلاته وصيامه وقيامه ، كأنما لترفع عند صاحبها قدره ، وترجع كفته
على من عداه ، حتى بادرها ابن عمر بسؤال :

« أما رأيت البغلات الشهب التي كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم
مسكة ؟ . . »

قالت نجيب :

« بلى »

فقال :

« فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته . . »

وكيفما كانت هذه الرواية فإنها تنصح لنا عن جزاء الرياء عند الناس ، فإذا
هو امتهان وازدراء ، وادعى ابن الزبير أم أخلص النية لله في تقواه ، وأخطأ
ابن عمر في حكمه أم أصاب . . فالحكم دائماً على ظاهر . . والنية سر لا يعلمه

إلا الله . . والحد بين الظهور والتظاهر ، وبين الصدق والادعاء كمثل خيط رفيع ، كأنه غزل عنكبوت ، لا يكاد يدع سبيلا إلى تمييز هذا عن ذلك إلا أن يلهم المرء صواب التقدير . . ومع ذلك فالظهور في العبادة قد يشين صاحبه ، لأنه يستجلب السمعة ، وطلب الشهرة ممقوت من أى سبيل . .

فمن حديث لرسول الله :

« بحسب المرء من الشر — إلا من عصمه الله من سوء — أن يشير إليه الناس بالأصابع في دينه أو دنياه . . »

ونسب للسيد المسيح أنه قال :

« إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى يمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليخستر بابه . . . »

ومن كلام لعل :

« تبذل لا تشتهر . ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم . . . »

وقد سئل النبي الكريم :

— يا رسول الله ، فيم النجاة ؟ . . »

قال :

« ألا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس . »

يقال :

« يؤتى في يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال — أو قال :

كجبال نهامة — وله خطيئة واحدة فيقال : إنما عملتها ليقال عنك . فقد قيل :

وذلك ثوابك . وهذه خطيئتك ، أدخلوه بها إلى جهنم . »

فكم منهم من لعله سيجنب هذا المآل ؟

كيفما كان ما غير القوم عليه ، لم تكن له يد في التغيير . فما بدل مسلكه ، ولا عدل عن رأيه ، ولا جاءهم بعد إمرته بما لم يماقدهم عليه يوم اختاروه .

بل هم الذين بدلوا ونكّلوا ، ملأوا شهوة ، من بعد أن ألقوا إليه بالزمام ، وحملوه تبعه الحكم ، وإنها عند ذلك ثقيلة كالجبال .. يومها لم يكن يرعى إلى الخلافة بطرف عينه . . . لم يدعهم لنفسه . لم يطلب اجتماعهم عليه . لكنهم طاروا إليه حيارى مضيعين ، يلتمسون فيه الخلاص .. طوعا وجزعا اقتنعوا عليه عزلته ، غب مصرع عثمان ، ليكون الأمة ردها من تلك الأحداث التي علت كالطوفان تحتاج البلاد والعباد . .

ولم يصغروا له . أنكروا عليه أن يأبى الإمرة . ألحقوا عليه في القبول . ناشدوه الله في وحدة الأمة وسلطان الدين أن تتمزق ويضيع .. ثم عنفوا به عند الإصرار . ثم أكرهوه بالسيوف . ثم تنفسوا الرضا والطمأنينة إذ أطاعهم ، فماهدوه النصر ليجتاز بهم المحنة الحازية إلى محق الباطل ، وإحقاق الحق ، وإعلاء كلمة الله . .

فما بالهم الآن ؟ . ما الذي غيرهم ؟ .. كيف خرجوا من وثاق كلمتهم له ، وعهدهم الذي أبرموه ؟ . أقد استطالوا طريق الكفاح وأعيامهم السير عليه ؟ أم نقد الصبر ؟ .. أم راودتهم الأنفس على النكوص ؟ ..

كلما دعا صموا . وكلما أومأ عموا . وكلما جمع شتوا . كأنما بعد أن عاقدوه على الآخرة حنوا إلى الدنيا فآثروها ، وصبوا إليها صبوة الطفل إلى ثدي أمه من بعد فطامه . .

لم تكن له يد في التغيير وإن طالما اعتذر لهم عن سلوكهم إزاءه كل من شاءوا انحيازاً إليهم ، على حسابه ، بتبرير الوقائع ، واعتساف الأسباب ، عن غرة وجهل ، أو على وجه الأدعاء والالتواء . .

ولقد قيل الكثير في مجال التبرير ..

قيل :

أغفل على اختلاف الظروف والأوضاع بين ماضى الأمة وحاضرها لحكم الدولة الترامية الأطراف بنفس أسلوب الحكم في « دويلة المدينة » التي كانتها المجتمع الإسلامى عند نشأته ، غير مبال التطور الذى تناول بيد التغيير كل جوانب الحياة الاجتماعية : معنوية ومادية ، على مدى الرقعة الجديدة لشعبه الكبير . .

قيل :

نسى في الناس طبيعتهم البشرية السكافة بمتع الدنيا وخيراتها ، الشغوف بالعبور على جسر السعى إلى تعديل نعط الحياة بيلوغ الأنفع الأحسن ، واحتياز الأوفر الأكثر وما يمثله هذا التعديل من رغد ورفاهة عن طريق إشباع غريزة التملك وحب الاقتناء ، فإذا هو يخاف هذه الطبيعة فيهم ، ويحاول — على خلاف سنة الحياة — أن يجسبهم في واقعهم أو يردهم إلى الوراء ، حاملا إياهم على كل ما يشق عليهم ، ويؤود احتمالهم ، من تقشف وحرمان . .

قيل :

. هفت جمهرة أصحابه ، وإنهم لبشر — جزاء عادلا لجهدهم — إلى مثل حال أقرانهم بالشام الذين أوسع لهم معاوية في العطاء والبذل : مالا وجاها . وسخا عليهم بكل أطايب الحياة وما يفوقونهم بفضل سابقة ولا بلاء ، مادام العمل هو الذى يحدد الجزاء .

قيل وقيل ، من التعلات والمآذير — حسبما اشتهت ذرائع التدليل وحجج التبرير — كثير وكثير . .

فإلى أى مدى يلم ما قيل بجوانب الصدق من قريب أو بعيد ، في الكثير أو في القليل ؟ ..

وعلى أى نحو يطابق الحقيقة جوهرها — دع الهيئة — وفي البليات — دع التفصيل — إذا ما وضع في مجال النظرة الفاحصة ، ثم عور بعياد

الواقع السكائن فضلا عن معيار الدين ، ومعيار الخلق ، ومعيار الفطرة وأمثالها من ضوابط الأقيسة ودقائق المعايير . . .

علل سقيمة عليقة . وذرائع مثلومة مذلولة ، كلها لاريب يتعلق بالجانب المعتم في حياة الإنسان ، ويدور بفلسكه ، كأما المراء مادة خاصة ، من لحم ودم وعظام ، جبلت من طين الأرض فلا تقيته إلا المادة ، ولا ينحيه غير الطين ، ولا موضع في كتلة الصماء لقبس الضياء الذي نقشه روح الله ليشتعل الفكر ، ويذكي القلب ، ويشعد الضمير ، ويمادل فيه بهذه النفثة الربانية بين كثافة الظلمة وصفاء النور . . .

إنما يقصر شأو كل هذه الأقاويل ، أصولا وظلالا ، أن يحس الإمام ، أو يلحق بتفكيره أو تديره حاكم وكانسان ، لأنها جميعا في نظرة الحق أباطيل . . .

فلا عن إغفال ولا تغافل فعل الإمام ما فعل ، وساس الأمور والناس كما ساس ، وإن شئت تهمة ظالة أن ترسمه وقد أغمض عينيه عن حركة التطور وما عليه أو تقتضيه . كأما التطور ، في حساب متهميه ، تحلل . وكأما مسيرة التغيير تدعو ، لا محالة ، إلى الخروج على ما شرعه الدين من الأسس والقواعد ، ووضعها للحياة من الضوابط والمعايير . . .

ولا عن نفع خاص ، أو رغبة في التضيق على المسلمين ، حاجز بينهم وبين خريزة الاقتناء أن تغضى على سعياتها ، وحال دون الاكتناز أن يطغى فيهم ، فأعطى بمقدار ، أو حرم ومنع ، وقطع الطريق على الرفاهة والبذخ والثراء إلى الاستشراء . . .

ولا عن جمود لبلاء أصحابه ، وإنكار لاقتدارهم ، أو عن شع وتفتير شد قبضته ، فأمسك عنهم ما أباح معاوية أضعافه رجالا مالأوه أو هادنوه لا ذكر لهم في حساب فضيلة ، ولا خطر في ساحة جلال . . .

فإن يكن قيل غفلة عن حركة التطور وعملا لا بد أن تفرضه من تغيير ، فذلك غفلة قائل قوله مدحوض مردود بشهادة البدائه قبل شهادة الشهود . . . فما كان

سلوك الإمام سلوك الغافل أو المتغافل ، بل سلوك المستيقن الواعي الذي تبدى له خلف ستر التطور المموء بواذر التخلف والانهيـار تهم أن نحتاج الأمة فلا يـخـدعه التـمويه ولا يـسـترخى للـتـيـار .. لـكـنـه يـبـادر إلى مـواجـهـة المـوقـف كما يـنـبـغى أن يـنـهـض فيـه مـناـضـل يـعـرف مـوقـع قـدمـيـه ، و مـرـمى بـصـرـه ، و حـقـيـقـة دـورـة فـيـثـبـت لـمـوا مـل الحـلـل و الـانـحـراف مـحـاولـا أن يـكـسـر شـرـتـها ، و يـفـل حـدـها ، و يـقـطـع عـلى جـمـاعـلـها الـغـازيـة المـادـيـة طـريـقـها ، دـرءا لـخـطـرـها ، و عـودا بـعـيـثـمـه إلى الـقـيم الـفـضـلى الـى أرسـاء عـليـها الإـسـلام . و هـل مـن يـقـول إن الـخـروج عـلى قـواـعـد الأخـلاق ، و قـصـم الصـلات الإنـسـانيـة اللـو ثـقـة الإخـاء و العـدالة و المـساوـة — بالـجنـوح إلى الـأنـانيـة و تغـليب التـروا ت الـخـاصـة و المـطامـع الفـردية عـلى صـالـح الجـمـاعـة — تـطـور و ارتـقـاء ؟ . أم مـن يـقـول إن الدنـيا تـصـلـح بـتـدبـير البـشـر — بـكـل ضـمـفـهم و خـطـلـهم و اضـطـراب تـقـديـرهم — مـثـلـها تـصـلـح بـتـدبـير خـائـفهم الـذى يـحـيط عـلـمـه بـمـشـهـود يـومهم ، و مـجهـول غـدمهم ، و طـاقـة الطـبـائـع ، و خـبـء السـرائـر ، و نـزغ الصـدور ، و الخـفـايا الغـيـبات لـهم في الدـهر مـن الصـروف و الأمـور ؟ . . .

وإن يـكـن قـيل شـاء أن يـحـارب في رـجـالـه طـبـيـعـتهم البـشـرية السـكـانة بـتـوفـير رـغـد العـيش و الـاسـتـزادة مـن طـبـيـات الحـياة . فـجـبر عـلـيـهم أن يـبـاغـوا مـشـتـهـام . و ضـيق عـن شـع أو ابتـغـاء و جـه التـضيـيق . فـتـلك قـريـة شـائى خـادع . أو نـظـرة غـر عـخدوع . لأن الإـمـام لم يـرد أصـحابـه عـلى شـئ إلا بـدأ أولا بـنـفسـه . و لم يـحـمـلهم قـط عـلى ما يـجـاوز طـاقـتهم أو يـؤوـدهم حـملـه مـن الشـاق العـسير مـن الأمـور و إن حـمل دأـما نـفسـه عـلى الأشـق الأـعـسر ، تـعـفـفا و زهـادة . . .

قال في بعض أحاديثه :

« . . . إني والله ما أحكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها . ولا أناكم عن معصية إلا وأنتأهى قبلكم عنها » .

و صدق سيرة قوله . . .

و زار مرة صاحبه الملاء بن زياد الحارثي ، فقال له الملاء :

« يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد »

فسأله :

« وما له ؟ .. »

قال :

« لبس العباء ، وتخلّى من الدنيا . »

فأمره :

« على به »

وجيء بمصم وإنه لناسك عابد ، نبذ الدنيا ، واشتد في الزهد على نفسه .
فإذا الإمام لا يحمد له سلوكه ، بل ينكره ، ويلومه عليه :

« يا عدى نفسه ! . لقد استهام بك الحديث . أما رحمت أهلك وولدك ! .
أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ . . أنت أهون على الله من
ذلك ! .. »

وكأنما عجب عصام لهذا اللوم على الزهد يسوقه إليه أزهد زاهد ، فقال في
تمعجب :

« يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك ! . »
فكان الجواب الذى تلقاه :

« ويحك ! . . إني لست كأنت . . إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن
يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبجح بالفقر فقره ! . . »

وليس هذا بقول من يرى التضيق على الناس وحملهم على التقشف ، ولكنه
رأى من يحب أن يفسح لهم في الطيبات من الرزق ثم يعمل على أن يحد من الرغبات
النهمة ، ليقمع الغلو في مطالب الجسد ، ويمنع استشراف الرفاهة أن يطغى على الروح .
فإذا ارتأى أن يشد على بطونهم وأيديهم هونا ، ويأخذهم بزجر الشهوات ، فتلك
خطة معلم مصلح ، تروض الطبايع ، وتهذب الغرائز ، وتطهر الأنفس توطئنا لهم
على الاحتمال والصبر ، وتوجيها إلى ما يردم عن الجشع ويجنبهم البطنة النفسية ..

وهى طريق نظيفة مستقيمة إلى توثيق صلاتهم ، وتوطيد روابطهم ، ومنع وحدتهم أن تتصدع لأنها الوسيلة التى يقصر بها مسافة الخلف الاجتماعى بينهم من فرد لفرد ، ومن طبقة لطبقة ، بما تؤدى إليه من المقاربة السمحة اللينة بين ما فى أيديهم ، فلا يستطيع بعضهم ، بما يملك ويقتضى ، على بعض . ولا تستعمل سطوة المال التى لا تؤمن بغير الأنانية والفردية ثم لا تثمر سوى التعاسد نتيجة لما تخلقه من تفاوت فادح فى الثروات مآله لا محالة وقوع البغضاء واشتعال العداوات . .

وإن يكن قد اختار لهم نهجا جعلهم فى مجال الأرزاق والأعطية خلف أصحاب معاوية ، وأقل حظا من المظهر والجاه ، فليس هذا لأنهم كانوا فى عينه ، وفى حساب الحقيقة ، دون غرمائهم أولئك درجات أو درجة فى السابقة أو فى البلاء . . بل لأنه كان يمثل أقوم شرعة إنسانية ، وأحقها بالاتباع فى ميدان السياسة وميدان الأخلاق على الإطلاق وهى شرعة المساواة . . فهو يسوى بين قومه كافة ، خاصة وعامة ، قريبين منه أو بعيدين عنه ، فيمنح بالحق ، ويمنع بالحق ، ويسوسهم أجمعين السياسة السليمة التى لا تزن الناس بميزان الأحساب والأنساب ، ولا تقيس أقدارهم بمقياس المداينة والتزلف ، بل تضع العمل فى كفة ، والجزاء فى كفة ، وترتب الحقوق على الواجبات نوعا بنوع ، ومقدارا بمقدار ، بغير تحيز أو تحيف من زيادة أو انتقاص . . ولم تكن هذه سنة معاوية فيمن رعا من وعيته ، وإنما كان ميزانه هواه . يعطى من شاء كما شاء ، ويسخر على بطائنه ومن يجتنبهم — من دون الناس — السخاء الذى يرفعه فى أعينهم ، جنوحا إلى الرياء ، وشراء للسمعة ، وهو عليم أنه بفعله يجافى العدالة ، ويهدر المساواة ، ويجور على حقوق من عداهم من الجمهور . .

واشئان هنا بين مطلب ومطلب ، وبين أسلوب وأسلوب فى نظرة الحق ، وفى حساب كبح الغرائز ، وتهذيب الأنفس ، وتقويم الأخلاق ، وتربية الأفراد والشعوب . فصاحب الشام ، وهو يعطى فيفيض ، كان يعمل لنفسه بهذا العطاء والسخاء وإن بدا لأولئك المتفهمين — ولئن بهرتهم أريجته الظاهرة من أصحاب على — فى هيئة المطوف الكريم . والإمام ، وهو يعطى فيقدر ، كان يعمل

للحق ، وللخلق ، وللأمة جمعاء وإن بدا المسك الضيق في ظن أولئك وهؤلاء .
وهل من مرء ، ومماوية إنما كان يبتغى الحكم ويسعى إليه من خلال مداينة
طائفة مستغلة من الزعماء ، مكن لها وضعها الاجتماعي في السيطرة على من تحتها
من أتباع . . . وعلى إنما كان يرتجى وجه الله بحرصه على إعادة بناء المجتمع
الإنساني من جديد ، وفقاً لناموس الحق ، وعلى أساس المساواة التي شرعها
الإسلام سبيلاً للحياة السعيدة بلاء تميز — في جزاء العمل — برفع الخاصة
فوق العامة ، ويضع التابع تحت المتبوع ؟

كانت الإمرة لمعاوية غاية ، وكانت للإمام وسيلة . . . قصارى صاحب الشام
من سياسته ابتزاز الحكم إذ هو الغاية التي يستباح في سبيلها كل مشروع وغير
مشروع من الأسباب والوسائل ، وتهون دونها كافة الغايات والحرمانات . . .
ومسلك الإمام تطويع الحكم وسيلة لغاية كريمة هي إقرار إنسانية الإنسان ،
بقمع الانحراف ، وغرس الفضائل ، وسيادة العدل ، وتوزيع نتائج العمل وخير
المجتمع — بالحق — على جميع من فيه . . . ولا عجب وهو من شب في حبر النبوة
ونهل من مكارم خلق الرسول ، وتشرب دعوته بالفكر وبالقلب وبالروح حتى
نفذ نورها إلى كيانه ، وشاع فيه إلى أبد أغواره وأخفى خفاياه . . . ولا عجب
أيضاً وقد طالما تبين معاصروه ، من أقواله وأفعاله ، بيان يقين ، مدى زهده في
نصيب الدنيا ، وعزوفه عن السلطان ، لولا تبعته أمام ربه ، وواجبه نحو شعبه .
اسمه يقول ، في أول حديث له إلى أمته وهو أمير ، تسمع قول متحرز هباب
يقظ الحس ، مرهف الضمير ، يخشى الله ، ويرجو عونه على ابتلائه بمحنة
السلطان :

« . . . ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهاً للولاية
على أمة محمد ، حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنني سمعت رسول الله يقول :
أيما وال ولي الأمر من بعدى ، أقيم على حد الصراط ، ونشرت الملائكة صيفته ،
فإن كان عادلاً أنجاه الله بعده ، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزائل
مفاصله ، ثم يهوى إلى النار فيكون أول ما يلقاها به أنفه وحر وجهه — ولكني
لما اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم . . . »

واسمعه أيضا بعد ذلك وهو خاشع يناجى الله ، تسمع قول معتذر أسيف
على قبول السلطة ، وولاية أمور الناس :

« . . . اللهم إني أعلم أنك تعلم أنه لم يكن الذى كان منا منافسة فى سلطان ،
ولا التماس شئ من فضول الخطام . ولكن لتد العالم من دينك ، ونظهر
الإصلاح فى بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك . »
ثم زائفة ، فتراة ، ونقد متهافت مردود ، تؤثم الناقد ولا تؤثم المنقود . . .
فلقد شاء شائئ الإمام ومعارضوه ، فى حين عصره ، وفيما تلاء حق اليوم من
عصور ، أن يلصقوا به إغفال حتمية التطور ، والعجز عن إدراك مقتضياته . فإذا
هم ، يزعمهم هذا الذى زيفوه ، لا يتهمون إلا أنفسهم ، ولا يسمون غيرها
بقصور الفهم ، وكلال النظرة ، وسوء التقدير لحقائق الأوضاع والأمور .

ودعهم وما يدعون . . . فليس بالجسد وحده يحيا الإنسان . وليس بالتعيش
بميش . . . أم يؤثرون — ولا تقول يخالون ! — أن تكون الحياة البشرية —
حركة آلية تائمة ، تضى بأهلها من فراغ روحى إلى فراغ ؟ . . . أم يرون
الإنسان — رأى يقين — كتلة صماء خالصة ، من دم ولحم وعظام ؟ . . .
أم يحلو لهم أن يزفوا مطالبه فى هذه الدنيا بميزان المادة ، فلا تكون بهذا الميزان
إلا حسية ، ولا يكون هو بها غير شهوة بطن منهوم ، ورغبة جنس شهوان ؟ . . .
تلك دعواهم المقتراة ! .

دلالات اختلافهم عليه لا تخفى وإن طالما أضروها في مظاهر الولاء . .
تجتم في مغاور الشعور . في النظرة المأبرة . في نبوى اثنين . في همس جماعة .
في حركة البنان وإيعاء إلهام . . في الرغبة المكبوتة دليل . وفي التطلع الشره
دليل . وفي النقد المزخرف دليل . وفي التعلل المائع دليل . وفي السلوك المتجانف
دليل . ومن خلال هذا كله يتفجر اللوم فينحرف به كثيرون — عفوا أو عسفا —
ليجرف الإمام ، ولا يصيب بتياره أو لثك الحقيقتين بأن يغمرهم فيضة من الأقدام
حق الرءوس ، لو أنه ترك لينطلق في مجراه المنطقي السليم . . .

ولا غرو ، فتلك طبيعة الافتراء . ولا تثريب على امرئ أن يجتهد الرأي
فيضل الطريق ، أو يقدر فيخطئ التقدير . ولكن التثريب أن يعلم ويستيقن
ثم يتأى عن الحق ليأخذ على جانب الخطأ ويعمن في عماية السبيل . ثم يدعو
بدعواه . ثم يستدرج غيره إلى الباطل . . ثم يتهم من أصاب .

هذه خطة في الدعوة وفي العمل يقوم أساسها على التويه . ولكنها سهلة
ميسرة لكل ذى مأرب لا ترد . النفس أن يدخل إليه من أى باب ، ويحصل
عليه بأى أسلوب . فما الادعاء إلا تقسم . وما التقسم إلا اعتداء بنقض الحقيقة
أو يقطعها أشلاء . فلا حرائج دون وصول ، ولا حوائل دون ظلام . .

ولقد فشت فاشية الادعاء على الإمام عند ذاك فيمن حسبوا عليه أو حسبوا
له من الأعداء أو من الأولياء سواء بسواء ، على تفاوت في الحجم والسك ، وفي
القيمة والنوع ، بقدر التباين بين الغايات . وما كان لها إلا أن تفسد في ذلك
الأوان وتفيض ، لأنها الظاهرة التي تمايش القلق النفسى الناجم عن تمزق المجتمع
بسبب تأزم الأحداث الذى شارك في تكوينه وظهوره تضارب الأفكار ،
وتصارع الأهواء ، واختلاف الأهداف .

ومن الخطأ أن يتبادر إلى الذهن أن معاوية كاف منبع التمزق الاجتماعى

الذى أصيبت به ، في هذه الآونة ، أمة الإسلام ، لأنه خطأ لا يفتح العاهل لحسب ، بل يحمل الحقيقة أيضاً فوق ما تطيق . لكنه كان رافداً دافقاً غذى المحنة وأمدّها بأقوى مقومات النماء والحياة . أما نبنتها فليست بنت يومها ، ولا هي شامية خالصة ، أو عراقية محض ، تنسب إلى ذلك الرجاء أو هذا دون سواها من الأرجاء . . . وأما أصلها فضارب في أغوار ماضى هذه الدولة الجديدة إلى غير قريب . وأما نشأتها الأولى فمعزوة إلى عوامل عديدة مختلفات ، شاركت كلها في تخليقها بذرة مخصبة . ثم في غرسها بقربة الاستنبات . ثم في تعهدّها بالسقيا . ثم في استوائها على ساقها دوحة ضخمة ، صلبة الجذع ، مشتبكة الفروع ، مزرقة الأفنان .

عوامل شتى — في حساب الإحصاء — هذه التي أصابت المجتمع الإسلامى بمرض التمزق وهو في أوج عزته ، وعارض واحد جميعها في حساب التأثير . إنها لتباعد عهدا ، وتتنوع هيئة ، وتتغاير مواضع ، ولكنها إنما تختلف لتألف ، وتفترق لتتسق ، وتتأثر لتجتمع ، وتتعدد لتتوحد . فإذا بها قد عثلت كتلة متماسكة في آفة « النظرة الدنيوية » التي ملأت الأعين ، واخترقت القلوب ، وغزت الأذهان . ولا عجب أن يقع للأمة مثل هذا التبدل السريع . فخلائق الناس أدنى إلى حملهم على التمجيل بهذا التبدل ، لأن طبيعة الانسان أميل إلى الأخذ بالمحسوسات منها إلى الروحانيات . ولأن كيانه البشرى ليس به غير روح شفاف يحاول وحده ، كالمستبثس ، أن يتعادل في ميزان التزعزعات ، مع نفسه الكثيفة ، وبدنه الصفيق الذى يضم عدة حواس .

النظرة الدنيوية هي التي سيطرت على الناس ، وصيغت بصفتها الصارخة الرغبات والغايات . . فلقد جاءتهم الدنيا في موكب ثرى يبهز العقول . وراودتهم على البذخ والرفاهة . وفاضت لهم بكل ما تهفو إليه الأمانى وتصبو الأحلام حتى ليوشك المرء منهم أن يبلغ قصارى مشتهاه وهو مريح لا يكاد يدرك إليه لاقتطافه بجهد مذكور كأنما الخير غيث منهمر من سماء مدرار ، سحابها لا يقلع ، وماؤها لا يفيض . . النىء كثير . الرزق موفور . . المعانم تقبل عليهم من كل مكان مشته عليه الفتوح بالمال والسبي والرياش . . فبنوا الجزيرة العربية الذين كانوا ،

في الأغلب الأعم ، يعيشون القشف والشظف والفراغ ، يطعمون التمر ، ويكتسبون الوبر ، ويسامرون أنجم السماء ، سغت عليهم الدنيا بلذاتها . من كل طيب وناعم ومشتهى ، فأكلوا طعام كسرى وقيصر ، ولبسوا الحرير والديباج ، وسامروا الوتر والقيان . أفترأهم وقد تذوقوا هذه النعم ، واستطابوها وألقوها ، نابذوها طائعين ، وآخذين أنفسهم من بعد على ما كانوا عليه من تعط الحياة الغليظ الحشن الذي عاشوه في مستهل الإسلام . . .

عند هذا تخور عزائم وتضعف إرادات . . . فالنفس هي النفس ، والإنسان هو الإنسان . وكم من خائر وضعيف أمام ملذات الدنيا ، لا تغمض عنها عينه ، ولا تكف يده ، ولا يتعفف هواه . . . وما أحلى لامرئ من متعة تسعد بها أحاسيسه ، ويرضى بدنه . وأن يحقق من رغباته الأرضية قوة باحتياز سطوة ، وبذخا باكتناز ثروة ، ونشوة بإشباع شهوة . . .

وقد استمر أناس هذا الضعف ، كما يستمرى خدر الحجرة أليف الكأس ، لأنه يدغدغ مشاعرهم ، ويداهن غرورهم ، وعلى لهم في نزوعهم إلى الزهو وحب التفوق والاستملاء ، فكان الأشبه الأليق بهم أن يغدوه لا أن يعجلوا بعلاجه أو القضاء عليه . . . فما برؤم منه إلا قع للفرائز لهم لا يطيقونه ، وأحرى بهم ، إن أطاقوه ، أن يجتنبوه ، مادام يأتيهم من طريق رياضة النفس على الحرمان ، وكبحها أن تنعم بما يروونه لذائد شهية لا تحلو لهم بخيرها الحياة . . . وعرف معاوية فيهم هذا الاستمرار فلم يحاول مناهضة الضعف أو مغالبة غلوائه أن تتفاقم . فلا هو خنقه في ذات نفسه بضمير رجل من رواد الإسلام ليكون قدوة للاحتذاء ، ولا هو حاربه في ذوات غيره من الناس بسلطان حاكم مشغول عن تقويم رعاياه . . . إنما أفسح له في الاستفعال ، وخلي بينه وبين الاستشراء لأنه علمه وسيلته الكبرى إلى استجلاب الأعوان — بل استدلالهم لأمره ، واستغلالهم لأغراضه — جندا كثيفا ينصرونه في صراعه لاستجلاب النفوذ . . .

العاقل الأموى عرف طريقه ممهدا إلى تأليب طائفة من الأمة على الإمام ، وفض طائفة أخرى عنه ، والاستزادة لنفسه ، قبل هذا وبعده ، من الأتباع . . .

من خلال المتع والمطامع لهذا الرجل إلى نفوس الكثيرين بما يخيلهم به من كل ما يشبعهم الأهواء من النشب أو النصب أو المال . . . وبسلطان النزوات وغلبتها على الطبيعة البشرية استعبد الجموع ، سادة ومسودين ، وربطهم بركابه ، ثم ساقهم ، أو قادمهم ، إلى حيثما شاء وهو ضامن أن يطيعوه ، لأنه استطاع أن يحمي غرائزهم ، ويربي شهواتهم ، ويغذي كلهم بالظهور ، فلا غرابة — وهذه كلها ربائيه ١ — أن يكون أصحابها أجمعين عضدا له على بلوغ مرماه . . .

لا غرو إذن أن تصبغ « المادة » فرس الرهان المجلاة في ميدان الصراع بين معاوية وبين الإمام ، إذ هي العون الأول لصاحب الشام على الاستكثار من الأنصار ، ما دامت لها القدرة الفائقة على الإغراء والإغواء ، والقوة الأسطورية للجذب والاستمواء . . . وعندما تقاس بها وسائل على في الدعوة لأهدائه ، وكما لها جهاد للنفس ، لا تعجب حين نرى كيف تتقدم الأولى ، وتتخلف الثانية عنها أشواط، ومراحل ، في عالم بدأ يسبح إلى الحسيات ، ويدير ظهره للروحانيات . . .

وهين يسير أن يعتذر لرجال معاوية بالشام إذ يقبلون على الدنيا يطلبون المال ، وينشدون الرغد ، ويصبون إلى الترف والرفاهة ، فذاك سبيلهم الذي شقه لهم صاحبهم ، ودفعهم إلى السير فيه . . . ولكنه عسير مستعص أن يعتذر لرجال الإمام بمثل هذا الاعتذار ، لأنه ، دأبا ، قد دعاهم إلى التحرر من ربة المادة ، وسلطان النفس ، مترفعا بهم أن يكونوا كمثل السوائم قصارى مهم من السعى في الأرض لئلا الجوارح ومتمة الأجواف . . .

إنما قد شاء على لأصحابه أن يكونوا — على ما أرادهم الله — خير أمة أخرجت للناس ، تقاتل لتعيا ، وتحيا لتعمل ، وتعمل لتخلد سيرة عطرة على هذه الأرض ، وأنفسا مطمئنة في رضوان الله . . . فالبدن تبع للروح . . . والدنيا سبيل الآخرة ، وكل حسي مادي ما ينبغي أن يكون إلا وسيلة تخدم المبادئ الرفيعة التي تنقي بها القلوب ، وتطهر المشاعر ، وتصفو الأخلاق ، ويعز الإنسان . . .

فإذا كانوا قد استجابوا لغير دعوته فمن صمم . . . أو مشوا على غير دربه فمن عمى وليس عن قصور منه في بث الدعوة ، أو تهاون في التطبيق . . . وعود إلى

حديثه لهم يوم البيعة يلبيه الغافل ويذكر السهو ان ولا يدع لامرئ فيهم ولا من بعدهم مجالا للتعلم أو الاعتذار . .

في بيانه الجامع الذي ألقاه عليهم إذ ذاك ، نشر لهم صحيفته ، موضحا نهجه ، محمدا أسلوب عمله بجلاء . .

قال بعد استهلال :

« إنا أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ما عليكم وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به إن استقمتم فامضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه »

قطريقه إடன் كتاب الله ، وسنة الرسول . أما استقامتهم له ، امتثالاً لما يراه ، فهي عندهم وعهدهم حين بايعوه . .

ثم دار في جموعهم ببصره ، يتنقل بينها من يسار ليمين ومن يمين ليسار ، كأنما يحصيهم عدا ليصرم أجمعين في نظره صرة الدنانير والدرهم ، لا تدع فيها واحدا ، ثمينا أو غشا ، إلا احتوته وأطبقت عليه . وعندما استوعبتهم عينه ، رفع صوته يخاطبهم بجرس جلى وقول صريح ، بلا إدغام أو إبهام ، وبغير مواربة أو تلميح ، لكيلا تكون لأحدهم حجة عليه من بعد ، أو يخوض في عباراته ومعانيه بما لا تطيق من تحميل وتأويل :

قال :

« ألا يقولان رجال منكم غدا — قد غمرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عارا وشنارا — إذا ما منعتم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون : حرمتنا ابن أبي طالب حقوقنا »

أفهر بلاغ ؟ . .

بل بلاغ ونذير بيان أبلج كالنور . ورأى قاطع كالسيف . ونهج مستقيم كالصراط . كلها تعلن على الأشهاد أن ذلك الثراء الفاحش الذي احتازته

طائفة منهم ، فيما خلا من الأعوام ، بغير موجب ، من بيت المال ، قد حانت الآن ساعة الفصل — حقا وعدلا — لرده إلى نيعه الأصيل . وأن ذلك التفاوت بين الناس في قسم المال ، بهذه الحجة أو تلك ، لم يعد له بعد يومهم وجود في مجتمعهم الجديد . ولو كان ما أخذوه ، أو يأخذونه ، منحة صلة لرحم . ولو كان عطية سخية ثمننا لجهاد . . . ولو كان فيثا ضوعف مرة أو مرات لقاء سابقة صحيحة ، وسابقة إيمان ولو كان أيضا في حوزة رجال رفعهم الشرف ، أو قدمتهم الأنساب على من عداهم من الجمهور . فالمال مال الله . والأمة كافة في قسمه سواء . وما سنده الرسول من التسوية فيه بين الجميع لاناقض له ، ولا نرخص فيه بزيادة أو نقصان ، لأى إنسان ، ما بلغ به شأنه من شأو القوة ، أو كرم العرق ، أو عز السلطان . . .

وأردف الإمام :

« ... ألا وأيعا رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ، يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته ، فإن الفضل النير غدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله . . . وأيعا رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . . . »

لا إيهام . . .

فلقد جمعهم الإسلام بكلمته وكانوا قبله كقطيع ضال . ألف بين شاردهم وواردهم ، أحمرهم وأسودهم ، كتلة واحدة على تماسك واتساق . وجه منهم القلوب والخواطر ، والجوارح والشاعر ، وسدد الخطأ إلى طريق الله ، والجهود إلى العمل في الله . جذبتهم رسالته السماوية الكريمة جيشا قاهرا لغزو النفوس الغلف ، وفتح العقول المستغلقة ، لتكشف عنها غواشي الضلال . دفعت بهم أفيض نور لمحتك الظلام الذى أغرق الدنيا في دياجيرها ، ووضع حجابا كثيفا فصل الآدمي عن إنسانيته ، وأخفى عن البشر حقيقة الحياة . . .

مهمة جليلة تهون أمامها الجلائل العظام ، وتتضاءل كبار اللهام . . . فهي بمثابة جديد . . . لأن الصدوع والشيوخ ، ورتق الخروق والفتوق التى أحدثها في وحدة البشر صراع الطائفيات والمصيبات الممثلة للون والجنس سببا إلى السيطرة (الإمام ج ٨)

وإحباطاً لهم الاستغلال . بناء عالم قاضى على أنقاض ذلك العالم المتداعى الذى أفسدته عبادة الذات واستذلته الشهوات . إعادة الحياة إلى « الضمير الإنسانى » الذى مات . . .

لأولئك الذين كانوا يعيشون ظاهر الحياة جاءت رسالة السماء لتنتشلهم من وهدة السقوط . وإليهم انطلقت قوى الاسلام مجاهدة فى الله ، داعية إلى الله ، ابتغاء رضوان الله ليس ابتغاء عرض دنيوى من سلطة أو سمعة أو ثراء . فالأمر واحد هو الرسالة . والجيش واحد هو المسلمون . والعمل واحد هو الجهاد . والمهدف واحد هو الهداية . ولا تباين قط بينهم فيما كلفوه ووجب عليهم بلوغه بهذا التكليف ؛ لأن التبعة هنا جماعية لا تتجزأ ، أما كأنهم آلة تعمل بكل أجزائها من دقة وغليظة ، معا وطى اتساق ووافق ، ولا سبيل إذن للمفارقة بينهم فى الجزاء بأى حال . .

هذه هى نظرة الامام للناس وللمال ، قضى بها حين قال :

« ... أنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، والمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب . فلم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً ... »

وصدق فيما قال . صدق ربه . وصدق رسوله . وصدق أمته بهذه النظرة الواعية التى تطابق الحق ، وتؤكد العدل ، وتتفق ومنطق الواقع الحى الذى كانت تعيشه الدولة فى ظروف الجهاد الفشر كلمة الله . بل قد امتثل عندئذ سنة الطبيعة وقانونها الذى يحكم الانسانية ليجعل منها وحدة ملتزمة ، ويجعل أهلها إخوة على عمائل واستواء . .

ثم صدق قوله فمله ، وهو يختم فيدعوهم إلى لقاء :

« ... إذا كان غدا إن شاء الله ، فاغدوا علينا . فإن عندنا مالا تقسمه فيكم . فلا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى كان من أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر ، إذا كان مسلماً حراً ... »

مساواة كاملة فى مال الله ، بلا مفاضلة ، ولا تمييز ، وإن تفاوتت المنازل ، واختلفت الأجناس ، لأنهم كافة فى الحق سواء .

الفصل الرابع

هل هو تغيير ؟ . .

أم هو نقلة بنظام الحكم ، وسياسة الأمور ، من أسلوب إلى أسلوب ؟ . .
 أم هو ثورة شاملة على المؤلف في المجتمع الاسلامي ابتغاء إعادة بنيانه من جديد ؟ . .

أشبه بهذا وهذه وتلك من الاتجاهات وما قد يجد غيرها من قروض ، أو يلوح وراءها من أهداف ، ما تضمنه حديث على ، يوم البيعة الصاحب إلى الناس ، حين نستقبله على ظاهر عبارته ، في إطار الكلمات المحدود . ولكنه أيضا أبعد كل البعد عن هذا المنحى حين تتعمق معانيه . فغير الإمام ، بلا ريب ، من يفكر مثل هذا التفكير . ومن يهدف بالقول والعمل إلى النقلة أو الثورة أو التغيير ، لأنها ، مجتمعة أو فرادى ، تعنى هدمًا — شاملًا أو جزئيًا — للنظام المقرر ، يدك بنيانه ، ويقوض أركانه إن لم يبحثه من الأساس . .

خطاب أمير المؤمنين عقب ولايته — أو بلغة اليوم : بيان الحكومة ا — الذى ألقاه ، تظن النظرة العابرة أنه يعان عن سياسة مغايرة تهم أن تقلب الأوضاع . فإذا أخذ على روية ، وأمن الفكر فيه ، بدت حقيقته خطة لتغيير التغيير ، وتبديل التبديل ، وتعديل الانحراف الذى سدر فيه الناس — عن قصور الادراك أو خطأ التطبيق — بخروجهم على النظام الأصيل . .

ولا جدال . فلا شبهة فيما قال . ولا سبيل لتأويل على وجه من وجوه الاحتمال . لأن نقض النظم التى تعيشها المجتمعات أو تناول بعض جوانبها بالتعديل يستوجب — حتمًا — تغييرًا لها وإلغاءً هناك فى قوانينها التى تحكم السلوك . وليس هذا ، بطبيعة الحال ، مبتغى الإمام . ولا هو ممكن أن يحول فى بابه . بل هو الحال الذى ليس مثله محال ، لأن القوانين آنذاك لم تكن سوى القرآن . .
 إنما أراد الإمام — بداهة وحقا — أن يكف الانحراف ويعود بشعبه إلى

ما كان عليه من إلزام دستور الله الذي نزل فيهم كتاباً بينا من القوانين والأحكام سارت الأمة في نوره وراء الرسول إبان حياته ، خلف قلة قليلة بعده من رواد الإيمان زمناً قصيراً لا يكاد يحسب شيئاً في عمر الدول والشعوب . . ثم تفرقت بالمسلمين السبل ، يوماً يوماً ، ومرحلة مرحلة من الامتثال ، إلى الاجتهاد ، إلى التأويل ، إلى التحميل ، إلى التبديل . .

فكان الانكسار . .

وتلك خدعة التحول . إنها لتسير بالأمور والناس ، رويداً رويداً ، بخطا وثيدة لا يكاد يسمع لها دبيب فإذا هم ، عن غير شعور ، يبدلون نظرة بنظرة ، وأسلوباً بأسلوب ، وعملاً بعمل ، وحياة بحياة . . وإذا هم — ساهين — ينتقلون من نقىض لنقىض

وإذا كان الحديث المستفيض الجامع ، الذي واجه به الإمام القوم يوم البيعة ، قد أوماً بمض إيعاء إلى ما غير الحال والنفوس وشدها إلى الوراء ، فإنه قد أفصح كل الإفصاح وهو يصف لهم ما يراه — في حسيانه — علاجاً ناجماً لهذا التغير الذي أفسد عليهم دنيا الإنسان الفاضل ، وبث فيها عوامل التقهقر والانحلال . .

وتتكشف للمرء عناصر الدواء الموصوف ، فيقع فيها على ألوان عدة ، تبرىء الفكر ، وتشقى القلب ، وتحيي الروح ، ثم تنشل المجتمع من كبوته قبل أن يتردى في وهدة السقوط ، وتقيم صلبه قوياً شامخاً من جديد إذا ما ترجعت إلى سلوك ممثّل وعمل جاد ، بالوعى المصقول ، والارادة الحاسمة ، والتطبيق الرشيد . .

فما هو العلاج ؟ . .

تناثراً عن تفصيل ما يغنى فيه الإجمال ، واكتفاء بصفة الشامل عن تحليل المشمول ، نكاد نرى كلمة « عدالة » هي المنقوشة على بطاقة الدواء :

عدالة لكل الناس من كل الناس . .

عدالة سهلة ميسرة ، لا تشق على إنسان . معلومة مفهومة ، لا تغمض على

إنسان . شاملة عامة ، لا يحرم منها إنسان . . قاصدة بغير تقصير . ممتعة بغير مغالاة . نسبية بغير إطلاق . . تعيش في الممكن المتاح ، في حدود طاقات البشر ، وفي إطار قدرات التنفيذ ، وفي نطاق التغير المستمر للظروف والأفكار . . واقعية تعرف أحبار قانون الله ، وتدرك طبيعة البشر ، وترتبط بالزمان والمكان . لا تقف حيث تكون فتجمد وتموت . ولا تعدو مع الخيال فتدور في فراغ . ولا تجمع إلى الكمال فتصعد عن الدنيا إلى عالم بلا أناس ، لأن الكمال على الأرض وفي البشر محال .

إنها العدالة الدنيوية التي لا تبغ الكمال ، ولكنها تنسم بالشمول ، ولا تطابق المعنى الأمثل ، ولكنها توافق المفهوم العام .

تلك طلبية الإمام . وهي خلاصة بيانه الذي ألقاه يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقين من ذي الحجة عام ولايته إمرة للمسلمين . . وهي أيضاً خلاصة الدروس المستفادة من التجربة الإنسانية العظيمة التي اجتازها مجتمعه في السنين القلائل الماضية منذ غاب رسول الله عن الميرون والأسماع إلى الآن . . حين يتمقب المرء حركة السلوك العام والسلوك الخاص ، لا يفوته أن يتبين كيف يميل خط الانحراف في كليهما إلى الانحدار هبوطاً نحو نقطة الصفر ، أو علامة البداية ، والمجتمع الإسلامي متمسك بالعدالة كتنهاج فسكر ، وخطة عمل ، وأسلوب حياة . وكيف يأخذ هذا الحظ في الصعود — انسياً أو طهراً — نحو أخرج آماده وأخطر ذراه ، كلما تراخى حرص المجتمع على استبقاء هذه العدالة نابضة فعالة ، وأفلتها يده . .

ومع ما هو ظاهر ، للوهلة الأولى ، من سهولة هذه الطلبة وقربها للتناول ، فليس إلى تحقيقها من سبيل إن هي لم تنفذ بدءاً ، إلى وجدان الإنسان . وليست هي بنافذة إن هو لم يحس عدالة عليا ، فوقها وفوقه تراها نحن عدالة الله . . ولا عجب . فالعدالة الإلهية ، بما لها من سمو وإحاطة وسلطان ، قيس علوى يضئ للبشر طريقهم إلى العدالة الدنيوية المنشودة . . ويد هاديه تنزعهم من كهوف الظلم ومغاور الإحجاف لتضع قلوبهم على أول الطريق المضيء . . وورقيب عتيد يلحظ سيرهم ، ويتابع خطاهم أن تتعرف وتعمل . .

فمن المسلمات البديهية أنه بالإيمان — وليس بالعلم وحده — يأخذ الشعور بالعدالة الإلهية مساره إلى النفوس . . فلقد يجهل المرء أمرا فلا يؤمن به . ولقد يعلمه كذلك ثم لا يصل علمه — عنتا أو زيفا — إلى الإيمان به أو قد يعتقد أنه على شك ودخل لاختلاط معرفته إياه بغيرها من حصيلة معارفه الأخرى عن سواء من معنويات وماديات فأما أن يحسه فإنه يشربه ويستوعبه . وأن يستوعبه فإنه يختلط بكيانه فيصبح بضعة منه ، يعيه وعيا روحيا — يملو على الوعي العقلي — لا يفتر وجهه ، ويطنى بأثره على كل مدركاته عدا . .

هكذا هي عدالة الله . أفيض نور تطل من سماء الشعور على البشر ، وتحقق في هذه الحياة كومض السراج . تضيء قلوبهم لتهديهم السبيل . وتحلق فوقهم بحبطة بهم كحارس لا ينام . وتكشف سلوكهم كالأشعة الثاقبة فلا يخفى عنها ظاهر باد ولا باطن خبيء . . فإذا نصب الميزان ، قومت كل بادرة لهم : فعلا وقولا ونية ، قيمتها الحققة ، ووزنت بقسطاس دقيق سليم ، لا يحل ولا يخطيء ، فلا يخسر لهذا ولا يستوفى لذاك ، لأنهم أجمعين يستوون عند ربهم في الحساب . . ومع ذلك فإن الجزاء الذي ترتبه العدالة الإلهية لأي إنسان على الوفاء بالأداء ، يظل سرا مكنونا في علم الله ، لا ينجاب عنه الحجاب تفصيلا للناس في حياتهم الأولى ، ويمعز الإدراك البشري القاصر عن أن يعرف نوعه أو يلم بعداه . .

ولا مرأ . . فالعدالة الربانية أوفى وأرحم من أن نجمل هذا الأداء وحده أساس قياس كنه العمل وقيمته ، ومعيار مثوبة أو عقوبة عليه ، لأن الله سبحانه محيط بعالم يحيط به البشر علما من الأسرار السكونية ، والأسباب والمسببات الظاهرة والخفية ، والمؤثرات المرئية وغير المرئية التي تتحكم عادة في سلوك الإنسان . ولأن عدله تعالى رهن بعشيقته ، قرين برحمته فيقدر جل تقديره ويعاقب إن شاء ، ويقدر ويعفو إن شاء . .

بين طرفي هذه العدالة العليا يسبح الإنسان ، على رؤاه الوجدانية ، في عالم فسيح من العواطف والانفعالات . فإذا هو يقع ، في هذه الرحلة الطويلة ، على صور شتى من مدركات نفسية وذهنية ينطبع منها على صفحة إحساسه حسبا

تكون طاقة هذا الإحساس مهياة للتلقى والاستقبال . . هو آنا يرى بشعوره .
وهو آنا يرى بعقله . ولكنه في الحالتين يستيقن وجود الصور المدركة ، فيؤمن
بها ، عن وعى روحى أو وعى عقلى . وإن اختلفت وسيلتا الاستيقان ، وتفاوتتا
في مقدار الايمان . وإن أنكرت إحداها على أخراها ماتراه أو وافقتها عليه .

أما الوعى الروحى فيروعه من العدالة الالهية ذلك الطرف المجهول ، المستر
بغيب الله عن علم الناس ، المتعلق بعشيئته التى قد تمسك عنهم رحمته ، أو تفسح
لهم فيها ، فتملاً هذه الروعة الإنسان خشية وأملاً ، هية لحساب الله ، وارتجاء
لغفرانه . .

وأما الوعى العقلى فيمضى على الطرف الآخر المعلوم ، الذى يبين الحدود ،
ويوضح النواهي والأوامر ، ويرتب الجزاء نتيجة حتمية لكنه العمل وقيمة
الأداء ، فيدرك الإنسان كيف يسير ، وإلى أين ينتهى به سلوكه الاختيارى ،
عند الحساب ، في درجات الثواب أو دركات العقاب . .

رحلة طويلة للنفس البشرية في عدالة الله . . طويلة طويلة على مدى العمر
وامتداد الدهور . تتراوح فيها خطا ملكات الانسان وقدراته الإرادية والعاطفية
المكتسبة والفطرية ، بين جانبي هذه العدالة العليا : طرفها الحكيم اللازم ،
الذى يضع حكماً لكل عمل ، وجزاء لكل أداء . وطرفها المشيئ الرحيم ، الذى
يفسح في العفو ، ويرفع المغفرة فوق القصاص .

على هذه المسافة الشعورية من الراوحة بين المعلوم والمجهول ، القضاء
المحسوب المسطور والقضاء المرتجى المستور ، ينشط الضمير الانسانى ، بالعقل
وبالروح ، إلى التزام هذه العدالة المثلى ، أو محاكاتها باستلهاها أصولاً وقواعد
للمعمل والحساب والجزاء ، ترسم المنهج ، وتنظم السلوك ، وتحدد الروادع
والثواب ، فإذا هو ، بالالتزام الممكن والمحاكاة المقاربة ، في ظل عدالة جديدة .
ديوية الصيغة . كفيلة — فيما يراه — باطراد سير الحياة في مجتمعه رضية رحية ،
وبالتشام العلاقات بين كافة أفراد على غير اضطراب .

ولقد حاول الامام في بيانه أن يظهر قومه على عطف العدالة الديوية المنشود

حتما بين شعور المرء بذاته وبين الطغيان على شعوره بمن حوله من أفراد ، فيجسم في أنانيته كيفما أراد . أو سيفضيان بالفرد إلى اهتزاز إيمانه بمجتمع حين يرى أجماع ذلك المجتمع به . وانحيازهم عن إنصافه بمالأة لسواه ، فيضعف إحساسه بالانتماء إليه ، وتفتقر رغبته للعمل له . . . ولا قيمة هنا تكاد تذكر للإنصاف المادى المتمثل في تزويد المرء بالطعام والشراب والكساء ، وما إليها من أشباه ، لأن حياة البشر على الأرض ، بمعناها الحق ، وجود حضارى ، وليس وجودا بهيميا قصاراه تأمين مثل تلك المقومات . ولأن المناخ الملائم لمعيشة الإنسان ليس وحده ذلك الذى تتوفر له فيه مطالب الأبدان من محسوسات إن تكن تكفى الحيوان الأعجم الذى تسيره الغريزة ، فما هى بكافية أبدا لمعيشة البشر ككائنات ذوات إدراك ، للمعنويات وخفقات القلب وخطرات الفكر والاتفعالات النفسية سلطانها المهيمن على كل ما يصدر عن منه من سلوك . . .

لهذين الجانبين المتقابلين للعدالة الدنيوية الممكنة ، عرض أمير المؤمنين ، فى خطاب الاستهلال ، عرض خبير يتعمق الأوضاع كما يستكنه النفوس ، ويستخير الوقائع كما يستنبىء التوقعات . فإذا هو لا يغفل الإشارة إلى مقومات الاتزان للضمير الإنسانى ليكون سويا فى نطاق طاقة الإنسان . لا ينكر ذات صاحبه ولا ينكر أيضا ذرات سواه . ويحس بغيره كما يحس بنفسه . فيعمل ، بقيادة هذا الاحساس المتعادل ، للناس قرادى وللناس كجموع . وإذا هو يعنى فى خطابه على بصيرة من هذا المنطلق بين الأثرة والإيثار ، الأخذ والعطاء ، الذاتية والغيرية يضع القواعد الأولية لتجه : قسمة عادلة بين شطرى طبيعة الناس الحيوية بما يمثلان من مطالب الأجساد ومشاعر النفوس ، وبين شطرى طبيعة حياتهم الحضارية بما يمثلان من فردية وجماعية . فما كان — إذ فعل — إلا كاشفا عن أسلم الأسس وأقومها لقيادة الأفراد والشعوب . وسابقا للنظرة الحديثة إلى العدالة الاجتماعية التى تخدم الفرد ، وإلى العدالة السياسية التى تدير الدولة ولم يحط بأيهما الفكر الإنسانى المعاصر إلا بعد ظهورها فى الإسلام بقرون عديدة مضت بالناس فى نزاع مذهبي بين الفلسفات والعقائد الفكرية ، وفى صراع دموى بين قوى الطغيان التى حاربت للجمود وقرى التحرير التى ناضلت للتغيير .

ففي مجال العدالة الاجتماعية — يفهوم الاصطلاح المعاصر — التي تخدم الأفراد وترعاهم رعاية أناسي لا رعاية سوائهم ، نظر إلى حياة الفرد كنواة لحياة الجماعة ، وإلى الأسرة كبيئة عضوية جوارحها الجماعات . وخلص من نظريته إلى وجوب جمع القوى كلها على اتساق وتلاؤم ضمانا لصحة الجسم العام فوحد الإنسان . وما كان له إلا أن يأخذ بهذا التوحيد إذ هو رأى الاسلام وأحد مبادئه الرئيسية الذي يجمع الناس كلهم في واحد ، ويراهم كافة سواء وإن اختلفوا عنصرا بين عرب وعجم ، وجاها بين خاصة وعامة ، وحسبا بين فقراء وثراء ، ولونا بين سود وبيض . فالتشأ الذي خرجوا منه أجمعين واحد . والأصل الذي تفرعوا عنه واحد . وأسس الخلق ومراحل التكوين — من عناصر المواد الأولية التي تتركب منها الأجسام ، إلى النطف والعلق والمضغ ، إلى خلايا البنية ، إلى أجهزة الحركة والسكون ، ومراكز الحس ، ووظائف الأعضاء ومعالمها الظاهرة والتشريحية — توحد بينهم على غير تباين ، إلى جوار الحقيقة الكبرى التي تؤكد هذه الوحدة وهي انتسابهم بالعبودية لله :

« أتم عباد الله . . »

ولا مدعاة هنا للتساؤل : أهذه عدالة أم هي مساواة إذا وزنا الألفاظ بعيزان الدلالات ، وطابقنا الصفات على المسميات . لا مدعاة لأن الحدود الفاصلة بين معاني المجردات الفاضلة كهذه وتلك وأشباههما من حق وخير وحرية ، تسكاد تشف حق لتدوب ويخفى عن التمييز .

فالحرية — كثال — تنقل إلى الأذهان مدلول الانطلاق . والانطلاق لا يعرف التضييق ، لأنه شمول يستوعب كل مشمول بغير تفرقة ولا تخصيص . فهي إذن على وجه من الوجوه مساواة . .

والمساواة أيضا سمة للكل ، وتوازن بينهم . تمنح هذا كما تمنح ذلك ، وتمنعه كما تمنعه ، فهي قوام بين العطاء والأخذ أو تكاثر تام في الحقوق وفي الواجبات . فهي إذن عدالة ليس من طبيعتها الإحباط . .

وكذلك الأمر في الحق ، والخير ، والأمانة ، والصدق والوفاء وغيرها من

فضليات المجردات ، تختلف في مظاهر القوالب . ولكنها تنطوى على نفس المضمون إذا ما أخذنا بمعناها العام . .

على أنها جميعا — إن هي ظلت حبيسة في أسوار التجريد — لن تعدو أن تكون صوراً ذهنية جميلة ، قصارها مخيلة الناس بهريق مستعار لا يشمه جوهرها ، بل تضيفه عليها رؤى الأخيلة وجوامع الأفكار كما تضيف الشمس لمعتها على ما يسبح في شعاعها من ذرات الغبار . . إنها خليقة ، عندئذ ، بأن نهيم في عوالم الوهم ودنى الفراغ ، بغير قرار ، وإلى غير غاية ، خفيفة بل ثقل ، هشة بلا تأثير في واقع الحياة . فأما أن نمارس دورها ، وتعيش دلالتها فذاك رهن بأن تجد لها بيئة صالحة يتيح لها الحركة والانطلاق ، ونطاقاً معلوماً تنشط فيه ، له أبعاد وأحياز ، بداية ونهاية ، معالم وحدود تماماً كالماء الصافي الذي لا يرى ، ولا تدرك له هيئة إلا بلون الإناء وشكله الذي يوضع فيه . .

وأنسب نطاق ، كنهج ملائم لهذه المجردات ، يسع مدلولاتها أن تعمل فيه ، ونغضى أشواطها إلى غايتها على هدى وبينة ، هو ذلك الذي رسمها لها من هو أعلم بكنهها ، أعرف بوظائفها ، أقدر على توجيهها لخدمة الحياة . .

وهل أعلم وأعرف وأقدر من الله ؟ . .

وهل أوضح نهجاً ، وأنسب نطاقاً من القرآن لتطبيقها في دنيا الإنسان ؟ . .

لئن يكن العدل — كبدأ — لا يمكن أن يقوم في الأذهان إلا على أساس افتراض وحدة البشر ، فإن تجسيده — كواقع — لا يمكن أن يكون في الحياة إلا بتحقيق وحدة القانون . . فكنتا الوجدتين لازمتان ضمناً للشمول والعموم ومنعاً للتعريف والطاقيان . وكلتاها متلازمتان متكاملتان لأن الفكرة — أية فكرة تعيش في العقول — لا مناص من بقائها كلمة جوفاء بغير أثر في حياة البشر ، كل همها أن تحوم في الاخيلة ، وتغيطها الأحلام ، ما لم تعرف الطريق ، من خلال التطبيق ، إلى عالم السلوك . .

وحدة إنسان يجتمع فيها كافة أبناء البشرية : عنصرها ولونها ولغة ومنزلة ، بغير تفاوت بحكم طبيعتهم الحيوية ، ووحدة قانون يحتملون إليه عامة ، ويعملون

في حدوده ، يحكم طبيعتهم الحضارية ، ها قوام العائلة والتقدير ، وميزان المعادلة الذي لا يظلم ولا يجور .

وها هو الميزان ، يبيته الإمام :

« . . . إني حاملكم على منهاج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به . . »

فليس أحكم شريعة ، وأقوم جادة ، وأعدل في معاملة الأعمال والأقوال ، فضلا عن النوايا ، من كتاب الله كما طبقه وبين تعاليمه الرسول ، لا كما ترتأى فيه النظرات الخاصة ، وتذهب به شطحات التأويل . .

وليس سبيل ، مع هذا التعديد الدقيق للمنهاج اللازم للفروض ، إلى الترخص في أحكامه ، أو تناول أصوله ومبادئه ، جزئيا أو كليا ، بالتعديل . . فهو ثابت لا يقبل التغير ، كامل لا يخضع للتجزئة ، باق لا يعرف الفناء ، لأنه خالد آبد كبقاء الله . . وهو قائم دائم على سطح هذا الكوكب الإنساني قيام حياة النوع البشرى عليه ، ودوام الحقيقة الناطقة بوحدة الإنسان . .

وإذا نحن أمعنا النظر في خصائص القرآن ومقوماته كقانون ، تكشف لنا أنه يتفرد ، دون غيره من القوانين ، براوفاة قوة تساند سلطانه على مجتمعه لم يتوفر مثلها قبله لشريعة سواء ، ولا هي بعده بمتوفرة لكل ما عداها مما عسى أن يجد من شرائع وضعية قد يستحدثها فكر الإنسان في أى مكان إلى آخر الزمان .

فالمفترض بداهة في القوانين الوضعية أن تجيء صدى لرغبات المجتمعات التي سنت لها ، محقة لأمن أهلها ، كافلة لمنافعهم ثم لا يسعها — مع هذا الافتراض — أن تبلغ الغاية المرجوة التي يرتقبها الجميع لأنها ، في حقيقة الحال ، إنما صدرت عن طائفة منهم بيدها النفوذ لا يؤمن تأثرها بنظراتها الخاصة وأغراضها الذاتية عند وضع التشريع . . والمؤكد أيضا أن أى مجتمع إنما يمارس — من خلال قانونه — حقوق سيادته على كل من فيه ، وهم طائعون أو وهم كارهون ، لا على أساس ارتضاؤهم هذا القانون ، بل بمجرد ارتباطهم بالحياة في نطاق المجتمع ، وانتمائهم إليه ، لأن الانتماء يستوجب الولاء ، والولاء يقضى بالاذعان للأمر الواقع والتسليم به تسليما لا رجعة فيه . والمعلوم بعد هذا أن يظل أبناء المجتمع راضخين

— ولا نقول مرتضين — للقانون المسنون ، الذي يحتم عليهم أجمعين الأخذ بنصوصه ، اثمازا بأوامره وانتهاء عند نواهيه وإن اكتشفها هنا تجيف ، أو اعتورها هناك قصور ، إلا أن يسع فئة منهم أن تستحدث تغييرا فيه ثم لا يسلم هذا التغيير من مالم أنها إذ هي صاحبة النفوذ الجديد . . .

أما القرآن كقانون ، فليس كهذه التشريعات الوضعية ، لا بطبيعته وصدقاته ، ولا بأصوله واتجاهاته ، لأنه يختلف عنها أساسا ونشأة إلى حيث لا شبه . كما يختلف عمقا وإحاطة إلى حيث لا التقاء .. فهو يجمع الإنسان في وعائه ولا يفرقه شراذم وأجناسا وقوميات بحسب البيئات أو المجتمعات . ويجمع الزمان وحدة ولا يقسمه بين قديم بال ، وحديث حاضر ، وقابل نزاع إلى الانطلاق والتغيير . ويجمع للسكان مقاما واحدا للبشر . في هذه الأرض أيما انطلقوا منها في سهلها أو حزنها ، جذبها أو يانمها ، ولا يوزعها عليهم أوطانا مختلفة تفصل بينها خطوط الحدود .

والسلطة التي قدمت للناس القرآن قانوناً ينظم حياتهم كخير ما يكون التنظيم سلطة لا يخفى اقتدارها وعدلها عن البشر — على تباين طبائعهم ، وتعارض نظراتهم ، واختلاف منازلهم في مدارج الإدراك — لأنهم يعرفونها بوحى الفطرة أو ببدائى العقول ، أو بخفقات الإيمان . .

إنها سلطة لا تسعى إلى تلمس النفع لنفسها من خلال نصوص هذا القانون
استزادة في أسباب القوة ، ومقومات النفوذ ، إذ هي ، بطبيعتها ، قادرة إلى غير
نهاية ، وفوق كل السلطات والشيئات . لها وحدها الخلق والأمر . تلك
وحدها النفع والضرب تصنع وحدها البدايات والمصائر بغير منازع ولا شريك .
فلا حاجة إذن بها إلى استغلال البشر ، أو فئة منهم ، لأنها غنية عنهم كافة وهم
إليها الفقراء . وهي بهذا « محايدة » بكل ما يعنى مدلول هذه اللفظة الحديث ،
فلا وجه إذن لآن تعالى — في قانونها — فرداً على فرد ، أو تنحاز إلى فريق
دون فريق . . . وهي تشرف بحلالها ، من عليها قدرتها ، على الكون ، محيطه
بكل ما يدور في عوالمه ودنائه ، ومنها عالم البشر بما يوجب فيه من نزاع على البقاء ،
وما يعتل في نفوس أبنائه من رغبات ، أو يغير في حياتهم من مؤثرات ترى
ما يرتنون إليه بالميون والآمال وتلم بما يرومون اجتناؤه من فوائد ، وما

يرتجون اجتنابه من أضرار . عارفة ما يعرفون وما يجهلون . مدركة ما يدركون وما لا يدركون . فهي إذن أعلم بما يؤدي إلى استقامة أمورهم وصلاح دنياهم : مناهج العمل كيف ترسم ، وعدالة القضاء كيف تحكم ، ومعالم السلوك وأمناليه إلى أين تقود . أيها أقوم جادة ، وخير عقي ، وأولى بالاتباع ..

وينفرد صدور القرآن — كقانون — بظاهرة فذة عايشته لم تعايش قانونا قبله ، ولا نظما افترنت بعده ، إلى اليوم ، بصدور شريعة وضعية نفس الاقتران .. فلم تجزه السلطة المصدرة على الناس بمجرد إعلانها عنه . ولم تسر عليهم بنصوصه وأحكامه سريان إلزام من خلال الإذعان . بل الواقع للشهود أنه لم يمارس حقوق سيادته على أبناء مجتمعه بأسلوب الفرض الجبري الذي تتبعه القوانين جميعا في مختلفات المجتمعات ، عن طريق التبعية والالتواء . وإعما سرى عليهم سريان اختيار عن طريق التدليل والإقناع ..

فالثابت الذي لا اختلاف فيه ، أن القرآن قد عرض نفسه على ملأ الناس عرض تفهم ونظر ولم يفرضها فرض أمر وإملاء . . تقدم إليهم بنهجه مجملا في « الوحدانية » مبدا عاما تتفرع عنه كافة قواعده التشريعية التي تحدد الصلات بين الله والناس ، وبين الناس والناس فمن آمن بهذا المبدأ فقد دخل الاسلام . ومن دخل الاسلام فقد انتمى لمجتمعه . ومن انتمى لمجتمعه فقد قبل راضيا قانونه المنبثق من كلمة التوحيد .

ولا حاجة بنا لتعليل الوحدانية ليتبين لنا أنها ، حقا ، أساس كل أصل تشريعي في الاسلام ، لأن عبارة : « لا إله إلا الله » تغني عن هذا التعليل ، ولا تفتح السبيل للمكابرة والجدال . فهي قد نفت كل ربوبية إلا ربوبية الله ، ومحت كل قدرة إلا قدرته سبحانه ، وكل مشيئة إلا مشيئته ، وكل سلطة إلا سلطانه . . وهي بهذا قد جمعت البشر في العبودية لله وحده ، وأمنتهم أن تعنو وجوههم لغير وجهه ، فحررت العقل الإنساني من الخوف والخرافة . حررت أن يخشى الناس أمثالهم من الناس وإنهم لجميعهم سواء في المعجز أمام سطوة خالقهم ، في خوف عقابه ، وفي ارتجاء رضوانه ، فأهدرت بهذا عبودية الإنسان للإنسان . وحررت من تحكم الخرافة الذي كان يدفعهم إلى عبادة

الظواهر السكونية أو الأوثان والأصنام ، أو الأبطال ممن سلف من الآل أو من الملوك والأقيال ، فقضت بهذا على ذلة العقول للأوهام .

من خلال مبدئه العام : وهو كلمة « التوحيد » عرض القانون القرآني على الناس ، لو شاءوا قبلوه ، أو شاءوا رفضوه . . فهو هكذا أول قانون في التاريخ — إيماناً بوظيفة العقل ، وقداسة الرأي الحر — يضع نفسه تحت نظرة الاختيار ، ويخضعها طواعية لاستفتاء ، عام ، قبل ممارسة حقوق سيادته الشرعية على المجتمع الذي يعيش فيه . .

هذه هي حال القرآن ، كقانون ، في نظرة الفكر « المحايد » الذي لا يظلم ولا يميل ، وفي رأى الواقع التاريخي الذي تؤيده الأسناد . . كاملاً من كامل ، عادلاً من عادل ، مائداً على أبناء مجتمعه — دون بقية قوانين العالم ، قديمها وحديثها — بحق الارتضاء لا بحكم الاتناء . . فلقد كانت كلمة التوحيد ، بمثابة في عبارة : « لا إله إلا الله » — يعطى ، بينه وبين نفسه ، من استنار قلبه للإيمان ، ومن اهتدى عقله للحقيقة ، أو يبايع عليها رسول الله — هي جواز مروره إلى المجتمع الإسلامي ، مسلماً كغيره من أفراد . . ووثيقة اعترافه الاختياري بالقرآن ، قانوناً يلزمه ، لأنه اعترف بمبدئه العام . والوسيلة ، على الأثر ، إلى كفالة ماله من حقوق ، واستيفائه ما عليه من واجبات ، تفصح له عنها نصوص هذا التشريع السماوي ، وتضع للمسلمين منها على قاعدة سواء . .

ويتكلم الإمام ، في خطاب إمرته ، عن هذه المساواة الشاملة في الحقوق والواجبات ، فيظهر العدل الاجتماعي — أمنية البشرية إلى اليوم — كيف يكون وكيف هو ، عاماً كاملاً ، في الإسلام ، يحقق تماسك المجتمع ، ووحدة الناس ، لولا أن أنسيه الغافلون الغفلة . .

يقول :

« . . . أيعا رجل استجاب لله والرسول ، فصدق ملتناً ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . . » .

ويستطرد من بعد ، في حديثه ، فيكشف عن ركن هام لهذا العدل

(الإمام — ٨٤)

الاجتماعى ، لا بد من توفيره ، هو المساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد ،
فى ناتج العمل العام

ولا غرابة . فهذه المساواة فى ناتج العمل الجماعى ، أو المال العام ، نتيجة
منطقية لازمة ، يسفر عنها تسلسل الاستقراء للوضع الاجتماعى المقرر ، وفرع
لأصل لا بد لهما ، كما تساوى فى البنية ، أن يتساوى فى الصفات ، لأن نظرة الإسلام ،
التي توحد الإنسانية ، تقضى ، كخطوة أولى ، بوحدة أية قطعة « مستقلة » على
انفراد ، أو أية وحدة من الوحدات الاجتماعية لهذه الإنسانية - التي كان
لاضطراب سلوك أبنائها منذ القدم ، وبلبلة الأفكار ، وضغط الظروف ، وحركة
التاريخ أثرها فى تمزيق شملها الطبيعى ، وتقطيع أوصالها ، يخلق هذا النوع
المصطنع من الاستقلال أو الانفصال - إلى أن يحين التمام هذه الشراذم المنتشرة
وتم هتاتها فى وحدة شاملة هي المجتمع العالمى الكبير . . فإذا اتجه الرأى هنا إلى
توحيد المجتمع ، فإنه يتجه ، بداهة ، إلى ضرورة توحيد كافة جهود أبنائه تحقيقا
لخيرهم العام ، فإلى حتمية توزيع هذا الخير عليهم بالسوية ، إذ هو ناتج عملهم
الجميع ، وثمرة جهودهم المشتركة . وإذ هم ، كافة ، مستوون فى الحقوق استواءهم
فى التبعات .

ويوضح الإمام هذه النظرة المنطقية العادلة إلى المال العام ، فيعرضها فى
سهولة معبرة ، ومنطق ميسر ، لا حاجة معهما إلى تدليل . .
فيقول :

« . . . أتم عباد الله . والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية . لا فضل فيه
لأحد على أحد . » .

فذاك رأى طبيعتهم الإنسانية الموحدة وقضاء وضعهم الذى يعيشونه الآن ،
وكان يجب أن يعيش البشر من قبل ، ثم تنزل القرآن فقرره ، كما ينبغى أن
يكون ، وبسلطته كقانون . .

ويقرن الإمام المبدأ بالتطبيق ، على الفور ، ودون تردد ، فيدعو الناس :
« . . . إذا كان غدا ، إن شاء الله ، فآخذوا علينا . فإن عندنا مالا نقسمه

فيكم . ولا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ، إلا حضر . . . » .

كلهم فى الإنسانية سواء .

كلهم لمجتمعهم أبناء .

ويتبع القول الفعل . .

فعلى الأثر يجسد معنى العدل الاجتماعى واقعاً حياً يعيش فى دنيا الناس . فى العمل كما فى الفكر . فى الحق كما فى الواجب . فى اللغائم كما فى اللغارم بغير استثناء بعد أن تعطل هذا العدل منين عديدة كان خلالها مجرد صورة ذهنية جميلة تدور بها الأحلام والأمانى فى رؤى الأخيلة وفراغ الأوهام . . وبعد أن ظل لفظة عذبة الجرس ، وضاعة البريق ، يمسح بها التميؤ والرياء فوق الشفاء كبسمة محزون . . .

وعرفت المساواة الاجتماعية بين الأفراد ، فى المجتمع الإسلامى ، طريقها مرة أخرى إلى النور . بعثت إلى الحياة من جديد . تحققت صديعة يوم الأحد ، الثانى عشر من ذى الحجة ، وما انقضت إلا ليلة ، أو بعضها ، على إمرة الإمام . . واستوى المسلمون ، عامة ، بهذا القرار الصريح الحاطف ، وكما أمر الله ، فى أنصبتهم من الحقوق المدنية ، وفى حظوظهم من الدخل القومى ، نتيجة طبيعية لاستوائهم فى الخلق أمام الخالق ، ولاستوائهم فى التبعات والمسئوليات ، فى المجتمع الذى يضمهم ، أمام القانون . .

وعرفت المساواة السياسية أيضاً ، بمفهوماً للمقارب لضمون الاصطلاح الحديث ، طريقها واسماً بمهدا إلى الحياة . فلم يغفل الإمام ذكرها وهو يتقدم بمنهاج عمله ، أو بيان حكومته ، إلى الناس . . ولم يخف ما تغنيه دلالتها ، وما نعرفه اليوم من كنهها الحقيقى ، للتمثل لنا فى حق الشعب الكامل ، بغير ترخص ولا انتقاص ، فى المشاركة — بالإرادة الحرة ، وعلى تسكافؤ تام بين جميع أفراد وطبقاته — فى رسم مصيره من خلال اختيار الحاكم ، وتوجيه سياسة الدولة وشؤونها العامة بالرأى والشورى . فمن غير هذا السبيل لأئمة حاكم شرعى ، ولا حكم مشروع .

ولا مجال هنا المطابقة بين أشكال الحكم « الشعبية » السائدة اليوم ، وبين الشكل الذى ابتدعه الإسلام ، ونهجه الإمام ، فى ذلك الزمان البعيد . . فالقيم قد لا يغيرها تغاير الصور والتراكيب . والمعانى قد لا تختلف باختلاف العبارات والأساليب . وإعنا العبرة بالجواهر لا بالقشرة . وبالب لا بالإطار . وما نظم الحكم ، على تباين الضروب والمظاهر ، إلا وسائل إلى بلوغ غاية تتفق عليها كافة المجتمعات ، هى الخبر العام حسبها ترتأيه نظرة كل مجتمع — وفقا لأوضاعه الاجتماعية ، وعناصر تكوينه ، ومقوماته الحضارية ، وما تتأثر به أفكار بديه من ظروف المكان والزمان ، ويتطلعون إليه تحت تأثير العرف والتقاليد — علت بهم هذه النظرة إلى ذروة السلطة الشعبية العامة ضماما لتحقيق رغبات الأمة ، أو هبطت بهم إلى مستوى السلطة الفردية إيماننا برعايتها حقوق المجموع . .

ومع ذلك ، فالقرار — الذى لا يمكن إنكاره ، أن « الشورى » أصل فى الإسلام ، أقامت الدولة سياستها على عماده ، احتذاء بمسلك الرسول ، صدرا من تاريخها المبكر ، على تفاوت فى التطبيق بين الامتثال والتعديل ، وبين السهولة والتعقيد بحسب دواعى التغير السريع الذى صاحب تطورها من جماعة ، إلى مدينة ، إلى إقليم ، إلى دولة مترامية الحدود والأطراف تشتغل فى وعائها الكبير على الكثير المتعدد من الشعوب والأقاليم .

ومن المسلم به كذلك أن ثمة سمة ظاهرة لاختير الإمام كانت بها خلافته أدنى إلى شعبية القيادة و ثمة سمة مثلها لحكمة كان بها أدنى إلى شعبية الحكم ، عنفهم تعبيرنا للمعاصر . . وكلتا السمتين تفردانه بما لم يكن لمن تقدموه ولحقوا به من الخلفاء ، وتميزان عهده بما لم يتح لما قبله وبعده من عهود .

فليس بين المسلمين ، آنذاك ، شخص كان أقرب إلى قلوبهم وأحب إليها منه ، لسابقته وفضله وصهره وصفاته إلى التى تعز فى قرين ، إلى جوار ميلهم إليه ، عطفها ونصرة ، لما أصابه من هضم حقه فى ولاية الأمر ، ثلاث مرات . . وليس أمثل ذكرا فى خواطر الناس إلى الآن منه إذا عرضت الألسن لسيرة البطولة عند مختلف الأمم والشعوب من أقدم العصور ، حتى ليوشك اسمه أن تحفه القداسة

أو يكون له ، بأهون تقدير مكان الصدارة بين شوامخ الأبطال الذين خلدهم جلائل الأعمال ، وصورهم خيال الأساطير . . .

تفرد في شعبية القيادة ينطق به أسلوب الاختيار الذي جاء به على رأس الدولة ، بالإرادة الحرة الخالصة للشعب الإسلامي ، على امتداد أراضيه ، ممثلاً إذ ذاك في قوى الثورة العامة التي اجتاحت الأمصار ، آخر عهد عثمان ، مطالبة بالتغيير . . فلم يأت عن بيعة « خاصة » — كيعة أبي بكر — أدلى بها صفوة أهل مدينة الرسول ، من الأنصار والمهاجرين ، ثم أقرت بها ، بعدهم ، بقية السفين إقراراً إن يكن عن رضا فليس يخلو من مظهر المتابعة والانقياد إن لم تكن له هيئة الإذعان والتسليم . . ولم يأت عن بيعة « وصية » كيعة ابن الخطاب — خصه بها الخليفة الأول ، بتقدير رأيه وحده ، دون غيره من آراء . . ولم يأت عن بيعة « ثلة » — كيعة عثمان — حصرت بها الإمرة في ستة نفر ، لا تخرج عنهم ، ولهم وحدهم الحق المبرم في انتقاء أحدهم كأمير . . ولكنه إنما جاء عن إجماع ، أو ما هو أدنى إلى الإجماع ، بالإرادة العامة للأمة ، ممثلة في أهل المدينة ووفود مصر والبصرة والكوفة وهي ، حينذاك ، أمهات البلاد والأمصار ، وموئل أصحاب الرأي ، ودعاة الإصلاح والتغيير .

وتفرد في شعبية الحكم التي تجعل للحاكم نفس ثقل الحكم ، في ميزان الواجبات والحقوق ، بغير تمييز ولا فضل مظهر يقبلان عليه من خلال هيئة المنصب ، وسطوة النفوذ ، ويرفمان قدره على الأقدار ، ورأسه على الرؤوس . . . إلى هذه المساواة الكاملة بين الإمام وبين رعاياه ، يشير في بيانه ، فيقول : « . . . إنما أنا رجل منكم . لي ما لكم ، وعلي ما عليكم . . »

فإذا ارتضى ، إلى جوار هذا — اختياراً وطوعاً كما خبرناه — أن يكون أقل نصيباً ، في مطالب العيش والنافع المادية ، مما يتاح لعمامة رعاياه ، فليس بحسب ولوعا منه بالتمفف ، ونزوعاً إلى التتشف زهداً في الدنيا ، ورياضة للنفس وقمناً للجماع الرغبات . بل هو أيضاً حسه الإنساني الزهف قد حدا به أن يعيش معيشة إذفاع ، ليكون أسوة ، فلا تضيق حياة الفقر بهذا يعزوم . . .

وإذا قصر حق الأمة في الشورى على أمورها التي لم تعرض لها أحكام القرآن ، ولم تتناولها سنة الرسول ، فليس ذلك تضيقا على حرية الرأي ، وامتثانا لها ، بل هو الالتزام الواجب بالدستور العام ، والتنظيم الذي لابد منه لتلك الحرية صيانة لها أن تعيث بها شهوة الكلام فتغدو فوضى ، ترتع بها ثروة الألسن بلغو القول ، وسقط الأفكار ، ويسود فيها الادعاء والافتراء ..

وقد أراد على أن يقي قومه مغبة هذا الانحراف عن حدود حرية الرأي ، والخروج على مفهومه ، فحذرهم أن تستخفهم شهوة الحديث وشغفهم البالغ بالنقد إلى المبادرة لمعارضة الحاكم فيما يرى أو يفعل ، معارضة قد تثير تأثرة الشعب عليه لا لا ابتغاء حق ، ولا لاجتناب باطل ، وإنما ولوعا بممارسة هذه الحرية على أى وجه ، تأكيدا لقدراتهم ، وإظهارا لوزنهم في مضمار الحياة العامة ، ودورهم في سياسة الأمور . .

قال :

« امضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه . ولا تمجلوا في أمر حق نبينه لكم ، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذرا »

ومدلول قوله ، بظاهرة وباطنه ، أنه دعوة عامة ، لكافة أبناء الشعب ، أن يعضوا الفكر في كل « مشروع قرار » تعدة السلطة الحاكمة ، ويتناولوه بالمناقشة الواعية قبل إقراره ، أو إنكاره . . فهو هنا لا يمنع المشورة ، بل يريد على بصيرة . ولا يأبى النقد ، بل يشاء له النهوض على أساس راسخ من الإحاطة السليمة بكل دقائق المنقود .

غير أن هذا الأسلوب القويم لممارسة حرية الرأي — على المستوى الشعبي العام — لم يرض فئة من العلية ، رأت لنفسها فضلا على من عداها من المواطنين يرتب لها — دونهم — حقا خاصا يمنع الحاكم أن يبرم أمرا إلا أن تشير ثم تشاركه الإبرام . . وها هم أولاء ينتقمون عليه ما ينبغي أن يحمده ، وينكرون منه ما يجدر أن يكون موضع إقرار ، ويمسيونه بما يجب أن يكون مشارا لكبار .

ثم لا يكتفون في نفوسهم المييب والنقمة والإنكار ، بل يشيخونها في الناس
خلاف له وحربا عليه . . .

ويأتيه خبر هذه الحرب المعجلة وما مضت إلا ساعات على إعلانه المساواة
الكاملة بين الناس :

« يا أمير المؤمنين . انظر في أمرك ، وعاتب قومك : هذا الحى من قريش .
فإنهم قد نقضوا عهدك ، وأخلفوا وعدك ، ودعونا في السر إلى رفضك . .
لأنهم كرهوا الأسوة . . »

فإن حق للإمام أن يعجب لتعولهم السريع عنه ، ويغضب لانتقاضهم المفاجئ
عليه ، فالبشر كافة أحق بالمعجب والغضب ، لأن هذه القلة منهم — ما بلغ مبلغ
اعتزازها بأنفسها ، واعتدادها بأقذارها — قد دفعتها أثرتها إلى إنكار حق
كل من عداها ، من أبناء الإنسانية ، في المساواة التي كفلتها الطبيعة والشرعية
للإنسان . .

الحرب بينهم وبينه كانت حرباً على المبادئ ، قبل أن تكون حرباً على النفوذ .
 ما أن جاءت له ولاية الأمر حتى أشعلوا النار . الشرارة الأولى لهذا الحريق لم
 تكن بذت اليوم . . . كانت كامنة فيهم : جرة في الرماد ، منذ سنين . كانت
 هاجساً في خواطرهم ، يشغل أمنهم ، ويعلمك عليهم آفاق السلوك والتفكير ،
 والإمام — بعد — ناء عن الحكم يخشونه أن يقرب منه ، ويسعون بكل
 جهدهم لينعوه أن يضع قدمه على أول طريق السلطان . .

أولئك وهؤلاء كانوا من حذر بلوغه الإمرة على سواء . . خصمه الذين
 في صفوفه ، كخصمه الذين احتوam عدوه ، خافوا جميعاً سليقته الصافية وشيمه
 البيضاء ، وخطرات ذهنه الملتزم بمحدود الكرامة الإنسانية كما رسمتها الفطرة
 السليمة وأكدها الإسلام . . الأولى أسرعوا فمالوا ، من البدء إلى جانب الشام
 حيث أعجلهم الجشع ، وراودتهم الدنيا الأموية عن نفسها تمرضها لهم ، في قمة
 الفتنة والزخرف ، بضاعة تأخذ القلوب والأنظار : رخيصة بدرهم ، وفيرة
 بقنطار . . . والأولى بادروا إلى الالتفاف حوله ، قد استخفهم الرجاء وهم
 يوقنون الغلبة على دربه ، فلا عليهم إذن من التهل قليلاً إلى ساعة الفصل ، وإنها
 لقريب ، وإنها لآتية بالانتصار ولا بد أن يشمنوا على الانتصار . .

فأما خصمه من فريقه الذين توهموا وشك النصر ، واستقصروا في أخيلتهم ،
 أمد الكفاح ، فقد غرتهم نظرتهم ، لأن ذلك الأمد قد طال . . الأمانى التي
 غرسوها في أرضه بذت لهم ، بعد حين كجذع بلا جذور . . وليالى الانتظار
 الرتيبة لم يطلع لها صباح .

وأما خصمه من عدوه فشأنهم شأنهم ، اليوم وأمس ، على نفس الحال . .
 غزيعه دائماً يغذى جشعهم ، ويربى شهوتهم ، وبعد لهم في النفع ، إبان الحن التي
 تعتصره ، وإبان الحين الذى يواكبه ، بما يشاء وتشاء لهم نزوات الطمع

أو شطحات الأحلام . إدناء واستلحاق . مناصب وعمالات . أعطية وقطاعات ..
وكلام مضى الوقت نثر لهم من وقاضه مزيداً من المصانعة . من الرياء . أو الجاه ،
أو الأموال حسباً تهوى الأنفس ، حتى تزاخمت على إنانة الكلاب ..

ولا عجب أن يتعلقوا بدنياء ولا عجب أيضاً ألا يرفعوا عن التدلى في أغوار
باطله إلى القاع ، ابلوغ قاربهم ، لأن فعلهم مسوغ مفهوم بمعار الطبيعة البشرية
التي تأتمر في سلوكها بأمر الفريزة الفجة ، وتستجيب لنداء الأجساد قبل نداء
الأرواح . فالاشتياؤ أقوى عليها من التعفف ، والهبوط أيسر دائماً من الصعود ..
ولا خير من بعد على أحد منهم — وعذره حاضر — إن هو أسرع إلى هذا
الطريق الوبيء وله أسوة في نفر غير قليل ، من قادة الرأي في البلاد ، سبقت
خطاهم خطواته على نفس الدرب . كثرة منهم دوو سابقة إلى الاسلام ، وعلم
بالدين ، وصحبة مع الرسول ، وبلاء في الجهاد ، ونظرة ثابتة عند تفحص الأمور ،
ومكانة عليّة بين قومها لا تسكاد تدانيها المكانات .

وكيف لا وتلك فئة بلغت الشأو في رجاحة العقل ، وطيب الذكر ، ورفعة
الشان ، ولها في بناء مجد أمتها ماض مشهود ؟ . أم الناس نسوا منزلة هاتيك
النخبة القرشية ، وعالوها بينهم بالأصول والأحساب ؟ . أم الذاكرات غضت
عنهم وفيهم صفوة من الأعلام ، أئمة المهجرة ، ورواد الايمان ؟ . أم الأعين
عشيت وغم عليها أن تتبين شخوصهم وإن منهم بقية أهل الشورى وإن
عهدا بهم قريب ؟ .

بل كانوا جميعاً كألسنه اللهب فوق أرؤوس الربا وقم الجبال . أعين السادة
وأعين العامة تتعلق بهم إذا طرأ خطب أو حزبت شدة ، كما تتعلق الأنظار بكل
شملة أوقدت على علم في متاهة الفلاة ، يشم عندها أخو الصحراء ما يروى من
ظمأ ، ويشبع من جوع ، ويؤمن من خوف بعد طول تجواله الضال في
سهول الرمال ..

كلا ما غابوا إلى الآن عن بال . . الأعوام التي انقضت بعد مولد الإسلام لم
تطمس سيرتهم . والفترة القصيرة منذ إسمرة الامام ، لم تمح موقفهم منه ، عندما
أعلن عن المساواة . ومظهر « البطولة » — الذي نحلهم إياه موقفهم ذاك ،

ورفعهم في نظرة قريش عامة ، وسادتها خاصة ، وكل من رأى ، غير هذه وهؤلاء ، الصواب عين الصواب في تناديهم بتمييز المرب على من عداهم من الشعب ، وفي دفاعهم عن « قداسة » النظام الذي ابتدعه ابن الخطاب لتقسيم العطاء في الناس — كان مظهرًا فياض السند ، متلألئًا البريق ، لا يسهل أن تمشو عنه الأذهان .

فأى بطولة تلك في البطولات ؟ . . .

بطولة تناولتها نقائص التقدير بحسب اختلاف المعايير من الخصوم إلى الأنصار ، فأثارت الإعجاب كما أثارت الإعجاب ، والإنكار مع الإكبار . . .

نظر إليها ، بعين خصومها المعارضين ، فإذا هي على طرف ، أو على حافة هاوية ، يكاد أصحابها أن يتردوا فيها ، حتى لقد قال فيهم قائل ، ينعمهم بآية من كتاب الله :

« . . . لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم لا يحق كارهون . . . »

وضور موقفهم من الإمام واستفاضهم عليه ، إذ رأى وجوب المساواة بين كافة المسلمين على غير تباين وبغير تمييز فكانت الصورة المنقولة إليه ، مرسومة بالحروف :

« . . . لما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا ، واستشاروا عدوك ، وعظموه . . . فرقة للجماعة ، ونألقا لأهل الضلالة . . . »

فرأيهم إذن ، بهذه النظرة المعارضة ، رأى العناد والجود لا رأى الإنصاف والتعقل تجاه ما أذاعه على من سياسة الإصلاح ، ودواعي المراجعة والتغيير للأوضاع القائمة وهي عندئذ خطأ شائع أو صواب مهجور . وبطولتهم التحولة غريبة في البطولات ، لأنها تنمقر إلى عناصر البطولة الأصلية ، بقيمتها الرفيعة ، من مروءة واستقامة وتضحية . فهي بطولة الأنانية والاستئثار . . . التي تنكر « الغير » لأنها لا تؤمن إلا بالذات . . . التي تستعسك بالوضع ما جاءها بنفع . . . التي تنهرد بالسكسب وتوزع على سواها الخسار . . . التي تتذرع بكل الدرائع ، وتتمثل بكل الأسباب ، ليتسم أصحابها الرعوس ، ويركبوا الرقاب . . . التي تقبض

ولا تنفق ، تحوز ولا تبذل ، تكتنز ولا تعطى ، تأخذ من غيرها لثرى ويفتقر ،
للمسمن ويهزل ، لتتخم ويجمع . . .

ونُظر إليها ، بعين أعوانها المؤيدين ، فإذا هي على الطرف الآخر النقيض ،
فوق أعلى قمة ، يكاد أصحابها أن يبلغوا بها الشأو الذى لا شأو بعده لتطلع
إنسان ، حق لقد بدوا لنصيرهم حماة حق ، يذودون عنه أن يهدر ، أباة ضيم
يدافعون عن كرامة قومهم أن يئنهنها جيروت السلطان . . .

فكأنهم ، إذ يجابهون الحاكم ذا الحول والسطوة — هم الماطلون آنذاك
من كل قوة إلا قوة رأى الشجاع — دعاة مبدأ لا يبالون في سبيله أن يقتحموا
الهلول دفاعا عنه ، وكفاحا لنصرتة ، وإن أيقنوا أنه الدفاع المفلول الذى تشيل به
كفتم والكفاح الخاسر الذى لا غناء فيه . . فهم إذن . بوضعهم هذا في ساحة
فداء ، وبمنزلة شهداء . . .

ولا عليهم أن يروا ما يرون ، معارضين أو مؤيدين ، فلا قيد على التفكير .
ولهم ، كثيرهم ، حق التعبير . ولا حريجة على الناس أن يختلف بينهم الرأى فيما
يعرض لهم من الأمور ، لأن الاختلاف أشبه بهم من الاتفاق ، والتغاير أدنى إليهم
من التماثل . تلك نتيجة طبيعية مؤكدة لتعدد زوايا النظرات إلى الأمر الواحد ،
بسبب تباين عناصر الرأى ومكوناته من فرد لآخر ، وقدرات النظر على الإحاطة
بجوانب هذا الأمر والنفوذ فيه إلى ما وراء سطوحه الظاهرة نحو قاعه البعيد . .

لكنهم يعارضون فإذا هي المعارضة التى تثق بالنية المعقودة على الخلاف قبل
التحصيل ، وبالاتقاض دون موجب له تقتضيه مبادئ النقد السليم للموضوع
المعرض . . .

ثانى أيام بيعة الإمام ، تراهم يجتمعون ويجمعون . ونسمعهم يلومون ويتهمون .
فلا نسمع ولا نرى غير زمرة كأنها جمها النفع الخاص فأبت إلا أن تدعوه ،
وتؤاب حوله ، وتثير ثائرة من تستطيع لعلها أن تحتفظ لنفسها بعزاياها الطبقية
المجففة بالجمهور ، وتستبقى حقا تقليديا احتازته ، سنين طويلة بغير حق ، وهو
يوشك هذه الساعة أن يدير لها ظهره ، ليبدأ أولى خطواته على الطريق عائدا
إلى ذويه . . .

يطالعون علينا بما دعاهم إلى موقفهم ، فيقولون بلسان زعيم لهم من سادة فريق الأعلام ، وكأننا قد أرادوا أن يتملقوا فيه صلة الدم ، ووشيجة القرابة :

« ... نحن إخوانك ونظراؤك من بنى عبد مناف . ونحن نبأبعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان ... »

ولاء تجارة . . . سلعة تعرض وتغن يقبض . . . فهل هي بيعة ، أم هي بيع وشراء ؟ . . .

ويبلغونه ، مرة أخرى ، دعواهم ، فيقول له زعيما آخران ، صاحبا سابقة إلى الإسلام :

« ... أعطيناك بيعتنا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا . وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبد بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ما علمت . . . فأنت تقسم القسم ، وتقطع الأمر ، وتعفى الحكم على غير مشاورتنا وعلنا . . . »

أنهذه ما تبيحهم إياه الشورى مراجعة للحاكم بالرأى ومعاونة له بالصيحة ؟ . أم هو مشاركتة الحسم واجتزاؤهم بنصيب من الحكم معلوم ؟ . أم هو حجر على الإمام ووصاية ما يريدون ؟ . . .

فإذا استفسرهم الإمام سر خلافهم له ، ضربوا ، هذه المرة ، في الإفصاح إلى مداه ، كاشفين عن نواياهم ، كأننا قد آثروا المجاهرة على الدائرة ، والمواجهة على الالتفاف ، بلوغا إلى طلبتهم المنشودة من أقصر طريق .

يصارحونه بغير التواء :

« ... خلافتك عمر بن الخطاب في القسم . . . إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا . وسويت بيننا وبين من لا يعاقلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافتنا ورماحنا ، وأوقفنا عليه بخيلنا ورجلنا ، وظهرت عليه دعوتنا . . . »

تلك إذن هي القضية . . .

نحن قيامهم بنشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله . . .

قسم عمر . . .

ولا تعلق غير هذه التعلق يمكن أن تجتمع عليها مثل تلك الزمرة الذين لا تربطهم إلا كبرياء السيادة ، ثم يختلفون ، بعد هذا ، فيما يدخل في تركيب طبائهم وما جبالوا عليه من سلائق ، وبإين بينهم من نزعات . . .

فهم سادة في قريش بلا نزاع . وهم سادة بين العرب أجمعين بأصلهم القرشي الذي يعرفه لهم ، ويحلمهم به كل أصيل في الجزيرة العربية من أى قبيل . وهم سادة بالتراث التالذ البعيد ، أو بالتراث الطارف الجديد . . .

زمرة كهذه تضم ، إلى من تضم من ناهى الذكر فى أمتها ، أمثال طلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من أجلة قريش فى تلكم الآونة ، لهى زمرة خليفة — وإن تفرقت فى الصفات والحلال — أن تجتمع على اعتزازها بمكانتها فى المجتمع ، وعلى كل ما يرميه الاعتزاز من مظاهر البروز أو ملامح الامتياز . . .

فلقد عرف لأفرادها هؤلاء ، كما عرف لأسلافهم قبلهم ، فى عهود الجاهلية المنقضية ، شأن مرموق ، لم يرتفع لشأوه فى الجزيرة مقام . كانت لهم ، فرادى أو مجتمعين ، عراقة الأصل ، أو نبلى النسب ، أو جاه الغنى ، أو سطوة الرياسة ، أو وضاعة المكرمات ، أو نخار الوظائف الثموية كالرفادة والسقاية واللواء . . . حتى إذا جاء الإسلام فجب كل شرف إلا شرف الانتساب إليه ، واضعاً عنهم مفاخرهم الموروثة ، لم يتضع لهم منزل ، ولم ينقص مقدار ، لأنهم قد أثبتوا على اعتناقه إياه عزة خيرا من عزة ، ونخارا أعلى من نخار إذ غدوا به وإنهم لأصحاب سابقة إلى الإيمان ، أو هجرة مع الرسول ، أو دعوة إلى الهدى ، أو بلاء فى سبيل الله ، أو مشورة للخلفاء . . .

على أن هذه المفاخر العنوية القديمة التى كانت عادة تجشمهم البذل ، ما لبثت أن ترجحت ، بدخولهم فى الإسلام ، إلى مال مقبوض يضيف إلى شرف الذكر قوة التراء . . . فقد استحدث عمر بن الخطاب ، باجتهاد رأيه إبأن ولايته الأمر ، نظاما للقسم رفيعهم فى حساب العطاء درجات ودرجات فوق غيرهم من جمهور الأمة بعد

أن كانوا وإياهم ، أيام البعثة النبوية وطوال خلافة الصديق ، على سواء .. ثم جاء عثمان فسار على سنة سلفه في الاجتهاد ، فأبقى على وضعهم الاقتصادي ، للممتاز ، وزاد عليه ، أحيانا عديدة ، إلى أنصبتهم العميرية المفروضة ، ألواناً أخرى من عناصر الدعم المادى ، فى هيئة منح وهبات وقطاعات وأعطيات ، أولاهها من شاء حسبما ارتأى تقديره وشاء ..

ولا مشار هنا لمناقشة حق الحاكم — بل حق أيما امرئ من الناس — فى أن يجتهد رأى عندما تعرض له مسألة تتطلب الحسم ، فذاك معترف به بغير مرأ ، وله بعد هذا ، إن أخطأ أجر وإن أصاب أجران ، كما يقال . ولا مدعاة أيضا لإثارة الجدل حول حق الحاكم فى المنع أو المنع ، فى الحرمان أو فى السخاء ، لأنه الحق الذى يفسح فيه مرمى النظرات ، وتختلف الآراء من نقيض لنقيض بين المعارضة والتأييد ، ثم لا يخلو — مع التشيع فى مساندته — من أثر ولو ضئيل لاتهام صاحبه بانسياقه مع عاطفته ، أو بغلوه فى التقدير ، إن لم يكن بالمبالاة والانحياز ...

فإذا رأت تلكم الزمرة فى بيان على أنه نازل بمكائنها فى أعين قومها ، سالها مناط نجرها الذى تمتاز به بينهم سمعة وثروة ثم ضاقت به أو أنكرت قبوله ، فذاك هو السلوك الذى لا يستغرب لأنه أليق بطبيعة البشر ، وأدنى إلى خلافتهم التى تتعزز — بحكم تكبوتها — إلى الدفاع العريزى عن الميل للتفوق فضلا عن الميل للاقتناء . وإذا قبل مثل هذا الدفاع ممن كلفوا بالجاء ، وألفوا الميض فى أطايب الحياة من أشباه مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وطلحة ابن عبيد الله ، فإنه لا يرفض أيضا من عبد الله بن عمر وإن كان — دون جمعهم — صاحب ورع ورهادة ، لأنه عندئذ ليس دفاعا عن نسب الدنيا أو مظاهر الامتياز ، بل هو الدفاع الخلق بآبى بآبى ، متشيع لرأيه ، معتز بترائه ، وفى لذكراه ...

لكن الاجتهاد ما كان ليكون فى سنة مقررة أو نص معلوم .. وقد وضع عمر نظام قسمه باجتهاد رأيه الخاص ، مندفعاً إليه بكل طاقته التعريرية التى تراها دائما وهى تحاول أن تحكم العقل ، وتعمل نظراته الطليقة المتفحصة على نظرة

المتابعة والتقليد . . . فقد عينا عرف عن ابن الخطاب أنه كان يراجع رسول الله في غير تخرج ، ولا يمثل توجيهه — كشأن سواء — امثال التسليم ، بل امثال التفهم والافتناع ، ثم حالفه التوفيق في أمور . . . وقد عينا عرف أيضا أعماله الفكر ، ومطالعته الصديق بالرأى الذى يعارض ولا يتقبل نظرة الحاكم المألومة بخضوع التابع المتبوع . وأبلغ من هذا وذلك فى شجاعة المواجهة ، التى لاتصد إلا عن فكر متحرر ، وذهن نقاد ، أنه كان يراجع نفسه فيما يرى غيره أنه من المسلمات ، فكان يتبصر فى شئون دينه كما يتفكر فى شئون دنياء قبل أن يقر وينقاد ، حتى لقد أثر عنه أنه كان لا يتردد ، كلما نظر إلى الحجر الأسود ، عن الجهر بقوله : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ! » — فلا حيلة له هنا إلا التسليم . . .

بفكره الطليق التحرر ، وذهنه المتفحص النقاد ، أجال عمر نظرتة فى القسم ، حين ولايته خلافة المسلمين ، فرأى أن يحىء بنظام له جديد على غير ذلك الأساس التقليدى الذى كان يلتزم المساواة فى التوزيع . . . ولا عيب عليه أن استحدث ما دعاه الوضع إلى الاستحداث ، فتغير الزمن والظروف قد يحمل مقدمات التطور . والتطور ، عادة ، يستوجب التغيير . ولا عيب أيضا ، من وجهة المنطق ، أن يرفع أو يخفض الأنصبة السنوية ، مميزا بين الناس على قدر فضل بعض على بعض فى حساب السلوك ، وبمعايير المبادرة والاقتدار والعمل والإجادة ، تقديرا منصفاً للههم ، وتقينا عادلا للنشاط ، وجزاء وفاقا للأداء . . . فليس من سارع إلى الإسلام مبادرا كمن تخلف عنه إلى حين . وليس من دخله طائما كمن دخله وهو مقهور . وليس من حارب له كمن حارب عليه . وليس الصريح فى انتسابه إليه كالصديق . ولا المؤمن كالمدمن . ولا المهاجر كالطليق . . .

ومع هذا كله فموامل التغيير التى رأى عمر فيها سببا لاستحداث نظامه لم تكن غائبة قبل الاستحداث . . . فهى هى إبان عهد الرسول لم يزد عليها بعده جديد . وهى هى فى خلافة أبى بكر الصديق . وهى هى التى أشار ابن الخطاب على سلفه — صدر إمرته — أن يتخذها سبيلا إلى المروحة بين الأعطية بالزيادة والنقصان بحسب الأقدار والنازل ، فرد أبو بكر مشورته ، وأبى إلا أن يظل الناس ،

كلهم ، في القسم سواء .. فإذا رأى الخليفة ، بعد انتهاء عهد صاحبه ، العدول عن نظام لنظام ، فإنها الرؤية التي تبدو للمتأمل كأنها اجتهدت بغير موجب للاجتهاد والعدول الذي كان التزام السنة المقررة يفنى عنه ، إذ هي أحق بالبقاء ، وأولى بالافتداء . . .

بأهون الفروض ، وبأرفق الظنون ، لا يبعد أن يقال عن أولئك الزمرة « الممتازة » أنها رأت الحق في قسم عمر الذي عاشوه سنين عديدة ، أربت على العشرين ، طوال حكم عمر وخلافة عثمان . فإذا هم تشبهوا به ، واشتدعوا القضاة في العدول عنه ، فلهم العذر المبرر ، وإن لم يكن العذر المقبول ، لأن الناس عامة ، خليقون بأن يشق عليهم الخروج مما ألفوه .. وإذا هم أبوا دعوة على التي تعيد المساواة في المطام — وهي تنهم مورد ثراء ، وتسليخ عنهم مظهر نفار — فبأوهم هنا هو « رد الفعل » النفسى لتلك الدعوة المفاجئة ، أو الدفاع « القطري » الذي تفرزه الغريزة ذيادة عن التقنية ، وحماية لتفوق الذات . .

لهم إذن ، من هذه الوجهة ، العذر الذي قد يسوقه معتذر ، تبريراً لانتفاضتهم للمعارضة للإمام ، فإذا هو العذر الممتسف ، الذي يشبه الأسف ، ويقارب الاعتذار . . . ولهم تبريرهم الذي قد يساند موقفهم ، ولكنه التبرير القائم على التعمل والاحتياط ليس القائم على الحجة والتدليل . . . وما نظنهم قد علموا الحق في جانبهم علم يقين ، بل خالوه ، ثم أطمعهم الأمل أن يلتوا — بحركتهم تلك — بعلى عما قدر وقرر إلى ما قدره وأرادوه . . .

فكأنه التهديد ، مسلكتهم هذا ، أو هو التلويح بالتهديد ، من قريب أو من بعيد . . . أما هم فقد نهامسوا بشجورهم . وأما هو فقد طامهم بعزمه الذي لا رجعة فيه . . . فإذا هو ينطلق إلى المسجد مع الصباح يحدث الملاء ، ويومئ في طرف من حديثه المبين الصريح إلى أولئك الذين استمعوا بإعاضهم ، وازدهوا بمنازلهم ، واستمرأوا أن يثمنوا على الإيمان ، مؤثرين أن يظلوا على خطأ شائع على أن يفيثوا إلى صواب مهجور . . .

يقول ، وعجبه منهم ، يتعدى الكلمات :

« ... يا معشر المهاجرين والأنصار .. أعنوني على الله ورسوله بإسلامكم .. بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين .. »

ثم يبصر وإنه ليحذر :

« ... ألا إن هذه الدنيا التي أصبحت تمنونها وترغبون فيها ، وأصبحت تنفضكم وترضيك ، ليست بداركم ، ولا منزلكم الذي خلقتكم له .. فلا تفرنكم فقد حذرتموها .. فأما هذا الشيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة .. وقد فرغ الله من قسمته .. »

حجة لا تثبت أمامها حيلة وإعذار لا ينهض له اعتذار .. فلا عن على الإيمان يقبضه إنسان من إنسان .. ولا رخصة لأحد فيما قضى به وأبرمه الله ..

فإذا فرغ من بيانه هذا للناس ، دعا إليه بخاصة القوم الذين يناوئون في القسم ، ويتعلمون لميزتهم الطبقية بما وضعه ابن الخطاب ، يذكرهم ما أنسوه ، أو ما يريد بعضهم أن ينسوا ..

يخاطب زعيمهم ، صاحبي السابقة ، وإنهما لأدنى إلى الرجوع ، وأحق بالإقرار ..

يقول :

« ... قد وجدت أنا ، وأنتما ، رسول الله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به .. وقد عا سبق إلى الإسلام قوم ، ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله في القسم ، ولا آثرهم بالسبق .. والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم .. »

وتلك نظرة الله والرسول ..

وتلك هي النظرة التي عليها قد عزم الإمام لأنها تحقق المدالة الشاملة ، كما جاء بها الإسلام .. بلا تمييز لفرد على فرد ، ولا لطبقة على طبقة وإن اختلفوا بالمكانات والأقدار في حساب طاعة الله ، وحسن البلاء ، وسابقة الإيمان — دع الأحساب والأنساب ..

ما هو إذن بتغيير هذا الذى طالهم به على ، وشاء حملهم عليه وإن كرهوه . .
بل هو الحق للهجور . تقويم الخطأ . تغيير التغيير . . هو الخروج بالأمة من
كراسة قاعدة « خاصة » إلى رحابة قانون عام يستوى فى ظله الجميع . . والعدول
عن اجتهاد لم يكن له من موجب يدعو له ، إلى سنة مقررة ، ونظام مشروع . .
حتى العتيق والاصيق لهما حقهما فى القسم كالأحرار والأصلاء ، لأن الأمة
بطبقاتها سواسية . فثمرة الجهد فى المجتمع سواء إذن بين أهله . وناتج العمل
مردود على كل من عمل بذهنه أو بمرقه بغير تفرقة ، بدرهم فما دونه « ولو كان
عبدا حبشيا مجدعا » كما يقول الإمام . .

ولا مرأ . فقد أقبل الناس ليقفتموا ، ثانى أيام إمرة على ، استجابة لأمره .
فقال لسكرتيره أبى رافع :

« ابدأ بالمهاجرين فنأدهم ، وأعط كل رجل حضر ثلاثة دنانير . ثم من
بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك . ومن يحضر من الناس كلهم : الأحمر
والأسود . . . »

وعندما سأله صاحبه سهل بن حنيف :

« يا أمير المؤمنين . . هذا غلامى بالأمس ، وقد أعتقته اليوم ؟ . . »

أجابه على الأثر :

« نعطيه كما نعطيك . »

فإذا أبت قریش وصادتها ، كتلك الزمرة ، هذه العدالة الشاملة ، فهو الإيلاء
الذى ينبغى مقابلته بالإيلاء ، لأنه يستند إلى زهو الاستعلاء ، ولا مكان له
فى شرعة ترى الناس كافة فى الحق على مكانة سواء .

سخط الأسوة في القسم لم يتبدد من نفوس كثرة غالبية من أنصار النظام العمري بعد قرار الإمام . . لم تنقضه الحجة الدامغة التي تجب بها السنة المقررة كل اجتهاد . . لم يزل خطره على المساواة الاجتماعية الواجبة بين أبناء الأمة الإسلامية ، ولا على الإنسان — عامة — كما ينبغي أن تكون حياته الحلقية سوية ، أو تكون الحياة إنسانية . . شجرته ظلت فارعة صلبة الجذع . ضاربة الجذور إلى أبعاد عمق . عصية على الاقتلاع . .

الشهور الطويلة من إمرة على ، التي مضت منذ بيان التمديل ، وأصبحت في أعداد السنين ، لم تستطع أن تغير الناس وإن ظن أنها كانت كفيلة بالتغيير . فالأعوام التي عاشوها في ظل النظام الذي غيرهم وزادت على ثلثي جيل ، كانت عمرا من الإلف مكن لذلك النظام في الثبوت والاستقرار . . جعلت منه تقليدا مرجيا ، له قوة التقاليد ، فضلا عنه كقانون موضوع . . نخلته من سيرة صاحبه وهيبته ما يشبه القداسة . . أقامته دعامة راسخة للحياة الاجتماعية ، وأساسا من أسس الهيكل الاقتصادي ، وعنصرا من عناصر الاتجاهات الفكرية في الأمة ، قر في أذهان الكثيرين أن هدمها خليك بأن يؤدي لآحالة إلى الإخلال بتوازن هذه الحياة . . أحواله عادة سائدة انتزاعها شديد وإن خالفت السنة المقررة ، والمنطق السليم ، واستقامة العدالة ، لأن العادات قليلا ما تستجيب للعجيج والبراهين . .

حق محنة « الجمل » التي أودت في حينها ، بطائفة غير قليلة من زعماء أصحاب الامتيازات ، ومزقت وحدة دعاة التفاوت « الوضعي » في الأعطيات والخطوط ، لم يكن بوسعها رد النظرة الطباقية إلى جادة الصواب . . قضت حقا على نخبة من الطبقة الممتازة ، كقوة سياسية مناوئة لها وزنها في ساحة الصراع السافر ، ولكنها لم تستطع أن تقضي ، بحال ، على التمييز كفكرة عشتت في

خواطر جبهة المؤمنين بالفوارق ، الكافرين بالاستثناء ، الطامحين إلى استعادة ما فوته عليهم الإمام من حقوق مكتسبة بقوة القانون ولو بعد حين . .

ولم يكن عسيرا على هذه الفكرة البقاء ، كما لم يكن عسيرا عليها التزود ، يوما وراء يوم ، بما يكفل لها كل أسباب النماء والاستفعال . .

ولا غرو . . فالذين نجوا من الصراع الحربى ، غدوا بعده وهم أشد تشبثا بما غلبوا عليه وحيل بينهم وبينه بإعلان على ثم بقوة السلاح . والذين كفوا عن ذلك الصراع أيديهم ، ونأوا بنفوسهم عن المشاركة في هذه الفتنة الأولى ، لم يكونوا قد اعتزلوا الخلاف — من البدء — إيمانا منهم بصحة مذهب الإمام في التقسيم ، بل إشارة ، لا مناص عنه ، للتريث الذى يجنبهم المهالك ، ويفسح لهم فرص التدبير . . ومن وراء هؤلاء وأولئك ، كان ثمة جمع غيرهم من المستفيعين بنظام عمر ، لا ينبغي إسقاطهم من الحساب ، يعيشون فى صفوف على ، على ولاء له وتأيد ، وعداء لحصمه ولدد ، وهم لا يملكون — أمام كرات الأحداث ، وتوالى حركات الانتفاض والتمرد على السلطة الشرعية — إلا البقاء حيث هم ، والكفاح تحت راية الإمام ، بلوغا لهدف كبير قبل هدف صغير ، أو تقديم مصالح الدولة العام على صالحهم الخاص ، حتى يتحقق السلام ويستقر النظام .

ثم صبت مشاعر الأنفس الزيت على النار . .

بيان أمير المؤمنين ليس ، فى حقيقته ، مجرد إلغاء قسم وإثبات آخر عودا إلى الوضع الأصيل بسيادة المساواة الشاملة فى التقسيم . ولا مصادرة مشروعة لما أصابه قوم من ذوى الحسب والمسكان من قطائع وأموال فى عهد عثمان بأية حجة وتحت أى عنوان . لم يكن وسيلة لإثراء بيت المال بالنزول بأنصبة « الخاصة » التى فرضها عمر ، إلى الحد الشرعى الذى عمل به فيهم رسول الله . . ولا كان أيضا سبيلا لهذا الإثراء باستعادة « الهبات » والأحباس العينية والمالية التى أخذها من ذلك البيت — بغير حق ، وتميزا — ذوى الحظوة لدى ابن عفان . ولا كما ، كذلك ابتغاء تسخير فائض العطاء ، المتخلف بعد خفض الأنصبة الممتازة إلى المستوى الموحد ، فى زيادة أعطية عامة الناس . .

لا بهذا ، كله أو بعضه ، من أمثال هذه الأساليب ، كان أمير المؤمنين يرجو من الأسرة بلوغ تلك الأهداف ، بل لغيرها من المقاصد والغايات . . فهمة بيت المال حتى ذلك الحين لم تكن قط الاغتناء والامتلاء على حساب الأعطيات والأفياء ، ولا تسكديس الأموال إظهاراً لقوة الدولة من خلال وفرة الثراء . بل كانت تلك المهمة ، في المقام الأول ، أشبه شيء بوظيفة الجدول الجارى الذى يستقى من النهر ليبت ما يستقيه فيما حوله من أراض وزرع فيها مادة الحياة والحصب والثمار . فقد كانت الأموال ، على اختلاف الأنواع والأشكال ، من نقود ومعادن ومتاع ورياش ، تتدفق على حاضرة الدولة الإسلامية الظاهرة من شق البقاع والأصقاع ، فلا تسكاد تودع بيت المال إلا لتفرز ، وتحصى ، ثم توزع عطاء على المسلمين . . ولقد أثر ، فى ذلك الحين ، أن القيم الظاهرة أو الخفية لهذه المودعات ، سواء أكانت قيمة جمالية أم فنية أم تاريخية ، لم تكن شفيها يمنع توزيعها أو يحيز اكتنازها والإبقاء عليها ، اعتزازاً بروعتها ، أو تخليداً لذكرى احتيازها ، حتى لقد قطع بساط كسرى — وإنه لآية من آيات الفن تفوق كل إيمان — ووزع كغيره من عروض الأموال اتقاء أن يستبيح حاكم لنفسه الحق فى حجب أى نوع من المال عن مستحقه بأية حجة ، وتحت ستر التقدير . وقد علم ، كذلك ، أن الإمام كان يراجع ما فى بيت المال ، كل جمعة ، لينقذ ما لعله جد عليه ، أو فضل منه بعد القسم ، على المسلمين ، ولو كان إيراً أو خيطاً أو مزقاً من إهاب وقماش وما يدونها من سقط المتاع وأهونه غناء ونقما للناس ، ثم لا يهدأ باله حتى يكس النحاس ، ويصلى فيها وهي خاوية ركعتين لله ، شكراً وحمداً على أن أبرأ ذمته ، وأدى كل ما تحت يده لكل ذى حق فيه . . ثم ثبت ، بعد هذا ، أن خفض حظوظ الطبقة المتأخرة فى العطاء ، نتيجة لإقرار المساواة الكاملة فى القسم بين الخاصة والعامة ، لم يضاف شيئاً مذكوراً إلى نصيب الفرد العادى من أبناء الشعب ، وما كان ليضيف ، بعد أن تبين لنا أن كل واحد من أولئك وهؤلاء لم يصب — عقيب إعلان على ، وتطبيق الأسرة لأول مرة فى عهده — إلا ثلاثة دنائير . .

فما هو إذن ذلك الغرض الذى سعى إليه أمير المؤمنين . بهذه الأسرة ،

ما دام قصاراها ألا تغل فائدة مادية على المواطن العادى ، أو تضيف شيئا ذا بال إلى دخله الذى كفلته الدولة بما انتقصته من أنصبة الأشراف ؟

ليس فى المقام الاول ، لأجل توفير فائض مال ، يحقق نفعا ماديا للعامة ، ويستخدم لرفع مستواهم المعيشى ، كان سعيه ذاك . . بل لأجل إفاة الشهور على كافة المواطنين ، أبيضهم وأسودهم ، شريفهم ومشروفهم ، باستوائهم الكامل أمام الدولة فى مال الله كاستوائهم الكامل أمام الله . . فالمساواة بينهم فى المال العام تعبير عملى عن نظرة الدين لأنه إحياء لسنة نبوية ما كان يقضى أن تحول أو نزول . . وهى إحياء بليغ ، من الوجهة الاجتماعية قبل الاقتصادية ، إلى رفض الإسلام لذرائع التفرقة بين أهله ، وإلى ضبط مجتمعه عن ضروب المفاضلات التقليدية والوضعية أن تعيش فيه . .

لا مكان فى المجتمع الإسلامى لأية مفاوطة اجتماعية بين أهله ، تميز طائفة على طائفة ، أو إنسانا على إنسان ، وإن استمد هذا التميز مبرراته وأسبابه من علائم التفوق ، ومظاهر الفضل التى تتمثل فى الاعتزاز بالمنصر ، أو الطبقة ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو النسب ، أو صراحة الأصل ، أو سطوة السلطان ، أو سابقة الإيعان . . فتلك كلها عروض طارئة على تسكافئ النوع البشرى طبيعة وفطرة ، وعلى عائل آحاده حيوية وخلقة . أوجدت تباينا مصطنعا بين أبناء هذا النوع المتوحد ، لأنه التباين الناشئ عن عوامل خارجة عن كنه الإنسان ، وللتعلل بذرائع موقوتة ليس لها استقرار ذلك الكنه وثنائه ، تتغير قوة من ظرف لظرف ، وقيمة من بيئة لبيئة ، وتختلف فيها النظرة بين فرد وآخر ، ثم تتذاب بأوضاع المجتمعات تبعاً لتداول هذه العوامل المتغيرة عليها ، وسيادة بعضها دون بعض على الأذهان ، فإذا هى عندئذ مجتمعات عنصرية أو طبقية أو طائفية أو « رأسمالية » أو على أى شكل مماثل أو مغاير لهذه الأشكال ، نتيجة لازمة لتأرجح موازين السلطة فى كل مجتمع من ظرف لظرف ، ومن عامل لآخر ، بسبب تبدل أساليب التفكير ، وتوارى الأزمنة والعهود ، وتطور الأعراف والتقاليد . .

فإذا نظر ، من بعد ، إلى النظام الذى فرضه الإمام — من خلال صفته

الظاهرة التي تشير إلى وظيفة الاقتصادية ، وباعتبار أنه تعديل يتناول حدود الموارد المالية للأفراد - أوشك ألا يخفى عن خاطر أحد أنه العلاج الملائم الذي كان لا بد منه في موضعه وميقاته ، إذ هو الضرورة المحتومة التي قضى بها واقع الحالة الاقتصادية في الدولة إذ ذاك . .

علاج حاسم لم يكن ثمة ما يغنى عنه لمجابهة وضع لامناص من تغييره ، إذا ما أخذ حق الشعب الإسلامي ، لوحدة ، في الحسبان ، وإذا ما روجعت رواسب الماضي ، وعرف دورها في الطغيان على الصالح العام . . توجيه العدالة كما توجيه المنفعة . ويدعو إليه ما بدا من الحل في الهيكل الاقتصادي ، وفي النظام الاجتماعي على السواء . .

ولاريب . . فتزايد القسم ، بنظام عمر ، من حصة بنسبة مائتي جزء - صعودا درجيا - إلى حصة بنسبة عشرة آلاف ، تنحصر بينهما الحدود الدنيا والحدود القصوى لعطاء الفرد ، ثم توالى سريان هذا النظام نيفا وعشرة أعوام ، قد أديا إلى حفر هوة عميقة بين الدخل الفردي زاد في عمقها غورا اقتدار أصحاب الأعطيات الكبيرة على تجميع فائضها لتنمية ثرواتهم ، واقتدار من دونهم من أصحاب الأعطيات الصغيرة إلى ما عصى يكفيهم الحاجة ، أو يرد عنهم ضائقه الإعسار .

رضائح عثمان ، من قطائع وأموال وأحباس ، وغيرها ما كان الخليفة الشيخ يفيئه طوال عهده ، على ذوي الخطوة عنده ، لقرباتهم ، أو لنفوذهم ، أو لبلائهم ، أو لهذه وتلك من تعلات ، قد أسهمت - إلى جوار ذلك الارتفاع الفاحش لأعطية الممتازين - في استئراء الثراء وتفاقمه في جانب من المجتمع تفاقما جعل المال دولة في فرقة من خاصة القوم وعليتهم ، تستطيل به على سواها من المواطنين ، ويسعها معه أن تظل زمانا ليس بالقصير مطلقة اليد ، إلى مدى بعيد ، في السيطرة على الحركة التجارية ، أو على الاقتصاد القومي للبلاد ، وتوجيهه الوجهة التي نخدم آراياها ، وتزيد بها ثراء على ثراء . .

ما خلفه القسم العمري ، وخليفته الرضاخ العثمانية ، كان حربا ، بخير جدال ،

بأن بيت في النظامين الاجتماعى والاقتصادى للدولة من آفات الخلل وعوامل الاضطراب ما كان خليقا بأن يدفع أيما حاكم يحرص على نظافة الحكم ، وصالح الشعب ، واستقامة الأمور ، إلى المبادرة بالتغيير . . فلا استقرار لحياة مجتمع مع تخلخل نسيجه . . ولا ثبات لاقتصاده مع وجود جرائم الاستغلال . وإذا كان الإمام قد بادر عندئذ إلى التغيير المنتظر ، فقد فعل ما تطلبته طبيعة الظروف والأوضاع . وحتمته دواعى المراجعة والعلاج . وليس عجبا إذن أن نراه يمد القسم سيرته الأولى على سنة الرسول وخطة الصديق أوصية متساوية لكل الناس . وأن يصادر القطائع والأموال التى أبيعها ذوو اللحظة ويردها إلى بيت المال حقا عاما للأمة جميعا ، لا هدايا أو هبات المحظوظين .

فإذا لم تكن هذه هى المبادرة المطلوبة التى يجمل بمثل على أن ينهض بها في هذه الآونة ، كرجل دولة ورجل دين ، فأى مبادرة سواها كان خليقا به إذن أن يقدم عليها استجابة لمنطق السياسة ، ومنطق الأخلاق — قبل منطق الإسلام — ليقم الحق ، ويمنع الانحراف ، إلى جوار دعم العدالة الاجتماعية لتمارس وظيفتها : تكافؤا بين كل أبناء الشعب ، مع حماية الثروة القومية أن تغدو ثروة خاصة تغذى الاستغلال ، وترفع قلة من الثروة على رقاب كثرة من المحرومين . . ؟

ذلك ضوء على مسلك الإمام . .

وهو تفسير تفرضه وقائع التاريخ ، وشواهد الحال ، كما يؤدى إليه الاستقراء ، لبيانته الجرىء الذى جاء ثورة على النظامين الاجتماعى والاقتصادى القاعين في البلاد آنذاك . . .

ولقد يبدو هنا أن في معايرة هذا الذى وقع ، منذ أكثر من ثلثمائة وألف عام بمعايرنا الحالية ، وإخضاعه للنظرة الحديثة — التى نراها اليوم تربط السلوك السياسى لقادة الدول والشعوب بالأوضاع الاقتصادية السائدة فيها حتى تجعله نتيجة مترتبة عليها . . ما يمثل تملاحا يحل في غير أوانه ، فيخرج بنا عن روح العهد ، ويجاوز خصائص الوقت الذى عاشته الأحداث ، حتى لتغدو المعايرة ضربا معسفا من المبالغة في التصوير ، والتلوين الاستقراء . .

لقد يبدو هذا فإذا هو - بشكاه - زعم مقبول ، ووهم يخامر الأخيلة ، ثم لا يلبث - بجوهره - أن تأباه حقائق الحياة فتمتتهن العقول إلا ما كان منها يتعلق بالهيئة دون المضمون ، متملا بظواهر العروض دون بواطن الأصول ، ومعولا على صور الأسماء لا على دلالة المسميات ، وآخذا بتاريخ مولد الألفاظ وهو يهمل تاريخ نشأة المشكلات . . فأما والتعبير للفرى يتطور بتطور الزمن ، والسمكيات فى أية لغة كالحلايا فى البنية الحية ، بعضها يضم ويضموت ليتخلق بعمده غيره جديد . . وأما والظلال تتراوح دائما ، بتراوح النور ، بين القصر والطول ثم لا يغير اضطرابها هذا من حقيقة الأصول ، فلا وجه إذن لغلوها . . .

فما لا يمكن الاختلاف عليه أن ما اصطلاح عرفنا الحاضر على تسميته « الاقتصاد القومى » ليس وقفا على عصرنا الحديث . بل قد كان ، بلا شبهة من شك ، واقعا يعيش فى حياة المجتمعات الإنسانية العابرة قبل مئات عديدة من السنين معروفا لها بمخصائسه ، مائلا بمعناه تماما كسواء من عشرات الأوضاع والقيم والمبادئ التى كانت تخالط الأفكار ، ونحى بدلالاتها فى دنيا الناس ، ثم ألبدت أخيرا أسماءها المستعذثة ، كالعدالة السياسية ، والمدل الاجتماعى ، وشعبية الحكم ، والعنصرية ، والطبقية ، والطائفية ، والإقطاع ، والاستغلال ، وسيطرة رأس المال ، إلى أشباهها ونظرائها من مختلف الأسماء . .

بتقرير الأسوة فى العطاء ، متى الإمام أولى خطواته على الطريق المؤدى إلى كبح جماح دخل الفرد ، ووضع فى إطار محدود بالأثم بينه وبين دخول غيره من الأفراد . وبمصادرة القطاعات والهيئات والأحباس أكد أن المال مال الله ، وأن وظيفته خدمة المجموع ، وأنه وهو عام أدعى أن تكور له قدسية تمنع عنه عبث الأهواء ، وسوء التقدير ، وسرف الإنفاق وما إليها من عوامل تحيله قنية خاصة ثم وسيلة للاستغلال . وبظهور هذين القرارين ، بدأت مرحلة من إصلاح اقتصادى كان لابد من بدئها لتصحيح الأوضاع القائمة ، وحماية الثروة القومية ، وكفالة حق الشعب ، كل الشعب ، فى ممشة متسقة ، لا يتجاذبها من طرفها نفس الثراء ، ومن طرفها الآخر عسر الإدفع . .

وواضح بالنظرة العابرة ، دع التأمل وإمعان الفكر ، أن الهدف من وراء قرارى الإمام هو تيسير الحياة لعامة الناس فضلا عن الأخذ بالقيم الاجتماعية التى تدعو لتعظيم حواجز التفاوت الظالم بين الأفراد ، وعن امتثال القيم الخلقية التى تأبى إفساح السبيل أمام الاستغلال والانتهاز والابتزاز تحت ستار حق الملكية الفردية أو حرية تشمير المال . .

نقطة الإمام كانت بلا شك ، حين سوت فى القسم ، اتجاهها نحو ردم الهوة العميقة بين الفقر والثراء بما تحققة من التقريب بين الدخول . . وكانت كذلك ، إذ صادرت جابيا ضخما من الثروات الكبيرة ، مسيرة إلى امتصاص فائض تلك الثروات وغل يدها عن تشمير المال الخاص إلى مدى يحد من طغيانه فى الحياة العامة ، وسيطرته على ثروة البلاد . . ثم كانت ، بعد هذا وذاك ، أداة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل المواطن العادى بما لها من أثر محتوم فى خفض أسعار السلع ، وقمع سمار الغلاء ، نتيجة للإقلال من النقد المتداول فى الأسواق بالملاءمة النسبية بين القدرات الشرائية لمختلف الأفراد . .

ولا ينبغي هنا أن يظن أن الإمام قد أبرم قراره وهو عندئذ لا يعدو أن يكون الرجل الخيالى السكاف بالمثاليات ، المشغوف بالمبادئ والمجردات . إنما قد أبرمه وإنه ، إلى جوار مثاليته المشهودة ، هو الرجل الذى يعيش فى واقع الحياة ، محيطا بظروف شعبه ، عارفا بأوضاع مجتمعه ، علما بالدواعى العملية وحقائق الحال الداعية للتغيير . .

بمثل هذا حدثتنا الأحداث فى عصره وقبل عصره بوقت طويل . . فلغير المتاجرة بالألفاظ أو ادعاء الإصلاح ، أعلن عمر بن الخطاب فى أخريات أيامه كم ود أن يطول به الأجل ليضع نظاماً « يأخذ به من فضول أموال الأغنياء ما يردده على الفقراء » . . وتغير استعجاب الشهرة وتعلق رضاء الجماهير ، راح أبو ذر العفارى — وهو العازف عن الدنيا منصباً وسمعة وثروة — فى زمن عثمان ، ينذر الأغنياء ، ويدعوهم إلى تسخير ثرواتهم المكتنزة فى التخفيف عن ذوى المسغبة والحاجة من مواطنهم ، لأن ما اقتنوه من المال ليس ملكا خاصا لهم ، بل هو مال الله ، وحق لمباده أجمعين هم أمناء عليه ، موظفون لإنفاقه فيما يصلح

شأن الناس ويرد عنهم الحرمان . . . ولغير الأهواء الخاصة ، أو الرغبة الظالمة في تغيير خليفة بخليفة ، وعهد بعهد ، نشبت الثورة على ابن عفان ، وقضت على حياته ، كما قضت على سلطانه وسلطان بطانته وذويه وهم عندئذ رؤس الطبقة المترفة ، التي اجتمعت لها إلى قوة النفوذ سطوة الثراء . . .

ليس بغائب عن الأذهان ما قد بلغه الثراء بين طبقة من الأمة ، أو فريق من العلية المحظوظين فيها ، من استفحال أخل كل الإخلال بالتوازن الاقتصادي بينهم وبين غيرهم من جمهور المواطنين ، وعمق الفارقة الاجتماعية التي تفصل الخاصة عن العامة ، حتى غدا الوضع نعمة غامرة في جانب ، تتقلب فيها قلة مختارة ، عيشها الترف ، ولعبتها المال ، ونقمة مدمرة في الجانب الآخر ، تعبت بكثرة متهورة ، حياتها الشظف ، وعملها الحرمان . . . فإذا ناء جهد جمهور الشعب عندئذ تحت وطأة المعيشة وقد أعوزته الوسائل لممارسة الحياة كما ينبغي أن تليق بإنسان ، ثم ترامت شكواه مما يكابد من الضيق حتى انتهت به إلى ثورة على حكم هئان ، فذلك هو الطريق الطبيعي لسير الحوادث والانفعالات ، والحنة المفترض حلولها قبل وقوعها بسنوات . . . وإذا كان الادعاء بتجني الثوار قد لقي صدقاً في بعض الأسماع ، وجرت به على الصحائف بضمة أفلام ، فأى مدعاة إذن كانت خليفة بتعريك السخط ، وإثارة الجماهير ، إن لم تكن لقمة العيش هي المدعاة . . ؟

من خلال ما مر من وقائع ، وما تنائر من أحاديث . منذ أواخر أيام عمر إلى بدء عهد الإمام ، لا يفوت التأمل أن يتنبأ بسلوك الثوار ، ثم يبرر هذا السلوك إن لم يسانده بالتأييد وهو عندئذ آمن من العثار . . .

فالفوارق المالية بين الدخول والموارد ، كالفوارق الاجتماعية بين الطبقات والأجناس ، كانت وسيلة لغرس عوامل التفرقة النفسية بين الناس ، وإثارة مرارة في صدورهم فعلت فعلها في تنافر أحاسيسهم ، وانفصال بعضهم ، شعوريا ولا شعوريا ، عن بعض حتى انشطر مجتمعهم شطرين : طائفة منه تستمرى الحال وترتع فيه فهي منتهمة به ، وطائفة تبرم به لأنها مغلوقة عليه . واحدة عالية قادرة محسودة ، وأخرى راسية عاجزة حاسدة . . . قلة تملك وتستمتع بالحياة ، وكثرة لا تكاد تعرف طعم الحياة

تنافر في المشاعر ، وتناقض في الأوضاع ، يعلو بهما مستوى للعيشة بأناس إلى القمة ، ويهوى بغيرهم إلى القاع ، ثم تلتهب على آثارها الأحقاد . ولا غرو . فالأسعار ترتفع ، والغلاء يستشري كما لم يهد أحد ، فيشقى على عامة المواطنين احتمالها . والسام الضرورية تعز على كثرة الناس ، لا لندرتها أصلا في الأسواق ، بل لمبادرة الطبقة القادرة — من ناحية — إلى احتيارها ، انتفاعا بها ، أو استغلالا لها بالاحتكار ، والافتقار الكثرة — من ناحية أخرى — إلى القدرة على الشراء . . . وكفى هنا أن يقال إن النخلة ، وهى طعام العربى ، كانت تباع بألف دينار ، ليبين إلى أى مدى كانت جمهرة الأمة تنسقط قوتها على عناء . . . وكفى أن تذكر سيرة فئة ليست بقليلة من خلاصة الخاصة أصحاب الخطوة أو ذوى النفوذ فتذكر لهم ثروات تجاوز خيال الخرافات ، من مباتك الذهب ، وفاخر القصور ، وأصائل الجياد ، وقطعان الإماء والعبيد . . .

هذه الفوارق لم تكن مجرد صور فردية التقطها بعض الموثورين لاستغلالها نكاية في الحكم القائم ، وإثارة للسخط عليه ، بل قد كانت ظاهرة عامة في المجتمع الإسلامى ، يملها كلا طرفى التناقض الاجتماعى ، وإن أغضى عليها طرف إغضاء استعراء ، وبرم بها آخر برم إنكار . . . وفيما بين الطرفين كانت قلة مستبصرة من الألى يتعمقون الظواهر ، ويستكهون الدلالات ، تعيش في قلق من الغد ، وخشية من المصير الذى ينذر الأفق به ، فلا تكف عن الإيعاء إلى الخطر المنتظر ، وإلى الدعوة إلى ضرورة المبادرة بالإصلاح فما كانت البيئة النفسية للشعب الإسلامى آنذاك إلا تربة صالحة لاستنبات الحسد الذى يشعر الحقد والتباغض بين الناس . . . ولا كان الوضع الاجتماعى المختل إلا مؤذنا بالانهيار أو مشفيا على الانفجار . وما كان الحرمان فى يد الكثرة الغالبة من الأمة إلا سلاحا خفيا بهم أن يضرب ضربته ، عسى أن يحصل كل غان محتاج ، عنوة وقسرا ، على ما كفله له الإسلام من مقومات الحياة الكريمة حقا مشروعا مادام الوفاق والسلام يحجزا عن تزويده بهذا الحق ، وما دامت الفئة القادرة الثرية قد بخلت به ، بل ابتزته عن سوء نية أو سوء تقدير . . .

ولم يكن تجاه على — كحاكم ورجل دولة ، دعه إماما ورجل دين — إلا أن

يسارع إلى العلاج وإن كان كياً يرجع من استمرأوا من قبل مزايا تلك التفرقة الاجتماعية، أو استرخوا من ألقوه من أوضاع . فهو لا يجهل حقيقة الحال . وهو قد شام بواذر التذمر طرفاً من عهد عمر ، ثم عاش فتنة السخط طوال عهد عثمان . وهو قد رأى حصاد الانفصال النفسى بين الشعب وحاكمه ، وبين العامة المحرومة والخاصة الثرية ، ممثلاً فى الثورة الهوجاء ودم الخليفة الصريح . فإذا التفت فور امتلاكه السلطة إلى مقابلة الأمور بالحسم ، ولا معدى له ، بحال ، عن السكى وقد استفحل الداء . ولا حيلة له إلا أن يندفع بكل قوته نحو التغيير . . وإذا كان نمة من يدعى أن ما فعله الإمام لمجابهة الموقف ليس سوى جانب من خطة سياسية بارعة يهدف بها إلى كسر شوكة خصومه ، وتقليم أظفار قوتهم ، بلوغاً إلى القضاء قضاء مبرماً على نفوذهم الذى أفاء عليهم سلطان المال وهيبة التقاليد ، فذاك ادعاء تنقضه نظرة الدين ، ونظرة العدل الاجتماعى ، ونظرة الواقع الاقتصادى فى تلك الآونة ، لأنها كلها تحتم التغيير العاجل الحاسم ، ولا تدع سبيلاً إلى إرجائه أو المهادنة فيه . .

ولو أن الإمام وزن لأنصاره بميزان ووزن لمخالفيه بميزان وهو يطبق سياسته فى المال ، لانتجت النتيجة لمثل هذا الادعاء . . ولكن الرجل لم يقصر قراره بمصادرة القطاعات والأموال المهداة على أولئك الخصوم ، بل شمل به كافة المنتفعين بغير استثناء . ولم يقل أحد إنه ، حين سوى فى القسم بين المسلمين ، قد أعنى أصحابه من التسوية فتركهم وأنصبتهم للقدورة منه وإن كثرتهم — على خلاف خصومه — لمن ذوى الحظوظ الباذخة فيه ، إذ هم من آل الرسول الأمين ، وأصحاب الهجرة ، ورجال السابقة إلى الإيمان ، وأجلة الأنصار ، وكلهم بهذا من أوائل المميزين فى المعطاء بشرعية عمر بن الخطاب . .

خطوة محتومة تلك التى خطاها الإمام حينذاك ، كان حرياً به ، وبأى حاكم سواء ، أن يبدأ بها عهده ، مادام يعيش ظروف زمنه ، ويتنفس أحداث مجتمعه ، ويستشعر أحاسيس أمته وهو يدرك إدراك واع خبير حقيقة الدوافع والأسباب التى حركت مواجد الناس ودفعت بهم إلى التبرم بماضيهم والثورة على ما فيه . . فالوضع الاجتماعى كان فى حاجة ملحة إلى التصحيح ، تهرراً من استفحال

العصبية ، أو تخفيفا من الضغط الطبقي الذى تمارسه ، وخلاصا من استبداد قلة من أبناء الأمة بالكثرة الغالبة فيها تحت ستار الامتيازات المالية المقتنة أو الجاه التقليدى الموروث . والوضع الاقتصادى كان أيضا فى حاجة ملحة إلى تعديل يعيد توزيع الثروة الأهلية ، أو يعيد تنظيمها ، على أساس جديد يحرر المال من أنانية الخصوصية ، ويخرج به إلى رحابة العمومية ، لينأى — إلى حدود مقبولة — عن متناول الجشع الفردى ، وسوء استغلال حرية التملك ، ولينهض بوظيفته الأصلية الحققة التى تهدف إلى صالح الجماعة ، فلا يصبح سلاحا فى أيدي فئة من المواطنين ، دون كائهم ، تحركه كيف شاءت لاستغلال الناس وتسخير قواهم وقدراتهم لفعها الخاص عن طريق استرقاق الأرزاق .

وإذا كانت هذه الخطوة فاتحة السير إلى تطبيق مبادئ العدالة بجانبها الاقتصادى والاجتماعى تطبيقا عمليا لا يقف عند حافة التشديق بالألفاظ ، فقد كانت الخطوات التى تلتها على الأثر تعزيزا لهذا التطبيق ، وتثبيتا لأقدامه على الطريق . فما عثم الإمام ، كما عرفنا من قبل ، أن مضى شوطه ، حثيثا ، إلى رسم الإطار السلوكى الذى ينبغى أن يتحرك المجتمع فى نطاقه ، ليعيش كل أهله معيشة إنسانية كريئة . . . ولو أننا تتبعنا ما وضعه من قواعد ، وما فرضه من أوامر لتنفيذ هذه القواعد ، لتبدى لنا إلى أى مدى قد أسهم ، بالرأى والنصيحة والقدوة والسلطة ، فى تطوير النظم على النحو الذى يكفل الموازنة بين الطبقات من ناحية ، وبين الأفراد من ناحية ، لتصبح الحياة خليفة بأن يحياها كل أبناء الأمة وهم على وفاق وارتضاء إذ هم على تسكافؤ واكتفاء ، ما دامت لا تعضل بعضهم تضيق به وتشق عليه ، وتخف على بعضهم الآخر خفة تقسح له فى التجبر والطغيان . .

وتأمل النظم التى جسدها الإمام — ولا نقول وضعها — فى ذلك الحين ، وكانت المراءة المجلوة الصافية التى انمكست على صفحتها الرائقة مبادئ الإسلام وقيمته ، لا يسوغ أن يحمل امراء على الزعم بأنها لا تزيد عن مجرد وسيلة مؤقتة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل عامة الشعب أو طبقاته الفقيرة ، بل ينبغى — إنصافا — أن يقال فيها ، وبغير مجاوزة لدقة الوصف وصدق التعبير ، إنها نظم رائدة فى مجال الإصلاح الاجتماعى إذا ما نحن اكتفين منها بجانبها هذا دون

طرفها الاقتصادى والسياسى اللذين هدفا : فى طرف إلى تصحيح مفهوم المال وتقويم وظيفته ، وفى الآخر إلى تحرير الرأى والإرادة بتحرير لقمة العيش وتخليصها من سيطرة الاستغلال .

ولا جدال فى أن ذلك الاتجاه الجديد ، الذى أروضه ونحاه إليه الإمام ، قد سبق النظرة الحديثة بمئات عديدة من السنين حين رسم دور الدولة فى رعاية أبنائها ، وأوجب عليها كفالة حقوقهم الإنسانية الأساسية كفالة فعلية ، لا تقوم على شعارات لفظية ، رنانة الجرس ، منمقة البناء ، بل على الدعوة الجادة المقترنة بالتطبيق . .

فالمجتمع الإسلامى ، كحقيقته ، وفى نطاق نظم ذلك الاتجاه ، مجتمع من الإخاء والمساواة والكرامة . لكل عضو به دور تلتقى فيه الحقوق بالتبعات لتتفاعل وتثمر العمل الإيجابى المجدى الذى يؤدى إلى منفعة الأفراد وصالح المجموع . وأبنائهم كافة فى رحابه متساوون ، بلا تمييز أمام قواعد تشريعه ، لأنهم « إما أخ فى الدين ، وإما نظير فى الخلق » فلا وجه إذن لتباين واختلاف يترتب عليهما تفرقة وتفضيل .

وجهور العامة من بنيه — عندما تحتم الضرورات الاحتكام للمفاضلة — أولى لدى الدولة بالرعاية من بقية الطوائف ، إذ هم كثرة الأمة ، وقاعدة دولتها ، وصلب قدرتها ، لأنهم « عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء » . . ولأن « سخط العامة يحفف برضا الخاصة ، وسخط الخاصة يحفف برضا العامة » فالكثير إذن له التقديم على القليل . .

والرعاية الخليفة بأن ينالها الشعب من السلطة الحاكمة ، هى تلك التى توفر له أسباب الأمن ، وأركان الحرية ، والمقومات الرئيسية لعيش كريم على نحو ما نسميه اليوم بالتحرر من الخوف ، والتحرر من الجهل ، والتحرر من المرض ، والتحرر من التعطل ، وأمثالها من مقررات ومبادئ تحملها كفالة الحريات السياسية ، والضمان الاجتماعى ، والتأمين الصحى ، وأمثالها من الأساليب التى تدرأ غوائل الحرمان — بتعدد صورته وشمول معانيه — عن كل مواطن ،

فتوفر له طلاقة الرأي ، وحرية الحركة ، وحق العمل ، والإعالة ، والعلاج وغيرها من ضروب البذل والعونة التي تهيم له حدا لاثقا للمعيشة لا يخل بكرامة الإنسان . « فلكل على الوالى بقدر ما يصلحه » حقا مقدورا لا نزاع فيه ، ولا عدول عنه ، سواء أكان عمالما يصلح المرء ويقيم شأنه أم كان إعانة .. وعلى الحاكم أن يرصد من مال الدولة ما ينفقه على من قبله « من ذوى العيال والمجاعة » تحقيقا عليهم من ثقل الكلفة ودفع الكوارث وهو مسئول أيضا عن غيرهم من مواطنيه الذين ينوءون بالحياة بسبب طبيعة الفوارق المالية والاجتماعية التي لا يخلو منها أى مجتمع ، ونتيجة لتفاوت القدرات والمستويات الطبيعية لدى الأفراد . فعليه أن يرأب صدوعهم ، ويسد مواضع الخلات فيهم ، ويغضى عجزهم أو ضعفهم برواتب تقسم من بيت المال لهم ولأمثالهم من أبناء الطبقة الدنيا الألى حرموا العمل أو القدرة عليه بمن « لا حيلة لهم » فى ذلك ، كالمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤس ، والزمى ، أصحاب العلل والعاهات ، ضمامنا لمعاشهم ، وتمكيننا لهم فى التداوى والعلاج ..

تلك إطفافة عجلى بأسس النظم التي اختطها الإمام لمجتمعه ، وأدخلها ، بسلطان الحكم ، فى حيز التنفيذ . . . وهى لا ريب سابقة لم يكن لها فى العالم ، قبل الإسلام مثيل حتى اتخذتها أخيرا ، فى القرن الحاضر ، وبعد ألف وبضع مئآت من السنين نادرة من المجتمعات الإنسانية الحديثة فى قلة معدودة من الدول الثرية المتقدمة التي أكرهتها الثورات الدموية وحركات التناحر بين الطبقات — فيها أو فى سواها — على أن تعرف لرعاياها حقوقهم عليها كبشر كما عرفت حقها عليهم كسلطة . فرفضت من مالها للمتعطل والطفل والشيخ والعاجز والعليل . . . ومع ذلك فشتان بين عمل المضطر المسكرو الذى يمليه ضغط الظروف القاهرة بقوة الصراع وبين عمل الطامع المختار الذى يلبعث عن نظرة إنسانية صمعة ، وحس مرهف ، ووعى محيط . . .

ولا حاجة بعد للقول بأن مقومات نفاذ أى قانون أو نظام لا بد فيها من اجتماع ضمان إيجابية العمل بتقريره إلى الاطمئنان لسلبية الانحراف بتقليم أظفاره ، أو تلازم الحفز والردع ، والتعليل والتعزيم ، درءا لموامل الاختلال عن ذلك

النظام ، وتحقيقا لاعتدال ميزان السلوك ، وكفالة لاتساق خطا المجتمع عليه . .
فإنصاح أى قانون عما هو مقبول لاجدوى منه إن لم يقترن بالإفصاح عما هو
مرفوض . وتقرير ما هو محظور ضرورة واجبة كتقرير ما هو مباح ، لأنهما
معا يعكسان الطبيعة البشرية بمحاذي الشر والخير فيها ، أو جانبي الخطأ والصواب ،
ويلائمان بين خلائق الإنسان التي يستقيم شطرها بوحى الضمائر النقية ، وينحرف
شطرها بنزغ النفوس الأمارة بالسوء . . ومن ثم فلم يغفل الإمام إبراز التواهي
والممنوعات التي يتأكد بها استواء السلوك بلوغا إلى سلامة التطبيق . فلا محاباة
في حق مقرر ، تزيدا وسخاء . ولا ترخص في حد مانع ، رياء ومصانعة . .
لا اختيار لمن يتولون الأمور العامة « إلا بالاختيار » . لا استثناء لأحد « عما
الناس فيه أسوة » أكفاء ، من حقوق ومنافع ، ما بلغ شأوه من النفوذ والجاه . .
لا إنصاف إلا بانتصاف الحاكم « لله والناس » من نفسه وأهله وخاصته وكل من
له هوى من الرعية فيهم كانتصافه من غيرهم من الجمهور وعرض الناس ، إقرارا
وتسليما باستوائهم أجمعين ، وتطبيقا منزها لسيادة القانون . .

مبادئ وعموميات اندرجت في سياسة الإمام لمجتمعه ، وترجمت إلى خطط
وأساليب تنفيذ ، تعبيرا عمليا عن شريعة الله ، وإدراكا واعيا منه بأن الزيادة
على الحق والمبالغة فيه كالاتقاص منه ، كلاهما خليق بأن يؤدي إلى اضطراب
للمعايير واختلال النظام العام . . فالمحاباة — كشال — ترجيح متحيف ، أخرى
بالظلم أن يثبت في تربتها ، ويتزعزع ، ويفرغ إلى غاية السقوط . . هي ، في
حقيقتها ، تطفيف للكيل في جانب ، يقابله إخماس في الآخر ، استجابة لدواعي
خاصة تنبعث عن الليل المغرض للذات أو الأهل أو الصفوة للقربين من الصحاب
والأتباع ، فتجانب الحق مستهينة بالعدالة . . وهي مجلبة للفوضى ، مفسدة للحاكم
والمحكوم . . وهي البريق الخلاب الذي يستهوى الأتقن الضعيفة والضمائر
للريضة فتطير إليها على أجنحة الملق والذفاق . . وهي الطريق المفتوح إلى غير حد
معلوم أمام كل ملتزم لقومات الافتدار ، كلف بالمظهر ، ولوع بالنفوذ ،
منهوم للاستغلال . .

من خلال هذه القواعد انبثقت لأمر المؤمنين بيانات وتعاليم نشرها على

مجتمعه ، تحدد المحظورات تحديدا واضحا كما حدد قبلها الممنوعات . . فالمنع والبذل لدوى الافتقار والإعسار كان لا بد أن يقابلهما التقييد والمنع لأصحاب الاقتدار واليسار ، ملائمة بين الكفاف والترف ، وتضييقا على الاتهار والاستغلال ، وضمانا لحياة معيشية لا تطفئ الغنى ولا تفدح الفقير . . فهو يرفض أن تثرى الدولة على حساب إعواز أبنائها بفعالانها فى تقدير الخراج . . وهو يسقط حقها فى جباية دينها على المواطن إن كان اقتضاؤها هذا الدين يجيئها عن طريق « بيع كسوة شتاء أو صيف ، أو دابة يعمل عليها المدين » . وهو يمنع احتكار السامع « لأن رسول الله يمنع منه » درء الاستغلال الجشعين وحماية لجمهور المستهلكين . وهو يضع أسسا للبيع والشراء سمعة بموازين عدل ، تحدد لكل سلعة سعرا مناسبا ، « لا يحجف بالبائع والمبتاع » على نسق التسعير الجبرى الذى نعرفه الآن . .

وكيفما كانت نظرة بعض طبقات الأمة ، من رجال التجارة ، وأصحاب النفوذ وذوى الثراء ، وزعماء العصبية القبلية والسياسية إلى هذه النظم والأساليب التطبيقية التى وضعها الإمام ، فقد كان ، فى حدود القرآن وتحت ضوئه ، ذلك الحاكم الذى استطاع — تفاعلا مع الواقع — أن يترجم شرائع الإسلام إلى أسلوب عمل ميسر ، تجرى الحياة اليومية لمواطنيه على سننه . كما كان ، بلغة عصرنا الحديث ، رائدا على طريق الحكم الشعبى بمعناه الذى يهدف — عن إدراك سليم لحياة رعاياه ، وبوعى إنسانى مرهف — إلى تسخير طاقات الدولة وقدراتها : مالا وجهدا وتنظيما ، فى إقرار آدمية الناس ، وتوطيد كرامتهم ، وتحقيق مطالبهم المادية والمعنوية من أقرب وجهة وأفوم سبيل . . ولا جدال فى أن أية محاولة كاشفة أو فاحصة ترمى إلى تعقب خطاه على هذا الدرب الطويل لن ترى قط أن عمله ذلك مسبوق ، أو تجده نظيرا ، فى عصره وفيما قبله من عصور ، بمثل نفس الشمول . . بل لنوشك أيضا ألا تجد خطاه متبوعة أو محتذاة إلا بمسد مسافة من الزمن شاسعة ، امتدت لعدة مئات من السنين ، لمحت عليها أنفاس البشرية ، ونشرت أقدام المصلحين والدعاة المكافحين للعق والحريات العامة ، قبل أن تهتدى إلى مساره ، وتلتحق بآثار غباره . .

وهين أن يمسك امرؤ في التغيير . وعسير أن يشرع فيه . وليكن الأعسر الأشق أن يحمل الناس على قبوله لأن البشر ، في كل زمان ومكان ، عبيد ما ألهموا ، أعداء ما جهلوا ، ذوو نفور مركب في خلائقهم من المستحدث الجديد . وإذا كان الامام ، لقاء عمله هذا ، لم يوف نصيبه العادل الحق من تقدير معاصريه وغاله منهم كافة ، في الأغلب الظاهر ، جحود ونكران ، فذاك موقف متظر لا غرابة فيه ، قد كان عنده خاصتهم وعامتهم : الألى ضيق عليهم وأخذ منهم ، والألى أفسح لهم وأعطاهم ، على سواء متعادين . .

لا عجب .

فالخاصة من الثروة وذوى الحول ، قد آذتهم نظمهم ، وشقت عليهم أساليبه ، لأنها انتقصت مما كانوا ينالونه ويرونه حقهم بغير نزاع ، ونزلت معه بأقدارهم . الاجتماعية المكتسبة أو الموروثة إلى دون ما يرضون وترفضه لهم نزعة الاستعلاء .

والعامة من المستضعفين وذوى الحرمان ، قد فاتهم فهم التغيير المستحدث وغمت عليهم حكمته البعيدة الرامية إلى الملاءمة بين وحدات المجتمع ، والتفسيق بين مختلف القدرات المعيشية لطبقاته وإن أنام بخير يجعل ما كانوا لولاء بالفيه . . فهم بطبيعة حياتهم الرتيبة التي تواترت — بهيئتها تلك — أعصرا طويلا ، لا يكادون يفكرون في التغيير . . وهم ، بفعل وضعهم الاجتماعي المضغوط ، وطاقتهم المادية المحدودة ، لا يقدرّون عليه وإن فكروا فيه . . وهم بهذا وذاك أدنى إلى أن يكونوا أهيب لكل جديد ، أبعد عن التطلع إليه ، كأنا عيونهم معصوبة بالقديم لا ترى سواء ، كأنا مستقرهم هو ذلك الولاء الأعمى لآرائهم الاجتماعي الذي جعلهم أسارى مذهبى الحول ، يعيشون عمرهم في رتبة كل مألوف متواتر كدعى جامدة بلا إرادة تتلعب بهم الطبقة العالية القادرة التي لها عليهم — نتيجة اصوله التقاليد الموروثة — حق الانصياع والطاعة بحكم وصاية المشيخة القبلية ، أو هيبة عراقه الأصل ، أو قوة سطوة النفوذ ، أو قدرة سلطان المال . .

فإذا كانت استجابة عامة الناس في المجتمعات لمنطق المؤلف التوارث فيه من التقاليد والعادات تبدو — بنظرنا الحاضرة — التزاما ذليلا بأوضاع مقيمة ، وخضوعا مستكيننا لواقع واجب التغيير ، فذاك ما لا نحسب قد دار بخلد مجتمع تلك الأيام ، وما لا يخلق غيره أن يدور . فمجتمعهم عندئذ ، في معظم صورته وأشكاله ، مجتمع أسرى الطابع والسكنه ، أصله قبائل وعشائر ووحدات ، يلتئم نسيجه بوشائج من الدم ، وصلات من النسب ، وعلاقات من التبعية والاستلحاق والولاء هي التي تربط بين أفرادهم ، وتنحكم في سلوكهم ، وتحدد لهم طرائق العمل والتفكير . وكلها ، كما هو معلوم ، عرى اجتماعية وثيقة ، يعسر التحلل منها ، ويتعذر فهمها ، لأنها تقوم على أساس عاطفة بشرية بعيدة المنابت ، غائرة الجذور في النفوس ، قد فطروا عليها من النشأة ، وأشربوها — إيماناً واعتياداً — هي إحساسهم الطبيعي بالبنوة للكبير ، واعتقادهم الراسخ بضرورة طاعته وتوقيره . . .

وليست هذه وحدها هي كل أسباب وقوفهم غالباً حيث هم ، دون حركة جدية إلى الأمام نحو التطور ، تشبثاً بالماضي أو جموداً عليه . بل قد يفوقها ويسبقها ، في استرقاقهم لذلك الماضي ، تدلى الوعي الشعبي في هذا العهد الغابر إلى مستوى دون ما لعننا نرى الآن عليه أقل شعوب الأرض حظاً من الإدراك العام لحقوق الأفراد وحقوق الجماعات ، بجوانبها الاجتماعية والسياسية ، قبل السلطة التقليدية الوصية التي تسوس الوحدات الاجتماعية عادة بسلطان العرف ، أو السلطة الحكومية الرسمية التي تسوسها بسلطان القانون . . .

فما لاختلاف فيه أن العالم آنذاك لم يكن وحدة إنسانية متسقة ، أو سائرة إلى الاتساق ، على غرار ما نعرفه الآن أو ما نرى أنه موشك أن يكون وأن شعوبه كانت كالوصلات المقطعة ، تفصل بين بعضها وبعض مسافات واسعة من الأبعاد الأرضية والزمنية ، تعرقل اتصالها ، وتعوق تلاحمها العضوى ، فتؤخر تفاعلها ، ثم تحول ، إلى مدى بعيد ، دون تبادل الآراء ، وتلاقح النظرات والأفكار . . .

وما لا يشكر أيضاً ، أن المجتمع العالمي ، إلى ذلك الحين ، لم يكن يمثل في

حقيقته سوى أعداد من تجمعات شعبية إقليمية ، قد تناثرت على سطح الدنيا ، أحدها هنا ، وغيره هناك ، إن يكن لكل تجمع منها ذاتيته المستقلة أو خصائصه المميزة ، فإنها كافة كانت مفتقرة إلى المحور الفكري العام الذي تدور آحاديها حوله ، ساجحة في ذلك ، ومؤمنة فرادى ومجتمعة بقيمة دوره في حياتها كسار موحد يحدد اتجاه السلوك البشري العام ، أو كمنأخ مشترك تعيش فيه وتتحرك وتنمو حقوق الإنسان . .

وما لاجدال فيه بعد ، أن ذلك الجزء من الوطن الإسلامي الكبير ، وهو المجتمع العربي - بحدوده الإقليمية المعروفة الذي كان آنذاك بؤرة التغيير ومركز إشعاعه - لم يكن ينفرد بما يكاد يغير خصائص مجتمعات ذلك العالم المتمزق القديم ، كما لم يكن أيضا ، في صلاته الإنسانية والفكرية بما حوله من القريب والبعيد ، إلا أشبه بالأرض التي يمش فوقها أبناءه ، حق ليكن القول إنه كان ، مثلها ، جزيرة . . جزيرة اجتماعية متتحة ، يوشك أن يفصلها عما يحاورها من المجتمعات البشرية المعاصرة بحر لجى واسع من العزلة والانقطاع . .

هذه الصورة الوصفية لحال شعوب العالم في ذلك الأوان ، نهم أن تضع أمام التأمل مرآة تنعكس على صفحتها هيئة الوعي الشعبي - أو بدقة التعبير مدى قصوره - في نفس الفترة الزمنية عهد الأحداث في دولة الإمام . . ولقد يكون نعة من الخلاف بين حالة الوعي بها وبين حالته في سواها من بقاع الأرض ما لعله يلفت النظر أو يحمل على التدبر والتفكير . ولكنه ، مع ذلك ، هو الخلاف الذي يفارق بين الأصل والظل ، وبين القوام والخيال ثم لا وجه معه للمفاضلة بين أحدهما والآخر من ناحية السمات الشكلية أو الشكل العام .

لا سبيل ، في الحق ، للمفاضلة بين الوعي الشعبي في المجتمع العربي وبين أضرابه في غيره من المجتمعات القائمة ، النائية أو المتأخرة ، التي لم تكن بعد قد غزتها العقيدة الإسلامية وإن كانت للمفاضلة أخرى بأن تقدمه إلى مكان الصدارة ، وأن تحتصه دونها كلها بالترجيح . . لا سبيل ولا وجه أو نكون إذن قد انسقنا إلى تقديم نظري لفظي يقوم أساساً على « الفكرة » دون أن يقوم على تحقيقها ، وإلى ترجيح شكل مظهرى قصاراه الاستناد البحت إلى « النظرية » مع إغفال تطبيقها كل الإغفال . .

فمع ما هو ثابت مؤكد من سبق الدين الإسلامى إلى ارتياد مجالات حقوق الإنسان ، سياسية واجتماعية ، سبقا لم يباره في مضماره ولا لحق بغياره غيره من الأديان والفلسفات ، فإن العبرة في نضج الوعي الشعبى بهذه الحقوق ليست بانتظامها في نصوص ، ولا بنشرها في تشريع ، بل بمقدار إدراك الناس لحقيقتها وانفعالهم بحكمتها ، واستجابتهم لفتحها ، وشوقهم إلى مراميها ، ومبادرتهم الجادة إلى العمل على تجسيدها كأسلوب حياة ..

ولا يعنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن كل ما اتصل بتلك المجالات من تعاليم الإسلام كان دبر كل الأسماع ، خلف كل الأبصار ، مفصولا ما بينه وبين كل العقول والأفهام بحجاب . . . كلا . ولكنه يعنى أن النفوس وإن علمته لم تشربه . وإن أشربته لم تمتصه . وإن امتصته لم تتمثله إذ كان عندئذ فوق قدرتها على الامتصاص . . . كما يعنى أيضا أن قلة من بين الناس ، غير مذكورة الأثر والعديد ، هى التى لعلها قدرته حق قدره ، ووعته كما ينبغى أن تعيه خالط — وسيلة وغاية — دماءها وقد استنارت بصائرهما ، واهتدت أذهانها ، واستضاء أمامها الطريق .

كل هذه حقائق لا يجدر أن تغيب عن البال في سياق التأمل والتحليل . ولا يحسن بعبير الحقيقة أن يمر بها ثم لا يفتن لها كعالم تدانا على قصور طاقة المفكرين إذ ذاك عن ملاحقة مسيرة التغيير الاجتماعى التى أعدها ونظمها القرآن . . . وهى معالم بارزة الدلالة ، عظيمة التأثير في تعويق الوعي الشعبى وعند خطوانه إلى الوراء . وهى ، فوق هذا ، بضعة من عوامل غيرها معرقة إن لم يحصرها جميعا الإحصاء فلا أقل من أن يوردها التمثيل . . .

فلم يكن غريبا ، كئثال ، أن يتأخر الوعي العام بحقوق الإنسان « المدنية » عن الظهور — وبخاصة في الجزيرة العربية — أثناء ذلك الطور المبكر من تاريخ الدولة الجديدة التى خلقها الإسلام ، وهى بعد مشغولة بدواعى الإعداد ومقومات البناء . . . ولم يكن — كئثال آخر — مغايرا لطبيعة حركة التطور ، وهى عادة تسير على مهل ، أن تعوز الوعي الشعبى القدرة على مواكبة الأحداث

الجارية التي كانت عندئذ تطهر ، بل تطير بجراح . ولم يكن كئناث — مخالفها المنتظر في مثل البيئة الاجتماعية القائمة ، التي تستمسك بالقديم ، وتخاص المألوف ، وتنفر من الجديد ، أن يمجز هذا الوعي عن فرض نفسه على حياة الجماهير . ولا عجب . فقد كان الناس في تلك الحقبة ، في شغل شاغل عن أمور دنيام بحرصهم الدائب على ترسيخ العقيدة الدينية الجديدة في نفوسهم ، وتنمية غرسها الروحية الغضة . ثم شغلهم ، على الأثر ، واجب الدفاع لدرء الأخطار المتحفزة من كل حضارات العالم القديم للانقضاض على دولتهم الناشئة ، وعلى الدين الذي اعتنقوه . ثم وكلاهما ، من بعد ، بالجهاد في سبيل الله لنشر راية الإسلام عالية ، ترفرف ديباجتها بالنور وبالمعرفة على عالم تلك الأيام الضال . ثم فاجأهم ، ولما يفرغوا من أداء رسالتهم للقدسة ، غوائل الانقسام الداخلي ، وعوادي الحرب الأهلية ، التي شها الخلاف والتنازع ، تحقيقا للمآرب الشخصية ، وبلوغا إلى جاء السلطان . .

هكذا تحالفت على الوعي الشعبي ، في تلك الفترة المتقدمة من أطوار تكوين الدولة ، عوامل عديدة متباينة من الأوضاع والأحداث : بيئية وعالية ، نفسية ومادية ، أصيلة ودخيلة ، ألزمته البقاء طويلا ، وإلى مدى ليس ينتظر في نطاق ماضيه المنهالك العتيق ، بعيدا عن إدراك دواعي التطور واستيقان جدوى التغيير . .

فقد قصر المفكرون وقتذاك ، عن الخروج بأذهانهم — بالسرعة الواجبة — من عزلة الحياة الدينية ، المحجزة بالاهتمام بالشعائر والعبادات ، إلى ضجيج الحياة الدنيوية وما يمج فيها من قضايا فكرية ومشكلات إنسانية على الإسلام بها عناية كبيرة ، وأبرزتها نصوصه القرآنية ، في وضوح وترباط ، وهي تطرحها كغيرها من آيات الله ، أمام التأمل . فلم ينبج العصر مفكرا حاول أن يخصب الفكر الإسلامي ، في مستهل نمو الدولة ، بما كان خليقا بأن يثريه من أقباس الإشعاعات الفكرية التي ألقاها القرآن على هذه القضايا والمشكلات . لم يتج لأحد من الألى تدارسوا كتاب الله ، وتعمقوه ، أن يلهم نظرة محيطية برأى الدين في الإنسان من حيث هو محور الوجود على الأرض . وفي فطرته من حيث هي

العامل المشترك الثابت الذى يسوى بين آحاده . وفى التجمعات البشرية للتناثرة على وجه الدنيا من حيث هى مجتمع إنسانى واحد ، ووحدة عضوية متكاملة ، شرقت أو غربت بأفرادها وجماعاتها المسافات والأبعاد ، وفرقت بينها العصور والآماد . ومع ما لعلنا نراه قد تواتر على السنة فريق من أعلام الإسلام حينذاك من ذكر بعض هذه المسائل ، فإن حديثهم عنها لم يجاوز أن يكون مجرد ترديد لا تأمل ، وإطافة لا إحاطة ، وإيعاء لا استقصاء . . فقد مضت الحقبة وما تقدم امرؤ خلالها من أصحاب رأى بنظرة شاملة فى أمهات المسائل الإنسانية العامة ذات الأثر فى تطوير حياة الإنسان ، وتوكيد كرامته ، وتوجيه سلوكه إلى الخير المشترك لمجتمعه العالمى الكبير ، كقضايا الحريات ، والحقوق المدنية ، ووظيفة المال ، ونحوها مما لا يزال يشغل الأذهان إلى الآن . .

بهذا القصور الفكرى ووجه الإمام . وبموامل تخلف الوعي حوصر طوال عهده ، وحوصرت معه دعوته التى كانت تهدف إلى تفتيق أذهان الشعب ، وخلق نوع من رأى العام المستقبر يستطيع أن يهضم وسائله التطبيقية المؤدية إلى تثبيت دعائم القيم الإنسانية ، الخلقية والاجتماعية ، وتحويل المثل الكريمة من عبارات إلى أسلوب حياة . ولئن بدا للكثيرين من معاصريه أنه كان عندئذ أشبه بمن يدور فى فراغ ويمحرت فى الماء ، فنظرتهم تلك لم تستطع أن تردده عن موالاة الدعوة ، خطابة وكتابة وتشريعات ، آونة بالتوجيه والإرشاد كلما لاحت له من الناس بارقة إصغاء ، وآونة بالنذير والتحذير ، كلما ثنوا عنه الأعطاف ، وصموا الأسماع ، وأسلموا نفوسهم ذليلة للتغافل ، أو استكانوا لجهالتهم العمياء . وهل كان يهدأ أو يكف ، وإنه ليعلم ، يقينا ، أنه ينطق عن حق ، ويعمل للغد ، ويفتح آفاقا من السلام والأخوة والنور أمام الأجيال لبناء عالم جديد . .

كل ما تحرك على رقعة الأرض الإسلامية الفسيحة من أمور وأحداث وفواجع ، إلى عهود طويلة مقبلة استغرقت عمر أجيال ، هو وليد ضعالة الوعي الشعبي عطالب التقدم ، وغرس قصوره عن الاحاطة المدركة بدواعي التغيير .. كان الإمام عندئذ يعيش في « الغد » المتوئب ، والأمة كلها ، خاصة وعامة إلا نادرة غير مذكورة القوة والتأثير ، تعيش في « الأمس » الراكد .. كان يسبح مندفعاً إلى الأمام نحو الأمل المرجو على تيار التطور ، وكانت تقف جامدة بغير مبالاة ، على الشاطئ المهبور .. كان يدعو ولا تسمع . يعمل ولا تقنطى ، يحبل من تراب طينتها البشرية ممزوجاً بالجهد الدائب ، والتجربة المستنيرة . وتعاليم الدين الهادية ، قالب الإنسان الأمثل الجديد ، لعلها تتشكل فيه . فإذا هي بعد طول الحرص والبذل والمعاناة ، تنبذ القالب ، وتكاد تحطمه ، وتحاول — بالنفلة الضالة والجهالة الرعناء — أن تعيد مرة أخرى إلى الحياة هيكل إنسان واقعها الأجوف العتيق ! ..

وتلك شيمة البشر على الدهر : نفور من التغيير ، وتشبث بالماضي ، ونزوع إلى الجمود ..

ولقد طالما عانت البشرية من هذه الطبيعة المعوقة تخلفاً عن استشراف الفجر ، وتأخراً عن مواكبة النور ! .. كم جهد قادتها على مدى الأعصر ، وفي شق الأرجاء ، لتقويم خطأ أبنائها ، عن طريق تنقية الروح والارتقاء بالنفس ، وتهذيب القيم الخلقية والاجتماعية ، والتسامي بأعماط السلوك ارتقاء بالفكر والعمل ، بالنظر والتطبيق ، من أجل إعادة صياغة حياة الإنسان ، في نطاق الطور الزمني الذي يعيشه ، لتكون حقاً حياة إنسان ! .. كم طلع منهم على الدنيا ، مع كل جيل ، مكافح هنا ، ومناضل هناك ، وترددت لهم في ربوعها الترامية دعوات وصيحات ! كم مشوا على الشوك ، وفتوا الصخر ، وحرثوا الأرض القاحلة بالأظافر ، ليذروا فيها حبات الفكر المتألق ، ويرووا تربتها الجافة الحشنة بقطرات المرق والدماء ! ..

ومع ذلك فلم يكتب للكثرة الغالية من أولئك الرواد أن يشهدوا الحضرة
تغطى الجذب ، ولا أن يروا — وهم أحياء — ثمرة ناصجة قد استوت على
ساق . . . حتى أصحاب الرسائل من الداعين بدعوة السماء ، قل منهم من عاصروا
أوان القطاف . . . إنعاموا عن الدنيا والبذرة المغروسة ما زالت تحت أطباق
الثرى نواة . أو نبته واهنة تفتقت عنها نقطة رخوة من التربة العماء . أو عودا
عاطلا من الورق والنوار . أو برعما لما يتفتح عن زهرة . أو ثمرة فجأة لا تطالب
الاجتناء .

لكنهم غرسوا ، وتركوا الحصاد للأجيال . وضموا المعالم على الطريق .
سبقوا زمنهم فمشوا في الأمل ، وعملوا له ، ومهدوا لمن بعدهم أن يقطعوا الشوط
المرسوم عندما تحمل اللحظة المرتقبة وتهتدى البصائر وتستخير الأذهان . .

من هذا الرهط الفارس الذى سبق عصره كان الإمام . إلى نحو الغاية التي
ابتغوا واقتضتهم الجهد جهادا والدعوة مكابدة سدود خطواته . فليس كمثل في
البشر ، بعد الرسل ، من غرس قبا عالية ، ورفع مثلا سامية ، ودعا وعمل لكي
تكون الحياة حقا وعدلا وفضيلة . . وليس كمثل ، بين الشهداء من قويل جزاء
صنيعه بالتغافل والجحود والعدوان . .

فكأنما كان غريبا في قومه ، أو كان منهم في دين سوى دينا . كأنما كان
ينطق بغير لغتهم ، ويدعو لغير حقهم ، ويسمى إلى غير خيرهم ، ويضرب الأمثال
لأئمة غلف ، وآذان صم ، وأعين ملؤها ظلام . .

ولم ترد أبدأ عن الكفاح للحق بالحق مظاهر انصراف قلوبهم عن أسلوبه ،
ولا بوادر جمود عقولهم دون ملاحقة ما يريد . . وأنى له أن يكف عن استرساله
في رسالته الإنسانية وإنه لمسئول عن غدهم كمشوايته عن يومهم ، وعنهم كمن
غيرهم من الأمم الشاهدة والأجيال المستكبة في جوف المستقبل . . وإنه كذلك
لموكل بفعل طواياهم ، وشجذوعهم ، وتفتيق أذهانهم المستغلقة لتطل ، من
خلالها نفوسهم الحبيسة وراء أسوار المألوف على الأفق المشرق الجديد . .

طويلا طويلا ظل فيهم يبلغ ويبين . يذكر ويعذر . يحذر وينذر وإن كاد

لا يلقى لديهم إلا أصداء جوفاء . . . كلهم كان يسمع ، وقلة كانت تنصت ، وندرة نادرة كانت هي التي تتأمل أو تستوعب أو تستجيب وإن بدت جموعهم الحافلة — رياء أو مصانعة — كأنما كانت له على طاعة ، ومن دعوته على استيثاق . . .

غير أنه لم ينخدع قط بما أغرقوه فيه من عبارات الموافقة والارتضاء . . . لم يضلله شعوره . . . لم يخنه فهم ذكاء قلبه . . . لم تفرر به سجيته النقية الصافية التي تشفى على الإلهام . . . فعلائم الاقتناع والانقياد التي طالما زيفتها الألسنة ، ورسمها الادعاء المنافق على وجوههم بالألوان ، لم تكن لتستطيع أن تحجب عنه الكثير الجسم أو القليل النزر من طواياهم الخفية ونواياهم للمستسرة وإنه ليستشفها ، سافرة مفضوحة ، من خلال ما قدموه ، حياتهم معه ، من سوابق الفعال وشواهد الخصال . . .

ما كانوا ، مع استخفائهم ، معجزيه بتظاههم للزخرف ولفظهم الخلو عن معرفة ما يكونون وله فراسة ثاقبة وامضة تقشع الغياهب كأنما هي شمع ، ونظرة نقادة نفاذة في أغوار الأنفس ومجاهيلها إلى أعتمق الأعماق كأنما هي سطحات إلهام تضيء الغيوب . . . قلو أنه شاء لما أعوزه أن يكشف لكل امرئ منهم عما سبره في ضميره ، ولا أعجزه أن يرسم صوراً نابضة من المستقبل القريب أو البعيد وهو بعد نطفة غير مخلقة لم تتمخض عن جنينها الليالي ، ثم يوشك ، مع هذا ، ألا يخطئ الرسم والتقدير . . .

وليس هذا ، بحال من الأحوال ، تقبها على غيب الله . ولا هو بانتحال لقدرة غير بشرية تجاوز ملكات الإنسان . لكنه استشفاف دقيق للتكوين النفسى لكل فرد منهم . واستقراء واع لطبائعهم التي تم عنها صفاتهم أجمعين . ورحلة مستقيمة في منطق الأمور والأحداث — على ما يند عنهم من خفجات المشاعر وطرائق التفكير وأنماط السلوك — إلى النتائج الحتمية المنتظرة التي تؤدي ، لا محالة ، إليها المقدمات ، تماماً كما تشير الأرقام إلى الحصييلة النهائية لأية مسألة حسابية ، مهما بدا من غموضها ، إذا أحسن فيها استخدام دلالة الملامات والرموز . . . أفيعضل إذن به أن يتعرف خفاياهم ، ويستقصي نواياهم ، فيشارف غدهم ، هو الذي خبرهم ، وأحاط بعالم عصره وأسراره وبقياراته السياسية

والاجتماعية الظاهرة والخفية ، ثم ألم بدقائق ميولهم ونزعاتهم من خلال الأقوال والأعمال ، ومن ثانيا الصفات والحلال ؟ . . . وكيف يفوته أن يكتنه المجهول ، أو ما يحسب معاصروه أنه مجهول ، وطريقه إليه واضح عمهد ، تسدد خطاه على نهجه حاسة مرهقة حادة الاستنباط والاستدلال ، يسندها علم راسخ لم يتح قط لامرئ سواه في الناس ، قد اختصه به الرسول ؟ . .

فيما سلف من أحاديثه ، أنذر رجاله ، مرارا مرارا ، بغلبة معاوية على الأمر ، وانتهاء أعنة الدولة إليه . . . ولم يكن ، إذ فعل ، آخذا بتنبؤ أو راجما بغيب وتلك فعالمهم وفعال عدوهم ماثلة له ، فيها الغناء كل الغناء عن التنبؤ والادعاء . فهل عسير عليه بعدها أن يتوقع زوال الملك الأموي القاهر بعد فترة من الزمن ، كما توقع قيامه ، وإن هو إلا دولة أسست على باطل ، وتذرعت إلى الحياة والبقاء بالزيف والخداع والظلم والبطش والإرهاب ، وكلها ذرائع وأساليب من الزبد والجفاء والهباء عمرها بلا ريب قصير . . . ؟

بريشة استنباطه ، صور لهم ما يصيبهم من بني أمية ، ومن دولتهم الآتية ولما تضع قدمها على عتبة التاريخ . فإذا هو يرسم ما وقع فعلا بعد سنين لأنه كان وحده الخلق بالواقع . . . وإذا تصويره لا ينصرف عن جادة الحقائق المقبلة ، لا بقيد شبر ، ولا شعرة ، لأنه لم يحد عن منطق الاستدلال السليم الذي يستقرئ من سلوكهم ما يؤدي إلى هذه النتيجة المخدومة بغير احتمال للمفارقة أو الاختلاف . وإذا كلماته هي القول الفصل الذي ينبثق من خلال الخصائص المميزة لواقعهم وواقع عدوهم ، والرأى القاطع الذي تميز عنه النظرة المحيطة الشاملة بما هو حادث ، المهتمة المتأملة في الملامح السكلية للوقائع ، والصفات الجامعة للنزعات ، دون الاهتمام بالاستغراق في التفاصيل . . .

كان مما قال :

« ... والله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء من بعدى . . »

وكان منه :

« لا يزالون حتى لا يدعوا محرما لله إلا استحلوه ، ولا تعقدا إلا حلوه . . »

وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وير إلا دخله ظلمهم ، ونبا به سوء رعيهم . . . وحتى يقوم الباكيان ييكيان : باك ييكي لدينه ، وباك ييكي لديناه

فما عدا قوله الصواب وكيف يمدوه ، وإنه للقول الحقيق بالتحقيق والجدير بالتصديق لأنه لا يرجم بغيب ، ولا يستند إلى أحداً تتذاب بها شطحة الخيال . بل المبر بدقة المنطق ، وإحكام الاستدلال منطقاً بغير عوج من شواهد الحال إلى حوادث الاستقبال .

ولا مجال هنا للمراجعة والجدال . . . فقد صدقه الزمن . وتابعته على نظريته الأيام . وكفى شاهداً مؤدياً إلى رأيه الذي ارتأى مسلك رأسهم معاوية معه . ثم دليلاً مؤيداً له مسلك من تلا العاهل الأموي من خلفائه وإن سيرتهم ، من قبل ومن بعد ، في الأمة ، وفي آل بيت الرسول ، لشهادة عيان تغني عن كل دليل وبرهان . . . وإذا كان الهوى والكذب والزيف والبغي والحيف والإرهاب ، وكل ما يوهن الحق ، ويمز الباطل ، ويركب الناس بالمت والشقة والإكراه ، لا تستطيع مجتمعة أن تدبيل دولة وتطوى سجلها من الوجود ، فأى السياسات والسير غيرها إذن كفيلاً بأن يطوى ويدبيل . . .

سيرة موسومة ، توارث حلقانها متصلة على صفحة الأرض الإسلامية ، أعواماً وأعواماً ، منذ رنا الأمويون — عسفاً وبغياً — من خلال أطباع معاوية وأخاذه إلى استلاب السلطان ، حتى اللحظة التي تهشمت فيها شوكتهم ، وانطفأت جذوتهم مستعيلة إلى رماد . . . وإذا كان الإمام قد دمع حكمهم قبل أن يقوم ، فلا عن ترة نراه فعل شفاء لغيل . ولا لإثارة الشغب عليهم نزولاً بأقدارهم واستزادة لنفسه من الأنصار . . . بل هي كلمة حق دله عليها استقراؤه المحكم للأحوال الجارية تحت سمعه وبصره . وبيان صدق صراح به الناس قبل أوانه ، سابقاً به رأى المستيقن للتعزز وظن المتردد للستريب . . . وهل يمكن أن تكون الأمة ، في عهده وبعده ، قد خلت من أفراد ، كثروا أو قلوا ، كانت تراوهم الخشية من الغد وهم يتأملون ذرائع معاوية في صراعه على السلطة ، ثم أساليبه في تدبير الحكم ، أو يتفحصون سلوك من خلفوه . . . أم يمكن أن تكون أيضاً قد عقلت أن تنجب نفراً توقموا سوء العاقبة ووبال المال لدولة كذلك سارت على

مثل هذه الذرائع وتوسلت بنفس الأساليب في سياسة الرعية والأمور ؟ .

أدنى إلى المحال ألا تختلج خواطر القوم ، طوال ما يقارب قرنا هو عمر الدولة الأموية ، بما قد يهيج الوسوس أو يحرك الشكوك في استقامة نهجها ثم يؤدي بعد هذا إلى الوصول — بالترجيح والاحتمال — لا عسى أن ينتظرها ، عاجلا أو آجلا ، من مصير غير كريم . فلا عجب إذن أن يسبق على غيره من أمته إلى استشفاف هذا المصير . ولا أن يتوقعه لها بمده كثيرون . ولا أن يستيقنه أيضا أناس كفوا — بحكم ارتباطهم بها وولائهم لها — عن المجاهرة به ، إشفافا منه ، وإيهاما لأنفسهم بأنه بعيد ، أو أنه لن يكون . . . ودائما يستدنى المرء في باله المحال المرغوب ، ويستبعد التفكير في المحتمل السكريه . .

سئل أحد شيوخ بني أمية ، عقيب سقوط دولتهم بأيام :

« ما كان سبب زوال ملككم ؟ . . »

فأجاب ، وهو عندئذ لا حاجة به ، ولا جدوى عليه ، لو أوهم نفسه بما لن يكون بعد أن كان :

« جار عمالنا على رعيقتنا فتمنوا الراحة منا . وتحومل على أهل خراجنا فجلا عنا ، وخربت ضياعنا ، خلت بيوت أموالنا . . ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا عليها عنا . . وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا . . وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . . وكان استنار الأخبار عنا أوكد أسباب زوال ملكنا . »

وذاك هو الجواب الذي لا قول بعده لزار غثب على الدولة الأموية ، طاعن فيها وفي رجالها حكاما وعمالا وبطانة ، لأنه جمع لها من المناقص : الافتقار إلى العدل ، وإثقال كاهل الناس بالخراج ، وإبتراز الأموال العامة ، والتسكالب على المنافع الشخصية ، والتلهى عن تدبير شئون البلاد ، وإهمال رعاية الجند ، والإغضاء على المظالم ، والجهل بما يدور حولهم من أمور . . وهو الشهادة التي تنطق بها لسان أموى فتدمغ أهله من المثالب والأوزار بما قد لا يظن لبعضه

المدو والغريم ثم يجدر ، مع هذا ، أن يأخذها سامعها بغير حذر لأنها تجيء من هو أميل -- بحكم القرابة -- إلى كتمان ما عسى أن يسمعه كتماناً من مساوىء ذويه . . . وهو ، إلى كل ما احتوى ، إيعاء كأنه إفشاء ، وتلميح كأنه تصريح ، وإعلان عن تواتر الأخطاء والميوب ، والنقائص بمختلف جوانب السياسة الأموية ، تباعاً وعلى مدى طويل ، في سلسلة متصلة الحلقات ، لأنه ليس مما تسيغه العقول أن تكون كل هذه الرلات والردائل قد وقعت دفعة واحدة ، في ساعة ، أو يوم ، أو عام ، ثم حطت فجأة أمام الشيخ الأموي فانتبه إليها وهو مبغوت . . .

شهادة تتمثل لنا وثيقة تجريم وتأييم تدين بنى أمية على ما اجتروه ولكنها تبدو أيضاً ، من خلال السطور ، كأنها صحيفة تبرير . . . فالشاهد ، وإن أسهب في تعديد أسباب الانهزام ، يحاول جاهداً أن يبرئ ساحة أهله ، فيلقى بالتبعة على من عداهم ، ملصقا كل مساوىء الأمويين بأعوانهم من العمال والوزراء وأهل الخراج . . . وتلك محاولة ، إن تكن جداً وحقاً فيما لعله يحال ، فهي حجة عليهم وعليه لا لهم ولا له ، لأنها عندئذ الغفلة التي لا تعفى من التأثيم . وإن تكن مراوغة ، وإنها كذلك ، فكفاها زيفاً طبيعة الحكم الفردي الذي اختطه عواهل الدولة ، واستأثروا في ظله بكافة أسباب السلطان .

بل هي المراوغة التي لا تخدع أحداً ولو لم يمش في نطاق سلطتهم ، ولا عرف حقيقة سيرتهم ، ولا شهد مظاهر سلوكهم ، ولا عانى مما أبرموه أو نقصوه . . . وها هو ذا ملك النبوة لا تجوز عليه الحيلة حين أراد أحد الأمويين أن يسوق إليه نفس التبرير . . .

كان هذا عندما انطوت صحيفتهم بمصرع آخر خلفائهم ، مروان بن محمد . . . فقد تمزق جيشهم . وهلكت كثرة من أمرائهم ، وشرقت البقية الباقية منهم وغربت تضرب على غير هدى في الآفاق إلى مأمن هنا أو ملاذ هناك بحفظ عليهم الحياة . . . إذ ذاك انتهى الفرار بعبد الله بن مروان ، ولد الخليفة الصريح ، إلى أرض النبوة يلتبس فيها النجاة . . .

وعلم ملك النبوة بنزوله فأمر رجاله أن يكرموا مشواه ثم أقبل عليه يزوره

بعد أيام في وفد من أصحابه ، قضاء لحق الضيافة والتكريم .. فلما أن رآه عبد الله ،
حتى هب لاستقباله ، يتنمى له عن صدر المجلس ، ويدعوه للجلوس . .

لكن الملك آثر اعتماد الأرض العارية ، محليا لضيافته مكان الصدارة . فلما
عجب عبد الله ، وسأله :

« ما منعك من التعود على الفراش ؟ . . »

كان الجواب :

« إني ملك . وحق للملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمه متجددة
عنده . وفد رأيت تجدد نعمة الله عندي بقصدكم بلادى ، واستجارتكم بي ، بعد
عزكم وملككم ، فقابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع . »
فكأنما خدشت هذه الكلمات بعض كبرياء عبد الله ، أو كأنما حركت أشجانه ،
فأخذ إلى الصمت وهو لا يكاد يجد ما يقول .

أما الملك فقد أغضى مليا . رأسه مائل على صدره . وعينه ملتصقة بالتراب .
ووجهه الأسود اللامع لا تبين منه إلا جبهة مفضنه ، قد انعقد فيها ما بين حاجبيه
كأنه يدير فيها — على مهل وعناء — فكرة شغلته تحاول أن تجد لنفسها طريقا
إلى شفتيه . .

ثم انتبه فجأة وبادر ضيفه :

« أيها الأمير . لماذا شربتم الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ودينكم ؟ »
فهزت المفاجأة عبد الله . . ولكنه تعال كجاشه بعد هنيئة ، وأجاب :

« اجترأ على ذلك عبيدنا بجهلهم . . »

قال الملك :

« فلم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم ودينكم ؟ . . »

« فعل ذلك أتباعنا وعمالنا جهلا منهم . »

« فلم لبستم الحرير والديباج والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم

ودينكم ؟ . . »

« استعنا في أعمالنا بقوم من أبناء المعجم كتاب ، دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك اتباعا لسنة سلفهم ، على كره منا . »

عندئذ لاح طيف بسمة على وجه الملك ، وهو يطرق برأسه ، ويقلب يده ينكت في الأرض . ثم ما لبث أن قال بלהجة حاول أن تخفي سخريته :

« عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتابتنا . . . كلا . ما الأمر كما ذكرت . . . ولكنكم قوم استعملتم ما حرم الله عليكم . وركبتم ما عنه نهيتهم . وظلمتم فيما ملكتم . فسلبكم الله العز ، وألبسكم النذل . وإن له سبحانه فيكم لقمة لم تبلغ غايتها بعد . . . »

وانتفض واقفا يقول :

« أيها الأمير . إنى لأخاف أن يحمل بكم العذاب وأتم بأرضي فينالني معكم . »
ثم أردف بهدوء كهدهوء السكين لو غاصت عندئذ بطعنة مصمية في قلب الأمير المذهول :

« .. الضيافة ثلاث . . اطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتملوا عني »

وغادر المكان .

كما كاشف رجاله بيزوغ نجم معاوية ، وارتفاعه في أفق الحكم ، أنبأهم أيضا بانتهاء الدولة الأموية ، بمدشوقة وعز وطفیان ، وسقوطها بعد حين صريعة تحت أقدام أعداء لها ، أشداء لا يرحمون . .

شريط من الصور الحزينة القاعة ، مرسوم بالدم ، كان يمر دائماً في باله ، على تعاقب زمني — محددا ملامح الفواجع التي لن يلبث أن ينجاب شر الأيام — ما أكثر ما عرض منه أمام الآذان والأفهام . فكم تحدث إليهم عن محن العدا . كم أفصحت لهم عبارته عن مآسيهم المقبلة ، ومآسى أمة كانت ، على ضوء حاضرها القريب المشرق ، تنتظر عهداً من المحبة والوئام والسلام . . . كم أعلن لهم إعلان يقين عن مصائر خفية توشك أن تقع فتمزق الأمن وتزلزل اليقين . . .

اسكنهم ، تهاونا وغفلة ، استقبلوا أحاديثه تلك بغير احتفال ، بعضهم لوى عنها سممه وهم يحملونها على محمل الحدس والتخرض . وبعضهم أدارها في خاطره ثم ظنّها من قبيل اللبالة في الزجر والتحريض . . . وعندما لاح لقلة منهم أن تشيم من خلالها ما أشاع في نفوسها خوف المستقبل ، أسرفوا في تقدير مراميه ، وتقديره ، إلى أبعد مما تحلم العقول أن يشطّح إليه خيال . .

حتى حين استشعرت كثرتهم في سلوكهم بوادر تنبيء ، بالهيئة والمضمون ، عن استغراقهم في تخاذل هو التقهقر والانحدار ، وفي سلوك عدوهم خطراً يزحف ظلوا على غير مبالاة كأنما كانوا يحاولون درء المصير المستظر بالاختباء خلف طمأنينه نسجوها من خيوط عنكبوت . . .

يقول لهم وهو ينذر بمحنة قادمة ، توشك أن تم أمتهم على يد خصم عنيد جائر ، يعمل ويجهد ويسهر ، وهم في طمأنينتهم الزائفة نيام :

« . . يظهر أهل باطلها على أهل حقها ، حتى تملأ الأرض عدواناً وظلماً وبدعاً ، إلى أن يضع الله عز وجل جبروتها ، ويكسر عمدها ، وينزع أوتادها . .

ألا وإنكم مدركوها ، فأنصروا قوما كانوا أصحاب رايات بدر وحنين تؤجروا .
ولا تألثوا عليهم عدوهم فتصرعكم البلية ، وتحمل بكم النعمة ... هـ

اسكن إفصاحه هذا لا يشير فيهم نخوة لأنه الحقيقة التي بدت لهم حينذاك
كرجة الظن ، والنتيجة التي يريهم أن يلبسوها ثوب الأوهام ...

ويزيدهم بيانا وكشفا حتى انهم كلاته ، وهي ترسم حالهم الحى ، أن تجسد
المستقبل بعده خفاقا بنقض اليقين :

« مكنتم الظلمة من منزلتكم ، وألقيتم إليهم أزميتكم ، وأسلمتم أمور الله في
أيديهم ، يعملون بالشبهات ، ويسرون في الشهوات ... وأيم الله لو فرقوكم تحت
كل كوكب لجمعكم الله لشر يوم لهم ... هـ

ولا يكفيه أن يعلمهم عاقبة ثبوت همتهم ، ومآل عسف عدوهم ، بل يزعج عن
مجهول الغد سترأ آخر يطلع عليهم النعمة المحيطة وقد جلاها عن الأمة قوم شداد
صلاب ، يركبون بنى أمية بالفهر والحزى والذلة : حتى ليتمنى رجالها ، في كبوتهم
لو لم ينازعه أسلافهم حقه ، أو يناصبوه العدا ...

يقول :

« .. ثم يفرجها الله عنكم . بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عنفا ،
ويسقيهم بكأس مصيرة ، لا يعطيهم إلا السيف ، ولا يلبسهم إلا الخوف . فمعد
ذلك تود قريش ، بالدنيا وما فيها ، لو يروثنى مقاما واحدا ... لأقبل منهم
ما أطلب اليوم بعضه فلا يمطونه ... »

وصدق فيما قال ...

فلقد آن ، من بعد ، موعد هذه الأمية الأموية التي أنجبها الندم من زواجه
بخشية المغيبة حين أزفت الآزفة ، ودامهم البلاء ، ولم يعد لهم من دونها كاشفة
ووقاء ...

بومذاك كان مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، قد نزل بالزاب ،
يتنبأ لحماية عرشه وعرش آبائه من انتفاضة الشعب التي تزعمها الباسيون . . كان

في عدة قوية من مائة ألف فارس من رجاله ، على مائة ألف قارح يرتبهم ، وينظم موافقهم ، ويعد نفسه وإياهم لحوض معركة المصير ..

وأشرف من مقر قيادته يرمى بعينه على جحافل أعدائه . يا لهذا السواد الذي يعلأ الأفق أمامه ويكاد يحجب الشمس عنه . . . أمن كثرة عددهم وكثافة الصفوف ؟ .. أم تلك عمامتهم وأعلامهم السوداء هي التي تنشر الظلام ؟ أم هذه الأسراب من الغربان التي تتابع تحوم على كشب منهم ، وتدانيهم ، حتى غدت تلتهم بمقدمتهم ، وتؤلف مع جموعهم المنتشرة مثل ستارة من دجنة نقبت ضياء النهار .

وتشام مروان ، وتلفت حوله يسبح بنظرة متوجسة في صفوف جيشه اللجب ، وهو يهمس بصوت أسيف :

« إنها لعدة . ولا تنفع العدة إذا انقضت المدة . . . »

وأردف ، وبصره يومي* إلى أعدائه ، كأنما ليبرر توجسه :

« أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا . . . أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السود . . . أما ترون إلى السواد قد اتصل بالسواد . . . »

ثم مال على أذن رفيق له يسأله :

« من صاحب جيشهم ؟ .. »

أجاب الرجل :

« عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس . . . »

فهل لسمه الاسم بشواظ نار ؟ ..

لقد صاح وهو مبغوت :

« ويحك . . . أمن ولد العباس بن عبد المطلب ؟ .. »

« نعم . . . »

فأخفى رأسه كالمضجع ، وقال :

« لوددت والله أن طي بن أبي طالب مكانه في هذا الصف . . . »

فتعجب رفيقه :

« يا أمير المؤمنين . . أتقول هذا عن طي مع شجاعته التي ملأ الدنيا ذكرها . . . »

« نعم . . إن عليا مع شجاعته صاحب دين . وإن الدين غير الملك . . »

لكنها الأمنية التي لم يعد لها اليوم مجال . فقد مضى ذلك الذي كانوا يأمنونه لأنه ينف عما لا تميزه شهامة الفروسية ، ومروءة الإنسانية ، وسماحة الخلق ، من البغى والنكال ولو بخضم مسرف غاية السرف في الحق واليغض والعداوة . وكأنما برزت لروان بوادر نهايته ، فبعث طي الأثر برسالة إلى عبد الله ، يستأمنه فيها بعض استئمان . .

كتب إليه :

« يا ابن عم . . إن هذا الأمر سائر إليك . فاتق الله واحفظني في حرمي . . »
فإذا جواب عبد الله :

« . . إن الحق لنا في دمك . وإن الحق علينا في حرمك . . »

ومع ذلك فلا الحرم أقيمت من مرة الامتحان ، ولا الدماء أهرقت بعيزان بل اندفع غول الانتقام يميث فيهم دمارا وقتلة وغيلة ، لا يكاد يردده رادع عن سرفه . .

وكم من صور للانتقام . .

. جىء بإحدى بنات مروان ، بعد مقتله بيومين في مصر ، إلى أحد رجال أعدائه ، فإذا هي ترعد كورقة ذابلة يتقاذفها أعصار حتى إذا مثلت بين يديه ، بدا أمامها كمن يحاول أن يذهب عنها الروح ، فقال مخاطبها بنبرة رقيقة :

« لا بأس عليك أي بنية . . »

فس نفسها بعض اطمئنان ، وقالت تنفس عما تحسه من قلق واضطراب :

« وأي بأس أعظم من إخراجك إلى حاسرة ولم أر رجلا قبلك قط . . »

ابتسم لها وقال في هدوء :

« اجلسي . . »

لكنها ما كادت تفعل ، حتى رمى في حجرها برأس أبيها مجزوزة من عنقه
قد تجمدت عليها الدماء .

فهل هو الهلع ، أم الرعب ، أم القسوة الفاحشة ما طفر بالفتاة من مقعدها
تصرخ وتصيح ؟

أما الرجل فلعله ما أحس إلا بنشوة الثباتة تملك عليه مشاعره ، وهو يشهد
نتيجة فعلته ، حتى لقد قال لمن استفسروه سر غلظته التي لا تدانيها غلظة
الوحوش :

« فعلت بها فعلهم يزيد بن طي . . لما قتلوه جعلوا رأسه في حجر زينب بنت
طي بن الحسين . . »

... وأدخلت بنات مروان وحرمة ونساؤه إلى صالح بن طي وهن بعد
النكبة مهيضات مفجوعات . فتقدمت منه كبرى بنات الخليفة الصريح تحاول
أن تستثير شفقتة ، عسى أن يكف عن بقية أهلها بعض النكال . .
قالت له مسترحمة :

« يا عم أمير المؤمنين . حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه ، وأسعدك
في أحوالك كلها ، وعمك بخواص نعمه ، وشملك بالعمافة في الدنيا والآخرة . .
نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسمعنا من عدلكم ما وسعنا من
جوركم . . »

فغضب لقلوبها الذي عرضت فيه بجور الدولة الجديدة ، ورد وهو يزأر :

« إذن لا نستبق منكم أحدا . . »

ثم وإلى حديثه وسبابة يمينه تعد طي أصابع يسراه :

« . . إنكم قتلتم إبراهيم الإمام . وزيد بن طي ، ويحيى بن زيد ، ومسلم بن
عقيل . . وقتلتم خير أهل الأرض : حسينا . وإخوته . وبنيه . وأهل بيته . . »

وسعتم نساءه سبابا — كما تساق ذراري الروم — على الأتقاب إلى الشام . . .
وكانت الدماء تفيض من تحت جلد الفتاة كلما أحصى وعدد ، وثنياتها تكادان
تقضبان سفلى شفتيها من أسف على ما بدر من كلامها الذي أثار ثورته . حتى إذا
رأته يلقف بعض أنفاسه اللاهثة ، أسرعت تستدرك لعلمها تصالح ما أفسدته من
مزاجه وتهدي قليلا من غضبته المندلعة .

قالت على خوف وندم :

« يا عم أمير المؤمنين .. فليس منا عفوكم إذن ! »

فكأنما فتحت بقولها في فؤاده الصلدة ثغرة إلى الرجاء ، لأنه تعهل هنية ،
ولم يلبث أن قال :

« أما هذا فنعم »

... ومشت إحدى نساء بنى أمية إلى سليمان بن علي ، وهو عندئذ بالبصرة
يعن في قتل آلها الأمويين ، كأنما يتلهم بقتلهم للمتعة وإزجاء الفراغ . . فلما
جمعا مجلسه ، قالت تحاول أن تكنه عن متعته الدموية :

« أيها الأمير إن العدل ليل من الإكثار منه ، والإسراف فيه . فكيف
لا نعل أنت من الجور وقطيعة الرحم ! »

فلم يزد الأمير على أن أجابها في غير مبالاة مذكرا بعلمك ذويها :

« سنتم علينا القتل لا تنكروا . فذوقوا كما ذقنا على سالف الدهر »

وأطرق لحظة مد بعدها إليها بصره وأردف :

« يا أمة الله ! . وأول راض سنة من يسيرها ! »

.. وعندما جرى برأس مروان لأبي العباس السفاح ، سجد وأطال . ثم
نهض من سجوده وقال يخاطب الرأس المقطوع ، وومض الفرحة لا يغيب عن
حياء ، وجرسها الرافض لا يحتفي من حديثه :

« الحمد لله الذي لم يبق ثأرنا قبلك وقبل رهطك ! .. الحمد لله الذي أظفرنا

بك ، وأظهرنا عليك . . ما أبالى والله متى طرقت الموت وقد قتلت بالحسين ألفاً
من بني أمية ، وأحرقت شلو هشام وابن عمى زيد بن علي كما أحرقوا شلوه . . »

والتهبت عيناه بحمى شماته وهو يتمثل :

« لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم جمعاً ترويني . . »

وحول وجهه إلى القبلة يسجد مرة ثانية . ثم اعتدل وقال :

« أبي قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدما

إذا خالطت هام الرجال تركتها كبيض نعام في الثرى قد تحطها . . »

صور وحشية . أم هي صور إنسانية تكشف عن ضراوة البشر ، وترديهم
في وهدة القسوة والعنف إلى أبعد الأغوار ؟

بل هو الثأر ، دائماً ضربة بضربة ، ونكال بنكال يتعاقب جانباً على أديم
الدنيا حيثما كانت في ربوعها معالم للحياة البشرية ، واختلط هواؤها بزفير إنسان .
وقد تعاقب الجانبان على الأرض المريبة ، كما يتعاقب ليل ونهار . وتغل في الصراع
الهاشمي الأموي ليرزا لنا — إلى جوار طبيعة البشر البشمة ، انقطاع أنفاس
الظلم والظلام ، مهما طال الأمد ، واستمكنت القوة ، وبعد الرجاء ، وصبرت
عليهما الأيام . .

إنها الحكمة الداهية ، والظاهرة المتكررة التي تتجدد على أطراف بين الآن
والآن ، في كل زمان ومكان ، لتؤكد أن الطغيان لا محالة إلى انتهاء وإن
حرص ذووه — غفلة أو صلفاً — أن يعمكوا له في البقاء . . فلك بديهية
البدييات التي يتناساها كل طاغية ، عن اغترار واستكبار ، ولا سبيل لدولة
أول إنسان إلى نقضها مهما أفسح لأيهما في الفرعنة والتجبر ، لأنها القانون الطبيعي
القاهر الذي يفرض نفسه على حركة الحياة ليحفظ لميزانها الاعتدال . . فما تعرف
الدنيا الإطلاق . وما شيء بها أو لأمر أو لأحد دوام . . إنما إرادة الله قد
قضت بالمرأوحة في الوجود بين النقائص ، وبالمداولة بين الأضداد كالنور والظلمة ،
الأصل والظل ، القوة والمقاومة ، الفعل وردة ، الصوت وصداء ، ليتلى الناس
ويختبر سلوكهم إلى الخير أم إلى الشر ، وإلى الخطأ أم إلى الصواب ، لتحقيق
عدالة الجزاء . .

ولقد أسلف الإمام إلى بنى أمية النذير وهم من بعد فوق بر الأمان أقدر
عندئذ على كبح الأنفس أن تتقحم بهم في المهالك ، وتخوض ، بدفع الأطماع ونزع
الشهوات ، بحاراً من الدم تفضى بهم بعد حين إلى عادية الثأر المنهوم . . فأقلعوا
لو ارعوا . . . وسلموا لو فهموا . . . ولكنهم في غمار الأمانى استغلقت منهم
العقول وانطمست الأفهام ، فعاب عنهم ما لهم المحتوم الذى نشره أمامهم دون
إخفاء . .

أما قال لهم :

« .. ألا وإن لكل دم ثأراً ، ولكل حق طالباً . وإن الثأر في دمائنا
كالخاكم في حق نفسه وهو الله الذى لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب .
فأقسم بالله ، يا بنى أمية ، عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم ، وفي دار
عدوكم . . » ؟ .

قال .

ووقع ما قال بعد السنين الطوال .

وكان الواقع هو النتيجة التى لا معدى من حلولها ، هجلى بها الزمن أو تأخر ،
ترتيباً على ما اجتروه . . كان القضاء اللازم ، والقدر الهام ، الذى حذروه
وأغفلوه . . كان ثمن الطغيان . .

وضربة بضربة . ونكال بنكال . .

لم تكن قط انتفاضة بالغضب لحق ، ولا انتفاضة بالثار لدم ، كذلك الثورات التي تفجرت من بعد في دولة بني أمية ، على مراحل حياتها ، وفي مختلف مواضع نفوذها ، طلبا لحق على ، وانتقاما لدماء آله ، وهي تنشر في جنباتها الدعر والوت والدمار .

وكم لهذه الثورات من دوافع . ولوقدى نيرانها من ذرائع . ولأهلها من أولياء وأنصار . . . لكنها مضت لغايتها ، بغير تردد ، تطوى سجل عدوها وتمحو آياتها . بعضها بداعي القرابة . وبعضها بحكم الولاء . وبعضها صدى للندم . وبعضها عن ادعاء . . .

وكيفما كان من أسباب تلك الحركات القاصمة ، وجميع مشيرها ، فقد قطعت الشوط المنتظر ، وغطت الأرض الأموية بالأشلاء ، غير مبالية أن تقصد في العنف ، أو تميل — عمدا أو عفوا — عن جادة القصاص للقبول إلى أقاصي النكال والبطش والمثلة وهي تضرب ، ماوسمها ، بسلاح السخط والحنق ، لتشفى غيظها ، وتبرد نارها ، فتسقى عدوها من نفس كأسه للمرة التي طالما أترعها في جبروت سلطانه واستكباره لحصومه الهاشميين ، ثم تقهره قهرا على احتسابها ولعل بقاياها إلى المآلة . . . ولا عجب . . . فلا هزيمة في حقد ، ولا تحرز مع ثأر . فتورات الجماهير عادة بلا عقول ولا قلوب . وحركات المد الانتفاضي الغاضب لا يكاد يردّها عن انتشارها الجائح جزر إلا أن تبالغ مداها ، وتحقق أربها ، لأنها دائما جموح حرون كاندلاعة الحريق ، أو اندفاعه العواصف والأعاصير .

وحقت هكذا قولة الإمام ، مع الأيام ، في الظالم وفي المظلوم .

ففي المشرق ، إن هي إلا فترة من الزمن قصيرة ، لا تكاد تذكر كمحر دولة حتى كان آخر الخلفاء الأمويين مروان « الحمار » يذرع الأرض من الموصل ،

إلى الشام ، إلى مصر ، عبر الفلوات والأنهار ، وهو يفر بجنده من أسياف الهاشميين من بنى العباس ، أبناء عم رسول الله ، فرار الحر المستنمرة أمام قسورة ، ثم لا يجد لنفسه منهم جنة إلا حينه . .

وفي المغرب ، إن هي إلا فترة أخرى عقب هذه حتى انقصف فرع البيت الأموي بالأندلس بعد طول عز وصوله ، ثم ديست معاله ، في إفريقية ، تحت أقدام هاشميين آخر من أبناء الحسن بن علي ، سبط النبي ، هم بنو حمود . .

ولم تكن جماعل الثوار آنذاك هاشمية خالصة تضم آل الرسول وحزبهم الذين طالما ألهمتهم سياط الأمويين . بل قد لقيت الثورات عوناً قوياً من كثير من العناصر الشعبية البعيدة ، بوضعها الاجتماعي ، عن مجال الصراع بين البيتين الكبيرين اللذين انحصرت فيهما زعامة العرب ، شرقاً ونبوة ، ورنّت إليهما في اضطرابة الحوادث الأنظار . . كانت عناصر شتى ، من الألى لاهوى لهم في السياسة ، ولا مطمع برجونه من وراء التغيير إلا أن يرجعوا كفة على كفة ، ويرفعوا جانباً على آخر . منهم الماطف . ومنهم الحاقد . ومنهم أكثر من أولئك وهؤلاء باحث عن اللغامرة يتسقط الحياة التي يرتضيها وتحلوه من أغوار برك الدم على رنين التعام الحراب . . وإذا كانت دعوة الدعاة قد طففت ، عاما وراء عام ، وجيلاً في إثر جيل ، تستعجيش كل حاقد على الحكم الأموي ، مورتور منه ، لتستزيد من الأنصار ، فإن الجانب الأكبر من الجماهير التي انخرطت في صفوف الثوار ، وأشهرت في وجه بنى أمية سيوف الانتقام ، لم يكن يشدها ، في الأغلب ، إلى هذا الانخراط إلا إحساسها بإنسانيتها ، ووقاؤها للطبيعة البشرية التي تدفع المرء دائماً ، حنوا ورقة ، إلى الانعطاف للمحروم المظلوم ، والانحياز إليه ، انتصافاً له من ظالمه ، إذ يكاد يرى نفسه ذلك المحروم المظلوم . وهل في السواد الأعظم من الناس أحد لا يسيطر عليه شعور غلاب بأنه فريسة حرمان وظلم ، لم ينل في الدنيا حظاً يكافئ قدره وملكاتة ؟ . .

ودع عنك أيضاً تلكم الزمر الكثيفة التي التحقت بصفوف الثورات الهاشمية وفاء دينياً لله كرى رسول الله قبل ولائهم سياسياً لهذا أولئك من آل بيته الذين تنادوا بحقهم في ولاية الأمر بحكم وشائج القرى وصلات الدم . . ودع عنك

مدم تلكم الزمر الحافلة من الأعاجم أبناء فارس الدين رأوا في انتصارهم آل البيت إحياء لنظرتهم القديمة التي تربط بين الحكم وبين العقيدة فتجعله حقا لهما ، ليس أحد أولى به من ذوى القداسة ، فليس أجدر به إذن من الأئمة آل بيت الرسول . .

طوائف شتى ، لأسباب شتى ، تضافرت على ضرب حكم الأمويين ، وتقويض نفوذهم الباقى حتى سوته بالتراب . . وصور شتى ، بألوان شتى ، من القهر والذل والعذاب . طاردت ذوبهم وأذاقتهم النكال . . وليس كل ما أصاب حليفهم الأخير ، والكثرة الكثيرة من أمرائهم ، من قتلة ومثلة ، هو نهاية مطاف الكارثة التي حلت بهم ، إذ قد امتدت الفواجع أعواما عدة بعد ذهاب ربحهم كقوة سياسية ذات خطر ، واستتباب الأمر لبني العباس . . فما أكثر من قتل وصلب ! . وما أكثر من قضى حياته حبيس السجون ! . . وما أكثر ما هدمت دور وأحرقت قرى على من فيها ومنهم من الأتباع ! . . بل إن منهم من نبش عن قبره ، وأخرجت جثته البالية لتعرق على ملأ الناس ! . .

فظائع إن يكن أسرف في تلوينها التهويل ، وأغرق في ابتكارها الخيال ، فإن بها ، لا ريب ، لمحات صدق تنبئ عن الكوارث التي أحاق بالأمويين ، وأطبقت عليهم — أمراء وأتباعا — من كل جانب ، تحاصرهم بالوبال والدمار ، ويغمرهم بطوفانها الهادر كل حاقد ومنافق وموتور . . فكما لقوا من الدولة الناشئة . ومن أشياءها التأثيرين . ومن طوائف مختلفة من الجماهير التي تحركها غريزة القطيع للاندفاع مع تيار التنكيل الذي أطلقته النعمة أو مع سكرة الانتصار . .

حتى بعد أن هدأت هونا غضبة بني العباس ، وخفت عندهم شهوة الانتقام ، لم تعدم البقية الباقية من الغرماء المقهورين من أفسح لهم عندئذ في النجاة والحياة ، أن تتحرك إليها ، من هنا ومن هناك ، عوامل الدس والحسد والبغضاء ، لتتلاها الدنيا عليها تحريضا ، وتعيد من حول جوعهم وأفرادهم تأريث النار . .

ولقد جرى من هذه الكوارث للمفظة على السنة الروايات والشائعات كثير وكثير . .

قيل . .

... دخل مرة مولى لبنى هاشم ، طى أبى العباس السفاح ، وقد ثبت ملكه ، واستقرت دولته ، فإذا هو يرى عنده فريقا من أمراء الأمويين ، قد أمنهم الخليفة ، وأوسع لهم فى مجلسه بعد أن اتسع لهم عفوه ورضاه . .

وغص المولى . لم يطق هذا المظهر من الصفاء والألفة يقوم بين صاحب الأمر ومن كان بالأمس يطاردكم بأسيايف تقمته . . فأسرع يسئل عليهم لسانه ، مقبلا طى الخليفة بشمر يشيره ، ليوقظ فى نفسه وحش الانتقام الذى نام . .

أنشد يقول من بين ما قال :

« يا ابن عم النبی ، أنت ضیاء استبنا به الیقین الجلیا
جرد السیف ، وارفع العفو ، حتى لا نرى فوق ظهرها أمویا
لا یغرنک ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دویا
قطن البغض فى القدیم وأضحى ثابتا فى قلوبهم مطویا . . »

لما هو أن فرغ من شعره ، حتى كان سم تحريضه قد سرى فى قلب السفاح ، فغير وجهه ، وحرك حقه ، ودفعه يطرق هنية كالنادم ثم يرفع وجهه ليقول :

« خلق الإنسان من عجل . . »

وأردف يتمثل :

« أحياء الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبید ولآباء أبناء . . »

والتمت نحو غلمائه وقد اشتعل فى نظراته الشر ، يومئ لهم إلى جلسائه الأمويين :

« خذوهم . . »

فقتلوا . .

وقيل :

... نزل مولى آخر للعباسيين طى عبد الله بن طى وعنده طائفة من بنى أمية قد صلب عنهم ، ودعاهم بمجلسه إلى سمط طعام مد لهم ولبن حضره من أصحابه .

فما أن وقعت عينه على الشهيد ، حتى تغير ، كما تغير رفيقه الآخر ، وأسرع ينفث دميسته ، وينفض الرماد عن الجمر . . .

أنشد يحرّض الأمير :

« لا تقبلن عبد شمس عثارا واقطنن كل رفلة وغراس
 ظلها أظهر التودد منها وبها منكم كحد اللواسي . . .
 أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
 واذكروا مصرع الحسين »

وراح يعدد شهداء بني هاشم . . .
 فذكر عبد الله ما كان أسيه . . . وإن هي إلا لحظة حتى شدخت رؤوس
 ضيوفه الأمويين بالعمد ، وبسطت عليهم البسط ، ومدت فوق جثثهم المهشومة
 — وإن يبعثها لبقية حياة — موائد الطعام .

وقيل وقيل ، غير هذا كثير ، بتنطق الصدق أو يسرف التحويل .

نكال ما بعده نكال ليس يخلو من معالم الحقيقة وإن أغرق في الانسياق
 للخيال . . ومع ذلك فهو ، على أي نحويه كان ، حصاد ما زرعت دولة الأمويين
 في عنفوان طغيانها من دم وخراب . وهو جنى مر لما غرسته في النفوس من
 إحن وعداوات . . ولقد توشك اللبالات أن تلقى بأكشف الظلال على ما سلف
 من مظالم الحكم البائد حتى لتنعله من صنوقها ما لم يقترف ، ولكننا نوشك ألا
 نرى أيضا عهدا في تاريخ الإسلام قد شهدت ، على طول المراحل ، مثل ملامح
 الشطط في الفسوة والعنف التي أبداهها ذلك الحكم لمنافسيه ، حقداء عليهم أو خوفا
 منهم . ولا مثل فعل أساطينه بالشعب ، الذي دان للمكهم واحتوته قبضتهم ،
 بلوغا إلى تغيير مشاعره نحو الهاشميين عامة ونسل فاطمة خاصة ، وانحرافا بتأييده
 إلى الجانب المضاد . .

أبدا لم يدع شو أمية سبيلا إلى إشاعة البغضاء على خصومهم إلا طرقوه تأمينا
 لدولتهم التي قامت على ادعاء حق لا نصيب لها فيه إن لم نقل قامت على الاغتصاب . .
 فيكل ما وسعهم الدعوة والحيلة والإكراه حاولوا القضاء على خصومهم ، كقوة

قيادية ، في مجال السياسة ، لها وزنها في تنبيه الأفسكار وتحريك الجماهير ، أو كسيرة عطرة ، في مجال المواطف ، تتعلق بها الخواطر وتمفو إليها القلوب . تذرعوها بكل ذريعة : محظورة أو شرذعة . توسلوا بكل وسيلة : كرية أو لثيمة . . . بالسكامة والسيف . باللائن والعنف . بالوعد والوعيد . بالإحسان والحرمان . بطمس الحقيقة . بتشويه القيم . بتدليس الأنباء . بتزييف الأحداث . بابتداع أمور ووقائع لم تنسم الحياة . بما قد يستطاع أن يحمل . بلغة يومنا — في عبارة « غسل للخ » بمختلف أنواع الإلحاح في المغالطة والتهميه ، دحضا لحجج غريهم عليهم ، وفضا لأنصاره من حوله ، واستهواء خادعا يستجلب لهم مزيد من التبع والخلفاء .

والحديث في هذا الوجه يطول وإن بوعد ما بينه وبين الإحصاء وأخذ فيه على طريق التمثيل . . . لكن قصة واحدة قد تغني عن كلا السيلين لأنها أبلغ تعبير يستطيع أن يرسم نتيجة « حملة الكراهية » التي شنها بنو أمية على الإمام وذويه كما قد لا يرسمها مثله تعديد الصور ، والإفاضة في استقصاء الشبهة والنظير

وهذه هي القصة . .

ارتحل رجل إلى الشام يحول فيها ، فلفته أن أحداً من أهلها — على كثرة من عرفهم ، وصر بهم ، وسمع منهم — لا يتسمى باسم على أو حسن أو حسين ، أو ينادى به غيره ، وإنما تفشو فيهم أسماء : معاوية والوليد وزيد ، وأمثالها مما يحمل أهل الأسرة الحاكمة ورجال الدولة . .

وعجب . . وهل كان لظاهرة كهذه أن تشيع في أمة على صفة شيوعها ذاك الذي بلغ الإجماع ؟

ثم قاده ذات يوم عطشه إلى شامى ، ببعض الطريق ، ليستسقيه . .

فما كان أهد مجبه حين سمع الشامى ينادى أبناءه ليلبوا طلبه :

« يا على . . يا حسن . . يا حسين . . »

عندئذ لم يملك المسافر أن يسأله :

« يا هذا . . إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء . . »

قال صاحب الماء :

« صدقت . . إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء . . »

« وأنت ؟ . . »

« كرهت ذلك ، لأن أوامرك إذا لمن أحدهم ولده أو شتمه فقد لعن خليفة .
أما أنا فقد سميت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمت أو لعنت فإنما ألعن
أعداء الله . . »

إلى هذا الحد بلغت حملة الكراهية الأموية من « غسل المخ » بغضا
لأمير المؤمنين ونبيه . . وإلى نحوه من الغلواء أمعن الأمويون بعنفهم وقسوتهم في
التنكيل بعقبه وآل بيته ومن شايهم من الناس . . فأما وهذه هي قوة « الفعل »
فمن الطبيعي أن تناظرها قوة « رد الفعل » حين يتاح الانتفاض . . ومن الطبيعي
أيضا أن تستشف النتيجة المنتظرة لهذا الارهاب الطاغى قبل وقوعها . ويستشعرها كل
متأمل كال حينئذ مع بنى أمية أو عليهم ، من خلفائهم وأمرائهم وسادتهم أو من
عرض الجمهور . . وإذا كانت الرؤى والأحلام ، فيما تحدثنا العلوم النفسانية
العصرية ، تفصح في نوم المرء عن أحاسيسه المكبوتة ، فتعكس أحيانا شعوره
بالذنب ، وتعبّر أحيانا أخرى عن المخاوف أو الآمال ، فليس من شك تحت
هذا الضوء في أن رؤيا سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، أحد أمراء الأمويين ،
صارحته بما كان يكتم من شعوره بذنب ذويه ، وصدقت في إفصاحها له عن خوفه
المكبوت من مصيرهم المنتظر . .

.. يقول العلاء بن رافع مؤنس الأمير :

« إني لمع سليمان ، وهو يشرب تجاه رصافة أبيه . . وعنده الحكم الوادى

يغنيه . . »

وتعنى القصة . .

يحيد المغنى ما شاء . ويشرب سليمان ما شاء . ويشرب معه رفاقه حتى يسكروا

جميعا ، ويتوسدوا أيديهم كالغفاة النيام من فرط الشراب .

ثم يحس الملاء كأن يدا قوية عنيفة تحاول تحريكه . فينتبه مذعورا على الأمير وهو يهزه متعجلا وقد بدت في عينه نظرة وجوم . .

وبغت الرجل ، وقال :

« ما شأن الأمير؟ . . »

قال سليمان كالماس ، يقص رؤياه :

« . . . رأيت كأنى فى مسجد دمشق ، وكان رجلا على يده حجر ، وطى رأسه تاج أرى بصيص ما فيه من الجوهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

أبى أمية قد دنا تشتيتكم وذهب ملككم وليس براجع
وينال صفوته عدو ظالم كاسا لكم بسام موت نافع »

فصاح الملاء :

« أعين الأمير بالله من وساوس الشيطان الرجيم ! . . هذه أضغاث أحلام . . »

وأطرق الأمير مليا وقد استغرقته أفكاره . فلما أن رفع وجهه ، كانت ملاحظه كابية ، وكان فى عينه سهوم . وكان ثقل التشاؤم يكاد يهوى بحروف كلماته قبل أن تلتئم عبارة مكتملة ، وهو يقول لرفيقه :

« يا حميرى . . بعيد ما يأتى به الزمن قريب ! . . »

* * *

وكان حقا قريبا ذلك البعيد الذى تحت أحلام قومه غيابه وراء خط العدم لا تطلع به عليهم الأيام . . فقد وقع . لم تحمل بينه وبين سقوطه عليهم كسفا ما اصطنعوا من حذر ، وما أعدوا من قوة ، وما ساروا به من البطش والعسف والإرهاب فى الناس ، تسكيا للأفواه ، وغلا للأيدي ، ولبا للعقول والأفهام . ولم ينفعهم كذلك الذكر الذى طالما جرت بهم أحاديث على وهو يحذرهم للغبية ، وينذرهم سوء المآل . . وهل كانوا ليذكروا وإن بوارق الاطماع لتغشى منهم (١١ — الإمام ٨)

العيون وتغلف الأفئدة وتوقر الأسماع ؟ . . . وإنه لعدو أولى بهم ألا يحملوا كلامه على عمل الجد بل على عمل التوبة والإيثار . . . وإنهم ، إبان ما عدد من نذره ، كانوا على أول الطريق إلى تسنم قمة الصولة ، ودونها — في حسابهم — يقصر شرط غيرهم ، وتنهر ألقاسه ، ولو حاول أن يطير إليها على جناح الخيال ؟

وكيف لا ، وهام أولاء يرون أصحابه اللاصيقين به ، العاملين لنصرته — فيما تبدى لهم وللناس — لا يكادون يلقون بالاً إلى هذا القدي قال وردده يوماً وراء يوم في المقال تلو المقال . . . بل تحذيره إذن تخريف لأولئك وحث لهؤلاء ، ونذيره إذن من قبيل الدعوة الشبطة هناك والمهرضة هنا عسى أن ينال ببلاغة الكلام وصرير الأقلام ما فاتته أن يناله في ساحة الوغى وحومة الصدام . . .

لو أنهم أصغروا إليه ، فربما تغير لهم الوضع ، واختلف بهم المصير ، ومشى التاريخ معهم على غير نهجه الذى ساروه ، ووعته لنا بعدهم بطون الأسفار . . .
 لكنه القدر اللازم ، حين يبدأ خطواته ، لا يرده شيء عن الانطلاق .
 والقضاء الدائم ، لا تنفى عن وقوعه حيلة . بل الحيلة دائماً تكون له
 ولا تكون عليه ، لأن العيون تعمى ، والبصائر تنطمس ، والعقول تذهب ،
 وتقدير الأمور — بداية وغاية — تضطرب معايره ، فيهول المرء عندئذ ما يهون ،
 ويهون عليه ما يهول ، فإذا هو يحذر ما لا ينبغى الحذر منه ، وتسوقه الغفلة
 — آمنا — إلى الانزلاق نحو المحذور المقدور . . .

وتلك خلاصة قصته معهم . . . يبصر ، فكأنما غير ذوى بصر . ويردد ،
 فكأنما لغير ذوى سمع ! وهم ، من دونه ، يظنون الأمان فيما لا أمان لهم فيه .
 ويرون الخوف فيما لا خوف عليهم منه . . . وبين اليقين والشك قد اختبل سلوكهم ،
 يميلون للإيسار حين يقصدون إلى اليمين ، ويمعنون في الشك وهم يحسبونه اليقين .
 لا عن جهالة فعلوا ، فقد علم . ولا عن ظن ، فقد بين . ولكنهم قوم كانوا
 على اعتداد تعالوا به إلى حد الاغترار . فلم يتعبد لهم طريق التصديق . إنما كلفوا
 بالمراجعة ، فأسلمتهم إلى المسكابة ، فوقعوا في الشدة ، فزالوا إلى التكذيب . . .
 ولا غرابة أن يكون هذا ديدنهم ، لأن الجيلة البشرية مركوز فيها لإنكار
 ما لا تعرف ، واستبعاد ما يفهم عليها فهمه أو تبريره . وقد كان ما يحدثهم الإمام
 عنه أحياناً — حثاً وتحذيراً — من غوامض الغد وأسراره ، أبعد من امتداد
 نظرهم القاصرة ، وأكبر من إحاطة علمهم المحدود . . .

كألى يخطف البرق أبصارهم فلا يرون إلا الظلمة وإن أثار ، كانوا
 لا يستطيعون رؤية الحقيقة فيما يقول ، فيسملهم عمام على التكذيب ، ويقودهم
 جهلهم إلى الإنكار . تماماً كدأب المشركين والمناقضين الأولين مع محمد ، نهرتهم

رسالة السماء فراوها دعوة إلى الصبوء لا دعوة إلى الهداية ، ورأوه معها كشاعر وكاهن وساحر ، ولكنهم لم يروه قط كرسول .
وكذلك الإمام .

في رجاله كثر من كذبه . . فكلمنا أفصح لهم عن حدث مكنون لما يتفتق الزمن عنه ، أو أوماً إلى أمر من الأمور المغيبة عن عقولهم ، افتروا عليه ، وألصقوا به الادعاء . . بعضهم ، عن حماقة وجهل ، جاهره بالكذب في غير محرز . وبعضهم خباؤه تحت الألسنة ، نفاقاً ومراعاة ، وإن طالما ألحمهم أجمعين بما لم يكن لهم معه محيص عن التصديق . .

فكأنما نسوا ما مر بهم من شواهد صدقه وإنها لناطقة بأبلغ بيان ، ماثلة أمام العيان ، ثابتة في الأخلاق والأذهان ليس يسع الأشهر القلائل التي تقضت أن تطحس منها الكثير ، بل اليسير . .

وكم تلبجت لهم الأمثال .

فتنة الخارجة مثل .

مصارع أهل النهر وان مثل .

قصة المخدج ذي الثدية مثل .

ألوان عدة من أنباء المغيبات جرت تحت أسماعهم على شفثيه حديثاً وأحداثها ما زالت خلف ستر الزمن لم ينسج منها خيطاً ، ولا صاغها القدر في حروف . .

ولم يكن يرجم بظن ، ولا يستقرى* النجوم ، ولا يلتجئ* للكهانة وهو يرى بعينه إلى ما وراء العلوم المنظور لآياتهم بشدرة من المجهول للمستور . . .

إنما كان ينطق عن حق لا شبهة فيه ، لأنه كان عندئذ يطلعهم على بعض علم محمد الذي اختصه به من دون الناس ، وهو ليس بالذي يفترى على الرسول . .

وقد سمعوه يقول :

« . . إذا حدثتكم عن رسول الله فهو كما حدثتكم ، فوالله لأن آخر من السماء أحب إلى من أن أكذب على رسول الله . . »

لكنهم لم يراعوا عن تكذيبه وإن كانت لهم في سيرته — لو عقلوا —
ما ينأى بهم عن هذا الافتراء المدحوس . .

وجادلهم في نظرتهم المنعرفة مرة فقال :

« . . . بلغنى أنكم تقولون : على بكذب . . قاتلكم الله ! . . فعلى من
أكذب ؟ . . أعلى الله ؟ . . فأنا أول من آمن به ! . . أم على نبيه ؟ . . فأنا
أول من صدق به ! . . كلا والله ! . . لكننا لمجة غبتم عنها ، ولم تكونوا من
أهلها . . . »

ثم أتبع ، وهو يعجب ويأسف لافتقارهم — فكرا وروحا — إلى النفس
الشفافة التى تحس ، والعقل اللماح الذى يدرك بعض ما كان يوصىء إليه من
علمه المكنون :

« . . . ويل أمه كيلا يغير ثمن ، لو كان له وعاء . . . ولتعلن نبأ بعد
حين . . »

ليس بالثمن كان يدعوهم للشراء من كنوز حكمته . ولا بالقطرة كان يقتر
في كيله لهم من أفياض معرفته . إنما كان يسخو عليهم غاية السخاء بما وعى من
نعم ربه وآلاء صفيه رسول الله من شذور هادية من العلم الإلهى والنبوى
لا مقطوعة ولا ممنوعة . غير منتظر جزاء يحجزونه إلا أن يتفهموا ما يطالهم
به ، أو يفسدوا لبعضه جانبا في القلوب والصدور ، عسى أن ينفعهم ذكره
في حياتهم هذه الحاملة الجاهلة ، الجامدة الجاحدة ، المملقة المغلقة ، التى يحيونها
وهى لا حياة ! . .

كانت دعوته :

« ها إن بينى جنبي علما جما لو أجد من يحمله . . »

فلا هم أقبلوا ، ولا هم نهلوا . . كأنما قد أبوا عليه أن يرفدهم بما لديه ،
وأبوا على أنفسهم أن تغتذى بنوره ، حتى بدوا قلوبا من صخر صلد عسير عليها
أن تتشرب ما يتنزل لها ، حللا طيبا ، من ماء عذب يذهب عنها قهولتها ،
ويهبها النضرة والحضرة والنعاء . . .

ولم يكف عنهم نداءه . كلما حانت لحظة لتبصيرهم خف مشوقا مهموما بحث ويستوى ، مجاوزا مهم دور « التاجر » العارض سلعته أمام العيون إلى دور « الدلال » المتلهف على ترويج ما عنده من بضاعة بكل ما يسعه من أساليب الإغراء ووسائل الاستمواء ، لعله هكذا يجتذبهم الإقبال عليه قنصا لفرصة سانحة ما كانت لتكرر لو أنه طوى متاعه ورحل عن السوق . . .

أهاب بهم ، ذات يوم ، ليعرك فيهم رغبات التطلع الدفينة تحت ركام التغافل وقلة البلالة .

كان مما قال :

« . . . اسألوني قبل أن تفقدوني . . . فوالذي نفسى بيده ، لا تسألوني عن شيء بينكم وبين الساعة إلا أخبرتكم . . . ولو قد فقدتموني ، ونزات بكم كرائه الأمور ، وحوازب الخطوب ، لأطرق كثير من السائلين ، وفشل كثير من المستولين . . . وذلك إذا قلصت حربكم . . . وكانت الدنيا عليكم ضيقا ، تستطيون أيام البلاء عليكم حق يفتح الله لبقية الأبرار منكم . » فلم تنل إهابته هذه من اهتمامهم شيئا ، لأن علمه — فيما بدا — كان سلعة غريبة عليهم ، خليفة بأن تيور في سوق جهالتهم الجهلاء . . .

ثم خطر له أن يكرر عليهم نداءه ، مرة أخرى ، ممليا نفسه أن يجد بينهم سميعا يقبل ، ومنصتا يتأمل ، وإن كاد ليوقن تماما أنهم مستقبلوه بالتكذيب الموغل في الضلال ، والافتراء قبل الإهمال المستند إلى المكابرة والادعاء .

قال :

« . . . والله لو أمرتكم بجمعتم من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدثكم من عدوة إلى أن تغيب الشمس ، لا أخبرتكم إلا حقا . . . ثم لتخرجن فلتزعمن أني أكذب الناس وأجفهم . . . »

ولئن نطق حديثه هذا بمنطق الآيس من صلاح أمرهم ، الذي يرى الخير في أن يكف عنهم دعوة قصاراها أن ترتطم بأسماع صماء ، وقلوب عليها أكنة ، فإنه لينبئ أيضا عن علم سابق بمسلكهم قبل أن يكون ، وبصدقه القاطع الذي

شاء لهم غيهم واستكبارهم وضيق ألقهم أن يغشوه دائماً بأقذع الشبه وانكر
الظنون . .

ولا جدال ، فقد حدثهم فصدق ، وسمعه فـكذبوه ، حين وقف ، عقيب
وقعة النهروان ، يذكر لهم أطرافاً من القدر المجهول . .

إذ ذاك خطبهم خطبة مستفيضة ، نحا فيها إلى الإيحاء دون الإفصاح ، وإلى
التلميح بدل التصريح ، وهو يشير إلى ما سوف يركب القوم من أخطار نهول ،
ومن كوارث نزحهم أيامهم ، ولا تزال تأخذ منهم ، وتثخن فيهم ، حتى يقبض الله
لهم من يماديه الإمام من وراء ستر الغيوب :

« . . . يا ابن خيرة الإماء . . . متى تنتظر . . . أبشر بنصر قريب من
رب رحيم . . . ألا قويل لمتكبرين عند حصاد الحاصدين ، وقتل الفاسقين
عصاة ذى العرش العظيم . . . فبأبي وأمي من عدة قليلة ، أسماؤهم في الأرض
مجهولة ، قد دان حينئذ ظهورهم . . . »

ثم يلفت الناس إلى ما يدخره الزمن لهم من سوء المآل ، وإنه ليقصد
في إخبارهم بعض القصد ترفقا بهم أن يفترسهم الجزع ، وخوفا عليهم أن
يضلهم الافتتان :

« . . . لو شئت لأخبرتكم بما يأتي ويكون من حوادث دهركم ، ونوائب
زمانكم . . . وبلايا أيامكم ، وغمرات ساعاتكم . . . ولكنني أفضيه إلى من أفضيه
إليه مخافة عليكم ، ونظرا لكم ، علما مني بما هو كائن وما يكون من البلاء
الشامل . . . »

لكنه لا يمنع نفسه أن يحذرهم العقبي الخوفة ، فيصف لهم تلك التربة التي
تنبت الأهوال المنتظرة ، وذلك الأوان الذي يحصدون فيه جنى ما تبذر أيديهم ،
لعل منهم من يقلع عن غي سلوكه ، ويحد من غلواء ضلاله ، تخفيفا من غضب
الله عليهم واستفادة لرحمته وعفوه :

« . . . ذلك عند تمرد الأشرار ، وطاعة أولى الخسار . . . ذلك عند
ظهور العصيان ، وانتشار الفسوق . . . حين لا قال للعيشة إلا عصية الله في

سمائه .. حين تسكرون من غير شراب ، وتحلفون من غير اضطرار . وتظلمون من غير منفعة ، وتكذبون من غير إحراج ، تتفكهون بالفسوق ، وتبادرون بالمصية .. قولكم البهتان . وحديثكم الزور ، وأعمالكم الغرور »

حق إذا ختم كلامه ، بنبوة الأسيف الحزين ، رمى يصره إلى بعيد ، كأنما إلى القدر المكتوب :

« عند ذلك لا تأمنون البيات وياله من بيات ما أشد ظلمته عند ذلك تقتلون ، وبأنواع البلاء تضربون ، وبالسيف تحصدون ، وإلى النار تصيرون فيا عجبا كل العجب من جميع أشتات ، وحصد نبات سبق القضاء سبق القضاء »

هنا لم يعدم من بين جمهورهم الحاشد غالبا في الحق والحقه غلوا يصعب الجهل ويركب الشطط ، يقول :

« أشهد أنه كاذب على الله ورسوله »

فما كان ذلك من هذا الآثم بغريب . بل الغريب حقا أن أحاديث الإمام عن الأمور اللغوية كانت تدفع الناس من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين . من المغالاة في الإنكار والتكذيب إلى حد التكفير ، إلى المغالاة في التأييد والتصديق إلى حد التأليه .

في يوم قال لهم ، كاشفا عن علمه لعله أن يشير فيهم فضولا يدفع بهم إلى الاعتراف من معينه :

« لو كسرت لي الوسادة ، لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل الفرقان بفرقانهم . وما من آية في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى أنزلت ، وفيمن أنزلت »

فإذا كان هذا القول خليقا بأن يحرك عجبهم ، فلا عجب معه وإنهم ليعلمون أنه ارتوى من علم رسول الله . وإذا كانت الدهشة قد تؤدي إلى الشك فما كان

أحرامم بأن يستنبطوه ما شاءوا ليقطعوا الشك باليقين . . لكنهم لا بهذه ولا بتلك أخذوا ، بل جنحوا إلى الغفلة في شأنه من تقيض إلى تقيض . . .

بعضهم أنكر فقال :

« يا لله والدعوى الكاذبة . . . »

وبعضهم أيد فقال :

« أشهد أنك رب العالمين . . . »

على مشقة عاش بينهم الأشهر الطويلة الأخيرة محاولاً جهده أن يبلغ بهم غايتهم
وغايتهم ، وهم في أسلوبهم ذلك من التفكير والسلوك .. إذا دعا تغافلوا . وإذا حث
قدموا . وإذا حذر راوغوا . وإذا أوماً إلى مصير لا يرضاه ولا يرتضونه يوشك
الغد أن يتكشف عنه انحرافوا في تقدير إيمانه إلى أقصى اليسرة فهو كاذب ،
أو أقصى اليمين فهو إله تفتحت له مغالق العيوب . . . فلام يقنعون منه بالتلميح
الذي أيدت بعضه الشواهد الماثلة والأحداث التي جرت أمامهم تحت السمع
والبصر . ولا هو كان يسه أن يزيدهم بياناً فيكشف لهم ، بالتصريح السافر ،
ما قد أوثق عليه من أسرار .

وبين ضيقه بجهلهم الجاحد لملئه الذي تبلجت لهم منه آيات ، وصدقته — من
قبل ومن بعد — الأمثال ، وبين حرجه من المبادرة إلى إفصاح هو موقعهم ،
لا محالة ، في فتنة مضلة ، مضى يعالجهم ما استطاع . . .

ولم نره قط تهاون في إراز النذر الحربية بأن تحملهم على التراجع عما سددوا
فيه وإن عبر بالإشارة التي تجزى الجزاء كله عن المكاشفة المفضوحة . . . فليس
مأموراً بأن يهلك الحجب ويضيع القناع . ولا بمقدوره أن يأخذ بأقدامهم أخذاً
فيضمه على الطريق الذي يتفرون من ولوجه . ولا أن يلقيهم ويضع على أطراف
السنتهم كلاماً يقولونه ، كأنهم قردة أو يغاوات . . . فما جدوا وجدواهم من
صعوف متراصة ترحم الطريق ثم لا تسير ؟ وما يفيد ويفيدهم من قول أجوف
يرددونه ولا يقترن به إيمان يترجم حروفه إلى أفعال ؟ . . . بل إن مقتضى شوقهم
على هذا النحو فيه ما ينضو عنهم الإرادة ، ويجردهم من ملكات التفكير ،
ويفقدهم جزاء العمل الدأى ، حتى ليبلغ دورهم في الحياة ككائنات عاقلة ذوات
إدراك ، ثم ينفي عنهم التبعة ، ويرفع التكليف وما هو بمرفوع عنهم لأنه العبء
الذي ينفرد الإنسان بين كافة الخلائق بحمله ، ومعيار الحساب الذي يوزن به
سلوكه فترجع كفته إلى الثواب أو تشيل إلى العقاب . . .

أشبهه بمحالمهم في هذا المقام ، فبما حدثنا الذكر القدسي ، حال بني إسرائيل حين أهاب بهم موسى :

« . . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تتردوا على أديباركم فتتقلبوا خاسرين . . »

فما دفعتهم دعوته إلا إلى التعلل ، ولا حملهم نذيره إلا على الثبوت . .
قالوا :

« يا موسى ، إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . »
فلما قيل لهم ، إغراء وعدة :

« . . ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . . »
أصروا على تمردهم الزنيم :

« يا موسى ، إنا لن ندخلها أبدا ، ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ،
إنا ها هنا قاعدون . . »
ذاك أشبه بمحالمهم معه . .

أما حاله معهم ، فأشبه أيضا بحال موسى حينذاك من بني إسرائيل ، وقد تقطعت به الوسائل . وتمزقت الأسباب ، دون عطفهم على غايته :

« رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . »
قلولا أن أثارة من أمل كانت لا تزال تومض في ظلمة يأسه بكجرة بها بقية من حرارة وهي تحت الرماد . . ولولا إحساس أمين ببقته أمام ربه وأمام الأجيال كتيبة كل ذي رسالة عليه البلاغ ، لنفض من الأمر يديه ، وتركهم وما يشاءون . .

لكنه بقي وما نذر له نفسه ، ثابتا في الميدان . . يحارب بالتبصرة التفاعل ، وبالتذكير الاستهانة ، لعله أن يهز في أعماقهم شعورهم بإنسانيتهم ، ويبعث في كل منهم حيا الانسان العاقل للدرك الذي دفنوه تحت ثوبا كلهم ، ليعيش مرة

أخرى دوره الحق الذى هيأته له طبيعته ، وعيا عاملا وعملا واعيا ، لا يعرفان سلبية الجود . .

قال لهم ، كأننا ليحركهمهمهم ، ويذكر كلامهم بذاته ، كقوة حية عاقلة عاملة ، لها ملكاتها المميزة ، وإرادتها التى لا ينبغي أن تترك لتصدأ ، أو تهمل فتموت : « . . وأيم الله ، لولا أن تتكلموا فتدعوا العمل لحدثكم بما قضى الله على لسان نبيكم . . »

وتلك غاية ما يمكن أن يصل إليه تكريم إرادة الإنسان ، وتحرير سلوكه ، ليعملا « اختيارا » بوحى مشيئة صاحبهما وتفكيره الخاص دون قهر أو إجبار . .

وكما حرص على توفير هذه الحرية لأصحابه ، وحثهم على ممارستها ، فقد كان دائما يعمل على أن تسير فى طريقها المؤمنون ، بهداية التقدير السليم الواعى ، الذى يستند إلى منطق العقل ، ولا ينحرف مع شطحات الأخيلة المخمورة . وإذا كان بعض رجال أمير المؤمنين ، كما شهدنا ، قد انطلقوا على غير السبيل الطبيعى الخلق بأن تقودهم إليه أحاديثه ، فغالوا فى تقدير وضعه إلى تأليهه ، وأمعنوا فى إيمانهم به إلى غاية المروق ، فما استطاع أن يقال إن تفكيرهم هذا كان نتيجة لازمة لإيماءاته بين الهيئة والفينة إلى أحداث « غدوية » كانت حينذاك خافية عنهم ثم ما لبثت حتى أيدتها لهم الأيام .

ليس هذا بمستطاع . بل محال المحال الذى لا يطوله التوقع ولا يدانيه الاحتمال . . فمن المرفوض المردود أن تكون « إيماءاته » تلك علامة لقداسته الربانية التى أفاءها عليه قومه عن ضلال . ومن الخطأ أى خطأ أن تتخذ ذريعة للتسويع العذر لأولئك المارقين الغالين . . وكيف لا ، وهذا رسول الله ، قد أخبر قبله فأكثر الإخبار عن الغيبيات ثم لم يدع له أحد من أصحابه نفس الإدعاء ؟

أقرب إلى الصواب أن يقال إن أولئك الرجال ترسبت فى نفوس بعضهم بقية من عقائد قديمة لم تسكن ترى أى ضير فى اجتماع الطبيعة الإلهية إلى الطبيعة البشرية فى إنسان رفعت مكابته فى عيونهم مكانا عليا فقدسوه . أو دفعت بعضهم

الآخر تقاليدهم السياسية ، المنعدرة فيهم من خلال تراث ماضيهم إلى تأليه الحاكم ، وإنعاء نسبه إلى السماء أخذاً بنظرية الحق الإلهي للولك في حكم الشعوب . أو دعت فريقاً ، غير أولئك وهؤلاء ، دواع من الحق تحركها اتجاهات شعوبية أو قومية ، إلى السكيد للإسلام والمسلمين ، بإشاعة أمثال هذه الفكرة المنكرة في الدين الغالب الجديد . . ولا غرابة في هذا ، لأن رقعة الدولة الإسلامية قد راحت تتسع ، في تلك الآونة ، لاشتغال كثير من البقاع التي تضم أمماً وأجناساً شتى ، منها ما وتره العرب في الفتوح ، ومنها ما كان له تراثات وفلسفات ثقافية وعقيدية وسياسية ترى التثنية ، والتثليث ، والتقداسة الإلهية لصاحب الأمر والسلطان . .

وكأننا لم نغيب كل هذه الموامل الضالة المضللة عن الإمام ، وهو يومئذ لرجاله بعض الإيحاء إلى الغيبات ، كلما حملة موقف من مواقفهم على انتهاج هذا السبيل ابتغاء التحذير . . فكلم طالما صارحهم ، وهو يحدتهم أحاديثه الإيمائية ، أنه ناقل عن الرسول . وكلم طالما ، فرق هذا ، أقصر وأقل من أمثال تلك الأحاديث ، محاولاً أن يكتم عنهم ، وسعه ، ما يستشف أو يقدر أو يعلم عن صفيه رسول الله من أسرار النفوس والزمان ، خشية أن يفتنوا به ، ويدعوا له العلم بغيث لا يدعيه ، قد أكرهته الظروف على التلميح بطرف منه عسى أن يكون في ذلك بعض ما يرجو لهم من صلاح . .

إن نبع العلم النبوي الذي لا ينضب كان ، لا ريب ، غير محجوب عن الإمام بحال . بل كان هو الأثير به ، منذ طفولته ، دون صفوة أصحاب رسول الله وخاصة أهله . يستقي منه . وينهل حق الارتواء . ويراجع محمداً فيما قد يستسر ويلهم من الأمور ليزيد بهذه المراجعة معرفة . فإذا لم يفد على من معين النبوة الفياض — وهو الذي كان « ولداً » لمحمد ، صفياً له ، لصيقاً به ، قد أوتي ما أوتي من ذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وحيدة الدهن ، وتوقد اللواهب واللكات — فأى امرئ غيره كان أولى بأن يفيد ؟ . .

ومع ذلك فلم ينهمهم التحذير ولا الإقصار . .

قال لهم ، من بعض كلام له ، يعرض فيه عليهم علمه لا انتفاعهم ، وهو لا يفسى ،
مع العرض ، تحذيرهم الافتتان :

« . . سلوني . . فوالله لا تسألوني عن فئة تفضل مائة ، أو تهدي مائة
إلا أنبأتكم بناعقها وسائقها . . ولو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه
ومولجه وجميع شأنه لفعلت . . ولكن أخاف أن تكفروا في رسول الله . .
والذي بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صادقا . ولقد عهد إلى بذلك
كله . . وما أبقى شيئا يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني . . »
ومع ذلك افتتنوا . .

صدق فيهم فراسته . تحقق ما كان يقدره منهم ويخشاه عليهم . ضل منهم من
ضلوا وغاصوا في الكفر من القدم إلى أعلى الهام . .
طائفة ادعت له النبوة . .

طائفة خفت الادعاء ، فتنادت بأنه شريك الرسول في الرسالة .
طائفة قلت أخطأ جبريل عند تنزله من رب العرش ، فنزل دونه على محمد
ابن عبد الله .

طائفة جأرت بأنه هو الذي بعث محمدا رسولا من لدنه إلى الناس .
طوائف عدة آخر ، سدرت غاية السدور في الروق والضلال ، منها ما زعمت
له الحلول ، وما ادعت له الاتحاد في الله ، وما رآته الله .

قال له قائل منهم :

« أنت الله . . »

وقال فيه شاعر لهم :

« إنما خالق الخلائق من زء زع أركان حصين خير جذبا

قد رضينا به إماما ومولى وسجدنا له إله وربا »

وأنشد فيه شاعر آخر :

« ومن أهلك عادا وثمودا بدواهيـه

ومن كلم موسى فوق طور إذ يناديه
ومن قال طي للنبر يوما وهو راقبه
سلوني ، أيها الناس . فخاروا في معانيه

وكم من قائل ومن أفوال ، ذهبت بهم وبها الأعصر طي إدبار وجاءت بغيرهم
على إقبال . . . فإذا هم جميعا ضلال من ورائه ضلال . وإذا هو بالأواخر ممتحن
في سيرته وفي ذكراه . وبالأوائل ممتحن في حكمه وفي صبره ، يحملهم على « الكفر »
به طوعا أو عنوة ، فلا يرتضون — لاجبة في العناد والغنى — إلا المصيان ،
باسم الإيمان .

فما كان أعجب أنصاره حينذاك من حزب العراق . . . لاهم عيده كإله
فأحسنوا العبادة وأطاعوه . ولاهم عاهدوه كإمام فوفوا بالعهد ونصروه . . . إنما
عاشوه أجمعين على رياء ونفاق ، وحالفوه بالخلاف والشقاق . . . الألى قدسوه
كان تقديسهم إياه ترانيم جوفاء ، وزاتيل خرقاء ، قد تظهر الخشوع بالسجود
والركوع ، ولكنها لا تبرز الطاعة بالولاء والأداء . كأنما آمنوا من « الرب »
وهم يصونه ، بطش عذابه ، وثوقا برحابة غفرانه . . . والألى بايعوه على
النصرة كإمام ، خفروا الدمة ، ومزقوا الموثق ، مخلصين لدعة هي الضمة ،
وآملين في سلام هو الاستسلام . فإذا هم حين الدعوة أسود كلام ، وحين البأس
تعالب ونعام . . .

الفصل الخامس

بكل الحسرة في القلب . بكل المرارة في الفم . بكل الأسى في العين . بكل الاستهانة والاحتقار والزراية تقطر من حروف كلماته وهو يعصر عنها شفثيه كما يعصر الباكي الدموع من مآقيه ، ارتقى الإمام النبر ، على ضجر وملالة ، ليحدث تكم الجموع الزاخرة أمامه عددا كالوج ، الهشة في خلد وزنا كالسكلا الدابل . . .

بدأ فقال :

« ما هي إلا الكوفة أقبضا وأبسطها . . . »

وأطبق أصابعه ، وأطلقها مرة فمرة فمرات ، فما انطبقت ، في كل مرة ، إلا على خواء ، ولا انبسطت إلا عن خواء . . . وهل الكوفة حين ذاك من الدولة العريضة ، الآخذة في التداعي ، إلا كقطرة من بحر طام ، إن هو جف فليس بالقطرة بعد غناء . . .

ثم صوب نظره إلى البلدة المائلة له في أشخاص رجالاتها المجتمعين حياه ، وأكل في ازدياء :

« . . . إن لم تكوني إلا أنت تهب أعاصيرك ، فقاتلك الله . . . »

فلقد برم بها وبهم .

برم بهذه الكوفة . . . وهان شأنها عليه . . .

إنها الحاضرة الضخمة التي تصدر غيرها من البلدان والدائن الخاضعة لحكمه ، وتقودها إلى هدفه على الطريق . . . ولكنها أسوأ قدوة ، وأذل عنوان .

ويهم بقومها ، وهان شأنهم عليه . . .

إنهم خلاصة الأقوام من مهاجرين وأنصار وأهل الأمصار الذين وانقره

على وحدة أمتهم ، وأخرجوه من المدينة للجهاد حرباً على الانقسام . . ولكنهم مالبثوا أن نسوا الهدف ، وخانوا الموثق ، وهبت خلافاتهم عليه كالأعاصير . .

مسلك عجيب غاية العجب أن يروموا الوحدة من غيرهم ، ثم ينقسموا على أنفسهم مثل هذا الانقسام . .

على أن العجب قد يخف هونا حين تعلم أن الخلاف كان مركزاً في خلائق فئة فيهم غير قليلين ، عسير عليهم التحرر منه لأنه محال انتزاع الطباع . فهم بحكم بدادة بعضهم ذوو عناد غال ، ومراس شديد . وبحكم انحدار بعضهم من ثقافات فكرية معقدة ، كالثقافة الفارسية ، أو تأثرهم بها ، ذوو نظر في الأمور يدفعهم إلى البحث عن البواعث والمقارنة بين النظرات . ومن التزاوج بين العناد والمقارنة ، ينشأ الترجيح والجدل واختلاف الآراء . واقد ذهب أسلوبهم هذا في التفكير كل مذهب إلا إلى يسر الطاعة وسهولة الانقياد حتى وصفوا على لسان كثيرين بأنهم أهل شقاق وشغب وميل إلى اصطناع الصراع . ولعل كلام الحجاج عنهم أدنى الكلام إلى الإفصاح عن خصائصهم ، وإن هو أضعف بتعبيره — نكصم أعماء لده — في الإقذاع . .

قال لهم مرة .

« يا أهل العراق . . يا أهل الشقاق والنفاق ! إن بمتكم إلى ثغوركم غلتم وختم وإن أمتهم أرجفتم . وإن ختمت نافتهم . لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . . »

ففسير بلوغهم مبلغ الرضا بما يكون . .

واستنكر خلافهم عليه وإن كان حرياً منهم ، في حقيقة الأمر ، بأعنى الخلاف . .

« هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استفزكم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ، إلا اتبعتموه وأويتهموه ، ونصحتهموه وزكيتهموه . . هل شغب شاغب ، أو نمب ناعب ، أو زفر كاذب ، إلا كنتم أشياعه وأتباعه ، وحماته وأنصاره . . »

وعجب لعنادهم الذى لا تثنيهم عنه مرارة التجربة ، فقال :

« ... ألم تزجركم المواعظ ؟ .. ألم تنبهكم الوقائع ؟ .. ألم تردعكم الحوادث ؟ .. »

وكيفما كان إقذاع الحجاج بن يوسف الثقفى لهم فى الهجو ، وغلوه فى فحش الوصف ، فقد كانوا قوما خليقين بأن يعضل سلوكهم بأى حاكم وضعت الأقدار منهم بـ مكان قيادة ، بسبب شكيمتهم الذهنية الوعرة . . فلكل حجة عندهم ناقض . ولكل خلاف يمارسونه تبرير . . وإنهم ليتذاءبون دائماً بين الرضا والسخط حتى ليتفتت الراى بينهم ، وتنشعب السبل ، فيغم عليهم الخطأ كما يغم الصواب . ويتأرجحون بسلوكهم بين المعارضة والتأييد حتى لتتعطل قواهم المنتجة ويصيبها الشلل أو يصببها الاضطراب نتيجة لهذا التجاذب الذى يشدها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . . وفيما سلف من ألوان سلوكهم مع الإمام ما يكشف هذه الطبيعة فيهم فإذا هى آخر الأمر تردد عن العمل ، وإحجام عن الإقدام ، وسلب بدل إيجاب . أو هى ردة مباغتة عن اليهود ، ونكسة على العقب إلى الوراء بعد انطلاق . أو هى شطحة مع المغالاة تنكر لكل تعقل ، وتمعى عن كل واقع ، وتعمى فى الشطط إلى أقصى الأبعاد . .

وفيما بدا اليوم له منهم أيضاً مثال مقيت . . فلقد تشاقلوا عن النهوض للجهاد معه ، وللذود عن بلادهم التى راح معاوية يتخطفها بغاراته الإرهابية وينتقصها من الأطراف . ، فعلى ما وضع لهم من سياسة خصمهم ، وانتهاجه فى حروبه الجديدة سنة تسوم أرضهم الخوف والدمار ، وتزعزع ثقة ناسها فيهم ، فقد ركنوا إلى الدعة والتشاقل كأما استمروا هذا الإذلال . . وهامهم اليوم والغارات الأموية تدوس ذمارهم ما شاء هواها ، قد بلغ بهم تعاوتهم أن قبعوا فى ديارهم غير آبهين لصيحات على كأما لا يعنهم الأمر ، وإنهم ليمطلون علم اليقين أن الإرهاب الوحشى يخرق حدودهم بالحرق والقتل والنهب من الشمال إلى الجنوب البعيد .

فهل يعنى الآن عنهم النذير ؟ .

بل إنما عليه البلاغ . .

وبالمرة يقول :

« .. أنبئت بسر اقد اطاع اليمين . وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم ، باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم . وبمعصيتكم إمامكم في الحق وطاعتهم إمامهم في الباطل . وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم . وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم .. »

ولو شاء لعدد من خطل سلوككم فأكثر .. لكنه رأى أن يقصر . وهل جدوى من الإكثار ؟ ..

لكنه رفع كفيه نحو السماء يبتهل :

« .. اللهم إني قد ملتهم وملوني ، وسئمتهم وسئمونني . فأبداني بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بي شرا مني . » .
وليستجيبين الله . . .

فكأنني بهم قد اضطرب في جنوبهم شيء من القلق لهذا الدعاء الذي هز فيهم مشاعر صدئة ، وحرك مخاوف نائمة تحت أطباق كثيفة من الاستهانة والغفلة والاستهتار . لكنها هزة خدرة لم تجل الصدا ولم تذهب أدرانته ، وحركة فائرة ما كانت لتوقظ النيام . . .

أما قائد الحملة الإرهابية المدمرة ، بسر بن أبي أرطاة فقد مضى شوطه إلى غايته المرسومة ، وفي باله ، مع كل خطوة يخطوها ، أن ينفذ أمر عاهله معاوية حرفا بحرف وأن يزيد من عنده لو استطاع في النكال والعذاب والحراب التي خرج لها من الشام بفرقة الدمار ..

واستعاد بسر في باله خطة معاوية وهو آخذ على الطريق :

« سر حق تمر بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخف من مررت به ، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن دخل في طاعتنا .. فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم ، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر ، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم . ثم سر حتى تدخل مكة ، ولا تعرض فيها لأحد ، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شردات .. حتى تأتي صنعاء والجند ، فإن لنا بهما شيعة ، وقد جاءني كتابهم .. »

ثم استعاد شعار هذه الخطة ، كما وضعه له ابن أبي سفيان :

« اقتل شيعة على حيث كانوا . . »

وعلى هذا انطلق قائد العدوان . .

سار حق نزل بدير مروان . ثم مضى على طريق المدينة ، كلما نزل على ماء
عنّف بأهله ، وشرّد جمعهم ، وركبهم بكل ألوان العنف والإرهاب ليخلوا بينه
وبين ما يريد ، يستبيح من أموالهم ، وينال من متاعهم ، ويتخذ إبلهم وخيولهم
مطايا لرجاله تنقلهم مرحلة حق يقع على ماء آخر يتزود منه بمطايا جديدة ، ويدع
هذه تضرب في البلاء . .

وبلغ مشارف المدينة وسيرته المرغبة قد سبقته إليها طليعة . . فإذا بقضاعة
تخف إليه قرب مداخلها تتملقه لتأمن شره فتحرّ له ولأصحابه الجزور . . وإذا
أبو أيوب الأنصاري ، عامل البلدة ، يهر بنفسه من بطش الطاغية ، وماله
ولا لها ، رده من أهلها يحميا ويحميه . .

وانعقدت في سماء مدينة الرسول سحائب الدخان بعد قليل منبثة من أسنة النار .
فقد أشاع بسر الحريق في الدور كما أشاع الهلع في الصدور . . أحرق دار
أبي أيوب ، ودار ابن رافع ، ودار زرارة ودورا غيرها كثيرة لتكون عنواتنا
موجزا يفصح به عما يدخر للسكان يعني عن كل بيان . . وعندما دخل المسجد ،
وارتقى المنبر وتحمته قد تنكست رؤوس الناس ، خوفا وخزيا ، تلا وهو يحمل
نبراته التهديد والوعيد :

« ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان ،
فكفرت بآئمة الله ، فأذاقها لباس الجزع والخوف بما كانوا يصنعون . . »

وأردف :

« . . وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجملكم أهله لم تشكروا
نعمة ربكم ، ولم ترعوا حق نبيكم ، وقتل خليفة الله بين أظهركم فكنتم بين قاتل
وخاذل ، ومتردّص وشامت . . »

وشتم الأنصار :

« . . . يا معشر اليهود وأبناء العبيد . . . أما والله لأؤقمن بكم وقعة تشقى غليل صدور المؤمنين وآل عثمان . أما والله لأدعنكم أحاديث كالأُم السالفة ! »

ثم حمل الناس على الدخول قسرا في طاعة معاوية ، لا يؤمن منهم جمعا ولا قوما على حياتهم إلا أن يبايعوا ويبايح زعيمهم معهم . فإن غاب ذلك الزعيم ، جعل قومه كفلاء بإحضاره إليه ، أو يهدر دمهم كافة . . .

. . . . قدم عليه شيوخ المدينة يبايعون ، فأرسل بصره فيهم متفقدا ، وقال :
« مالي لا أرى جابر بن عبد الله . . . »

فالتصقت الألسنة بالخلق . . . وهل منهم من يشى بمقره . . .

لكن ابن أبي أرطاة التفت إلى قوم جابر يتهددهم :

« يا بني سلمة . . . لا أمان لكم عندي أو تأتونى بجابر . . . »

فانتشر القوم على الأثر ، خشية الوعيد ، يسعون في فجاج البلدة ، وإلى حينما ظنوا أنهم واقفون على صاحبهم بمنأى بعيد عن بطش السفاح . . حتى إذا وجدوه راحوا يناشدونه :

« نشدك الله يا جابر لما انطلقت معنا فبايعت ، خففت دمك ودماء قومك ؟ »

إنك إن لم تفعل ، قنلت مقاتلينا ، وسبيت ذرارينا . . . »

واستنظروهم الرجل الليل . فلما أمسى خرج خفية من مخبئه يترقب حتى دخل على أم سلمة زوج الرسول لعله أن يلتبس عندها فرجه من ضيقه . . .

وقالت له السيدة ، بعد أن أصغت لحديثه :

« يا بني . . . انطلق فبايع . . . احقق دمك ودماء قومك ، فإنى قد أمرت

ابن أخى أن يذهب فبايع ، وإنى لأعلم أنها بيعة ضلالة . . . »

وكما فعل بسر بالمدينة فل بعدها بمكة والسلب والحراب والقتل تسعى على الطريق إليها بين يديه . فإذا هو يدخلها وهي توشك أن تكون خاوية . إذ خرج منها عاملها قثم بن العباس . وتنعى عامة أهلها ينأون عن الهلاك المقبل .

ولم تبق منهم إلا قلة من ذوى الحسب ، استقبلت إليه تستقبله ، وكأنما ظنت أن لها من أحسابها جنة دونه . . . فما أن أقبلوا عليه حتى ابتدرهم بفحش القول وأفزع الشئام ، ثم عقب يقول :

« أما والله لو تركت ورأي فيكم لترككنكم وما فيكم روح تشى على الأرض . . »
فأسرعوا يضرعون إليه :

« الله الله في أصلك وعنزتك . . »

غير أنه رعى ضراعتهم وراء ظهره ، وكأنما لم تحترم كلمة منها أذنيه . . ومضى عنهم إلى البيت يطوف وهم وقوف بالباب وكل زفرة نفس تلتقطها صدورهم المضطربة تسكاد تقول لهم : أنا الأخيرة . . .

وجبههم بعد الطواف ، بشماتة واستعلاء :

« الحمد لله الذى أعز دعوتنا ، وجمع أنفسنا ، وأذل عدونا بالقتل والتشريد . . هذا ابن أبى طالب يباحية العراق فى ضنك وضيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسلمه بحريته ، فتفرق عنه أصحابه »

ودعاهم للبيعة معاوية فسارعوا ، لأن إباءها فى كفة ، وراءوسهم فى كفة . . . وعندما هم بأن يبرح بعد بضعة أيام ، رعى وجوههم بمزاج من وعيده وصلفه :
« يا أهل مكة ، إني قد صفحت عنكم . . فإياكم والخلاف ! فوالله إن فملتم ، لأقصدن منكم إلى القى تبيد الأصل ، وتحرب المال ، وتحرب الديار . . »
وغادر مكة إلى بقية الرحلة .

دهاء كريات . أو رياء كدهاء . لم يعدم أيهما أهله وبسر يمشى بهوله على أرض دولة الإمام من الرأس إلى الذيل ، ناشراً عليها الخراب كالضباب . . لم يعدم . ولا كان ليعدم وفي الناس آنذاك مثل المغيرة بن شعبه . فهذا العملاق الثقفي الأعور الذي وسعه أن يصانع الغريين بالعراق وبالشام ، ويصانع الأحداث المضطربة منذ فار الرجل وانفجر البركان ، لم يعضل به أن يستقبل طاغية الإرهاب بما يرضيه . .

كتب إليه ، إذ علم بمخرجه من مكة قاصداً إلى بلدته الطائف :

« بلغني سيرك إلى الحجاز ، ونزولك مكة ، وشدتك على المريب ، وعفوك عن المحسن ، وإكرامك لألى النهي ، لحمدت رأيك . . قدم على صالح ما كنت عليه ، فإن الله إن يزيد بالخير أهله إلا خيراً . جعلنا وإياك من الآمرين بالمعروف ، والقاصدين إلى الحق »

فهل من عنوان أفصح بيانا عن سبق بلدته بالولاء للقادم وصاحبه ، من هذا الكتاب ؟ . . وهل نعمة حاجة ببسر ، بعد ، إلى ممارسة الإرهاب ؟ . .

بل إنها كوثيقة طاعة كما أنها رسالة استئذان ، ما كان ليعنف معها بسر بأهل الطائف ، أو يسير فيهم كنهجه الذي انتهج في مدينة الرسول والبلدة الحرام . . فلقد كفاه أعور ثفيف مشقة انتزاع الولاء بالعنف وبالسيف ، وجاءه به هدية حق لشمر الطاغية عندئذ أنه جدير منه بالتقدير . .

لذلك التقيا لقاء صديق بصديق ، وافترقا فراق حليف وحليف . فما كاد بسر يظهر حق خف إليه المغيرة ، وخلا به يتناجيان . .

وقال بسر لصيفه يحتم الحديث :

« صدقتى ونصحتى . . »

وخرج المغيرة معه ، فى اليوم التالى ، فشيعة ساعة ، ليسله إلى الطريق للجنوب . .

ومن عجب أى عجب أن الحملة الإرهابية الأموية لم يشهر فى وجهها سلاح ، ولا قوبلت بكلمة إاء ممن أخذتهم يبطشها المهين ، لا من خاصة أو عامة ، ولا من حكام أو محكومين ، طوال رحلته المشثومة حتى نزل بصنعاء ، كأنما الناس قد خلت نفوسهم عندئذ من الحمية التى تحمى على الذود عن المال والدار والآل . أو كأنما مسيرة الدمار قد سبقت إليهم بالدعر طليعة تشل منهم الجوارح ، وتخدر العقول ! . .

فأخذ انحدر الوحش بحملته الرهيبة فأوغل فى الانحدار بها قوة مدمرة من الشام إلى المدينة إلى مكة إلى أرحب إلى صنعاء إلى جيشان ، مجتاحا مخاليف اليمن وإماراته ما شاء الاجتياح ليكر عائدا مرة أخرى إلى صنعاء . فإذا هو فى انحداره ذلك لا يكاد يعرف بمحاضرة ولا بادية ولا أهل ماء تلمسوا الرى والسكلا فى لجج الصحراء إلا صب عليهم العذاب . يقتل ويحرق ، وينهب ويسلب ، ويدمر ويخرب ، مفضعا فى غاراته كل الإقطاع حتى ارتفع عدد ضعاياه إلى ثلاثين ألف قتيل . وإذا هو يصل فى انحداره إلى أسفل درك يمكن أن تهبط إليه إنسانية بشر من الحسة والقدر ، والمنف والتسكيل ، لم يردده وازع من خاق أو دين عن انتهاك حرمة ، أو هتك أمان ، أو الغزو على أعزل ، أو نحر شيخ كبير ، أو ذبح طفل صغير ، أو الفتك بالزمر والجماعات وإن لم يبادروه بعداء ، وإن استقبلوه بالهدوء أو الاسترضاء . .

. . . . فى نجران قتل عبدالله بن عبد المदान وولده مالكا ، وكل جريرتهما أن الأب كان صهرا لعبد الله بن العباس عامل الإمام على صنعاء . .

. . . . فى صنعاء حين آب إليها بعد بطشه بأهل المخاليف المجاورة ، قتل مائة شيخ من أبناء فارس ذنبهم لديه أن امرأة من بنى جلدتهم ، قيل إنها آوت إلى بيتها طفلى عبيد الله . .

من مأرب قتل وفدا بأكله بمث به أهلها ، ليعلم له عن طاعتهم ، ويطلب منه الأمان . .

ثم دع بمد هذا من قتل من شيعة علي ، زمرا عدة ، سواء من كان قد كف عن لقاءه ، أو من حاول أن يدرأ حملته بالسلاح . . فقد راح يتعقبهم فرادى وجماعات في الدروب والدور ، وفي المدن والبيداء ، لا يقع منهم على فريق أو فرد إلا أعمل فيهم سيوف الإفاء . .

غير أن سلوك هذا الطاغية السفاح إن يكن أعلم بشيء يصمه أبد الدهر ، ويذهب به على الأعصر مثلاً للوحشية والحسة ولؤم الطباع ، فذاك فعله بطفلي عبيد الله . فلقد علم وهو يبعض طريق عدوانه ، أن الصغيرين وأمهما عند رجل من بني كنانة ، فتحركت على الأثر شهوته للدم . .

هب من لحظته بين جمعه الكثيف إلى الكناني يضرب عليه بابه ، ويطلب إليه تسليمه الغلامين . . وريع الرجل وأيقن الشر في ثياب بسر ونحت عمامته فما كان ليقدّم كل هذه المسافة الطويلة وهو يضمّر غير ماعهد القوم فيه منذ أخرجه المشثوم من أرض الشام . .

وعلى الفور طالع رجل بني كنانة الطاغية وجعله بسيفه في يده ، وقد وقف دونهم في فجوة الباب . وعجب بسر . وغضب واشتعل حنقه حتى غدا وجهه من غيظه بلون الرماد . فكيف يجترأ أمرؤ فرد عليه ، ويعترض شيشته ولو بلفظة لسان ، فضلا عن السيف الذي التمع من غمده ، هو الذي عنت له جباه الجموع وذلت أمام صولته ؟ . .

صاح بالرجل يهدر :

« ثكلتك أمك ! . . والله ما كنا أردنا قتلك . . فلم عرضت نفسك

للقتل ؟ . . »

لكن الكناني لم يبال منه ثورته ، ولا لهجة وعيده للبطنة بالأمان ، بل

رد عليه في إباء :

« والله لأن أقل دون جارى ، لهو أعذر لى عند الله والناس . . . »
 وعد منفردا ، وهو حاسر ، على الطاغية المنمر وأصحابه الذين تحلقوه
 كالسور ، وهو يرتجز :

« آليت لا يمنع حافات الدار
 ولا يموت مصلتا دون الجار
 إلا فى أروع غير غداراء »

وراح يضرب فى الجمع الحاشد ، لا يدرى أين يقع منهم سيفه ، حق
 نالوه ومزقوه . . .

هذا خلا الطريق أمام السفاح لغرضه ، فتهلل بحياه ، وسالت بسمه مقبلة
 على جوانب شفقيه كلمات الثعبان ، ثم أمر بالطفلين فقدمتا بين يديه ، وذبحا ذبحا
 كما تذبح الشياه . . .

كلا . . . ما هي بمسوة طاغية . ولا هي ضراوة موتور . . . ولا هي لوثه
 مجنون هذه الفعلة الشنعاء . . . بل هي القدوة والضراوة واللوثه جميعا قد
 تفجرت من قلب صلد ، لا يعرف الإيمان ، كتفجر اللحم من بركان . . . إن
 الناس عندئذ من الحادث شهود كغياب . . . الأعين جمدت ، لا ترى من ذهول . . .
 الآذان ملاءها طنين الدوار . . . القلوب كفها هلعها عن الوجيب . الخلق قاب
 الغيان . . . وعندما بدرت أول بادرة للحياة بين هذا الوجوم ، كانت إحدى
 الكنائيات هي التي حركت صفحة السكون والآسن ، إذ صاحت فيمن حولها ،
 بصوت خفته حشرجة بكائها ، تقول فى استنكار :

« هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان . . . »

وانتقلت نحوها بسر وفي نظراته نار . . .

لكنها لم تأبه ، ومضت تم ما بدأته ، بغير اكتراث ولا احتفال ، وعينها
 ثابتة على السفاح لا تريم :

« . . . والله ما كانوا يقتلون فى جاهلية ولا إسلام ! والله إن سلطانا

لا يشتد إلا بقتل الزرع الضيف ، والشيخ الكبير ، وقطع الأرحام
لسلطان سوء . . . »

وكانما لقي حديثها صدها في نفوس غيرها من الكنائيات فهدرن بالتقريع
كما هدرن بالنواح ، لأن ابن أبي أرطاة لم يجد له عندئذ مخرجا مما وضعه فيه
إلا أن يجابههن بالتهديد :

« والله لعممت أن أضع فيك سيف . . . »

فردت المرأة تنهدها :

« والله إنه لأحب إلي إن فعلت . . . »

عى عن الجواب على تحدى الرأى الكنانى ، فلم يعقب . وما كان ليحسن التعقيب فى ذلك الموقف لو أنه أراد . ومضى عن مشهد الصريحين الصغيرين ، وهما على الثرى غريقين فى الدم ، وحنقه الصامت يصرخ فى الناس بلغة ملاحه الحرساء . فإذا هو ، من خارجه ، فى نظرة الأعين الرائية : « بسر » .. وإذا هو ، من داخله ، فى نظرة الغد القريب : « مجنون » .

فما كانت سيرته الشنماء فى ضحيته هاتين ، وقبلها فى عشرات الألوف من ضحاياها ، إلا بادرة لوثة ، أو خطوة واسعة على طريق الجنون ..

وما لبث القدر غير قصير وقت ، ثم كشف الغطاء عن غده المخزون ، فكشف جنونه المدخر للعيان ..

وإذا كانت أمة الإمام ، من بعد ، قد أصابته وحقت فيه فلائها اللامنة التى سبعت على تيار الشواهد الماثلة من سلوك السفاح إلى النتيجة المنطقية التى كان لابد أن تكون ..

أقد استمر ابن أبى أرطاة ، بعد أن نفص يديه من حملته ، يعيش بين الدماء والأشلاء ، وعلى الكر والفر فى أحلام وهمه وخيالات رؤاه ، قاتلا حارقا مدمرا ، لا يستطيع العودة ثانية إلى حياة السلام ..

كانت صحيفة ذهنه قد تشبعت بالدم . فلا موضع فيها لفكرة سواء ..

كان يحارب أشباح ضحاياها ..

إنها دائما تتراءى له . تطبق عليه من كل جانب ، تطارده موتورة فى اللحظة وفى المنام . فلا يلوذ منها إلا إلى سيفه ، كما كان يفعل إبان وعيه ، يقاتل به ، ولا يكف عن الصيال به بين الأشباح النازية عليه ، فى وضعة نور ولا فى عتمة ظلام ..

لكنه كان عندئذ سيفاً من خشب ، يضرب ضرباته المصلية فى الهواء ..

لحين ألحت عليه اللوثة ، واستشعر الخطر الذى جسمه له شعوره بجرمه ،
كان يهذى ويصيح بمن حوله :

« أعطونى سيفاً .. أعطونى سيفاً أقتل به .. »

وحين أعيانهم أن يميدوه لرشده المألوف ، ويكفوه عن الهذيان ، وضعوا فى
يمينه السيف الخشبى ، وقدموا له وسائل لينة تمثل فى ذهنه أعداء الموهومين ،
ليشخن فيها ما شاء ..

أما لعنة الإمام التى أصابت بطل الإرهاب ، فكانت ضراعة توجه بها إلى
السماء ، حين بلغت السيرة الدموية التى جرى بها ابن أبى أرطاة فى قوم أمة ،
عزل من السلاح ..

دعا ربه آنذاك :

« اللهم إن بسرا باع دينه بالدنيا ، وانتكح محارمك ، وكانت طاعة مخلوق
فاجر آثر عنده مما عندك .. اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله ، ولا توجب له رحمتك
ولا ساعة من نهار .. »

وصدقت الدعوة ..

فكأنى يبسر ، لو عقل عندئذ ، لأدرك أنه إنما يدفع جزءاً من ثمن وزره
الذى أنساه القدر إياه ! بل كأنى به قد عقل من قبل وهو خارج لغارته فأدرك
أنه لا بد مؤد ثمن عدوانه الوحشى بعد أشهر أو بعد سنوات .. فما يمكن أن
يقال إنه أغار ، فقتل وأحرق واستباح ، مسرفاً فى اقتراف كل ما اقتترف من
أبشع ألوان العذاب والنكال ، وهو لا يدري أنه يأتى بفعله ما تأباه أعراف
الناس فى الكهوف والغاور ، وفى الجبال والغابات ، فضلاً عن شرائع السماء ..
فلعله حين يخرج له حملته تلك ، قد خرج إليها وهو مخمور الفكر ؛ مسحور
العقل ، بما صبه العاهل الأموى فى أذنيه من استمراء . ولعله لو أفسح له ، يوم
بعثه ، فى تدبر أسلوب تنفيذه حملته ، لحارب حربه كمقاتل شريف ، ينضج عن
مبدأ يمتنقه ، ويناضل له ، كيفما كان قرب مبدئه هذا أو بعده عن الخطأ
أو الصواب ، فى رأى سواه ..

غير أنه انزلق إلى أسفل درك من الحسة والغدر ولات حين صعودا . .
وإنه ليلم فعلته ، ويعود في هيئة ظافر ، ويحظى في مجلس سيده بمكان صدارة
وموضع تكريم ثم لا تخلو حياته ، بين يوم ويوم ، فيما نخال ، من لحظة تأمل
ينى فيها إلى ما سلف من « بلائه » الضارى تنفيذا لأمر صاحبه ، فلا يملك ،
وهو يقرأ بالفخر صحيفة نصره ، إلا أن تعتلى خياشيمه برائحة الدم والجيف
والدخان . . . ولا يملك أيضا إلا أن تنقرز نفسه من مشاهد الضراوة التي
تناثرت تحت قدميه وفي أعقابه كما يتناثر الغبار في إعصار ويشور ، فيغشى الأفق
ويحجب النور . .

ما أحسب الرجل ، في بعض لحظات الخلوة الهادئة — التي يشوب فيها المرء
عادة إلى إنسانيته ، صافية منقاة من آثار نزواته العارضة ، وأهوائه الرعناء —
إلا قد كابد وخزة ألم ، وشرق بقصة ندم ، على ما فرط منه خضوعا لأمر ابن أبي
سفیان بتأثير قوة الإيحاء ، وبراعة الاستهواء ، وفتنة الإغراء والإغواء . .
بل ما أحسبه إلا قد لام نفسه فأثقل عليها باللوم حتى ناء بما يحمل ، ثم ود
لو استطاع أن ينفذ بعض عبثه عن كاهله المثلث ، ويلقى به — تخففا أو تنصلا —
على كاهل الرجل الذي حمله إياه . .

وكان . .

فقد اجتمع عبيد الله بن العباس ، وبسر بن أبي أرطاة ذات يوم ، بمجلس معاوية
بعد أن خلا وجه الخلافة للعاهل الأموي ، وانفرد في الدولة بالسلطان وحركت
هيئة بسر مواجع عبيد الله وذكرته رزاه الفادح في صغيره ، فالتفت للخليفة يومه
وهو يومئ بنظرة مقت ومسخط وازدراء إلى السفاح . .

قال :

« أنت أمرت هذا اللعين السيء القيد بأن يقتل ابني . . »

فبغت معاوية . ولكنه أسرع ، ببرات معذرة ، ينكر التهمة ، ويغسل
يديه من جريرتها الشنعاء :

« ما أمرته ! ولوددت أنه لم يقتلها . . »

وعلى الأثر هاج بسر .

يا لهذا الداهية الزئبقى الرواغ . . ١

من إذن قد أمر وهو الذى دبر للعملة ، ورسم الأسلوب ، وحث بسرا أن
ينهب المال والمتاع ، ويحرق الدور والزرور ، ويحصد النفوس والأرواح . . ٢
من الذى دفعه إلى مطاردة شيمة على أينا وجدهم بالهلاك الذريع ، واجتثاثهم من
الأصول والجذوع والفروع . . ٣

وما ابنا عبيد الله فى ضحاياه ؟

أوليسوا شيعة ؟ . فهم إذن أولى بالقتل قبل من عداهم من شيعة الإمام
لأنهم بعض أهله . والإمام قبلهم أولى بالقتل لو أمكنته منه الظروف . أم ترى ،
لو فعل ، كان معاوية بعدها يلجأ . . ٤

ومع ذلك فقد ملأت الفرحة قلب المعاهل يوم عاد بسر من حملة الدمار ، كما
لم تملأ فرحة قلب إنسان . . خف يستقبل قائده الذى مشى أنباء نصره بين يديه .
وخف القائد إليه بهدية الدم التى اعتصرها له من حياة ثلاثين ألفا من الناس !
قال له بسر مبشرا يومذاك :

« أحمد الله يا أمير المؤمنين أنى سرت بهذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ،
لم ينكب رجل منهم نكبة . »

فابتسم معاوية من راحة ومن خلاء ، وهو يقول معلنا عن رضاه عليه لإنقاذه
أمره فى إحكام :

« الله قد فعل ذلك لا أنت . . ١ »

لكنه الآن ، وفى حضرة عبيد الله ، ليس يكفيه أن يحمّد الجاهد جهدا ، وطاعة
الأمور ، بل يروقه كذلك أن ينكر أنه هو الذى أمر بما كان . .

وهال بسرا من أميره هذا السكود . وحز فيه أن يبوء وحده — بلسان
المدير الفعلى للمذبحة الوحشية ، والامر بها خدمة لأرأبه — بكل الإثم ، وفحش

الجريرة ، وسوء السيرة وما كان ، في الحقيقة ، سوى أداة صماء في يد العاهل حركها فانطلقت حين شاء لتلتقم من شاء . .

وكأنما عادة بعض ندمه الذي كان يستشعر في لحظات تأمله الهادئ وفيته إلى إنسانيته المصفاة من نزوات الهوى وفتنة الإغراء ، فصاح حائقا بالعاهل السكوند :

« اقبض سيفك ! قلدتني ، وأمرتني أن أخبط به الناس ، ففعلت . . حتى إذا بلغت به ما أردت ، قلت : لم أهو ، ولم آمر ! . . »

ورمى إليه بالسيف الذي شهد كل مشاهد السفح والعدوان . .

ولعله ، بعد ثورته هذه ، لم يهز سيفاً يمينه يخط ويضرب ويحارب ، إلا ذلك السيف الخشبى الذى كان يخط به الوسائد ، ويضرب فى الهواء والقراغ وهو يحارب أشباح ضحايا . .

بدأ الإرهاب البصري الدموي بشرارة صغيرة تطايرت من صنعاء . .
كانت كلعة من طرف عين . . كلمة برق خاطفة . . كومة جرة خابية
دقنها الرماد . .

لكنها ما لبثت أن غدت نظرة ثابتة الحلاق . . طليعة عاصفة هوجاء . .
حريقاً مسعوراً مسعر الأوار . .

فلو أن عبيد الله بن العباس قد اصطنع الحكمة ، أو مارس الحزم ، لجنب الناس
والبلاد كل ما أثارته تلسم الشرارة التهاافتة من كوارث ، وما سببته من ويلات .
. . . . عتب الإمام ، بعد غارة ابن أبي أرطاة ، على سعيد بن عمران ، عامله
على « الجند » أنه وعبيد الله لم يقاتلا بسرا حين سار مسيرته المشثومة إلى صنعاء
فاجتاحها وغيرها من البلاد والمخالف ، وفعل بها وبأهلها الأفاعيل ، دون أن
يبرز أيهما سيفاً في وجه الطاغية . . فدفع سعيد التهمة عن نفسه ، وقال :
« قد والله قاتلت . . ولكن ابن عباس خذاني ، وأبي أن يقاتل . . و . . »
واندلعت النار . .

فلقد كانت بصنعاء طائفة من شيعة عثمان ، تعيش بها في استخفاء ، وهي تعظم
قتله ، وتسكنم أمرها عن الناس ، وتبدي أمم الأعين على ولاء للإمام ، حتى
تحين لها فرصة تجمع خلالها كلتها ، وتلم شعنها ، وتعلن الانتفاض . .

وجاءها الزمن بما تروم . فالأنباء تترى تباعاً عبر الجزيرة ، من الشمال إلى
الجنوب ، عن اضطراب الأمور في دولة الإمام . . الخلاف يستشري من أصحابه
بعد صفين . . والحرب تقع في النهروان . . ومصر تضيق من ابن أبي بكر . .
وغارات أهل الشام تطأ الأطراف . . والانقسام يقع في صفوفه حتى ليتفرق رجاله
عن طاعته إلا بشقشقة الألسن التي لاتغني شيئاً في دفاع ولا هجوم . . حتى إذا

شامت عثمانية صنعاء أن اللحظة التي طال انتظارها قد حانت ، سارعت إلى خلع
بيعة علي والتنادى بشار عثمان . .

وبلغ فعلهم عبيد الله بن عباس ، وهو عندئذ عامل الإمام علي اليمن ، فآثر
اللين والأناة على الشدة والحزم وهو بحسب أنه قادر بهذه السياسة أن يعيدهم
إلى الصواب .

بعث إلى فريق من وجوههم ، فجاءوه .

وسألهم سر التذمر :

« ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ . . »

فلم يخشوا أن يصارحوه :

« إننا لم نزل ننكر قتل عثمان ، ونرى مجاهدة من سمى إليه . . »

فلولا أنهم يشعرون بقوتهم لأخفوا عنه ، ودفعوا التهمة للربيعة التي تأخذهم
بنقض البيعة ، والخروج على شرعة الولاء . .

وكأنني به وبهم قد حاورهم وحاوروه . ولعلهم أسرفوا عندئذ في المكابرة
والعناد . وعسى أن يكونوا قد أبوا النفي إلى الطاعة ، والإقلاع عن دعوتهم التي
تؤدي إلى انقسام الأمة ، ووقوع الفتنة ، لأننا لا نلبث أن نجد قد أمر بهم
خبسوا درما لشغبهم ، ومنعنا للخلاف أن يذيع إذا غابوا عن العيون ، وخلا
منهم للبدان .

لكنه لم يصب التوفيق . فما كانوا وحدهم جند الفتنة ولا كان خروج
من عرفه منهم بصنعاء على واجب الطاعة إلا كمثل إعماء خفية ، أو « كلمة سر »
تدعو سواهم من العثمانية للتواريين بها وبغيرها إلى مباغلة أولى الأمر في الإقليم
بالوثوب عليهم وهم غافلون عما يدبرون . . فإن هي إلا أيام حتى تحرك الرسل
والرسائل بينهم وبين رفاقهم لإنشباب الثورة وأمسكت الشرارة الواهنة بالمشيم
وكذلك وقع ما ظن عبيد الله أن لن يقع . .

التأم جمع فريقهم بصنعاء ، واشتد خطرهم ، حتى خافهم العامل ، فأغضى عنهم ،

وقع ورجاله الثابتين على العهد ، بلا حول ، يرقبون ما يكون . .

وفاجأ حزبه بالجند عاملها سعيد بن نمران فاستولوا على السلطة ، وأظهروا أمرهم ، وأبعدوا سعيداً عن البلدة . .

ثم انضم عثمانية صنعاء إلى عثمانية الجند ، قوة موحدة ، شديدة الأيد ، تستطيع أن تؤثر في تحويل الأحداث . .

ثم التحق بهم قوم آخر لم يكونوا على رأيهم ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا الصدقة ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا بالشغب ، والخروج على النظام العام .

ثم كتبت عصابتهم تستعدى معاوية على الحكم الشرعى القائم ، فأوفد حملة الإرهاب .

أما عبيد الله بن العباس فقد ظل ، طوال هذا ، على تردد ، لا يكاد يقطع في أمرهم برأى إلا أن يجمع لهم أنصاره ثم لا يتناجزهم . . أو يشاور بعض صفيه . أو يكتب إلى الإمام بالكوفة ينبئه الخبر ، وينتظر منه أن يشير عليه بما يفعل معهم ، كأنما قد أيقن أن الجمع والمشاورة والكتابة مغنية عنه ، أو أن الزمن قد تجدد وكف عن دورانه فلا خوف من تغير الظروف .

كان من أحاديثه مع رفيقه حاكم الجند ، سعيد بن نمران :
« . . لقد اجتمع هؤلاء ، وإنهم لنا لمقاربون . فإن قاتلناهم لا نعلم على من تكون الدائرة . . »

فرد سعيد :

« إن ابن عمك لا يرضى منى ومنك بدون الجد فى قتالهم . . »

لكن ابن عباس أجاب :

« لا والله . . ما لنا بهم طاقة ولا يدان . . فإلى أمير المؤمنين ، نخبره بنحبرهم وفدحهم ، ونعزلهم الذى هم به . . »

وكتبنا إليه :

« . . إن شيعة عثمان وثبوا بنا . . وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره ، واتسق له أكثر الناس . وإنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين . وذلك أحشهم . . فنبأوا لنا ، وتداعوا علينا من كل أوب ، ونصرهم علينا من لم يكن له رأى فيهم ،

إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه . وليس بمنعنا من مناجزتهم إلا انتظار رأي أمير المؤمنين . . . »

وعجب منهما لهذا التردد الذي ترك الشرارة تتطاير لتسمر الحريق . . ثم دعا إليه يزيد بن قيس الأرحبي أحد أشياخ اليمن في صفوفه :

« ألا ترى إلى صنع قومك . . . »

قال يزيد ، وما زالت بنفسه بقية من أمل أن يفيء بنو إقليبه إلى الرشاد :

« إن ظني يا أمير المؤمنين بقومي لحسن في طاعتك . فإن شئت خرجت إليهم فكفيتكمهم . وإن شئت كتبت إليهم فتنظر ما يجيبونك . . . »

غير أن حسن الظن لم يصادف أهله . . .

كتب الإمام لعامله :

« . . . قد علمت أن نخب أشدتكما ، وصغر أنفسكما ، وشتات رأيكما ، وسوء تدبيركما ، هو الذي أفسد عليكما من لم يكن عليكما فاسدا ، وجرا من كان عن لقائكما جباناً . . . »

وبعث إلى أولئك الخارجين بكتاب مع رجل من عمدان :

« . . . بلغني تجرؤكم ، وشقاقكم ، وإعراضكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيعة . . . فإذا أتاكم رسولي فتفرقوا إلى رحالكم . . . فإن لم تفعلوا فاستعدوا لقدم جيش جم . . . يقصد لمن طغى وتجبر . . . فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد . . . »

لقد أعذر من أنذر !

وقرئ عليهم كتابه ، في ملاء وجهه .

لكنهم تلبثوا بالرسول لا يجيبونه بشيء ، كأنما يديرون أمرهم بينهم ليروا الرأي . . . وما كانوا كذلك . فإن هي إلا سراوغة ، وتربص بالوقت ما وسعهم عسى أن تهيئهم الأيام القلائل القادمة بما ينتظرون .

ففي تلك الأثناء كان كتابهم ، الذي أرسلوه خفية إلى معاوية ، على الطريق . .

وعندما تعجلهم الحمداني ردهم على رسالة الإمام ، وألح في التعجل ، اضطنموا
حيلة جديدة لطردة ، والاستثناء بكلمة الإمام الفاصلة فيهم أن تأتيهم قبل أن
تتضح لهم الأمور . .

أصغوا له :

« إني تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأرحبي
في جيش كثيف فلم يمنعه إلا انتظار جوابكم . . »
فأظهروا الانصياع :

« نحن سامعون مطيعون إن عزل عنا هذين الرجلين . . »

ثم شيعوه ومعه طاعتهم الشروط . .

وما يضيرهم منها ، قبلها الإمام أو أباه ، وإن رسوله لن يبلغ مشارف
الكوفة إلا ونجدة معاوية المأمولة تطوى إليهم الأرض طيا في سجل العذاب
والإرهاب ، منعذرة كالسيل الهادر من الشام . .

ولقد صح حدسهم .

بسر يقبل . . يمصف بالحجاز . . يطغى على البيداء . . يبلغ من اليمن قلبها
والأطراف . . يسلب الأموال والرواحل . . يدمر الدور والرحال . . يحرق
الزروع والأحياء . . يذبح الشيوخ والأطفال . . يقتل الأبرياء والعزل . . يعيش
بالهلاك على البلاد والناس . . ثم يأخذ البيعة لعاهله بسن حسامه . .

والكوفة أيضا تتناقل . . كدأبها ظلت هامدة . . تعيش في نوم . . تنام
في تعاوت . . الأعين حسيرة . . الأسماع صماء . . البصائر مطموسة . . القلوب
غلف . . الأيدي سلاء . وفي جنباتها تتردد صيحة الإمام ، تحريضا ونذيرا : أنبثت
بسرا قد . . . » فلا تخلف إلا أصداء يتلهمها الهواء . .

وبكل الحسرة في القلب . بكل المرارة في الفم . بكل الأسى في العين ، عقد
الإمام لجارية بن قدامة السعدي على كتيبة من ألفي رجل ، اجتمعوا له بعد أيام
طويلة من الدعوة والاستنهاض ، ومن المطل والراوغة ، ومن التملل والاعتذار . .

وخرج جارية من الكوفة محاولا أن يسبق الزمن ما استطاع عسى أن يلتقي
بالسفاح . . مضى يتنسم الأخبار ويقفوا الآثار ، وهو ينفض البلاد والبيد نفضا ،
وينقب فيها تنقيا عن غريمه الذى كان لا يكاد ينشره جبل إلا لتطويه وهدة ،
وتظهره بلدة إلا لتخفيه مفازة . وكانت له على كل مكان بصمات من الويلات . .
ومع ذلك فلم يلتقيا . .

وأين اللقاء وإنه بحملته الرهيبة لثل حصاة بين صحراء من الرمال . .
وكيف أيضا ، وبسر ، ما إن علم بمقدم كتيبة الكوفة حتى جعل لأقدام
حملته أجنحة تطير بها فى الأودية كما تطير فى الجبال . .

الطاغية السفاح أثر الفرار من اللقاء . ذابت على الفور جسارته الزائفة
التي نسجها اقتحامه الوحشى للأقاليم والبلدان . تبخر اعتداده بقوته وطغيانه
وما التقى بعد إلا باسم مطارده دون ملاحه . . راح يستخفى بعد طول ظهور فى
الجماع والناس . . يعرج يمنة ثم لا يكاد حتى يياسر . يهبط ثم لا يلبث أن يعلو .
يتأخر حين يظن أنه يتقدم . يسرع حين يحسب أنه يريج . يلتوى بعد اعتدال ،
ويرجع بعد إقبال . .

ومن ورائه دائما كان جارية . لا يكاد يعلم بوجه مضى إليه ابن أبي أرطاة
حتى يخف إليه عسى أن يسبق الزمن إليه . . لم يهاود فى سيره . لم يقف لراحة .
لم ينفض عن رجاله قط وعشاء شقة قطعوها وإن طال بهم عليها السرى والسير .
لا يلتفت إلى مدينة مر بها ، ولا إلى أهل حصن إلا إن أراد الاستنباء .
ولا يعرج على مكان إلا أن أرحل بعض أصحابه وتقصم الزاد ليتزود لهم ، أو تسقط
بعض مطاياها ليأمر الراكب من جنده أن يعقب الراحل . .

غير أنه لم يصادف غريمه . . غنم بسر السلامة بالفرار . وترك وراءه باليمن
وصنماء شيمة عثمانية مضية ، غرها بقوته ، وغرتها الأمانى ، ثم انكبت فجأة من
حلمها لتجد نفسها بلا ردد يحميها بجزيرة معزولة وسط بحر من العداء ، فهرعت
بأرواحها إلى الجبال . .

وعادت السكينة . وانطقات النار . .

أما بسر فكان قد بلغ الشام ناجيا بأفراد حملته وما يكاد . . . فقد توائب عليهم في طريق العودة أناس كان مجرد ذكر اسمه أمامهم حين مجيئه يشلهم عن الوقوف لمقاومته ، بل التفكير في الوقوف . . . فلقد هان الآن أيما هوان . وملكه من خوف لحاق جارية به ذعر مجنون كان يردده عن الدفاع أو استرداد ما يسلبونه إياه من ثقل ومتاع ، وهل في وقته فسحة إلا للهروب ؟ . . .

ومع ذلك فقد استطار الطاغية المذعور فخرا بما فعل حين ضمته حدود الشام ، فسمعناه يقول لما هله الأموى ، يوم استقبله ، في خيلاء صلف مغرور :

« . . . إني سرت في هذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ، لم ينكب منهم رجل نكبة . . . »

لقد فخر بنصره ، إن مى نصرا ما يصيبه أى قاطع طريق . . . وما له لا يفخر وقد أنفذ بعثته ، وأنجز مهمته ، وأرضى أميره ، وكتب لنفسه في سجل الدولة المقبلة سطورا حمراء من البلاء في سبيل تشييدها على دعائم من الجماجم ، عداد من دم . . .

« تم الجزء الثامن »

رقم الإيداع ٤٢١٤ / ١٩٧١

الامام
عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء التاسع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الْعِزِّانِ
بِكُرْت

الفصل الأول

مرة أخرى رأى نفسه بذات الموقف ، كيوم ابن أبي أرطاة حين عاث بالبلاد إلى صنعاء . كيوم النعمان بن بشير في عين التمر . كيوم ابن مسعدة الفزارى في تيماء . كيوم الضعاع بن قيس على واقصة وطريق الحاج . كهذه وغيرها من أيام الغارات الأموية التي استباح فيها رجال معاوية الأرواح والأموال والحرمات . لكنها الآن غارة مجاورة .. ليست موعلة في البادية إلى الأعماق . ولا فرقة في الأطراف . ولا مساحة مع البحر إلى الغرب أو إلى الجنوب .. إنما هي منهم على كثر . كأنما على مرمى سهم . كأنما على قيد نظرة . كأنما على مد مسمع لو كانت لقومه أعين ترى وآذان تسمع ! ..

بعد قليل من عودة جارية من مطاردة بسر ، وعلى مسيرة قصيرة من الكوفة التي غدوا بها مثل قوقعة مغلقة حبستهم صدقتها عما يدور خارجها من أحداث ، ومن جد العمل ، ومن حركة الحياة ، ضرب معاوية ضربته الجديدة ، بيد الغامدى ، في الأنبار ..

ليست حرباً إذن ما يريد الماهل بهذه الغارات التي يسيرها إليهم بين فينة وفينة .. ليست حرباً معلنة كما كان قديماً العهد بالحروب يتصاف فيها الفريقان المتناجزان ثم يبدأ اللقاء . ليست أيضاً تسلل سرايا للاستطلاع . ليست أيضاً ترص كائن للباغية . ليست أيضاً مناوشة كتائب لتشغل الجيوش ، وتفسد عليها خططها ، أو تعمق قدرتها على التقدم أو الالتفاف .. إنما كانت ضربات انتقامية أعادت إلى الحياة ثانية أساليب قطع الطريق على المسافرين ، وانقضاض القبائل على بعض في ساعة غرة ، إدلالاً بالقوة ، أو رغبة في السلب ، أو تفرداً باللاء ، أو استجابة لدواعي الثأر والانتقام ..

ولقد نجح الماهل الأموى حقاً في هذا المجال . ورجال فيه مستمرنا مرعاه ، فهو يعمل وإن لموشك أن يكون حر الثقل ، مطلق اليد ، ملأوت العنان ،

يحيث ويعبث على هواء . وهو يعمل وإنه لموقف أنه لن يلقى في سبيله من المقاومة ما يحمله على الإقلاع إذ يأمر رجاله النأي بأنفسهم عن مواطن التزال والصراع . . لا حريجة . لا قلق . لا خطر عليه . فما أثيب غارة بغارة — إلا في النادر الأقل الذي يغفل — فيردعه عن الاستمرار أن يذوق طعم ما سقى سواء . . وما خسر في حملاته تلك شيئاً ذا بال لأنها كانت توجه دائماً إلى الأمانة العزل من السلاح . . ذلك أسلوب في القتال أخذ به معاوية في غير تحرز ، وبلا خشية أن يكال له منه صاع بصاع . وكيف لا وهو الأسلوب الذي لا يقبل الإمام أن يباريه في ميدانه تعففاً أن يصيب الأبرياء ، والتزاماً بقواعد الفروسية الكريمة وتقاليد الحرب المشروعة التي تحرم العذر ، وانتهاك الحرمات ، والفتك بالشيوخ والصغار ، والتصدي لغير الجنود ، وفي غير ساحات الوغى ، إلا بعد إعلان ، والنزو الباطش على السكان الآمنين . .

ولا ينبغي هنا أن ينحى باللوم على الإمام لأنه يرعى مبادئ الأخلاق ، وأصول السلوك القتالي النظيف مع من لا يؤمن برعاية خلق أو حفظ فضيلة . . فالسرقة ، مثلاً ، إن استباحها السارق من المسروق لا يمكن أن يقتربها مسروق شريف ولو تمويضاً لحقه السلوب ، والخطأ لاشفاعة لتصحيحه بخطأ آخر مهما كانت الدواعي والمآذير . وإذا كان على قد حاول جهده — وعلى الرغم من ثقل رجاله عن المبادرة إلى الردع — أن يضرب تلك الغارات الأموية العداوة الفاراة ، فضررها كان لقاء جند بجند ، وسلاح بسلاح . ولم يكن قط من سياسته أن يحذو نفس حذو غريمه فيغير . .

إنما كانت سياسته الثابتة أن يشنها حرباً صريحة على معاوية ، شاملة عامة كصفين ، يلتقي فيها وإياه في احكام إلى قتال مشروع . فما يفض النزاع بينهما — في رأيه — غارة أو عدة غارات قصارى شأوها ضربات قد تخرج ولكنها لا تميت . وما يغير من الموقف بينهما أن يسلب مال ، أو يحرق زرع ، أو تهدم دور ، أو يقتل نفر من « المدنيين » من هنا أو من هناك . . فما أتباع معاوية ، في حقيقة الأمر ، سوى ذيل بغير حول ، أفيقطع الذيل ويدع رأس الثعبان ؟ . .

« إحياء صغين » هو العمل الذي كان دائماً محور تفكيره ، وجوهر دعوته وتبشيره بين رجاله ولا عمل يحسم الأمور سواه . .

ومع ذلك قالقارة الجديدة عرض خطر لا بد له من علاج سريع . . وها هو الآن ، وقد جاءتة عنها الأنباء ، يخف إلى الناس ليهبوا انجدة المنكوبين . .
وقف على المنبر يخاطب الجموع :

« . . إن أخاكم البكرى قد أصيب بالأنبار . وهو معتز لا يخاف ما كان ، واختار ما عندالله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حق تلاقوهم . فإن أصبتم منهم طرفاً أنكتموهم عن العراق أبدا ما بقوا . . »

وتلبث ينظر ما لعله قد عرا القوم من هذا الخبر الذى آتى به إليه عالج من أبناء البلدة التى اجتاحتها القارة ولم يأت به رسول من قبل صاحب السلطة أو عامل الإقليم ، وما كاد يضى على سالفاتها باليمن غير قليل . . أفقد أحيط هناك برجاله ؟ . . أم عصفت بهم ؟ . . أم بلغ من كثرة المغيرين أن أخذوا على الناس بها طريقهم إلى الكوفة فلم يعد فى مقدور أحد من ذوى السلطة من عماله وأعاونهم النفاذ من بين « سور » الاعتداء الكثيف ؟ ..

عوامل كلها خليفة بأن تثير القلق ، وتحرك الاهتمام ، وتدفع السامع إلى الانفعال الفورى بالخبر المفاجئ . ومجابهة دلالاته الخطرة بعمل سريع ، لأنه عندئذ خبر يحمل فى طواياه النذير بتهديد الكوفة نفسها التى لا تقع عن موطن القارة إلا على مبعدة بضع مراحل قد تغرى العادين بالتقدم إليها إن أمنوا خلو الطريق . ومن يدرى أن قوات الغامدى ليست مقدمة لغزو عام ؟ .

وتلفت يطالع الوجوه . .

فلو أنه نظر عندئذ إلى صحيفة بيضاء لم يمش عليها قلم بسطور أو بكلمات ، فلربما كانت أكثر تعبيرا من السحن المائلة أمامه صفوفاً وراء صفوف . . ما من رجل وخزه النبأ اللامع فانتفض انتفاضة ملسوع . ما من أحد انطلق لسانه ، يوحى شعوره قبل وحى تفكيره ، بكلمة أو سؤال . لا لفظة إنكار . لا عبارة تعليق . لا همسة توجس . لا حركة اضطراب أو اكتراث .

وعاود التفرس عجبا في الملامح الآسفة الراكدة . . . لاحت كأنها قد اكتمست
من الجلود أقنعة سوداء ككسف من ظلام كثيف في أمسية شتاء أطبقت فيها
قبضتا الليل والنعم على الأفق فاخفت النجوم . . . أفهم أصنام ؟ . . أم هم موتى
ولا يسمع الدعاء من في القبور ؟ . .

وفي هم واصل وصمت حزين ، غادر المسكان في هدوء . . .

مضى على وجهه يهيم ، بعيدا عنهم ، إلى خارج بلدتهم الناكثة الغادرة ،
العاصية الجاحدة ، يحمل قدميه على المسير إلى النخيلة وما يدرى امرؤ إلى ما يسير ،
وفيم السير إلى ذلك المنكر المهجور ؟ . . أيلوذ منه بثل صومعة يخلو بها مليا
إلى همومه ؟ . . أم يريد لها قطيعة وعزلة عن أولئك الحاملين الهامدين ؟ . . أم لعله
أن يجد فيها بقية من أعوان يؤازرونه على الكفاح ولو كانوا حفنة لا تغنى عنهم
أنفسهم شيئا حين قتال ؟ . .

اثنان أو ثلاثة من أشرف البلدة الذين خلفهم بالمسجد انتبهوا من غشية جمودهم
على خروجه ، فأسرعوا خطاهم إليه ، يحاولون رده عن الطريق . لا معدل لهم
عن رجوعه . غيابته سيملأ حياتهم بالفراغ . لا بديل للكوفة وأهلها دونه وإن
هم خالوا أنه يحس ، بلاء شعوره ، أن هجره إيها ، ونفض يديه من أمرها ،
وقطيعة رجالها ، هي له الخلاص مما يعاني ، وخير بديل . وأسلم سبيل . .

وهتفوا به يترضونه ، ومن ورأهم تقاطرت عليه الزمر والحشود . .
قالوا له :

« ارجع يا أمير المؤمنين . . »

لكنه لم يبال دعوتهم . وهل هي إلا ، كغيرها من أحاديثهم له ، جوفاء ؟ .
وعادوا يناشدونه ، ويمدونه :

« ارجع ، ونحن نكفيك . . »

فابتسم ساخرا وقال :

« ما تكفوننى . ولا تكفون أنفسكم ! . . »

ظلوا به حق أعادوه إلى منزله بالكوفة ، على كره وضيق . يبديت مهموما ،
ويصحو مهموما ، وقد آيس منهم اليأس الذي يفرغ الصدر من الثقة ، ويدفع المرء
إلى تلمس الراحة في الخروج من حياته إلى الانتظار إن لم يكن إلى الشرود . .

وظل بهم يشهد ما يكون منهم ، بعد الذي أبدوه من ندم طالما بدر منهم مثله ،
وهو يرقب ما لعلم فاعلوه في المحنة القائمة ، ويسائل نفسه : أيستقيمون ،
أم يهبون ! . . أيدركون أم يحمقون حق ينتهي أوان الخروج إلى الغارة
الأموية بالمقاومة والردع ، أو ملاحقها بالمطاردة والتأديب ؟ . .

أيام قلائل انقضت منذ غضبته تلك وهو يرقب الأمور بعين ساهرة ،
ويستقبل الأخبار بقلب محرور . .

مظاهر الاهتمام ، فيما يخال ، تتجمع على اللامح ، رويدا رويدا ، كقطرات
المرق التي يفرزها الجهد ، لحظة فليحظة ، لتغمر وتنثال قدر ما تعمل السواعد
وتنشط الأوصال . . ضوضاء الحركة عملاً المدينة وهي تبتثق من وقع الخطأ ،
وخيبط الحوافر ، وجرجرة الإبل ، وصهيل الأفراس . . جرس النبرات يتعالى
على ضجة التنقل ، متناديا بالدعوة والتحريض ، ومختلطا بالقعقة والصليل . . أفهذه
يقظة جادة ، أم هي يا ترى فرقة جوفاء ؟ . .

وكانت المحنة أيضا تندلع من كل خير كألجنة النار . . الويل يزيد . الخطر
يدنو . القلق يكبر . الخوف يسرح من تخوم المواقع التي اجتاحتها إعصار الغارة
ليغمر ما حولها من البلدان ويطرد الناس أمامه إلى أي ملاذ آمن ، أو مهجر
بعيد ، يقيم الموت والعذاب والتشريد . وهل ثمة اليوم ملاذ أو مهجر هو آمن
لهم ، وأبقى عليهم ، من أرض الشام موطن أولئك الذين يأنفرون طائعين ،
ويخرجون مسرعين ، ويغيرون قادرين ، ويرجمون موفورين ؟ . .

... يقول معاوية لصاحب غارته سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى ، بعد أن رسم له طريق الحملة ، ولقنه أساليبها ، ونصحه بما يحقق له الانتصار للمأمون :
« ثم أقبل إلى ، واتق أن تقرب الكوفة . . واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة . . إن هذه الغارات ، يا سفيان ، على أهل العراق أرعت قلوبهم ، وتفرح كل من له فينا هوى منهم ، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر . . . »

فيصدق الواقع رأيه . إذ نزلت هذه الغارة ، كشيلائها ، من أهل العراق كثيرين كانوا على طاعة على ففروا بأرواحهم إلى ذلك الملاذ الأمين .
... ويقول أيضاً ، كشفنا عن سياسته الكرارة الفارقة ، وسيرته بها في أعدائه ، وجدواها المؤكدة على مطامعه :

« واقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك . وأخرب ما مررت به من القرى . واحرب الأموال ، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب . . . »

فيصدق الواقع رأيه ثانية ، لأن هجرة العراقيين أمام الغارات جمعت في وعائها أولئك الهاربين بحلودهم خوفا على النفس ، إلى أولئك الهاربين بمتاعهم حرصا على المال .

... ويقول أيضاً لأهل الشام ، حين قر عزمه على إنفاذ بعث سفيان ابن عوف بن المغفل للإغارة على الأنبار والمدائن ومايدانى الكوفة إلى مدى غير بعيد :

« أيها الناس ، انتدبوا مع سفيان . »

فيصدق الواقع رأيه في أصحابه ، قبل صدقه في حالتيه هاتين ، فيخلصون له الطاعة ، وينزلون على أمره ، ويخفون سراحا إلى إلهاب النار ، وإشاعة الدمار .
يقول ابن المغفل ، وهو يتحدث عن أثر دعوة معاوية عندئذ في الناس :

« فوالله الذي لا إله غيره مامرت ثلاثة حق خرجت في ستة آلاف . »

ثم يقول عما حدث بعد عودته ، نتيجة للحملة الفعيرة :

« . . . فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتونا على الإبل هرابا من معسكر على . . »

هذا أمر أولئك ، وذلك أمر هؤلاء . . استجابة وطاعة ، لقاء مطل وعصيان . مبادرة وتأهب ، أمام تردد وتشاقل . تشرع وكر ، مقابل تهاون وإحجام .

على أنهم أخيرا ، غادروا الكوفة ثمانية آلاف بقيادة سميد بن قيس ، يأخذون على شاطئ الفرات في طلب سفيان . .

كانت غارة ابن المغفل الغامدى قد فعات ، آنذاك فعاها ، وبلغت من الأرض التي داستها الغاية التي شاء لها عاهل الشام وشاء أسلوبه الفذ في القتال أن تبلغها من العزل الأبرياء . . مضى بها فئدها منحدرا من الولاية الأموية بغير تهمل ، جادا خفيضا إلى التدمير ، حتى طالعه ماء الفرات داخل الحدود العراقية فلزمه إلى بلدة هيث . . لكن خبره فيما بدا ، كان قد سبق خطاه إلى أهلها الأمانة الذين لا يملكون ردعا من دونه ، نخشوا أن يغشاهم الإرهابي بقواته المغيرة ، ولم يروا عاصما لهم منه إلا عبور النهر إلى الضفة للمقايلة ، فرارا بالعمى ، عسى أن تحاجز شريعة الماء بينهم وبين الموت الزاحف . .

ودخل ابن المغفل ورجاله البلدة بعد قليل ، فإذا هي فارغة كفلاة ، هامة كقبرة ، خرساء الحركة والصوت كأنها لم تحال قط ولم تتردد بحجياتها أنفاس . . كانت الدور خاوية والطرق مهجورة ، والسكون المطبق على أطرافها وقلبها لا يشي بظل إنسان . .

وخلى العدم الذي فرش الفراغ على هيث بينها وبين الغير فتشى عليه بجيشه العاصف مشية إعصار ، يهدم هنا ، ويدمر هناك ، ثم يدهس ويحتاح ما استطاع ليضيف إلى صورة الخواء في إطارها ألوانا من الخراب .

ثم اخترقها إلى صندوقاء لعله أن يشفي فيها غلة نفسه النهومة بالدم . . لكنه — ليعظه — لا يلتقي بهذه الفريسة الجديدة إلا بآثار فرار . . فقد هجرها أهلها كسنة رفاقهم أهل أختها هيث ، قفاتهم ، وتركوها له دمية من خزف بين يدي طفل نزق يتلهى بتعطيمها كيف شاء . .

حينذاك كان النذير بعسير الحملة واقتلاعها معالم العمران أينما انطلقت بها الأقدام قد بلغ مسامع ابن حسان البكرى صاحب مسلحة الأنبار . . . الغارة تنساب إليه كثعبان . الدمار يخف بجناح . الموت يوشك أن يقتحم عليه الباب . . . لكنه لا يرى الفرار .

يجنان ثابت وقلب ركين ، تدبر الأمر تدبر المؤمن بانتهاج ما يجب لا بطأطأة رأسه للظروف . . . إن عمله ليس الهروب . وإن دوره هو حماية الأرض التي يقف عليها مابقي سيفه في يمينه ، وما حملته قدماء . . . وإن خلقه ، وشعبه ، وبقينه لتأبى جميعا عليه أن يذل لصولة الإرهاب فيفر كغيره من الذين فترت عزائهم من اعتلاء قمة الكفاح وآثروا الانزلاق للسفوح . . .

كان في قلة من أصحابه قليلة يعلم أنها لا تغنى شيئا أمام كتائب المغيرين . . . ولكنه يعلم أيضاً أنها تستطيع أن تصبر ما استمسك بالصبر . تثبت للمادين طرفا من ليل أو آونة من نهار . ترد عليهم ضرباتهم بضربة أو بضربات . وإذا لم يكن لها سبيل إلى النصر ، فإنها لاشك قادرة على أن تصيب من القوم ، فتقتل من تقتل ، وتخرج من تخرج ، وتغوت وهي قائمة على أراها ، ودونه ، ليعلم المدوان أنه لا يفلت أبدا بغير قصاص ، عظم أو هان ، ثم لا يقال بعد هذا إن البكرى ورجاله خانوا واجبه ، وخذلوا أميرهم ، وثبطوا عن أداء دورهم الوطني ، وسلكوا أمام عدوهم المدل بالصولة والبأس مسلك جبناء . . .

ولقد أثار ما ذاع من التزام ابن حسان الوقوف في وجه الغارة المقبلة ريبة للمغير ، وأفسح أمامه رقعة الحدس والتخمين . فما ألف الغامدى ، حتى لحظته هذه ، من أمثال الرجل فيما طرق من مواقع وبلدان ، قبل الأنبار ، غير الفرار . . . ما خف إليه صاحب مسلحة أخرى بالمقاومة . ما اجتمع نفر في طريقه يسده عليه . ما جال بخاطر امرئ أن يعترضه بكلمة إباء فضلا عن إشهار سلاح . . . فأما وهذا هو عزم البكرى . فإنه إذن في جيش كفء يحميه . أو قد أعد فأحسن الإعداد للقاء . أو قد بث كائن المباغته والانقضاض . أو هو واثق أن أمدادا من أهل الكوفة على الطريق !

وتوجس الغامدى . . ومضى يفساب بقواته صوب البلدة على حذر وتمهل .
ليسكاد يشم فى الجو رائحة تربص . . كأنما فى كل ركن كمين . . كأنما الظلال
متر لجند كثيف . . بل إنه ليخرج من الحذر ليدخل فى الخوف ، ومن التهل
إلى تجميد السير . ومن كليهما معا إلى رهبة آتاك عليه أمره حتى يلح ذهنه
وأمنه عليه بالرجوع . .

فيما يحس ، لا ضير عليه لو أنه آثر الإياب وها هو الخطر يرنو بعين إليه ،
ويشير بأصبع ، ويتحرك بثبات . . ليس إذن قولا أجوف ماتراحت به إليه الأنبياء .
ليس خدعة افتخاضة القوم للدفاع . ليس وها ما جرى بظنه وتقديره عن الإعداد
أو السكائن أو الإمداد . . وإذا كان نعمة الآن ما يؤيد حدسه فهو هذه المبادرة
التي دفعت البكرى للخروج بقواته إلى مشارف البلدة مهيأ عاجلا للقاء . .

وسمر الغامدى فى موقعه أقدام رجاله . . كف عن التقدم . ووقف ينفض
بالنظر الحذر ما حوله من معالم . ثم أرسل نفرا من أعوانه طليعة تلصص وترقب
وتستنبى* حسبا يسهم أن يقوموا له على ما قد يغير من حدسه ، أو يؤكد تقديره ،
فيستيقن حقيقة الأمور . .

ولم يطل به الانتظار . . أقبل نفرة عليه بعد قليل بخلعان من أهل الأنبار ،
لعلهم كانوا بأطرافها يلعبون لاهين عن الخطر وعن غارة اللغير . فما أن رآهم ،
حتى راح يحاول معهم حيله ، عسى أن يخلص منهم إلى بعض ما يفيده عن قوة
الدفاع . .

وسألهم :

« . . وكم بالقرية من أصحاب طي ! . . »

فاختلفت الإجابات .

فتية قالوا :

« عدد رجال المسلحة خمسمائة . »

وزادت طائفة :

« لكنهم تيددوا ورجعوا إلى الكوفة »

وقدر فريق :

« قد يكون مائتين . »

وبين هذا التفاوت ، وقع الغامدى على ما يطمئنه ، لأنها الحامية التى لا تبلغ من عديد رجاله ما يجعل لها قدرة على المقاومة ، وإن قاومت فليس لها طاقة بالثبات ، وإن ثبتت فلا إلى تفوق ونصر . . ومع ذلك فقد بدا الرجل مشفقاً على أصحابه وتقسه من الممركة المنتظرة . متردداً عن هجوم طوفانى كاسح يحرق القوة الصغيرة . مترثلاً بساعة الفصل ما استطاع .

آثر الغامدى الهوى فى السير . . فتت اللقاء . كتب جنوده كتاب متعاقبة كالأمواج ، ثم راح يرميها إلى حفنة المدافعين عن بلدتهم ككتيبة من بعد كتيبة ، لا تكاد إحداها تصيب شيئاً من عدوه إلا ارتدت لتخلأ فراغها على الأثر كتيبة جديدة .

لم يعمل للحامية الصغيرة فى الراحة . ولا فى التقاط الأنفاس . كان يداول عليها جيشه اللجب صفاً وراء صف ، ليثلم سلاحها ، وينهك قوتها ، ويجعل منها فريسة سهلة للمصارع ، ويأمن أن تبقى له إبان الاحتدام ، طال أو قصر ، قوات ضخمة مدخرة تقية العرة إن انشقت البلدة ، أو تفتقت مشارفها ، عن نجدة خبيثة . .

ومع ذلك فلم تكن فى البلدة عندئذ نجدة مخبوءة بعد أن تفرق معظم جندها إلى الكوفة . ولم يكن نعمة مدد أيضاً على الطريق من ناحية الكوفة وقد تراخى أهلها وتصاموا ، كعادتهم ، عن دعوة الجهاد . ولم تكن حامية القرية ، إلى جواز هذا وذاك ، خمسمائة من المقاتلين . ولا كانت مائتين . بل قد كانت دون الرقمين لا مرأى ثم لم يخف منها إلى اللقاء غير نصفها ، أو أقل ، عند بدء القتال . أما بقية رجال رباطها الموكول إليهم الدفاع عنها فقد استسلموا ، من اللحظة الأولى ، إلى التنحي عن واجبهم مؤثرين السلامة ، حين ظهر لهم من كثرة اللغيرين وعدتهم ما أيقنوا معه أن ليس فى الاشتباك إلا الهلاك . .

تعللوا وهم يبرحون :

« ما لنا بهم طاقة . »

ولم يغالوا . فجموع الغارة ، في الحق ، كانت خليفة بأن تهول مثل هذا النفر
الذين يزنون الأمور بقيمة النتائج القرية المنظورة ولا يزنونها ببطافة المسلك
وصمو الغاية . . كان المغيرون يغطون الأرض . يعلأون الأفق . على صفوفهم
للمتراسة الكثيفة تلمع الأعين لتعم ، وتعم لتلمع من دهشة وبهر . حشودهم
من خيول وجنود لا يكاد يحتملها ظن ولا تخترقها نظرة . إذا مضت سيوفهم
تصلصل فرعود وكتائبهم تسير فطوفان . .

اسكنها ، مع هذا كله ، لم تكن لترهب دايقين ! . . ولئن راحت تهجم
مستمزة بياسها وقوتها ، بعددها وعدتها على ابن البكرى ، فإن مدها كان يرتفع
لينحسر ، وموجها كان يندفع لينكسر على صخرة ثباته وصبره .

بنفريه القلائل وقف صاحب مسلحة الأنبار في وجه السيل المتدفق الذي
جفريه عليه ابن المغفل الغامدى ليجتاح البلدة . . لم يرح لحظة يده . لم يرح نفسه .
لم يدع فرصة لقوات خصومه العارمة لتثبت بـ . . قاتل الموت ، ليقتل أو
يقتل . . كان كزوبعة مجنونة . . سلاحه يتأرجح ويدور . وقدمه تتوثب
وتتطفر . والأرض تحته تنطوى وتنتشر فإذا هو هنا وهناك ، مرة أمام عدوه ،
ومرة خلفهم ، وفي كل مرة عصى على التناول ، عزيز على الحصار ، كأنه زئبق
لا تستطيع أن تطبق عليه كف أو تثبت أصبع .

لكم طاردوه ، وكم أطبقوا عليه . . غير أنه كان دائماً يستطيع الإفلات ،
ويعدل وضعه ، ليكر عليهم بخفته ، فإذا هو وراءهم يطارد ، وإذا هم أمامه ،
بمحشدهم ، مطاردون . . مرارا عديدة كان يقلب الفرkra ، والدفاع هجوما .
ومرارا عديدة كان ينتزع المبادرة من أيديهم ، ويقتحم عليهم مواقعهم فيجلبهم عنها
وينقضهم نفضا عما اجتازوه أو احتلوه من أزقة ودروب . .

ثم حانت أخيرا لحظة الخاتمة الحزينة التي كان لا بد أن تحين . . فلا مناص
للزوبعة بمدثورة من مكون . . وللجمر بمدتسمر من خمود . . وللتبع بمد
تدفق من نضوب . .

تماقب الصراع أوهى القوة الصغيرة . شيوخ الجراح فيها أوهن العدد ،

واصطفاق السلاح أثم العدة . والإعياء الذى يشه فى رجالها تواصل القتال ودوام التنقل ، وسرعة الطراد ، قد جمدت منهم المفاصل وخدرت الأوصال . . . وها هو ابن الغفل ، إلى جوار هذا كله ، ينهز هذه الساعة فيجيش فرقة من مائتى راجل ، خفافا أعقياء . لم ينل بعد من أحدهم جهد الصراع ، ولا تغبرت أثوابهم بغيار الميدان ، ليدفع بهم فى وجه القلة المناضلة ، مؤيدين بكنية فرسان . . . وتفكر البكرى . . .

ثم حزم أمره على الفور . . . الستار لا محالة سينسدل . . . والنهاية مقبلة تسرع . والشهادة تخايله برضوان الله . . .

والتفت يخاطب أهل بلدته خطاب مؤمن مستعين ، وكلماته تسبح إليهم على لسانه :

« من كان لا يريد لقاء الله ، ولا يطيب نفسا بالموت ، فليخرج من القرية ما دنا نقاتلهم . . . فإن قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب . . . »
ثم وجه حديثه إلى الثمالة الباقية من جنوده :

« ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار . »

عندئذ لباه ثلاثون فى السلاح ، ما إن صفهم حتى استبقوا إياهم ، على طمأنينة وبشر إلى الهجوم على حشود أعدائه ، ليلتقى بهم لقاء الأخير . . .

وكان يتلو من التنزيل ، وسيفه يضرب ويدور ليفتح ثغرة فى سور العدوان :

« ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . . . »

وخاض ورفاقه الموت . . .

لم يفتر عن الإمام همه . .

أينما سار أو أقام ، كانت الكآبة تظلال عيائه . . المبسة على جبينه . .
السهوم في عينيه . . الألم قد شق خطوطا عميقة فارقت بين القسمات . .
أما نفسه فمجروحة ، وأما قلبه فشقي . .

وكان الصمت دائما طريقه ، والحزن رفيقه . إذا صحا فالعلم ملء فيه . .
وإذا رقد فعلى شوك . وإذا مشى فعلى حجر . . أيامه ولياليه موصولة بخيوط
كثيفة من الندم والضجر ، ومن الأسف والوجوم . .

والأنباء ، إلى هذا ، لا تزال ترى عليه من الأنبار . جوفاء حينما كأنها
الفراغ ، تثير من القلق بقدر لحظات الترقب والانتظار . ثقيلة حينما — كوقر
الآثام على قلب النادم — بما تحتوى من قواجم . .

وكان الهدوء أيضا ، حوله في كل مكان . . الكوفة ما كنه لم تتغير بها
الحال . آمنة الحركة كبركة عفنة . . باردة العاطفة كالجليد . . هامة
بالانفعال كالموت . . لا بادرة فيها لتأثر بما دار هناك ، على مراحل دانية
منهم . أهلها في طمأنينة . . البال رضى ، والنفوس هادئة ، والقلوب في مواقعها
ثابتة ، كأنها لا تعرف الوجيب . .

لكأنما الأمر لا يعنى القوم . . كأنما هذه المحنة على نخوم بلستهم تقع بعالم غير
عالمهم ، بعيد بعيد ، لا تطويه المراحل ولا تبلغه الأسفار . . كأنما الأخبار قصة
مروية ، تنقل لأسماعهم حدثا باليا أغفى طويلا في سفر التاريخ . .

لا مبالاة . .

ومع ذلك فقد أفلتت من أيديهم فرصة التأثر . ذهب مع الريح جهد حملة
التأديب . . فالاعتدى الإرهابى آب إلى أرضه وهو ملء جلد . . فى يساره
(٢ — الإمام ج ٩)

هوانهم ، وفي عيینه انتصاره ، لم تطأ الحملة ظله . ولم تلحق بغياره . لم تصب من رجاله موقع قدم وهم ينطلقون آمنين بثمار الحقد : بالأسلاب والغنائم ، وبالزهر والشهامة إلى الشام . .

أخفق سعيد بن قيس ورجاله في اللحاق بالمغير . . الأيام التي بددها تشاقل الكوفة قطعت خيط الاتصال بين السابق والمسبوق . . وسعت الشقة وأطالت الطريق . . . وعندما انتهى من أولى مراحل الحملة ، وأصبح وجنده يلزمون ضفة الفرات ، كانت القارة قد بلغت أربها ، وحملت سلبها ، وغسلت يديها من دماء ضحاياها ، ثم قفلت راجعة من الأنبار . .

ولم يكن أمام سعيد بن قيس حينذاك إلا أن يلقف الريح ليشم أين للمغير . . وما كان ليعلم عن يقين وقد خلت الأرض من آثاره ، ونضبت الأنباء ، وكادت المناطق المحيطة لا تشي له إلا عن هجرة للناس بمد هجرة ، وفرار في إثر فرار ، نجاة بالأنفس والأموال أن تطولها سطوة العدوان كلما خطر للغارات الأموية أن تدوس ثرى العراق بالمذابح . . . ومع ذلك فقد قر في روعه أن يحاول الصعود للشمال بدل انحداره للجنوب إلى الأنبار ما دام قد فاته أوان الانحدار . . وما يدريه ؟ . . فلعل الغامدى مازال يرجع الهوى إلى إقليمه بثقة الآمن لا بخشية الطريد . . لعل العجاج الذى أصابه حين الهوى قد أغراه بالاستزادة من النهب والسلب حين الأوبة فقصر خطاه . . لعله شاء أن يريح بجيشه الظافر هنا أو هناك ، بهذه المفازة أو تلك ، سجاما من تعب السفر ومشقة القتال . .

كيفما كان من صحة حدسه أو اضطراب تقديره ، فقد آثر سعيد الاتجاه من فوره إلى عانات ، فهي بموقع يعترض الطريق إلى الشام . . وهي تدانى هيث ، وتسكاد تتوسط المسافة من الأنبار ، ضحية القارة ، إلى الرقة منفذ المغيرين إلى أرض العودة ملاذهم للنجاة . فإذا بلغها قبلهم فإنه إذن لقاء الثأر . وإذا بلغها وقد فاتوه ضاقت الشقة بينه وبينهم وربما وسعه أن يلحق بهم ، أو بمؤخرتهم ، وهم بعد خارج الحدود الأموية لم يجتازوها إلى نطاق الطمأنينة . .

لكنه خشى ، إن هو سار إلى بلدة عانات بكل رجاله ، أن تثقل كثرة
نفره ووفرة عتاده قدرته على متابعة العائدين . فلا بد إذن من التخفف . لا بد
من قوة صغيرة ، سريعة الحركة ، لا يعوق من انطلاقها إلى عدوهم كالسهم ، وعلى
الفور ، ما يعوق انطلاق جيش كبير مثل جيشه ، لا تتأني له القدرة القتالية الفعالة
إلا بعد درس ودقة وإمعان فسكر لرسم خطته ، وترتيب كتائبه ، وحشد
معداته ، وتخطيط مسالك تموينه وتزويده ، إلى ما نحوها من أساليب معقدة
ومتشعبة يستغرق إنجازها وقتا ليس باليسير .

وعلى الأثر حزم سعيد الرأي ، فسرح إلى مظنة سير القارة الراجعة فرقة من
جنده ، عليها هانيء بن الخطاب الحمداني ، أمرها أن تمجّل نحوهم ، طاوية
الزمن عدوا ، عسى أن تلحق بمؤخرتهم ، وتمرّقل انسحابهم إلى مأمنهم حتى
يخلص هو إليهم ببقية جيش التأديب . .

وخف هانيء إلى مانب له ، آخذا على شريعة النهروان جيرته ، من عانات ، مصوبا
إلى الشمال نحو مشارف الرقة . ثم انفلت منها غربا حتى دخل أداني أرض قدسرين ،
وهو ينفذ الربا والوهاد والربوع والزروع ، ومن ورائه انطلق سعيد بن قيس
ببقية الجيش لتسكون حشوده جنة لتلك الطليعة السريعة ، ومددا لا ينضب
لو نشب قتال .

غير أن العدو كان قد فاتهم ، وأوغل . فدخل الشام . وحط رحاله .
ووقف قائده سفيان أمام طاغيتها يقص عليه من أنباء غزاته المظفرة ما هز
بالبشر عطفه . .

وقال له معاوية آنذاك ، مترجما عن رضائه :

« كنت عند ظني بك . . . والله لا تنزل في بلد من بلداني إلا قضيت فيه
مثل ما يقضى فيه أميره ، وإن أحببت توليته وليتك ، وليس لأحد من خلق الله
عليك أمر دوني . . »

وآب الغامدى لأمنه فأصاب التقدير . .

وآب سعيد إلى الكوفة مقهورا بإخفاقه ، مهزوما ولا هزيمة ،
يرتد على حسرة ، ويمشى على كمد وتشاقل وهو يقود وراءه ثمانية آلاف
شمشا مغبرين من طول السرى والسير ، وسرعة الجرى والطاردة ،
وكأنما يجر خلفه ثمانية آلاف ذيل للخيبة . . .

الحسرة التي رافقت سعيد بن قيس الهمداني وجيشه ، طوال الطريق للعودة
المريرة ، لم تكن وحدها هي التي أشاعت كل هذه السكابة في أفق الكوفة . .
كان في الجو معها قلق مكتوم ، وصمت واجم ، وفراغ أجوف مأوئ الإحساس
بالضياع . .

وكانت الحياة ، بالبلدة الأولى في الدولة ، مثل ليلة حزينة ، مطها الهم
والسأم إلى غير نهاية . . ضريبة بغير نجم . أبدية بغير فجر . سوادها وشبه ظلمة ،
وظلامها حشوه سواد . . والناس في دجائها السكثيف كالأشباح . . يهيمنون .
يلهون . يعملون . يمشون في رنابة ثقيلة ثم لا أثر ، بعد ، للهو والعمل والعيش
عس القلب ، أو يحرك للمعاطفة ، أو يثير الشعور والأوصال فيغير الصورة الماثلة
بذبضة أو انتفاضة ، لأنها كلها حركة فارغة إلى غير هدف ، خامدة بغير روح ،
كأنها خيالات منام ، ورؤى أحلام . .

ومع هذا كله فكهم حاول الإمام أن يهز الصورة ليحرك النائم . . . ليس
هذه اللحظة وحدها مد يده ليوقط الشعب الوسمان . . ليس أمس الذهاب .
ليس باقي الأمسيات المواضي ، القرية أو البعيدة ، التي تقضت ، منذ نشطت
الغارات وانتشر الخطر ، وهو ينقض عليه القراش عبي أن يقلق مضجعه ،
ويفتح جفنيه للطبقين على سحر الحذر ، وراحة التواكل . .

طويلا طويلا ، منذ سنين ، ظل قائما على رأس نائمه ، يضحج بالحركة وبالندير .
وكثيرا كثيرا كان يرج استرخاءه . لمدى سنوات لم تغمض عينه . لم يهدأ لسانه .
لم يكف لحظة عن محاولة نقض الجمود عنه ، وبعث الحياة في جسده الجامد يقظة
واعية تسمع وترى ، وتدرك وتعلم ، وتعمل وتجد خلاصا من الرقدة المستكينة ،
ونهوذا إلى مجابهة التبعة ، ومبادرة لصنع الصير . .

منذ سنين وهو يقض على هذا الشعب النائم مرقده . بالدعوة . بالصيحة .

بالضجة . . بكل ما يحمل عضوا على الحركة ، ويقهر عسبا على الانقراض . .
بكل ما يحفز الهمة ، ويشير الغيرة ، وينخس الضمير . .

لكن الكوفة ظلت الكوفة . مستكينة ، كمهددا ، للاسترخاء . مخلدة
إلى التهاون ، وغارقة في النعاس . حتى صليل السلاح قرب مشارفها ، وصهيل
الحيل ، وصرخات العذاب والنكال ، لم تمسح عن عيونها المغمضة فتور النوم .
حتى الفشل الذي لازمها شهورا عديدة ، مرة بعد مرة . وهي تحقق في اللعاق
بغارات الإرهاب ، لم يحرك في نفوسها شيئا من الحية ، غضبا للكرامة ،
وثارا للدم !

بغير أثر من انفعال ، مضت الكوفة ، على عادتها ، تعيش حياتها اليومية ،
رحية رتيبة ، بلا مبالاة . . بغير أنه من ألم لما هو واقع . وبغير دمعة من ندم
على ما فات . وبغير مسحة من خشية . مما هو آت وإن تعاقبت عليها التجارب
لمرة وتوالت النذر تلوح لها بالوبال . . لا شيء يهم . لا خطر يشير . لا بلوى
تكرث كأنما القوم ، فيما تبدى ، قد فقدوا السمع والبصر ، وعدموا الحس
والشعور ، وحرموا القدرة على التقدير . .

امرؤ فرد كان وحده يحمل الهم كله . يحس وحده . يفكر وحده . يقدر
وحده . يدبر وحده ، وهم من حوله حلقة من التيه . . . فاقداً أعضاؤها به أيعا
إعصال ، وشق أمرهم عليه أيعا مشقة ، حتى لضاق صدره وانقبض قلبه ، وعانى
من خيخته فيهم من الألم والحزن والحسرة ما كان يقتله مرة في كل لحظة من
ليل وهنية من نهار . . . ولقد أسأمه منهم ، إلى حد الغثيان والتفزر ، ذلك
الفراغ الأجوف الذي حاصروه به في كل آن ومكان ، حتى لأسقمه ، وجرى
بالمرض حثيثا في جسده الموصوب . .

ويوم عاد سعيد من الرحلة الحاسرة ، لم يكن نعمة بالكوفة الحزينة إحساس
إلا بالمار . . بذلك التخاذل الممين الذي كأنما أهلها قد راقهم طعمه ، فعاقروه
كالخمر ، وداوموا عليه مداومة إدمان . . . بتلك الاستسكاة الدليلة لتعبر

معاوية وصلفه ، وعدوان غاراته الرهيبة ، استسكانة رفعت هيبة عدوها في أعين الناس ، ومرغت شرفها في التراب . . .

ولم يكن لها خلاص إلا في انتفاضة من النوم . . . في هبة يقظة تقطع التردد في إرادة تعزم ، وحزم يحسم . حتى أولئك الذين استمروا الدعة لم يسعهم — في دخالهم — أن ينكروا أن الحرب الشاملة هي وحدها دواء الداء ، والعلاج الذي لا علاج غيره لهذا الضيم الذي أصابهم من أهل الشام ، وذهبت به بلدتهم المنكوبة مثلاً في الأعصر لارتضاء الهوان . . .

وتحقق يومذاك ما ألفه القوم في طوايا الشعور وإن هم أطبقوا عليه الشفاء . فقد خرج عليهم الإمام ذابلاً حائل اللون ، عليلاً مبهور النفس ، من سقم وسأم ، ومن كدر وهم ، وهو يحجر رجلين لا تسكadan تقويان على حملة ، وقد استند بإحدى ذراعيه إلى الحسن وبالأخرى إلى الحسين ، حتى إذا انتهى به سيره إلى باب السدة المفضية إلى المسجد ، وتعهل قليلاً ليخف عنه بعض جهد الحركة . .

وعندما هدأ صدره ، وخفت من حوله لغط الجمهور ، وأرهفت له السامع ورنّت الأبصار ، راح يتحدث إلى الجمع الحاشد بصوت ثابت النبرات ، حاسم للقاطع ، وإن كان واهن الرنين . .

قال مما قال :

« . . . إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه . وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة . . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء . . وأدبل الحق منه . . وسيم الحسف ، ومنع الصف . . »

وكان يضغط على الكلمات كأنها يعلها قبل أن تبرح شفثيه لتخرج بأحرفها ومعانيها وهي ملء فيه . . . وكان يقرن دائماً كل كلمة بنظرة معبرة حارة يكاد الشرر أن يتطاير منها إلى اللامع الشاهدة . وبين الكلمة والنظرة رباط من الضيق نسجه غضب مكظوم غطى جبينه العريض بمقعدة كبيرة من العيوس .

وانثنى من وعظه اللأثم ذاك إلى ما طالما سلف أن أنصح لهم عنه ، ودعاهم

إلى امتثاله . إلى تذكيرهم بسياسة المرسومة التي يرى اتباعها مع معاوية وحزبه ، واحتذاءها أسلوبا مستقيما وفعالا ، لا عوج فيه ولا بديل عنه ، لحسم الموقف ، وردع التمرد ، وقتل الفتنة ، يبلغ بهم النصر ، وينقذ الشرف ، ويحقق الوحدة ، وينشر العدل ، ويضمن الاستقرار . .

أردف معرجا على سياسته إحياء صليبي ، فقال :

« . . . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم لبلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا . فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات ، وملكتم الأوطان . . . »

وعرض بإشارة عابرة إلى غارة سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي على الأنبار وما أصاب الناس فيها من نكال وأصابهم هم من عار . . . وهل هي إلا مثل من أمثلة عدة لتخاذلهم ، ونتيجة محتومة لاختلافهم عليه ، ومظهر من مظاهر استهانة عدوهم بهم استهانة تورث الكمد ، وتعقب الحسرة في قلب كل حر ، حتى « لو أن امرأ مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان ملوما ، بل كان به جديرا » كما قال . .

ثم جمع غضبه كما لم يجمع به قط من قبل ، فثار على الزمن الذي جعله لقي بين أيديهم ، وعلى الصلة التي ربطته بهم ، وعلى هوانهم الذي سجل لهم سيرة في سجل الحوادث صحائفها سود ، ومدادها كنود وجحود ، ليس فيها على كثرة الأسطر إلا أحرف من المسكابة إذا التأمت ألفاظا فهي عصيان وتمرد ، وإذا جرت عبارات فهي تشاقل وتردد ، وإذا تكشفت دلالات فهي خور وجبن عن نصر الحق وحماية الحرمات . . .

يصيح بهم وكلماته التلهية كالشواظ تكاد تحرق أنفاسه :

« . . . قبعا لكم ورحا . . . صرتم غرضا يرمى . . . يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون . . . وينهى الله وترضون . . . إذا أمرتكم بالسير إليهم في الصيف ، قلتم : هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبح عنا الحر . . . وإذا

أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء ، قلت : هذه صبارة القمر أمهلنا ينسلخ عنا البرد .
كل هذا فرارا من الحر والقمر ؟ . فإذا كنتم من الحر والقمر تفرون ، فأنتم
والله من السيف أفر . . . »

ثم اخبرهم بنظرات ثاقبة حادة :

« يا أشباه الرجال ولا رجال ! لوددت أني لم أركم ، ولم أعرفكم معرفة
— والله — جرت ندما . . . قاتلكم الله . . . لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم
صدرى غيظا . . . وأفسدتم على رأيي بالمصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش :
إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . . . لله أبوهم ! ! وهل أحد
منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني ؟ . . . لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ،
وها أنذا قد ذرفت على الستين . ولكن . . . لا رأي لمن لا يطاع . . . »

وخلف مكانه وهو يطوح رأسه إلى الوراء ويهز كتفيه من برم ويأس ،
ويصفق كفا بكف من حسرة وأسف ، كأنما كان ينفذ عنهم عن كاهله ،
وينظف من أمرهم يديه . . .

لو تحدث الصمت عندئذ لكان أبلغ دلالة عنهم من الحسر . ولو تحرك
 لكان أشد نكاية فيهم من السيف . فالسكون الذى حاصرتهم به عبارات أمير
 المؤمنين لم يكن بغتة عى . ولا وجهة خزى . إنما كان صدمة ضربت عليهم الخزى
 والحواء ، وجردتهم بمرارة صراحتها الحادة ، من معالم الحياة فبدوا كتهائل ..
 على ملاحظهم الظاهرة ران الجود فى قلوبهم سرح الحزن . بضائهم عربد
 الندم .. وفى دحائلهم الخفية كان هذا كله يؤجج ثورة باطنة لأنفسهم على أنفسهم
 راحت تعمل كالبخار المكنوم ..

كانت الحسرة تنمش الصدور . وكان الشعور بالإثم يجرى فى الدم .. فما من
 ذنب إلا أورث صاحبه حسرة وإن لم تدم إلا كلمة خاطفة . وما من مذنب ،
 مهما غلظت أحاسيسه ، أو تحجرت مشاعره ، يستطيع أن يجتاز الحد الفاصل
 للفضيلة عن الرذيلة دون أن يحس باجتيازه ، ولا أن ينسى — بينه وبين نفسه —
 ما قد قارف من الإثم وإن هو حاول ، جهارا وعلانية ، أن يبرره أو يتناساه ..
 لكن الإقرار بالجرم ثقيل ثقيل على النفوس . كربه كربه إليها إلى ما فوق
 قمة الطاقة وجهد الاحتمال . . وخجل المرء من الخطأ الذى يرتكبه ، عادة يدفعه
 إلى محاولة إخفائه عن الميرون . ودأبما يحمله على تبريره إن هو كشف وشاع .
 وأحيانا يسرقه إلى العناد إصرارا وادعاء بأنه صواب . ونادرا ما يهديه إلى
 الاعتراف ! ..

وذاك ما جرت عليه الكوفة ، هذا اليوم ، بعد سماعها الخطاب .

واحد من رجالها ثقل عليه بفردده ما قد فرط من مواطنية ، شهورا عديدة
 متعاقبة ، فى حق أميرهم من التخاذل والعصيان ، فدفعه ندمه ، أو دفعته شجاعة
 الرأى وأمانة التعبير ، أن يجاهر بالإقرار بخطيئتهم ، ثم يسلم نفسه إلى التوبة . .

بقلب مكود ، وعين دامعة ، ونبرة مرتجفة من الأسى والحياء ، تقدم جندب
ابن عفيف الأزدي يقول للإمام :

— « يا أمير المؤمنين .. إني وأخي هذا كما قال الله تعالى : رب إني لا أملك
إلا نفسي وأخي .. فمرنا بأمرك ، فوالله انتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر
انفضا وشوك القناد .. »

فابتسم الإمام لجندب وأخيه عبد الرحمن بسمة حائلة اللون ، ندية الرضا
والتقدير ، وأجاب :

« وأين تقمان مما أريد ! .. »

ورد طرفه عنهما إلى الجمع الحاشد ، فإذا هم حينذاك كتلة من الوجوم
والشرود .. بلقع من الجود .. لكأنهم فراغ .. كأنهم من كثافة الصمت
ظلام وظلال .. كأنهم من خوائهم أطياف سراب .. فأما الأرض التي شغلوها
بقاماتهم ، فهي من قرط السكون الأجوف قد حاكت مقبرة موحشة ، ردوسهم
بها معالم اللعود ..

وهم أن يرجع عنهم ، كما جاء ، مطبق القم ، هابط القلب ، ثقیل الخطرات
يزحف على ضيق .. ولكنه رأى أن يراجع عزمه ، ويقهر رغبته ، ويعاودهم
-- مرة أخيرة -- بجرعة من الدواء ..

أشار إلى الحارث الأعور الحمداًني فهمس له . ثم انطلق بعد الحمسة يعود ..
وامثل الرجل الأمر فهب في الناس ، حين مبارحة الإمام ، ينادى
بصوته الجهير :

« أيها الناس ! .. أين من يشتري نفسه لربه ، ويبيع دنياء بآخرته ؟ ..
أين من يشتري .. »

وتكرر النداء .

وترددت أصداؤه في جنبات السكان إلى أبعاد ومسافات وجرس العبارات
يلازم خطوات العائد نبرة بحركة ، ومقطعا بوقع حتى بلغ على من البلدة منزله ،

وبلغت الدعوة من القوم الأسماع .

وعندئذ انثنى الحارث مخاطب مدعويه :

« . . . أيها الناس ! . . . أصبحوا غدا بالرحبة إن شاء الله . ولا يحضر
إلا صادق النية في السير معنا . والجهاد لعدونا . . . »

غير أن الغد الذي أقبل كان كالعائب عن النداء . . . فما استجاب سوى نفيرة
من القوم قليل نفذت الدعوة من أذانهم إلى قلوبهم ، فأمنوا بغايتها ، وبايعوا
لربهم ، وصدقوا العزم على الولاء والخروج للجهاد . . .

من الكوفة كلها انطلق إلى الرحبة ذلك الصباح دون الثلاثمائة من أهلها الجم
في عدة القتال . . . لو أنها كانت عند ذاك دعيت إلى نزهة لإزجاء فراغ ، لما بخلت
بعدد يفوق أولئك بضعة أضما . . . لو أنها خويلت بمرض تافه من عروض
الحياة ، وإن كان دراهم معدودة ، ولم تخايل بالجنة ، لحفت إلى ذلك العرض
بالآلاف . . . فأما والمهدف الآن الشرف ، والرحلة في الحق ، والغرض الله ،
فليس لها إلى المبادرة بالعمل سبيل . . .

وبمين ملؤها التمسك والازدراء ، طاف الإمام بالحفنة المائلة حياله ، يقيس
أبعادها نفرا ودلالة . ثم يصورها في نظرة وانية وهو يقول :

« لو كانوا ألفا . . . »

وما كان ألف يغنيه . ولا كان ضعفه أمثالا عدة ليفعل شيئا في لقاء حربي
شامل . ولكنه ، على أي حال ، العدد الذي قد يوصى — في أول أيام الإعداد
والتجهز — إلى عقد العزم وصدق النية ، ويبشر بسيل من الجند خليق بأن
يتدفق على الرحبة خلال أيام . . .

وأقبل عليه إذ ذاك بضعة من العلية وسادة الزمر يلقون بزخرف من القول
بين يديه ظاهره ولاء وطاعة وباطنه تمرد وثبوط . . . جاءوا إليه يخفون بألوان
من الحجاج شقي ، تبيحهم التخلف ، وتمنعهم السير للقتال وإنهم ليعلمون ، لاريب ،
أنها وسائل تمويه وتعلل ، حروفا اعتذار ومغزاه عسيان . . .

ولم يجد خيرا من أن يتلو فيهم من قول الله ما سلف أن تلا محمد في أمثالهم
من العصاة :
« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله
ورسوله . . . »

وامتد بعد هذا ترقبه الحشد المنتظر ..

أيام ثقيلة طويلة مرت عليه وهو ينتظر ، كلما طلع عليه منها يوم بما يحرك
الأمل ثلثه أيام بما يثير القنوط . فالتقوم ، فيما يلوح وكما اعتاد ، لا يأخذون الأمر
مأخذ الجد ، ولا يرون غضاضة في التثاقل والاسترخاء لأنهم لا يكادون يحسون
حقا في حقهم الذي دعاهم إلى النهوض فيه ، ولا باطلا في باطل عدوهم الذي
يريدهم القضاء عليه ، لفرط ما ألقوا من التخاذل والخور والاستكانة .. وهل
من حريجة على من ضمرت فيهم مضغة الحية ، ونضب نبع الاعتزاز ، وخذت
جذوة الضمير ؟ ..

وكذلك انطوت سلخة من عمر الإمام ، في هذه الآونة التي اختتمت عهده ،
كان فيها يتطلع ولا مطلع ، ويأمل ولا مأمول .. فالحلم مطبق عليه كالضباب
السكثيف يطمس المرأى ويكتم الأنفاس . والوقت ثقيل كالطود ، طويل كالدهر ،
ممتد كالأبد بغير انتهاء وإن لم يجاوز — بلغة الأرقام — أياما قليلة وساعات .
ومع ذلك فقد بدا الزمن عندئذ وقد اجتمع له الضدان : الحقة والثبات . فهو آنا
راسخ لا يسير حين يراوده الرجاء في غد يبرز عليه بحال سوى الحال . وهو
عادة خفيف يطير ، يتسرب من بين أصابعه كالماء ، أو ينبخر في الهواء . وفرص
الحسم تفلت تباعا منه ومن العراق الشهر بعد الشهر ، واليوم في إثر اليوم ..

ولم يطاوعه صبره على مغالبة ضيقه ، ولا تماسكه على كتم حزنه ، فاكتمى
عجاء السأم ، وملا قلبه الغم ، وشرق حلقه بالمرارة .. ولكنه نشط ، مع كل
ما يعانى ، إلى القوم لعله أن يبلغ منهم الساعة ما لم يبلغ في الليالي الطوال . وراح
يبث فيهم دعائه ليجتمعوا له ، ويسمعوا منه صيحة النذير الأخير ..
والتأمت حوله كثرة منهم ذلك النهار من شتاء عام خلافته الخامس ، والجو

يومذاك قر ، والهواء من برودته له في الأجساد وخز الإبر ، وعلى السماء من
جهامة الغيوم كمثل الكتابة التي تغشى عيانه .. فما أن أصغوا له ، حتى وقف يلقي
إليهم بما بقي في وفاض أحاديثه الذي استترقوه ! ..

خطبهم فكان من خطابه أن قرنهم بالأنصار عند البعثة النبوية وإن جاوز
العدد العدد ، وخالف الفعل الفعل ، وجرى القرينان في صحائف التاريخ وهما
ضدان ! ..

قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، فوالله لأهل مصركم في الأمصار أكثر
من الأنصار في العرب وما كانوا يوم أعطوا رسول الله أن ينعوه ومن معه من
المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين ، قريبا مولدهما ، ما هما بأقدم العرب
ميلاداً ، ولا بأكثرهم عدداً ، فلما آووا النبي وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ،
رمتهم العرب عن قوس واحدة .. تحالفت عليهم اليهود . وغزتهم القبائل قبيلة
بعد قبيلة . فتجردوا لنصرة دين الله ، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل ،
وما بينهم وبين اليهود من الحلف . ونصبوا لأهل نجد وتهمامة ، وأهل مكة
واليمامة ، وأهل الحزن والسهل . وأقاموا قناة الدين ، وصبروا تحت حماس
الجلاد ، حتى دانت لرسول الله العرب »

وأضاف مؤكداً أن بأيديهم الآن من الحول ما لم يكن لأقرانهم أولاء :
« وأنتم اليوم في الناس أكثر من أولئك ، ذلك الزمان ،
في العرب »

فمن عجب أن ييؤء بالاعتراض والمراجعة بمثل هذا الحديث الذي يكشف للقوم
عن بعض موطن القوة فيهم ، فيندفع أحدهم — بمادة المكابرة والجدال المعروفة
عنهم — يفترض ، ويقول :

« ما أنت بمحمد . ولا نحن بأولئك ! .. »
فغضب على لحق الرجل ، وصاح يزجره :

« أحسن مما تحسن إجابة ١ . »

ثم وجه إلى الجمع لومه .

« . . . تكلمتم الثواكل ١ . ما تزيدوني إلا غما . . . وهل أخبرتكم
أنى عهد ، وأنكم الأنصار ؟ . . . إنما ضربت لكم مثلاً . وإنما أرجو أن تتأسوا
بم ٠٠ »

وكأنما حلت هذه المقابلة بين أمس واليوم عقدة الألسنة ، فانخرط القوم
في نقاش متشعب مضى بأحاديثهم أفانين شق . منهم من يقارن . ومنهم من يفارق .
ومنهم من يستعيد من الأمثلة والذكريات ما يؤيد جانباً أو يخالف آخر ، وكلهم
مع هذا يوشك ألا يلقف أنفاسه حتى تشابكت الأصوات ، وعزقت العبارات
ألفاظاً ومقاطع وحروفاً متناثرة تداخل بعضها في بعض فغدت ضوضاء لا تكاد
تنقل إلى سمع السامع غير الإبهام ١ .

ومن بين سورة هذا التشويش ، انطلق صوت عال يحاول أن يرتفع فوق
الضجيج :

« ما أحوج أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النهران ١ . »

وكانت القوة ، بلا ريب ، الماحة إلى حقيقة تلقى على قائلها والذين معه — من
حيث لم يشأ ولم يريدوا — ظلالاً كثيفة من الاتهام . فهي ترميهم بتفريق الرأي ،
واختلال النظام . وهي تدمعهم بالثبوت والتثاقل . وهي تدينهم بالافتقار إلى الجدة
وإلى سرعة البت في الأمور ، وكلها — مهما اختلفت النظرات — صفات لم يكن
عليها الخوارج الذين كانوا أرباب صلابة وحسم وعزيمة ما كان أجداها على أهل
الكوفة في هذا المقام . .

وتزايدت الحمسات والهمهمات . ونمت الضوضاء . وخيم اللفظ على أفقهم
كأنما انعقد فوق رؤوسهم سحابة ١ . . . وصرخ رجل من بين الجمع بأعلى صوته
وقد أثاره الضجيج :

« استبان فقد الأشر على أهل العراق . . . أشهد لو كان حيا لقل اللفظ .
ولعلم كل امرئ ما يقول . . »

هنا بلغ الضيق بعلى غاية فزار غاضبا يصيح بالناس :

« هيلتكم الهوايل . . . أنا أوجب عليكم حقا من الأشر وهل للأشر
عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم . . »

فسرعان ما ذر غضبه الهيبة في الأعين ، والأسف في الصدور ، فقاء القوم
من اللغو إلى الجد ، ومن العبث إلى الرزاة . وأخذ اللفظ المنتشر فيهم ينحسر ،
رويدا رويدا ، عن المكان حتى ذابت الضوضاء في السكون . .

وطى الأثر خف حجر بن عدى الكندى ، وسعيد بن قيس الهمداني إلى
الإمام يزجيان إليه معذرة الجموع ، ويمرسان باسمها ، عليه الامتثال والخضوع .
قال أحدهما :

« لا يسوءك الله ، يا أمير المؤمنين . . مرنا بأمرك ندبته . . »

وأردف الآخر :

« مرنا ، فوالله ما نعظم جزعا على أموالنا إن فقدت ، ولا على عشارنا إن
قلت في طاعتك . . »

وبدا كتهما وبعن حولهما الندم على ما فرطوا في حقه . . وبانت الرغبة جلية
في استعادة ثقته التي بددتها الأيام ، في كل لحظة عين ، وكل همسة لسان ، وكل
حركة جارحة ندت عن الحشد المائل جموعا وأفرادا ، أصحاب زعامة أو من عرض
الجمهور ، حتى لقد رد الإمام في هدوء :

« تجهزوا للسير إلى عدونا . . »

وغادرهم ومعهم التوبة ، ومعهم الرضاء . .

غير أن أمسية يومهم هذا لم تمر إلا وقد شهدت قادة الرأي وشيوخ العشائر
في لقاء مع على بداره . . توافدوا عليه مؤكدين الولاء ، موثقين العهد ، يعلنون

عزمهم على الجهاد . . فلما أن أيقن منهم ، هذه المرة ، الجد وصدق النية ، عقد مجلس حرب راح يقاب وإياه وجوه الرأى فى الموقف ، ويناقدش الظروف والأوضاع ، بلوغا إلى أمثل طرائق إحراز النصر . .

وانتهى الإمام ، بعد للدارسة والمشاورة ، إلى قرار . .
قال لأصحابه المجتمعين :

« أشيروا على رجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . . »

لم ير الآن أن يدع مهمة حشد المقاومة ، وأسلوب الإعداد ، كسابق العهد إلى كتب منه يبعث بها إلى عماله . بل أراد أن يضع الأمر بين يدى رجل واحد ، أمين كفء ، يهابه أهل العراق ، ويسمعون له ، ويؤمنون بأقناده .

وتفكر الجمع مليا ، ثم قال سعيد :

« أشير عليك ، يا أمير المؤمنين ، بالناصح الأريب الشجاع الصليب :

معقل بن قيس »

فاقتضى الإمام الاختيار :

« نعم . »

ووجه الرجل من فوره .

فإن تكن السكوفة ذاقت الندم ، ليلتها تلك ، فلعل كثرة فيها نامت قريرة بين ذراعى الشمور بالعزة ، لأول مرة منذ يوم صفين . . وإن تكن شهدت فسهرت إلى مطلع الفجر ، فشاغلها عن الوسن إذن حديث موصول عن القديس القريب لم تهدأ عنه الأفواء ولا فرغت منه الأصماع . . فالحرب كانت على كافة الشفاه . . والحجاسة والرهبة تنازعتا القلوب : من ناشطة وثابطة ، وراسخة ومذعورة . . واللقاء الحاسم المنتظر كادت تطير به أشواق المنتهزين وأحداش المتخاذلين غدوة وروحة ، وأوبة وجيئة من أرض الوقعة المجهولة إلى مهاد الأحلام . .

أما الإمام فعساء قد بات ردها من الليل غير قصير وهو يسبح بفكره بين

أمس واليوم ، بين حديث ليلته وأحاديث ما قبلها من الأمسيات ، فلا يملك إلا أن يتأرجح بهذه المقابلة الفكرية بين اليقين والشك ، وبين التصديق والإنكار تجاه ما ظهر بالاجتماع من متابعة وطاعة وانصياع . . . أقدم صدقه قومه النية ، حقا ، بعد روغان ؟ . أخلصوا له الولاء بعد خذلان . . . أم هي فورة حمية عارضة ان تلبث أن تنفى — تماما كالزبد : هيئة تهول وجوهر جفاء ؟ . . . أم مهاودة هي . أم مخائلة ، أم رياء ؟ . . .

ما كان عجبا أن يقابل بين سلوكهم الماضي وسلوكهم الحاضر . . . وأن يتساءل إذ يقابل . وأن يحذر كما يطمئن ، ويتشأم كما يتفاءل . . . وإذا كان قد بدا لهم ، وهم يرحلون داره أمسياتهم هذه ، أن جأشه هدا ، وباله قر ، وقلق الأشهر الثقيلة الماضيات استحال في فؤاده طمأنينة ، فتلك نظرة منهم لم تسبر بعد غوره ، ولم تبلغ مد بصره . . . اسكن فيهم . بلا ريب ، طائفة حسبت جلستهم الأخيرة قد انتزعت له من الزمن أمنية عمره . وخالت الأيام القلائل المقبلة آتية له ، لا محالة ، بلحظة دانية ، يذل فيها جند الشيطان لجند الله ، فتتكسر شوكة الباطل ، وترتفع واية الحق ، وتعمو آية النور آية الظلام . . .

وامتضاء عحياء بلحظة سلام . . .

قدر القوم أم شاءوا لسوف تجرى بغير مشيئتهم الأقدار . . .
وابتسم .

فثمة لقاء غير هذا اللقاء الحربي ، الذي تخايلهم به الظنون والأحداث . . .
ثمة قبله لقاء مودة كان بينه وبين رسول الله تبينت له فيه الخفايا ، وتكشفت الحجب ، وتجلت الأسرار . . .

ثمة عند أفق الغيب فاجعة مروعة ، ونهاية حزينة .

ثمة هامة مفلوقة ، ولحمة مخضوبة ، وقطرات دم مهراق ستنتظم سطورا
حمرات تسجل الختام . . .

الفصل الثاني

إلى هدفهم نشط معقل .

لم يبدأ ظله . . . كان يمرق كالسيف . يطوى للمراحل كأنه نظرة . يعبر
التخوم كأنه طيف . . في النور سار يرتاد الليل ، وفي الليل أسرى ينشد النور .
ومن الخصب ، إلى الجذب ، إلى حيثما شام نصيرا قادرا أن يحمل السلاح ، كانت
لهفة الشوق تسبق خطواته إلى فجر النصر .

الخلص الأوفياء من أصحابه ، رجال الإمام ، عاشوا حياتهم ، أيام رحلته ، بوقع
أقدامه كأنما كانت خطاه لقلوبهم الواجبة نبضات . . ولا غرو . . فالأمل معه .
والخشود العبادة في عدة القتال توشك أن تكون ملء الأحلام . والعمل الجاد
ينتظر عودته من السواد . وإذا كانت الغاية المرتجاة قد تجلت تخايل الظنون
والعيون ، فما أصلب المهم ، وما أنسب الوقت ، وما أيسر الانطلاق . . وما دام
أفق الأحداث قد أطلع الآن لهم فرجة تبهث ضياء على مواطنهم يؤمن السير ،
فهذا الشماع الندي بشير إذن بالشروق .

لا تردد الآن .

فمن خلال النقاش الذي دار بينهم بمنزل أمير المؤمنين ، تحدث الأسف فأفصح ،
وتكلمت التوبة فأبانت ، ودبر العزم فأبرم . معقل استشمر ، كرفاقه ، في الصدور
الثقة ، وقرأ على الوجوه التصميم . من كل فرد شهد ذلك المجلس ، تبين الندم
على ما فات . رأى هدى بعد غي ، وهمة بعد ثبوت ، وصلاية بعد استرخاء . وهذه
الرغبة في تغيير واقعهم الحامل التي صورتها العبارات اللتبية ، وجسدتها لللامح
المشدودة ، أنبأت عن نزوع مشوق إلى الجدد الصارم ، وحماسة متحفزة لقاء
الحاسم الأخير ، يؤكد كلاهما انقياد رأيهم على صدق إولاء ، وقوة الإرادة ،
والثبات في القتال ، والصبر إلى الظفر أو إلى الموت .

الآن استبانّت النيات . عُرفت الوجهة ووضحت المعالم . خلصت الأنفس من الحور فنفضت التواكل . تجردت القلوب من الهوى ففادت إلى الحق ، ومن الخوف فارتبطت بالله . لاح أعوان الإمام وقد أجمعوا على الطاعة ، وفي الطاعة اتساق التفكير . ومن اتساقه وحدة كلمة ، ووحدة أسلوب ، ووحدة تنفيذ لا تستقيم بدونها الأمور .

غير أن البصيص المنبعث إليهم من خلال فرجة الظروف كان كاللاهث
واهذا يترشح كأنما من إعياء ذابلا يتأرجح كأنما من دوار شاحبا كأنما انبهرت أنفاسه كان يتلمس آونه في تردد ، ويزحف أخرى على تشاقل .
يقسل في خشية ليتواري من استعياء نادرا كان يتوهج . أحيانا كان يومض .
غالبا كان يختنق بين الغيوم .

وكيف لا ؟ وما تلك إلا معالم لا تقوت الأمل ، وحقائق تطفر على الجدل والإنكار فالوضع القائم ، بكافة جوانبه السياسية والاجتماعية ، مهتز مائع .
والمواقف التي تعترض سبيل التغيير ليست قليلة . وحيط المبادرة إلى العمل الناجح متسكث ، بل هو ضائع من الأصابع . والظلمة المنتشرة حول البلاد والعباد ، وعلى البصائر والأخلاق ، كسف تملو كسفا ، وأطباق فوق أطباق .

تل من المشكلات ١

ركام هائل من رواسب الماضي وأخطائه تجمع طوال السنوات الأربع النفضية ، عسير الآن كل العسر على الفئة الأمينة المناهضة للركود ، للتوثية للتغيير ، أن تزيجه أو تفتته ، أو تحترق كتلته الصماء الصلبة لتنفذ منه إلى المستقبل المضيء كان عقبة ضخمة دون روع التمرد ، وكسر شوكة الانقسام رأبا للشدخ الذي فتحته الأهواء في جدار الوحدة الإسلامية وشطرت به الشعب شطرين . كان قوة ضاغطة أو معرقة ، لطاقت الفكر ، وقدرات الإنجاز تحاول وأدها وكنتم حركتها كلما همت بالظهور ، أو تمثيرها وشدها إلى الوراء كلما همت بالانطلاق كان

صداء نيعا حديديا أمام تقدم العمل القومى الذى يتوق إلى إقامة مجتمع سليم على قواعد من قيم الإسلام ، ودولة قوية على أسس من وحدة النظام . .

وتتعدد بالارباب مظاهير الأمراض والأسقام التى دنت فى جسد الأمة الإسلامية الناشئة تميث فيه ، وتشيع بنسجه الجديد الجروح والقروح . وتتعدد أيضا الأسباب والعوامل الباعثة لكل هذه الملل والأدواء . . ومع ذلك فما من داء ، مهما كان — كراسى الفئة المتطلعة إلى الإصلاح بين صفوف الإمام — يعضل أمره على العلاج . وما من دواء إلا أنمر وحقى الشفاء إن هو كان وليد وصفة بارعة ، وجاء فى أوانه ، ثم اقتحم على الملة وكرها قبل الاستفحال . وإذا تسكّرت الأمراض على عليل ، وأخذته نهكها ، كان أوّل الأدوية فيها وأشدّها خطرا عليه من سواه ، هو الأولى قبلها ببراعة الطبيب ، وأحقها بالمداداة . .

بهذه النظرة كانت الشام ، بوضعها ذاك ، علة الملل وآفة الآفات . فهى تمثل فكرة الانفصال عن الدولة الأم ، وتكاد توحى بها لغيرها من الولايات . وهى رائدة التمرد على سلطة الحكم الشرعى ، وموقدة ناره خارج حدودها الإقليمية فى كل مكان ماوسعها أن توفد أو أن تقود . وهى بخروجها على النظام العام شاغل للدولة أى شاغل أن تفرغ للعناية بأحوال الشعب حق العناية . وهى بموقعها الجغرافى المتطرف ، حائل دون ولى الأمر المسئول والدين معه من دعاة الإيعان أن ينفذوا سياستهم العقيدية بنشر الإسلام فيما يجاوز تخوم هذه الولاية « الأموية » من أرض الروم . وهى بعد هذا وقبله ، بؤرة الأضواء الدائية والطامع الشخصية التى تستعبد الأنفس امروض الدنيا وذخارف الحياة ، وتستذل القلوب المغريات والمغويات فتوسع الطفرة بينها وبين الله !

بغير الحق استعكم سلطان الشام . وبغير سيرة الإسلام سار فى الناس وساس . وإذا كانت شعائر الدين وطقوسه بقيت هنالك قائمة لا تهدر ، ومناكب العبادات وصورها ظلت فى إطارها للألوف من مظاهر التقدير ، فليس الدين ،

في حقيقته ، مجرد قشرة أو طلاء . ليس مجرد شمائر وطقوس ، وحركات وإطارات ، بقدر ما هو قيم ومبادئ وأسس ، تنسق معا ، وتؤلف بانساقها خطة سلوكية متكاملة تربط علاقة الإنسان بالله بعلاقة الإنسان بالإنسان في خيط واحد هو الإيمان .

ومن البين أن معاوية بن أبي سفيان قد حاول ، طوال سنوات عمله على الشام — إبان خلافة الإمام ، وقبلها على السواء — أن يتألف حوله الأهواء ، ويحتذب الرغبات ، عسى أن يضيف بها إلى نفعه نفرا ، وإلى قوته قوة ، وإلى فترة حكمه للموقوتة بها قليلا أو كثيرا من الأعوام . ومن البين أيضا أنه استطاع ، مع الأيام ، أن يحنى ثمار محاولته ويضم إلى وجاره كل متطلع لنفع ، راغب في حظوة ، مقتون بنفوذ . .

ولا يكاد يجاوز الواقع إلى بعيد أو إلى قريب أن يقال إن عاهل بني أمية قد غدا ، بطريقته « الأموية » تلك ، وهو قبلة للنهازين ذوى الأطماع ، يحطون عندها الرجال ، ليوقدوا الشموع ، ويحرقوا البخور ، إن لم يعفروا في ترابها الجباه . . ولا مغالاة أيضا أن يقال إن الشام غدت عندئذ ، بصاحبها ، وهي سوق كبيرة للرق « الخلقى » تروج فيها تجارة القدم ، وتؤمها قوافل « عبيد » الأوطار مقبلة عليها من كل صوب ، لتعرض بها سلعها الآدمية ، وتبيها نفوسا وشمائر ، مثقالا بدرهم ، وقنطارا بدينار . .

ولم يعرف قط عن الرجل ، وهو يسمى لاحتياز السلطان ، أنه كان — في انطلاقه إلى هدفه — يتعرج أن تنصرف به وسائله عن جادة السلوك السوى أو تحرق شرعة السجايا الكريمة مادام الانحراف والحرق كلاهما أو أحدهما مبلغه وطره . . فالوسائل كلها مطايا . وللطايا جميعها نظائر وأشياء . أى وسيلة كأي وسيلة . وكل أسلوب ككل أسلوب . السوى للشروع من الفعال والأقوال كالملتوى والمنوع . والنظيف للألوف كالمرتب والغريب . والمقبول كالردود . فالعبرة عنده بالنتائج لا بالمسالك ولا بالمقدمات . والنتائج هي التي تبرر

الذرائع وتقر الأسباب . . فسواء لديه إن هو اعتلى الحف ، أو ركب الحافر ،
أو انساب على ذات شراع . . سواء ، في شرعه ، عدل أم ظلم ، صدق أم مان ،
أوفى أم خان سواء كل المطايا والمراكب ، وكل المثاب والمناقب ، وكل
الدروب والطرق ، ما أمن أن يبلغ من خلال أيها أغراضه .

العصى على معاوية بن أبي سفيان — سليقة وطبيعة — كان أن ينطلق إلى
هدف له على خطة مستقيمة ونهج سليم ، فيصارح ويواجه ويحابه ثم يعصى بغير
التواء . واليسير أن يسير إلى ذلك الهدف ويراوح وهو يبدو كمن لا يبتغيه ، فيمويه
ويلتف كما يفعل ثعبان . تلك طاقة خلائقه التي ركزت فيه وادعى بها أصحابه له
الدهاء ، وبعد النظرة ، وحسن السياسة ، وسعة الحيلة وما إلى مثيلاتها من
قدرات ثم تابعهم كثيرون ، يومئذ وإلى الآن ، على نفس الادعاء . ولو أنهم
تعمقوا دوافعه وسببوا طباعه ، وعايروا ملكاته بعميار عدل لبدلوه صورة
بصورة ، وأوصافا بأوصاف . ولو رسموا خفايا النزعات التي جسدت سلوكه ،
لقطعت الدلالات بتغيير أسماء هذه الملكات ، ولما أعبي الكثرة ولا القلة منهم أن
يصفوا العاهل الأموي — منصفين غير متعجنين — بما هو أهله من نقائص
ما أسبغوا عليه من نعمت وصفات .

ولا حرج هنا على الواصف كما لاحيلة للموصوف . فلم يكن ابن أبي سفيان
إلا ابن أبي سفيان . . . لم يكن إلا نفسه . . . فما كان مستطيعا ارتضاء الخروج
من جلده ليشق سبيله مستقيمة معتدلة إلى ما يريد . ما كان أعسر على طبيعته ،
وعلى اقتداره كذلك ، أن يعيش غير حياته . أن يتخير غير أساليبه . أن يقصر
سميه على الطرائق الأمينة . أن يلاقى غريعه وجها لوجه ، لقاء الأنداد الأكفاء ،
والخصوم الشرفاء في ساحة وغى أو في معرض جدال . .

ولقد أنبأت عن كل هذا الأحداث . .

فطوال السنوات الأربع الأخيرة ، التي قضاها في اختلافه على الإمام ، كان
معاوية — في صراعه على السطة — كمن يقدم رجلا لبوخر الثانية . كالواقف

السائر . كالمتحرك في فراغ . . . كان يقارب ولا يقترب . يشاغب ولا يحارب .
يطرق ويوالي الطرق ولسكنه لا يقتحم الباب . ومن خلال معالم سلوكه ، كانت
النظرة للتأمل لا يفوتها أن تراه يأمل في العدو وهو مشفق منه . ويتطلع إلى
المستقبل وهو ينتظره ولا يسمى إليه . كان كأنما يروم أمرا يقع في نطاق أحلامه
ثم يملو فوق قمة احتماله . ويهتمو إلى نصر يعلم أنه لا يظهر إلا في رؤى خياله .
فأما محاولاته العدائية التي سخر لها نفسه وحزبه ، جهده وكيد ، سله وشغفه ،
فلم يكن بطمع — بعد درس صفين — أن تصبح فيصل النزاع بين علي وبينه ،
فتحيته بالنصر ، بقدر ما كان يتخذها وسيلة لإيهام الناس بندية لفرعه ، ثم يتفوقه
عليه ، ثم باقتداره ، لا محالة ذات يوم مقبل ، على تحقيق أطباعه العريضة
بأحراز النصر .

لعب معاوية بسلاح عصره ! .

لكي يبدو الرجل وهو الأقدر ، كان عليه أن يبسط كفه فلا يقبضها ، وأن
يشهر سيفه فلا يغمده .

كان هذا هو منطق الأوضاع .

ففي زمان « انقلابي » كزمانه ، أخذت النفوس فيه تتعرف عن الجادة ،
المثل الروحية تنهافت ، القيم تنكس ، الجباه تعنوا للدنيا ، والقلوب تبتعد عن
الله ، لا يكاد فصل الخطاب يصبح لغير المادة في نظرة الجماهرة الكبرى من
الناس ، وعند وزن المزايا وتقدير الأشخاص . للمادة وحدها ، محنة في دعامق
القوة : السيف والمال .

وقد أتقن معاوية ، حقا ، استخدام هذا السلاح ، أو هو أتقن كل الإتيان
« المناورة » به إذا ما تحدثنا بأغة الألاعيب والحيل ، وقسنا الوسائل والغايات
بذلك المقياس . .

بالسيف ، بمشوقا ، خايل العاهل الأمـسوى معاصريه ، أولياء وأعداء ،
ليخطف إليه نظرات عيونهم بوهج الشفرة المصقولة ، فلا يرى أحد في الحلبة سواه .
وبالمال ، مبدورا ، اشترى النفوس ..

وبهما معا اجتمع له — بمقياس زمانه — شرف البطولة الحربية ، وشرف
السخاء والأريحية ، ولا شأ فوقهما لطاب شهرة ، أو لساع لسلطان .

تفد معاوية إلى غريمه من خلال « المآذيات »

واستعدي عليه القرائز والشهوات ، والأهوال والخاوف ، والرغبات
والأطماع ..

وكان « بارعا » في النفاذ « بارعا » في الاستعداد

حين نعرض — بمخاطبة — لأعماله أثناء عام الصراع الأخير ، نراها سلسلة متصلة الحلقات من التمرد ، تهدف بدوا ونهاية إلى الإيهام بأنه ، في مجال ذلك الصراع ، هو الأقدر الأنفع ، الأدنى إلى النصر ، الأقوى على الأمر ، الأولى بولاية الناس ..

ولا نغنى بهذا أن غاراته الحربية وحدها — كما في عرف كثيرين — هي التي دفعت به إلى مكان الصدارة ، وهيأت له ، في خواطرهم ، أسباب الترجيح .
ولسكننا نغنى أنه أخرج كل ما يجعبته . لعب بكل ما في يديه . ناور بكل أساليبه التي يدخلها أنصاره في نطاق الدهاء والحذق ، ويضعها من عدام في صفوف الاحتيال والترزيف ..

على أى حال ، بدت فعالة آنذاك كلعبة سياسية ماهرة ، متقنة الإعداد ، متسقة الخطوات ، مضمونة الغاية بما انبنت عليه من جهود محشودة ، وانطوى فيها من مكر ذكي ، وزودت به من توقيت محسوب ، إلى جوار إحكام الربط — في مجال تنفيذها — بين الدقائق والجزئيات بما يحقق انتظام التحرك ، وتماكب المراحل في تسلسل منطقي وموضوعي سليم إن لم يؤد بصاحب اللعبة إلى النجاح ، فهو مؤد ، لا محالة إلى اقتناع الناس بمجاريته بالنجاح ، ثم بختمية وصوله ، مع الأيام ، إلى النجاح ..

مناورة بارعة ، بغير مرأ ..

بارعة في حساب « الوصولية » التي تستبيح ما لا يستباح ..

وبارعة في اعتبار « السياسة » بمفهوم أحدث اصطلاح ..

أو هي بارعة بمفهوم « المكيا فيلية » التي وضغ معاوية أسسها ، وأرسى قواعدها ، قبل أن يخرج إلى الوجود ، بعدة قرون ، أبوها « غير الشرعى » الذي تنسب إليه الآن ..

ولا غلواء ..

فها هو صاحب الشام ينتهج إلى غرضه أى سبيل وإن أهدر فيه كرامة الإنسان والإنسانية ، وامتنع مبادئ الأخلاق ، وتسكر لـكل شريف من تقاليد الحرب والسلام ..

يرسل جنوده لتغير على أطراف غريته فتعصد الأرواح ، وتنشر الخراب ، وتنهب المال ، وتفتك الحرمات ، فلا يكون قصاراها إلا ترويع الأمانة الأبرياء ، وقتل العزل من السلاح بغير ضرورة قتالية ، ودون إعلان حرب على خلاف ما جرت به شرائع القتال المرعية في ذلك الأوان .

ويستميل إلى جانبه رجالا من عليـة القوم من أعوان على ، أو من معتزلة الحلاف المشيـوب بين حزبه وحزب العراق فإذا هو — حين يستميلهم — إنما ينصر المثاب على المناقب ، ويسود النقائص على المكارم ، لأنه لا يبلغ أربه إلا في عبيد المآرب ، ولا يبلغه فيهم إلا من خلال أوضاع الحلال ، وبإحياء العصبية ، وإنعاش الغرائز ، وإضراء الشهوات .

ويكيد لمن يناهضونه ولا يتبعون سبيله من قادة الرأى وذوى النفوذ في الأمة الإسلامية ، فلا يتعرج ، وهو يرم كيده ، عن « ابتداع » الأخبار ، وقلب الحقائق ، وتزييف الوقائع ، ونشر الشبهات والأكاذيب .

حلقات من الأساليب وحلقات ، تواترت في سلسلة طويلة من أفاعيل معاوية عام الصراع الأخير ، ما نراه كان يرمى بها ، حين أطلق أجناده ، أن يغزو أرضنا لئملك ، ويحارب جدا لينتصر . وحين ألقى دعاواه ، أن يدحض باطلا بحق ، ويعمو خطأ بصواب ، ليقنع اللاتذنين بغير ظلاله باستقامة نهجه ، وشرف مقصده ، وعدالة مسماه ..

كلا ..

بل هو قد فعل ليحمل الناس ، شاهدتهم وغائبهم ، دانيهم وناثيهم ، على الاقتناع بأن أبي سفيان وابن أبي طالب سيان . ندان في ميدان ..

ثم فعل ليبدو في الميون والحواطر البطل الجلد والحصم العنيد ، الأصبر من غريء ، على موالاة النضال ، الأثبت في مواقع القتال ..

ثم فعل ليعلم من لم يعلم أنه الأخلق بالنصرة ، الأحق بالتأييد ، لأنه قبله كل قاصد ، وملاذ كل لاجئ ، ورجاء كل راج ، يأمن في رحابه الخائف ، ويعز المستمين ، ويفخر النصير والمعين ..

ثم فعل ليروه أولى سائس في الدولة المريضة بسياسة الأمور ، وأقدر ربان على قيادة السفينة إلى شاطئ الأمان ..

ثم فعل ، أخيرا ، فعل المتفضل ، الذي لا يبخل بالجور على صالحه الخاص فينزل عن بعض ما يملك لمن لا يملك ، ويسخو ببعض حقه المضمون على خصمه المضيع من أجل حقن الدماء ، وإناءة السلام ..

تلك مراحل من المسكر الحبيث ، سلكها معاوية في خيط واحد في أخريات عهد الإمام أعدها بعهارة ، ونظمها بحذق ، ومارسها باقتدار . لبسها التمويه لتجوز على الناس ، فإذا هي تجوز آنذاك لأنها جاءت في أوان طغيان المظاهر على القيم ، وطوفان الزخارف على اللباب ، وغلبة المادة على الروح . وإذا هي تجوز إلى الآن على كل من يتخطف المعالم ولا يتعمق الأغوار ، ويهره بريق القشرة فلا يجاوزها إلى ما تغشى من الحقائق الخفية المسترة من الخدع والأكاذيب بألف ستار وستار .

ونجح الماهل المخادع حيث كان ينبغي له أن يخيب إذا ما عويرت وسائله بعميار الحق والفضيلة . وفشل غريعه الأمين حيث كان ينبغي أن ينجح لولا نكسة القيم وتهافت الأخلاق .

كانت غارات الشام — مع تردد العراق عن مقابلتها بالرد الرادع — أكتف
أفئدة البطولة الأموية التي نقب بها معاوية بحياء لتخفى عن الناس بعض ملامحه
الحقيقية المهزوزة ، وتبرز لهم منه الصورة الأسطورية البراقة التي عمل طويلا على
تلوينها لتلفت إليه الأنظار . .. كانت أقوى وسائله لاجتذاب الإعجاب .. كانت
أبلغ حججه ، وأدمغ براهينه لنشر الإقناع ..

ونجحت الحيلة فيما أراد لها صاحب الحيلة بأيسر الجهود ، وأبغض الأتقان .
فقد لعبت تلكم الغارات الوحشية دورها المرجو ببراعة ، كاملا متعدد
الشعب والأفانين ، متقنا مضمون النتائج والغايات .

وهي سيف إرهاب .

وهي مورد مال .

وهي عنوان بأس .

وهي مطية اشتهار .

وهي ، بهذا وأمثاله من ميزاتها وخصائصها ، مجلبة رعية ، ومصيدة أنصار . ..
ولا غرابة . لأن العرق النافر ، والمضلة المشدودة ، والصيحة المدوية ،
وغيرها من معالم العنف والبطش والتجبر ، خليق بها أن تبدو للمواطن البشرية
الفريرة كأنها دلالات تفوق وقوة ، أسرع إلى إثارة عجب الأنفس وإعجابها ،
وأقدر على استمالتها وكسبها من سماحة الحق التي تتحدث ، عادة ، إلى العقول
بالجرس المهادي الذي لا يعرف الضجيج ، وباللنطق الرصين الذي لا يعرف
التهويل ..

فتلك طبيعة الطبول .

ومع أن معاوية قد استطاع بهذه الغارات أن يلبس غير ثوبه ، ويجاوز مدهاء في الاقتدار .. وأن يرتاد الأرض « العلوية » من الشمال للجنوب ، يظاً منها ويقتسم ما شاء متى شاء .. وأن يغصب أهلها العزل الأمن والراحة والمال ثم يتخذ بعضهم رعية مواليين بعد أن يحملهم الرعب الزاحف ، في ركاب قوائمه المغيرة على هجرة الوطن والأهل ليأذا بإقليمه القدي لم تحاول قط أن تنوشه جنود العراق ، وقراراً من بطشه الضاري إليه ا .. مع هذا كله فقد ظل الرجل المستأسد وفي نفسه من الإمام شيء لم يشفه منه تلاحق ضربانه ، وشدة سطواته ، وما حققت له غاراته الإرهابية المدمرة في حومة الكر من « نصر » وفي أعين الجماهير من تقدير ..

فما نحال ، كان يخرج كبرياء ابن أبي سفيان — وهو يجهد جهده ليدو الند الكف للإمام — أن يحس بافتقاره إلى مثل حنكة غريه الحرية في مجال قيادة الجيوش بساحات القتال ، وإلى مثل شجاعته البطولية التي برزت كل ما عرف من شجاعة الأبطال عبر التاريخ ، في الغابر وفي الحال .. فلمله معنى بكل قلبه لو أنه مائل علياً في هذا الميدان ، وعادله بنفس لليزان ، فإذا هو لا يبلغ بأمنيته هذه غير حلم حلم ، ووم محوم ا .. وأمله طمع أن يقع لنفسه — ولو في أحاديث خلصائه — على كلمة تتم عن عمره بالحرب ، وقوة جأشه عند اللقاء ، فإذا هو لا يقع بطموحه ذاك ، على حرف واحد من حروف الكلمة للرتجاء يقرنونه بسيرته وإنهم في سيرة غريه ، في هذا المضمار ، لينشئون الطوال وينظمون القصار ا ..

إلى القدرة القيادية في حومة الوغى ، وإلى ثبات الجنان عند الالتحام ، كان الرجل يقتقر بعض افتقار أو عساه كان يقتقر أشد افتقار ا .. وبمحصيلته المقدورة من كليهما كان عليه محالاً من المحال أن يطاول الإمام .. فما خاض على بن أبي طالب معركة قط ، منذ صباه ، إلا شق لنفسه طريقاً في أعدائه بسن حسامه ، ومشى إلى النصر على جماجم خصومه . ولا صاول قط ، في موقع نزال ، فارساً له في سجل الفروسية مآثر ، إلا صرعه وجرعه حتفه ..

بهذا وهذا تحدث عنه إلى عالم البطولة منطق الوقائع كما تحدث إقرار
الأشخاص .. وإذا كان عاهل الشام قد نجح بجلبه في صفين ، فبغير شجاعته ،
وبغير حنكته الحربية كانت حينذاك نجاته ، وإنما بالجبن ثم بخدعة التحكم . وإذا
كان قد طالما نعم في ذلك الأوان بثناء الأعوان والبطانة ، فقد كان يعلم أنه الثناء
الذي لا يستطيع أن ينفض عنه إحساسه بالمهانة ، لأنه في الحقيقة ثناء مناقق ماله
من سبيل إلى الخطوة لديه إلا أن يقرنه بغيره إن لم يقدمه عليه . أو هو ، في
أقل القليل ، ثناء رفيق رقيق شاء ، بزخرف الحديث ، أن يهون عليه وطأة
ذلك الشعور بالقصور ..

حتى بعد أن آلت الخلافة إليه ظلت مرة تخلفه عن الإمام في مجال الطعان
تلاحه ونطل عليه . . . طارده في كل سكة خلا فيها إلى نفسه مع الذكريات .
وطالعه من كل لحة من لمحات ذلك الماضي جرت بهجسه على لسان . وخايلته
مع كل كلمة أطلقها عليه خصم ثار في ساعة غضب ، أو خليف ساخر في مقام
تندر .. وما نطن أذنيه إلا بقينا ، إلى آخر لحظة من لحظات حياته ، وهما مليتان
بعبارة صدق مريرة خاشنه بها — في معرض حوار — وليه ورفيق حيله عمرو
ابن العاص وإنه لأقدر امرئ على ابتداع الرياء لو شاء ، وأخلق خاصته بإسماعه
أعذب الثناء ..

... . فلقد طاب لماوية يومئذ أن يرداعب صاحبه ، إبان خلوة ، فقال له :

« يا أبا عبد الله .. لا أراك إلا ويغلب الضحك » .

فسأله :

« بماذا ؟ »

« أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين ، فأزريت نفسك فرقا من شبا

سنانه ، وكشفت سوانك له . »

وعلى الأثر عاجله عمرو :

(٤ — الإمام ج ٩)

« أنا منك أشد ضحكاً . إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك ،
ورباً لسانك في فمك ، وغصصت بريقك ، وارتعدت فرائصك ، وبدأ منك
ما أكره ذكره لك . »

فتنصل الماهل :

« لم يكن هذا كله ... وكيف يكون ودوني عك والأشعريون ؟ . . »
غير أن ابن العاص كان أعرف بزيغ هذه التهمة ، فأجاب :

« إنك لتعلم أن الذي وصفت دون ما أصابك . . لقد نزل بك ودونك
عك والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما موضع الحرب . . »

فبهت معاوية . ما كان أغناه عن هذه المداعبة التي وضعت حيث يكره ،
وأثابته سخرية رقيقة ، وذكرته ما لم يكن يحسب أن يذكر بعد أن لفت الحادثة المهيبة
في غلاف كثيف من مدهانة أعوانه وكادت تتوارى خلف ستر النسيان .

لكنه ما لبث أن استرد جأشه . .

فما هو بالذي يصيبه الحسر وله من ذخّر لبقائه ما ينجيّه . على الفور استعان
بمقدرته على الدائرة ليداري خزيه ، فاستضحك كمن لا يبالي . وأقبل بكل وجهه
على محاوره ، ثابت النظرة ، يقول في هدوء :

« يا أبا عبد الله . إن الجبن والفرار من على لا عار فيهما على أحد . . »

وحسم الحوار بهذا الإقرار . . .

أبدا لم ينس معاوية ، عمره كله ، خفة وزنه في كفة الشجاعة ، ولا ضآلة
قدره في قيادة الجيوش ، كلما رأى أن يقيس نفسه بالإمام ، بل يظل الإمام . . .
هو لا ينكر ، وإن ود الإنسكار . ثم يقر وإن كره الإقرار . . ولاضير عليه من
هذا النقص ، ولا عار كما قال ، ما ظل نفسه سرا بينه وبين نفسه يجتره في خفاء
لا يهدر خيلاءه ، ولا يجرح كبرياءه . . لكن الضير كل الضير ، والعار كل العار
أن تلوك مهانته الذكريات ، أو تتندر بها الشفاء بينما القزم المستقر في إهابه يحاول

جاهدا أن يعط رقبته ، ويشب على أطراف قدميه ، ليشمخ بأنفه مفاخرا وكأنما أوهم الناس أن رأسه ارتفع حقا إلى ما فوق مستوى رأس العملاق ! فأما وقد لوت غاراته إليه الأعناق ، وبهرت الأعين ، وشغلت الخواطر ، فلير الجاهل إذن — رأى واقع — أن النصر الذي حازه له مغبروه في محاليف اليمن ، وبلاد الحجاز ، وعلى مشارف العراق ، إنما كان من تدبيره ، وصنع يديه ، وليس لقادة الغارات من أصحابه فيه دور مذكور غير دور الأدوات . . . وأن الحنكة الحربية التي مارسوها بتلك المواقع المشهودة ، وعلى ذلك النحو من النجاح المؤزر إن هي إلا من وحي فكره ، ونتاج كفايته . . . وأنه يستطيع ، لو شاء ، متى شاء ، أن يقتحم على عدوه غريته ويفعل تحت سمه وبصره ما بدا له أن يفعل ، وهو مدرك لما يفعل ، عامد إليه ، قادر عليه .

بهذا أراد أن يبدو للناس عسى أن يرفع في اعتبارهم قدره . عسى أن يطمس معرفته . عسى أن يحور من أخلاصهم ما قر فيها طويلا طويلا من افتقاره إلى مثل شجاعة ابن أبي طالب ، ومثل تمرسه بالحرب ، ومثل اقتنائه على القيادة . . . فما أن فرغ بعض قادته من بعض غاراتهم على أطراف على ، وثبت له تقاعد عدوهم عن مبادرتهم بالردع ، حتى عقد عزمه على السير بنفسه إلى مواطن غريته سير محارب جلد ، وقائد مغوار ، يتحدى الأخطار . . .

وفعل .

فقبل ختام السنة التاسعة والثلاثين للهجرة بقليل — ومد الغارات الأموية المدوانية قد سرح على السهول والوديان ، وارتفع إلى الحزون والبقاع . وسيرة الخوارج التي ثرت في المواقع المضروبة قد ذاعت في كل مكان من المناطق «العلوية» — تلشر الملح ، وتمصر الأفئدة ، وتحرق المدامح ، وتحرق المسامع — خرج الماهل الأموي من قاعدة حكمه دمشق على رأس حملة عسكرية كبيرة ، ذات كثرة وأيد من الثغر والسلاح ، يؤم بها الترخوم البليانية إليه من بلاد العراق . وتلفت الأمس يتابع رحلة الثأر للكرامة ، وغضبة معاوية الكبرى

المجروحة ١ . . إن الرجل ليطير الآن بجناحيه باشقى يتهاى للالتقاض . . ملء قلبه ثقة واثق . ويمينه بأس جبار . في الجو حوله رائحة الحرب . الأرض تحته تنهز باعتزاز . هو كالمعصم وجنده السوار . والنقع الثائر من خطا الأقدام وحركة الخوافر يؤلف غمامة كثيفة من الضباب تسكاد تخفى عن العيون معرفة جبهه يوم صفين .

وصعد بجيشه إلى الشمال حتى بلغ أعالي الفرات . ثم يامن به نحو الشرق حتى وصل إلى مجرى دجلة . فلما أن بلغ برزخ الأرض بين البحرين ، انحدر قليلا إلى الجنوب ، وحط رحاله وأجناده قرب الموصل على الماء . . . فسكأنه كان يشرف من قمة عالية على الماضي والحاضر . .

على مسافة غير بعيدة من معسكره ، كانت مدينة « نينوى » حاضرة آشور ، تزهى بعجدها الخالد الذي كانت تضرب به يومئذ في قاع التاريخ إلى عمق ألفي عام ، وظلت تخايل ، بعنفه وجبروته ، عالم ذلك الزمان عدة قرون . . ومن خلال الجبال ، تحت ظلال شواهد الشجر ، كان دجلة ينساب في واديه إلى مصبه البعيد في الخليج ، تتوالى معالم الأحداث على صفته . . فها هنا يلامس القادسية التي شهدت سقوط فارس بحسن بلاء ابن أبي وقاص وصدق جهاده انشر الإسلام . وفي انحداره منها يبرز على النهر وان ليعيد للذاكرات مصارع الخارجة على يد الإمام . . ومن بعدها الدائن التي هم سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي أن يجتاحها بغارته لولا أن ثبت لآلافه الستة حسان البكرى في ثلاثين من رجاله استشهدوا معه في الأنبار . .

مراحل من التاريخ تصل بين أمس واليوم ثم تنطلق مع رحلة النهر الجاري كأنما إلى غد مقبل سوف تتجلب عنه الغيوب . . ومعالم من البطولات تطل من الغابر السحيق والقريب على دجلة وهي يانعة نضرة ، وإن تماقب عليها زحام الأعوام واستطالت عهود الآماد ، كأنما النهر الدافق كان يرويها بغائه لتبقى دائما حية في الخواطر ، تذكرة للغافل ، وعبرة للذاكر . .

فإن يكن ابن أبي سفيان قد استعاد في باله ، يستقره هذا وهو مشرف على مدينة الموصل ، بعض صور البطولات الماثلة لحياله من وراء الضفاف ، فذاك أخرى عن كان مثله منهوما بالبطولة ، مشغوقا بالجد ، نزاعا إلى العلياء . . وإن يكن ، حين إشرافه ، قد أعاش نفسه في إطار إحدى هذه الصور البراقة كما تعيش شرنقة الدودة في غلافها الحرير ، فذاك أدنى إلى اتجاه أحابيسه ، أولى بحالته النفسية الجديرة بأن تذهت خياله ، وتلهب آماله . .

وماله لا يفعل وقد تقضت عليه بضعة أيام ، ندية كريح الشمال ، رخية كهداة الجبل ، فوق الأرض « العلوية » عند تلسمك المدينة وهو على طمأنينة كأنه يعمض أعماه ؟ . . لقد أقبل شوطه الطويل من دمشق إلى مكانه هذا فيمابين النهرين عبر الجزيرة ، وما تصدى له في انطلاقه مناجز . . وأقام هناك ما أقام ، في غير موطنه ، متحديا عدوه ، فلم يقب به اللقام ، ولم يهتز بنان — دع السنان ! — في وجه تحديه . . ثم ارتأى أن يطوى الرحلة ويعود بالحلة ، فإذا هو آمن في العربية ، آمن في الأوبة كأمنه في الخروج ، لم يعكر عليه إقامته معكر ، ولا اعترض رجوعه معترض ، ولا لاحق خطواته الوثيدة الوثيقة مغير . . أفلا يحق له الآن بعد هذا أن يفخر ، ويفخر بفخره مريدوه ؟ . .

بلى . . ا .

أم ليس في الناس ، هنا وهناك في العراق والشام ، من تسامع من بعد بهذه المغامرة البطولية فأكبر في العاهل اجتراءه إن لم يكن قد قرنه — في الشجاعة — بغريمه ، وقومه كتنقيعه ؟ . . أم لم تكن عاقبة حملته له ، نوعا من نصر وقدر من ذكر ، يعوان ما سلف من هوانه ، ويرجعان بميزاته ؟ . .

بلى ولا جدال . . ا .

وكيف لا وإنما حقا لمركة ، كتب له فيها الظفر ، وإن يكن خاضها بلا سلاح ، وكسبها بغير قتال ؟ . .

فقد اقتنع فيها على غريته حدوده . مشى الخيلاء فوق سلطانه . أوطأ خيله
عرينه . عسكر في حرمه . بث بأرضه طلائعه . حرك فرقه وسراياه . وقف
في الأهبة والدرية يتعدى اللقاء ، وهو ثابت القدم ، جلد الفؤاد ، مرفوع الرأس ،
فإذا الصباح ينسخ الليل ، وإذا الليل يغشى الصباح ، يوما وراء يوم ، ولا شيء
يأتيه من جانب العراق بما ينم عن انتفاضة الليث الجريح ، القابع في الكوفة ،
ثأرا لحرمه المستباح !

أوشك معاوية أن يبلغ ثأره . .

بعد قرابة ثلاث سنوات ، غائمة مضطربة ، لاح للناس واضح المعالم . بدا في هيئة منتصر . لعل الموصل الصامتة غيرت صورته . أبرأت جراحه . ردت عليه كبريائه التي ضيعها « هلمه » فوق أرض صفين . .

وحق لهم . .

في اعتبارهم يسهه الآن أن يشد قامته . أن ينصب عوده . أن يتلع جيده . أن يضع أنفه على قمة رأسه . . .

وحق له . .

فطائفة منهم غير قليلة ، بدا لعيونها وقد قارب غريعه . طائفة أخرى عادته به . وطائفة غيرها رفعت عليه . . ولا خلاف ، في هذه النظرات المتراوحة ، بين قومه وقوم خصمه ، أعدائه وأوليائه ، لأن الوثبة الأخيرة العالية ، التي وثبها من بضعة أيام ، بهرت أعين الأمة جميعا ، على تباعد المسافات ، وسرقتها ، وحولتها إليه . .

بين الرجلين المتصارعين راح يتأرجح رأى الجمهور . مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . مرة هنا ومرة هناك . . تدانى التقدير بعد تفاوت . . استوى الميزان بعد انحراف . تسكبا وإن يكن هو ، دون الإمام ، قد اجتذب الحواطر إعجابا به أو عجباً منه ، تنو إلى مستطلعة . تنسقط أخباره . تلتقف همساته . تترقب حركاته وسكناته ، كأنها تتوقع أن يفاجئها ، بين لحظة ولحظة ، بجديد . .

بل الأمل فيه ، إلى جوار هذا ، قد ربا في الشام . والتوجس منه قد زاد في العراق . والأحداث المجهولة للتوارية خلف الأفق واقفة على أهبة ، تنتظر الخطوة التالية التي عساه أن يخطوها ، لتلحق بذيله ، وتسير وراءه إلى حيثما يعتزم أن يسير . .

ولا غرابة . . فالعمل المثمر الفعّال ملء جمبته ، والقول الحاسم الفصل على طرف لسانه ، والبادرة بكليهما أو بأحدهما ، بين أصابعه كمثل خيط يتلعب به ، لو شاء شده أو شاء أرخاه . . .

تغير الموقف . .

تبدل ظاهره ، فبدأت صفحته الرتيبة تضطرب . وتبدل باطنه ، فبدأت القدر تفور . .

ولم تكن الغارات الضارية وحدها هي التي غيرته . فإن هي إلا كالد يعثور البحر ساعة أو بعضها ثم ينحسر فإذا هو يكاد لا يترك شيئا وراءه إلا الجفاء . . ولكن للوصول ، في الأغلب ، هي التي قلبت للمايير ، أو كانت نذيرا بالانقلاب . . فهذه « المركة » الحرساء التي لم ينطق بساحتها سيف ، ولا فتح جرح فاه ، لوت بيدها الماهرة الدربة أفكار الناس ، وقهرت الزمن على أن ينصرف بركبه عن مساره الطبيعي ليرتاد حلقة أخرى من مراحل الكفاح . .

فباتهاء موقعة صفين ، انطوت صحيفة « المواجهة الحربية » بين الفريقين ، لتفتح بعدها في سجل الصراع العلوي الماوي صحيفة أخرى من الركود المنحقر ، أو « السلم المسلح » الذي كانت تفصح أحيانا عن عنقه بضعة انتفاضات قتالية تمثلت في غارات هدفها ، فيما يلوح ، إسدال ستر كشيء يدارى هزيمة الجيش الأموي في تلك الوقعة ، والإعلان في صخب وتوار عن القدرة القتالية للشام . . فالأسلحة ، خلال هذه الفترة الراكدة من الصراع لم تصمت الصمت كله في كلا الجانبين بعد أن جمدت حركتها الناشطة خدعة المصاحف . لم تقر في القرب لتصدأ وتنام ولم تدفنها الأغمام . وهدنة التحكيم المفروضة على الفريقين لم تقف الحرب ، ولم تجيء بالسلام . . ومع ذلك فالحرب القائمة إذ ذاك — إن سميت حربا — لم تكن تزيد عن تراشق من بعيد ، أو معارك جانبية لم يتبع فيها التقاء الخصم بالخصوم لقاء الالتحام الذي من شأنه أن يعحص القوي ، ويحسم الموقف ، وينهى النزاع . .

أما « معركة » الموصل فهي ثالثة المراحل وختام الرواية، لأنها تمثل الخروج بالصراع المشبوب من ساحة الحرب المادية أو التقليدية إلى ساحة الحرب المعنوية أو النفسية بتعبيرنا الحديث . ولا يعنى القول أن هذا النوع من النضال لم يألفه من قبل ولم يمارسه الفريقان ، لأنه فى حقيقة الأمر يلزم عادة صراع السلاح ، ويسبقه ، وينفرد دونه كثيرا فى الميدان . ولكنه يعنى أنه فى هذه الفترة الثالثة لم يكن تبعاً للحرب العسكرية وعونا لها ، بل كان ذا اليد الطولى الذى تسنم ذروة الصراع وترك لغيره من ألوان المناجزة أن يرسم فى القاع . . .

ولقد يوشك أمرؤ أن يرى فى السير إلى الموصل بادرة جرأة يثاب عليها معاوية مثوبة تقدير حين يحسب هذا السير فى عداد المغامرات . . . فالمغامرة تنبى عن اعتداد المغامر بنفسه وصلابة شكيمته . . . وتصدى صاحبها للإقدام على القيام بها يعبر عن اجترائه على ما يكاد يعتبر من قبيل الخوارق . . . واقتحامه طريقها الشائك يعلن عن جسارة تستهين بالخطر اللاتل أو المتوقع ولا تبالى من النتائج إلا أن يثبت بها ذوده عن كرامته سيان عنده نجاح فبلغ غاية شوطها أو قتل ببعض مراحلها مادام رافع الرأس ، ثابت القدم ، شاكى السلاح . . . يوشك الرأى هكذا أن يتحل عاهل بنى أمية خير صفات المغامر العنيد الذى يشور لشرفه ، ويناضل لتأكيد كبريائه لولا أن طييمة مجازفة الموصل ، وموقتها ، وعمرها ، وما يحيط بها من ظروف تنأى جميعا بالرجل عن هذه الصفات ، وتخرج بإقدامه عليها ، وممارسته إياها ، من حدود النية المعقودة على العمل الجسور ، إلى حيز العزم المبيت على التمويه الخداع . . .

شواهد الحال تفصح بغير مواربة عن هذه الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها لتأمل يتمق واقعها المعلوم . . . فالعاهل المدلل إبانها باقتداره ، المستعلى بعدها بفخاره ، كان راسخ اليقين — يوم تحرك بمحملته صوب الموصل — أنه آمن أى خطر كل الأمن حين السير ، وحين المسكث ، وحين الرجوع على السواء ، ما شاب يقينه عندئذ ظل من شك ، ولا طارت به أسرع مخاوفه وأعصى ظنونه إلى توقع التعام . . .

كان لا ريب واثقا أن خروجه إلى البلدة الموعلة في الشمال ، أبعد عن علم أعدائه ، بل تصورهم ، لأنه خروج بغتة مغلف بالتسكتم ، مستر بالإخفاء ، تراد به مفاجأتهم وأخذهم على غرة كغرض سواء من الغارات التي كان يفرقها هنا وهناك لترهب المراق ..

كان أيضا على بينة أن غريعه في شاغل عنه ، وعن ضربانه السريعة الفرارة ، بمصيان أصحابه في الكوفة له ، وتقاعدهم عنه .. فلا وجه إذن للخشية أن يبادر على إلى الخروج لللاقاة الحملة وإن مشت أنباء بهذه المبادرة لأنها عندئذ الأنباء الخليفة بالآتبلغ سمع المغير إلا وقد فرغ فعلا من رحلته ، وعاد موفورا إلى الشام .. كان موقنا ، كذلك ، ألا معدى للإمام — لو افترض أن رجاله أطاعوه ، واعتزم الرد بحملة مضادة — عن تعبئة جيش لجب ، لا يستغرق حمله وتسليحه وتنظيمه يوما أو بضعة أيام ، بل مدة طويلة ، تفوق أضعاف الوقت الذي تقضيه الحملة الأموية من ساعة مخرجها إلى لحظة عودتها إلى قواعدها بأمان ..

فإذا اقترن هذا كله بطول المسافة الممتدة من الكوفة إلى الموصل طولا يبلغ مئات الفراسخ ، وبالمدّة التي لا تقل عن بضعة أسابيع ، ويمكن لجيش الدفاع — الذي قد يظن زحفه من الجنوب — أن يصل فيها إلى مكان الاشتباك المنتظر بالشمال البعيد ، وبمشقة اجتياز عقبات كشود تفرضها على ذلك الجيش طبيعة أرض تتراوح تضاريسها بين لين الوديان ، وقفر الصحراء ، ووعورة الجبال والهضاب ، ومواقع المجارى النهرية المعوقة للسير . . إذا اجتمعت هذه العوامل معا أمام الحواطر ، بدا لا جدال للتأمل الذي يتعمق الأمور أن احتمال التقاء الغريعين ، في تلك الفترة بعيدان وغى يصطرع فيه جيشان ، إنما كان ضربا من الخيال والمحال ، وأن معاوية حين خرج من دمشق برجاله في السلاح والعدة ، إنما كان واضعا في باله أن حملته رحلة تمويه لا حملة حرب ، وأن جنوده الذين قادم لوجهته رفاق نزهة لا رفاق قتال ..

كلام لم يعن معاوية قط أن يستدرج غريعه إلى معركة بالموصل يعيدها إلى الحياة

مرحلة المواجهة الحربية التي ختمتها صفين وأسدت عليها الستار . . ولكنه كان يعنى ، عن حساب وتدبر ، أن ينشط الحرب النفسية ، ويبلغ بجدتها وعنفها ما لم تكن بلغته من قبل في ذرا التويه ، إيهاما لعامة الأمة ، ولكل من تبهرهم القشور والمظاهر ، ويحتذ بهم قرع الطبول ، أنه الند العتيد الذى يبرز خصمه في مجال القوة العسكرية ، والكفاء القادر الذى يستطيع ، دونه ، فى مجال البراعة السياسية ، أن يبادى ويبادر ، ويسعه التحكم فى الأحداث وتصريفها على النحو الذى يرضيه ولا يباريه إنسان فيه . .

ويفصح لنا تاريخ الحقبة المائلة عن نشطة هذا التمرية المعاوى وقدراته ، بأكثر من أسلوب من أساليب البيان والتعبير . .

فالتلويح بالتفوق العسكرى ، فى صورة هجمات مفاجئة ومتعاقبة ، مع تباعد مواقع الهجوم — كالتغارات الإرهابية — توحى بالاجتراء على سلطة الدولة ، وفى صورة غزو شامل يحتل المناطق ويقتحم الحدود ولو إلى حين — كالزحف على الموصل — يوحى بتحدى هذه السلطة ؛ وكلاهما تعبیر عن الإدلال بقوة الغازى أو المغير ، كفيل بأن يحمل الناس على الاعتقاد بمعجز الحاكم « الشرعى » عن حماية الرعية كمعجزه عن حماية الحدود ، ويضعه فى تقديرهم غير حقيق بالطاعة التى بايعوه عليها ، وبالمنصب الذى وضعوه فيه . .

وإظهار انفضاض نفر من عمال الحاكم على الأقاليم عنه ، أو طائفة من صفوة خاصته ، اعتزالا له أو انحيازا إلى خصمه ، تعبیر يشعر الجماهير بتقلص ظل نفوذه ، ووشك تهويده ، وإشراف سفينة خلافته على العرق إذ بدأت تهجرها الفيران . .

والعدوان على مظاهر السلطة التى يتفرد بها رئيس الدولة من دون رعيته وعماله وولاته ، وعلى الحقوق والمقرارات المكفولة لوظيفته الرسمية ، ابتزازا لبعضها ، ومقاسمة له فى بعضها الآخر ، فيه اجتراء على هيئته كصاحب رأى والأمر فى الدولة ، لا ينض فقط من شأنه ، ولا ينال من إحساس الناس بالولاء له ، بل هو يشير ، بأهون تقدير ، إلى انشطار الحكم بين أميرين :

أحدهما يسنده حقه التقليدى ، والثانى يسنده جبروته العدوانى ، ثم يوشك هذا أن يعيل بالظنون إلى ترجيح دحرة السلطة الشرعية المتبوع الفاضل أمام الصولة الطاغية للتابع المفضول ..

هذه العوامل هى التى شكل منها معاوية حملة التزويه ، وتقدم بها إلى ساحة الصراع ليقرر بالشعب الإسلامى ، ويدفعه أو يدفعه سواده الأعظم إلى الإيمان باقتداره على الأمر دون غيره . . وإذا كان الناس خدعوا آنذاك بهذه التمثيلية ، وجازت عليهم حيلها التزويه الزائفة فأخذوها مأخذ الجذ وأدخلوها فى حساب الحقائق ، فمن العجب أن تظل إلى الآن مسيطرة على أذهان من باعد الزمن بينها وبينهم بالقرون العديدة وكان أجدر بهم أن يتحرروا من قوتها الاستهوائية ، بعد أن تبددت ربح « جوها » المخاتل ، وأفسح لهم فى تناول مظاهرها وخفاياها بالتعميس والروية ..

الصورة التاريخية الشائعة عن طبيعة الفترة القصيرة التي اختتمت خلافة الإمام بها خطوط عديدة من الأضواء والظلال ، تبهم المعالم ، وتشوش الحدود ، فتعجم التعبير عن الحقيقة لأنها تخلط رصانة الصدق برعونة الخيال . . . بعض هذه الخطوط ثقيل كثيف ، وبعضها الآخر خفيف شفيف . وبين هذه وتلك يوشك النظر أن تبهره آنا سطوة النأاق فتعشيه ويوشك آونة أن يرده تراكم العتمة حسيرا لا يرى ما حياله . والرسوم والألوان تهتز على الأثر وتختلط حتى لتضل الأعين في تبين العلام المميّزة لسهات الوقائع والمفصصة عن ملامح الأشخاص .

هكذا خفي من حقيقة الأصل ، الذي تنقله لنا الصورة الشائعة ، الكثير والكثير . . . ولا مبالغة قط في تصويرنا لهذا التقدير . . .

فلقد أسرفت ، فيما نخل ، طائفة كبيرة من قدامى المؤرخين ، في اعتمادها على ما تضمنته حملة الترميم للعاوية من وقائع مكذوبة ومدسوسة كحقائق تاريخية لا تعورها الشكوك ، كما جازت على معظم جماهير تلك الأيام كدلالة وحيدة مؤكدة على اقتدار صاحب الشام اقتدار تفوق على غريعه ، وكمدخل طبيعي محمد مجتازه غير منافس إلى نصر حاسم مضمون يفضي به ، بلا محالة ودون عوائق ، إلى أريكة السلطان .

ثم أسرفت ، من بعد ، طائفة غيرها من محدثي كتاب السير والتراجم في انقيادها — عن متابعة أو عن اقتناع — لهذا الرأي التاريخي القديم الاتقياد الذي لا يؤيده إلا رونق السطوح والظهور ، وخلافة الطلأ والقسور .

ولا ضير قط على أولئك وهؤلاء — فيما ارتأوا — بما غمت عليهم الحقائق ، وخفيت عنهم الجذور بسبب كثافة الظلال أو بهرة النور . . .

ولا ضير ثانية إذا ما أعوزتهم وسائل الكشف والتحري ، وشق عليهم القوس في مجاهيل الأنفس ، وتعرف دواعي السلوك ..

ولا ضير أيضا إذا لم تشرد بهم نظرتهم هذه فتجور على أقدار صفوة مختارة من أنقياء الضمائر ، ورواد الحق ، معكرة نقاوتهم ، ملوثة سمعتهم ، خائضة في سيرهم بما يقدح فيهم وإن خالف القدح كل واضح ومشهور من أخلاقهم وسلاتهم ، وعارض كل غالب ومشهور عنهم من وقائع التاريخ .

كل هذا مقبول مغفور إلا أن يجور على اتساق التفكير . فأما والمنطق بجافيه ، والروية لا تحجب الرؤية ، وطبائع الصفوة المفترى عليهم معلومة لا يكاد ينكرها إنسان ، وسوابق سلوكهم منشورة تحت تأمل العيون والأذهان ، فإن جهدا يبذل في استقرار الشيم والسجايا ، ومعايرة الحاضر بعيزان الماضي ، وخص المزعم في ضوء المعلوم ، لأجدر بأن يوضع في الحسبان قبل التصدي للقطع في أمرهم برأى إن يكن ظاهره يمتذر عنهم بالأمناس من رضوخهم لمطلق الواقع القاهر ففحواه توحى للعقول خيانتهم واجبه المفروض . . .

كشطحة القدامى من المؤرخين كانت شطحة المحدثين في تناولهم لهذه الفترة المتأخرة من إمرة الإمام ، سواء في تقويمهم للأحداث أو تقويمهم للأشخاص . . ومن التأول الذي قد لا يداني الانصاف ، أن تعزى نظرتهم إلى سوء النية والأولى بها — انقاء لشبهة التجنى عليهم — أن يقال إنها لم تكن محيطة ، وأن تنسب إلى الخطأ العفوى إن لم يكونوا ، بدورهم ، من ضحايا التضليل . . . ولا غرابة . فليس من المستطاع في هذا المقام إغفال قدرة معاوية على إحكام التويه بتزييف الوقائع ، وتلفيق الأخبار ليلبس الأكاذيب طيالة الصدق ، ويرسم الحقائق بهيئة أباطيل .

كم هكذا فعل الرجل ، طوال عمره ، وهو غير متحرج أن يظلم ويجور . . ثم زاد وأوغل . . ثم غالى . على الأيام ، في كل هذا الذي جيل عليه من التواء ما كر ، وفاء لنفسه ، وتعبيرا عنها ، وكيدا سيئا للإمام خلال السنة الختامية ، فأناخ بزيفه وزوره على عقول الناس .

ولقد تعرض بعض عرض لكشف مما يدر منه في هذه الفترة من الفعال والأقوال ، فإذا هو يبلغ بكيدة الغاية ، وبالإيهام أبعد مداه . . بين عامة مناصريه لا نكاد نعرف واحدا لم تجز عليه أخا ديمه . . وبين جمهرة معاصريه لا نكاد تقع إلا على قلة قابلت بالريية أساليبه . وبين أساطير مناوئيه لا نكاد نجد امراً سلم من رشاش احتياله المسموم . ومن وراء أولئك كلهم تقف الأجيال ، وقف حيرة بين ومضات الحق وشطحات المؤرخين . .

والأمثلة ماثلة .

حين نتصفح « كتاب » الماهل لا نلبث أن تطالعنا في هذا « الباب » صفحات يستهل بها نشاطه المختل بكبرى أكاذيبه ، وهي تحميل على تبعة قتل عثمان . . ثم تلو بعدها قصة ختله بعض الناس في أمر قيس بن سعد بن عيادة حين كان عاملاً على مصر الإمام . ثم يتدرج صعوداً من ختل الجزء إلى ختل الكل ، فيغرر بالأمة جماء في بضع وقائع وبضعة أفراد . ثم يستمض تمرسه بهذه القدرة التوجيهية التي تجيد طمس الحقائق فيخدع التاريخ . .

حلقات متصلة وثيقة ، ونطاق مشدود محكم من الأساليب المريبة التي تبدأ بالكذبة المراوغة وتنتهي إلى التلغيق المحبوك . .

ومع ذلك فليس هذا تجاوزاً للأسناد ، ولا تجنياً على الرجل ، بل هو استقرار لها منطقي ، وإتهام له صريح . .

وإذا سيق الاتهام فلا بد من تحرر ، وإذا ألصق الجرم فلا بد من دليل . وسيرة معاوية ، فيما نظن ، حافلة أمامنا بصور شتى من الشبهات التي تؤكد البراهين . .

ولا نحاول هنا أن نحصى تهمة ، أو نعدد مزائقه ، فنتناول هذا الجانب الخلفي من حياته العامة تناول إحاطة وتفصيل . إنما نرى أن نلم به إلام تنويه وتمثيل تحامياً للإطالة بغير ضرورة ، واكتفاء عن الإسهاب بالإشارة ، مادام القليل ينفي عن الكثير . .

على هذا الوجه من تتبع أساليبه يحق أن نقول إن « بصمة » من بصماته يعثر عليها منطبعة فوق صحيفة مزيفة من وقائع التاريخ هي خليقة بأن تشير بعض الشك في بقية الصفائف إلا أن يقطع بصحتها التمهيص . وأن التقاط صورة لهذه البصمة تضاهي بما لعنا قد نفع عليه من آثار أصابعه فوق غيرها مما يحتوى سجله ، هو طريقة مأمونة للاستيثاق . وإن انطباق هذه ، من بعد ، على تلك ، كلها أو بعضها ، هو الدليل القاطع الأمين الذى يؤتم ويدين ..

عند هذا وتنقش الظلمة ، ويسطع النور يهتك الغشاء ويكشف المستور ..
يبید الظن ويبرز اليقين ..

وها نحن أولاء ، عودا إلى الوراء ، نفتح من سفر معاوية صحيفة واقعه مع قيس بن سعد بن عبادة ، عملاق الأنصار ، وصاحب مصر من قبل على ، فإذا هي البيان الثبت الذى يأخذ العاهل الأموى بجريرة التلقيق دون سبيل إلى المجادلة أو التأويل ، لأن الواقعة ، بشهادة الإجماع ، وليدة تفكيره ، وبدلالة الموضوع برهان تجريمه ..

... إذ ذاك كان قيس بن عبادة قد استقامت له الأمور في أرض النيل ، طاعة له كحاكم للإقليم ، وولاء لعل كرئيس للدولة ، فأصبحت مصر ، بوضعها هذا قوة عسكرية وسياسية ومادية في ميزان الصراع على السلطان ، تشكل خطرا داهما جديدا على الشام يضاف إلى الخطر الداهم الأصيل الذى يشكله العراق ..

ولا شك في أن متاخة الخطرين معا للمنطقة الأموية ، كانت خليقة بأن تقض على معاوية مضجعه ، وتهدد مطامعه ، وتعجله عن سياسة التريث التى لزمها من بدء الثورة على عثمان ، ترقبا لما عسى أن تسفر عنه فتنة البصرة من نتائج كان يأمل أن تكفيه أمر الإمام ..

واستلمهم الرجل طبيعته للخلاص مما هو فيه ، فبادر على الفور إلى التلقيق . وما له لا يفعل وإنه لأدنى أسلحته إليه ، وأسلسها في يده ، وأقطعها نصلا في وقت كانت تسوده للبادى الدينية والقيم الخلقية على نحو ظاهر وإلى مدى.

غير قصير . . . إن نفوذه ها هنا بأرضه لآفل ، وإن أمه ، من بعد ، في دولة أموية لقطوع . وإن الدائرة لا عمالة عليه لو أنه أمل في الوقت لفرغه بمض إملاء ففرغ له ، أو تحركت مصر إليه وتحرك العراق معها فأصبح منهما بين شقي رحى تطحن قوته ، وتسحق أحلامه ، وترى بها وبه جميعهم نقاية وأشلاء إلى الذكريات . . .

هـب إلى العمل ، فاول أن يشتري العملاق ..

ثم أذاع في الناس عنه أنه مسلم له ، لا يذبو به ، ولا يطالعه بعداء ..

ثم دعا جهرة أهل الشام أن يأمنوه ويولوه الاطمئنان ، لأنه له شيعة ، يمينه سرا ، ويحسن له النصيحة ..

ثم زيف كتابا دسه على عيون الإمام ، بالشام والعراق ، مهره بمثل خاتم عامل النيل ، يملن فيه ، صراحة ، ولاء معاوية ، ويعدده النصره على علي ، وتزويده بما يشاء من رجال ومال لقتال قتلة عثمان ..

واقعة معلومة أجمع عليها الرواة ، ولم تكن قط موضع ريبة عند كافة كتاب السير ، قدامهم ومحدثهم ، من كان معاوى الهوى أو علوى التشيع على السواء .. وكتاب مدون مقروء ، سجلته الصعائف في كل مرجع من المراجع وسند من الأسناد ، لا شبهة فيه .. ووثيقة معتمدة ، عليها « بهجات » معاوية جليلة ، تشهد عليه بمجافاته أمانة العرض ، وبترخصه في المخطورات الخلقية ، وتؤكد اجتراره على الحق والناس والتاريخ ، وتلصق به جرم التلفيق ..

ولقد نجح العاهل فيما توخاه من التفرير ببعض الأمة ، بعض الوقت ، حين أوقعها على هذا الكتاب للدسوس . وبلغ بكيده حينئذ ما لم يكن بالغا بسلاحه ، فتخلص من قيس ، وأفقد أمير المؤمنين أحد جناحيه . . . ولكنه نجح أيضا ، إن صح هذا التعبير ، في إبقاء ظلال كثيفة من الشكوك على كل حادث يعلم له دور فيه ، ويحسب الأكثرون أنه واقعة صدق تثبت حقيقة في غنى عن التحصيل . . .

الفصل الثامن

ليس يستغرب في هذا العام الأخير من خلافة الإمام ، أن يهب معاوية إلى العمل ، بكل طاقته ، لتغيير تيار التاريخ ، منتمزا الفرصة السانحة التي أتاحها له الاضطراب السياسي المهيمن على أرض على ، والقلق النفسى للمستأثر بنفوس رجاله . فما من بيثة أصلمح عندئذ للعثر والغرس واقتطاف الثمار . . . وما من وقت أنسب له من هذه الفترة المشحونة ، من قبل الكوفة ، بالتردد والانتظار . وإذا كان قد حاول من قبل ، فأحر به أن يبادر الآن إلى الضغط بكل ثقله ، مجردا على غريته أقوى حملة نفسية في مقدوره أن ينظمها ويهجم بها ، عساها أن تجيئه بفصل الخطاب ! .

وقد فكر فيما يمر حوله ، وأمعن الفكر ، فإذا الظروف كأنما تناديه . . ثم أرسل النظر إلى بعيد وقريب ، فإذا الأحداث تتلاحق دراكا ، وتتدافع عجل إلى مسرح الحياة تدافع جمهور مذعور من باب ضيق هو للنفس الوحيد للنجاة . . ثم أعد ودبر ، فإذا إعدادة وتديره يتجهان ، هذه المرة ، صوب المشرق ، حيث ترامت الحدود بعيدا عن الكوفة ، وما يقاصيها من ولايات وأعمال ..

وأصاب الوجهة فيما يخال ونخال . . .

فثمة بهذا الشرق الفسيح أطراف شق ، يراها تأت عن قبضة السلطة المركزية في حاضرة الدولة بعض النأى حتى لتوشك ، إن تمردت ، أن تأمن سطوة البطش وقهر التأديب ولو إلى حين . . وثمة بقاع رق فيها سلطان غريعه كركة التوب البالى القى لا يعصى على التمزيق . . وثمة مناطق ما زال بها أثر من ثورة ، تشتمل يوما وتسكن يوما ، ولكنها لا تنطق . لأنها تستمد دائما زيت وقودها من إحساس أهلها بقومياتهم الأصلية التي أرادها الحكم العربى ، منذ الفتح ، على النويان في « القومية » الإسلامية الجديدة . .

بعيدا عن الكوفة رمى معاوية ببصره فساحت به أطباعه في الأصقاع الشاسعة ، الممتدة شرقا من شاطئ دجلة ، موغلة في العراق الفارسي ، وفي فارس القديمة العملاقة نحو هضاب الأفغان . . فهذه الأنحاء الرحبة ، بما تضم من أراض جبلية وعرة ، وتؤوى من شعوب غنية حرون ، أولى من غيرها ، في اعتقاده ، بجهوده ، وأدنى إذن إلى خضد شوكة الإمام سواء انصلت عن حكمه أو دخلت في طاعة الشام . .

ليس حقا يستغرب ، في هذه الآونة المضطربة ، أن يعقد العاهل الأموي رجاءه على الشطر الشرقي من الدولة ، عسى أن يستكمل به سلطانه المنشود . . فالأمور قرت له بالغرب أيما قرار . الشام أخاضت له الود وأسلمته الزمام كما لم تمحض قبله ودها ، ولم تسلم مصيرها وأمرها حاكما من الحكام . ومصر وما يليها من إفريقية دانت له بالخضوع ، وضبطها ابن العاص . وعلى بن أبي طالب قد هدأ ، مغلوبا بثبوت أصحابه وتحاذلهم ، عن الزحف إليه . . وبهذا كله قد أمن الرجل على نفسه وإقليمه الخطر الغربي ، كما أمن مغية المواجهة العسكرية بينه وبين الإمام إذ باتت الآن أشبه برؤى خيال . .

وليس أيضا من قبيل طوارئ المصادفات أن يجند كل جهوده الهدامة ، وينبئ بها على الشرق كيذا ختالا يكفيه ما كان دائما يخشاه من ملاقة عدوه في ساحة قتال ، ويلتوى بالناس في نواحيه عن الطاعة المشروعة التواء يحقق له في نهاية المطاف استئصال المشرق كاملا لنفسه ، أو انتزاع جزء منه يدين بالولاء له من خلال استئالة بعض العمال .

آثر معاوية ، كما نحسب ، سياسة الخذل عن إيمان بها عميق ، يستقيه من طبيعته . وعن تجربة عملية ناجحة ، مارسها ، ورجعتها على ما عداها في ميزان السياسات . . جرب الحرب نفذته صفين حتى لقد نجا منها وما يكاد . . وجرب الفتنة المسلحة في البصرة فجرعته الحثية ، وذهب بها عميله الحضرمي في الغابرين . . وجرب الغارات يسرحها ضارية إلى شتى البلاد ، فلم تنفعه ضراوتها ، لا هي حازت له سلخة أرض تزيد في رقعة ملكه ، ولا هي أتته بطاعة إلا بقدر

نفثة ضباب لا تلبث أن تذوب في أول شعاع ، بل كان قصارى قليلها إرهاب ،
وكثيرها هروب . . .

أما الختل فأمون مضمون . . . وليد سليقته . رهن يديه . هين عليه أمره ،
طويل باعه فيه . . . وتلك الولايات العديدة المتراصة نحو المشرق ، النائية عن
بنان الحكم الشرقي ، المضطربة بالفتن والثورات ، إن هي ضاقت بإحدى حيله ،
فما هي ضائعة بغيرها مما استوعبته جعبة الخيال . . . فله أن يجدى فيها ادعاؤه
ما ليس له وما ليس فيه . أو يفاح التفرير بالجاهل . أو ينجح ابتياع العمال .
أو ينجح ، دون وسائله هذه أو معها ، أسلوب التفتيق . . .

وكانت فارس أقرب الفرائس إليه . . .

هي دانية الدنو كله من مد ذراعه ومرمى أطماعه وإن كانت على مبعدة
مراحل طويلة من الفراسخ تشق على الركاب والركبان . . .

دانية يبعدها المسافى عن قلب الدولة البعد الذى يخفف عنها قبضتها فيدها
طليقة الحركة في مجابهة النظام العام ، تطيع حين تشاء ، وتتمرّد حين تشاء . . .
دانية بوعورة المسالك والطرق المفضية إلى مدنها وكورها للنبتة على
المرتفعات الصخرية وبين شواحق الجبال ، لو أرادها صاحب السلطان على امثال
أمره وكانت تؤثر الإباء . . .

دانية بتحفز رجالها ودهاقينها للخروج على الحكم القائم عند أول بادرة تفرهم
بالخروج ، ليصلوا ما انقطع من نورانهم المتكررة التي ما فتئت تتفجر منذ الفتح
الإسلامي على مدى عمر جيل ، يحمّد بعضها هنا ليشتهل بعضها هناك . . .

دانية ، فوق هذا وقبله ، بصاحب أمرها وعاملها زياد بن عبيد بن فلان ،
أو زياد بن أبيه كما تسميه روايات ذائعة شاعت فيها صبغة الخيال شيوعها
في الأساطير . . .

هذه العواقل المرجحة كانت حقيقة لأريب آتشد بإغراء عاهل الشام بهذا

الشاطر الشرقى من الأرض العلوية ، الذى ارتسم أمام أطماعه التزاعة إلى التوسع الإقليمى ، وتنفسه للنهومة بالاستئثار والاحتياز ، فى هيئة قنيسة سهلة ، لا تلبث أن تخر تحت قدميه ، مفلولة الحول مهبضة الجناح ، لو أنه بادر إليها برحلة صيد ، أحكم خلالها نصب الشراك . . .

لكنها اليوم ليست رحلة صراع أداتها سلاح ، بل هى رحلة طى دعوة ، سلاحها حروف وكلمات . . .

وبادر . . .

خير هذه العوامل المرجحة ، فى يقينه ، وأحراها بجهد ، وأسهلها مأخذاً كان زياد بن أبيه ، قائد كتائب التأديب التى دفع بها عبد الله بن عباس من البصرة نحو المشرق لتخمد الفتن الناشئة ببعض أعمال فارس ، وترد أهلها إلى حظيرة النظام . . .

... . . كانت فارس طوال الحقبة الإسلامية القصيرة ، دائبة التمرد ، تكتب فى تاريخها ، بالعنف وبالدم ، صفحات من الاضطرابات ، تهدد أمن الدولة ، وتدفع البلاد ووحدتها إلى حافة خطر لا يدرأ شره غير امتشاق الحسام .
خلال سنوات خلافة الإمام .. كمثل — لم يكن يهدأ العصيان مرة فى جانب من هذه الأصقاع ، إلا ليتجسس كتيجس اللحم من البراكين ، فى جوانب أخرى مرات . . .

فى أول أعوام عهده ، قيل إنه سير خلود بن طريف إلى خراسان . . .

فى العام التالى بعث جمدة بن هبيرة إليها بعد عودته من صفين ، ثم خلود بن قرّة مرة أخرى ، فيما توىء إليه الروايات ، فمضى فى حرب أهلها وقد كفروا ، وحاصر نيسابور حتى أدلوا إليه بالسلام . . .

مع ذبول شعلة السنة التالية ، زلزلت فارس بثورة عنيفة على الحكم العلوى وعلى الدين ، ارتبط فيها الحرث بن راشد بن ناجية ، ومن غادر الكوفة وإياه من قومه انتقاضاً على سلطان طى ، بحلف دموى مع العلوى والسيحيين وقطاع

الطرق وماتى الزكاة ، أشاع الخوف والقلق والفساد فى جنباتها ، بدءا بالأهواز
وانحدارا مع الجنوب إلى أقصاه عند البحرين . .

فى نفس العام عات السنة اللهب فعمت النار الإقليم ، حتى غلب أهله على
الأمر فيه ، وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف ، وخلا لهم وجه الأرض عتلاؤها
بالموضى والاضطراب . .

فى السنة التاسعة والثلاثين للهجرة ، غدت الأمور على شفاهاوية إن لم يهرع
بحزم الحرب وحسكة السياسة ، إلى إنفاذ هبة السلطة الشرعية ، وإعادة رفع
الراية الإسلامية فوق ربوع تلك البلاد ، والوقوف دونها ودون الكفر
والانفصال . .

هنا دعا الإمام إليه ابن عباس من البصرة ، ألصق أرضه بالإقليم التائر ، يياده
الرأى . . ثم جمع صحبه ليشيروا عليه بامرئ ماهر قادر قوى يستطيع أن يوليه
هذا الشطر من الدولة ، ليحسم الأمور .

قال جارية بن قدامة :

« ألا أدلك ، يا أمير المؤمنين ، على رجل صليب الرأى ، عالم بالسياسة ،
كاف لما ولى ؟ . . »

فسأله على :

« من هو ؟ . . »

« زياد . »

وأقر ابن عباس الترشيع :

« لعلى أكفيك به فارس . . »

فبعث زياد . .

ولم يكن هذا اختيار فلتة أعجلهم إليه الوضع الحازية ، بل كان اختيار ينظر

وحكمة له من ماضى المرشح المختار ، وصدق بلائه وصفاء ولائه ما يقضى به ،
ويضمه فى مقدمة الأولياء الأكفاء . .

فلقد علم اعتزال زياد معركة الجمل ، حتى لقد أدهش الإمام اعتزاله ، إن لم
يكن أثار غضبه ، فعتب عقبها على عبد الرحمن بن أبى بكره ، وقد جاءه فيمن
جاءوا البيعة بعد البصر . .

قال له يستهسر ويلجأ وليس فيمن قدموا عليه للبيعة زياد :

« وعمك المتربص القاعد فى ؟ . . »

فاعتذر عبد الرحمن :

« والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد ، وإنه على مسرتك لحريص ولكن
بلغنى أنه يشتكى . فأعلم لك علمه ، ثم آتاك . . »

وتبين أن الرجل مريض .

قال الإمام :

« امش أمامى ، فأهدنى إليه . . »

فلما بلغاه ، رأى الإمام فى وجهه السقم ، فدعا له . . وأراد به البصرة ،
فاعتذر . فاستشار فيمن يوليه . .

قال زياد :

« رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس ، أجدر أن
يطمئنوا إليه ، وينقادوا له ، وسأكفيكه . . »

فعمل برأيه ، وولى أمرها ابن عباس . .

لباقة وصدق نصيح وإنكار ذات ، اجتمعت له مع الولاء لترتفع به فوق
للظنات . .

. . . وسلف أيضا منه ، قبل هذه الواقعة بأعوام ، ما يسمو به بين الساسة ،

إلى مكانة مرموقة لا يكثر فيها النظراء . . بعثه عمر بن الخطاب ، إبان عهده ،
لإصلاح فساد وقع باليمن ماله غير داهية فطن صليب الإرادة ، قتمض بالأمر تخير
ما يكون النهوض ، وعلى خير ما ينبغي أن يفعل متمرس أريب ، حق لقد رضى
عمر عنه كل الرضاء ، وأشاد به الناس ، وأنطق الله عمرو بن العاص ، داهية
الدهاة ، بكلمة حق لا يند مثاها من أنانى مثله يكاد يحتجز لنفسه ، من دون
الأكفاء ، كل صفات التفوق والافتدار . . .

قال :

« لله أبو هذا الغلام ! . . لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه . . »

وسمعه أبو سفيان ، فقال بلهجة الفاخر :

« أبت المناقب إلا أن تظهر فى شمائل زياد . . »

ثم مال إلى أذن ابن العاص ، كأنما يساره :

« أما والله إنه لقرشى . ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك . . »

وكان على على مقربة منه ، فى مجلس عمر ، قد دفعه همسه إلى سؤاله :

« من أى بنى عبد مناف ؟ . . »

« ابنى »

« كيف »

نخافت الرجل من صوته :

« أتيت أمه سفاحاً فى الجاهلية . . »

وعندئذ قال له عمرو :

« فملا تستلحقه ؟ . . »

فأوماً بعين مذعورة إلى ابن الخطاب ، ثم همس :

« أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابي . . »

ونصحه على :

« مه يا أبا سفيان . . . فإن عمر إلى المساء سريع . . . »

وانطوى مَذْذَاكَ نسب زياد عن الجهر إلا من كلمة عابرة تند صدفة على لسان
ثم لا يكاد مدلولها في الأذهان يعلو من وهدة الادعاء إلى قمة الحقيقة التي
لا يطولها ارتياب . . .

... هذا القائد الصليب القوى . . . الذي كان موضع خُرْ أبي سفيان ، وهيأته
ملكاه للمجد ، وشقت حدائنه وهو بعد في مقتبل عمره عن رجل عظيم ، وأجاد
لعبة الحرب كما أجاد لعبة السياسة في فارس الثائرة وفي توارها الأشداء حتى دان
أهلها له ، ثم حمدوه ، ثم قربوا سيرته فيهم ، أعدله وحكمته ورحمته ، بسيرة سيد
أكابرهم أنوشروان — كان لا ريب خليقا به ، في رأى معاوية ، أن يكلف
غاية الكلف بالعلياء ، ويعد آماله الحبيسة بصدوره إلى بعيد بعيد وراء آفاق عمله
المحدود . . . فلو أحسن له الماهر الدعوة ، وأحسن أيضا الأمانة والاستهواء .
لكان أقرب إلى طبيعة الأشياء ، وأشبه بحكم النطق السليم أن يلتقم زياد
« الطعنة » فيصغى له ، وينمطف إليه ، وينخرط في صفوفه بكل ماتحته من
عمل وما قد يسمعه ، بمشهود قدرته ، أن يحوز من بلاد وأعوان ، مادام مآل
هذا الانخراط انتفاع المدعو من خلال نفع داعيه . . .

وأسرع بعينه . . .

في تقديره كان لا يشك لحظة واحدة في نتيجة دعوته . . . فصاحب فارس
لا بد معجل إليه الجواب بمودة البريد . . . والجواب — بحساب السليقة المعاوية
النهاز والمنهومة إلى المزيد — لا بد قادم بالقبول ، لأن القبول هو السلوك
الوحيد المتوقع منه الذي لا يعلو سواء الطموح ، ولا يكون غيره من أخ لأخيه .
ولا عجب ، فهما لأبي سفيان ، وأولى بأن يتشابهما في النزعات واليول ، وأن
يتعاطفا في المسرة ، ويتعالفا لتحقيق الرغبات . . . وليس القريب كالغريب ،
ولا الدماء بماء . . .

غير أنه أساء التقدير . .

فقد استعصى زياد على الإغراء . . كان أعظم فطنة من أن يخدع ، وأصعب مراسا من أن ينقاد . . بدا كأنما حقر خدعة مغويه ، ونيا بمرضه الحسيس كل النبر فأغلظ له في الجواب . وبدا العاهل كأنما استيأس فأرسل إليه بالوعيد بعد الوعد ، وبالترهيب بعد الترغيب ، وإن لم ينس أن يلوح له بالإمهال وفاء لحق النسب للشبوه . . .

كتب معاوية إليه :

« . . . غرتك قلاع تأوى إليها ليلا كما تأوى الطير إلى وكرها . . وأيم الله لولا انتظاري بك ما الله أعلم به لكان لك منى ما قاله العبد الصالح : فلنأتينهم يحنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . . .

تنسى أباك وقد شالت نعمته إذ يخطب الناس والوالى لهم عمر »

فكان جواب زياد أن صعد المنبر ، وأخذ يفضحه على الملأ ، بخطبة قال فيها :

« . . . العجب من ابن آكلة الأكباد ، ورأس النفاق ! . . يهددنى ويبنى وبينه ابن عم رسول الله ، وزوج سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين ، وصاحب الولاية والمرتلة ، في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان . . أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلى ، لوجدنى أحمر محشا ضرابا بالسيف . . »

وكتب إلى الإمام يفتيه الخبر في صحيفة بعث معها بكتاب « أخيه » . . .

أما زياد فقد ألقى له فارس القياد لا تخاشنه ولا تختلف عليه . وثبت هو بما فيها ومن فيها على الولاء لعل ، ثم الوفاء لتذكراه بضع سنوات . . حتى بعد أن آلت الخلافة لمعاوية غير منازع منذ عام الجماعة ، بقى العامل الأمين على العهد ، معاديا لمعاوية ، خارجا على سلطانه . ولولا أن رأى الأمة ، إلا ندرة ، أولته الطاعة ، وعلم ببيعة الحسن وبني بيته وأهل العراق له ، وسعى أمير المؤمنين إليه يتألفه بالكتب والوفادات ، لاستمسك بعدائه ، ولربما وقع منه ما يغير مسيرة التاريخ . .

وأما الإمام فقد اطمأن لرجله ، وأكبره كما حذره ، في خطاب كان بعض ما فيه :

« . . . إني قد وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً . . . وقد علمت أن معاوية كتب إليك يستذل لك ويستفل غربك ، فأحذره . فأعما هو الشيطان يأتي لآراء من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله . . . »

وقد كان من أبي سفيان ، زمن عمر بن الخطاب ، فلتة من حديث النفس ، ونزعة من نزغات الشيطان ، لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث . للتعلق بها كالواغل المدفع ، والنوط المذبذب . . . »

وأما معاوية فقد طعم من محاولته هذه مثل الحنظل . وأيقن أن الاستهواء للالتواء بمثل زياد إلى ناحيته لا يفيد . وأن أوائك الذين استصفاهم على نفسه ، وقربهم ، وأدناهم ، هم صفوة خلصاء كالصفاة صلابة ، وكالجيل ثباتا ، وكالأنقى شموخا ، لا ينشون . وليس لزخرف إغوائه إليهم سبيل . . .

في التجربة « القيسية » عصر ، نجح معاوية ، واقتلع قيس بن سعد بن عبادة عملاق الأنصار من عمله على النيل . . ولكنه في التجربة « الزيدية » بفارس ، تحطمت أدواته وباء بالإخفاق .

أخطاء التوفيق . أساء اختيار الوسيلة وهو بحسب أنه أجاد حين وضع « أخاه » في غير البوتقة المناسبة يوم شاء احتواءه بالإغراء . . فلقد كان أحرى به أن يعلم علم يقين أن نجاح أى تجربة رهن باللائمة بين طبيعة العنصر وطريقة العلاج ومناخ التجريب وصلاح الأداة . . أما هنا ، فالعنصر معدن لا يتأثر بالنار خليق به أن يستعصى على الانصهار . . .
كان زياد العنصر الصايب المسير . .
وكان الاستهواء الغوى الأداة . .

وكان معاوية هو المحرب الذي بدا كأن قد غفل عن الحقائق الأولية المفترض — علما وبداهة — توافرها قبل أن يبدأ أولى خطواته وإنه لأولى بأن يذكرها لو أنه استشار سليقته ، وطابق خصائصه النفسية على خصائص زياد . .

فهما أخوان ، فيما ادعى وادعى قبله أبو سفيان ، فهما إذن شبيهان . النظرة كالنظرة . والطباع كالطباع . والتزعات واليول كالليول والتزعات مع فارق هنا وفارق هناك على نحو ما يكون الاختلاف بين الإخوة ، بل التوائم ، فضلا عن الأشباه . .

لكنه لم يراجع طبيعته الخاصة قبل الإقدام ، ولم يضعها أمامه نبراسا يهديه ، فضل الطريق .

ولو أنه فعل لأدرك أن فيه — لا محالة — من أخيه سجايا وصفات ، وفي أخيه من صفاته غير قليل . .

فهو صلب الشكيمة عنيد لا يسهل أن ينقاد فليس بدعا أن يكون زياد ذا عناد .
وهو ليس بالغرير الذى يخلبه المظهر دون أن يغوص فى الباطن إلى القاع ،
بل هو اليقظ الواعى الذى يقع بذهنه وعينه على الهنات الصغيرة كما يقع تماما على
المعالم المميزة ، فلا يفلتها من حسابه ، وتهديه نظراته الناقدة اللامعة للولوج من
خلالها إلى معرفة أقدار الأشخاص ، وقيم الأشياء . فأشبه به إذن أن يحرص على
مكائنه أن تمنن وتذل ، وعلى قبحة ما فى يديه أن ترتخص وتنتقص ، وأشبه من
بعد بزياد — بنفس الميزان — أن يكون على شاكلة وإن يكن الحرص هناك ،
فى حالة العاهل الأموى ، حرص أئمة وولاء للذات ، والحرص هنا ، فى حالة
العامل العلوى حرص إباء ووفاء . .

وهو أيضا صاحب طموح ، شغوف بالمجد ، وموالم بالاستزادة من أسباب الحياة .
يتطلع دائما ، فيما وراء الأفق المرئى ، إلى رجابة أفق الآمال . . فلا غرابة إذن أن
يتأبى زياد عن الانحياز إليه وإن أفسح له فى رقعة النفوذ وشأو الساطة بجواره
إلى غير حدود . فلأن يقال قانع خير من أن يقال جشع ، ولأن يقال عف
خير من أن يقال خائن . . لا غرابة أن يرفض النىء إلى ظله بدلا من فيئه لظل
الإمام لأنها الصفة الحاسرة بالثمن البخس . . فليس الذى هو أدنى كالذى هو
هو خير . ليس الباطل كالحق ، ولا معاوية كعلى ، ولا الاستغلال بظل منى
رسول الله إلا الجاه الذى لا يطوله جاء . .

لو أن معاوية أدرك هذا — وكان أولى به إدراكه — لما أقدم على التجربة .
ولجنب نفسه مهانة الفشل وصدمة الحزى من إغواء زياد . . ربما كان يغير
الأداة . . ربما كان يبدل طريقة بطريقة . . ربما كان يعيد مع العامل العنيد
التجربة القيسية التى أجدت عليه من قبل اقتلاع العملاق من حفاف النيل فيدس
له عند أهل العراق بالتلفيق . .

خواطر لعلها لم تغرب عن ذهن معاوية وقدأته أنباء فارس بعوقف صاحبهم منه ،
وخطبته فيه على ملائ الناس . وربما تضمنته كلمة الإمام ، والاعط الذى أشاءه

كلتاها وتناولوه بالإقذاع والسخرية في الجمع والمحافل ، على السنة الجمهور . .
ومع ذلك فليس هو بالذى يحنى رأسه أمام الإخفاق . لن يقبع في الظل وينام .
ولن يدع الأمور تجري على غير هواه . وإذا كان قد فاته الآن أن يلتوى بابن
أبيه إلى صفوفه ، ووجب عليه — لكيلا يفتضح — ألا يقاربه بمحنة جديدة
في هذا الوقت الذى تعلقت بهما فيه الأنظار ، فليس يسهه أن ينفذ يده من المشرق ،
ويدع الإمام ثابت القدم فيه على أرض صلبة وفى أمن موفور .

كلا ان يبدأ إلا أن يرج هذه النواحي عليه بضربة مدمرة ، تثير فيها
العواصف أو تفجر البراكين . . فلا بعيد أمام سعى . ولا محال مع حيلة . .
ولئن شطت عنه فارس بيقظة زياد ، وصلابة خلقه ، ورسوخ عناده ، واستقامة
وفائه ، فإن البصرة الآن أدنى قطافاً إلى عيئه ، وأقرب مسافة إلى الكوفة ، وأنأى
سواها من الأمصار عن مظنة الاختلاف على طى أو العبث بسلطانه . فلو عصف
بها فإن عصفه هو المقص الذى يتر ثانى جناحي غريه بعد بتر الجناح المصرى .
وهو للمفاجأة التى تبغته وتدعه كمشلول . وهو البؤرة التى تعكس على ما حولها من
بلاد شعاع الانتفاض فلا تسلم معها الكوفة الدانية من النار . .

ويشرع فى دسيسته الجديدة . .

على خلاف ما ينتظر ، اختار معاوية فريسة له ألصق الناس بالإمام ، وأقرب
أهله إليه ، وأخلص الخلاء الذين لا تربطهم به روابط الولاء السياسى وحده ، بل
صلات الولاء الروحى الوثيقة الذى جملة منه أحب تلامذته ، وأوعاظم أئمة ،
وأحرصهم على استيعاب نظراته فى الدين والحياة ونقل ترائه الفكرى الخالد ،
نقياً ، عبر الأجيال . .

اختار العاهل الخائل لتجربته التدميرية المقبلة « عنصراً » ليس كالعناصر
التي تناولها ، قبل يومه هذا ، بالمحاولة والتجريب . اختار امراً هو من طى
ابن أبى طالب بمنزلة الحواريين من السيد المسيح . يهوج نهجه ، ويسير سيرته ،
ويستقى من فيضه كمثل استقاء الجدول من النهر الكبير . . وإذا كان معاوية

— ذهابا مع شطحة أمانيه — قد شط في اختياره حتى لأوغل إلى آخر المدى ، فإنه الشطط الذي يحمد ولا يخشاه ، لأنه لو أضر ، بالغ لا محالة بالأمة الإسلامية جميعا ، بكل أرض وفي كل عصر — بتأثير النتيجة « الأسطورية » المذهلة التي سيسفر عنها — غاية الشطط والارتباك في تقديرها للأُمور والأشخاص ، ودافع بها إلى غيابة من الظلام والوساوس تضل فيها عن التمييز بين الباطل والحق ، الخطأ والصواب ، الزيف والصدق ، الشك واليقين . .

وحسبه هذا ، فهو ما يرجوه . .

أما الفريسة فكانت عبد الله بن عباس .

وأما الدسيسة فكانت التلفيق .

وتتعدد أماننا الروايات عن « الحادثة » موضع البحث ، التي نراها حيلة من حيل ابن أبي سفيان ، أو واحدة من تجاربيبه ، وبراها غيرنا حقيقة تاريخية صادقة عاشت على أرض الواقع المستيقن بغير شبهة من شك ، أو مجال لجدال . . فلقد قل من أغفلوها من رواة التاريخ ، أو أنكروها ، أو أخذوها مأخذ ريبة . وكثر أولئك الذين أوردوها كواقعه ثابتة ، ومن رتبوا عليها النتائج أو تناولوها بالتعليق ، حتى لتوشك القلة أن تكون نادرة لا يلتفت إليها وتوشك الكثرة أن تبلغ حد الإجماع

ومع ذلك فالصواب لا يكون دائما في جانب الكثرة ، كما أن الخطأ لا يكون دائما مع النزر القليل . بل من الإسراف في حسن الظن ، إن لم يكن في الغفلة ، أن يوزن الحق أو الباطل بميزان « عددي » يرجح أحدهما على الآخر بثقل كثرة الرواة والأتباع . . إنما يجدر ، في مقام كهذا ، بالراوية ما يجدر بالناقد ، فيضع في حسابه ظروف الحادث ووقته ، والخاسر به والمفيد منه ، مع للعالم النفسية والخلقية لمن عاش فيه من الشخصيات أو عاشتهم القصة للرواة . ثم لا يمكن أن تسكتمل الصورة ، بعد هذا كله ، جليلة واضحة ، إلا بعد تأمل واع في الجو

العام للواقعة مثار الخلاف ، ومعايرة دقيقة لكافة احتمالات الخطأ أو السلب ،
واحتمالات الصواب أو الإيجاب . .

على هذا النحو يستطيع فرز الصدق عن الكذب في كل رواية تواترت عبر
الأعصر على الألسنة وفي الأسفار ، وامتدتها عمرها الذي أخلق القرون بهالة
من القداسة جعلتها من المسلمات . . وبنفس الميزان نعاير ما نسب إلى عبد الله
ابن عباس من اعتزاله ابن عمه أمير المؤمنين في السنة التاسعة والثلاثين الهجرية ،
سنة التوبة المماوى الذى لمس بمصاهير السحرية بعض الوقائع كما لمس بعض الأشخاص
فإذا هي وهم جميعا ، على صفحات التاريخ المكتوبة غير ما كانوا في واقع الحياة . .
ولا نريد تعجل النتيجة فنقرر زيف حادثة الاعتزال أو نراها من ابتداع الخيال .
ولسكننا لا نستطيع أيضا أن نتطلع إليها بعزل عن سوابق معاوية في نفس هذا
المجال لأننا عندئذ إنما نهدر « الجو » النفس بكل ما فيه من دوافع ونزعات لها
أكبر الأثر في توجيه السلوك الإنسانى الذى يخلق الوقائع ويرسم مسيرة التاريخ .
وقد يؤدي بنا هذا الإهدار إلى خطل التقدير ، فنظم الصدق المطلوب ، أو نظم
النص المكتوب . .

ونبدأ من البداية . .

تقول الروايات . .

أصاب ابن عباس من بيت مال البصرة مالا لا حق له فيه ، فلما انتهى الخبر
إلى على غضب أعظم الغضب ، وأراد أن يرد ما أخذ فأبى ، ثم خرج بهذا المال
من البصرة ، معتزلا عمله ، قالوا لابن عمه ، نأقما عليه ، فأقام بالحجاز ، يتعم
بما أصاب . .

والقصة هكذا تقدم لنا ابن عباس في غير صورة ابن عباس . . فهي بما تضمنته
من نصوص تنزل به في حمأة السقوط إلى أبعد قاع . وهو بها الخائن الذى كأنما
حرص على أن تجتمع فيه كافة الحياتيات . خائن دينه الذى ينافى السلوك المزعوم ،

ويضعه بحكم التنزيل ، فوق قمة التحريم . خائن وطنه في أحلك الظروف التي تتطلب تضافر جهود كل أبنائه ، عمالا ومواطنين ، مسلمين وغير مسلمين ، لوقايته من التردى ثانية في وهدة الانحلال التي تحفرها له النكسة المادية ، المغلبة للشهوات على البادى ، والقيم الإنسانية ، بعد أن انتشله منها الإسلام . . . خائن ولائه للنظام وعهده للإمام . خائن حق مواطني البصرة عليه بالتخلي عن عمله كما يتخلى الراعى عن القطيع ويدعه للذئاب . خائن ماضيه ، وراث أبائه ، وشرف البيت النبوى الذى ينتسب إليه ، ويعمل بمنزلته منه الرجل المأمول الذى تتطلع إليه أنظار الأمة الإسلامية بمد على وولديه سبطى الرسول . .

ليست هذه قط بصورة ابن عباس ، ولا يمكن أن تكون وإن استطارت بها الأخيار ، وتعدد الرواة ، وجرت فيها أقلام المحدثين والقدامى من كتاب السير والتراجم بالتعليق أو بالتعليل . . فما هى جديدة ، فيما نخال ، بالتصديق أو بـمسحة من التصديق إلا أن يكون هذا تجنيا على روية التفكير . إذا قيست الواقعة بسببها المعلوم المتواتر ، لكان أحرى بها أن تنهار من الجذور كالصرح الباذخ الذى يبقى على رمال . وإذا هى وزنت بما فطر عليه ابن عباس من طبيعة ، لما كان لها فى كفة الميزان إلا كمثل ثقل الهباء . وإذا هى خضت فى ضوء ما اشتهر عنه من خلال : ديننا وخلقا وعقلا ، وكلها خليق بأن يكفه عن الدنيا ، لحق ظلمتها إيمانه ، واستقامة خلقه ، ودقة نظره فى الأمور الدقة التى تورث الحذر والتبصر ، وتهب إحسان التقدير . .

شق ألوان الافتراض التى قد تخطر ببال كحاولات لنفهم واقعة الاعتزال ، كفيلة أن تمضى بنا ، وبأى إنسان ، فى طريق مسدود . فالواقعة أشبه بشطحة خيال . وسببها أدنى إلى عبث خيال . فإن قيل من بعد ، عسى الاعتزال قد وقع بين العامل وبين أمير المؤمنين نتيجة تباين نظرتين ، أو تعارض سياستين ، فأين فى بطون تلك الأقاويل المروية ما لعله يشير ، من بعيد أو من قريب ، إلى باعث الجفوة الفكرية التى أثارت الخلاف ؟ .

لو ثبت هذا فظهر باعث كيفما يكون ، لما كان عجيبا أن تدب الفارقة بين علي وابن عباس ويقع على أثرها الاعتزال ، ثم لا لوم ولا تثريب على المبين المعتزل .
أخطأ بفعله أو أصاب . . فالرأى عادة — أى رأى — هو اجتهاد رائيه .
والاجتهاد ثمرة عوامل عديدة : نفسية وموضوعية ، تحرك الذهن وترمم له نهج التفكير .
سوقد يتغلب بعض هذه العوامل على بعض ويؤثر فى الرأى ، ويطبعه بطابعه ، أو يشوب سلامته منحرفا به عن السواء . ومع ذلك فحق للرأى ، بغير نزاع ، أن يعمل بما رأى ما دام على ثقة منه واقتناع به ، إلا أن يتبين له وجه الحق فى سواه . .

لكننا لا نجد هنا اختلافا فى السياسات ولا رأيا فرقا بين صاحبين ، لأن موضوع الاعتزال المزعوم بديهية لا تقبل اجتهاد الرأى وتباين النظرات . .
نخلاصة القصة ، بإجماع الروايات عامل غاصب لمال منصوب ، المال مال عام ، والعامل موظف عام ، والولاية على كليهما للسلطة الشرعية الممثلة فى الإمام ، بحكم الدين وبحكم القانون . فإذا لم يكن للسلطة أن تسائل الغاصب ، وتسترد منه المنصوب ، فأى دور لها عليها التزامه فى مثل هذا المقام ، لردع المعتدى ، حماية لحقوق الجماعة ، وحفظا لهيبة النظام ؟ . .

ما من امرئ يسعه أن يرى ، بالنظرة العابرة العادية أو بالنظرة المدققة التحليلية ، فى واقعة الاعتزال العروضة أمامنا على نحو ما نقلها الرواة ، غير حادث سرقة أو جريمة اختلاس . . وما من امرئ أيضا يسعه ، مهما أوتى الحجة وفصل الخطاب ، أن يمارى فى طييمتها ، فيغير من وصفها هذا بوصف سواه ، يخرج عن فهمها على حقوى النظرة الصريحة لعامة الناس ، وإن كان الفاعل ابن عباس ، أو كان الرأى هو ابن عباس . . ولئن حلا ، قديما وحديثا ، للمؤرخين والمعتبين أن يوردوا فيها الألقاويل والتهاوليل ، ويكثروا التعليق والتأويل ، يحاولين تصويرها فى هيئة انفضاض عن الإمام من أقرب الناس إليه ، وخروج على طاعته ، ومقاومة سلبية للسياسة التى ينتهجها فى تدبير أمور الشعب والدولة ،

فهذه هي المحاولة التي تضع الاعتزال — من ناحية النظر الجدلي — في نفس مكانه من المهانة والابتذال ، لأنها لا ترجع رأي المعتزل المهاجر أو تبرر سلوكه ، ولا تنال من نظرة المعتزل للهجور وسلامة تصرفه . بل هي ، قبل هذا كله ، المحاولة التي تشق على نفسها بالتبرير أو بالتمذير حيث لا موجب لالتماس للبررات والمعاذير ، لأنها تسير إلى غير غاية ، وتدور في فراغ ، جرياً وراء وهم خادع والكذوبة مفتراة . . .

الدين عنوا ، من كتاب السير والتراجم ، بتداول « اعتزال » عبد الله بن عباس عليا بالرواية والتعليل ثم نظموه في سلك الواقع ، لاح كأنما جمعوا له من دقائق الحواشي وتفصيلات الأخبار ما يستطرد به على السطور في تسلسل منطقي سليم ، وترايط حدثي محكم ، ونسق عضوي محبوب ، حتى لتبدو الصورة بألوان كثيفة صارخة ، وتبدو الحبكة في الحدث المزعوم ، وهي حبكة صناعة لاحبكة طبيعة . .

ولا ندعى أنهم يحلوه غير ما ذكر عنه ، أو قيل فيه . ولكننا نحسب أن الدقة في رسم القصة ، على هذا النحو المنقولة به ، من المبالغة والإغراق ، تسكاد تحمل على الشك فيها أصولا وفروعا ، لأن الحقائق الحية في غنى كل الغنى عن مثل هذه الحبكة « الفنية » التي لا تتوافر عادة على مسرح الحياة وإن توافرت في المسرحيات . .

ومع ذلك فإن ما اجتمع لهذا الحدث المزعوم من المغالاة لإظهار صدقه وتأكيده وقوعه — بكل شاردة أو واردة عرضت له من قريب أو من بعيد ، وبكل ما وقعت الأعين عليه فوق الأسطر من كلمات والتقطته الأسماع في الحمسات من شائعات ، وبكل صورة ذهنية أو لفظية له — يكاد يعيل بنا بعيدا عن مسيرة التاريخ . .

فلقد أغرقوا أجمعين في إبراز الاعتزال من خلال وقائع وجدليات لا تدعو لها طبيعة « الفعلة » التي أنشأته وما هي ، بظاهرها وبباطنها ، سوى جريئة اختلاس لا يمكن بحال أن تحصل الجاني — وفي مواجهة شواهد الإدانة وقرائن الإتهام — إلا على الاعتراف والإقرار ، وقد تحمله على الإنكار أو محاولة الإنكار . ولكنها ، قطعا ، لاتدفع به في مهامه من الجدل والحوار

هو أول من يعلم أنها لابد مشددة عليه النكير مفضية به لا محالة ، بعد طول اللجاج والمكابرة ، وفي نهاية اللطاف ، إلى حسر أبلغ من الاعتراف . . .
والصورة المنقولة إلينا عجبية . .

فالروايات تسكاد تجمع بغير اختلاف ، على عامل سالب ومال مسلوب . ثم تتفق على جدل مكتوب يشير سالب المال في رسائل لا يكون قصاراها أن تنفي جرمه أو تبرئ ساحته ، بل كأنها تؤكد للناس ، بخطه وألفاظه ، اعترافه بالإثم غير متلوم وإقراره الصريح بالوقوع فيه . . . ثم تتضافر معا على تصوير الآثم سادرا في غلواء من الجدل المكابر والمكابرة الجدلية إلى الحد الذي يقلب فيه الأوضاع فيقف من قاضيه موقف القاضي ويزج بالإمام في قفص الاتهام . . .
تصور للأمر غير مقبول . ودفاع عن النفس غريب ، ابن عباس أكيس من أن يسوقه ولو كان حقا التوى بالمال . .

لكن مستيقن الصدق في القصة « الرسومة » لا يريهم فيها ما هو غير مقبول معقول اكتفاء بالروى المنقول ولو أمعنوا النظر لطالعتهم فيها ثغرات تسكاد تجعل بناءها ينقض من أصل دعائمه ، وتهوى بها في هاوية الخرافات . .
أقوى شواهد صدقها لديهم ، البنية اللفظية للخطابات التي زعم أنها تدور حول السرقة والاعتزال وبعث بها الإمام إلى ابن عباس . فأسلوبها اللغوي ، فيما يرون أسلوب على . وعباراتها توحى إلى ابن عمه الإيحاء المعبر الذي يغني عن الإفصاح ، وليس كهذه وذلك دلالة أقدر على إبراز حادث الاعتزال كحقيقة تاريخية ثابتة لا تقبل الجدل . .

قيل . . .

كان مما كتبه الإمام إلى ابن عباس ، وقد عرف أمر نزوه على مال البصرة بغير حق :

« . . . بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك ، وعصيت

إمامك ، وأخزيت أمانتك . . . بلغنى أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك . فارفع إلى حسابك »
ومما كتب :

« إني كنت أشركتك في أمانى ، وجملتك شمارى وبطانى . ولم يكن في أهلى رجل أوثق منك فى نفسى . . . فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب ، والعدو قد حرب ، وأمانة الناس قد خزيت . . قلبت لابن عمك ظهر الحجن ، ففارقه مع المفارقين ، وخذاته مع الخاذلين ، وخته مع الخائنين . فلا ابن عمك واسيت . ولا الأمانة أدبت »
ومنه أيضاً :

« أيها الممدود كان عندنا من أولى الألياب . . . كيف تسبخ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما ، وتشرب حراما ، وتبتاع الإمام ، وتسكح النساء من أموال اليتامى والمساكين وللمؤمنين والمجاهدين ، الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال ، وأحرز بهم هذه البلاد ؟ . . فاتق الله ، واردد لهؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل ثم أمكننى الله منك ، لأعذرن إلى الله فيك ، ولأضربنك بسيفى الذى ما ضربت به أحدا إلا دخل النار . . والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ، ما كان لهما عندى هوادة »

هذه الصور اللفظية هى التى تؤكد ثبوت حدث الاعتزال ، بدلالة الأسلوب وإشارة الخطاب ، فى رأى كل من حكم بالثبوت . .

وليس ثمة من وجه لاعتراض معترض على هذا الرأى الذى استند إليه الرواة ، وتعلق به المعلقون من بعد وهم يلصقون جريمة الاختلاس بابن عباس ، ويسلسكونها حقيقة واقعة فى نسق التاريخ ، ما دام الأسلوب ينم عن الكاتب ، وعباراته ترمى إلى المخاطب ، وسباق الكلام يؤكد الاتهام للزعم . . لا وجه ، حقا ، للاعتراض على حكم ، الاتفاق عليه يشبه الإجماع ، إلا أن يبين لنا ما قد

يبرز أسبابه ، وينقض أركانه ، فيطمئن فيها وفيه بالبطلان ، أو بالقصور على أقل تقدير . . .

والقصور والبطلان نراها معا حاضرين في جانبي القضية المعروضة : جانب الشكل وجانب المضمون . . .

أما الشكل ، فإن أسلوب الإمام نهج من صياغة الكلام بليغ مبين ، يسحر العقول ويستهوئ الأسماع ، تناول به صاحبه كل خاطرة ، وطرق كل موضوع مما يلم بالدين والحياة حتى غدا مدرسة فكرية ولغوية لدوى الآراء وأئمة البيان تلمذت فيها قديما الأجيال ، وما فتئت إلى اليوم قبلة يؤمها كثيرون . . فإذا هي أثمرت ثمرتها ، وخلقت وراءها أناسا يحتذون حذرها ، فليس من العجيب الغريب أن نجد فريقا ممن نشثوا في ساحاتها ، وارتووا من بناييمها يسعهم — انطبعا أو محاكاة — أن يمشلوا طرائقها المعروفة في التفكير والتعبير . . .

وإذا كان تقليد أسلوب على ليس بالمحال على البلغاء الموهوبين والمتحسين ، وبخاصة في العصور المتقدمة التي بلغت اللغة فيها شأوا الازدهار ، فإن أمامنا أيضا ظاهرة ، ينبغي ألا تغفلها من الحساب ، لأنها تؤيد إمكان التقليد ولو ببعض التأييد . . فقد جاء في استهلال إحدى رسائل الإمام الزعومة لابن عمه عبارة سلف ورودها — بالكلمة والحرف — في كتاب له إلى مصقلة بن هبيرة عن واقعة مماثلة التوى فيها ابن هبيرة عما لم يكن له فيه حق من أموال المسلمين واستحق به اللوم من على في خطاب قال فيه :

« . . . بلغني عنك أمر ، إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وعصيت إمامك . . . »

مقال كمال . واستهلال هو نفس الاستهلال .

فإن قيل إن السكائب — أى كاتب — لا يسلم من تكرار بعض العبارات بين وقت وآخر ، وكلام وكلام ، فمن الممكن أيضا أن يقال إن مطابقة العبارتين إحداها السابقة الأخرى اللاحقة لم تكن عفوا بل نتيجة محاكاة أريد بها ضمان

اقتناع القارئ والسماع بأن كلا الكتابين من مصدر واحد هو الإمام . وليس
عجوه أن حادث ابن هبيرة كان قبل حادث ابن عباس فلا عجب إذن إن أخذ
الكتاب المدون إلى هذا الأخير بشبهة التقليد ..

وكما أن محاكاة أسلوب على تقع في نطاق الاحتمال والإمكان ، فكذلك
لا يبعد أن تقع أيضا عباراته المؤمثة إلى شخص مقترف الاعتزال في نفس النطاق .
فما ينكر أحد ، أو يجهل ، أن لغة العرب قد درجت على مخاطبة الغريب
— كالتقريب — بصور أسلوبية عديدة تشيع فيها ألفاظ التعاطف والتقريب ،
اجتذابا لمشاعر المخاطب ، أو تقديرا وتديلا له ، أو ولوجا إلى نفسه من أوسع
باب وهو باب العتاب الرقيق . فكم قيل « يا ابن أم » .. وقيل : « يا أخى »
وقيل « يا عم » وقيل وقيل إلى غير هذه وتلك من ألفاظ لا تمبر عن حقيقة
الصلة الأسرية ، ولا تزال منها إلى الآن في لغتنا اليومية أشباه يفسر بقاؤها
التزامنا قواعد المجاملة وأدب الخطاب ..

ثم ندع الخوض في الشكل إلى الموضوع ، فلماذا عسانا نرى فيه ؟ .. بأعلى
صوت تنادى الشواهد بأن الواقعة ، جملة وتفصيلا ، حكاية هازلة أدنى إلى
أن تكون أحق بالتندر والسخر في حلقات السمار وسهرات المتندرين منها إلى
رواية جادة خليفة باهتمام المؤرخين والمثقفين ..

من خلال وثائقها الدعاة ، تبرز صورة لابن عباس ما هي قط لابن عباس ،
لأنها تجمع من نقائص صفاته وأضدادها ما لا يسرح إلى مثله سوى خيال محموم
تتخبطه الأوهام .. فيها الغفلة والغرة . وفيها الحق واضطراب التفكير . وفيها
القدر والحياة . وفيها كل ما يخالف طبيعة المامل للفتى عليه ، ويخرج به عن
أدب الدين وناموس الأخلاق ..

ومن خلال الحقائق المقررة ، تدبو الحكاية المزجاة عن سياق التاريخ وخطه
المستقيم ، لأن القدمات فيها تجافي النتائج المترتبة عليها ، والمسببات تعارض
الأسباب ..

فلقد أبى المدعون — فيما نسبوه لابن عباس — أن يرفع إلى أمير المؤمنين حساب ما تحت يديه من مال البصرة وإن كان ليعلم حق العلم أن رفع الحساب حجة له تدرك عنه الشبهات ، وحجبه حجة عليه تلمس به التهمة . ومع ذلك فقد ارتأوا له ما لا يرتأيه عاقل بحسن التقدير . . ثم زادوا فقالوا به إلى الاستعلاء ، محاولا التوصل من تبعه الالتواء بما أوّمن عليه ، ومدعيا لنفسه حقا خالصا في ذلك المال أكثر مما أخذ وإن كان لمؤقتا كل اليقين أنه وغيره فيه سواء دون تمييز ، إذ هو رجل عن المسلمين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وحقه في المال كحق أى الرجال .

... . أبوا في الأولى ، حين طالعه أمير المؤمنين بما بلغه عنه . فلم يدفع التهمة ، ولم ينقضها بدليل . بل اكتفى بنفسها بوضع كلمات لا تغنى السائل ولا تعفى للمستول .
ديج كتابا كان كل ما جاء فيه :

« إن الذى بلغك باطل ، وأنا لما تحت يدي أضبط وأحفظ ، فلا تصدق على الأظناء . . »

فإذا هو المستخف المستهين . .

... . وأبوا في الثانية ، مكابرة وعنتا ، حين ألح عليه الإمام بطلب الحساب ، فأجاب :

« أتانى كتابك تعظم على ما أصبت من بيت مال البصرة . وامرئى إن حق في بيت المال أكثر مما خذت . . »
فإذا هو الصاف المستكبر .

ثم زادوه غيا وغرة ورعونة ، ففارق عمله وتوجه إلى مكة بالمال المسلوب ، جهرة وعلى ملأ ، حتى ضج أهل البصرة غيرة على ما لهم ، وهموا أن يبطشوا به . فما ارعوى وثاب ، ولا رد ما اغتصب ، بل امتنع منهم ببني هلال أخواله ، وشطر الناس في المصر شطرين متناجرين : فريق عليه برأى الحق ، وفريق معه بحكم العصبية ، يتداعون جميعا إلى السلاح حتى لتوشك الحرب الأهلية أن تحرق البصرة لولا أن تدارك عقلاء القوم السكارثة قبل أن تندلع النار . .

ومع ذلك فانطفأ الفتنة ، وظفره بالمال الحرام ، لا يقمده في مكة عن الإيمان في الجاج الاغترار . . وإعما تهيء له نظراته المنحرفة — أم نظرة الرواة ؟ — أن يؤجج لهيب الخصومة بينه وبين علي فينصب نفسه قاضيا بحاكمه ، ويناقشه الحساب . . .

كتب إليه علي يحاول أن يهديه :

« . . . من العجب أن زين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد ألبعت إن كان عينك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ، ينجيك من المأثم ، ويحل لك المحرم . . . وقد بانغى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا ، تشتري بها مولات مكة ولدينة والطائف ، تختارهن على عينك ، وتعطى فيهن مال غيرك . . فارجع هداك الله ، إلى رشذك . . واخرج إلى المسلمين من أموالهم . فَمَا قَلِيلُ تَفَارَقَ مِنْ أَلْتِ ، وَتَرَكَ مَا جَمَعْتَ . وتغيب في صدع من الأرض غير موصد ولا مهد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عما خافت ، فقيرا إلى ما قدمت . . »

فلم تحركه — بروايتهم — العظة ، هو التقي النقي ، بل أعمى في الظلام ، بحماقة معتوه ، وغفلة غرير ، إلى محاولة مفضوحة تأخذ الإمام بجريرة جرم ابن عباس نفسه أول من شارك فيه . . .

كان جوابه المجيب :

« أما بعد ، فإنك قد أكثرت على . ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلها ، وذهبها وعقيلاتها ولجيتها ، أحب إلى من أن ألقاه بدم امرئ مسلم . . . »

خطأ بخطأ ، أو جريرة بجريرة ، فلا لاثم إذن ولا ملوم لأنهما كليهما في الإثم سواء . . . وكأنما نسي ابن عباس — أو بأصدق تمبير ، من لفق حكاية الاعتزال ودسها عليه وعلى التاريخ ، أنه بهذا الدفاع الحبيط ، يقر على نفسه بجريرة السرقة من حيث أراد إثبات غثائتها إذا هي قيست باقتراف على إراقة دماء

للمسلمين . . . وكأنه نسي أيضا أن دفاعه يجمع عليه الجرمين معا ، لأنه شارك
إمامه القتل والقتال من أول لحظة امتشق فيها الحسام . . .

لكنه السياق الذى جمعت روايات الرواة فيه بلا روية كالطرائد المذعورة ،
تضرب على غير هدى ، فتقلب وتضطرب ، وتتمثر وتسكبو ، وتتجاوز
في تخبطها الضال مجال الخيال إلى مجال الخيال . . .

وها هو يبعث إلى الإمام ، حين رآه يعاود تذكيره حق الناس وحق الله ،
برسالة وعيد :

« . . . لأن لم تدعى من أساطيرك ، لأحلمن هذا المال إلى معاوية
يقاتلك به . . . »

ومن العجب أن يتهدد ويتوعد وهو الحقيق بالوعيد والتهديد . . . ومن العجب
أيضا أن يسكت على عليه ، ويقبض عنه يد السلطان التى تستطيع أن تناله بالعقاب
أينما كان ولو لاذ بأبعد مكان . . . فعلى كثرة ما ورد فى واقعة الاعتزال من
أقوال ، وما لفتت الروايات وراء التفاصيل ، تقف السنة الادعاء عند مكة
خرساء . فلا نحن نسمع عن رسول من لدن على بلغها لمحاسبة ابن عمه . ولا نحن
نعثر على كلمة واحدة إلى عامله عليها ليلاحقه بالحساب . . . وما كان الأمر عليه
بالمسير ، ولا بالذى يغفل عنه لو قد وقع — فعلا — من ابن عباس ما يستحق
المؤاخذه والعقاب بل الإعذار والعتاب . إنما كان أولى به ، وأهون عليه . فإذا
قيل : إن لياذ معتصب المال بالبلدة الحرام ، وفيها قومه وأهله الأدنون ، كان
عاصم له من المساءلة والردع ، فإن أولئك القوم هم كذلك أهل أمير المؤمنين ،
فهم الصق به وشيعة ، وأحرص على امتثال أمره ، وأقرب إذن إلى أن يكونوا
معه على ابن عمه الخارج عليه . ثم لا عاصم أيضا فى منكر ، ولا جوار لأثم . .

غير أن الاقتضاب ، فيما يلوح ، كان أليق كنهاية لهذه الحكاية — التى تفوح
من سطورها رائحة الافتعال ، وتشيع فى صفحاتها بصمات الادعاء والتهويل —
من النهاية الطبيعية التى يرسمها منطق الحقائق ، وخلائق على ، وسجايا

ابن عباس . . . فليس أيسر على الزاعمين من اقتضاب السياق ، ولا أسهل من إسدال الستار قبل الختام ، لأن بحسبهم أن يبلبلوا الخواطر ، ويوزعوا الاتهامات ، ويشيعوا الريبة في سمعة هذا وقدرة ذاك . .

ومع هذا كله ، فاختلفا في حدث اعتزال ابن عباس يكاد يكون الراجح وصدقه هو المرجوح - حين تلقى بنظرة متأملة على وقائع الحلقة المعاصرة ، من خلال النصوص التي نقلتها ، وماورد في ثناياها من آراء . .

فكثير من الذين ذكروا الحادث ، كواقعة تاريخية كثر روايتها إلى ما يشبه الإجماع ، أوردوا معه روايات آخرين وإن كانوا قلة ، تنفي وقوعه ، وتقرر بقاء ابن عباس على عمله بالبصرة لم يبارحه إلى يوم مصرع الإمام . . وغيرهم طائفة لم يذكروا شيئا عن الاعتزال وأغفلوه ، وفي الإغفال بطبيعة الحال ، دلالة على عدم وقوعه خليقة بأن تشكك في رواية الذين أثبتوه . . ومنهم أيضا من نسبته إلى عبيد الله بن عباس ، لا إلى عبد الله . ولعلهم إذ فعلوا ، قد دفعهم إلى هذا فرار عبيد الله من اليمن أمام يسر بن أبي أرطاة ، وما عساه قد اقترن بالفرار من احتمال خروجه — كمادة الفارين من الخطر — بكل ما استطاع حمله من مال إمارته خشية عليه أن يقع طعنة مائغة في يد العدو المعير . .

هذا الاضطراب الظاهر في الروايات ليس فحسب خليقا بأن يحمل على تقيل القصة المعروضة بالخذر والحيطه ، بل هو يحمل أيضا على الشك في صدقها ، ثم يدفع من بعد إلى نفي النفي القاطع إذا ما تبدى من سلوك أبطالها ، في مراحلها العديدة ، ما يناقض خلاصم الأثورة ، ويخالف فطرتهم المفطورة ، ويبين مألوف تصرفاتهم ومشهودها : ما عرف منها قبل الحادث المزعوم ، وما عرف بعده على السواء . .

وقد كان من الجلى ، في الحدث الروى ، أن به من التناقض بين السلوك الواقع وبين السلوك المنتظر من صاحبه ، ما يؤكد أن الفعل ليس الفعل ، أو الفاعل ليس الفاعل ، لأن صدور هذا التصرف من هذا التصرف هو الحال الذى

لا سبيل إلى حدوثه في واقع الحياة . فالقضايا المنطقية لا تجيء نتائجها عفواً وخبث عشواء . ولكنها تسير بقانون دقيق فتترتب على مقدمات بذاتها — لاسواها — لا تتحقق إلا بها ، فإن ثبتت الأولى ثبتت الثانية ، وإن تغيرت تغيرت حتى يمكن أن يقال إن لها صفة الاستقرار . . والأفعال سلوك لا ينشأ بذاته . بل ينبئ على مقومات شخصية الفاعل متفاعلة بظروفه ، فهي نتائج منطقية تتكرر دائماً ولا تتغير ، ما ثبتت المقومات وهي الأشخاص . وابن عباس ، على هذا الأساس كمال ، ليس من يسرق ، ولا من يخفر ذمته وينكث عهده ، ولا من يخون أمانة الله والناس ، لأن السرقة والنكث والخيانة نتائج منطقية محال ترتبها على المقدمة المائلة ، وهي شخص الفاعل المفترى عليه ، بمقومات شخصيته من فطرة ودين وأخلاق وتكوين نفسى ، كقيلة كلها بأن تعصمه من التردى في حماة مثل هذه الموبقات . . فإذا قيل ، في رواية أو روايات ، بسدور هذه الكبائر الفاحشة منه ، واجتماعها فيه فذاك هو النتيجة التي تناقض المقدمة . أو هو اجتماع ضدين معا كاللئ والبر ، ولا يجتمع ضدان في آن ، لأنهما لا يأتلفان . .

وبعيد عن التصور كل البعد أن تقع الجفوة التي شهدنا بين ابن عباس وأمير المؤمنين حتى تصل بالعامل إلى حد اللدد والتوعد ثم لا يتحرك معاوية ليستغل هذه الفرصة التي أتيته طائفة ، وتنبأت على غير انتظار . . فلقد عهدنا العاهل الأموى بجهد الجهد كله ، ويركب الشاق والعسير لاستمواء أصحاب على ، وهم بعد في ولائه ، اجتذابا لهم ، والتواء بهم عن غريته الحقيقي بالولاء . . ومع ذلك فلم نره هنا يحاول استمالة ابن عباس وإنه عندئذ لأطوع للميل إليه ، وأسلس قيادا ، بعد أن باين الإمام . .

إلى هذا كله لم تخل السير من مواقف مشهودة لابن عباس تعلن وفاءه لابن عمه ، واعتصامه بطاعته ، وحرصه بعد موته على تعجيده ونشر فضائله التي طالما حاول أعداؤه أن يواروها التراب . . وقد علم أنه كتب من البصرة ، بعد

مصرع الإمام ، إلى معاوية يقرعه ويقسو عليه . وعلم أيضا أنه كان لا يتعرج من مشاقته والعنف به ، على مسمع جلسائه ورجال دولته بعد اقتعاده إمرة المؤمنين ، خائضا في مثاليه ، معددا مناقب علي ، حتى لقد كان الرجل لا يكاد يخلص من سوط لسانه إلا أن يداريه ويسترضيه . فإذا كانت هكذا الحال فأين الجفوة وأين الاعتزال ؟ . .

كلا لم يخرج ابن عباس طي طاعة علي ، ولا اعتزله ، ولا التوى بعمال . بل قد ظل مواليا له ، حافظا عهد في خلافته . وفيا له ، ناضعا عن ذكره بعد موته . ثم تابع سيرته هذه مع الحسن فأسرع إلى بيعته ، ووقف بالكوفة يسانده ، وقاد مقدمته حين عزمت الكوفة على غزو الشام ، ولم يلق بطاعته إلى معاوية إلا بعد أن ألقى بثقلها إمامه الجديد ابتغاء السلام . .

إن لم تكن بصمات أصابع ابن أبي سفيان هي المنطبعة على حكاية الاعتزال ،
فبصمات من هذه تكون ؟ . .

ترجح جانب العاهل الأموي مقبول ممكن ، بدلالة سابقته في التلفيق .
وبشهادة أنه وحده الذي يفيد من القطيعة المنتظرة ، نتيجة للدسيسة ، بين
ابن عباس وأمير المؤمنين . وعلى أساس انتفاعه ، معنويا ، من أثر القصة
المختلقة في الداس كشائعة تثير الحواطر ، وتبيل الأفكار ، وتوحى إليهم أن
انفضاض ولي حميم ، لصيق الصلة بالإمام كابن عمه ، إيذان ببداية انهيار سلطان
علي ، وذهاب دولته ، وإعلان عن الدولة الجديدة البازغة ، يلفتهم إلى التعلق
بأذيال الشام .

ومع أن هذا الترجيح معقول ، فإن أمانة المرض لا تتيح لنا القطع بصحة
الافتراض ولكنها كذلك لا تتيح لنا نفيه النفي المطلق الذي يحرم . . إنما
الأميل إلى الحق أن نكر الاعتزال كحقيقة تاريخية وقعت ، وأن تثبت مظاهره
ومعامله كحكاية حيكت ، بقلم ما ، في يوم ما . . والفرق لا ريب واضح بين ما يحدث وبين
ما يكتب . ثم لنا في إنكار حدوث الحادث سند معتمد في خلايق ابن عباس ،
وفي التسلسل المنطقي للتاريخ . . كما أن لنا في الإقرار بوجود الحكاية كحكاية ،
سندا معتمدا من الرسائل والخطابات التي نقلها الرواة . .

ولا تماقض في هذا التأرجح من النفي إلى الإثبات ، ومن اليأس إلى اليقين .
ولا تفسير إلا بفرز الصحيح من الزائف ، والصدق من التزوي . .

فالرواية ثابتة مروية ، مصوغة في السير بالحروف والكلمات والعبارات ،
ولكن ما تزويده من وقائع ، وما تقدمه من أسانيد ، هو للرفض الدحوض
الذي لم يكن ولم يولد ، ومن ثم فإنه لم يدب بتقديم على أرض التاريخ . .

فإذا كان معاوية قد برىء من تلفيقها — ولا نكاد نراه — فلعل صنعة
للأمويين قد ابتدعها خياله . . ثم مشى بها لسانه في الندوات والمحافل ما شاء ،
لتفرض نفسها على الأذهان بقوة الإلحاح ، ثم لتتسلل إلى صفحات الأحداث
الصادقة التي لها ثبوت اليقين . .

أو امل امرأً من شيعة بنى أمية ، في عصر لاحق ، هدام إليها تفكيره ،
فأذاعها لتكون وسيلة شائقة سهلة ، يستطيع بها أن ينال من قدر شيخ بنى العباس
خفضا من هيبة بنيه الذين حطموا الملك الأموي ، وأقاموا دولتهم على أنقاضه .
ولا نظننا بهذا التقدير نيل كثيرا عن جادة الصواب وتاريخ الدول الإسلامية
المتعاقبة لم يسلم قط من عبث خصومها المباشرين بسيرتها ، وبسمة أساطينها ، من
خلال تشويه الحقائق ، وتزييف الوقائع ، واختلاق الأخبار . .

كيفما كان من وضع القصة ، فهي صورة لما تطالعنا به روايات الفترة من
محاولات الخداع والتهميش التي اصطنعها معاوية ، وزاد تمرسا باصطناعها في العام
الأخير من خلافة الإمام . . فقد كثرت منه في هذه السنة الأخذ — كما أسلفنا —
بالأساليب التي تضعف من شأنه على ، وتهون أمره ، أو تظهر له من الضعف
والهوان ما ترتع فيه الأخيلة والظنون . . وبرع في طريقته تلك البراعة التي
تبدى الأكاذيب في هيئة حقائق ، وتبدى الحقائق في هيئة أكاذيب . ثم جرى
في هذا كله على سياسة التدرج التي تفتقل بالرأى العام خطوة بعد خطوة ، ومرحلة
وراء مرحلة لتلوح للناس غايته التي يهفو إلى بلوغها وكأنها النتيجة الحتمية لتطور
الأمور . .

فمن عجب أن تسهوى أساليبه هذه الكثيرين ، وتلقى منهم الإكبار الذي
يضعه على قمة البراعة السياسية والاقتدار كرجل دولة مرموق ، حتى لنجدهم
يشيدون بهذه البراعة كفضيلة تحسب له ، وتسلكه في زمرة الدهاة والساسة
العظام ، لا كنيضة تحسب عليه ، وتنزل بعقابه على كصحاين ، وكصهر لرسول
الله . والرأى هنا ليس للمحاور ، بل هو تقرير . لأن المبادئ التي تضعها الشرائع

على اختلاف النوع والزمان والمكان ، ترمى إلى بناء الإنسانية الفاضلة على أساس الإنسان الفاضل . . فإذا نظرنا إلى الدهاء على أنه القدرة على التكيف لمواجهة طوارئ الحياة ، وتطويعها لمصلحة جماعة من الجماعات أو شخص من الأشخاص ، فإنها القدرة التي لا ينبغي إذن أن تسير إلى هدفها في غير طريق المبادئ المشروعة ، وإلا نزلت بقيمة الإنسان في عمومها ، وبقيمة صاحبها ، الذي سخط نفسه ، إلى وهدة سحيقة من السقوط لا ينبغي أن يهبط إليها إنسان ، لأنها عندئذ تخرج به عن حدود الخلق الرضى والسلوك القويم والمبادئ السليمة التي أفرزتها الإنسانية خلال فترات التأمل والعراع الفكري ، ورسمتها الأديان ، وما فتئت — طوال مراحل الحياة البشرية — تنادى باعتمادها متون الشرائع الموضوعة على اختلاف نظرات الدعاة والوضاع ، وتباين المواقف والبيئات ، وتجهد الجهد كله لحمايتها بسطوة الضمير أو ببطش القانون . .

فالقيم المثلثي مثل على امتداد الزمان والمكان . وهي دائماً غاية وأسلوب . والمجتمعات بشق صورها ، وبفارق هنا في الحضارة أو بفارق هناك ، تعمل في كل حين على ترسيخها في القلوب والأذهان ، وتنشيطها بالدعوة التي تهذب العقول وتثرى الأفكار ، وبالق دعوة التي تترجم للتون إلى أفعال . والمجردات الفاضلة ، من أمانة وصدق ومروءة وعفة وشم وإيثار وما إليها من معالم السلوك السوى هي وحدها ، وبغير جدال ، طريق البشرية إلى التسامى عن حضيض الحيوانية التي تموزها القدرة على تفهم القيم الروحية والمعنويات ، فلا تكاد تدرك غير الولاء للذات ومفارقة الشهوات ، كما لا تكاد تعرف غير لغة الضبايع والذئاب ووحوش الغاب . وإذا كان معاوية قد هفأ إلى تسنم أريكة الحكم في الدولة الإسلامية ، وجند «دهاءه» لاحتلاب السلطان ، فشأنه وما يهفو إليه ، لأن الطموح لا يعاب . وشأنه وما يهيب بجهد واقتراره من هذا السلطان أو أصاب . وشأنه وما يختار به غرضها المبتغى من أساليب . . ولكن الدهاء ليس الالتواء . وليس بالمناقص تبني الأبحاد . وليس بإهدار القيم الرفيعة تضرب الأسوة لمن يريد الانكسار . .

فالحاكم أو الأمير في حقيقة الأمر ، قمة التنظيم الشعبي في كلا مجالي نشاط أمته : السياسة والاجتماع . وهو بوضعه ، هكذا ، قبلة كل الأنظار . وهو بفكره وقوله وعمله النبل الحى بين جماعته أو رعاياه الذى يحتذى للاقتداء . فهو إذن ، بكل ألوان سلوكه يقود مسيرة السلوك العام ، لأن حركة الحياة في كافة المجتمعات تقوم دائماً على ظاهرة التلقين وظاهرة التقليد ، وكلاهما يحذران من الأذى إلى الأدنى من الكبير للصغير ، ويتلقاها الخاصة والعامة — تلقائياً ودون اقتناع أو محاكاة — عن صاحب الأمر المرموق ، الذى تفترض له صفات التميز والاقتدار . وليس أحد في أمة من الأمم أرفع قدراً ، وأسمى مكانة من رئيسها ، ولا أولى لها باحتذاءها سلوكه : قوله بالاستماع ، وأمره بالانصياع ، وفعله بالاتباع . .

معاوية إذن ، حين يقول أو يأمر أو يعمل ، حقيق — كقائد لمجتمعه — إن تلتفت إليه الأذهان ، وتصفى الآذان ، وتهرع رعيته ، فرادى وجماعات ، إلى السير على نهجه في المقول والمفعول ، بل في المفترض والظنون ، ولأجله ، أو تشبهاً به ، أو إيماناً منها بأنه يفكر فيجيد التفكير ، ويدبر فيجيد التدبير ، لأنه الأفدر على معالجة الأمور . . فلا عجب ، بعد ، أن يكون بحكم وضعه على قمة التنظيم الاجتماعى في إمارته هو الذى يحدد للناس مباحج السلوك ويحملهم — أو يحرهم — بركوب هذا الطريق أو ذاك ، ويعيد تشكيل فكرهم وخلقتهم وفقاً لقوالب فكره وخلقه وما يستحدث من رأى ونظم وتقاليد . .

ولقد جيل الرجل قوالبه هذه ، فيما بدا ، من طين الذات . . . من الأثر . من النفع الخاص . من الالتواء الذى سماه رواة التاريخ دهاء وما هو بدهاء . من الخداع الذى سموه ذكاء وما هو بذكاء . من الأنانية التى سموها طموحاً وماهى بتسام إلى العلياء . . . فإذا تضعضعت في نفوس الأمة ، من بعد ، مثليات المعنويات ، وعز وجود الإنسان الفاضل أو ضاع في الغمار ، وتمرغت القيم الروحية والخلقية في وحل الماديات ، فالمعقب إذن جيل من الناس صاغه على تلك الشاكلة المنحرفة ، وانحدرت منه — على نفس غرارهِ — سلسلة الأذيال .

كلا ليس بمحمدة ، بل هو نقيصة ، ذلك الدهاء الذى ادعاه الرواة لاهل بنى أمية ، ولونوا به صورته ، وعطروا ذكره ، ونقلوا لنا من خلاله حياته العامة كعلم بين الساسة العظام . . ولئن كان الرجل قد شاء أن يبنى لنفسه ملكا فلقد كان أولى به — وفاء الإنسانية ، وحفظا لثرفها ، وحرصا على تطورها إلى الارتقاء — أن يبنيه على الفضائل ، أو يدع الأمر لمن هو أفدر على إقامة البناء . . ولئن كانت الخصومة قد لجت بينه وبين على ، فإن النية إلى الحق كان أحق بأن يفض النزاع . . لكنه أبى إلا أن يحتل ويعوه ويخنال لتكون النتيجة على ما يهوى وكما شاء ، أحسن لجيله ولما بعده من أجيال أو أساء !

ويوشك للمرء أن يتردى فى حمأة رذيلة من الرذائل فلا يكاد يجيه من التردى إلا أن يشق على نفسه بشدة الأخذ والقمع كما يشق على الراكب ترويض دواب نافر حرون . .

فالرذائل — عادة — شهية ، خفيفة على النفس ، طريقة معبد قصير . والفضائل — عادة — مريرة ، ثقيلة عليها ، طريقة وعمر طويل . . والمستمسك بالمبادئ العلية أو بدينه ، كالقايض على الجمر ، كما قد قيل . وإذا كان معاوية ، وهو الفطن الكيس الأديب اللبيب ، « أعدل » من أن يخدع ، فلقد كان أولى به أيضا — لسابقة إسلامه — أن يكون « أفضل » من أن يخدع ويجنح إلى الانحراف . ولو أنه حاسب نفسه قبل أن يقدم على ما أقدم عليه ، لتوق هذه المزالق ، ولنظر كنظرة غريزة إلى الحياة ، ولوعى مثل حكمته التى أدلى بها ذات مرة لابن عباس وكانت دائما له شعارا يرفعه فوق الرءوس . .

تلك الحكمة الخالدة تقول :

« ما قربك من الله يبعدك من النار . وما باعدك من الله يقربك من النار ، ولا خلاف فى صدق هذا الشعار . .

لكن الهوى يبيت القلوب ، ويطمس البصائر ، ويعمى الأبصار . . ومع هذا فلا غرابة فيما اقترف العاهل الأموى من « أخطاء » لو أنه وزن ميزان المفتونين بهذه الحياة . . فالناس ، إلا ندره ، يقبلون بشغف هو النهم

على ما لا تبيحه أصول الأخلاق ، أو تجيزه قواعد الشرائع ، لأن كل ممنوع مرغوب . ولأن المنع حرمان وتجريح ، والمزاولة امتلاء واشباع . ولأن ثمرة الرذيلة للذة حسية أو معنوية عاجلة يستمتع بها المرء في حياته السائلة ، سواء بإرضاء شهوة الجسد أو بتحقيق مغنم مطلوب . أما الثمرة الحقة للفضيلة فثمرة مرجاة ، وجزاء مؤجل إلى عالم بعيد محجوب ! . . .

فامل معاوية قد شاء أن يتمجج اللذة ويسبق القطاف ! . . لعله آثر اختيار الطريق القصير ! . . لعله أنسى ، في إبان امتثاله بالسلطان وموجدته على الإمام ، ذلك العالم البعيد المحجوب .

وكيفما كانت نوازع الرجل ودواعيه ، فقد استمر المنهل الذي رآه يرويه وانحرف بكل عزمه عن المثليات الفضلى إلى خطته يتابع السير عليها بثبات وتصميم ، يتبع الخطوة الخطوة ، ويقطع الشوط بعد الشوط ، غير متعرج أن يدوس من القيم الإنسانية ما يدوس . فبحسبه أن يتم رحلته ! بحسبه أن يبلغ غايته وإن خالف المشروع ، وقارف الممنوع ، واستباح ما لا يباح ! بحسبه ولاء نفسه أن يرتفع بها فوق الأعناق ولو على حطام الأخلاق !

ثم آن له ، بعد هذا أن يكمل سلسلة تمويهه ، فيقطع من الخطوة إلى هدفه مرحلة جديدة . .

هذه المرة اتجه وجهة من نوع آخر في عرض نفسه على الناس . وجهة لا يقصد بها إلى رجل بذاته من خاصة على وأرليائه تلويه عنه . . ولا إلى بلد من البلدان أو إقليم من الأقاليم يثيره ويؤلبه عسى أن ينفذ عن غريمه فيلتحق بمحدوده ، ويزيد في ملكه . بل لقد طار إلى ما وراء الأمانى وحلق في سماء حلمه الموعود الذي يحتوى العباد والبلاد ، فاستبق بكيده يسرع إلى جمع شعوب الإسلام وملتقاهم بلعبة ما كيزة من الاعيىة خليقة بأن تأخذ العقول والعواطف بمثل السم ، ويسرح أنرها على الدواة سروح النار في الخطب الجاف ، لتحتويها جميعها وتطويها طيا من القلب والأطراف . .

وجه معاوية ، هذه المرة ، لعبته إلى موسم الحج الذي يمثل للوثع السوى الإسلامى

العام ، ويأتيه الحجيج ، على الأقدام والضوامر ، مندوبين شعبيين عن مواطنهم من كل جنس ولون ، في كل أرض أظلمها علم الإسلام وكادت تضم في رقعتها المنبسطة — من خليج الهند ناحية الشرق ، إلى بحر الظلمات ناحية الغرب — نصف عالم تلك الأيام ..

فكأنى بتلك الأفواج الحاشدة ، التي اجتمعت في رحاب الله ، وعند بيته الحرام ، قد أخذتها دهشة غامرة وهي ترى يزيد بن شجرة الرهاوى يعلن نفسه أميرا على الموسم من قبل معاوية ، ثم يحاول أن يقيم للناس حجهم ، ويؤمهم في مناسكه ، وما ظنوا لحظة ، ولا عهد غيرهم قبلهم في المواسم السابقة ، أن يكون أمير الحج من قبل امرئ غير علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وصاحب الولاية الشرعية على الدولة ، وعلى البلدة الحرام .

فما الذي غير مألوف الأوضاع ؟ . . .

إنهم لغير ملومين لو شط بهم التساؤل وذهبوا كل مذهب مع الظنون . .

أقد غلب معاوية على الأمر ، فصار له تعيين الأمراء ؟ . .

أم اقتسم وغيره مظاهر الإمرة في هذا الموطن ، عن اتفاق ، لهذا عام ولذلك عام ؟ .

أم تقاص نفوذ علي عن الحجاز كما تقلص من قبل عن مصر بعد الشام ؟ . .

أم اقتحم ابن أبي سفيان على الإمام عرينه ، إذ ابتشعر منه الضعف ومن العراق التخاذل ، فتعداه في حماه ، وهو موقن بمجزئه عن التصدي للتعدي ، وعن رده لرده إلى حيث ينبغي أن يكون ؟ . .

ما نرى معاوية ، بفعلته هذه كان يرمى — فعلا — أن يؤمر ابن شجرة على الموسم ، ولا كان يعتقد قط أن سيتاح لرسوله القيام بما ندب له ودونه بمسكة عامل لملئ وأنصار ، إن يكونوا بعيدين عن قاعدة حكمه بالكوفة ، فهم بلا مرأ أشد قوة بموطنهم ، وأعمز نفرا ممن عسى أن يكون له هو من أنصار . .

لكنه أقدم على ما أقدم ليعلم الحجيح ، وليعلم بعدهم من وراءهم من مواطنهم ،
بمختلف البلدان في الأقطار الإسلامية المترامية ، أنه صلب العود ، قادر على
مناوأة خصمه ، وعلى اقتحام حماء في أى وقت يشاء . . أما أن يحال بين مندوبه
ابن شجرة وما أوفد له ، أو أن يثور النزاع بينه وبين قثم بن عباس عامل
الإمام على مكة ثم يتفق الناس على رجل آخر سواهما لإقامة الحج جسما للنزاع
أن يؤدي لقتال في الشهر الحرام ، بالبلدة الحرام ، فإن هذا وذاك ليسا بما يهم
معاوية ، ما دام قد بلغ غرضه من التمويه على من شهدوا الموسم ، وضمن ذبوعه
من بعد — على ألسنتهم — فيمن يلونهم من الشعوب . .

وقد فطن على إلى هذه المكرة المنكرة من معاوية ، وأدرك سوء أثرها
في الناس فذب رجاله لرد ابن شجرة عن مكة . غير أنهم كدأ بهم وعدوه . ثم
مطلوا بالوعد . ثم ما زالوا يعطون في التسويف والمطل حتى سد دونهم بمنطقه
وتحريضه كل سبيل إلى المراوغة فخرجت فئة منهم لما أرادهم له ، على رأسهم ممقل
بن قيس ، يطبرون جنوبا إلى الحجاز . .

لكن خفة الحركة ، وسرعة السرى ، وحث السير لم تغنهم غير قليل . فقد
ذهب جهدهم كله مع الريح . بلغوا هدفهم بعد انقضاء الموسم ، وعودة الأمير
الدعى إلى الشام . ولم يكن كل ماجنوه سوى بضعة نفر من أصحاب الرهاوى
وقعوا أسرى ، فساقوهم أمامهم إلى الكوفة . .

وليس بمقطوع به ، وإن يكن أدنى إلى الرجحان ، أن هذه الحركة التمويهية
تركت أثرا في نفوس الناس ، نال من حزم الحكم الشرعى القائم ، وشكك
في اقتداره على مقاومة القوة النافسة له ، المتربسة به لتقضى عليه . . ولعلها أيضا
أن تكون خدشت هبة الإمام . بل لعلها هيأت الأذهان ، على أوسع مدى في
طول الرقعة الإسلامية وعرضها، لتوقع غلبة معاوية عليه واحتلابه سلطانه لو امتد
الوقت ، وسارت الأمور على نفس النسق الذى توهم الكثيرون — بفعل التمويه —
أنه الطريق الطبيعى للأمر . . ففى ما هو معلوم من حق على على الأمة قاطبة بحكم البيعة،

ومن علو قدره عند المسلمين بعزلاته من رسول الله ، ومن قربته إلى قلوب
الكثيرين بآثر خلقه الكريم ، وأخبار بطولاته المترددة ، منذ شبابه ، على السنة
الشعب كالأساطير — مع هذا كله فقد كانت العواطف والصلات المعنوية والروحية
سلمة لا تكاد تاتي حظها من الرواج في سوق العلاقات الإنسانية في المجتمع كما
ينبغي أن يلقي من التقدير والتأييد كل نبيل وشريف . بل قد كانت أهون عندئذ
أثرا في النفوس من مظاهر القوة الباطشة . وأخف وزنا من بهرج الجاه وبريق
المال . وأخفت صوتا من دوى التهليل وضجيج التضايل . .

ولقد احتكر ابن أبي سفيان — فيما لاح للجماهير — سوق السلوة المادية ،
 واجتمع له من وسائل الترويج كل ما يضمن لبضاعته الإقبال . . فإذا هو عرض
الآن إحدى سلمه ، فإنها خليفة لا محالة بأن روج ا .

ولم يتردد عن الإقدام . . فالسوق ظمآنة للشراء . والسلمة لديه حاضرة .
وسليقة التاجر في دخيلته ، تؤكد له أن الصفقة لا بد مدرة عليه أخش الأرباح .
وبادر على الفور يتقدم إلى الناس بأحدث سلمة ، وأفدرها على الاستهواء . .

ما أن خلت السنة التاسعة والثلاثون من الهجرة ، ودخلت السنة الأربعون
حق حسر العاهل الأموي كم الساحر عن لعبة جديدة ، وقرع أكبر طبوله . . إنه
الآن يستطيع أن يجتذب كل الأفئدة . ويلفت كل الأنظار . ويعلأ كل الآذان
برنين صاحب يتعالى جرسه ، ويتوالى صدهاء في الآفاق حتى لا يسمع سواه . .

وكان ما أراد . .

فلم يكد ينضى بعض العام حتى أخذت السنة الناس تنهامس ، ها وهناك ،
بأنبياء هي أشبه بالرجال منها بالحقائق ، تفغر لها الأفواه من دهشة ، وتذهل العقول . .
ولكنها ، مع هذا ، هي الحال المطلوب المحبوب ، والخرافة التي تهفو الأنفوس أن
تراها مجسدة نخطر على واقع الحياة . .

وعلا الهمس الخافت إلى لفظ مسموع . . وتواتت الأنبياء رويدا رويدا ، في

إعلان بعد إسرار . . وتقبلت الجماهير المتطلعة كل كلمة تلقفها بالبشر ، وكل معنى
توصىء إليه بالترحيب . . فثمة ما يشير إلى كتب تطير من الشام إلى العراق وكتب
تجري من العراق إلى الشام . ثم ثمة ما يؤكد أن الغريعين يتراسلون . ثم ثمة
ما يشف عن وفاق قريب ، وعهد جديد من الود والصفاء ، يلتقي فيه الأعداء
المتناجزون بالسلاح لقاء إخوة متحابين . . يعيد الطمأنينة ويحقق الدماء . .

وعندما انقضى بعد هذا مثل ما يقطع البريد من دمشق إلى الكوفة ، ومن
الكوفة إلى دمشق ، كان قد ذاع خبر الصلح بين طي ومعاوية ، بوضع الحرب ،
ونبذ الخصام ، وإعادة السلام في ديار الإسلام باقتسام السلطان بينهما ، أعلى
العراق ولماوية مصر والشام . .

علم الناس ، بعد قليل ، أن الدعوة إلى السلام ولدت بالشام ، ثم حبت إلى الكوفة ، ثم قامت على قدمين لتأخذ وجهتها إلى مختلف الأرجاء ، ثابتة الخطا ، حثيثة الحركة ، مشدودة القوام ، تطرق المحافل ، وتدخل الدور ، وترتاد الدروب والطرقات هنا وهناك ، حتى أصبحت ولا شاغل غيرها يشغل تفكير الجمهور . . .

وحين يذكر السلام تستيقظ للشاعر ، وتنشط الأحاسيس .. فالعيون تتألق بعد إعتام . والشفاه تبتسم بعد عبوس . والأفئدة تطفر نشوانة وقد راحت تنجاب عنها غواشي الحيرة والقلق ، وأثقال الهموم والأحزان التي تفرضها ويلات الحرب ، وتنشرها على الفكر والقلب والجسد كسحاب التراب والضباب التي نثرها الأعاصير . حتى الكلمات والعبارات تصدح كالترانيم . . فالحرب موت والسلام حياة . الحرب خوف والسلام أمن . الحرب ظلمة والسلام نور . والأمن والنور والحياة هي غاية الإنسانية في كل زمان ومكان ، ومنتهى رجاء كل إنسان ..

وحين تصدر الدعوة إلى السلام من قوى قادر ، أو يلبها وهو لا يعسر عليه أن يذال بالقتال كل ما يريد ، ثم يرد نفسه عن السير لهدفه خائضا في الدم ، فإنها إذن منة منه يسخر بها على عدوه سخاء الكريم المتعفف . وإنه إذن لاسخاء الذي لا يدانيه جود ، ولا يوفيه ثناء ، لأنه السخاء بالحياة ..

وكان معاوية ، كما لاح للناس ، البادي بالدعوة ..

فقد جاء فيما نقلته إلينا الروايات من أخبار .

» . . . لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة ، كتب معاوية إلى علي :

أما إذا شئت فلك المراق ، ولي الشام ، وتسكف السيف عن هذه الأمة ، ولا تهريق دماء المسلمين . .

ففعل . وتراضيا على ذلك . فأقام معاوية بالشام بجنوده يجيبها وما حولها ،
وعلى بالعراق يجيبها ويقسمها بين جنوده .. »

هذا الذى ذاع فى تلك الآونة ، ونقلته إلينا الروايات المدونة بعدها بوقت
طويل أو قصير ، كان خليقا بلا أدنى ريب أن يحمل طائفة غير قليلة من الذين
عاصروا مولد الخبر على أن يروا فى ابن أبى سفيان القوى المتنفذ عن القتال ،
السخى المتكرم بالسلام ، إذ بتدوره مغالبة خصمه والانتصار ، آخر الأمر ،
عليه . ولكنه أثر ، كرما منه ونكرا لاداته ، الانتصار على نفسه ليحقق الدماء ..

ولا لوم ، بطبيعة الحال وفى حدود الشواهد الطافية فوق سطح الظروف ،
على أصحاب هذه النظرة أن يتعلموا بنظرتهم هذه لأنها الرأى المنتظر للقبول بعد
ما خامر معاوية عقولهم بكل تلك الأساليب البارة التى لمظهرته صاحب الحول
المتحكم فى توجيه الأمور . ولا لوم كذلك إن رأوا فى الدعوة منفذا لخلاص على بما
هو فيه بعد أن أطبقت عليه الأحداث ، وسدت دونه كل منافذ الغلبة على الشام ..
فإذا دعا معاوية للسلام ، فهى دعوة سماحة . وإذا لى على الدعوة ، فهى تلبية
ضرورية . وشتان بين إسماع القادر المسيطر وقبول المكره المضطر فى موازين
التقدير . . .

على أن خبر هذه الدعوة السمعة ، وما تلاها من صلح أعقبته هدنة ، لا يكاد
يسلم من مظنة الظانين وريية المستريين . . فهو أشبه بما ذكر قبله عن خبر
اعتزال عبد الله بن عباس . وهو يحمل فى دخيلته عوامل تقويضه وإن لاح من
خارجة راسى الأسس على منطق الحوادث ، قائم البناء بسند الرولة . بل الأولى
أن يوصف بأنه أوهى من ذلك ، وأقل تماسكا وقدرة على الثبات أمام هبة
من هواء الحقيقة ، إذا مارؤى قياس صدقه بمدد أولئك الرواة أو بصيغة
الروايات . .

فقما ورد عنه فى الأسناد المقولة ، ذكر هذا الخبر آنا بإطنا ب قد يهوى عن
قيمه كواقعة تاريخية هامة . لا ينبغي ذكرها دون إفاضة وتفصيل . وذكر آونة

ثانية باقتضاب لعله أن يوحى إلى قارئه بالشك الذى قد يعنى إنكار الناقل واكتفاءه فى إirاده بالإشارة الهشة التى تفيد الإهمال أو ما يشبه الإهمال.. وإلى هذا الاقتضاب وذلك الإطناب ، لم ترد عنه كلمة واحدة فى سير أخرى أغفلته كل الإغفال ، كأن لم يقع ، أو كأنه من لغير القول وسقط الكلام الذى لا يستحق عناء الاهتمام . .

وما نحب أن نتناول هذه الهدنة المدعى قيامها بين الفريقين بالمناقشة ، لأن المناقشة أخرى بأن تطرل فيها لا طائل منه ، وأولى بأن تعود إلى نقطة البدء التى تحرك منها ابن أبى طالب يوم اختير لإمرة المسلمين . . فالهدنة ، كما هو ظاهر ، تقوم على صلح عرضه معاوية وقبله الإمام . والصالح يقوم على اقتسام الدولة بشرطها شطرين مستقلين : لهذا الرجل العراق ، ولذالك الرجل الشام . والقسمة — كمجرد فكرة — لا توافق الاتجاه الجديد الذى خطه الإسلام ، ودعا به إلى التآليف بين الناس ، على تعدد الأجناس والمواطن ، وتوحيدهم : فرادى ومجتمعات ، بلم الشعب ، وجمع الشتات ، عن طريق محو الفوارق ، ورأب الصدوع ، ورثق القطوع المعنوية والمادية ، وليس إلى التجزئة والتقسيم ، أو التفريق والتزريق . ومن اليسير أن نرى السياسة الإسلامية الخارجية التى وضع محمد قواعدها — فى إطار مفهوم الدين الجديد — قد نهضت ، منذ عهده ، على أساس — أمة واحدة لا تتحقق لها وحدتها المنشودة إلا بتوحيد العقيدة ، وتوحيد الإنسان ، وتوحيد النظام العام ، فلا وجه إذن ، من بعد ، لارتضاء التقسيم ، أو السماح بالانقسام . .

كذلك ليس بقبول من الإمام ، ولا هو بمقول ، أن ينقض مبدأ توحيد الأمة — الذى شرعه دين الله ، وبدأ صاحب الرسالة السماوية تحقيقه — إذا جاز له أن يحيد عنه ، أو يخالفه ، كتقليد سياسى موضوع سار عليه أسلافه الخلفاء . فاستمساكه بسنة رسول الله ، اقتداء به فى كل أمور دينه ودنياه ، يؤكد أنه خليف بآن يرفض فكرة التقسيم . وانطباعه على امتثال المبادئ ، وإصراره على الثبات بموقفه منها ، دون تحول أو التواء مهما كانت الظروف والأحوال ، يؤيد تشييته دائماً بما يراه . وسلوكه ، من قبل ، شاهد على الالتزام والثبات شهادة لاتدع صديلاً

للتأول أن يبرر قبوله الصالح المزعوم على أساس التقسيم بجمعية رضوخه لضغط الأحداث أو تغير الأوضاع . .

فالمسألة إذن مسألة إيمان وليست بمسألة اجتهاد . وربيب الرسول أولى الناس باتباعه ، وأخلاقهم باحتذاء أسلوبه في نصرته ما يعتقد أنه حق ، ولو كره العالم كله ، ووقف له بالمرصاد . . وكأنني به كان يعمل بوحى ذلك الشعار الذى أعلن عنه محمد يوم جاءه عمه محاولا أن يثنيه عن الاستمرار في تبليغ رسالة الإسلام ، خشية عليه من بطش قريش . .

محمد قال إذ ذاك لعمه :

« يا عم . لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه . . » .

وعلى قال لأصحابه حين لمس منهم الثبوت عن قتال معاوية وجنوده الذين انفضوا عن الجماعة ، واقتطعوا الشام :

« . . . ويحكم . . . اخرجوا ممي ثم فروا عني ما بدا لكم . . . فوالله ما أكره لقاء ربي على نيتي وبصيرتي . » .

وقال لهم مرة أخرى :

« . . . أئن لم تخرجوا ممي بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . . لأسيرن إليهم ولو لم يكن ممي إلا عشرة . . » .

وقال وقال ، حق كثر في خطبه وأحاديثه ما قال من هذا القبيل ، السكثرة التي تغني عن التدليل ، ولا تدع مجالاً للجدل والتأول في صلاية عزمه ، وصدق إصراره على القتال لتثبيت الوحدة حتى رمقه الأخير . . .

ولا يغيب عن البال أيضاً كيف وقف بيته دون الانقسام عند أول بادرة بدرت من طلحة بن عبيد الله وحليفه الزبير بن العوام . . . فلقد أبى عليهما مشاطرته الحكم مع بقاء وحدة الدولة ، يوم جاءه يقولان :

« ... بايعناك على أننا شريكك ... »

فلم يأخذ مظهر العرض الذى يحمل العون ولا يخالف الوفاق والآلفة ، لأن الشركة سبيل مهاد إلى الخلاف ، وفيها ما يهدد الوحدة القائمة بما لها من شكل الانقسام إن لم يكن بما لها من معناه . .

وأبى أيضا أن يوليها أمر المصريين : الكوفة والبصرة ، اتقاء ما عسى أن تدفعهما إليه شهوة الحكم من انفراد كل واحد منهما بمصره ، واقتطاعه من جسد الدولة دولة مستقلة . . فما أن اقترح عليه ابن عباس رأى حق رفضه ، وقال :

« .. ويحك !... إن المراقين بهما الرجال والأموال . ومتى ملكا رقاب الناس استمالا السيف به الطمع ، وضربا الضعيف بالبلاد ، وقويا على القوى ، بالسلطان . . »

ثم ما لبث أن ثار إلى سيفه ، حين بلغته الأخبار بتعبثهما الجنود والحشود لاقتزاع البصرة ، ودعا الناس للجهاد ، وهو يشير إلى الخطر الداهم المنتظر من حركة الرجلين :

« إن فعلوا هذا ، فقد انقطع نظام المسلمين . . »

وكما لم تكن حرب الجحش بينه وبينهما وسيلة لتوطيد سلطانه الخاص ، بل للإبقاء على الوحدة السياسية والإقليمية ، وحماية بشاعتها من التصديع ، وعقدها من الانقراط ، فكذلك كانت صفين . وكذلك كان كل فعل فعله ، وكل مسلك مسلكه ، وكل دعوة دعا بها ، منذ اختيار لإمرة المؤمنين ... وإذا كان قد أبى ، فى مستهل عهده ، أن يثبت معاوية عاملا من قبله على الشام ، فإنه الآن أخلق بالألا يرضاه رئيسا مستقلا لدولة جديدة ، تنسلخ من الدولة الأم ، قصارى وجودها أن يخلق نوعا من التنافس مع الأصل الذى تفرعت عنه قد يؤدي لسبب أو آخر ، إلى التنازع على السيادة . ومآله فى كلتا حالتي الوثام والخصام ، أن يكسر

شوكة المسلمين ، ويضعهم في مواجهة العالم الخارجى شتى بعد إذ هم جميع .
ويطمع فيهم الأعداء المتربصين بالإسلام . .

والغريب بعد هذا ، أن الخبر المنقول عن الصلح بين الإمام وابن أبى سفيان
— أياً ما كان منطلقه — يحمل في ثناياه من عوامل تقويضه ما يغنى الغناء كله
عن جهد يبذل من خارجه لتقويضه . . . فهو يبرز في وقت لا شواهد فيه تومئ
إلى احتمال وقوع أى وفاق إن لم تكن كل الشواهد تشير إلى بلوغ الخلاف المدى
الذى لا مناص معه من الاحتكام للسلاح . . وهو يحافى طبيعة معاوية كل المجافاة
لأنه كاف بالعلواء ، متطلع دائماً إلى ما وراء الأفق ، قد كافح على السلطان وهو
بعد عامل منزوع من عمله ، فلا يعقل أن يقف دون إتمام الشوط بعد أن ملك
الشام ، وانتزع مصر ، واضطرب العراق على غريمه الاضطراب الذى يأمن هو معه
كل عادية على أحلامه وإنه ليكاد يرى تحقيقها على مد ذراع . وهو يئسى في الروايات
جنباً لجنب وعلى خط واحد ، مع أحداث ثبت وقوعها ، وأجمع على صدقها كافة
الرواة ، بينما هى تناقضه وتنفيه . . . وكفى أن نقول ، بيانا لهذا التناقض ، أن
ما جرى بين الغريين من وقائع وأمور بعد إبرام الصلح ، يخالف كل المخالفة
ما زعم أنهما تعاهدا عليه ونقلت نصوصه لنا الروايات حتى ليوشك المرء في هذا
الضوء أن يقرر ، وهو سالم من الخطأ ، أنه لم يكن نمة اتفاق على الإطلاق . .

جاء الصالح ، فيما تقول بعض الأخبار ، بعد أربع سنوات طويلة من الخلاف والصراع ، فإذا هو يأتي في غير أوانه إذا ما حاولنا الربط بينه وبين ما سبقه من أحداث . وإذا هو يكاد ألا يأتي إذا ما أحسن استقراء ما عاصره منها وما تلاه ١ .
ولكنه ورد في عدة روايات ، مع اختلاف كثير أو قليل في التفاصيل . .
وقيل بوقوعه في السنة الأربعين .

وكان مكانه من السياق التاريخي في أول العام بافتراض ، أو في منتصفه على أبعد احتمال . .

وتجمع المصادر التي أوردته ، بإسهاب أو في بضع عبارات مختلفة الدلالات ، على أن الرجلين تعاهدا على وضع الحرب حقا للدماء المسلمين . وعلى انفراد على بالهراق ومعاوية بالشام . وعلى ما يتبع هذا وذلك من وجوب احترام الحدود الفاصلة بينهما فلا يقتحمها أيهما على الآخر بغزو أو غارة أو تسلل عسكري له ، ظاهرا أو باطنا ، شكل الاعتداء أو معناه .

بهذا يعم السلام . .

فإلى أي مدى نراه استطاع — إن كان حقا قد وقع — أن يثمر السلام ٢ . .
وإلى أي جانب يقف : في صفوف الحقائق الثابتة ، أم في صفوف الأخبار المدعاة ؟ . .

من خلال الحوادث السابقة عليه وامتدادها للعاصر له ، ثم التي تلتها وجاءت لاحقة بإبرامه ، نراه قد نبا عنها ، وبدأ في عواصفها الهائجة كمود جاف أولى بأن ينقصف — لا أن يثبت — من لحظة مولده ، أمام أول خطرة من خطرات النسيم الرقيق فضلا عن ثورة الأعاصير ١ .

وفي ضوء شروطه المعلومة ، الناشدة للسلام ، نراه — من أول لحظة إلى آخر شوط — لم يمنع النزاع بالسلاح ، ولا الصراع بالكلام ، كأنما قد أريد له أن يزيد في تسعر النار . أو قد أبرم لينقض وكان السكى لا يكون . أو لم يتم أصلا في غير أخيلة الادعاء . . .

والشواهد تغني عن الجدل .

فلم يكن العام الأربعون عام سلام وإن استهل باتفاق الصلح المزعوم . . بل الثابت أن يوما واحدا من أيامه لم يطلع له نهار يشعر الناس بالطمأنينة والأمن ، ولا عسفس ليل يحملهم على الظن بقرب انطفاء لهب الصراع المشبوب بين من قبل بتعاهدهما على كف الحرب والفيء للسلام .

من بدئه إلى منتهاه كان العام عام زل أو تشرع للقتال ، على أوسع مدى ، وإلى أبعد الحدود . . فلقد سالت السماء خلاله من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حتى لم يكن يسلم من رشاشها مكان عبر الصحراء من حدود الشام إلى جبال اليمن إلى مايداني ملتقى القلزم بالخليج . وعلى امتداد هذه المسافة الشاسعة في محاذات البحر ، مع انحراف ملامسة أو انحراف إيغال نحو الداخل ، انتشر الإرهاب والقتل والتهب والتحريق والدمار بالمدينة ومكة والطائف ونجران وأرحب ومأرب وصنعاء وجيشان وغيرها من محاليف اليمن وبلاد الحجاز . ولم ينقشع هذا البلاء عن مواقعه إلا بانقضاء العام ، أو بالتحديد ، بعد مقتل الإمام .

وقصة هذا البلاء الدائم رويہ لنا ، على وجهه الذي علمناه ، غارة بسر ابن أبي أرطأة العامري التي انطلقت منطلقها ذاك بأمر معاوية في أوائل العام الأربعين ، وكان يراد لها — برغبة بعض خاصة الماهل — أن تتضاعف قوتها الحربية أضمافا عديدة لتسكون حربا شاملة يقودها معاوية ضد العراق . فقد روى عنها على لسان عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري أنه قال :

« لما دخلت سنة أربعين ، تحدث الناس بالشام أن عليا يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه . . فقامت في نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عقبة فقلنا له :

إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك
فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم أو يصلح لصاحبهم ما فسد عليه
من أمره » .

وتنص الرواية فإذا معاوية لا يقبل الرأي ، خوف المخاطرة ببقاء على .
واكتفاء بالغارات الإرهابية التي تنال من عدوه ولا تنال منه . وإذا الوليد وأصحابه
من الدعاة إلى الحرب العامة ، لا ترضيهم سياسته ، حتى ليعلم الوليد عن غضبهم ،
ساخرا من أميره :

« أشرنا على معاوية برأينا أن يسير إلى الكوفة فبعث الحسين إلى المدينة .
فمثلنا ومثله كما قال الأول : أربها السها وترى القمر . . . » .

وتحدد لنا بعض المراجع الأجنبية موعد غارة بسر على الحجاز واليمن بوقت
متأخر من نفس السنة يبعد بها عن بدايتها ، ويداني منتصفها أو يجاوزه بقليل . .
فقد ذكرت هذه المراجع « أن العام الأربعين من الهجرة ، فتح على على بابا
جديدا من السر والهموم ، إذ ما كاد موسم الحج يوشك على الاقتراب ، حتى
بعث معاوية قائدا من قواده قاسى القاب ، ذا شجاعة ، هو بسر بن أبي أرطاة ،
في ثلاثة آلاف مقاتل إلى الأراضى المقدسة ، لإخضاع أهلها ، وحملهم على
الإدلاء له بالبيعة والولاء » .

والثابت بالرواية الأولى ، ومن خلال ما توضح إليه ، أن الغارة ما كانت
لتقع إلا بعد شهر أو اثنين من بدء العام . أو في الربع الثاني منه على الترجيح . .
فالنص يقرر أنه . « لما دخلت سنة أربعين ، وتحدث الناس بالشام أن عليا
يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه » . ثم يدلنا على أن الحديث يعلو ويذيع
حتى يبلغ أسماع خاصة الماهل وذوى الخطوة لديه ، كاشفا عن رغبة مواطنهم
في معالجة على قبل أن يستقيم أمره ويسترد سيطرته على رجاله . . ثم يلتقل
بأولئك الخاصة إلى صاحبهم ، يطلعونهم على الأنباء ، ويعلمونهم اتجاه الرأي
العام في ولايته ، ويحثونهم على انتهاز الفرصة السانحة قبل أن تفوت ، بالمبادرة إلى

قتال غريعه . . ثم يربنا انقسام الرأي بينهم وبينه ، هم إلى الحرب الشاملة وهو إلى الحرب المحدودة . ثم ينتهى بنا ، بعد جدل وحوار ، ومراجعة وإصرار ، إلى إنفاذ معاوية الغارة . . فإذا وضعنا في حسابنا أن التفكير في شن حرب عامة وجهتها الكوفة ، أو غارة إرهابية وجهتها الحجاز واليمن ، لا يمكن أن يكون وليد يوم وليلة ، أو بضع ليال وبضعة أيام ، لخطورة الحرب الشاملة من ناحية ، ولضرورة معايرة احتمالات النجاح والفشل ، من ناحية أخرى ، في غارة تقطع الجزيرة العربية كلها من أقصى الشمال إلى أبعد مناطق الجنوب . . وإذا قرنا بهذا كله ، المشاورات والمقابلات ، وجهد التأهب والإعداد ، لتبين لنا أن أشهراً من العام لا بد قد تقضت قبل أن يخطو بسر إلى مقصده أول خطاه .

والثابت من الرواية الثانية ، أن الغارة الإرهابية على الحجاز واليمن ، قد وقعت في النصف الثانى من نفس العام . بشهادة ما ذكرته عن بعضها عندما أوشك موسم الحج على الاقتراب ، وبدلالة ما درج الناس عليه ، في ذلك الزمان — الذى يشق فيه السفر أيعاً مشقة على الحاج ، رجالاً وركبانا — من التأهب للسير إلى بيت الله الحرام قبل موعد الحج بشهور . .

والروايتان ، في إطار ما أسلفناه ، تتفقان على حدوث الغارة الوحشية في موعد يتلو بداية العام الأربعين بأشهر تقل في إحداها ونزيد في الأخرى . ولكنهما تؤكدان وقوعها بعد هذه البداية بوقت ليس بالقصير . .

غير أن الرواية الثانية تلوح أولى من الأولى بالترجيح ، لأنها أقرب إلى الاتساق مع السياق الزمنى للحوادث المعاصرة ، وأدنى إلى التزام خطه السليم .

فلا خلاف ، فيما نعلم ، بين جمهرة المؤرخين ، قدامهم ومحدثهم ، على انطلاق حملة مضادة من الكوفة سيرها أمير المؤمنين بقيادة جارية بن قدامة السعدي لتأديب المغيرين . ولا خلاف أيضاً على قيام جارية بتعقب بسر ورجاله في مراحل رحلتهم التدميرية ، مرحلة مرحلة ، وموقفاً موقفاً على امتداد الجزيرة العربية لم يردده عن التعقب إلا يتيقنه أنهم فاتوه ، ففكر راجعاً على آثارهم لعله أن يصلح

ما أفسدوه . . . ومن المعلوم ، بعد هذا ، أن قائد الحملة العلوية حرص على تثبيت البيعة لملي فيما مر به من بلاد . فلما بلغ في أوبته مكة قافلا من مطاردة غريمه ، وأراد أهل البلدة الحرام على العودة إلى طاعة الإمام بعد إذ أخرجهم منها بطش بسر كارهين ، فوجيء بهم يسألونه في تردد وحيرة :

« لمن نبايع ؟ . . »

وتوجس خيفة من قولهم جارية . .

لمن ؟ . .

لكن همسم طالعه بما يخشاه :

« قد هلك أمير المؤمنين . . »

فألقى به النبا المشثوم في وهدة من الوجوم . وطوح به مع الحزن والذهول واليأس حتى لغاب عنهم وهو شاهد ، وغابوا عنه وهم حضور . . وعندما استطاع أن يشوب إلى بعض رشده ، كان كل ما أسعفه به بيانه أن قال :

« لمن بايع له أصحاب علي . »

فبايعوه على الأثر للعسن بن علي أميرا للمؤمنين بعد أبيه ، وكانت قد ترامت إليهم بديعته في الكوفة أخبار . .

والتواتر للشهور أن الإمام اتى مصرعه على يد قاتله الآثم في رمضان . والنادر المهمل أنه قتل في ربيع الآخر من نفس العام . والبون بين المواعدين كبير ، ولكنه لا يغير ، بطبيعة الحال ، من اطراد الحوادث ، ولا ينفى وقوع غارة بسر قبل هذا أو قبل ذاك .

وحين نأخذ بالحساب القصير في تحديد موعد المصراع بربيع الآخر ، نجد الغارة ، لا محالة ، قد وقعت قبله — على أقل تقدير — ببضعة أشهر ، تكاد تقرن مخرجها من الشام بولد هلال السنة ليتحقق إمكان التقاء ميقات عودتها بعينات مصرع الإمام ، كما هو ثابت في الأسناد . .

فأين إذن موقع اتفاق السلام من العام ؟ . .

الغارة سابقة .

والاتفاق لاحق .

الغارة ترجع بدءا إلى مستهل السنة . وتذرع ذهابا وجيئة ، مسافة تقدر بمئات عديدة من الأميال ، وزمنا يصل إلى بضعة أشهر لاتقل عن ثلاثة . ثم تبلغ مآنها ، بعد الأوبة ، مع مقتل الإمام .

والاتفاق يبرم ، بزعم زاعميه ، فلا نجد له فسحة في سياق الزمن إلا إن افترض إبرامه قبل الغارة ، أو افترض بعد انتهائها ، فإذا هو ، بأول الافتراضين لا بد أن يقع في السنة التاسعة والثلاثين ، وبثانیهما لا بد أن يقع بعد مصرع أمير المؤمنين . .

وكلا الافتراضين مرفوض لا يستقيم بإجماع الرواة ويبذاه العقل . .

وحين نأخذ بالحساب الطويل عن تحديد موعد المصراع في رمضان ، كقول عامة رواة السير ، ترى الغارة لا بد قد وقعت في النصف الثاني من العام ، مؤيدة صدق الرواية الأجنبية أو قربها من الحقيقة قربا لا تدانيها الأخرى فيه . . فليس بمعقول أن تكون حملة جارية التأديبية ، التي خرجت لرد بسر ، قضت ثمانية أشهر أو نحوها في تعقبه وتكون غارة بسر ، على أساس نفس التقدير ، قد استغرقت مثل المدة أو ما يزيد عليها بأيام لو اعتبرناها خرجت في بدء العام . . ليس هذا بمعقول لأنه يخالف المعروف عن طبيعة الغارات من التزامها شعار : « اضرب واهرب » القائم على المباغتة ، العامل كل آخذه في نطاق خفة الحركة ، وانتهاز الفرصة ، وسرعة الانقضاض والفرار تلافيا للمواجهة والاشتباك . .

بهذا الاستقراء يكاد يقع في مجال المحال أن الغارة والحملة اللاهثة في أعقابها قد حدثتا في مستهل العام ، بحكم ما تفرضه طبيعة الغارات من سرعة خاطفة تحتزل الوقت الذي تستغرقه أيها ، وتضغطة ضغطا شديدا إلى أصغر حجم وفي أضيق حيز لأنها في الحقيقة سياق مع الزمان والأحداث . ويكاد يقع في مجال المعقول ،

إن لم يكن في مجال الحقائق ، أن تكونا حدثتا حول منتصف سنة أربعين ، بعده أو قبله بقليل ، بحكم معاصرة موعد عودتهما ليوم مصرع أمير المؤمنين .

فحق إذن — في هذا الضوء — يمكن أن يقع اتفاق السلام الذي قضى بكف الحرب ، ومنع الغارات ، واقتسام الدولة شطرين آمنين في ظله بين الرجلين ، لهذا العراق ولذلك الشام ؟ . .

في نفس الضوء ، يوشك تاريخ إبرام الصلح — إن كان حقا قد أبرم — أن يتحدد في النصف الأول من السنة ، وقبل بعث غارة بسر ، لأنه ما كان مستطاعا أن يبرم إلا وعلى ابن أبي طالب بين الأحياء . . وفي شعاعه ، أيضا ، يوشك الصلح ألا يكون قد وقع لأنه لم يمنع وقوع ما أبرم لمنع وقوعه ، وهو النزو بجيش أو غارة على أرض أحد طرفي الاتفاق . .

أم قد أبرم لينقض على الأثر ، وما جف مداده أو انقض أشهاده ؟ . .

إذن لأشارت إلى نقضه الروايات التي جرت بذكره ، ولسجلته في صحائفها استكمالاً للحديث عنه ، لأن واقعة نقضه أخلق بأن يشار إليها ، وأحق بالظهور والتعليق . .

أم قد يقال ، في معرض إثبات قيامه والتدليل على إبرامه ، إنه تم وغارة ابن أبي أرقطة قد غادرت الشام ، فلم يتح منعها عن السير ؟ . .

أم النية انعقدت على إصداره ، ثم اتفق بعدها على تنفيذه ، والغارة ما زالت في الطريق ، ليسكون كافا لما وراءها من غارات لعل معاوية أراد قبله تسييرها إلى العراق ، فتكون هذه الغارة — في عزم ابن أبي سفيان — آخرة الغارات وخاتمة العدوان ، ويكون الاتفاق فاتحة عهد من السلام بين الغريين حقيق بأن يؤتى ثماره ، وينجب آثاره لولا مصرع الإمام ؟ . .

لئن قيل هذا أو قيل ذلك ، فكلاهما اعتراض مرفوض ، وتدليل مدحوض ، لأنهما ما كانا لينعما معاوية عن رد بسر عن الاستمرار في فظائمه برسول يوفد

إليه بيمض الطريق . ولا أن يمنعنا عليا من المطالبة بهذا الرد بحق ما شرطه الاتفاق . ولهما في طول الفترة ، التي قضتها الغارة فسحة لالتقاء الرسول بالمعير . ولنا في إنسكار قيام الصلح سند من إغفال الرواة للنقض ، ومن السياق الزمني للأُمور . . .

على أي فرض من الفروض ، لا يثبت قيام الصلح ولا يستقيم . إن قيل قد تم قبل الغارة ، فكيف قامت ومنعها وأمثالها مشروط فيه ؟ . . أو قيل بمدى فكيف أبرم ، والإمام عند ذلك قد قتل وأصبح ذكرى للذاكرين ؟ .

بل الأولى — بداهة — ألا يكون . . . وهل يمكن أن يكون وموعده المدعى واقع بين قوسين : غارة تنقض شرطه ، ومصرع يمنع إبرامه ، وكلا الحدين كفيلا بأن يلفظه من نطاق الحقائق الثابتة إلى ضياع الزعم المشبوه ؟ . .

الفصل الرابع

كالحوادث السابقة على الصلح الزعوم ، والمعاصرة لادعائه ، كانت أيضا الحوادث اللاحقة به تنفيه وتمنع وقوعه إلا أن يكون أمنية خالجت بعض الأنفس الدوافة إلى السلام وجسدتها الأخيصة . أو فرية مختلقة نسجتها الأهواء والطامع وأريد بها الإيهام . .

ولا حريجة على المتمنى وإن شط به تمنيه إلى ما وراء للممكنات سدورا في الخيال حق المحال . بل الحريجة على الخلق الذى يشرذ العقول في تيه التضليل . إذ الفرق بينهما هو الفرق بين الرغبة المخلصة النقية والنزوة المغرضة الخبيثة ، أو بين الماء والسراب ، والصدق والرياء . .

ولكن معاوية ، فيما أفصح سلوكه ، يأبى إلا أن يسير على السنين المموج في قيادة الناس وفي معالجة الأمور ، لأنه جرب الاختلاق والالتواء ، وعرف أن السياسة — كتفريق وتمويه — هي الطريق الممهد اليسور للوصول إلى القلوب والعقول في زمان راج فيه النفاق ، ولم يتورع الناس ، خلاله ، عن بلوغ مآربهم من أى سبيل . . وما يضيره ؟ . . إنه ليعمل بوحى عصره ، ويفعل أفاعيله من وراء متر كثيف . . فإن هو جازت أساليبه التحية على معاصريه ، وهي أولى بأن تجوز ، فقد باع بها ما يتمناه ، وغدا في عيونهم وهو الداهية المحنك الأريب . وإن كشفت طائفة منهم الزيف الذى صدقوه — واسرف لا يكشفونه إلا بعد حين — فأين الدليل الذى يلزمه الفرية ، ويأخذه بالتمويه ؟ . . ثم لات عندئذ حين نكوص عما قد وقعوا فيه . .

وتتطلع إلى مسار الحوادث الجارية طوال عهد الإمام ، فبدلنا ترابطها على استمرار النزاع ، دون انقطاع ، بين على ومعاوية . ثم لانعدم ، مع هذا ، أن نسمع عن صلح بينهما ، تسير به أخبار وتقتلى صحائف ، يحاول زاعموه

والرجوع له أن يقحموه على السياق الزمني ، ولا منفذ له منه أو فرجة فيه ،
إلى تيار التاريخ ..

وهذا تناقض لا ريب مريب . . .

فلم يفتقر العداء بين العراق والشام يوما واحدا منذ ادعى معاوية لنفسه
ولاية دم عثمان ، وجاهر بالعصيان ، وإن بدا الصراع كأنما استحال إلى نوع
« سلمى » — لو صح هذا التعبير — أثناء هدنة التحكيم . ولم يلبث ، بعد فشل
الحكومة ، أن عاد سيرته الأولى : حربا مشيوبة ساخنة حيناً ، وباردة حيناً ،
يتعمير مفهومنا الحديث . . . وعندما لاح لدعي الصلح — وليس لدعائه ! — أن
يخامروا به أفكار الناس ، كانت الأيام مشحونة بالخلاف ، وكان انتشار
موجات المد الحربى والسياسى بين الفريقين ، خليقا بأن يفرق اتفاق السلام
لو شئ له أن يسبح ضد التيار . . .

وكانت أعنف مظاهر هذه العداوة بارزة فوق سطح الظروف في العام التاسع
والثلاثين ، والعام الأربعين ، كما لم تبرز من قبل منذ صفين . متصلة في إحكام
وتلاحق كحلفات سلسلة ، أو كإبل قافلة ، ذيل كل جمل فيها مربوط بمخظم الذى
يليه . فقد أطبق معاوية بغاراته على العراق وما وراءه من دولة غريمه ، يفرقها
هنا وهناك . بعضها يحتاج الأطراف ، وبعضها يشارف الكوفة ، وبعضها يعبر
الفرات موغلا فيما بين النهرين إلى دجلة ، وبعضها يعصى من الشام منحدرًا من
أقصى المناطق المناخة شمالا للجزيرة العربية عند ساحل بحر الروم ، إلى أبعد
حدودها الجنوبية عند التقاء القلزم بالخليج . . . وعنفت هذه الغارات عنفا باع غاية
القسوة والإرهاب قرب نهاية أول العامين لتند عنقها إلى العام اللاحق دمارا ونسكالا
أدنى إلى ما علمنا ، من بعد ، عن وحشية التتار . . . ثم تكاثرت وتلاحمت مزدحمة
في سيرها على خط الزمن ، ومتداخلا عمر بعضها في عمر بعض ، لا تكاد واحدة
تهم بنفص اليدين من مهمتها الدموية حتى تكون أخرى غيرها قد خاضت الدم
وأشاعت الخراب . . .

ومع أن اضطراب الأمور في العراق على طي في تلك الآونة ، كان الدافع الذي أغرى معاوية بشن الغارات ، فلقد كانت الغارات نفسها المحرك الأول لحماية رجال الإمام ، وحافزهم على الجد في رد العدوان ، وإن طالما تشاقلوا ، وتوانوا ، ففاتهم ردع المغيرين في أغلب الأحيان . لكن وخز الأشواك يدمى ويؤلم ، وتوالى الطرق يوقظ النيام . . . فما لبث أولئك المتوانون أن تابوا إلى الرشد بعد غفلة ، وانتبهوا على واقعهم الدليل بعد تحذل ، فهبوا يحاولون إصلاح ما أفسده عليهم الثبوت . . . فعندما كان سعيد بن قيس الحمداني قد كر راجعا إلى الكوفة ، بعد محاولته تعقب سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي في غارته التي شنها على الأنبار ، كان بسر قد بدأ غارته الوحشية على الحجاز واليمن ، حتى لأوشك يخرج هذه يلتحم بمودة تلك ، فيجتمع على أهل العراق ، في وقت واحد من قسوة الغارتين ، ومن مهانة سكوتهم على الضيم ، ما أثار فيهم غضبة لكرامتهم دفعتهم إلى الإصغاء لدعوة الحرب الشاملة التي ظل الإمام طويلا يدعوهم إليها كدواء لا دواء غيره لردع معاوية ، وتثبيت هيبة الحكم ، وإقرار وحدة البلاد . . . وعندما كان جارية بن قدامة السعدي ما زال بعد في طريق أوبته من مطاردة بسر ، كان معقل بن قيس التميمي قد فرغ من المهمة التي نديه لها أمير المؤمنين لحشد الناس من السواد جنودا بجيشه تأهباً لغزو الشام . . . ولو أملى حينذاك لعل في أجله أياما معدودات ، لنشبت الحرب لا محالة بين الفريقين ، ولتجرع معاوية من عنف القتال ومر الهزيمة ما كان حريا بأن يتجرعه من قبل في صفين لولا خدعة المصاحف ، ومهزلة التحكيم . . .

غارة ابن المغفل الغامدي على الأنبار في سنة تسع وثلاثين ، وغارة ابن أبي أرطاة العامري على الحجاز واليمن في سنة أربعين ، كادتتا تلتحمان كحلق سلسلة ، أو كجملي قافلة ذيل أولاهما مربوط بخطم الثانية . . . وحملة سعيد بن قيس لتأديب أولى الغارتين ، وحملة جارية بن قدامة لتأديب الأخرى ، قد التحمتا كذلك التحام هاتيك ، ثم اتصلتا معا في نسق زمني واحد يصرع الإمام . . .

هذه حقيقة تاريخية لا مريية فيها ، ثابتة في السير والأسناد . وسلف من الإشارة إليها وإيرادها ما يغنى عن التردد . .

فما أن آب سعيد إلى الكوفة ، بعد أن فاته ابن المغفل ، حتى رأى الإمام يحث الناس على قمع الغارات الأموية ، التي تناثرت على وجه الأرض ، واجتثاث أصلها من الجذر ، بضرب معاوية بن أبي سفيان في عقر داره قضاء لا قضاء غيره على العصيان والعدوان . . ثم رآه يباود الحث والتحريض ، آتافاً في يأس وغضب وضيق ، وآتافاً في أمل ولين وتصبر ، حتى اجتمع رأيه ورأيهم — وغارة بسر لا تزال في الطريق — على بحث معقل بن قيس التميمي للسواد ليحشر الناس جيشاً كثيفاً لمهاجمة الشام . . وما أن أنفذ معقل مهمته ، وعاد بالسكائب المحشودة إلى الكوفة في العدد والسلاح ، حتى سمع بها خبر مصرع أمير المؤمنين ، تعاماً كما سمع به جارية في مكة ، وهو عائد من حملته التأديبية على بسر ، إلى العراق .

تحدثنا السير :

... واستشار على أصحابه في رجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . فأشاروا عليه بمقل . فدعاه ووجهه . . « نزار . فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين . »

وتحدثنا أيضاً :

... وسار جارية حتى أتى نجران . « وهرب بسر وأصحابه منه . واتبهم حتى بلغ مكة ، فقال : بايعونا . فقالوا : ولمن نبايع ؟ . . قد هلك أمير المؤمنين . »

من هذا الاستطراد يبدو بجلاء أن حلقة العداء الدموي بين الشام والعراق كانت تطبق من كل جانب ، لا على أول العامين الأخيرين وحده من حياة الإمام ، بل على كليهما معاً ، إطباقاً لم يدع فيهما ثغرة هدوء ينقذ السلم من خلالها إلى مرافقة الأحداث العنيفة التي صبغت ليلتهما وأيامهما بصيغتها الحراء .

ويتبين أيضا أن الحالة النفسية التي كان في إسارها أهل العراق آنذاك يعصى عليهم وهم يكابدونها أن يتقبلوا اتفاق سلام ، أو ينزعوا إلى الحديث عنه أو التفكير فيه وصدورهم عندئذ مفعمة على عدوهم ضغينة ، ونفوسهم مشحونة بدعوة الحرب الشاملة ، وأكفهم مشدودة على الأسنة المشرعات تحفزا للنار والانتقام . .

ويظهر كذلك أن الإمام ، كالعهد به ، ما كان ليرتضى الاتفاق المزعوم في تلك الآونة التي جاءتته أخيرا وبعد صبر وعناء بما كان يسمى إليه ويعمل له ، فقد نفى أصحابه عنهم التراخي ، وفاءوا إلى الانصياع لأمره موحدى الكلمة عاقدى العزم على القتال ، هو الذي كان يتوق دائما لتوحيدهم واجتماع رأيهم ولا يرى بديلا عن الحرب لحسم الأمور ولو سار وحده إلى لقاء أعدائه بلا نصير . .
فكأنى ولا سلام ! . .

كأنى ولا احتمال لسلام على أى وجه من الوجوه في ذينك العامين وإن سوت به صحائف ، ولغطت السنة ، وأكثرت فيه الروايات والرواة ! . .

فما من مكان قط لإبرام صلح ، أو احتمال إيرامه . لأن سنة تسع وثلاثين الهجرية كانت غنية ألغش الغنى بالغارات الأموية ، متخمة أشد التخمة بكل مثيرات الحفاظ وموجبات الأحقاد ، لم تتج فيها فرصة لالتقاط نسمة ندية من نسبات الثقة والطمانينة بين الفريقين ينقها الأفق الملتهب بالقطائع والأهوال . ولأن سنة أربعين لم تكن غير امتداد عدواني لسابقتها ، نشر النكال والمذاب فوق دولة على أبعد المسافات ، وراح ينفخ في نار الخصومة المتقدة ويزيدها اشتعالا إلى يوم مصرع الإمام . .

جو قاتم عبوس من البغضاء والعداوة يحرك حية النار ، ويغري بالانتقام للكرامة والدم ، ويحمد أنفاس الثقة في نوايا هذا الفريق أو ذاك ثم يقال بوله السلام المزعوم فيه ! . فمن أين يكون ؟ . وكيف ينشأ ويقوم ؟ . . . ومق يحين له أن يدرج ليحيى على أرض الشوك والدمار والنار والعداء مستحكما ،
(٩ — الإمام على ج ٩)

والجروح اتسع ، والدماء تنهر ، ومعاوية ورجاله من أهل الشام مستمزون بمخايل النصر التي تطالعهم ، يوما وراء يوم ، في كل خطوة يخطونها ، وعلى كل موقع يطاؤنه وقد أخذت الأمور تسير وفق أهوائهم على الطريق الذي رسموه ؟
لئن كانت خلائق الإمام ، والجو النفسى للعراق ، والوقائع الجارية في تلك الآونة ، والظروف المحيطة بعولد الاتفاق المدعى ، سواء المعاصرة له والسابقة عليه ، قد تضافرت كلها ، كما رأينا ، على إنكار وجود الصلح ، فإن الحوادث اللاحقة بعوعدة المزعوم تؤيد إنكاره كل التأييد ، وتقطع السبيل على احتمال قيامه ولو كافتراض عارض ، أو كفكرة طارئة إن تكن خطرت ببعض الأخلاق ، واحتوتها أحشاء الزمان حينما لتخلق جنينا يضج بالحركة والانتفاض ، فقد خمدت لا محالة بعد ساعات ولم يكتب لها الظهور إلى النور . . .

فبحسب هذا السلام أن عاش بين السطور ليكمل أسطورة التفوق المعاولي ، ويسكر الناس بخمرة وهمها القرون الطوال . . . ولكنه لم يدب على أرض الواقع ، ولا عاش بين الحوادث السيارة تاريخا حيا يتأثر بها ويؤثر فيها ليؤدي دوره كوسيلة لتغيير الأوضاع القائمة عند حلوله ، وإعادة رسم صورتها كما ينبغي لدوره أن يكون . وليس أيسر ، بيانا لانعدام أثره الفعال ، وتأكيذا لانتفاء وجوده ، من أن ما جرى بعده وأعقبه إنما كان امتدادا طبيعيا — بغير شية من التغيير — لحركة الصراع السياسى والحربى التقليدية بين معاوية والإمام .
فلقد مات على ، فإذا موته لا يحسم النزاع ولا يغير الأوضاع .
ولقد اطمأن معاوية بهذا الموت ، فإذا اطمأنه لا يقعد به عن موالاة المجالدة والصراع . . .

إنما نسمع أن الإمام لا يكاد يستقر في حده حتى تهب الكوفة إلى السلاح لتصل ما انقطع بسبب مصرع أمير المؤمنين ، وتسير جنودها التي حشدتها معقل ابن قيس من السواد بأمر على ، لتمضي في الأهبة إلى الشمال لاجتياح الشام . . . ونسمع أن معاوية قد أخذ حذره ، فحشد حشوده ، وانطلق بها صوب الجنوب للقاء القوة الغازية ، وحماية أرضه أن يقتحمها جيش العراق . . .

ثم لا نسمع ، مع هذا ، أن أحد الفريقين قد لوح للآخر بمهد الأمان أو حرمة الهدنة التي فرضهما عليهما ميثاق السلام المزعوم . . .

وينطلق جيش الغزو العراقي ، أربعين ألفا ، بايعوا عليا قبيل مصرعه على الموت أو النصر ، على طلائعهم قيس بن سعد بن عباد ، وعلى مقدمتهم عبد الله ابن عباس ، وعلى قيادتهم العامة وإمرة المؤمنين الحسن بن علي خلفا لأبيه . .

وينطلق معاوية بن أبي سفيان من مستقره نازلا بجيش الدفاع الشامي إلى بلدة مسكن ، معسكرا بها ، ومتأهبيا للقاء . .

ذاك ثابت مستيقن بمير خلاف .

فغيم إذن كان الانطلاق ؟

وعن أى دلالة يسفر تشرع الفريقين للقتال . . .

بل قد انطلق الجيشان لأن طبيعة السياق الحداثى ، وظروف الواقع ، والجو النفسى كلها تحتم الانتحار . ولأن التأهب والسير كليهما مرحلة من مراحل الصراع الذى استمر سنوات بين العراق والشام ولا سبيل إلى حصر تياره إلا بحرب شاملة تفض النزاع وتقر الأوضاع . . وهل كان الجيشان ليتعبثا ، ثم يعضيا على طريق الصدام المسلح لو كان الفريقان قد تمادنا حقا واتفقا على صلح ادعى زاعموه أنهما أبرماه وتواتقا فيه على كف الحرب ، وتأمين الحدود ، وحقق السماء ، وإفاءة السلام ؟ . .

كلا ولا شبهة . . .

فلا دلالة أبلغ فى نفي إبرام الاتفاق من هذه الدلالة . ولا خرافة أبعد عن التصديق من هذا الصلح وإن أكثرته الروايات وأطنب الرواة . . .

بين حشد الجيش العلوى وتكتيبه تأهباً لغزو الشام وبين مخرجه من الكوفة
زحفاً إلى أرض صفين ، عام فسيح من الأمل والعمل ، ومن الحزن والأحزان ،
ومن الفكر والذكريات . .

الأيام الأوائل من هذه الفترة القصيرة كانت كلها كيوم واحد . . بمنزلة
مندحجة . . بعير معالم تميز أحدها عن الآخر كأنما اختزلت جميعها ، بنورها وظلمتها ،
في نهار وليل . . ليس فيها أمسى وليس فيها حاضر . لا غابر ولا مائل . بل هي
غدٍ علاً الخواطر ويشد الأنفس المتحفزة شوقاً إليه ليعيها معه في إشراقة صباحه
التي لم يلبثها الزمان . . !

والجموع المانحة ذهاباً وجيئة ، في رحاب الحاضرة المراقبة وعلى مشارفها
الدانية والبعيدة ، كانت كلها كرجل واحد . . كأنها حزمة من دم ولحم وعظام ،
ودأب وعرق وحركة ، وصبر وتطلع وتفكير . . ليس فيها كبير ولا صغير .
لا سيد ولا مسود ، ولا كهل ولا يافع . بل عزمة واحدة في رأى واحد لعمل
واحد يبنى الغد المأمول المجهول . .

والخلجات في الصدور خلجة . والأفكار في العقول فكرة . والمشاعر
أنداد ، والظنون أمثال . .

والحياة بعد هذا نشيد . والأعصاب أوتار . والحقائق إيقاع ؟ . .

حق الإمام نقض يومئذ ملله وانخرط مع القوم في الغمار . شارك الناس
ما هم فيه . تنفس الجو الذي تنسموه ، فرأى بنظرهم ، وسمع بسمعهم ، وتحدث
بهم وعنهم كمثل الصوت والصدى والصورة والخيال . . . أما مخايل السقم التي
لازمته قبيل فورة الحمية الراهنة بضعة أيام ، فقد كانت كهارض من جفاء الزيد

ما لبث أن ذاب في اضطرابه الماء بعد أن أخذت معالم الألم والقلق تنقشع عن ملامحه لتخلى مكانا لبسمة رفيقة بدأت تنتشر على محياه . . .

ولم يكن قد استرد كل عافيته . ولكنه استرد ثقته في رجاله ، وراح إيمانه بهم يسرى حرارة وقوة في عروقه كدم جديد . . . ولم يكن تحرر من كل عكوكه ، ولكن بشارت التغيير التي طالعت بها عزائمهم كانت كطلعة الفجر الخليقة بأن تبدد بقية الظلام . . . وعندما التفت أمام عينيهِ النصال والسيوف كالرايا تطرح عن صقالها أشعة الشمس تحت قدميه وتغسل الأرض بالألاء النور . . . وعندما خفقت البنود والأعلام فوق رؤوس الجنود ترقص نشوانة على وقع ريح الشتاء . . . وعندما مدت الخيل أجيادها إلى الأمام وهي تصهل وتفحص الرمل بحوافرها كأنها تهيب بالفرسان أن يرخوا لها الأعنة للانطلاق . . . إذ ذاك تمثلت دورة الزمن بهذه الدنيا في خاطر الإمام حكمة تقبس من الماضي لتضيء الغد ، وتعتصر التجربة لتسقى العمل ، وتأخذ من الموت لتهب للحياة . . .

إذ ذاك وقف بين الكتائب الحاشدة المتأهبة للقتال ، يحدثها بمظة الليالي ، وعبرة الأيام ، وسنة الموت التي يستوى فيها جميع الأحياء : أتقياء وأشقياء . . . وقصة الفناء بالوجود والخلود بالفناء . . .

فيقول :

« عباد الله . . .

لو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما ، أو لدفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان ابن داود الذي سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة . . . قلما استوفى طعمته ، واستكمل مدته ، رمته قسى الفناء بنبال الموت . . . »

ويقول :

« أيها الناس . . .

إن لكم في القرون السالفة لعبرة . . .

أين المماثلة . . . أين الفراعنة . . . أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا
النبیین ، وأحيوا سنن الجبارین . . . أين الذين ساروا بالجیوش ، وهزموا
بالألوف ، وعسكروا العساكر ، ومدنوا المدن . . . »

ويقول :

« أيها الناس . . .

إني قد بثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم ، وأديت إليكم ما أدت
الأوصياء إلى من بعدهم . . .

ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا ، وأقبل ما كان مدبرا ، وأزعم
الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة
لا يفنى . . . »

وتحملة الذكرى إلى ماض علمه ، وعلمه الناس ، مشهود لبضعة من الصفوة
آثروا من الحق على حلو الباطل ، وغصص المنية على زخارف الحياة . . . فإذا بقلبه
يضطرب بين جنبيه كجناحي طائر بهم أن يطير . وإذا بصوته يحتاج على خفق
لهاته كتردد الصدى في كهف أجوف . وإذا بعلامح عحياء تلين . . . ويبصره نعيم
حق لتوشك أن تحتجب عنه المرثيات وراء سحابة رقيقة من الضباب . . .

ويقول وقلبه هو الذي يقول :

« أين إخواني الذين ركبوا الطريق ، ومضوا على الحق . . . أين عمار . . .
وأين ابن التيهان . . . وأين ذو الشهادتين . . . وأين نظراؤهم من إخوانهم
الذين تعاقدوا على المنية ، وأبردوا برءوسهم إلى الفجرة . . . »

ثم لا يلبث دمه الذي حبسته ساعة مآقيه أن ينفلت من بين جنبيه ينهر
ويفيض ، حزنا عليهم ، وشوقا إليهم ، وتقديرا لهم . ولآثرهم التي غدت حلية
للسآثر فيطلق عنان شجوه ، ويكي فيطيل البكاء . . .

وتتعلق به الأنظار وهو يحاول أن يتجلد فلا يليه الجلد ، ولا يسمفه جفناه .

وتتعلق به الأذهان وفكره مشدود إلى أولئك الأحبة الأعزاء من الأجلة
الراجلين . وتتعلق الأسماع بشفتيه وهما تندان في مهل عن حديثه المخافت الحزين
وهو يسرى على هداة الصمت التي لفت المكان :

« أوه على إخواني . . . الذين قرأوا القرآن فأحكموه ، وتدبروا الفرض
فأقاموه . . . أحيوا السنة . وأماتوا البدعة . . . دعوا إلى الجهاد فأجابوا .
ووثقوا بالقائد فاتبعوه . . . »

فلعله مامن امرئ بين الجمهور المائل إلا قد أميت النبرات الواهية على أوتار
عواده فغلبته عندئذ العبرة ، وأخذته الحسرة ، وطوحت به لوعة الأسى والحنين
إلى ذلك الماضي القريب للشهود ، تطوف بصوره ، وتسترجع ذكره . . .

.....
صورة عمار .

عمار بن ياسر مولى بني مخزوم . . .
الذي بادر إلى الاستجابة لداعى السماء ، والإسلام بعد كلمة لا تجسر أن
تنطق بها الأفواه . . .
الذى عذب في الله أفظع العذاب وأقساه — والمسلمون بضعة مستضعفة ،
والكفر جبروت طاغ ، ودين الله خيط رفيع لا يكاد ينفذ من بين أطباق الظلمة
الروحية — فتفتق بطنه ، وتكسر أضلعه ، ويشفى به نكال أعداء الله
والرسول على الهلاك وهو صابر على الأذى ، مستمسك بالإيمان . . .

الذى هاجر إلى الحبشة فرارا بعقيدته ، وأبلى في بدر دفاعا عنها ، ووقف
يوم البجامة وهو جريح يقاتل أشد القتال غير مبال تفوق العدو وتكالبه ، ويهيب
بأصحابه المجاهدين ألا تأخذم الرهبة ، أو تردم وقدة القتال عن الاقتحام :

« يا معشر المسلمين . . . أمن اللجنة تفرون ! . هلموا إلى ! . . أنا عمار . . . »
. . . الذى ثبت مع الحق ، وحارب عليه كأعنف ما تكون الحرب ، وأصلب
ما يكون الثبات يوم صفين . . . بفروميته بز فروسية الفرسان الشبان . . . وبجاسته

فاق حماسة الفتية البواسل وهو عندئذ شيخ واهن نيفت به أعوام عمره على التسمين . .

. . الذى كان فى الجهاد يستهين بالحياة ، ويطلب الموت . وشعاره فى الوغى دائماً ، دائماً : « الجنة تحت الأسنة » . .

. . الذى قال فيه رسول الله سيد المؤمنين ، وقمة الإيمان : « ملئ إيماناً إلى أخمص قدميه » . . وجعله قريباً للحق لا يفرقن ، حتى ذكر فى حديث مرفوع أنه وصفه بقوله : « لن يفارق الحق حتى يموت » . . أو . . « يزول مع الحق حيث زال » . .

...

وصورة أبى الهيثم .

مالك بن مالك بن التيهان .

. . الرائد من رواد الإيمان القلائل الأول ، الذين غرسوا بذرة الإسلام فى المدينة ومحمد ما زال بين قومه بركة فى نطاق من الويل والعذاب والتكذيب .
التقيب من بين النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة ، الذين بايعوا رسول الله أن يكونوا حوله كالسياج ، ينعونه مما ينعون منه نساءهم وأولادهم ، ويكونوا له أهله وجنده ، وتلاميذته وحوارييه . .

. . الفدائي من الزمرة الفدائية الأولى من أصحاب محمد الأوفياء لعهده وذكرائه ، الذين اعتنقوا بعد موته حق على ، ودعوا إليه ، وأعلنوا تأييده والدفاع عنه يوم تجمعوا فى فضاء بنى بياضة عسى أن يعيدوا تراث رسولهم إلى بيته بعد أن خرج إلى تيم ببيعة الصديق . .

...

وصورة ذى الشهادتين .

خزيمة بن ثابت الأنصارى . .

. . أحد أصحاب بدر التى أعزت المسلمين ونشرت نور الإسلام . .

.. صاحب راية بنى خطمة من الأوس يوم الفتح يوم قهرت مكة ، وأذل الشرك ، وردت قدسية البيت الحرام خالصة لله .

.. الرجل الذي جعل له رسول الله شهادة ، من دون الناس ، كشهادة رجلين من المسلمين ، وفاقا لثقتهم الراسخة في صدق رسوله حين اختلف محمد مع سواء بن قيس على فرس اشتراها منه ثم جعد ابن قيس الشراء .. فقد شهد خزاعة على البائع وأيد البائع ، فلما أن سأله رسول الله :

« ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضرا معنا ؟ .. »

بادر بلا تردد يقول بوحى سجيته النقية :

« صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقا . . »

وعندئذ كانت القولة النبوية التي رفعته ، في مجال الشهادة ، على سواء :

« من شهد له خزاعة ، أو عليه ، فهو حسيبه » ..

.. زمرة من الصفوة المختارة من صحابة الرسول ، وأولياء الإمام ، ورواد الإسلام ، قد تلاحقت عليهم الحنوف ، وتخطفتهم المنايا وهم على الحق ثابتون ، لم تزل لهم قدم ، ولم تنهن عزيمته ، لأنهم كانوا على موعد مع الله يستعجلونه أن يحين ! ولأنهم كانوا على وصية صاحبهم ، أبي الحسين ، التي ألقى بها إلى ذوى السمع والبصر من رجاله ، يوم قال :

« .. . بادروا المعاد . وسابقوا الآجال .. . فأنتم بنو سبيل ، على سهر

من دار ليست بداركم ، وقد أودنتم منها بالارتحال .. »

وفرغ على من خطابه بعد قليل ، ثم التفت إلى الحشد ، ينادى فيهم بأعلى

صوته :

« الجهاد الجهاد عباد الله ! . . الجهاد الجهاد ! . . ألا وإني معسكر في يومى

هذا . فمن أراد الروح إلى الله فليخرج .. »

وهل كان منهم أحد يتخلف عن هذه الدعوة الكريمة ؟ ..

كلا واقه . . .

وترددت في الفضاء أصداء مدوية بصوت الجموع ، وهي تهدر بالدعاء :

« الجهاد الجهاد . . . »

فلقد انمقدت المزائم . وخلصت النيات . واستبان السبيل . . فهذه الجنود
المحشورة من السواد ، جاءت تحمل رءوسها على أكفها مبرا رخيصا لرضوان
الله . . وهل هي إلا رحلة قصيرة على الطريق الذي يرويه الدم ، وتظله الأسياف ،
ليبلغوا ، كما علمهم عمار ، غايتهم للارتجاة ، يوم قال :

« الجنة تحت ظلال الأسنة » . . .

في الشمال .. في المغاني الحضر بأرض الشام .. في مجاني دمشق الفردوسية
التي خلفها الروم ، كان معاوية والذين معه من الفئة الباغية — التي قتلت عمار ،
واحتزت رأسه ، وأهرقت دماء خيرة إخوانه البدرين من صفوة صحابة الرسول —
قد أعدوا عدتهم ، وكتبوا كفائهم ، وهموا بالسير إلى رحلة بغى ثانية ، زاحفين
بالحشود الزاخرة صعودا إلى الأرض الموعودة للاقاة على بن أبي طالب ، مرة
أخرى على ثرى صفين ..

صفين كبرى جديدة رأى القوم أن يشدوا إليها الرواحل ليثأروا لأسمهم
الراحل الدليل . ليستردوا الشرف المسلوب . ليضربوا الضربة التي يحسبونها
كفيلة بقلب الميزان .. على نفس الموقع الذي شهد خزيهم ، وأوشك أن يرى
دحرهم وعاهلهم عندئذ قدم على الأرض وقدم في ركاب قوسه بهم بالفرار منذ
ثلاثة أعوام ، أرادوا النزول ..

أمثلا بعثل تقودهم حمية الانتقام إلى نفس البقعة التي لعبت بهم عليها الهزيمة ؟
أم تيمنا بالنجاة التي أهدتها إليهم الصدفة ، فوق ترابها من قبل على يد ابن العاص ؟
أم اعتزازا بعلهم كل موطن فيها ، وكل حصاة على تراها ، علم تجربة يقبهم
المفاجآت التي قد تخططهم لو أن عدوهم استدرجهم إلى القتال على موقع غيرها
لم يطأوه ؟ .

أيما كانت نظرتهم ، وكانت نواياهم ، فقد تهيأوا للانطلاق إلى صفين ..
وكانوا على ثقة . أو كانوا على طمأنينة وأمل توقعا للقريب المنظور ..

بغير وفي نشطوا إلى العمل .. النفوس والأرض الأموية كلها تضج بالرجاء
والانفعال والحركة .. السكان يهتز بالوقع والصليل . الجنود تلتطم . السلاح يرهف
ليتر . المطايا تسوم لترتجل . الضغائن تغمر لشور . الحماسة تشد لتشتعل .. ومن

وراء أولئك أحلام اليقظة عريضة كالأفق ، لامعة كالأشعة ، راقصة كالجنب
المنوَّب على سطح كأس ملأها خمر لذة تهيج شهية شران . . .

ولم تكن المسافة بعيدة . . دون هدفهم بنان تشير . وقدم تتحرك . . ومثل
أصبح من الطريق لا تطول على خوف أو حذر ، ولا تشق على فارس أو راجل .
فليس الذي يشغلهم هو السير . ولا نأى الغاية . ولا القوة التي يعملون أنها لا بد
مقبلة من الجنوب على ضفة الفرات للانعام . . تلك كلها أمور مقدورة مرقوبة .
معلومة محسوبة . لم يغب أيها عن البال . . ولكن الذي يشغلهم الآن هو نفاذ
العصر . فراغ جيبتهم من القدرة على التمثل . البرم بالا نظار . . ولو خلى بينهم
وبين ما يريدون لانفجرت رغبتهم المضطربة في صدورهم على الفور قتالا ناجزا
يحسم الأمر ، ويهيج النصر ، ويجمع الأمة على امتداد الديار واختلاف العناصر
مع الشام . .

لا طاقة لهم بالثريث : هذا الذي يجمد الدم . وكيف يطيقونه والقطافدان
والثمرة شبيهة نسيل اللعاب . فالطروف مهابة . والدنيا معهم . وساعة الفصل
التي أعدوا لها شهورا طويلة من الجهد والكفاح والحيلة ، قد اقبلت أخيرا عليهم
بكل ما هفوا إليه وانتظروه . .

ليس أيسر الآن من وقعة على هذه الأرض يجابهون فيها عدوا أحق ظهوره
الشاقل ، وأوهى عزمه التواكل تحت أمير ولاء صحبه له بلاء ، وطاعتهم عصيان .
إن الأمل الآن أمامهم مفتوح ، والظفر مستباح ، وتلك القوات المقبلة عليهم من
العراق بعد قليل أدنى أن تكون ، فيما يقدررون ، كابل النمر قد تراحت على
سكبين الجزار . .

ولا مبالغة من ناحيتهم في هذا التقدير . . فابن أبي طالب هو الذي وصف
رجاله بهذا الوصف بعد أن خاب فيهم رجاؤه وما كان إلا ليخيب . . ليسوا —
برأى تجربته ومماناته — بجذود وغى ، ولكنهم حشود غوغائية كالقطعان . .
الآدمية للدركة الأبية في جلودهم تخلت عن مكانها للبهيمية القريرة الذلول .

والعقول المستنيرة الواعية ذابت في الغرائز المظلمة العمياء . فها هم رجال كالرجال يجمعهم الخطر ، وتحمسهم الأنفة . ويحذرم توقي الاستذلال إلى الاستبسال دفاعا عن الكرامة ، وحماية للمصير ، وذودا عن الدمار .. تطويهم الحن ، وينشرهم الخوف ، وتلثمهم النزوات الدنيا ، كأنهم ماشية . كأنهم سوائم وأنعام . . كأنهم — بنص حروفه — « أشباه إبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر » كما يفعل قطع مذعور ضال ! .

وما هم أيضا بأصحاب قتال . . لاهمة تدفعهم إلى انتضاء سيف . لا غاية ، مهما غلت ، تحثم على بذل قطرة واحدة من دم . لا أرب لهم في تنضير شجرة الحياة الإنسانية الكريمة التي لا تورق ولا تثمر إلا بعرق الأبوة ودماء الأحرار . . إنهم دائما ، بن خوف الموت في موت ، ومن الحرص على السلام في استسلام ومن الكثرة الحقيمة الدالية كأنهم هباء بلا أثر ، أهون من قلة ، وأقل من نفر ، لا يراهم صاحبهم سوى دراهم خسيصة تغني عن ثقلها ووفرتها بضعة دنانير ، حتى لقد قال لهم : « لوددت أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذني عشرة منكم ، وأعطاني رجلا منهم » . . لأن ما يعول عليه هو القيمة لا الكمية . السكيف لا العدد . النوع لا المقدار . . .

لئن خطر عندئذ لأهل الشام أن سيرهم إلى صفين أشبه برحلة للترفيه منه إلى زحف لقتال ، وأن النصر لا بحالة معقود لهم ، وطوع أيديهم ، فذاك ليس بغلالة خيال ، لأنه النهاية الطبيعية المحتومة لهذا الصراع كما تدلهم عليها أحاديث طي ، وأعمال رجاله ، ويؤدي إليها تسلسل الحوادث وشواهد الحال .. ومن الخطأ أن يظن أنهم أسرفوا في التفاؤل ذاهبين مع الاطمئنان إلى أبعد مدى ترسمه الأوهام ما دام فيصل الحكم في الأمور هو القياس القائم على نتائج التجربة ، المتعمق دلالة التصرفات ، المتتبع مسار الظروف الممتدة والوقائع الماثلة بالنظرة المحيطة الواعية ، والاستقراء المنطقي المنسق ، والرأي الخالص السليم .

ومع ما قد جد ، في الجانب الآخر ، عند أداني الفراتين ، من تغير في الانفعال ،

وتبدل في السلوك ، فقد كان معاوية وأصحابه أولى بأن يروا في هذه الصورة الجديدة للمراق مجرد ألوان سطحية تناولت القشرة ولم تتناول الجوهر . لكنّها سحابة عارضة مآلها الإقلاع . . . لكنّها زبد وجفاء . . . لكنّها انتباهة طارئة من غفوة لا يلبث أن يعتورها الثاؤب ثم يغزوها استرخاء النوم . بل هي كصحوة المحتضر لحظة النزاع والموت عادة صحوة توشك بعنفوانها أن تتعدها ، ولحظة النزاع غالبا ما تلوح كأنها قمة الحياة .

وحق لم هذا التفكير . . فكم طالما هبت الكوفة على ضربات الشام التي كانت تنصب على رأسها كالطارق ونفضت عن نفسها آثار التخاذل والاستكانة . كم طالما غضبت لشرفها للمهين . كم طالما زارت وملأت الآفاق بالزئير والهدير ثم لم يكن قصارى ما تسفر عنه ضجتها العالية ، في أكثر الأحيان ، إلا ما يشبه المواء . . .

ولقد عاش معاوية وقومه الخلاف الذي كان دائما ينشب بين علي وأصحابه ، وبينهم بعضهم وبعض طول تلك السنوات . . طاشوه معيشة تحقق لا تصور ، وعيان لا خيال . . في إطار الأخبار التي كانت تتوالى عليهم من الكوفة على السنة الرواة ، عاشوه . في كتب العيون والجواسيس . في حركة الأحداث .

فلم يكن يخفى عليهم هناك شيء يقال . . ولا فعل يفعل . ولا نية تعقد على أمر لأن جمهرة شيعة الإمام آنذاك كانوا أكلت الناس بالمناقشة والمجادلة ، وبالمراجعة والحوار ، لا يخفى لهم سر ، ولا يحكمهم حذر . . فما تكاد تعرض لهم مسألة ، جلت أو هانت ، تبيح العلانية ، أو تحتم الإسرار ، إلا قلبوها — جمهرة — على أوجه الرأي ، وعايروها بميزان المنطق ، وإن تشعبت أمامهم بها سبل التقدير والتبرير بمقدار اختلاف مراعى النظرات وتعدد صور المآذير بين أصحاب الآراء في الدقائق والتفصيلات ، تبعا لتعدد مذاهب التفكير ، وميول الأمزجة ، واقتدار العقول . وإن خرجت بهم أيضا المسائل للعروضة بهذا النقاش اللبليل المريض من حدود الحرس والثوق ، التي تفرضها ضرورات

الإخفاء والسكران ، إلى رحابة المهاترة واللجاج والسكرابة التي تنفض دائماً إلى الإفشاء والإعلان .

وقد عاش معاوية أيضاً وقومه الوقائع الجارية ، تافهة وخطيرة ، التي ملأت الأعوام الثلاثة الأخيرة ، معيشة مكابدة ومعاناة . فشاركوا في صنع الأحداث . أو وضعوا لها خططا أو خطة ترسم الاتجاه وال مسار . أو اختلقوا منها ما شاء لهم الاختلاق وشاءته سياستهم النافرة أبدا من التزام قانون الاخلاق . القاعة دائماً على ابتداع الأسباب وادعاء المقدمات إيهاما بحتمية النتائج والمغيبات . للمستندة ، من قبل ومن بعد ، إلى تحليل الدرائع ، وتبرير الوسائل للوصول إلى غاياتهم ، المعلنة والمستترة ، من أقصر طريق أو أنكر طريق ١ .

بل قد قطعوا فعلا الشقة المرتقبة ، وبلغوا الآن — أو بلغ صاحبهم — نهاية الطريق .

ففي يوم قاتظ الحر من أيام الصيف ، قبل بضعة أشهر من سيرهم هذا إلى الميدان ، رأى العاهل الأموي أن الأوان قد آن ليسل أحدث أسلحة دهائه ويقتحم به مجال السلطة الشرعية على غريعه اقتحام ند على ند ، وقرين على قرين إن لم يكن اقتحام منافس خطير قادر على منافس مفضول مغلول . فلما أن أجال رأيه بمخاطره ، واستنفض عزمه ، حق وضع الحلقة الأخيرة في سلسلة التقيوه . خرج على الدنيا بقناع جديد . طالع الناس بأعجب الأعيه التي حفظتها لنا صفحات التاريخ . نصب نفسه ، تحديا وافتثاتا ، أميرا المؤمنين ١ .

تم هذا التنصيب في صفر من سنة أربعين .

وحدث في بيت المقدس ، مدينة القبلة القديمة ، ومهبط الأنبياء ، وأرض الإسراء ، كأنما لينعله صفة القداسة التي أعزت المكان .

وكان هو النتيجة الطبيعية الخليفة بأن تتقبلها ، بغير غراية ولا استهجان ، عقول جمهور كبير من المسلمين سبق إلى علمهم ما أشاعه العاهل قبيل أشهر قليلات ، من وقوع صلح مزعوم بينه وبين غريعه ، اتفقا فيه على إعادة السلام

إلى الأمة ، واقتسام الدولة بينهما شطرين ، لكل شطر منهما كيانه السياسى الخاص ، وسيادته المكملة ، ووحدته الإقليمية ، وحدوده الآمنة ، وأميره الذى يسوس الأمور ..

وامتلاً ابن أبى سفيان، لاربيب ، غفرا وزهوا وهو يشهد الناس يومئذ بالشام يصفقون على يده بالبيعة ، ويعاهدونه الولاء والطاعة ، ويسلكونه — بلقبه الجديد — فى خيط واحد مع خلفاء رسول الله وقادة الدولة الأوائل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ..

وما له لا يزهر وقد حاز أخيراً أربه، وارتقى قمة أطماء؟ . فتقديره أصاب . وتديره أئمر . وادعائه الحق فى خلافة المسلمين — بحكم خرافة تفوقه ودهائه — قد توفرت له الآن صفة « الشرعية » التى كان افتقاره إليها يباعد ، إلى حد كبير ، بينه وبين عواطف الجماهير ..

غدا الآن أميراً « ثانياً » للمؤمنين ..

وجمع بحركته المسرحية ، هذه هبة الشكل والهيبة إلى قوة الفعل والمضمون ..

وأصبح وخصمه على استواء ..

واكتسب شرعية الولاء ..

وليس ثمة من تلوم أحسه ، فيما يلوح ، من هذه اللعبة المازلة ، الساطية على الحق ، العادية على الواقع ، المجافية لطبيعة الأوضاع كل مجافاة ، المخالفة لقواعد الاستخلاف أبين اختلاف ..

ليس ثمة من تلوم أحسبه معاوية ، وهو يظهر مشاركته عليا فى الحكم ، إلا أن يكون مسيلة باليمامة قد استشعر التلوم وهو يدعى النبوة فى حياة الرسول ، ثم يعلن على الناس مشاركته فى الرسالة السماوية ، ثم تبلغ به صفاقة وضرارة

اقتراضه على الله والحق أن يكتب كتابا إلى محمد يعلن فيه اقتسامه وإياه عالم تلك الأيام بينهما على استواء كإقتسام معاوية الآن الدولة الإسلامية مع الإمام !

أنذاك كتب النبي الكذاب :

« من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله .

سلام عليك .

فإني قد أشركت في الأمر معك . وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشا قوم لا يعلمون . »

فكان الجواب الذي تلقاه ، وما من جواب أخلق بأن يتلقاه في مثل هذا المقام إلاه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . »

فكأنما الله شاء أن يظهر في حياة على دعى كما ظهر في حياة الرسول أدياء !

وكيفما كان الأمر ، فبحسب معاوية أن أحكم خدعه ، ولعب لعبته ، وحقق مشتهاه . أما أن الأمة الإسلامية كلها ، بكافة شعوبها ، وإجماع أمصارها إلا الشام . . . وأما أن البيعة تعاقد بين على وبين المسلمين بعهد الله ، لا يحلها إلا صاحبها أو الذين بايعوه . . . وأما أن تحلل طائفة منها شاركت فيها هو المروق . . . وأما أن حق ابن أبي سفيان في نقضها متقوض ، إذ هو لم يدخلها ، وبقاؤه خارجها يعزله عن جماعة أهل الإسلام ، ويدمغه من البدء بالتمرد على النظام العام . . . أما هذا كله وأمثاله من أسانيد تفسيق موقفه ، وبطلان بيعته ، فليس له عنده أى اعتبار ! .
على أن ضرورات الإنصاف تنضى هنا بأن يقال إن الرجل وأصحابه ، حين (١٠ - الإمام على ج ٩)

انطلاقهم ذاك من مواطنهم إلى صفين الثانية تأهباً للقاء ، كانوا أكثر من عدوهم
إلماً بمحقائق الأمور في إقليمهم ، وفي غيره من الأقاليم سواء بسواء ، وأقرب
منهم إلى تبين ما في الصورة العامة للظروف والأوضاع من الظلال والأضواء ،
ومن الخفايا والمرييات . كما كان هو أيضاً — وبلا نزاع — أوثق بالذين معه ،
وبما في صدورهم وأخلاقهم وأيديهم ، من غريبه أمير المؤمنين بمن اتبعوه ، وبما
أعدوه ، وبما أسروه أو اعتزموه .

تلك حقيقة لا تغيب عن بال .

ومع ذلك ولا ينبغي أن يفتى هذا -- بحال من الأحوال ، إلا من قبيل
الافتراض المجرد — أن حزب الشام كانوا أدنى من حزب العراق إلى إحراز
النصر ، أو أجدر به منهم في الممركة المتظرة لو قد كتب للحرب أن تندلع ،
خلال الأيام القليلة المقبلة ، على أرض الوقعة ، وأتبع للسهم أن تترامى ،
ولـيـوف المشروعات أن تصول ونجول . بل هو يعني أنهم قد أحاطوا فاستكملوا
الإحاطة ، وقدروا فأحسنوا التقدير ، ودبروا فأجادوا التدبير قبل السير إلى
الصراع المرتقب ، وعلى النحو الذي يجب أن يكون . أما نتيجة للمركة الحربية
القادمة كالحال في غيرها من المارك — فإنها : إلى جوار عوامل الإحاطة والتقدير
والتدبير ، رهينة بخنكة القائد ، ودربة الجند ، وسرعة الحركة ، ومبادهة العدو
بما ليس في حسابه ، واليقظة للرهفة لاقتناص السوانح الطارئة على غير توقع ،
مقتربة بالقدرة الفائقة على المبادرة الحاطفة إلى إعادة التشكيل ، وتغيير المواقع ،
وتعديل التوقيت ، وبالوعى الكامل لمقتضيات الالتفاف والمباغنة والانسحاب ،
وفاقا — من ناحية — لما لعله قد يجد ، بدواعي المناورة والدفاع والهجوم ، على
سير القتال من مد وجزر ، وضغط وتجمع ، وشراسة وهوادة . وعلى صفوف
المقاتلة ، من ناحية أخرى ، وحشودهم الممتدة في مختلف أرجاء الميدان من تداخل
وكثافة ، واضطراب وفرار ، وتركز وانتشار . فتلك كلها ، وغيرها من
أمثالها ، ميزات ترجع إلى عبقرية القيادة ، وتنبع من رهافة الحاسة القتالية ،
وتتطلب شدة التمرس ، بالأساليب الحربية .. ولا يكاد معاوية وأساطين قواده من

الناهين ، وإن ذاع شأنهم كأصحاب وغى ، يبلغون منها بعض مبلغ الإمام .
وترانا نحسب ، مع وجود هذه الاحتمالات المؤثرة في صياغة النصر والهزيمة ،
أن الماهل الأموى وأعوانه كانوا أحرى بأن يستشعروا الطمأنينة إبان السير
إلى اللقاء الموعود ، استنادا إلى تفوقهم النسبي في مجال المحركات المادية المتاحة ،
وفي إطار الظروف السياسية المواتية ، وتحت أفق الجو النفسى الهادئ الذى
يميشون فيه . .

فهم من الوضع القائم ، يقفون بقدم ثابتة على أرض صلبة لا تنهار . .
نظامهم بالشام متسق . وكيانهم مستقر . ورأيهم واحد . وعزمهم مشدود .
ورعاياهم فى كل بقعة من إقليمهم بديان مرصوص . الماهل والجيش والشعب معا
فى رباط . وخطوط نقل المدة والمبرة إلى جنودهم قصيرة . . والجهة الداخلية ،
بتعبيرنا المعاصر ، مدد لا ينفد معينه لتزويد كتائبهم على خط القتال بالقوة والتأييد ،
وجدار واحد لا ثغرة فيه يحمى ظهورها أن تتسرب إليها عوامل القلق
والتخاذل والانتفاض .

أما الآخرون فيذور الفتنة كامنة فيهم ، كأنها الجمرات تحت الرماد ، وإن بدوا
الآن على تماطف واتفاق . . جمعهم شراذم من النحل . ورأيهم أشتات من الأفكار .
منهم القالون لمى ، والبلغضون له ، وقد دفعهم إلى صفوف أنصاره الرياء . . ومنهم
الموالون له طاعة عن ثقة فيه وإيعان بقدرته وحكمته ، والملتزمون بجانبه عن
متابعة له انسياقا مع تيار الرأى الغالب فى العراق دون اقتناع خشية من جبهة
الأشياء . ومنهم المولعون به إكبارا لمقامه ، والغالون فى حبه إلى التقديس . .
ومن وراء أولئك وهؤلاء ، خلف مقاتلته المتهيشة للزحف معه إلى اللقاء ، زمر
شقي من الخارجة مندسة هنا وهناك بين الشعب إن يكن فرق بينها تضارب الآراء
فقد جمعها على حربه العداء . وطوائف عدة من العثمانية ، كأنها الخروق فى ثوب
الأمة ، تخرج بها البصرة واليمن والحجاز . وعناصر كثيرة لا يحصرها الإحصاء من
الشموبية الغالية فى بغض العرب ، الموتورة من الإسلام ، الحاملة بعزها القديم قد

تناثرت عند أطراف دولته ، وأحاطت بحدودها القاصية كالإطار .. وكلهم جموع زاهرة ماكرة ، غير مأمونة الهوى والسلوك ، يتربصون به وبحكمه سانحة للإفلات من الولاء والطاعة ، وللمسارعة إلى الثورة والانتكاس .

وكذلك ينطلق معاوية ورجاله إلى ساحة المعركة التي تجنبها الأيام ، فإذا هو راضى النفس ، مرفوع الهمة ، ثابت الخطأ ، وطيد اليقين .. لا يشغله شاغل عن توقع النصر . لا شيء يمنع انطلاقه . لا عقبة تعترض طريقه . لا قلق يفتاب جنوده . لا خطر يهدد مؤخرته . لا شيمة في الأفق تحجب عنه إشراقه غده المأمول .

أخيراً أينعت أحلامه . الشمس في يمينه والقمر في يساره . قدره معه جنده معه شعبه معه . الدنيا معه .. وعندما يواجهه غرباء بعد أيام على الثرى المتمطش للدماء والأشلاء ، فلن يواجهه عندئذ عاملاً من عماله تمرد على سلطة الدولة وخرج على واجب الولاء .. ولا طالب ثأر — يدعو بحق وشيعة القربى ، وولاية الدم الحرام المسفوك — الاقتصاص من قتلة عثمان .. ولا متطلعا للإبقاء على وضعه القديم الموروث منذ عهد ابن الخطاب ، واليا على الشام كغيره . من ولاية الأمصار وحكام الأقاليم .. . واسكنه سيواجه هذه المرة الند الصلب ، والشبيه المجلى ، والقرين الذى لا يطاوله فى القوة الحربية والنفوذ السياسى وولاء الرعية قرين .

سيواجه الخصم العنيد الذى اختاره قومه ، بإجماع الرأى فى نصف الدولة ، خلفاً لذلك الذى خلعه التحكيم ، وانقسمت الأمة عليه ، وتفرقت شيعته عن هدفه ، واضطربت بأرضه الفتن والخلافات ..

سيواجه الآن « معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين » ..

إلى مرتقى أحلام نومه ويحفظه حمله الزمان . . إلى أبعد من صرى ظنه . .
إلى أرفع من قمة وهمه . . إلى أروع من بدع خياله . . .

خلق في الجو بغير جناح . .

تسبح السحاب . وأمسك النجم . وأطل من سقف سمائه على الدنيا تحته ،
فإذا هي كلها ، بخيرها وشرها ، بصدقها وزيفها ، بجبروتها وضعفها في محيط
نظراته . .

كبتقديره تسير الأمور . . بإشارته يأتى الناس . وعلى مقتضى مشيئته الصلبة
تخلق الأهواء ، وتتحرك العزائم ، وتتواتر الوقائع السيارة في العالم الإسلامى :
غرسا وثمارا ، وبدءا ونتيجة كما تتحدر مياه السيول من أعالي الجبال نحو السفوح ،
هادرة ثائرة ، لتنتشر فوق صفحة السهل المنبسط ، وتصطرع وتتدافع ، حتى تشق
لنفسها في أرضه اللينة قنوات وأخاديد ، لا تلبث أن تلتئم ، بعد حين ، في مجرى
واحد هو نهر إرادته الفردية الذى تسبح أطباعه على تياره الدافق إلى
هدفه البعيد . .

أو ليس أمير المؤمنين الجديد ؟ .

بلى !

وهذه صورة نفسية له ، أولى بها أن تطابق شعوره ، وترسم آماله ، وتنقل
وضعه المنتظر من مرحلة الادعاء إلى مرحلة الحقيقة النابضة بالحياة .

ولا عليه أن تكون .

ولا عليه أيضا أن يهضمها « ويتمثلها » لتجرى في عروقه مع الدم ، وتعيش
في خلده مع الأفكار ، معيشة يقين لا معيشة ظنون . .

فالدولة قبضته بعد قليل . . جناحها الغربي مطوى يمينه . وجناحها الشرقي
عند أطراف بناته ولا يتقصه لامتلاكه إلا أن يقبض أصابعه . .
إنه اليوم ، وهو بهم بأن يخطو أولى خطواته نحو مشارف صفين ، واثق أن
الموقف قد تغير عما كانت عليه حاله من وضع سنين . .
أصبح صاحب اليد العليا في معترك الأحداث
لعبت حيله وأخاديعه ذلك الدور الذي أرادها على أدائه ببراعة وإتقان . .
بلغ بدعواه شأو الإيهام ، عبثا بالمواطن ، والتواء بالأفهام ، وتضليلا
للرأى العام . .

كان هذا سبيله الذي اختطه ، طوال سنوات النعار الذي انتابه نهها بالسلطان ،
فإذا هو أخيرا — بفعل أساليب الخاتلة والتدليس — في أعين الكثيرين ،
الكفء لولاية الأمر ، الخلق دون سواء بالاستخلاف ، إذا ما وزن صلاحه
لسياسة شعوب الإسلام باقتداره على ضبط الأمن ، وإقرار النظام ، وتثبيت الحكم
في « دويلة » الشام . . وإذا ما قيست جدارته بمنصب الخلافة بمظاهر تفوقه على
غريمه المتمثلة في إحكام قبضته على أزمة الأمور . وفي سيطرة على توجيه
الأحداث وفي كيلة الضربات المتوالية لأعدائه في عرينهم غارات رهيبه مدمرة
مق شاء ، وكيف شاء ، وأين شاء وفي احتوائه رعاياه وأنصاره بالطاعة والولاء ،
واجتذابه مناوئيه ومخالفيه بالمصانعة والاستهواء . .

وكيفما كان نسكر الوسيلة وعوج الطريق ، فقد سار شوطه غير متلوم ،
ودانى هدفه وهدف آباءه وذويه الأمويين المتطاعمين ، شهوة وطعما ، على مدى
أجيال ، إلى ابتزاز شرف السيادة الاجتماعية والسياسية بين قومهم من منافسيهم
التقليديين : الهاشميين . . وإذا كان محمد بن عبد الله قد اخنصه الله بالرسالة ،
قد أعجزهم منافسة . . وقطع عليهم — لفترة غير قصيرة — طريق الأمل في
تحقيق حلم العمر . . وآلى آله وخاصة بيته الأدين الذين عزروه ونصروه ، في
أحلك أيام كفاحه ، شرفا دينيا ودنيويا لا يطول شأوه من البشر أحد : أسوى

أوغير أموى ، فإن معاوية الآن يوشك أن يكون وحده وريث هذا التراث النبوى ، وصاحب الدنيا والدين فى الدولة المريضة الجديدة ، التى تضم قريشا : هاشميين وأمويين . . . وتضم العرب : عدنانيين وقحطانيين وقضاعيين . . . وتضم رعايا الإسلام ومعتنقيه : شعوبا شتى ، وأجناسا عدة ، انتشر أبناؤها على صفحة عالم ذلك الزمان شمالا وجنوبا من مواطن الصقالبة إلى أرض النوبة وغربا وشرقا من ديار البربر فى إفريقية إلى بلاد الغول فى الصين .

إن هى إذن إلا جولة على ثرى الواقعة القابلة يملك بعدها معاوية الإمرة ، ويملك الأمر ، بالشمال واليمين . فالنصر مهيأ . والطريق مفتوح . والأعنة بين أصابعه . والحوادث له مطايا دلول .

فما للناس لا يكادون يفقهون أنه ليس بالكثرة وحدها تكون القوة . . . ليس بالمال وحده يكون الغنى . . . ليس بالسيف وحده يكون الانتصار . . . لو أنهم تبينوا حقائق الحياة ، لأدركوا أن هذه كلها قبض الريح . زخرف وزيف . قشور وطلاء . عروض ومظاهر لا تغنى شيئا عن الأبواب والجواهر ، كأنها الغيمة تستر ساعية ضوء الشمس ولكنها لا تمحوه . . . فإنما القوة القادرة ، قبل أن تكون وفرة فى النفر والنصير ، طاقة روحية تفجرها الغيرة على الحق . وإنما الغنى الباذخ ، قبل أن يكون قنية من الذهب والفضة ، إحساس القلب بالامتلاء بما عند الخالق لا بما عند الخلق . وإنما الانتصار الحاسم ، قبل أن يكون إراقة للدم وبطشا بالخصم ، قهر للنفس أن تحيد — طمعا وشهوة — عن طريق النور .

وإن كان معاوية ، وهو فى أوج اعتداده بما خلص إليه ، ظن أنه شارف ، بجبروت الكثرة والثراء والسلاح ، حد الغلبة التى تضمن له اجتيازه ذلك «الحق» الذى ادعاه ، وأخذ نفسه بالسمى إليه سنين عددا ، فإنه إذن ، بنظرة المثل الرفيعة ، لم يحسن الحساب . . . فطاقة القوة لا تقاس بالحجوم والأعداد . وذخر الغنى لا يقوم بالدرهم والمئقال . وقيمة الغلبة لا تقدر بامتلاك رقاب العباد وانتزاع الحدود والبلاد . . . ذلك لأن طبيعة الحق تنزه عن الهوى ، وتجرد من

الطمع ، وعزوف عن الباطل ، وتعفف عن العدوان . وما نرى العاهل في هذا المجال إلا قد مال ، وعدل عن كل أولئك ليحقق دعواه . . . ذلك لأن كنه النصر أنه نبع الإيمان ، ورهين الصبر ، ومنطلق الإنصاف ، وقرين الثقة بما في يد الله . وما نرى معاوية أيضا قد أراد التزام هذا السبيل ، أو استشعر هذه المعاني استشعار يقين . . .

ولقد ناضلت البشرية طويلا ، عبر عمرها على الأرض ، لتفريق النور من الظلمة ، والخير من الشر ، والعلم من الجهل ، والعدل من الجور ، والهدى من الضلال عسى أن نجعل من العالم مكانا خليقا بأن يعيش فيه الإنسان معيشة إنسان . . . فعمدت بالحكمة في نظرات المفكرين والفلاسفة ، وبالدين في دعوات الأنبياء والرسل ، إلى ترويض الغرائز ، وتهذيب الطباع ، وكبح الشهوات ، وتنشيط الماسكات ، دحرا لمتعة الجسد أن تغطي ، وحفزا لرقعة الروح أن تشف . ودفعنا لقوة العقل أن تسود ، ليتحرر البشر من بقايا البهيمية الكامنة فيهم ، والسيطرة أبدا عليهم من خلال نزغ الأنفس وشطط الأهواء . . .

وعسير بالأريب على جهد البشر بلوغ مثل هذه المراتبة العلية من الكمال ، وإن كان بلوغ بعضهم إليها ليس بمحال . ولكن السعي إليها مطلوب ، لأنه الواجب الذي يفرضه عليهم كافة فرض عين ، لا معدى لأحدهم عن التزامه ، الإيمان بالله ، والولاء للإنسانية ، والوفاء بمتطلبات الحياة الكريمة . . . ولأن الدربة والممارسة والحرص على إجادة الأداء كفيلة ، آخر الأمر ومرار العصور والأجيال ، ببناء الإنسان الأمثل ، وتحقيق الارتقاء المأمول . . .

ولا ينبغي أن يجول بخاطر ، في مثل هذا المقام ، أن ابتغاء هذا المطلب المنشود أو السير إليه ، يعني ، على أي وجه من الوجوه ، إغفال العوامل المادية أو إهدار أثرها في تشكيل مصائر الناس . أو أنه يرمى إلى التجرد الخالص من الغرائز واليول البشرية تجردا يفصل بين الإنسان وبين مقومات عيشه على هذا الكوكب ، وينضو عنه « آدميته » ، وينتقل به إلى طبيعة « سماوية » جديدة .

فذلك هو الخيال الذى يناظر المحال . . . إنما يعنى أن يخرج الإنسان من ظلام البهيمية ، ويتحرر من طغيان شهواته ، ويكبح غرائزه الدنيا ، وينمى إرادته ، ويجعل المادة وسيلة لا غاية ، ويصبح سيدا لنفسه لا عبدا لها يتحكم فيها ولا تتحكم فيه ، ليغدو كيانا متزنا من الماطفة والعقل ، وقواما عادلا من البدن والروح . . .
وحين نتصفح ذخرك الحكمة الذى تركه لنا الإمام هداية وشرعة وأسلوب حياة تقع فيه على صورة واضحة المعالم والقسمات لهذا النموذج الأمثل للإنسان الذى ظل دائما حلم البشرية ، ومناط أمل المصلحين ودعوات الدعاة . . .

فى وصفه لهذا الإنسان يقول الإمام :

« . . . ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين ، وحرصا فى علم ، وعلما فى حلم ، وقصدا فى غنى ، وخشوعا فى عبادة ، وتحملا فى فاقة ، وصبرا فى شدة ، وطلبيا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا من طمع . . . يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل . . . »

ويقول :

« . . . يسمى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر . . . إن استصعبت عليه نفسه فيما تذكركه ، لم يعطها مؤلها فيما تحب . . . قره عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى . . . الخير منه مأمول . والشر منه مأمون . . . »

ويقول :

« . . . يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . . . لا يحيف على من يينغض ، ولا يأثم فيمن يحب . . . يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه . . . لا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق . . . نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة . . . »

ويقول :

« . . . بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة . ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . . . »

ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بـمـكر وخديعة . . . »

بهذا الناموس الخلق أخذ الإمام نفسه حق السكأنما صيها في قلبه . أو كأنما كانت مثله ومبادئه مسرى خطوانه . . منطلق سلوكه . . أسلوب حياته الذي له يمثّل ، وعليه يسير ، وإليه يدعو كافة الناس أن يسلكوه أو يعيشوه . إذ هو الأسلوب الأوحـد الذي يجعلهم يدخلون دنياهم من باب الآخرة ، ويغنمون آخرتهم من طريق دنياهم . به تخشع الجوارح ، وتصفو القلوب ، وتعرّ إنسانيتهم فلا يصدر الفرد منهم في قول أو فعل إلا عن ضمير خالص ، ونية نقية ، وإرادة متجردة عن الهوى والزيف ، وهو يذكر الله في عانه وسره ، وفي جهره ونجواه وكأنا يراه . .

وليس بعد مثل هذا المسلك القويم مسلك ، ولا مثل هذه القنوة النفسية نقاء . . فإن تذكر الله فإنك تعالينه ، وأن تعالينه فإنك تعرفه . وأن تعرفه فإنك تقدره . . وأن تقدره فإنك تشكره . وأن تشكره فإنك تحبه . وأن تحبه فقد بلغت منه سبحانه أقرب مكانة إليه : مكانة الرسل والأنبياء . .

ولقد قيل مرة لرسول الله :

« قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلم تقوم الليل ، وتتعب نفسك ؟ . . »

فقال :

« أفلا أكون عبدا شكورا . . »

وأثر عنه حكاية عن الله تعالى :

« إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي . وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه . وإذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا . وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا . وإذا مشى إلى هرولت إليه . . »

وتلك مرتبة من الإيعان بذى الجلالة الإلهية تخلص صاحبها من نزوات نفسه ،

وتعجز الناس خيره صرفا وهو لا يخشى من امرئ لوما أو يبتغى مشوبة ، لأنه عندئذ يرقب فيهم ره ، ويرجو وجهه ، فلا يخرج غضبه على بعضهم من الحق ، ولا يدخله رضاه عن آخرين في الباطل . . وفي هذا اللون من السعى إلى الله ، حبا له ، وعرفانا بذاته ، يقول الإمام :

« لم أعبدته خوفا ولا طمعا . ولكنني وجدته أهلا للمباداة فعبدته . »

ويقول أحد العارفين :

« لست أَرْضَى لنفسي أن أكون كأجير السوء ، إن دفعت إليه الأجرة رضى وفرح ، وإن منعتها سخط وحزن . . وإعما أحبه لذاته . »

لكن معاوية ، فيما بدا ، كان ذلك الأجير الذى أراد أن يشمن من الخلق على عمله ويغلى له في الثمن المذول وإن هو أيقن تمام اليقين أنه يدلس بسلعته المغشوشة على المشترين . . فهو واثق أنه يموه على الناس فيتقن التمويه . . وهو عالم أن بضاعته خليقة ، لو عرضها عارية في سوق الحق ، أن تبور . . وهو موقن أنه يدعى الإصلاح ويسمى إلى تقيضه . يظهر الألفة ويبتغى الخلاف . ينادى بالانتصاف ويروم الاعتساف . .

بغير ما ييطان كان يعيش في القوم ، بقوله وعمله ، منذ تبدت له طلعة الإمرة تطل عليه وتخايل عينيه من بين غيوم الأحداث التي انتهت بمصرع عثمان . . فما لاح له فرجة ينفذ من خلالها إلى الفتنة ، بلوغا إلى تحقيق أطماعه ، حتى نشط غير متلوم إلى إشعال النار . .

انظره كيف بادر عندئذ إلى طلعة بن عبيد الله يشير على طي ، ويحاول أن يلويه عن الوفاء بالبيعة التي سلفت منه للإمام . .

كتب إليه يحرضه على السعى لاحتلاب الحكم من على استجابة لرغبة أمة لها هوى فيه . . ثم يعده النصرة من لدنه لبلوغ أمر هو به تحقيق لمزايا يكاد ينضل بها غريمه ابن عم الرسول الذى وسده الناس طائمين سيدة السلطان . . يقول فيما كتب :

« إنك أقل قریش وترا ، مع صباحة وجهك ، وصباحة كفك ،
وفصاحة لسانك . فأنت إزاء (من تقدمك !) في السابقة ، وخامس المبشرين
بالجنة ، ولك يوم أحد وشرفه وفضله . . فسارع رحمك الله إلى (ما تقلدك
الرعية من أمرها !) بما لا يسمعك التخلف عنه (ولا يرضى الله منك إلا بالقيام
به !) . . . وقد أحكت لك الأمر قبلى . والزير غير متقدم عليك بفضل .
وأينما قدم صاحبه فالمقدم الإمام . . »

وانظره أيضا كيف يوغر صدر الزير على ابن خاله فيضعه منه بمقام خصم
مناجز ، وند كفاء ، ثم يكاد يعطيه عليه بصفات تحرك في صدره الاعتزاز
والكبرياء ، وتثير في نفسه الأثرة ، وتحتاجه للدد العداء . .
كتب له :

« إنك الزير بن العوام . . ابن أبى خديجة . وابن عمه رسول الله
وحواريه وسأفه ، وصهر أبى بكر . وفارس المسلمين . . سبقت لك من رسول
الله البشارة بالجنة . وجملك عمر أحد المستخلفين على الأمة »

فاعلم ، أبا عبد الله أن الرعية أصبحت كالنعم المتفرقة لغيبة الراعى . وسارع ،
رحمك الله ، إلى حقن الدماء ، ولم الشعث ، وجمع الكلمة . . وثمر لتأليف
الأمة . وابتغ إلى ربك سبيلا ، فقد أحكت الأمر على من قبلى لك وإصاحبتك
على أن الأمر له قدم ، ثم لصاحبه من بعده . .

جملك الله من أئمة الهدى ، وبغاة الخير والتقوى . . والسلام . . »

ولا حاجة هنا للخوض بالتفسير أو بالتجريح في هذا الكلام الذى زوجه
عاهل الشام ، لأنه فى الواقع مشغن بالجراح ، ناضح بالحقد والتبويه والمغالطة
كالإناء الشفيف لا يستر ما فيه . . وكفا بنا ، بيانا لافتشاته على الحق ، شهادة
صاحب معاوية من ذويه لم يابه ولاؤه لآله الأمويين عن المجاهرة بالحقيقة الواضحة
التي أغمض العاهل عنها عينيه ثم شاء بادعائه أن يعمى عنها الأبصار . .

ذاك سعيد بن العاص .

: يكن معاوية قد كتب إليه — فيمن كاتب من الزعماء مثيرا فيهم الأحقاد
والمواجد على الإمام — يحرضه ويستجيش حمية الجاهلية العمياء ، ويشعل فيه
نوشة المصيان ، انتقاما لزوال دولة أهله بقتل عثمان . . .

قال له فيما قال من كلام طويل مسموم :

«... إنكم يا بني أمية عما قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة ،
فينسركم من كان منكم عارفا ، ويصد عنكم من كان لكم واسلا ، متفرقين في
الشعاب تتمنون لمظة المعاش . . .

إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم ، وقتل في سبيلكم فقيم القمود عن نصرته
والطلب بدمه ، وأنتم بنو أبيه ، ذوو رحمه وأقربوه ، وطلاب ثأره . . .

فإذا قرأت كتابي هذا ، فدب دبيب البرء في الجسد النحيف . . . وسر
سير النجوم تحت الغمام . . . واحشد حشد الذر ، فقد أيدتكم بأسد ونعيم . . .

فإذا بسعيد بن العاص لا يندفع في التيار . . .

إنما يرتفع بنفسه عن هذه الدعوة إلى الباطل ، فيخالف للنتظر من أموى
مثله . ثم يرد على العاهل للتجني بجواب يدفع الكيد والسكائد ، ويدفع البغض
والبغض ، ويدين التحريض والمحرض ، يقول فيه ، داحضا الادعاء :

«... أمرتنا بطلب دم عثمان ، فأى جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن . . .
ردمت الفجاج ، وأحكم الأمر ، وولى زمامه غيرك

ألا فدع عنك مناوأة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره .
وهل نحن إلا حى من قريش ، إن لم تتلنا الولاية لم يضق عنا الحق !
إنها خلافة منافية . . .

وهبنى أخالك بمد خوض الدماء تنال الظفر ، هل في ذلك عوض من ركوب
المأس ، ونقص الدين

ثم ختم خطابه :

« ... أما أنا فلا على بنى أمية ولا لهم . أجعل الحزم دارى ، والبيت
مبجى ، وأبوسد الإسلام . . فاعدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلى محبة
الحق . . فليثس العاقبة الندامة . .

والسلام . . »

غير أن هذه الكلمات الصادقة ، المتحدث بالحق . النابعة من الحقيقة ،
الداعية إلى العدل ، لم تلق عندئذ ولا من بعد صدى فى نفس معاوية ، لأنها لم
توافق هواه . . فماله حينذاك وللحق والعدل وهو يسعى لإشباع نهم أطماعه ؟ . .
وماله وإياها الآن وقد جاءه الزمن أخيرا بحلم آبائه ، وأقبلت عليه الدنيا ، وبات
وهو المالك لأزمة الأمور ؟ . .

كتقديره تسير الأحداث . بإشارته يأتعر الناس . على مفتضى مشيخته تتواتر
الوقائع السيارة فى العالم الإسلامى : غرسا ونعارا ، وبدءا ونتيجة . . بيده وحده
مصير خصمه ، ييسطها فترتخى ليهل لو شاء ، ويقبضها فتعصر ليقضى لو شاء ! . .

الفصل الخامس

صحيفة معيه المتصل الجاهد ، وكفاحه المستمر الدؤوب ، حين تجمل أعماله
وأساليبه ، ويوجز عمرها الطويل إبان مراحل تاريخه ، تكاد تجمعها بضع
عبارات لا تزال ترن في سمع الزمن كالطبل ، وتتردد لها في جوانب الدنيا من
وراء الغابر البعيد إلى اليوم أصداء تهخس للناس :

« حاول وحاول .. ثم غامر وقامر .. ثم خايل وخاقل .. ثم مكر وغدر ..
ثم قدر ودبر .. ثم عزم .. ثم حسم .. ثم بلغ بالمداورة والرياء ما لا تبلغه
نجابة ولا ذكاء .. »

ذاك سجل مفتوح ..

ففي كل خلة من خلاله ، وفعلة من فماله ، لمحات تفاق وآثار دهان ، تخدع
الأعين ، وتغلب الأسماع ، فتستهوى الخصوم كما تستهوى الأشياخ من كل ناء
بميد أو دان قريب ، ومن كل غافل غر أو لبیب أريب ..

سمة في خلقه لم ينكرها عليه منكر ، سواء الشائء البائن والصديق
اللصيق ..

ولا مغالاة ..

فقد وصفه بها عبد الملك بن مروان أحد خلفاء بيته الأمويين الذين سودهم
ملكه ورسمهم على الرقاب . وصفه ذات يوم خطب فيه الرعية من فوق منبر
دشق وهو يشير بحديثه إلى الذين سبقوه على عرش أسلافه عواهل بني أمية :
عثمان بن عفان ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وولده يزيد ، فكان أن قال :

« أيها الناس .. »

إني والله لست بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة الداهن ، ولا بالخليفة
للأفون .. »

هذه هي كلماته التي قالها في يوم من الأيام (١) - (الإمام جعفر)

فأنطقه الله بالصواب سرا من حيث لم يشأ أو من حيث شاء . وصدقته قوله رأى التاريخ وحقيقة الحال . .

وكيفما كان برحى كلمة ابن مروان : مدحا سيق في قالب ذم دلالة على دهاء معاوية ، أو قدحا قصد به إلى فضح ريائه ، فقد كان سلوك العاهل ، مثل زجاجة ينضح دائما بهذا الذي قيل فيه . .

خلال السنين المنقضية ، منذ خلف أخاه يزيد بن أبي سفيان عاملا على الشام بدا كأنما اختط لنفسه سبيل المراءاة والتقوية وقد جعل همه وقصارى سميه أن تظل هذه الأرض أبدا أموية ، لا تخرج من ملك سلطانه وسلطان آله الأمويين ، أضحت إمرة المؤمنين إلى هذا الرجل من صحابة رسول الله ، أو إلى ذاك . .

موه على عمر بن الخطاب حين حاسبه على استكثاره من الحرس والبطانة ، والتزامه مظاهر الملك وأبهته على خلاف ما جرت به عادة الحكام المسلمين من التقشف والزهادة في ذلك الحين ، مبررا سلوكه بأنه إنما عمد إلى ما عمد إليه رغبة في رفع شوكة الإسلام أمام أعين أعدائه وجيرانه الروم ، وبلوغا إلى إرهابهم وكسر طمعهم فيه إذ هم قوم درجوا على المظهر ، يهرهم البذخ ، وتخيفهم علائم القوة التي توحى بها نخامة السلطان ..

وما كان إذا ذاك إلا الحريص على توفير كل أسباب المنعة لحكمه بما أحاط به نفسه من الأعوان والحرس والجنود . .

وخلال السنين الحازبية، منذ اضطربت الأحوال في الدولة على عثمان بن عفان، واتسعت الهوة بينه وبين شعبه، بدا كأنما اختط أيضا لنفسه سبيل المراءاة والتقوية وقد استخفته الأطماع إلى أن يخلف عميد البيت الأموي على إمرة المؤمنين . فهياً نفسه ، وشحنه ملكاته ، وحشد كيده ، وحفر مكره ، وأثار دهاءه ، وجند ادعاءه ، ولم يترك وسيلة عادلة أو ملتوية إلا استعانها ، ليحيل الدولة الإسلامية كلها قطيعة له ولدويه . .

موه على عثمان أنه وحده دارى الخطر عنه ، وحامى حماه ، بخيله ورجله حق

أقد سير من الشام جيشا ربيض عند مشارف المدينة إعلانا عن صدق مقصده ،
وحتى لقد حسب الناس أنه لا بد مقتحم البلدة على من بها من الثوار ، وأخذ فيها ،
لصالح قريبه المحصور ، بناصية الأمور ..

وما كان إذ ذاك إلا المتربص بالأزمة أن تشتد ، وبالثورة أن تقسم ، وبالحليفة
أن يقتل ، لينعم هو من بعده بترائه ، ويغمس قلمه في الدم المسفوك ليكتب
سك ميراثه . . .

وخطأ بلاريب في حق صاحب الشام أن ينسب إليه حسن النية فيما أتاه حين
جهد جهده لا يتراز الخلافة ، وفعل أفاعيله لبلوغ السلطان ، فذاك هو الخطأ المحض
الذي لا تفره الحقيقة ثم لا تغفروه أيضا ملوكات ابن أبي سفيان . .

فلقد كانت نفسه هدفه . وختله أحب أساليبه . وسبيله إلى الطرق الجانبية
ملتويا معها حينما التوت وأينما عتس الظلام أعلم معالنه النفسية وأبرز سجايه التي
يغيرها تنتقص شخصيته ، ويمسى وكأنه ليس معاوية الذي تصوره لنا فعالة ، ويضعه
سلوكه في إطاره العلوم . . . فلا عن الطموح وحده سار إلى الإمرة سيره . .
ولا عن الإحساس باقتداره — قبل غيره أو دون غيره من الأقران — على
سياسة الناس والأمواد ، انتهج نهجه للكفاح . . ولا عن طلب لدم ابن عفان
للاقتال جالد بالقول والسلاح . . ولا عن إيمان بحق نفسه في الخلافة نازع الإمام . .
بل قد قاوم ونازع ، وجالد وحارب وإنه لعالم كل العلم أنه لا ينطلق على خطة
سوية لغرض عادل ، وأنه إنما كان يفتات ولا يفتات عليه ..

وليس هذا مجرد تكهن أو استنباط ينفذ إليه مستقرىء أخباره . ولكنه
الحقيقة التي لا يتعرج أن يملنها أو يخفيها عن الأذهان والمسامع هو ولا أصدق
خاصاته ولواء له ، ولزوما لطريقه . . .

فذلك ثابت مشهور . . .
فيل له مرة في معرض معارضة أو استفسار بعد أن ظفر بغاية غايته ، وأنضت
إليه إمرة المسلمين وقد غاب وجه الإمام :

« حاربت من تعلم ، وارتكبت ما تعلم .. »

فلم ينف عن نفسه علمه بانخراطه في الخطأ ، وارتكابه المعصية بمعاداته عليها في سبيل بلوغ سدة الحكم ، بل قد أكد التهمة ، فقال .

« وثقت بقوله تعالى : إن الله يغفر الذنوب جميعا .. »

وسئل ابن العاص وهو محتضر على فراشه الدنيوى الأخير ، ودموعه عندئذ تسيل من ندم ، أو من خشية ساعة الحساب على ما قدمت يداها :

« لم تبكى ؟ .. أجزعا من الموت ؟ .. »

فكأنما قد حضره على الأثر ما أسلف . فأيقن لحظة الرحيل أن ما فات فات ولا رجعة فيه ، وأنه قد أقعّم نفسه — بمحض اختياره ومن أجل مقمّ مشبوه زائل — في مزالق من الريب والشكوك ولات هذه اللحظة حين مناص من ترديه في قرار محيق ..

وقال :

« لا والله ! ... إني كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسى فيه .. »

كنت أول أمرى كافرا ، فكنت أشد الناس على رسول الله ، فلو مت حينئذ وجبت لى النار ..

فلما بايعت رسول الله ، كنت أشد الناس حياء منه فما ملأت منه عينى قط ، فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئا لممرو ! أسلم وكان على خير أحواله ، فسرخوا له بالجنة ..

ثم تلبثت بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدري على أم لى »

ومع ذلك فقد اختار الرجلان ، دون تلوم ، سبيل الضلالة المروءة ، أو سبيل الشبهة التى تفضى لاهالة إلى ضلالة ، قصرت المسافة أو طالت ، وجل للطلوب أو هان ..

ومضى معاوية شوطه إلى هدفه البراق المرموق ، على متن أساليبه ، في
روية وصبر وإصرار . .

ثم حالفه زمنه ، فإذا هو ، أخيرا ، يحس بالأرض سهلة تحت خطاه . .
بلا عوائق . ولا وعورة . . ولا صخرة هنا أو كثيب هناك يمترض أيهما طريقه
ويعرقل انطلاقه ، فيطيل الشقة أو يزيد المشقة . . بل لقد كان منها كمن على ذات
شراع تنساب به أنسيابا فوق ماء ساكن ، تحت جو صفو ، وفي رعاية ريح
معتدلة رخاء . .

وكيف لا ؟ ..

فها هو الآن بر الأمان . .

ها هي الغاية قيد البنان . .

ها هم الناس يأتعون بمشيئته ، والأمور تسير كهواه . . والمصير يتخلق على
مقتضى تخيله ، وفي إطار الصورة التي رسمتها نواياه . .

غير أن الذي كان في الحسبان لم يكن ، وما لم يكن في الحسبان هو
الذي كان !

لم يضطرب به الماء .

لم ينتقب تحته الفارب .

لم يتمزق الشراع . .

لكنه حرم ، لا ريب ، لذة اقتطاف ثمرة حقد وكبد يمينه وإنها متعة ليس
يعد لها عند حاقه متاع . .

فالحوادث لم تسر كتقديره وإن كانت الثمرة المحرمة سقطت ناضجة في حجره
بغير عناء . .

والنتيجة لم تكن كما هوى وإن بلغت به ذروة مناه . .

القدر الذى حالفه طويلا ، وكان يشهد اعتداده بنفسه ، وبما هو ضامن به
انزع النصر من قبضة غريمه ، سخر منه ا . . . فوث عليه غرضه . . . غل كفه
إلى عنقه وهى تمتد للجولة الأخيرة ثم ركة بلا حول ولا مشيئة فى تحديد
المصير الذى ظل واثقا أكبر الثقة ، بضعة أشهر ، أنه وحده القادر على أن يصوغه
الإمام . . .

فمن وراء بضعة أيام ، تكلجة الهدب من عمر الزمن ، تسللت أصابع المجهول
إلى ما قر بخلد هذا للمعتد الواثق وثبت فى روعه ثبوت الحقيقة المستيقنة تعبت
به ، وتعيث فيه . . . تمحو وتطمس . . . تعدل وتبدل . . . تنقص وتضيف . . .

بين جمعة وجمعة تغيرت الصورة . خبت أضواء ، وكشفت ظلال ،
وحالت ألوان . . .

وإذا كان للشمانة طعمها الحلو فى قلب حاقد ، فإن معاوية المنوم الاشتفاء
من على لم يسغ منها إلا مثل حسوة من كأس مترعة ، أو مثل لعقة على طرف
لسان . . .

فكأنما أجهض الشمانه ا . . .

وإذا كانت للنصر فرحة تسكر ، فنصره الذى أصاب لم يدر رأسه ، ولم يهن
بالنشوة عطفه ، لأن البلية التى أحقت بمدوه اللدود لم تكن من صنع يديه . . .

فكأنما النصر لقيط ا . . .

فعندما شملت حشود العراق من الكوفة ، مغربة إلى ساحة الوغى المعلومة
عند صفين ، وقد عقدت العزم على خوض الحرب ، لم تكن تعلم ، ولا تحلم ،
أن لن يحدث لقاء وقتال . . .

وعندما شرقت جيوش الشام من دمشق ، مشاملة إلى أرض الواقعة
وقد تحرقت هوقا للنصر الموعود ، لم تكن تعلم ، ولا تحلم ، أن لن يكون نصر
ولا هزيمة . . .

الآلاف التي صعدت من الجنوب ، والآلاف التي انحدرت من الشمال ،
الاحتكام إلى السيف في وقعة أخيرة فاصلة ، تفرق الغلبة من الدهرة ، وتأخذ الموت
من الحياة ، كتب لها ألا ترشق قطرة دم .

الألوية التي عقدتها معاوية لأعوانه عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ،
وأبي الأعور السلمي ، ومن على نهجه من حشوه ، وأصحاب حربه ، وذوى
الخطوة لديه ، إنما عقدت لتحل ، ونهبرت لتطوى في بضعة أيام ، بعد مسيرة
قصيرة ، ودون التعام .

الألوية التي عقدتها أمير المؤمنين لصفوة خاصته وخلصائه الحسين بن علي ،
وقيس بن سعد ، وأبي أيوب الأنصاري ، وعبد الله بن عباس ، ومن إليهم من
حزب الله وأصحاب رسوله ، رفرقت حيناً على الرؤوس باعتزاز ، ولكنها ما لبثت
سوى قليل ثم نكست الهام كأنها شموع أصابها عارض من ريح طاصف ، أطفأ
شملتها ، ووكأها للاظلام . .

ولم يكن الإمام هو الذي أغمد السيوف ، وطوى الأعلام . .

ولم يكن طاهل الشام هو الذي أرسل الريح لتطفي* الشموع . .

غيرهما كليهما كانت تلسم الكف التي لبسها القدر قفازاً ، ودفع بها من
وراء ستر الأيام لتغير ما قر في الخواطر ، وثبت في الأخلاص ، وبات كاليقين
أن يطلع — لولاها — على الوجود ما سلف أن أكدت الوقائع الجارية حتمية
حدوثه ، وأنبأت عنه المقدمات كنتيجة لازمة ليس عنها محيص . .

تلسم الكف التي حولت المجزى ، وقلبت الأوضاع ، وبوأت الحق مكانة
للبطل ، والمبطل مكانة الحق ، لتقدم لابن أبي سفيان — من حيث لم تشأ ولم
يحمل لها في خيال — نصراً هيناً رخيصاً ، لم تكن قط في حساب إنسان إلا شردة
ضالة من بضعة أفراد . .

وكانت — من جهداً — أدنى إلى أن تكون علوية الرأي والتشيع منها
إلى أن تكون أموية الهوى والنزوع . .

كانت أيضا غير صلبة الأصابع ، غير شديدة القبضة ، لم تكد تتحرس بخشونة
الوقائع . ولا أطبقت على سلاح .

كانت رحية طرية كأنها نسمة العبا ، رقيقة شفافة كشعاع من نور ،
ناعمة ملساء لها ملمس الحرير . . خلقت لتمز المهد ، وتداعب الورد ، وتدغدغ
الوليد ، وتأسو من شكاية الجروح ونسكاية الآلام ، وتختضب بالحناء ، لا أن
تزلزل الطمأنينة ، وتلمب بالحناجر ، وتجهز السموم ، وتخطف الأرواح ،
وتختضب بالدماء . . .

فهي كف حسناء . .

كف عروس أجلت ففتتها ، وألفت بهاءها ، وهيات نفسها لليلة الزفاف . .
كف قطام ، فتاة تيم الرباب الحلوة ، ذات الشأو في ميعة السن ، ونضرة
الرونق ، وطغيان الحسن التي دونت لها أسطر طوال في سجل الجمال . .

ولئن عرف ، قديما وحديثا ، أن المرأة ، بغيرزة الأمومة ورقة الأنوثة ، هي
التي — عادة — تنجب الحياة ، وتثمر الحب ، وتشر الحنان ، فلقد عرف كذلك
أنها بوحشية الحقد وضراوة البغضاء ، هي التي — في أحيان ليست قليلة —
ترهف القسوة ، وتقتل الأمل ، وتنضر الموت . .

ولئن عرف أيضا أن المحنة التي تردت فيها الأمة الإسلامية آنذاك ، حاضرا
وغدا ، كانت من نتاج نبتة غرستها هذه الفتاة في تربة الجهل والكراهية والعصبية
المفتونة العمياء ، وروتها بالدم ، فلقد عرف أيضا أن الشجرة الملعونة التي ترعرعت
إنما تفيأ ظلها معاوية ، وجنى ثمرها ، وإن أرادت له قطام ، وعملت جاهدة ،
أن يكون هو بعض الجنى ، وإحدى فرائس ثلاث يحشها منجل الحصاد . .

فقطام تيم الرباب هي التي تعهدت الغرسة ، ورعت نموها ، وآلت جذورها
السقيا ، حتى إذا صلب عودها ، وأينع فرعها ، ونور زهرها ، وطاب ثمرها ،
كان ابن أبي سفيان هو الذي قطف من حيث شاءت له أن يكون من بين
القطوف . . .

وقطام تيم الرباب هي التي وضعت الرواية ، وأحكمت حبكتها ، وهيأت مشاهدتها ، وحركت شخوصها على مسرح المأساة الساخرة أو المهزلة المفجعة . . حتى إذا أوشكت أن تم فصولا ، وكاد ينزل ستار الحتام ، جاءت النهاية على غير ما اشتهت وأعدت ، وبخلاف ما كان يوحى به ، وينبغي أن يؤدي إليه ، السياق . . .

رمية من غير رام . . .

مشيئة القدر لا مشيئة قطام . . .

لكنها قصة طويلة . . .

مأساة اختلطت فيها المهزلة بالفاجعة . السخرية بالجد . المفاجأة بالإعداد . الشجاعة بالحسرة . الضحك باليأس . . قاعها دعوة . . ووسطها نقمة . ورأسها طمعة . .

بمكة كان مستهل مشاهدتها عند رفع الستار . .

بالكوفة كانت ذروة الأداء . . .

بدمشق دوت قهقهة الشيطان تعلن الحتام . .

عديدة المواطف والاتصالات . وثيدة الخطا على درب الأحداث . قطعت الشوط في نحو عام . .

طويلة طويلة في عمر الأحزان . .

حدث هذا ذات يوم -اخن من ذبول الربيع .. حشوه جمر ، وقشره رماد .
باطنه خطر ، وظاهره أمان . .

وكان من نحو عام .

والمكان مكة .

والزمان الموسم .

النهار ، يومئذ ، راكد الحركة ، رائق الأفق ، هامد النفس ، مشتعل النور . .
الشمس حريق .

الشماع السنة لخب ، وسياط نار ، تعلق الأشياء ، وتجلد الأحياء . .

الجو ضباب رقيقة ، رمادية اللون ، متسقة الصفعة ، من الوهج والغبار . .

الهواء ، من شدة الحر ولفح قيظه ، دخان وبخار . .

والحجيج إلى بيت الله قالت كثرتهم إلى المضاجع ، فرارا من وقدة الظهيرة . .

طوائف منهم تستروا بالرحال ، يسمرون أو يريحون . . بقيتهم الباقية تفرقوا

في أروقة المسجد وأبائه ، زمرا وفرادى ، كأنما يحاولون تلقف نسمة رطبة ،

تنفثها السقوف المبروشة وظلال الجدران . .

الأسن في الخلق تضطرب لاهثة . . الأفواه جافة . الشفاء ذابلة . الجفون

مثقلة . الأهداب مشدودة إلى الحدود والوجنات . .

الأحاديث شهيقة وزفير .

الرؤى أمام الأعين المغفيات أشباح . .

لا مَعْلَم في البناء القدس الفسيح لانتفاضة الحياة يوهك أن يطالع أى مقبل

عليه ، من بعيد ومن قريب ، غير تذاؤب الظلال واهتزاز الأضواء . تتفرق

وتتراكم ، وتتباعد وتتلاحم . . ترق هذه هنا لتكشف هناك . وتجلو تلك عن

جانب لتنتقل إلى آخر . ويتقلص منها ما يتقلص ليمتد قرينه وينتشر كلها هومت الشمس التي أسأمتها وحشة الوحدة ، وأعيانها طول الترحال ، وهي آتشي الهويض ، في تردد وحذر ، على الأفق المحترق ، بخطاها الوسنانة . .

أينما وفد وافد ، في تلك الآونة ، على حرم المسجد ، أجنه منه في . . وأينما طاف بصر ، بشقي نواحيه ، ملاء من خمود من فيه فراغ . وأينما أصغت أذن سمعت الجلود . .

عند حد الرؤية ، من وراء سبحات الضوء وخطرات الظل ، كانت تتراعى ، بين فينة وفينة ، شخوص عديدة مبثرة ، خرساء الوقع كأنها أطيايف . إن تبرز لحظة في وهج النور ، فلتذوب على الأثر في شبيهة الظلال . .

بالساحة القريبة من بيت الله ، على قيد مسافة غير قصيرة من بابه الكبير ، وفي ساعة الزوال ، اضطربت الخطا بثلاثة رجال . أمامهم البيت ، ومن خلفهم الصحراء . جمعهم غاية ولكنهم تفرقوا على الطريق . . وبدوا عندئذ كثلاثة خروق تناثرت في ثوب النور . .

لكأنما كانوا يدبون الخفاء . . . لكانما كانوا يعيشون على ريبة . . . شخوصهم تتسلل نحو المسجد ، متناثية ، في تعهل ثقيل ، كمن يسرون على شك ، أو يحسبون الخطوات . . خيالانهم الزاحفة في آثارهم كأنما تشدهم إلى الوراء . . أقدامهم تحتمل تتعسس مواقعها فوق الرمل . . عيونهم تسبقهم ، بنظرات قلقة متلصصة ، وهي تدور حولهم في مختلف الأرجاء . .

ولاحوا ، لمن قد يقطن لهم ، بضعة أعصاب . . فالحواس يقظانة . واللامع مشدودة . والأعين حادة . والآذان مرهفة . والأنوف مشعوذة . وكل حركة تند منهم إنما لتلقف مظنة ، وتلمح خابجة ، وتلقط همسة ، وتشم رائحة المجهول . . وكان مقصدهم ملاذا من المسجد ، حريزا آمنا ، يكتهم من تطفل الأنظار . . وكان ملاذهم مسرحا يعرضون عليه أسرار نفوسهم ، وخبء صدورهم ، وغوامض فكرهم ، عارية مكشوفة لا تبدو سوا أنها لمن عداهم من الناس . . وكان مشتاهم الذي نذروا له الدم والجهد والتدبير الدائب تغيير الأوضاع .

وعندما دلفوا من بين مصراعى الباب ، متفرقين ، واحدا بعد الآخر ،
ولفظهم وهج الضياء إلى عتمة الظلام ، أووا إلى بقعة نائية من المسكن ، عمية
خرساء ، لا تشي بهم ، فلا تطاع عليهم فيها عين ، ولا تسمع منهم أذن ، ولا ينقل
عنهم لسان . .

وجلسوا يتسارون . .

كانوا هضيمى الوجوه ، نحيلي الأجساد ، مروقى الأوصال ، تكاد جلودهم
تشف عما تحتها من فرط الهزال . . تتأ فيهم المعظم ، وحال اللون ، وخف اللحم ،
فغارت الأعين من سهر القيام ، واسودت الجباه من كثرة السجود ، وضمرت
البطون من سغب الصوم . .

وظلوا ساعة ، بحلوتهم تلك ، فى حديث موصول ، يلم بالنفس والصحب
والأمة ، وبالولى والمدو ، وبالأمس واليوم والغد ، متباينى العواطف ، متلون
الجرس ، مختلف النبرات . يرق مع الحزن ليرتجف بالغضب . ويدوب فى الندم
ليشتعل بالحقد . ويسرح مع الأمل ليغزو المستحيل ، وكأنما لا تنطق به الألسنة
بل تنطق الأعصاب . .

كانت جلسة نارية حمراء ، اضطرعت فيها العبارات والأفكار وإن بدت هادئة
قد اختفت جذوة ثورتها تحت رماد المخافة والمناجاة . . خلالها ترجمت الوقائع
إلى عبر ، وجسد الراى فى عمل ، وسيجت بهم ذكرياتهم فوق موجات أصواتهم
منسابة مع تيار الزمن فى موكب حافل اجتمعت به مشاهد الحاضر ، بصور
الغابر ، بأحلام مستقبل مأمول مجهول .

رحلة طويلة من الحلجات والشاعر ، ومن الرؤى والخيالات .

فالحال الآن على غير ما يرتضى هؤلاء الرفاق أن يكون . . النفوس شتى .
القلوب هواء . الدين غريب . العمل ضلال . الحياة تنافر وعداوات ،
والأمة أشلاء . .

والوضع بالأمس محنة للإسلام وأهل الإسلام ، أجيح نأرها التحكيم ،
وعجزت الدعوة الهادية : « لا حكم إلا لله » أن تثوب بالعتاة والجبايرة ممن
يسكون بزمام الأمور إلى جادة الصواب . بل لكانها حفرتهم على الغلو في
الطغيان — عنتا واستكبارا — حتى وقعت النهروان . .

والغد المنتظر ضياع . . صفحة فارغة مطوية أخلق بها أن تكون امتداداً
لما قبلها من الأخطار والمساوى ، إن لم تتح لها اليد القوية التي تنزعها من براثن
الهمود لتشرها ، ثم تسطر فوق ديباجتها ميثاق التغيير . .
هكذا تبين للثلاثة الطريق . .

وأخيرا التفت أحدهم إلى رفيقيه ، بعد إمعان فكر ، يخاطبهما بصوت هامس
خفيض كأنما يضمن بكلماته أن تسمعها شفتاه . .
قال :

« لو أننا شريفاً أنفشنا لله عز وجل ، فأتينا أئمة الضلال ، وطلبنا غرتهم ،
وأرحنا منهم البلاد والعباد ، وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهروان ! . . »
فتأمل قوله الآخرون .

وساد هنية صحت مطبق ، ذاب فيه الحس ، واختنقت الأنفاس . وران
خلاله على الوجوه الداوية هدوء جامد تصلبت به للامح ، وقست القسبات حتى
غدت كأنها سيوف مشحوزة ، أو سهام مسنونة تهم بالانقضاض أو الانطلاق . .
ثم تقابلت العيون على ترقب وتأهب . .

ثم تحفزت النظرات . .

ثم تفجرت الفكرة . .

وما لهم لا يفعلون هذا الذي طالهم به الرفيق ؟ .

إنه لراى ما كان ينبغي قط أن يغيب عنهم ، وعن أصحابهم الخارجة ، كل هذه
الشمور . . فهو الفكرة الصائبة . وهو العمل اليسير . وهو الخطة الحرة بأن

ترفع عن الأمة العمة ، وتفشع الكابوس ، وتفضى في يوم ، بل ساعة ، بل لحظة واحدة موقوتة محسوبة ، على أوائك القادة الذين تسلموا ذروة السلطة ، وملكوا المصائر ، وفرقوا الأمة ، وعيشوا بالدين ، وابتزوا حق الله . . .

ذاك هو المنفذ الوحيد إلى الخلاص . . . إلى تصحيح الأوضاع . . . إلى ترويق العقيدة ، وتطهير النفوس ، وتنقية العقول ، وتقويم الأفكار ، وتحرير الناس . وعلى الأثر بدا الرفاق الثلاثة كأنما قد اخبروا في واحد ، الفكرة واحدة . والنية واحدة . والهمة واحدة . والسبيل الذي عليهم اجتيازه هو هذا الذي لا محيص عن انطلاقهم فيه خفافا سراعاً وقد رنموا عليهم القسديم بمد سقوط ، ونشروا شمارهم الأصيل بمد طى ، احيوا دعوتهم الأولى التي أنبتتها أرض صفيين ، وبيعثوها من مرقدتها عند النهر ، حيث قانت عليها جماعتهم من قبل ، وتبعثرت حروفها ومعانيها مع أشلائهم بين أنواء النهر ، ونحت تراب الضفة الدامية ، في قبور مضیعة مجهولة ، حفرها لهم ، منذ عامين ، سيف الإمام . . .

بتلك الحلوة المستترة ، في البلدة الحرام ذلك اليوم من الموسم ، تحركت نزعة التآمر ، وبدأ أول تدبير في تاريخ الإسلام لإقامة الحكومة الفوضوية ، أو حكومة الجمهور ، التي لا ينفرد فيها بالإمرة إنسان ، ولا طبقة ، ولا حزب ، ولا نفر قليل أو كثير من الناس ، مهما علت بهم الثروات ، أو ارتقت الأحزاب ، أو سمت الأجناس . . . فلإنما الأمة كلها — في مذهبهم — الأمير ، والأمة أيضا الرعية ، والحكم لله . . .

لقد علم أن هذه الجماعة المتآمرة الآن قد سلف من عصبتهم الكبرى نفس رأيها هذا قبل وقت غير قصير ، لم تكتمه عن الأذهان والآذان . ولم تتوان عن الترويج له بين الخاصة والعامة من أبناء الشعب الإسلامى على السنة فريق من دعايتها وأئمتها المفتونين الذين أتعنوا المجادلة واللجاج ، وولموا بالتأويل والتخريج ، وقد استخفهم أن كانوا عبدة زاهدين يطيلون الصلاة ، ويكثرون الصيام ، ويقومون وينامون على تلاوة القرآن . . .

ولقد علم أيضا أن مذهبهم ، الذي نجمت لهم فكرته حين اضطربت الأمور بصفين وارتفعت المصاحف على أسنة الرماح بنداء التحكيم ، قد ترامت به الأخبار في أنحاء الدولة ، ووجد بها السميع والمجيب حتى استشرى بين الناس كاستشراء النار ، وقويت به شوكة أصحابه قوة غدوا بها فرقة ذات خطر في مجال السياسة ، لا يحمده طغيانها على الدولة والدين ، وعلى الفكر والحريات . .

وعلى كثرة ما كذبتهم الأدلة ، وحذرتهم الأحاديث ، وأسرف الإمام لهم في البيان والتبيين ، فقد ظلوا ورأيهم ، لا يراعون عما سدروا فيه . . فلم تردم حجة ، ولم يكفهم سلاح . . وإنما ازدادوا تشبثا به ، وإصرارا عليه ، مندفعين على مزالقه إلى القاع الذي ليس تحته قاع . مجروفين بعصبيتهم الدينية إلى ما يفارق الدين ، ويخالف القرآن ، ويجانب السنة ، ويناقض العقل ، وتأباه ، قبل هذا كله ، إنسانية الإنسان . .

... ذات يوم صاح رجل من عصبتهم المفتونة في وجهه على :

« لا حكم إلا لله . . »

فلم يثر به . بل ترفق له في المقال عسى أن يشفيه برفق البرهان بما هو فيه ، ثم يهدي به من وراءه — من الداعين بدعوته — إلى جادة الصواب . .
أجاب في هدوء :

« كلمة حق يراد بها باطل . . »

ثم استطرد :

« نعم ، إنه لا حكم إلا لله . ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله . . »

والفرق بين المفهومين جلي غاية الجلاء . فالإمرة إدارة وسياسة ، والحكم

قدر وقضاء
وأكل يبين لهم ، بعبارة مباشرة ، لا يشق إدراك مضمونها على إنسان . .

« ... إنه لابد للناس من أمير ، بر أو فاجر . . . يجمع به النية . ويقا تل العدو . وتأمين السبل . ويؤخذ للضعيف من القوى . . . »

... وجاء في الأثر أن الإمام قال :

« لما أنزل الله سبحانه قوله : (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) .. علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا . فقلت : (يا رسول الله ، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟) . . فقال : (يا طي ، إن أمتي سيفتنون بمدى) . . »

ثم قال الرسول :

« إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب على جهاد المشركين . . . »

وقال :

« ... تقا تل حينئذ على تأويل القرآن كما قا تل على تنزيله . . »

... وشاع في الناس ، تلك الأوتة ، من أمثال هذه الأقاويل والأحاديث ما إن وعته عصاة الخارجة أصحاب احياء السوداء ، اعدل بها عن عتها واندفاعها في الاستكبار . . فكم من مرة جهد الإمام أن يستفيثهم إلى الحق ، بالحكمة والوعظة الحسنة . بالكلمة للوجزة . بالخطبة المستفيضة . بالمنطق للبين ، بالحجة الدامغة . بالقول الفصل . بالترغيب وبالترهيب . . وكم من مرة نقل إليهم ، على السنة صحابه الأذنين ، العارفين للقرآن ، الحافظين سنة الرسول ، ما يقطع الشك باليقين . . وكم من مرة لاین وصادق ، وصبر وصابر عسى أن يؤوبوا إلى جادة الله ، وإن بدوا كأنما اختاروا لأنفسهم أن تضرب في القى إلى الأغوار . .

عن الفتنة لم يلوم منقول ولا معقول . لم تغن عنهم تقواهم . لم تكفهم النذر ، فقد اشتبهت عليهم الأمور ، وعميت منهم البصائر ، وانطمست الضمائر ، والتأملت العقول . . فالدنيا كلها على خطأ وهم وحدهم على صواب . الأمة في الضلال

وعصبتهم في الإيمان . الإسلام كما ينظرون . والقرآن كما يتأولون . . . ولن
يقر لهم قرار ، أو تسكن نائرة ، إلا أن يحملوا الناس قاطبة ، في الدولة الفتية
العريضة ، على انتهاج نهجهم ، واعتناق مذهبهم ، بصهرهم أجمعين — رأيا
وعقيدة — في صهر مبدأهم السياسي الجديد ، وإن ركبوا إلى ذلك أخشن السبل
وأوعر المسالك ، من عنف وقسوة واغتيال . .

وها هم الآن ، أولئك الرفاق الثلاثة ، المتسترون بالظل ، يبدأون الرحلة
الويلية . . فلا مناص من العمل في الظلام . من الديب كالنمل . من التسلل
كالشعابين . . . لا معدى لهم ، في المقام الأول ، من انتزاع سلطان الله من
الإنسان . . . من القضاء على الحكم . . . من الخوض إلى الهدف في بحر
من دم . . .

وقال أحدهم لصاحبيه :

« أنا أكفيكم على بن أبي طالب . »

وقال الثاني :

« وأنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان . »

وقال الثالث :

« وأنا أكفيكم عمرو بن العاص . »

وعندما اهتزت شخوصهم المعتمة من مكناها الخفي بذلك الركن من بيت الله ،
وأخذت تتناثر مرة أخرى في الساحة القرية كثلثة خروق في ثوب النور ،
كانت نطفة المؤامرة قد غدت مضغة تهم أن تتخلق ، لتغدو جنينا لن تلبث
الفتنة الحبل أن تلقظه إلى الدنيا وليدا خبيثا حينما يجيئها المخاض . . .

تواثقوا بحسكة .

واتعدوا لرمضان .

وحددوا يوم الفصل بالساعة والملاحظة .

وتماهدوا على الوفاء بما نهضوا فيه . لا ينكل أحدهم عنه ، ولا يلتفت وراءه ،
إلا أن يقضى وطره ، فيقتل رجله الذى صمد إليه ، أو يقتل دونه . .

وكان الموعد ليلة القدر . .

وكانت الساعة صبيحة الجمعة ، لحظة إقامة الصلاة . .

فقتل ولاية الجور — فى مذهب تلكم العصابة — قرينة إلى الله . وأحرى
القربات وأيمنها ما يتقرب به فى المواسم المباركة الشريفة . . .
ثم تفرقوا إلى المواقع .

تسعة أشهر طويلة كان لا يد للرفاق الثلاثة أن يقطعوها إلى غايتهم على انتباه
وحذر ، فى ترقب مض ، وسكون آسن ، وانتظار ثقیل . بصدور مخلقة الأبواب
والمنافذ . . . بعلامح راكدة . بعيون مرتخية . بشفاه مزمومة . . . فإن تبدر
منهم حركة فقد تفشى . وإن تند خلجة فقد تشى . وإن تلمع نظرة فقد تفضح .
وإن تفلت همسة فقد تنم . .

وسرهم ، مع هذا ، لا يكاد يقر له قرار ، أو تهدأ تأثرة ، فى سجنه الذى
أودعوه إياه بين الضلوع . . بل إنه لينتفض ويضطرب ، ويعوج ويهيج كوحش
انتزع من رحابة الغاب أو فسحة القلاة ليحبس فى قفص يحرمه حقه الطبيعى
فى الحرية ، ويحول بينه وبين الانطلاق فى الحياة وفق هواه . .

فيقدر ما كان حرصهم على حصر السر بمرز حريز ، فى قرار مكين ، ينكمش

يعنيه الكتان ؟ . . أن لن يتباهى فيدل بما اعتزم عليه ؟ . . أن لن يتهاون فيزل
بعبارة أو بإشارة ؟ . . أن لن يضعف فيتهاوى ويخور ؟ . . أن لن يتلوم ويتأثم
من خوض الدم ، فيكشف — بدفعة ندم ، أو بخليجة خوف — عما يضر ،
فإذا هو يأسف فيعترف أو يشي فيخون ؟ . .

لكنهم ، فيما بدا ، استطاعوا اجتياز الامتحان العسير . ارتقوا فوق الندم
والتأثم ، وفوق الخوف والضعف ، وفوق العياء والمباهاة . . ظلوا وما هم عليه
من تماسك ، طوال رحلة الزمن والمسافة ، وقد أخذ كل امرئ منهم نفسه وعقله
وقلبه بغض البصر عن خيالات الشك التي تراوده في زميله ، وزكم الأنف عن
تشم روائح الحيانة . . فما لهم محيص عن نبذ الارتياب . ولا عن الثبات .
ولا عن إتمام شوطهم هذا الذي بدأوه من ساعة أن بارحوا البلدة الحرام ،
لأن اندفاعهم إلى الأمام أيسر لهم من التقهقر إلى الوراء ، إذ كانوا ، في حقيقة
الأمر ، ينزلون فلا يستطيعون الارتداد . .

طوال أشهر الترحال والتنقل ، بين منازل الحضر ومضارب الرعاة عبر المياه
أو على رمال الصحراء ، لم يكن يند عن أحد منهم ما قد عصى يتم عنه . . كانوا
يسرون كالأشباح ، يتسللون كالثعابين . يحمون في الظلام كالحفافيش . ينخرطون
في غمار الجمهور الغافل عنهم مجهولين غير معلمين عن سواهم بكلمة واحدة عن
رأى ، أو خليجة مضطربة في قسمة ، أو سمة مميزة في لباس . . كانوا حريصين
على مخالطة العامة ، ومجانبة من لهم هوى في مذهبهم أو اهتمام من نوع ما بسياسة
الأمر ، ما استطاعوا سبيلا إلى المجانبة ، بعدا بأنفسهم عن مواطن الظنون
والشبهات . . وعند ما بلغ عبد الرحمن بن ملجم مشارف الكوفة ، وهم البرك
ابن عبد الله أن يدخل دمشق ، وأوفي عمرو بن بكر على القسطنطين ، كانت المؤامرة
تمشى على ظلالهم بالخطا المتعدة ، والقدم الثابتة ، والعين الحذرة ، على طريق القدر
والغيلة إلى نقطة النهاية . .

فكأنى بهم هبطوا المدائن الثلاث مع الليل الأسهم ، أو السحر الضرب ،

متسترين بالسكون والظلمة والاستخفاء كيوم خروجهم وأصحابهم سرا من الحاضرة العراقية متعددين للالتقاء بالنهروان . . . وكأنما كانوا يستلهمون من حمية النار اصراعهم للمقدرة على الانطلاق . . . وكأنما قد استعانوا على مشقة رحلتهم بما أكنت صدورهم المغلولة ، يستضيئون في الأمسيات الليلاء بشأر الأحقاد . ويلوكون الكراهية دفعا للجوع . ويصحبون في الوحدة الموحشة خيالات المأمول . .

غير أن ابن ملجم كان — دون رفيقيه البرك وعمرو — أولى الثلاثة بالحذر والتقية ، فدخل البلدة خائفا يترقب وفي ظنه أن العيون تأخذه من كل جانب . وحق له . فعنده بأهل الكوفة غير بعيد في حساب الخواطر لا في حساب الأيام . . وقصته بها جدية بأن تظل ماثلة سنين عديدة في الذاكرات لا تخلق ولا تغيب . وحديث أمير المؤمنين معه من المأثورات . . وإذا كانت زحمة الحوادث المولية قد طوت أمره عن الناس هذه الشهور الأخيرة ، فإن نظرة عابرة قد تقع عفوا عليه ، خليفة بأن تنضو عنه مسوح الخفية ، وتدعه عارى النية ، مهتوك السر ، على قمة الريبة . .

واهتز الرجل من أعماقه .

ليكاد يعاين افتضاح أمره في كل ما يجري حوله . . في كل حركة تعرض ، وكل نظرة ترنو ، وكل همسة تبدر . . يكاد يحس — بكيانه كله — توجس القوم منه التوجس الذي يلتف عليه التقاف أفعى تضغط لتمصره ، ثم يلتقي به وبهمته الحبيثة وراء جدران صماء لا منفذ بها ولا ثغرة تتسرب منها مكيدته . . يكاد صبره ينهد ، وجلده يتمزق ، وعزمه يهن ، وقلبه يتهاوى عند موطن قدميه . .

إنه ليجزع فيجزع في الجزع حتى أذنيه . ثم يهلع فيذوب في الهلع عقلا وعصبا وجارحة . ثم يملكه فزع غامر يشل تفكيره فإذا هو فزع المستكبر الصليب الذي لا يهدده خوف الهلاك بل خوف الإخفاق . .

ولا لوم عليه عندئذ لو أحس الضياع . أو ذهل عن نفسه . أو اشتبهت عليه الأمور . أو مات من الحسرة في كل لحظة مرة ، مع كل نفس يردده صدره ، وكل خطرة تعبر بباله . .

فذاك أولى بأن يكون . .

وكيف لا ، وقصته مع الإمام تنفض عن جنباتها البالي كفن اللسيان ، وقد انشق عنها قبر السنين ، لتجسّد حية أمام باصرة خياله ، طوال يومه وليله ، سكونه وسيره ، نعاسه وسهره ؟ . . وحديثه وإياه لا يفتر عن الطنين في أذنيه يمثل الزمزمة التي يعلل دويها أذنى محروم ؟ . . ومشهد لقائهما الذي انتهك فيه سره — وهو حينذاك مجهول له ، خفي عنه لم يحل له بعد في خاطر — لا يبرح عينيه كأنما قد ارتسم بين جفنيه ؟

وطارده الذكرى . .

إذ ذاك كان قد وفد ، فيمن وفدوا على أمير المؤمنين ، ليأخذ عطاءه . . فما امتدت يده حتى أمعن الإمام فيها النظر بلعظ خاطف ثاقب الشماع ، صوب سنه بعد هنية إلى وجهه ، وقال في هدوء :

« ما يحبس أشقاها ؟ . . »

وكرر السؤال . .

ولم يفهم ابن ملجم . ولا فهم الناس الذين سمعوا ، إلا قلة من خلصاء الإمام أعادت الكلمات الهادئة إلى أذهانهم ذلك الحديث المأثور عن رسول الله ، الذي يعلنون أنه حدث به ابن عمه وصديقه منذ سنوات طوال .
فما أسرع ما تكرر الذاكرات بالكثيرين إلى ذلك الماضي ، تسترد منه ذلك الحديث .

وتلتئم الخطوط . وتتجمع الحروف . ويكتمل المنظر بما يحتوي من مرئيات ومن أصوات . .
محمد يسأل :

« أتعلم من أشق الأولين ؟ ... »

وطى يجيب :

« نعم . عاقر الناقة . »

فيسأله ثانية :

« أتعلم من أشق الآخرين ؟ ... »

فيجيب :

« لا . »

عند ذاك يقول الرسول :

« من يضربك ها هنا » مشيراً إلى هامته ، « فيخضب هذه » مشيراً إلى

لحيته . . .

فهذا الحميرى ، طالب العطاء ، هو إذن ذلك الأشقى الذى أعلم الرسول علياً

نبأه ، وقرنه فى الشقاوة بأشقى الأولين ، عاقر ناقة عمود .

هذا هو الفاتك المقتال الذى أوماً إليه الإمام بكلماته يوم طاف به طائف من

علم محمد الغيب عن غيره من البشر ، فقال لبعض خاصته المجتبيين ، الذين كانوا

يشفقون عليه ، حين الحرب ، من خوض الحشود واقتحام السلاح ، غير آبه

شيئاً بما قد يصيبه أثناء القتال :

« إني لا أقتل محارباً ، وإنما أقتل فتسكا وغيلة . . يقتلنى رجل خامل

الذكر . . . »

والتفت العيون الذعورة بأبن ملجم ، واسعة الحلاق ، حائرة النظرات .

وتناثر فى الجو حوله رشاش الحمسات فى تساؤل واستفسار . . .

لكن الإمام مال عنهم إلى الوافد للشبوه فمنعه عطاءه الذى جاء له . ثم

تمثل بيت شعر لعله أن يغنى عن التفسير :

« أريد حياته ويريد قتلى »

عذرك من خيلك من مراد . »

هنا انبثق من البيت المروى من شمع أضاء في الخواطر ما قد غمض على الناس ، في بدء ذلك اللقاء ، من كلام الإمام . . . الآن رفع العطاء . . . برج الحفاء وانجاب الستر عن السر المسربل بالغيب فلا حاجة بهم إلى تعقب أمره أو تبين ملاحه من خلال غموض الإيحاء . . . فطالب العطاء الذي أثار قلق القوم ، وحرك فيهم الشعور بالخطر ، حميرى من اليمن فيما يعلم تقر منهم غير قليلين ، نسبة إلى مراد أو هو حليف لمراد ، وعداده في كنفه أهل الأشعث بن قيس وذويه . . .

وزلزل الخوف ، على الأثر ، قلوب الجمع للتلطف بأمر المؤمنين وقد بدا لهم في ابن ملجم المصير الدائم الذي يوم أن يتسلل خلسة إلى صاحبهم بالغيلة بعد حين يضمه الغيب ، في ساعة من يوم مجهول ، بأرض سلام لا بساحة قتال . . .

وأذهل أيضا الصفوة الخلاء منهم ، أن يعد الإمام للشقي في الطمأنينة ، فيوفي له العطاء غير مانع ولا ضنين ، ويحلى بينه وبين الحرية ، بغير تحرز منه ولا عين عليه ، وإنه للعالم علم اليقين أنه عائد لا محالة إليه ، فقاتله في غد إن لم يكن اليوم ، أو بعد شهر أو عام إن لم يكن هذا الشهر أو هذا العام . . .

وقالت للإمام منهم طائفة رأيت ضرورة تدارك الهنة المقبلة ، ومعالجة الأمر بالحسم ، توقيها لما يكون :

« فهلا تقتله يا أمير المؤمنين . . . »

فابتسم بسمة هادئة لونها أطياف من السخرية أو الإنكار ، وهو يعجب كيف فات وعيهم الناضج أن هذا الذي يطلبونه منه ، ويدعونه إليه هو قمة المحال . وقال :

« فكيف أقتل قاتلي . . . »

فسمع منهم الصمت ، ورأى الوجوم . . .

لكنه شاء ألا يدعهم والحيرة ، وآثر أن يكفهم ، بمنطق العدل ، عن
محاورته ليوصلد الباب دون خوضهم بغير جدوى في غمرة المغيب المجهول ،
فأردف يقول :

« إنه لم يقتلني . . فكيف أقتل من لم يقتل . . »

وهل من قصاص بغير جرم ، وعقاب ولا جريرة . . ؟

وها هو الآن هذا الشقي : عبد الرحمن بن ملجم الحميري ، طلع الأرض
الخبية ، حليف مراد ، لصيق كندة ، ثالث رفاق الاتفاق الدموي بمكة ، يقبل
على الكوفة بعد غيابه عنها العديد من الأشهر ، وقد تمخلت في نفسه النية
الخبية التي كانت خافية حينذاك عن لمح خياله ، خبيثة في طوايا ذهنه كالنطفة
الهامدة التي لم تضطرب بعد بانتفاضة حياته . .

ها هو يقبل ليوفي نذره . ليقضى وطره . ليقتل الإمام . ليكتب بمنجبره
السموم آخر سطر في القصة التي لم تحتتم يوم العطاء . .

لصيق كندة الحميري ابن ملجم ، كان يعلم أنه أحرى بأن يقع في شرك الريبة ، إن لم يكن بين فسكى الهلاك ، لو أنه لم يلتزم خطة الاستخفاء والمخالسة ، التي انتهجها منذ مبارحته البلدة الحرام ، كأحكم ما يكون الالتزام . . فلا أمان له في إشباع نهمه إلى التعرف على ما يدور حوله بالكوفة . ولا في تعمق ما يخالج الناس . ولا في العوص فيما قد نوى إليه ظواهر الأحوال التي يرى — بين شعوره وتصور حدسه — أن صروفها المتواليات راحت تتجمع في جوانب الأفق ، أحيانا كالضباب ، وأحيانا كالسحاب ، منذرة بأحداث قريبة الوقوع . . إنه لا يضمن ألا يتعثر في نظرة مرتاب . . ألا يفتن إليه غريم ألا يتبين أمره أو ملامحه بمض أولئك الذين عرفوا سيرته ، وسموا برحيله مع أهل النهر ، وأدركوا سبب انتفاضه على الإمام ثم قد يشيخون الآن ما لا تحمد له مغبة في أوبته هذه المريبة إلى بلدتهم بعد الاختفاء الطويل . .

لا معدى له إذن عن كف النفس عن محاولة استكناه الأسرار ، واستنباء الأخبار ، والتطلع إلى ما وراء كل مرئي مائل ، ومنطوق مسموع وإن كان إحساسه المرهف بالخطر المحدث به أولى بأن يشحذ ولعه بالتقصي والبحث ليأخذ بالحذر ، أو يتمود بالطمأنينة .

أهون انشراح عليه ، لا محالة ، هو أن يخلد ، ما وسعه الجهد ، إلى القبوع داخل إهابه . . الاعتزال في قرعة أفكاره . . التناثي عن هذا التيار الذي بدأ يضطرب بالحاضرة العراقية وأهلها في تلك الآونة القلقة من تاريخ الإسلام ، ثم عسى لا يدري أحد ، ولا هو يدري ، أيها تحدره المتواتر فيسكن أو يفيض ، أم يزيد تدقعا واندفاعا فيفور أو يفيض كطوفان . .

ذاك قصاراه . .

والكوفة آنذاك لم تكن هادئة . لم تكن رائقة الصفحة ذلك الرق الصافي

الذى ينم عما تحته في القاع . . ولم تسكن أيضا هادرة . ولا مطهوسة معالم
سطحها المتموج ، البادى أمام النواظر أو الخواطر ، كل الانطاس . . بل قد
كانت تمج بالعدو والروح . وتتذاب بين الضجيج والسكون . وتمتلىء بالأخبار
كما تمتلىء بالأحداش . لا تكاد تعرف الاستقرار . قلقه السكبان — هيئة
وفكرآ — تتحمل كتملح مروج لا يعرف ، أو يعرف إنسان ، أتنهكه
علة تمركه حماها ، أم وجهه هذا الذى ينوشه عارض لا يابث أن يزول
بعد قليل . .

وضاقت عليه ، لاريب ، البلدة وهو في ملاك ذلك الشعور الذى يطلع
الخطر عليه من كل ناحية ، مع كل لحظة من نهار ومساء . . فبين كثافة خلاقتها
الذين يؤلفون مجرع السكان ، تكاد تفرقه النظرات . وتخنقه الهمسات .
وتصرعه اللفتات العشوائية التى تنبث بغتة — كانبعاث السيف حين يسل فجأة
من غمده — من كل مقبل ومدبر من عابرى السبيل . .

ليكاد يحس أن الدنيا له بالمرصاد ، المجموع تتبع حركاته أو تقرص بخطاه .
المرصد مبثوثة في طريقه . الشراك منصوبة تحت قدميه . . في كل وجه يقابله عفا
بطريق ، مرقبان : عينان . . في كل طريق مزلق إلى هاوية . . في كل هاوية
ينتظره هلاك . .

ما من مناص له من الانهياز عن هذا الزحام الخانق إلى منتأى بعيد ، تنعشه
به نسمة هواء وتجنه فينة هدوء . ينزل منه بقر آمن . ويأنس فيه إلى رفيق . .
لقد كان من قبل ، إبان الرحلة الطويلة من الحجاز ، يتجنب الناس ، ويلوذ
بالوحدة ، ويصاحب الوحشة التى يحترف من وقرها عليه التقاؤه بأفكاره ،
وانفساح الصحراء أمامه الانفساح الذى ييسر الانفراد . . ولكنه الآن في
المدينة المزدهجة غيره بالأمس في رحاب الأرض الجرداء . ومع الجمهور الزاخر
كابصر الهادر غير مع خواطره الوادة له ، للأوضة الحاجات شعوره . . فالتجمع
الإنسانى في أى بقعة من الأرض يشير في النفس غريزة حب الاجتماع . ووجود

الناس يغرى بالصعبة . وامتلاء السمع بالكلام يدفع اللسان إلى الكلام . . .
وكان لابد له أن يختار ، فاختار . . .

غامر بالتخفف هونا من قيد الوحدة الذى كبل به نفسه ، بعد أن ثقل عليه
عالم الغموض المريب الذى يمش فيه ، وجو الوحشة الخائفة الذى يطبق على
صدره ، وطول الكتان الذى يعيه . . .

ولم يكن نة أمامه — إن نفى البلدة كلها طولا وعرضا ، دروبا ومشارف
وأحياء ، أو خبر أهلها أجمعين ، مقيمين ووافدين — غير مأمنين اثنين ، هما
أدنى إلى ألا يختاراه أو يشيا به ، وإنما فى قلبه المغلول للناس . . .

فليس آمن له ، فى المدينة الكبيرة ، المليئة بالحركة ، المائجة بالجموع ، من
منازل كندة ومن لحق بهم من بنى جلدتهم البنية من موال ولصقاء وأحلاف .
وليس أكنم لأمره ، وأبقى عليه — بعد هذا الحى — من أطراف البلدة حيث
لا يعدم أن يجد شراذم مبعثرة من ذوى رأيه وأصحابه الخوارج ، يعيشون فيها
أشتاتا على استخفاء . ودون ذلك وتلك قد تطلع الأرض له الارتياب والخطر
والتريب من اجل تحش مهمته لتذروها الريح . . .

لا ريب قد كان عبد الرحمن يختلف حينما إلى مأمنيه هذين ، كلما أعوزه
الاطمئنان ، وافتقد الصعبة ، واستوحش فضاقت دنياه باعتزاله الذى كان يحياه . .
لا ريب قد مال مرة هنا أو مرة هناك ، متمسكا بالظلمة ، متمسكا بالجدران ،
عسى أن يلتقى فى القوم من عساه علا عليه بعض الفراغ . . كان مفتقرا إلى
تجديد الثقة بنفسه ، فى حاجة إلى تثبيت يقينه ، وليس له إليهما من سبيل سوى
ألفة تشع عليه من دفئا ما يبدد برد ليل انتظاره الطويل . . .

فلعله حينذاك كان يحاول أن يصطنع رقعة جديدة فى متعصب أو غير إن لم
يقع على صاحب أو صديق قديم . . لعله كان يلتمس العون والطمأنينة عند
رئيس يمين ويحير . . لعله كان يحس النيات ، ويشم الاتجاهات ، وإن هو ظل
دائما — كدأبه — ذلك الحذر المتوجس الذى يكتم أمره عن الجدد والقدامى

من الخلان على السواء ، طاويا عنهم ما تعاقد بمكة عليه مع صاحبيه ، مخافة أن يتزلق به لسانه فينتشر السر ويفسد التدبير . .

لكن الثابت الذي لا شك فيه أنه التقى بفريق من الخارجة ومن يرون مثل رأيهم الحبيط المضطرب في الحكم والحكام . والتقى أيضاً بالأشعث بن قيس ، سيد كندة ، الذي له هوى معروف في ضرورة تغيير الوضع القائم ، وله نشاط ، لم ينسه الناس ، كاد ينحرف به عن مؤازرة على كل الانحراف إلى ما يشبه العداء والخصومة وإن هو غطى سلوكه أمام العامة بقشرة ولاء . . .

على أي وجه من الوجوه كان التقاء ابن ملجم بأولئك أو هؤلاء ، وكيفما كانت وسيلته للالتقاء ، فقد كان أسلوبه هو الأسلوب الطبيعي المنتظر ممن هو مثله من أصحاب الخطط السرية الذين يستوثقون لأنفسهم ولخطائم الزاحفة إلى الهدف الخفي كل استيثاق ، باستقراء الملامح ، وتعمق السرائر ، واختبار الميول ، وتشتم رائحة الخبيء المجهول . . فلم يكن له حيص عن التلصص والتجسس ، وعن التلمس والتحسس ، عسى أن يده فعله على سبيل أقصر إلى نهاية شوطه . أو ناصر أقدر على معاوئته . أو متبصر أعلم منه بالمسالك وأعرف بحقائق الأمور والأحوال . أو رفيق طريق يستطيع به — في أقل القليل — أن يرى من مكامن الخطر ومواطنه ما قد منعه تواريه واعتزاله الحياة العامة أن يراه . أو ولي وفي يحمي ظهره عند وقوع الخوف المذخور . .

وما يدرى أحد أسعى عبد الرحمن بن ملجم وقتئذ إلى الأشعث بن قيس أم سعى الأشعث إلى عبد الرحمن . ولسكنهما التقيا بلا مرء . وكان اللقاء بينهما هو اللقاء الذي لا بد أن يكون لأنه كوقوع الشكل على شكله ، واجتماع المردف برديفه ، إن لم يكن لقاء الاتفاق والمصاحبة المشتركة بعد ما ظهر ، منذ رفع المصاحف بصفين ، من انحراف الأشعث عن على بن أبي طالب ذلك الانحراف المشبوه الذي يماثل العصيان ، بل المناجزة ، بل الاتجار . . .

فسيد كندة ، فيما دلنا عليه سلوكه ، متهم في ولائه للإمام الاتهام الذي

لا يكاد يدع منفذا للاعتذار عنه بأي تبرير ، أو للمفاوطة في دمه بالانحياز عنه والمالأة عليه بين تقدير وتقدير . . فما يمكن الادعاء بأنه لم يختلف أثناء المعركة ، في بعض فيئات هدوء المقتال ، إلى بنى أصله الخينية في صفوف الشام ، يقابلهم ويحادثهم ، على عادة المقاتلة في حروب تلك الأيام . وما نبرى مقابلاته هذه من مشاورات كان يجريها مع قومه من حزب معاوية ، ومن وراء ظهر حزب العراق ، لكف الحرب وإعادة السلام . وما يخفى على أحد أن مشاوراته حينذاك كانت أدنى إلى أرب معاوية ، وأجدى عليه منها إلى سياسة على وغرضه وإن بدت كأنا ترمي إلى صالح المسلمين العام . وما يكتم التاريخ أن سلسلة أفاعيله من بعد كانت لها اليد الطولى في الأخذ من جانب على والإضافة إلى جانب معاوية حتى انتهت آخر الأمر إلى قلب ميزان القوى بين الفريقين ، ثم تبديد حق الإمام . .

والسرديطول . . ولكن الأشعث بن كندة ، كما ثبت كاليقين ، لاح كالسائر على خط مرسوم ، السامى إلى هدف معلوم ، الدائب دأب العامد الحريص على فض النزاع المشبوب على غير ما رأى إمامه ، وبخلاف ما ارتجى العراق ، وكنتفيض ما أجمعت عليه عزائم أولى الألباب العارفين بالله ، الداعين إلى سبيله ، الماملين على رفع شأن الفضائل والقيم الخلقية والدينية والاجتماعية للقرار بأوضاع الدولة والناس القرار الذى يعلى الحق ، ويعحق الباطل ، ويوحد الأمة ، ويقضى على النفاق والشقاق ، وتستقيم به الأمور فى أرجاء أرض الإسلام — دينا ودنيا ، وخلقا وسياسة — تكير ما ينبغي أن تستقيم . .

آية ذلك ما اندفع إليه ، منذاك ، من مبادرات عمرت بالجهد الدائب ، والسعى المتواتر ، والقول المثير ، مشى بها فى طريق ولاء من المشاورات والمناورات ليس قصاراها إلا أن تمس على الإمام خططه ، وتضطرب بأموره إن نحن أحسنا بها الظن ولم نقل إنها تبييت مدبر ، وحلقات متصلة من الدسائس والمؤامرات . .

واحدة أنه علا بنفسه — زهوا وغرورا ، أو انحراف وخيانة ١ — إلى ما فوق موضعه ، فادعى لها الولاية على الإمام ، وطى صحبه الخلاء ، وعلى جموع أهل العراق ، ثم على المسلمين كافة ، خف من خلف أظهرهم أو كاد إلى ما يشبه الاتفاق مع عتبة بن أبي سفيان طى وضع الحرب ، أو على تسخير نفوذه لوضعها ، دون مشورة من ولى الأمر الشرعى ، وغير مبال ما لفعله هذا من أثر بالغ فى تمويق الخطأ إلى الهدف ، وفى تمزيق وحدة الصف ، وفى الهبوط بمعنوية الجيش العراقى المنخرط حينذاك فى القتال بصقين إلى وهدة الوهن والتخاذل والانقسام..

يومئذ يصفى إلى ملق عتبة بن أبي سفيان الذى يشير فيه كلفه بالتفاخر ، ويغذى بألفاظه المنمقة المعسولة غروره ، إصغاء مقبل نهم نشوان ١ . .

يقول عتبة :

« إنك رأس أهل العراق ، وسيد كندة ، ولست كأصحابك ١ . . إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية . . . وإنا لاندعوك إلى ترك طى ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التى فيها صلاحك وصلاحنا . . »

فلا يأبى الدعوة المخذلة عن الحرب ، المرجحة لكفة الشام ، بل يتقبلها كمثل تقبل ظمآن ماء آسنا لا خيار له فى رفضه أو يعوت ١ . .

يجيب :

« . . . أما البقية فليستم بأحوج إليها منا ، وسرى رأينا فيها إن شاء الله . . »

ويعلم معاوية من أخيه بما كان من الرئيس الجانى الكبير فيستبشر ، ويطمئن باله ، لأنه — وقد أبأسه وشق عليه أن يحتلب النصر من طى محمد الحسام — يوشك أن يرى قلبه طى غريمه وحزب العراق يأتية يسيرا هينا من خلال استجابة الكندى الغرور لهذا التخاذل الموهى بآلوان السلام ١ . .

وأخرى نعلها ويعلمها الناس ، عندما تسمر القتال في معركة صفين ، قبيل
نهايتها ليلة الحرير . .

فلقد أشرف القتال ، ليلتها ، على لحظة فصل تجلّت بها للعراق بشائر نصر
حاسم لاشبهة فيه ، كما بدت للشام نذر هزيمة ساحقة لامناص من تَجرجع مرارتها ،
ولا سبيل معها إلا سبيل الاستسلام . ولكن الأشعث يلوح كالأدى لا يرتضى
هذه النتيجة ، ولا يحب أن تكون . فيسارع — طائما وملهوفاً — إلى تشييط
همة قومه القاتلين في صف على ، وتحذيلهم عن مواصلة القتال شبرا أو فترا
إلى النصر المضمون ، كأنما قد هاله أن يعز الإمام ، وتسقط الراية من يد
ابن أبي سفيان . .

ينبرى حينذاك إلى قومه كندة ، وهم بعد على ثرى الميدان ، لا يحثهم على
الصبر والثبات وإعنا يحرضهم على القعود والشلوط . . ولا يخوفهم الهزيمة ، بل
يخوفهم الظفر الذي لاحت لهم معاله ، وخفقت فوق هامهم أعلامه . .
يخطبهم فيقول :

« .. قد رأيتم ، يا معشر المسلمين ، ما قد كان في يومكم هذا الماضي ،
وما قد فنى فيه من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ
فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن نحن تواقفنا
هذا إنه افناء العرب ، وضيمة الحرمات . . »



وثالثة جاوز بها حدود الولاء إلى الترد ، والمؤازرة إلى العصيان . .
حين أكلت الحرب أهل الشام ، وأوهك الأشتر ببعض جنده أن يعصف
بمعاوية في فسطاطه ، واحتال عمرو بن العاص بالمصاحف تمودا بها من الهزيمة ،
وهم فريق من العراق أن يقوموا في شرك الحدعة . . في تلك الآونة الخطرة التي
تقرر المصير ، وتمرق الحق عن الباطل ، والجد عن الهزل ، والنصر عن الهزيمة .

نصب الأشعث بن قيس الكندي نفسه — دون علي ، وصفوة صحبه ، وروس جماعته ، وقادة جيشه — وليا ناصرا للعبة المأكرة ، ومدافعا عن العدو المخذول . .

عدى بن حاتم يقول للإمام :

« إننا أمثل من القوم بقية . وقد جزع القوم ، وليس بعد الجزع إلا ماتحب فناجز القوم . . »

وعمر بن الحمق يقول :

« والله ما نصرناك عصبية على الباطل . ولا أجبننا إلا الله عز وجل . ولا طلينا إلا الحق . وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا مملك رأى . . »
والأشتر النخعي يقول :

« إن معاوية لا خلف له من رجاله ، ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك . فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله . . »

أما رئيس كذبة الأشعث فيغضب الغضب كله لهذا الإجماع من رفاقه ، سادة الجرع وقادة الألوية ، على مواصلة القتال . . ثم يشور . . ثم يعتف لعل في الخطاب :

« . . ليس آخر أمرنا كأوله . . فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم . . فقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال . . »

ويعضى يؤاب الجيش العراقي ضد ما قد ارتأى أصحابه ، ويحرص على إطفاء نار الحرب ، والركون إلى المهادنة حتى تتنادى الكثرة بقبول التحكيم ، مخالفة الإمام . .

وغيرها أنسكى وأمر ، تضيق على أميره ثمرة الكفاح ، وتهدم أسس النصر ، وتفسخ البقية الباقية من الأمل في الاستقرار لأنها تقضى القضاء المبرم على الحكمة المنشودة من وراء الاحتكام لكتاب الله . .

فهو لا يدع التحكيم ، الذي جهد ليقوم ، يسير في طريقه الطبيعي إلى ما يحقق

سلاما عادلا يشير إليه الواقع ، ويقضى به صالح الأمة ، ويرضاه حكم الله لأنه هكذا التحكيم الذى يكشف عن بغى الباغين ، ويدمغ سلوكهم بالمروق ، ويحملهم حملا على ما يكرهون من حكم القرآن . . .

ولا مغالاة ، إذ أبى إلا حكما يرضاه وإن علمه مشبوه الولاء للإمام ، أدنى إلى الغفلة عن القضية ، وأولى بتسليمها لمشيئة الغريم . . .
يقول على :

« إن معاوية لم يكن يضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص . . . وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله ، فليكم بعبد الله بن عباس فارموه به . . . »

لكن الأشعث يعترض الرأى وقد أخذته العصبية :

« لا والله . . . لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة . . . ولكن أجمله رجلا من البن . . . »

ويختار أبا موسى الأشعرى . . .

فيقول الأحنف :

« . . . قد عجمت هذا الرجل ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب القعر . . . لا يصلح لمؤلاء القوم . . . وهو رجل يأن ، وقومه مع معاوية . . . »
ويعقب على :

« إنه ليس لى رضا . وقد فارقتى ، وخذل الناس عني ، ثم هرب حتى أمته . . . »

فيأبى الأشعث :

« والله ما نبالي . . . »

فيرشح الإمام آخر :

« فإني أجعل الأشتر . . . »

فيأبى ثانية أو ثالثة ، ويصر على أبى موسى ، ويظاھرہ في الإباء والإصرار جماعة القراء الذين غدوا من بعد خارجة ، كأنما كان وإياهم على اتفاق . . .

ويقع ما يقع في التحكيم فإذا هو وفاق ما أراد أن يقع مكر صاحب الشام ، وغفلة أبى موسى ، وخيانة الأشعث . وعنت القراء . . .

ذلك الزاحف من مكة برسالة الموت ، استطاع — في وكر الفتنة — أن يحقق ما اشتهت أحلامه السوداء أن يكون . . .

بمسارب الكوفة المظلمة ، ومغاوير الدسيسة . جدد الصعبة مع نفر ذوى صلابة ومراس ، من الأولى على نفس مذهبه ، يكون لعل بن أبي طالب عداوة حمقاء صريرة ، ويرنو أمهم المجنون إلى هدم حياته ، وتقويض عهده لنشر دعوتهم الوبيثة . . .

وبين فلول الماتورين والمخدوعين ، وقع على بضعة غالية في عصبية التفكير ، أنس منها إلى اثنين مفتونين ، عاقدها على النصرة واسترخاها الحياة ، من أجل إراقة الدم المستباح . . .

وبديار تيم الرباب ، لقي من يؤجج شره ، ويلهب ثأره ، وينفخ في ناره ، ويحفز نفسه المفعمة بالاضغينة ، اللتأثة بالهوى ، حذر اشرها لانهدأ لهزيمة ، ولا تبرد غلة ، ولا يتراخى تصميم . . .

وفي حي كندة ، فوق كل أوامك ، قابل الرئيس الندى يحمى ، أو يشير ، أو يشير . . .

لكن القدر الموكل بالفلوب ، أو شك في لقاء من تلسم اللقاءات أن يعد أصبعا إلى قلب للتأمر تلعب بوتر فيه فتقلب — لحين من الزمن — تفكيره ، وتعديل تدبيره حتى لكادت أن تدفع بخطاه بعيدا بعيدا عن المرمى الذى بيت النية على بلوغه بعدا شاسعا ثم أن يتحول بتيار التاريخ . . .

ولم يكن هذا فى حسابان أعبد الرحمن يوم بدأ رحلته الطويلة . ولا جال له فى بال وهو يرتاد للمسارب والمغاوير والأوكار انتجاعا للمون أو الرقعة أو النصيحة .

ولا سرح ظنه لحظة قط إلى قوة في الوجود — من شيء أو أمر ، من ناس أو حدث ، من إعداد فعل مدبر أو من صنع صدفة عارضة — تستطيع أن تعترض سبيله المرسوم ، أو تحرف خطاه عن السير عليه . .

غير أن القلوب قلب . والهوى جموح . والعواطف رعناء . .

وقريب إلى سجية البشر ، لا ريب ، بل بضمة منها ، أن يعرف المرء الحب ، ويندوق طعمه ، فينعم به أو يشقى فيه . وقريب أيضا — حين تلمسه عصاه السحرية — أن ينسى نفسه ، وينسى عقله ، وينسى ماضيه أو يكاد يذهل آونة عنه تطول أو تقصر كعمر نشوته ، ليتبدل على الأثر قلبا بقلب ، وشعورا بشعور . . ولا غرو . . . حين تلتفت القلوب تغمص العيون . وحين يأمر الهوى تلبى الجوارح . وحين تجرّش الأحاسيس تأسن العقول . .

فتلك سنة الطبيعة في الناس ، وضربتها المفروضة عليهم لحفظ البشرية . .

وكان من قدر ابن ملجم أن عرف الحب ذات ايلة ساجية بالكوفة ، من ايلي الفرار والطراد وانتسلال المسترة بالغموض ، المأجبة بالهمس ، اللبثة بالأسرار . . فإذا هو إذ ذاك يبدأ رحلة جديدة . . يعيل عن طريق التفكير الحذر إلى طريق العاطفة المفتونة . . يمر بالتجربة الإنسانية العذبة ، للتواترة في حياة الإنسان كأنفاسه ، المتكررة عبر الأيام في كل مكان . .

باللمسة الساحرة ، غدا المتأمر المغامر غير ما كان : إنسانا سوى إنسان ، وكيانا سوى كيان . . . لكانه خالص من كثافة البدن ومن عتمة للمادة . . . لكانه ابن لحظته الحلوة التي أعرقته في النشوة . . . لكانه ولد من جديد . .

في عين من سوادها الداكن ليل الليل ، ومن بياضها الصافي صباح الصباح ، عاين الفتي قدره . وجد دنياه . عاش فترة من حياته شهية ندية هي الحياة ، أو هي حياة غيرها أخرى ، مفصولة تماما عن هذه الحياة . لا تسكاد تسمى المألوف في وجوده الأول ووجود الناس من شكول وأوضاع ، ومن نظرات وأنكار ، ومن ظنون وأحداث ، ومن سنين ولحظات ، ومن أغوار وأبعاد لأنها لا تخضع

لأى الأعين ، ولا لمنطق العقول ، ولا لحكم الأحيار . . لا تظن لما يدور في ذلك العالم الذى كان يحنه ويحتويه : عالم القلق والحذر ، والخوف والخطر ، والدمر والظلام . . لا تحسب من سنى عمره ، لأنها وحدها العمر والدمر والخلود . .

إلى دنيا أرضها زهر ، وريحها عطر ، وأفقها أمل ، وجوها صفاء ، نقلته نظرة وسنانة مخالسة من بين أهذاب عيني قطام ، غيداء تيم الرباب . كانت الفتاة أسرة الحسن ، طاغية الفتنة . فى لحظها خمر ، وفى لفظها سحر . رقيقة كقطرة الندى ، ريانة كأنفاس الفجر ، نضرة كالربيع . فما أن رنت إليه ، أول رنوة ، حتى أحس كأنما ذاب فى النظرة العابرة الحفرة التى صادفته عن غير موعد ، وتسللت إليه على استحياء . .

وأملت منه ، على الأثر ، طرف ذلك الغرض الذى دبر له ، ووهب نفسه ، وجاء من أجله يقتحم الشبهة والليل إلى مستقر هذا اللقاء . غاب عن فكره النذر ، وعهد الثأر ، ورحلة الغيلة الطويلة من البلدة الحرام . غفل عن كل أولئك الزمرة من رفاق المذهب المفتونين الذين أقبل من وكره على جمعهم الحاضر ليسمع منهم ، ويستطلع رأيهم ، ويمجم دخائلهم — دون أن تسقط لفظه من بين شفثيه قد تننى به — عسى أن يستصفى فيهم فردا ذا عزيمة وبأس وكتمان ، يعاقد على المشورة والعون ، ويسير معه لصرع الإمام . . ضاع منه ، فى غمرة نشوته العاطفية ، ما قد سلف من حياته وفات ، ثم أوشك أن يضيع ما هو آت غير لحظة من رجاء عذب ألا يطلع عليه نهار أو يحنه مساء إلا وهو يخلق فى سماء أحلامه الوردية مع قطام . .

إنه الآن غير ما عهد أن يكون . كأنما قد اعتسل بالنور . . يذنه كلة خدر ، وفؤاده كله وجيب ، وأنفاسه كلها لهاث . . كأنه صنع من صفاء . . كيانه ينطوى فى نبضة تحفق . . روحه يشع فى نظرة تهم . . عالمه اختزل فى فتاة . . وعندما طفا على سطح المشوة ، وعاد هنيئة إلى بعض وعيه ، كان قد نسا عن نفسه ثياب الضخينة وكساه العاطفة مسوح السلام . .

ولم يقل لهم ما كان قد أعد ليقول ولا جهد ليستدرج خواطرهم إلى ما يريد .
ولا حاول أن يلتقي أذنيه إليهم ليعجم الأعواد . . . ولكنه أخلد بينهم إلى صمت
واجم كأنه ذهول وهم من حوله يحدثونه لو كان لأصم مسمع يعي أو يلتقط
الألفاظ . . .

وتفضته الأمسية ، من بعد ، إلى وكره الخفى ، ينفرد فيه بمرائس رؤاه . . .
وكان راضى النفس تظله السكينة . يسبح في عاطفته على قارب نشوان . ويمشى
بحيالاته على السحاب . . . وكان غير ما كان . خفيفا كالنسيمة ، نقيًا كالفجر ، رفيقا
كأنه ظل ، شفافا كأنه شعاع . . .

فكم من ليلة قضاها هناك ، بخلوته تلك مع الحب ، بعيدا عن الضغينة والناس
وعوالم الظلام . . . كم من يوم أسفر صباحه عليه وهو في حله الجميل للوصول . . .
كم من لحظة أغلق فيها قلبه على نفسه ، كناسك بصومعة ، وأطبق أيضا جفنيه
على صورة قطام . . .

الليالى القليلة التى لعلها مضت عليه وهو فى هذا السراح الرفيق مع عاطفته
الوليدة ، فتعت أمامه الطريق للتطهر ، ورققت شعوره ، ومسحت على فؤاده
الصلد بالحنان . . . خلال سويحاتها الناعمة ، عاش فى دنيا رحيبة من رقة تنكر
القسوة ، وحب لا يعرف الكراهية ، وسماحة توسع فى المغفرة لكل الخطايا ،
ما جل منها أو هان . . . ومن ثنايا أحاسيسها المحلقة ، كان ينبثق مثل نبع من
ضياء لألاء ، سماوى السنا ، علوى السمات ، رحيم الشعاع . . . وفى مسار فلسكها
الصافى المتألق ، كانت تسبح ، فى بروجها النورانية ، كواكب الأمل والدعة
والطمأنينة . . .

لكن هذا النقاء المنتشر حواليه ، لم يكن يسلم ، بين فينة وفينة ، من عصفة
حيرة تهز الهدوء ، أو غيمة قاق تشوب الرجاء . . . أحيانا كان ماضيه المغلول يلتقي
بظلاله الكثيفة على نور طريقه . أحيانا كان أمسه الآثم يحاول أن يمرق
حركته . أحيانا كان ما سلف من أوزاره ونواياه يكاد يشده للوراء — بعيدا

عن غده المرتقب الحلو — إلى ذلك الشر الظالم الذى ود ، بكل خلجات قلبه
الذى لمسه الحب ، أن يودعه قبر النسيان . .

كالجرح القديم الذى يبدو من ظاهر الجلد كأن قد التأم ، كان فسكر ابن ملجم
ما زال ينغر بقيعه . . . فى بعض آونات ادكاره ، كان يستعيد نذره وثأره . .
مرارا عديدة كان كالذى يطربه فحيح الهمسات التى تبادلها بمكة مع رفيقيه . .
مرارا أخرى كان يتذوق على شفثيه مثل النشوة وهما ترددان ، عن غير وعى ،
قسم الانتقام لزملائه صرعى النهر . . مرارا غيرها كان يرى ، بعين تصويره ،
دم قريسته يخضب كفيه . . ومن خلال مشاهد خياله ، كان يتابع ، بالرغبة
والشوق والتلهف ، خطوات صاحبيه على طريق المؤامرة الدموى ، ليرى البرك
ابن عبد الله وقد دخل دمشق ، وعمرو بن بكر وقد دخل الفسطاط ، ثم ليكن
على كئيب من كليهما ، مشتمل الحقد ، متمر النظرة ، يقرب كيف ينفذان حكم
التأمر فى مساوية وابن العاص . .

من القسوة إلى الرحمة ، ومن الحقد إلى السباحة ، ومن السكر إلى الحبة .
تأرجح الفتى ليااليه تلك وهو فى ربة محنة نفسية ، لا تكاد تهديه أين القرار . .
ترجرج كأنه قطرة زئبقية ، تندرج يمنة ، أو تندرج يسرة ، ولكنها لا تثبت
هنا كما لا تثبت هناك . . اضطرب كريشة حائرة فى مجال إعصار . .

غير أنه ، ذات أمسية ساطعة النجم ، صافية الأفق ، ريانة النسيم من أمسيات
ذلك الشتاء ، أحسن كن أعدته هدأة الطبيعة المترفة ، وملأت روحه القلقة أمنا
وسكينة . فإذا بمحمده يخبو ، وحيرته تسكن ، ونظراته الوحشية تلين . . وإذا
بنفسه تخلص من درنها وخبثها ، كرة أخرى كساعة اللقاء ، كأنما اغتسلت
فى أشعة الأنجم . . وإذا بقلبه القاسى الأغلف يتزع غطاءه الكثيف ، وينفتح
ليستقبل الحياة . .

وعلى الأثر شهد ذلك المساء الساجى وهو يعضى إلى منبع عاطفته ، فى ديار
تيم الرباب ، خفيفا كطيف . وكانت الليلة قراء . والبدر فى سمائها النقية الشهباء

قد استدار كأنه كوة من النور تنفذ منها القلوب للتطهيرة المنيبة إلى غفران الله . .
وخيوط أشعته الندية الفضية قد نسجها الهدوء الوديع بردة شفافة تدثر الكون
النائم . . . وعندما بلغ مهوى قلبه ، كان يتوثب بفرحته ويطفر كطائر . . وكان
أمله في غد رحي غنى مع قطام ، قد استهواه كما يستهوى السنا المتوهج فراشة . .
ووجدتها كما توقع ، هناك . . ريقة الصبا ، رفاة الجلال ، ساحرة المعظ ،
ريانة الصدر ، نشوانة الأعطاف . . رقيقة كما ليس لرقعة شفيف . ناعمة كما ليس
لعمومة ملمس . حلوة كما ليس لحلاوة مذاق ! . .

ولم يفتن — ولا كاد — لمن أحاطوا بها من صحاب وآل . ولم يع لفظه
عما عساهم قد استقبلوه به من أحاديث . ولم يعرف أقصر به الزمن أو طال . فما
إلى غيرها التفت خياله ، أو أصفى سمعه ، أو رنت عيناه . .

لكنه أدرك ، في لحظة برقت في أفق حياته كأنها ومضة شهاب ، أنها احتضنت
غرضه الذي جاء فيه . شاع في وجهها القبول ، وتلونت شفقاتها بابتسامة رضا
وها تهمسان له في دلال هو الحفر أو في خفر هو الدلال :

« ما الذي تسمى لي من الصداق ؟ . . »

فأحس برعشة الانتشاء تسرى في جسده ، كأنما قولها كهرباء ! . واحتاج
قلبه كمصفور . .

لكنه استطاع أن يجيب :

« احتسكى ما بدا لك »

قالت بنبرة مغردة :

« ثلاثة آلاف درهم . . . »

« لك ذلك . »

وزادت :

« وقينة . . . »

« وقينة »

« وعبد ... »

« وعبد »

ثم ابتهمت تردف ورنين صوتها إغراء :

« وتقتل على بن أبي طالب ... »

فذر !

رجته هذه للمفاجأة المذهلة رجة عنيفة . عصفت به . أخذته منها مثل غشية
حقي لكأنا الأرض تמיד تحت قدميه . . . كأنما قلبه اقتلع من بين جنبيه وطرحته
به يد جبارة عاتية بعيدا إلى مجاهل الفضاء . . . كأنما كان قوامه كبرج عال أخذ
يترنح في ارتجافة زلزال . . . فلولا أنه استمسك ، وشد عوده ، واسترد بمزمه
الصليب جأشه المسلوب لانهار . .

ولم تكن هذه الدعوة التي دعت به إليها حسناؤه منكورة منه ، أو غريبة عليه ،
إذ قد كانت مرمى سعيه منذ قريب . ولكن الغريب الذي حرك عجيبه ودهشته ،
أن تصدر من الفتاة في لحظة كهذه مني نفسه أن تكون مطلع النور ، وفي مقام
كهذا أولى بأن تشيع أنفاس السلام بأرجائه ، وتنضج الحياة ، ويصدق الهوى ،
وترقص الأحلام ! ..

لكن عادة تيم الرباب بدت حينئذ كأن قد شامت للشقاء العذبة أن تقطر
السم ، وللرقة الحنون أن تخرج القسوة المدمرة ، وللاعب أن يلد البغضاء ،
وللموت أن يكون مهر الزفاف ! ..

ورمقها مليا في توجس وحذر وما يكاد يدرى أرامت أن ترده عن خطبتها
قباديرته بهذا المطلب المعجز المحال ليطوى رغبته في قلبه وتنفض يديها منه . أم هي
رأت أن تعبت به لتريد واهمه . أم أرادت اختبار صدق حبه . . أم قد آثرت أن
تعلمه أنها كشفت عن سره فعرضت به في الحديث ؟ . . .

لقد كان يعرف ، بلا ريب ، أن بعض ذويها خروا صرعى على ثرى
النهر وان ، من عامين ، بسيف على ، أو بسيف أسنانه ، جزاء وفاقا لما اقترفوه
في حق الأمة وحق الإسلام ، من انقسام عصيان ، وتبديل وتأويل ..

الأب والأخ قتلها الإمام بحسامه في المعركة الوحشية عند ضفة النهر .
وربما ألم أيضا وبضعة غيره آخر من خارجة تيم الرباب ، قد أوردتهم نفس
مورد الهلاك . . فكم قد أصاب من زمرة البغي والغلو يومئذ ، وكم قد أنخن
وفرى فيهم حتى أذاقهم وبال أمرهم إلى الثمالة ، ووكلمهم إلى الفناء . . .

ومع هذا فما كان ابن ملجم لينكر — وقطام مثله ومثل سواء من
الناس — أن الحروب أخرى بالآلات تغير القلوب ، لأنها في حقيقة طبيعتها ، منافسة
مشروعة بين أخصام ، ارتضوا بها ، طائعين ، الاحتكام لمنطق السلاح . . كان
يعرف ، وتعرف هي معه دون مرأى ، أن رحى القتال الدوارة تطحن كل من
يدانها ، لا تميز بين عدو وحبيب ، أو بعيد وقريب ، وأن مصارع قوم من هذا
الفريق لا تسكاد توغر على قاتلهم صدور أهلهم في الفريق الآخر . . ففي صفوف
أمير المؤمنين اليوم أولياء خالصاء ، كم جندل لهم في حربه بالبصرة أعزاء . ومن
قريش له إلى هذه اللحظة أتباع أوفياء ، كم أيتهم منهم بقتله الآباء ، وأثكل بقتله
الأبناء وفي ساعات صياله إبان المعارك المتواليات التي خاضها منذ عهد رسول الله . .

لكنه خايل مخايل الجد والصرامة والحقد قد مسحت ، بكف ملوثة غبراء ،
على محيا الفتاة . . . لمح لبؤة ضارية تطل من عينيها الملتمة . . . رأى بناتها
المخضوب ، وهي تومي وتشير ، كأنها مخالب ، وأسنانها المنظومة ، وهي تحاوره ،
كأنها أنياب . . .

وكأنما أحب أن يسير غورها ليستيقن ، فترفق لها في الخطاب . . قال يهمس
بصوت خفيض :

« لك جميع ما سألت . أما قتل . . . »

فقطعت عبارته على الفور :

« وقتل على ... »

« وأنى لى بذلك ... »

فسد معها تفح كالأفعى :

« تلتمس غرته ، فأنت إن قتلته شفيت نفسى ، وهناك العيش معى ... »

وبدا كالمضيق وهو يردد :

« إن قتلته ! »

فماجلته تكمل :

« ... وإن قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا . »

عندئذ ارتد ، فى طرفة عين ، إلى ماضيه الموسوم .. تقص تطهره . نضا عن نفسه ثوب النقاوة المستعار . انتهى طعم الدم ، ولون القدر ، ورائحة الكراهية ، فآب للظلام ...

قال :

« أما والله ما أقدمنى إلى هذا المصر ، وقد كنت هارباً منه لآمن أهله ،

إلا ما سألتنى من قتل على ... »

فالجرح القديم الذى بدا هنيئة ، من ظاهر جلده كأن قد التأم ، عاد

ينغر بقيحه ...

اتفقا على الخطبة .

واتفقا على الخطب ا . . .

وخرج من لديها ، تلك الليلة من رمضان ، وقت السحر ، ليعد العدة لإكمال الهمر ا . . .

وكان راضى النفس ، رضى اليال . يخايله غد شهى بهذه العاجلة ، تنتظره فيه جنة الزواج ، كما يخايله غد أشهى بتلك الآجلة ، تنتظره فيه جنة الرضوان . . . وجنى الجنتين دان ا . . .

وكان قلبه ، مع ذلك ، قاسيا بكلمود ، وهو يبرح دارها ومرتع هواه على موعد معها للقاء عاجل ، يطالها خلالها بخيانة خطواته التي عاهدها أن يسيرها ، خائضا في الدم ، إلى فرحة الزفاف ا . . .

أما عوده فاشتد كالرمح واستقام . وأما عزمه فأرهف كالسيف وشحذ ، إذ انطلق غير متلوم إلى غرضه ، وقد زاد قوة وحدة بإغوائها المثير كما يزيد بماء التقيسية ولهب النار صلابة الفولاذ ا . . .

لا حيرة بعد ولا وحشة ولا هيبة على جادة القداء ، فليس وحده الآن . . لا وقت للقلق ، أو التهمل ، أو التفكير ، فليس عليه أن يتلفت تلفت مضيع ، ليحشى مشية متردد ، ليعمل عمل هباب بعد أن عثر في نفسه على الهمة ، وتبين الطريق ، وأنسى بالرفيق . . .

في ذات أمسينته هذه ، وعدته الفتاة عوننا تقدمه له في شخص رجل من قبيلها مطاوع جليد جسور ، يشد أزره ، ويحمي ظهره ، ويحقق به ما أراد تأمره وأراد حقدها الموتور أن يكون . . .

كان قولها له حين قبلت عرضه وقبل ما سمته كصداق :

« أنا طالبة لك بمض من يساعدك على هذا ويقويك »

وبعثت من فورها إلى صديقة لها من بنى تيم الرباب ، اسمه وردان ، فأرته
الراى ، وأمرته الأمر ، ودفعته إلى اللجة الهاشجة فمام . . .

ومن بضع ليال — قبل طائف الهوى الذى طاف به ، وأوشك فى لحظة
صفاء أن يطهره ويلهمه التوبة — كان قد وقع على امرئ خارجى من « أشجع »
توسم فيه جلدا وحمية ونزوعا مثله إلى المغامرة والعنف ، وتشبعا بالضعينة المذهبية
العمياء ، فقربه واستصفاه . . .

قال له حينذاك ، بعد أن سبر غوره ، يغريه ويعنيه :

« يا شبيب . . . هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ . . . »

فهنا إلى الدعوة المشوقة شبيب ، وأقبل بكل نفسه على عبد الرحمن :

« نعم . وما ذاك ؟ . . . »

« تساعدنى على قتل على . . . »

فانتفض الرجل يهب من مكانه كمن وخزه ، على غرة منه ، من سيف ،
أو لسمته حديدة مخماة . . .

وصاح فى إنكار :

« هبأتك الهبول . . . لقد جئت شيئا إذا . . . »

ثم استرد بعض أنفاسه اللاهثة ، ليسأل وهو مأخوذ قد اتسمت حدقتاه :

« وكيف تقدر — ويحك ! — على ذلك ؟ . . . »

قال المتأمر يهدوء :

« نكمن له فى المسجد الأعظم . . . فإذا خرج لصلاة الفجر ، فتكنا به ،

وأدر كنا ثأرنا ، وشغينا أنفسنا منه . . . »

وما زال به ينفث في روعه ، ويهون عليه حتى اختلبه فاستسلم وأجاب . .
بعد هذا لم يبق إلا القليل . .

ثبت العزم ، وتوطد اليقين ، وبدأت الفتنة تطفر ، واسعة الخطا ،
على الطريق . .

اجتمعت الحيوط كلها في يد قطام . .

نضجت ثمرة الغيلة الشبهة على غصنها الخبيث تنتظر الاجتناء . .

وفي أمسية ليلاء ، غشاها الغيم ، داف ابن ملجم وخدين غدره الأشجى
إلى موعد لقاء جديد . .

كان المكان المسجد الكبير . .

وكان الملتقى قبة فيه بناحية منه ، ضربتها على نفسها فتاة تيم الرباب تحتجب بها
عن الرواد ، وقد قيع بقربها — ككاب الحراسة — صديعتها وردان . .

وأذنت ، فقابلها الرجلان . .

قال لها عبد الرحمن ينيئها الخبر الذي تهفو لسماعه ، وعينه على صاحبه شبيب :

« قد أجمع رأينا على قتل الرجل . »

فامتلاً صدرها بشهيق الراحة . وغمرت وجهها المتقنع بالحسن بسمة تترجم
عما بقلبها من شماتة وبغضاء . .

ثم قدمت إليهما ثالث الثلاثة .

وعندما حزمت وإياها الأمر ، وأحكمت التدبير ، التفتت لابن ملجم ورفيقه
نختم الحديث ورنين فرحتها بنغم الكلمات . . .

قالت وشفاتها تضغطان من الحروف :

« . . . فإذا أردتما ذلك ، فالقياني في هذا الموضع . . »

وانقض الاجتماع . .

وما لهم لا يلتقون هنا ثانية ليوثقوا خيوط تأمرهم ، ويتفقوا على إنفاذ مشيئتهم
الاتفاق النهائي المبرم ، بهذه البقعة المباركة ، بالمسجد الكبير . . .

فتلك القتلة التي يبعونها إن هي إلا — في يقينهم — قرينة إلى الله . .

وأحرى القربات ، وأولاها بالقبول ، ما يتقرب به في أطهر الأماكن ،
وأشرف الأوقات . .

وقد بدى التفكير في الغيلة المنتظرة ، بأقدس أرض في البلدة الحرام . .

وليس أين في الكوفة من بيت الله موضعاً ومن ساعة الصلاة وقتاً
للاغتتيال . .

وها هي أيضاً ليلة القدر المباركة تقترب لتدق الباب . . .

والإلى القلائل الباقيات على الموعد تكاد تنسرب من بين أيديهم ، وتتبدد
كبخار إلا أن يسبقوا الزمن بتوثب الهمة ، وسرعة البديهة ، والمبادرة إلى
الاستطلاع . .

وعلى الأثر نشطوا يعللون فراغ الثواني بالفكر والجهد والمعاينة ، منتشرين
متفرقين ، ومجتمعين متلازمين وإنهم لأشبه شيء بأذرع أخطبوط رهيب ، تمتد
لتحسس ، وتردد لتربص ، وبين انسياها في الامتداد ، وانكماشها في الارتداد ،
ينسج الوحش الضاري لقريسته المطمئنة شرك الهلاك . . .

وحفظت الكوفة لا ريب ، لفترة قصيرة أو طويلة ، آثار أقدام ثلاثهم على
الرمل الرخو ، أو سمعت دقها على الأحجار والصخور ، وهم يجوبون نواحيها
الهائية والبعيدة من هنا إلى هناك ، في حركة لا تكاد تهمد ليعرفوا للواقع ،
ويتبينوا المسالك ، ويكشفوا كشف يقين عن مكامن الخطر والفتن التي
لعلها أن تعترض سيلهم لحظة القرار بعد الانقضاء . .

وتزاحمت ظلالهم ، مراراً عدة ، فوق جدران البلدة الصماء ، وهم يدورون
حول مسجدتها الأعظم ، إبان فترات السكون والظلام التي تحتوى السكون فيما بين

غبشة السحر وطلعة الفجر ، يدرسون مداخله ومخارجه ، ويجوسون خلال ما يؤدي إليه ويتفرع عنه من دروب وطرقات ، ومهم كل لهم أن يقيسوها بمقاييس التوقعات والاحتمالات ، فضلا عن مقاييس المسافة والوقت وذرع الخطوات . .

وشهدهم أيضاً ذلك البيت من بيوت الله ، يقضون به ليالى رمضان ، بطولها وعمقها ، في قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وهم بجوار السدة التي ألف أمير المؤمنين أن يدخل منها إلى موضع القبلة ليؤم الناس . لا يتخفف ثلاثتهم قط في القنوت والتهجد ، ولا يهدأون أو يكلمون ، كأنما ليس يشغلهم من أمور دنياهم شاغل عن الذكر والصلاة . .

ثم أقبلت ساعة الفصل ، وهي تجمع حولها ثوانها ، منطلقة قدما لتطرق الباب . .

أشرقت ليلة القدر من عليائها على العالم تعلن للناس بدء عام جديد في حياة الإسلام . .

عادت دورة الفلك سيرتها الأولى لتحبي البشرية — روحا وعقلا وعاطفة — في ذكرى أخرى لمولد النور . .

فما بال قوم ، يحسبون في المسلمين ، شامت لهم أهواؤهم أن يسوءوا ، بالضلال والجريئة ، وجه هذا الوعد الأقدس الكريم وإنه ليعيد إلى قلوبهم وخواطرم لحظة نزول القرآن الذي هو هدى ورحمة للعالمين . . ما بالهم قد آثروا أن يبخسوه حقه من التقدير والتوقير وإنه للذي انتشل الورى وإياهم من وهدة الغواية إلى مرتقى الهداية ، وأخرجهم أجمعين من عماية الكفر إلى مشرق اليقين . . ما بالهم أبى عليهم العنت والجحود إلا أن يستقبلوه بالإثم والعداوة ، وبالسيف والخنجر ، وبالسّم والدم ، وإنه لأولى بأن يستقبله أبناء البشرية قاطبة ، في كل زمان ومكان ، بالدهن الصافي ، والصدر المفتوح ، والنفس الراضية ، والضمير النقي إذ هو مطلع المحبة والنور والسلام !

غير أن التحيز لا يعيز .

العيون العمياء لا ترى الضياء ..

القلوب الغلف لا تحس نعمة الله ..

والسراب الخداع لا ينبج الماء ..

فلم يكد ذلك النهار الأيمن من رمضان يتضرع خداه بلون الشفق ، ثم تشيع
دكنة الغسق في صفحة أفقه ، ثم يذشق مساؤه عن سحر ليلة القدر ، حتى كانت
زحمة البغى الموتورة قد تهيأت لاستقبال سماحته بالغدر ، ورحمته بالغلظة ، ورفقه
بالعدوان ، فضمت جميعها على خبثها الفتك ، ومضت خلصة — إلا عن أعين
الكراهية الحقاء — لتمد لوحش الانتقام الرابض في مغارة دخيلتها ، عشاءه
الأخير ..

في بضع دقائق كاختلاجة الهدب غدوا على قدم .. حسناء تيم الرباب
خلبتهم روحا وعقلا وجارحة بسحر رقاها للسيطر الأخاذ .. جنوبهم انتفخت
بتخمة الضغينة . خواطرهم اكتحلت بسواد الإغواء . مسامعهم امتلأت بترنيمة
الموت .. وعندما رأت قطام أنها أدركت فيهم الوطر ، وأنهم باتوا في أصابعها
عجينة لينة شككتها كيف شاءت ، وأن لحظة التأثر تقبل بالخطا الحثيثة ، لفت
صدورهم بمصائب من الحرير كثيفة مشدودة كأنها الدروع ، تقيهم انطمس . ودعت
لهم . ثم دفعت بهم ثلاثتهم إلى المسجد الأعظم ، ليكمنوا به مقابل السدة الق لن
يلبث أمير المؤمنين أن يخرج منها ، بعد قليل ، في طريقه إلى القبلة ليؤم الناس
بين يدي الله ..

وقعدوا هنالك هنيئة على جمر من القلق والتحفز ، وإن كادوا ، من جهودهم
وتهاقتهم ، لا يسمع لهم حسيس . كانوا مقوسى الجسوم ، مستليمى الأعضاء ،
خافضى الرؤوس ، وقد أوشكت جباههم أن تلبس الأرض كمن في سجود . ولكن
انحناءهم كان انطواء الأفاعى ، وجلستهم إقامة الشباب ، وعيونهم أعين الصقور ..

وكما يفعل الزاهدون الأتقياء ، لاحوا كأنف تسبح أرواحهم في عالم بعيد
عن هذه الحياة . . . وكما يخدع الحواة رائثهم ، أخفوا سيوفهم ، كالشعابين ، بين
التياب . . . وكما ألفوا وألف الناس ، في كل فج ، أرهفوا السمع إلى وقع الخطا
المستأنية التي توشك أن تجتاز الباب . . .

وزحفت الثواني بالثلاثة بطيئة نحو موعد الصلاة وهم جمود ، في انتظار
راكد ثقيل ، كأنهم حجارة أو أموات لولا أن شفاههم للزمومة كانت ، بين فينة
وفينة ، ترتجف فلا يكاد أحد يدرى أعن رهبة اعترت أصحابها ، أم عن همس
تبادلوه من وراء أسماع الناس ، أم عن تسبيح وتلاوة لبعض آي القرآن كان
الارتجاف . . . وأخذت وفود المصلين تنوالى تباعا على المكان ، فرادى وأفواجا ،
ما شغلهم النوم ، ولا هم الدنيا ، ولا برودة الشتاء عن الحضور تلبية لداعى
السما . وكان المسجد الكبير — والفجر يهل بطلعته الناضرة على الكون —
قد امتلأ إلى حافته ، وانحشرت به الجموع الزاخرة حتى لبدا كأنما توشك أن
تنبعج جدرانها ، وينفجر بنيانه لكثرة من فيه . . .

وهل حين خلسة من الأعين المطرقة إلى الأرض خضوعا لرب البيت ،
والقلوب الدائبة في الخشوع . والخواطر السابحة على ذكر الله ، انقلت عبدالرحمن
من جلسته تلك بجوار رفيقه يتسلل كالأرقم ، وينساب خفيفا في هدوء وتؤدة
إلى موضع بالمسجد هو أدنى قليلا إلى السدة ، وأبعد قليلا عن الزحام ، وأخفى
قليلا ، في تلك الساعة المفعمة بالعودة والقيام على انتباه الجمهور . . .

وكان الأشعث بن قيس هناك . . .

وكان الموضع المختار — أو المحسوب ! — أخرى المواضع بأن يفسح الناس
فيه بعض الإفساح ، لأنه مجاز الإمام للدخول . . .

وكان الرئيس السكندى أولى الزمر المحتشدة بأن يمثل حيث مثل من السدة ،
دون أن يلهم وقوفه الأنظار أو يثير الارتياح ، إذ هو من علية القوم ، وقادة

الرأى ، وردوس الزعماء المعدودين — كنظرة العامة — فى خاصة صحابة أمير المؤمنين . .

ووقف الرجلان هنيهة يتناجيان ومامن امرىء عرف — على وجه التحقيق — آنذاك ، ولا من بعد ، فيما كانت هذه المناجاة . ما من أذن التقطت كلمة أو حرفا من سرها الهامس . وما من عين فطنت إلى بعض خفى الحديث من خلال ماقد عسى نبت عنه القسبات . . فقد التقيا وإنهما لفي مثل خلوة ، وتحدثا وكأنهما ولا سميع . وأبرما ما شاء إبرامه وليس من يدري أكان اجتماعهما ذاك وليد صدفة ، أم بإيعاءة خفية من الأشعث دعت ابن ملجم إلى الملحق به ، أم عن اتفاق بينهما سابق دبرا فيه موعد اللقاء الذى حان الآن . .

كيفما كانت مهادت هذا الالتقاء ، فقد أفلتت من بين شفتى الرئيس الينى ، أثناء الحمس ، عبارة قصيرة كشفت من دوره فى الفتنة المقبلة ما لم يكن ليكشف ، لولا أن سرت كلماتها القليلات ، حتف رغبته ، إلى سامع لم يكن قط فى الحسبان . . كانت العبارة هى مفتاح سرها المغلق ، الذى به رفع الغطاء عن ذلك المجهول الذى جهدا جهدهما كله ليخفياه . . . كانت الوسيلة التى وضعت الحقيقة سافرة مكتملة أمام الأذهان إذ لأمت الظلال بالأضواء ، وضمت الجزئيات إلى الجزئيات . . . كانت القلم الذى وضع بعداده — كما يقال — النقط فوق الحروف . . .

ولا سبيل ولا حيلة ، فى حياة هذه العبارة ، إلى تصيد المعاذير لسيد كندة ، أو إحسان ظننا به ، وإن كان ماضيه الحافل الطويل كفيلا وحده بأن يسد على متلمس الأعذار ، ومحسن الظن ، ويخلق التبرير ألف سبيل وسبيل . . . فتم سامع ، كما ألعنا ، سمع — بملء أذنيه — ما قيل . . وثم راء رأى — بملء عينيه — ما حدث عقب النطق بتلك العبارة ، أو بفعلها ، وكعقبى لها ، فإذا المرئى لا يخالف المقول . . وثمة غيرهما شهود كثيرون وقست الواقعة تحت أبصارهم ، ثم علموا من بعد بعبارة الأشعث ، فإذا هم عندئذ حيال قضية منطقية

محبوكة ، العبارة فيها مقدمة ، والواقعة نتيجة ، والرئيس الكندى ، بقرينة المقدمة ودلالة النتيجة ، شريك في الجرم بالتآمر وبالتدبير ، أو بالتعريض وبالتأثير . . .

الوقت حينذاك يؤذن بحلول موعد الفجر . وجمهور الناس يتأهبون للقيام . والحجاب المسدل على السدة يهتز لينجاب . . فقد بدرت من خلف السدة همسات حديث ، وحركة تشى بوقوع خطأ خفيفة رتيبة وصوت «هادى» يفيض يقينا بنادى : الصلاة الصلاة ! . .

وفي اللحظة التى بدأ فيها الإمام يجتاز الفرجة إلى المسجد ، ويهم أن ينخرط فى المصلين ، هنف الأشعث بن قيس ، بنبرة خاطفة عجيلى ، ينبه صاحب نجواه عبد الرحمن :

« النجاء النجاء بحاجتك . . قد فضحك الصبح . . النجاء النجاء . . »

غير أن العبارة الهامسة لم تنبذ فى الهواء . . خرقت أذن حجر بن عدى وهو عرآنئذ بجوار الرجلين . سقطت نبرتها الملهوفة على قلبه كصاعقة شقته وفجرت فيه الريبة . .

وذعر حجر . وألهمته على الهور بديته فوثب من مكانه إلى ناحية السدة ، وعلى ملاحه شراسة ، وفى عينه لهب ، وبعروقه قداء ، عسى لو ترس بصدرة أن يقهر القدر ، ويمنع الكارثة . ويدراً المصير المخوف . .

لكن وثبة القدر كانت أوسع من وثبته ذرعا ، وأسرع حركة إلى حياة الإمام . . .

من وثبة القدر إلى وثبة حجر ، مرقت لحظة ، كطرفة العين ، عمرها
في الخواطر مديد طويل . . . على حدودها تجعد الزمن ، وحاصرها بسياجه ،
فوقفت حيث كانت بلا حراك . . . مشلولة كبركة من ماء راكد . بعيدة الغور
والمنتهى كالأبد الآبد . . . ثقيلة الوقور كالشعور بالخطيئة . . .

لكنها دهر . . .

لكنها تيه من الضياع أوغلت فيه حيرة الحيارى ، فهاجت بها الوسوس ،
وماجت الظنون . . .

لكنها طائف كابوس ألم بمخيلة حالم ، تمر خلاله أحداث في عقب أحداث ،
وتتوالى أيام وراء أيام ، ويأتى أناس ويذهب أناس وماهى إلا قدر ومضة
شهاب . . .

فهل رجفت الراجفة . . . ؟

أم مادت الأرض . . . ؟

أم انقض البنيان . . . ؟

كانت « برهة » من الهول . . . انهار فيها الهدوء ، وانشق الصبر ، وتهاوت
الدعة ، وانفجرت السكينة . على أرضها انطلق يزحف الهرج . في جوها أخذت
تعصف الرهبة من سمائها مضى يشع العذاب . . . والناس إبانها ، من فرط ذهولهم ،
جسوم بلا عقول ، وأشباح بلا أرواح . . . كأنهم خيالات رجال . كأنهم ظلال ،
تعتد لتنتشر ، وتتقاص لتنعسر ، ثم لا تعلم هى إلى أين ، ولا كيف ، تغضى وتعود . . .

وبدت الأعين ، مرة ، كقطرات زئبق ، ترتجف وترجرج ، أو تلف
وندور ، كأن قد راحت تبحث عن مرثيات . . . وبدت ، مرة ، جامدة ثابتة
الحلاق ، كصورة شاحبة لوتها بالبهتة ريشة رأسام . . . وبدت ، مرة ، جوفاء
سهوانة ، كأنها امتلأت بفراغ . . .

ومن وراء أبشار هذه الجسور المائلة ، وفي دخائلها الخفية ، كانت تتلاقى لتجتمع أو تتلاحم لتضطرع عوالم من العواطف فيها الأشياء وفيها الأضداد . . فالجزع يلتئم بأربع ليحتمل على الصدور . والأمل يحالف الطمأنينة لينسجها طيف بحمة على الشفاه . . والأمن ينازع الخوف . واليأس يهاجم الرجاء . والتفاؤل يغالب التشاؤم . والإحساس المنذر بهود الموت ينزو على الإحساس للبشر بحركة الحياة . . .

وسادت الضجة المسمكان — قلبا وأطرافا — ففرقت أسماع من فيه في موج صاحب من الأصوات ، لا تسكاد تميز فيها بين صباح وهبمة ، صراخ وأنين ، زئير وطين . . . ولا ح كائنا قد تبليلت الألسن ، واعوجت الأشداق ، وتعلمت الأفواه من قلق فتعثر النطق تعثرا ضعضع الحروف ، ومزق الألفاظ ، وليس للقاطع ، وزلزله الخارج ، وشوش الجرس ، وأكل الثبرات ، والتوى بالعبارات والجل اللتواء الذى يذهب بها كل مذهب إلا إلى مقاصد للعانى أو مناهج السياق . .

باللهفة لمثت الأنفاس . وباللهث تقطعت أوصال الأقوال . وبرجع الصدى اختلطت الضوضاء . وعلى مواطىء الأقدام تبعثر الكلام . . والآذان ، فى غمار هذا الضجيج الذى يخنق للسكان ، كانت بين حائرة تائهة ، ووقراء صماء ، لا تستطيع أن تسمى لمن الصيحة الداعية ، أو الكلمة اللابية . أمن هنا نجىء أم من هناك ؟ . لمن الخطا التى تهول مذعورة . آلات أم ذاهب ، قادم أم هارب ، وإلى إقبال أم إلى فرار ؟ . لمن الصرخة المدوية التى ترجع الجدران ، وتشق الأصوات كما تشق الأصدااء . أمن بين أنياب وحش أم من فم فريسة . أمى هتفة هامت أم نفثة مفجوع ؟ . .

كل هذا جرى فى بضعة من لحظة . . فى مثل ومضة برق لمعت من قلب غيمة لتنطفئ قبل أن تءلا العيون . . فى لحظة بلا عمر ، كأنها اختلاجة الهدب . . ولكن طولها — من شقوتها — دهر ، وعرضها — من هولها — عذاب .

حمد الزمن على حدودها يحاصرها فوقفت ، حيث كانت ، بلا حراك ! . .

بدء بدايتها كان نداء أمير المؤمنين المنعم الرتيب إذ انساب من خلف السدة — قبل أن يظهر بحياه — هادئاً كالطمأنينة ، صافياً كاليقين ، يدعو الناس . وقت الفجر ، لإقامة فرض الله :

« الصلاة الصلاة ! . . »

وبدايتها حين خطا الإمام بإحدى قدميه إلى المسجد ليغير صفوف الصلّين ، وقد بدا وجهه لهم من فرجة الباب ، ولسانه وقلبه ما زالَا يعيدان :

« الصلاة الصلاة ! . . »

فما أن حلت البداية حتى حمت النهاية ! . .

في لمحة انقلب الحال . .

كالصاعقة انقض ما كان . .

كأنما النهاية عاجلت البداية ، ونازعتها الوعد والموضع ، فوقما معا ، في نفس الآن . بنفس المكان ! . .

فلم يكذ الإمام بهم بأن يتبع نداءه — البادى — مع أولى خطواته على أرض المسجد — بنداء آخر مثيل ، حتى ارتجت الأسماع ، وذهلت الأذهان ، وارتجفت القلوب . .

سمعه أصحاب أدنى الصفوف منه يستهل النداء . فما عبرتهم الكلمة البادئة إلى الصف التالي حتى سمعوه يردفها بما ليس في حساب . . بما أرفف الأحاسيس ، بما أهاج الأحداش . بما صلب اللامع . بما جمد العيون . .

بخاة سمعوه ينتقل ، بالعبارة الرديفة ، من نداء لنداء . من دعوة لإقامة الصلاة إلى إهابة لشهد الانتباه . من منطق واثق مطمئن إلى منطق مأخوذ مبغوت . من جرس ترنم ورنين إلى جرس تأوه وأنين . .

كان ما لفظه عندئذ يضع كلمات ، قطع سياقها اختلاف التبرات . .

بدأ قوله ، بكل فيه :

« الصلاة — ا — »

ثم مطه بنفثة ألمه :

« ... صلا — اه ... »

ثم ختمه بهتاف جرحه :

« ... لا .. يفوتكم .. الرجل ... »

واقترن كلامه المبعثر ، في ذات اللحظة ، بدقة ضربة ، وزعقة صائح ،
وصرخة ملهوف ، وعريضة ضجيج .. تدافعت جميعها تنسابق ، عبر الصفوف
والزحام ، إلى آذان الجمهور تسابقا حار فيه الإدراك . فنادى أحد من السامعين
أيها كان السابق ، وأيها اللاحق ، وأيها للملابس القرين ..

فمن جواره طارت كقذيفة ، صيحة موتور حاقد ، من خلال أنياب
عبد الرحمن :

« الحسبك لله يا طلي ، لا لك ... »

وكان فيها دوى صاعقة ، وخفيج أفعوان ..

وقيد خطوة منه ، صرخت الالهة قد انشق عنها صدر حجر بن عدى ،
تفجع القلوب :

« قتلته يا أعور ... »

وكان فيها نواح تسكلى يذبح وحبدها في حجرها ، وحسرة فاد حرم شرف
الفداء ..

وبين هذه الصيحة وتلك ، أو سمعها ، أو قبلها ، سمعت أصوات اختلط بها
مثل صلصلة معدن ، وطرقه باب ، وخبطة فأس في أرض صلبة ، وفرقة بنان ..
فقد سلت من أعمادها سيوف ، وطاشت ضربة حسام لتقع في عقدة البناء .
وأصابت خبطة ما قد قدر لها أن تصيب . وتسكست عظام ..

روى الحادث ، بدءا ونهاية ، شاهد عاينه ، وراه رأى العين ، هو عبد الله
ابن محمد الأزدي . . فقال :

« إني لأصلى تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر ، كانوا
يصلون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره ، إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبا
من السدة ، قياما وقعودا ، ركوعا وسجودا ما يسأمون . . إذ خرج عليهم علي
ابن أبي طالب الفجر ، فأقبل ينادي : الصلاة الصلاة ! فرأيت بريق السيف .
وسمعت قائلا يقول : الحكم لله يا علي ، لا لك ! . ثم رأيت بريق سيف آخر .
وسمعت صوت علي يقول : لا يفوتكم الرجل . . »

فأما بريق السيف الأول فضربة شبيب ، أخطأت ووقعت في طاق الباب .
وأما بريق السيف الثاني فضربة ابن ملجم ، أصابت ووقعت حيث شاء أن
تصيب

وعندئذ انتكثت الصفوف .

كما يتفجر بركان ثائر ، تدفقت جموع المسلمين كالجم نحو السدة ، حيث كان
الإمام ، وإنهم لينقبضون بالدهول ، وينتشرون بالدعر ، ويفوصون في الجزع ،
ويقتضون بخشية المغبة ، ضاريين إلى هدفهم بالساق والذراع كالذي أطاحت به
عاصفة رعناء من حطام سفينة التقمها القاع ، فراح يسبح علي غير هدى إلى شاطئ
مجهول ، في ظلام بحر لجى من القلق والضياح ، يفشاه موج ، من فوقه موج ،
من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذ أخرج يده لا يكاد يراها ، فلما
يهتدى إلى بر آمن ، ولا إلى بصيص نور . .

طائف كابوس . . .

المهول يسود . يحاصر المسكان ، ويطبق على النفوس . .

القلوب بلغت الحناجر . .

اللهوات ملتصقة بالخلق . .

الكلام شهقات . .

الأعين اعتلت قم الرءوس . . .

وما من شيء ، إلى كل هذا ، يسمه أن يترجم عن الشاعر المضطربة مثل
دمعة تنحبس ، ودمعة تنبجس ، واحدة يسكها أن تفيض أمل يوهمها تلتطف
القضاء ، وثانية يرسلها فلا تفيض طغيان إحساسها ينزوله . .

ودهمت الناس ، في هذا المعترك الحافل باصطراع المواطف ، واختيال
الأصوات ، واصطخاب الضجيج ، صرخة أخرى هلوع ، أطلقها حجير بن عدي ،
كسهم مسموم ، وكيانه كله يفتسه العذاب :

« قتل أمير المؤمنين . . . »

فجمدت أنفاس الناس .

لكنه لم يكن قد مات . .

الذبالة ما برحت تخفق بومضات ضياء . .

الزيت لم يحف في السراج .

قالدين خفوا ، على صرخة حجر ، إلى الإمام ، رأوا جسده ما زال زاخرا
بنبض الحياة . . جبروت قوته البدنية لاح كأنما استطاع أن يعبر به الضربة المصمية
بسلام . عتو قدرته على الاحتمال بدا كأنما ابتلع الآلام . جلده سخر بالحنّة . ولولا
الدم الذي شهدهه يقطر من رأسه على وجهه ، على لحيته ، على صدره ، على ثوبه ،
لما خامرهم شك في أنه معافي ، ولحالوه على نحو ما طالما ألفوه . .

كان ثابت الجنان ، ركين البناء ، راسخ القدم ، مهيب الوقفة والهيئة ، وقد
استند بظهره إلى الجدار ، وواجه بنظرته الجمهور . . قوامه مشدود . عيناه
تلمان . بحياه منبسط القسيمات ، شفتاه تلوتتا ببسمة هادئة لعله آثر أن يرسمها
عسى أن تخفف من جزع الناس . .

وامتدت يمناه في هوادة أدنى إلى مكينة الطمأنينة ، تتعسس الجرح القاتر
الذي شق رأسه إلى الجبين ، ثم تنعدر منسابة على صفحة وجهه ، لتقر بلحيته التي
أغرقها الدماء . .

ولم يقل كلمة تنم عن قلق . ولا أوماً بإعادة تشي بضيق . . إنما لانت ملاحظه ،
وظهرت عليها علائم الارتياح وهدوء البال ، وهو يقرب عن كفيه من عينيه ،
يحدق فيها بإمعان نظر وتأمل ، وقد زوى ما بين حاجبيه كمن يحاول أن يطالع
— فيما صيفها من خطوط وبقع حمراء ، بضع كلمات سطرها القدر على راحتها
المنضوبة بعداد دمه المسفوك . .

وتهللت أساريره ، وقد برقت في هذه الذكرى — من خلف السنين —
كشعاع :

« مستغرب على هذه . . فتخضب منها هذه . . »

صدق رسول الله . ﷺ

وماله لا يطيب نفسا ، ولا تترقق الفرحه في محياه ، وقد شارف ما كان
يتمناه ؟ .

في الليلة الماضية ، كأنما هفت روحه إلى محمد ، قرآه في المنام . .
يقول الإمام ، شاكياله :

« يا رسول . . ماذا لقيت من أمتك من الأود والدد . . »

فيقول الرسول :

« ادع عليهم . . »

فيتجه إلى ربه :

« اللهم أبدلني بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بي من هو شر مني . . »

ثم تحمل به ، بعد ساعات قليلات ، هذه الضربة الفاتكة ، التي أوشكت أن
تخرج الموت من الحياة . . فهو يرى فيها جسره للمبور إلى من هو خير من كل
أولئك الذين شاقوه . . هلا تكون بشيره بقاء رسول الله . .

غير أن تلاقى محياه كان كالوهج الذي يكشف ما حوله فييديه باهتا تنتشر
على جوانبه ، ومن ورائه ، الظلال . . فقل وجوه الذين أحاطوا به تراوت

مستعاب قاعة من الحزن والألم ، ومن الندم والحسرة ، ومن الشرود والوجوم . .
 بوجه ابن أبي الساج ، بدا مثل الشعور بالإثم ، إلى جوار بهمة مبهوت . .
 فهو الذي آذن الإمام ، من قليل ، بصلاة الفجر ، وخف يتبع خطواته إلى المسجد
 الكبير . . فلو أنه لم يكن آذنه . . . لو أنه لم يكن دعاه للصلاة . . . إذن لعله
 كان لا يخرج للناس خرجته هذه ، ولا حرج عليه لأنه ، كما يعلمون ، مريض
 منذ أيام . . لعله كان يتأخر عن موعد الفجر الهامى ، ويتقدم لإمامة الصالحين
 سواء . .

بوجه حجر بن عدى امتزج الغضب بالألم ، والوجوم بالحسرة . . إنه لما غضب
 على نفسه ، ناغم منها ، بجرعها مرارة اليوم كما جرعته ، وحرعت الأمة ، غصص
 الآلام . . فما لقدميه خذلناه ، فى اللحظة الفاصلة ، بل خائتاه . . ما لو ثبتته
 لم تقطع على القاتل الزنيم الطريق ! . . فلو أنه سبق سرعته ! . . لو أنه طار وإن
 لم يكن من ذوات الجناح . . . إذن لترس عن الإمام ، فتلقي الضربة بيمينه . .
 برأسه . . ب صدره . . بكل قلبه الممزق المفجوع ! .

بوجه عبد الله بن محمد الأزدي ، سرح الشرود والضياح . . كيف نشطت
 عينه لترى وتسجل ، وشلت يده أن تمسح السكارثة . . كيف ركن إلى المشاهدة
 وذهل عن العمل ! . . فلو أنه هب من مسرح رؤيته بجوار السدة ! . . لو أنه
 تحرك عند اندفاع عبد الرحمن ! . . إذن فلربما كان يعرقل المجرم ، أو يطيش
 ضربته ، أو يخفف وقعها على هامة الإمام فيتأجل القضاء بمض حين ! . .

بوجه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب غيظ محسور ، مغلول اليد ، مغلول
 الحد ، كم كان يود لو تركه يتفجر عسى أن يبرد ناره ، ويشفى غليله ! . . لكنه
 -- امتثالاً لأمر رسول الله -- لم يكن يملك إلا كظمه ، وإلا معاناة ضغطه
 القاسى ، بوقره الحائق الثقيل ، على صدره ، وعلى فكره ، وعلى كل حاسة
 وجارحة فيه . . فلو أنه لم يكبح نفسه ! . . لو أنه مزق ابن ملجم بنفس سيفه
 الذى انتزع منه ! . . لو أنه نهش لحمه ، ولاك جلده ، ومضغ عظامه ! . . لو أنه

مثل به ، وإن نهى — بأدب محمد — عن اللثة ولو بكاب عقور . . إذن لكان هذا أشقى له ، وأذهب لبعض غيظه ، وأدنى إلى تفريج شيء من همه من اكتفائه بالانقضاء على الوحش ، وشل حركته ، وإسلام أمره إلى عدالة القانون . . .
 بوجه الحسن بن علي ظل حزن مكتوم قد عاث بقلبه عيث إعصار جأش لم يدع منه غير فتات ، ثم عيث بملاحه ، فقير لونه ، وغور عيذه ، وحفر أخايد عميقه في جبينه وخديه قفرت بعمره إلى وهن الشيخوخة وإنه بمداني عنقوان الرجولة . .
 كان يحس فداحة الألم المضي الذي يكابده أبوه . ويشفق عليه من هذا الجلد الذي اصطلمه ، وقهر نفسه على احتماله ، ليخفف عن الناس وقع بلواه . ويدرك أن خطبه ، وخطب أمته فيه ، ليس بما تستطيع أن تصفه الشاعر ، أو يرسمه التعبير ، أو تنسج له رحابة العزاء . . قلبه يحدثه أن التفاؤل قد هاض ، والأمل قد تماوى ، وطلائع الموت قد أخذت تضج ضجيجها ، بكل أيدها وقوتها ، لتسحق الحياة ، وإن هي إلا مثل خفقة ثم يخبو السراج . . .

لكنه غالب دمه الذي كان حائرا حينذاك في مقلتيه ، ليتسم في وجه أبيه . . ثم دنا منه محتضنه بذراعين مشى فيهما ، مع الحنان ، الارتجاف وهو بهم أن يعينه ليبرح مسرح المأساة . فما كاد يفعل حتى أحس بالإمام يدفعه قليلا بإحدى يديه ، ويشير بالأخرى ناحية ، وقد بدا في عينه بريق إنسكار .

وتلفت الحسن ينظر هناك .

على منأى خطوات ، بجانب من المسجد غرق في الضجيج ، شهد جموعا من المصلين يحيطون بابن ملجم ، وقد هاجهم الغضب والأسى ، ينزون عليه بما في أيديهم ، ويركلونه إن وسعهم أن يحركوا الأقدام ، وينهشون لحمه بأنيابهم كالسباع . . وسمع أصواتهم الهادرة تعتوره . بما تستطيع السنتهم أن تقذفه من حمم الإقذاع . .

« يا عدو الله . . . »

« قتلت خير الناس . . . »

« أهلك أمة محمد ! .. »

والجرم بينهم صامت لا ينبس بكلمة به جامد لا يدفع عن نفسه ، كأنما
فقد الشعور . كأنما تحول لثقال . ولا غرابة إن هو غاب عنهم بوعيه لأنه عندئذ
يتبع خطوات رفيقه إلى دمشق والفسطاط ، لينعم معهما بنصر كنصره إذ قتلوا
رموس الضلال ! .. ولا غرابة أيضا لو احتمل هذا البلاء الذي يصبه عليه الناس ،
لأنه كان أخرى بأن يتلذذ بالتعذيب كما يتلذذ شهيد ! ..

وخف بضعة من رجال الإمام إلى تلبية إشارته ، فألقوا الجاني من
مخبط الجمهور ..

وطى الأثر تحامل على طى بقية عافيته ، وانطلق يجتاز السدة عائدا إلى غرفته
يحف به نقر من الآل والصحاب . وعندما نوسد فراشه ، تملقت أبصارهم بوجهه
وقفزت آذانهم إلى شفتيه ..

وسمعوا أنفاسه تتواتر في رتابة وانتظام ..

ورأوا ملامحه قد كساها الهدوء . وعينيه تجولان فيهم هنية بنظرات ملؤها
سكينة ورضا ، تشيع في قلوبهم طمأنينة ثم تجاوزهم إلى ما وراءهم ، وهي
تتلون بالحنين ..

فلملمهم عندئذ أحسوا بشيء من الأمن . لهمم تطلعوا إلى غد يجيئه بالبرء ،
ويجيئهم بما يقشع العمة . لهمم توسموا في الصباح الذي يهم أن يسفر ، بشير
رجاء ..

.. فأما الحسن فقد أنس غير ما أنسوا في تلك النظرة الساجية المترحلة عبر
النفر المحتشد حول الفراش . عبر الجرح والألم والأحزان . عبر دنياه ودنيا
الناس .. ليوشك أن يقينها تسبح إلى عالم غير منظور . تطير لهوى الأشواق .
تهفو إلى لقاء رسول الله .. وما كان الفتى ، بتصوره هذا ، راجعا بظن ،
ولا أسيرا لوهم . ولا سادرا في خيال .. بل كان يستروح ذكرى مائلة ، ويستعيد

النسبة عن الدين بقر العلوم
لكتبة الروضة الحيدرية

كلمات ، ويستثنى ماسمع مغزاه . فقد روى له أبوه ، قبيل الصلاة ، قصة المنام ..
.. وأما النفر الملتفون بالجريح فقد أفلت منهم الرجاء الذى تلقفوه ، وتمزق
الأمّن الذى خالجهم ، وأناخ عليهم الروح الذى حسبوه ، منذ قليل ، قد انزاح
حين رأوا أنير بن عمرو بن هانىء الطبيب ، يميل فيهمس بأذن الإمام بعد أن
خُص جرحه :

« اعهدي يا أمير المؤمنين . »

وحلق الكد فى جو الحجرة ، مع اللهفة ، والإحساس بالضيق .. ولكن
الإمام بدد الوجوم الثقيل ، إذ دعا بالقاتل ، فادخلوه ..
فقد امتلأ المكان بالهمسات .

ثم سرى صوت طى ، رصين النبرة ، واضح الجرس يقول :
« النفس بالنفس . إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى وإن سلمت رأيت فيه رأي . »
فكأنما علكت نشوة النصر القاتل ، فقال فى شماتة وخيلاء ، وهو يعنى
سيفه بالمقال :

« لقد اشتريته بألف ، وصمته بألف ، فإن خانى أبعد الله . . . »

وكرر اللفظ . وتشابكت عبارات . وسالت عبارات ..

ولكن الإمام حسم النزاع ..

تفريج الآثم .

في سيرة أمير الحج الناس .

وأسلم قلبه إلى الصكينة وهدوء البال ، ينفرد بأشواقه . فى انتظار لحظة
المقضاء .

فلقد عهد عهده . وأدى ما عليه . وجالد الدنيا لينقى الأنفس ، وينشر
النور .. وإن هو إلا يوم وبعض يوم ثم يكون لقاءه بأحب الخلق ، رسول الله .

وعندما مالوا بجثمانه يوسدونه التراب ، كانوا يملون عندئذ برجل يعز ، إلى أبد
الدهر ، مثله في الرجال .. بربيب محمد ، وصاحب نجواه .. بحامل مشعل هداه .
بقرين ابنته سيدة النساء الزهراء ..

وعندما سرى نبأ موته في الناس ، لم يرق قط باكيا كذلك اليوم ، الذي دهم
البشرية كلها بداهمة قاصمة ، أصمت التبل والشرف والمثل الرفيعة التي تعز
الإنسان ، وأحرقت الأمة بنار لا يطفىء لها بكاء ..

وعندما بلغ الخبر مدينة الرسول ، وزلزلت به الأنفس ، أدارت أم المؤمنين
عائشة فيها حولها عينا غائرة ، ثم نفضت بلمهجة كأها أنين :

« وألفت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر ! »

ومسحت دمعة تحدرت على خدها وهي تقول :

« رحم الله أبا حسن ! .. »

فقد مسح الموت الحصومة ، وحسم اختلاف الأحياء ..

« ثم بحمد الله »

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

٣٩٢٣٢



مطبعة الحريرية - بيروت
تلفون: ٢٢٠٤٤٠

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة ٤٠ جلد.